مير بصري

أعلام الأدب في العراق الحديث

الجُزْءُ الأوّلُ

تقديم
د. جليل العطيّة

دار الحكمة

أعلام الأدب
في العراق الحديث
١

ISBN 1 - 898 209 - 456
الطبعة الأولى ١٤١٥ هـ - ١٩٩٤ م.

DAR AL-HIKMA
Publishing and Distribution



88 Chalton Street London NW1 IHJ. Tel: 071 - 3834037 / Fax: 071 - 3830116

بسم الله الرحمن الرحيم

مير بصري رائد «فن التراجم»
الأدب العربي الحديث

بقلم: د. جليل العطية

-١-

نشأ فنا السير والتراجم وترعرعا في أحضان علـم التاريخ، وتأثرا بمفهوم الناس عنه على مرّ العصور، فكانا تسجيلاً للأعمال والأحداث.

وعندمـا تغيّر مفهوم التاريخ، وأصبحت لـه فلسفة خاصة، أنكـر بعض الباحثين المحدثين أن تكون السيرة أو الترجمة جزءاً من التاريخ، وبين هؤلاء كولنجـوود وتوينبي فهما يُخرجان من دائرة التـاريخ ما يتصل بالسير الـذاتية كاعترافـات القديس أوغسطين وروسو أو حياة الملكة فكتوريا لستراتشي.

يقول توينبي: إن هذه الكتب تشتبك بالتاريخ لأنها تدور حول أناس لهم قيمتهم في الحياة الاجتماعيـة. وبعد أن يبين خصائص بعضهم يقـول: إذا علقنا التـاريخ بالسيرة وقعنا في الخطأ من حيث الطريقة.

على أننا إذا استبعـدنا هذه النظرة الحديثـة، وجدنا أن فن التراجم من ناحيـة عملية هو تـاريخ في نشأته وغايته، ويمكـن أن نقرر أنه: كلما كانت الترجمة تعـرض للفرد في نطاق المجتمع، وتعرض أعماله متصلة بالأحداث العامة أو متأثرة بها، فإن الترجمة تحقق هدفاً تاريخياً.

وكلما كانت الترجمة تفصل المترجم عن مجتمعه ووطنه، وتجعله الهدف الأسمى وتنظر إلى كل ما يصدر عنه نظرة مستقلة، فإن صلتها بالتاريخ تكون هشة بل مبتسرة.

ولقد وعـى ابن الجوزي ـ المؤرخ البغـدادي الشهير ـ أن التاريـخ عبارة عن مجمـوعة متنوعـة من السير والتراجم عندما قـال في مقدمة كتـابه (شذور العقـود): إن التواريخ وذكـر السير راحـة للقلب وجـلاء للهم وتنبيـه للعقل فإنـه.. إن شَرحتْ سيرة حـازم علّمت حسن التدبير، وإن قَصّتْ قصة مفرط خوّفت من إهمال الحزم.

وفي القرون الماضية ركد فن التراجم وانكفأ، شأن ألوان الفنون والعلوم الأخرى، وفي بواكير القرن العشرين سار الكتّاب العرب باتجاهات مقاربة لما في الغرب، فتأثروا بالدراسات النقدية للنصوص، والنظريات النفسية، وأصبح بعضها أقرب إلى المظهر العلمي منه إلى المظهر الأدبي، وقلّت الرغبة في تاريخ الحياة نفسها.

ومن بين المحاولات ذات الطابع الأدبي في السيرة الحديثة يمكن الإشارة إلى (حياة الرافعي) للعريان، (وعبقريات العقاد، وجبران) لميخائيل نعيمة. وأرّخ زيدان وأحمد حسن الزيات والإسكندري وحنا فاخوري للأدب العربي في عصوره المختلفة، وقدّم خير الدين الزركلي كتابه «الأعلام» الذي عني فيه بترجمة المئات من أعلام العرب والمسلمين والمستعربين، غير أن ترجمته ـ على دقتها ـ كانت موجزة، لأنه أراد استيعاب أكبر قدر من الشخصيات في كتابه.

وفي العراق عني عدد قليل من الأدباء والمؤرخين بفن التراجم لمع منهم: رفائيل بطي (ـ ١٩٥٦م) وجعفر الخليلي (ـ ١٩٨٥م) ومير بصري.

والمؤسف أن الجهود المضنية التي بذلها بطي بقيت محدودة الفائدة، لأن التراجم المهمة التي كتبها بقيت مطوية في الصحف والمجلات ولم تجمع في كتب. أما الخليلي فإن كتابه (هكذا عرفتهم) بأجزائه الستة المطبوعة، يعدّ مرجعاً لا يستغني عنه كل مَن يرغب رصد الحركة الأدبية والثقافية خلال القرن الماضي، غير أن ما يؤخذ عليه ـ رحمه الله ـ أنه رسم لوحات انطباعية لمن عرفهم كأنه كتبها من الذاكرة، لأن معظمها تفتقد إلى التوثيق والتواريخ وما أشبه.

■٢■

ولد مير شاؤل بصري في بغداد في التاسع عشر من أيلول ١٩١١ في أسرة عراقية عريقة عرفت باسم «عوبديا»، وقد ذكر الرحالة بنيامين أنه التقى عمّ أبيه الذي كان يشغل منصب رئيس المحكمة الشرعية في بغداد سنة ١٨٤٨م. درس مير في مدرستي التعاون والأليانس، ولازم الأب أنستاس ماري الكرملي والدكتور مصطفى جواد حيث أخذ عنهما اللغة العربية، كما درس تاريخ العراق على عباس العزاوي والعروض على الشاعر محمود الملاح.

وعمل في الوظائف العامة والخاصة سنوات عديدة (ما بين ٢٨ ـ ١٩٥٢) أمضى شطراً منها في وزارة الخارجية. وقد أهلته كفاءته لتمثيل العراق في عدة مؤتمرات عقدت في نيويورك وباريس وغيرها. وبعد سنة ١٩٥٣ انصرف إلى الأعمال الحرة.

كان أثره الأدبي الأول شعراً منثوراً عنوانه الحرية (بغداد ١٩٢٨) على طريقة جبران والريحاني، وعمل في أوقات مختلفة محرراً اقتصادياً وباحثاً في الصحف والمؤسسات الاقتصادية العراقية.

أما المؤلفات التي أتيح له نشرها حتى الآن فهي :

مباحث في الاقتصاد العراقي (١٩٤٨)، رجال وظلال (١٩٥٥)، رسالة الأديب العربي (١٩٦٩)، أعلام اليقظة الفكرية في العراق الحديث (١٩٧١)، أعلام اليهود في العراق الحديث (١٩٨٣)، أعلام السياسة في العراق الحديث (١٩٨٧)، أعلام الكرد (١٩٩١)، أغاني الحب والخلود (١٩٩١) وأنجز مؤلفات أخرى تنتظر النشر.

بقي مير بصري في بغداد يمارس نشاطه الأدبي والاقتصادي والروحي وبعد أن دخل العراق في بحر الانقلابات والاضطرابات، تعرض إلى الاعتقال والأذى (١٩٦٩) فاضطر إلى ترك وطنه (١٩٧٤). حيث استقر في لندن مواصلاً نشاطه الأدبي والاجتماعي بكل همة وتجرد وإخلاص وظل يحمل لوطنه في حنايا ضلوعه وخفقات قلبه، فمما قاله في بغداد:

على الأوطــــــان في جبـل وسهـل ... ســلام الله، عطـــر مـن ســلام
بــلادي حبهـــا مـــددي وديني ... تغلغـل في ا لجوارح والعظـــــام
هـي الأم التـي خلقـت كيـــاني ... وجـادت بـالحشـاشـة والقـوام
وأرهفـت المشـــاعـــر في حنـــان ... وأوقـــدت القـــريحة بـــالضرام
ولقنّـت المكـــارم والسجـــايـــا ... وأوحـت بـــالخواطـــر والكـــلام
ونـــزهـت الفـــؤاد مـن الـــدنـــايـــا ... ورفعـــت الضمير عـــن الملام
رضعـت لبـــانها طفـــــلاً صغيراً ... وذقـت نعيمهـــا منـــذ الفطـــام
عببـت مـن الهـواء الطلـق صفـــواً ... ومـن مـــاء ألـــذّ مـن المدام
وكحلـت العيـــون بسحـــر حسـن ... تـــلألأ في الضيـــاء وفي الظـــلام
فيـــا للحسـن من بغـــداد أضفـى ... على الـــوديـــان وشيـــاً والاكـــام
مغـــانٍ قـــد صفـــا فيهـــا شرابي ... وراق العيـش في عـــزّ المقـــام

تتـوزع اهتمامات مير بصري بين الشعـر والقصة والـرواية وكتابـة التراجم والملاحم والترجمة والبحـوث الاقتصـادية. وقـارىء آثـاره التي أتيح لها النشر يقـرّ لـه بـالجودة والمستوى الرفيع في كل الفنون المختلفة التي مارسها باعتراف كبار النقاد.

يعتقد بصري أن الشعر والأدب يجب أن يـرميا إلى مثل أعلى وهو التفـاهم البشري والتعاون ونشر الأخوّة والمحبة والسلام.

- ٢ -

ويبـدو لي أنـه وجد أن مـؤرخي العـراق قـد قصّروا في فن التراجم، ولعلـه لمس من صديقيـه الكرملي ومصطفى جواد التشجيع في الانصراف إلى هــذا الفن، الذي لا يجرؤ على خوضه إلاّ مَن أحاط بعدة علوم وفنون في آن واحد!

فكان أن صرف أكثر من خمسة عقود من عمـره وهو يدون ويـوثق ويسجل تراجم

الشخصيـات التي سـاهمت في بنـاء نهضـة العـراق الحديث على مختلف مـذاهبهم ومشاربهم فكان كتابه الحالي (أعلام الأدب في العراق الحديث) ثمرة مجهود مضنٍ .

يشمل الكتاب على تـراجم نحو مائتين وخمسين أديبـاً وشاعراً ممّن كـان لهم الأثر في بناء كيان العـراق الأدبي والثقافي والفكري خلال أكثر من قرن . ويمكن اعتبـار الشاعر عبد الغفار الأخـرس المتوفى سنة ١٨٧٥م أقدمهم وفاة ، وبينهم أدباء وشعـراء لا يزالون على قيد الحياة ـ أمدّ الله في أعمارهم .

قدم بصري لكتابه الضخم الذي شرفني بكتابة هذه المقدمة له ، بتوطئة موجزة تناول فيها الأدب العـربي في عصور الانحطاط والنهضة والعهـد الانتقالي وختمها بـالعبارات الآتية :

أرجو أن تكون الصفحات التالية سجـلاً لتعريف الشعراء والأدباء وبيان أثرهم في النهضة الحديثة وذلك قصارى الجهد وغاية القصد والمرام .

ولعمـري أنه تـواضع جمّ من قبلـه ، فالعمل الـذي نهض بـه جبار، لا يقـوى على تقديمه بهذا الشكل المتقن ، الموثق فرد!

على أن غَيرته على الأدب والأدبـاء ذللت له الصعوبات التي واجههـا في تأليف هذا السفر الفذّ .

ينفرد مير بصري عن كل مؤرخي التراجم بنقاء العبارة ، ورشاقة الأسلوب والبعد عن التعمل والتصنع ، يحيط بتاريخ العراق والعـرب إحاطة واسعة ، وقد رزق ذاكـرة قوية ، لا ينسى ما يقيّد ولا ما لا يقيّد وغلب عليه التواضع والحياد .

ومما ينفرد به إجـادته اللغة الفرنسية واطلاعه الـواسع على الأدب الفرنسي ، وقد أفاد القارىء بمعلـومات غـزيرة عندمـا عقد مقارنـات واقتبس أشياء لها صلـة بالمترجم لهم وطائفة من شعراء فرنسة وأدبائها .

ولا أريد هنـا أن أكشف كل مـزايا هذا الكتـاب الموسوعي ، فيكفـي أن ألمّح إلى أنه حفظ لنـا مختـارات شعـريـة مجهولـة لشعـراء لم يسعفهم الحظ بنشر نتـاجـاتهم خـلال حياتهم ، كما أن معرفته بعدد منهم مكنتـه من الاطلاع على آرائهم وأفكارهـم ، وإذا كان الكتاب قـد اشتمل على تراجم المشهـورين المعروفين ، فإن المؤلف قـدم لهم نماذج أدبية غير معروفة .

ختامـاً أبتهل إلى البـاري عزت قدرتـه أن يمدّ في عمـر الأستاذ مير بصري ليـواصل إتحاف المكتبة العربية بنتاجاته الأدبية والتاريخية . ولي الثقة بأن (أعلام الأدب في العراق الحديث) سيأخذ مكانته اللائقة في الخزانة العربية كواحد من أهم مراجع دراسة الأدب العربي الحديث .

المحتــويات

عصر الانحطاط الأخير
والعهد الانتقالي

عصر النهضة

الشعر

الشعر العامّي

عصر النهضة

النثر

الجزء الثاني

رجال الفقه والدين

الصحافة

الموجة الحديثة

شعر

الموجة الحديثة

نثر، تأريخ، قصص

الشعـــر الجديـد

الشعـــر الحـرّ

شعراء وأدباء

سجّلت تراجم الشعراء والأدباء الآتي ذكرهم في كتابي «أعلام الوطنية والقومية العربية» المعدّ للطبع :

(١) عبد المطّلب الحلي

(٢) خيري الهنداوي

(٣) محمد حسين آل كاشف الغطاء

(٤) محمد باقر الشبيبي

(٥) محمد مهدي البصير

(٦) عبد الرحمٰن البناء

(٧) محمد باقر الحلي

(٨) حمد فهمي المدرس

(٩) هبة الدين الشهرستاني

(١٠) أحمد عزت الأعظمي

(١١) ساطع الحصري

(١٢) محمد كاظم الخراساني

(١٣) محمد كاظم اليزدي

(١٤) محمد تقي الشيرازي

(١٥) فتح الله الأصفهاني

(١٦) محمد حسين النائيني

(١٧) مهدي الخالصي

(١٨) محمد الخالصي

(١٩) عبد الغفور البدري

(٢٠) إبراهيم صالح شكر

(٢١) علي الخطيب

(٢٢) عيسى عبد القادر

(٢٣) عبد الرحمٰن البزّاز.

سأصرف وجهي عن بلاد غدا بها   لساني معقولاً وقلبيَ مقفلا
وإنّ صريح الحزم والرأي لامرىءٍ   إذا بلغته الشمس أن يتحوّلا

أبو تمام
(٨٠٤-٨٤٦م)

كن ابن مَن شئت واكتسب أدباً   يغنيك محموده عن النّسب
إنّ الفتى مَن يقول: ها أنذا   ليس الفتى مَن يقول: كان أبي

أبو العتاهية
(٧٤٨-٨٢٦م)

إذا ورّث الجهّال أبناءهم غنى   وجاهاً فما أشقى بني الحكماء!

محمد حفني ناصف
(١٨٥٧-١٩١٩م)

المصادر والمظانّ

هيّأت لي معلومات وافية من الشعراء والأدباء الـذين عرفتهم ومن أصدقاء الراحلين والمتصلين بهم. ووجدت في الجرائد والمجـلات العراقية والعـربية خـلال نصف قرن أو يزيد أخباراً كثيرة حرية بالتدوين. وفي الكتاب أشعار لم تنشر أو نشرت في الصحف ولم تجمع في ديوان فآثرت إثباتها تخليداً لأصحابها.

وفيما يلي جدول ببعض المراجع والمظان التي قد يرغب المتتبع في الرجوع إليها زيادة في الفائدة:

(١) مير بصري: أعلام اليقظة الفكرية في العراق الحديث (بغداد ١٩٧١).

(٢) إبراهيم الواعظ: الروض الأزهر (١٩٤٨).

(٣) محمـد مهـدي البصير: نهضـة العراق الأدبيـة في القـرن التـاسع عشر (بغـداد ١٩٤٦).

(٤) خير الدين الزركلي: الأعلام (الطبعة الثالثة).

(٥) محمد صالح السهروردي: لبّ الألباب (جزآن، بغداد ١٩٣٣).

(٦) عبد الرزاق الحسني: تأريخ الصحافة العراقية (١٩٣٥).

(٧) عبـاس العزاوي: تأريخ الأدب العـربي في العـراق (بغداد، جـزءان ١٩٦١ ـ ٦٢).

(٨) السيد حيدر الحسيني الحلي: العقد المفصل (جزآن).

(٩) محمد بهجت الأثري: أعلام العراق (١٩٢٧).

(١٠) رفائيل بطي: الأدب العصري في العراق العربي (جزآ ن، القاهرة ١٩٢٣).

(١١) رفائيل بطي: الصحافة في العراق (١٩٥٥).

(١٢) مصطفى علي: أدب الرصافي (١٩٤٧).

(١٣) مصطفى علي: الرصافي (الجزء الأول ١٩٤٨).

(١٤) مصطفى علي: محاضرات عن معروف الرصافي (١٩٥٤).

(١٥) جورج جبّوري : الكرملي الخالد (١٩٤٧) .

(١٦) كوركيس عواد : معجم المؤلفين العراقيين (٣ أجزاء ، بغداد ١٩٦٩) .

(١٧) كوركيس عواد : الأب أنستاس ماري الكرملي (١٩٦٦) .

(١٨) مصطفى جواد : المباحث اللغوية في العراق (١٩٥٥) .

(١٩) الدليل العراقي الرسمي لسنة ١٩٣٦ .

(٢٠) دليل الجمهورية العراقية لسنة ١٩٦٠ .

(٢١) السيد جعفر الحلي آل كمال الدين : سحر بابل وسجع البلابل (صيدا ١٩١٣) .

(٢٢) عبد الغفار الأخرس : الطراز الأنفس في شعر الأخرس (الأستانة ١٨٨٧) نشره أحمد عزت الفاروقي .

(٢٣) عبد الله الجبوري : من شعرائنا المنسيين (بغداد ١٩٦٦) .

(٢٤) محمد الهاشمي : سميراميس بين الحقيقة والأسطورة (بغداد ١٩٥٩) .

(٢٥) محمد مهدي البصير : البركان (بغداد ١٩٥٩) .

(٢٦) أحمد الصافي النجفي : التيار (دمشق ١٩٤٦) .

(٢٧) محمود الحبوبي : شاعر الحياة (النجف ١٩٦٩) .

(٢٨) بدر شاكر السيّاب : قيثارة الريح (بغداد الطبعة الثانية ١٩٧١) .

(٢٩) محمود العبطة : بدر شاكر السياب والحركة الشعرية الجديدة في العراق (بغداد ١٩٦٥) .

(٣٠) حافظ جميل : اللهب المقفّى (بغداد ١٩٦٦) نبض الوجدان (بغداد ١٩٥٧) أحلام الدوالي (بغداد ١٩٧٢) .

(٣١) غازي عبد الحميد الكنين : شعراء العراق المعاصرون (جزآن ١٩٥٧ ـ ١٩٥٨) .

(٣٢) محمد رضا الشبيبي : ديوان الشبيبي (القاهرة ١٩٤٠) .

(٣٣) محمد مهدي الجواهري : ديوان الجواهري (عدة طبعات) .

(٣٤) محمد مهدي الجواهري : أيها الأرق (بغداد ١٩٧١) .

(٣٥) محمد مهدي الجواهري : خلجات (بغداد ١٩٧٢) .

(٣٦) نعمان ماهر الكنعاني : المعازف (بغداد ١٩٥٠) .

(٣٧) نعمان ماهر الكنعاني : الشعر في ركاب الحرب (بغداد ١٩٤٨) .

(٣٨) عبد الحسين الأزري: ديوان الحاج عبد الحسين الأزري (بيروت).

(٣٩) علي الشرقي: عواطف وعواصف (بغداد ١٩٥٣).

(٤٠) علي الشرقي: ديوان علي الشرقي (بغداد ١٩٧٩).

(٤١) معروف الرصافي: ديوان الرصافي (القاهرة ١٩٤٩).

(٤٢) ديوان السيد محمد سعيد الحبوبي (بغداد ١٩٨٠).

(٤٣) الدكتور محسن غياض: شاعر العرب عبد المحسن الكاظمي (بغداد ١٩٧٦).

(٤٤) الدكتور داود سلوم: تطور الفكرة والأسلوب في الأدب العراقي (بغداد ١٩٥٩).

(٤٥) تذكرة الشعراء لعبد القادر الخطيبي الشهرباني (نشره الأب أنستاس الكرملي، بغداد ١٩٣٦).

(٤٦) الدكتور يوسف عز الدين: شعراء العراق في القرن العشرين (بغداد ١٩٦٩).

(٤٧) يوسف أسعد داغر: مصادر الدراسة الأدبية (٤ أجزء، بيروت).

(٤٨) الدكتور شوقي ضيف: الأدب العربي المعاصر: في مصر (القاهرة ١٩٥٧).

(٤٩) الدكتور جمال الدين الرمادي: من أعلام الأدب المعاصر (القاهرة ١٩٦٠).

(٥٠) محمود شكري الألوسي: المسك الأذفر (بغداد ١٩٣٠).

(٥١) مجلة كلية الآداب (العدد ١٨ : ١٩٧٤) بغداد، عدد خاص بأربعينية الدكتور محمد مهدي البصير.

توطئـة
الأدب العربي في عصر الانحطاط

عـرف العصر الذي تـلا سقـوط الدولـة العبـاسيـة في العراق سنـة ١٢٥٨م بعصر الانحطاط . فقد خمدت الحركة الأدبية وأصبح الشعر والنثر يتّسمان بالتقليد والإسفاف ، وكـادت المواضيع تقتصر على المدح والهجـاء والـرثـاء والغزل والمراسـلات الإخـوانيـة . كسدت سوق الأدب وزال الإبداع والإشعـاع في البلد الذي أنجب الفرزدق وابن المقفّع والأصمعي والجاحظ وبديع الـزمان والحريري والفراهيـدي وسيبويه وبشار وأبـا نواس وأبا العتاهيـة وأبا تمّام وابن الرومي وابن المعتز والمتنبّي وابن خلكـان وصفيّ الدين الحلي وأضرابهم من أساطين البلاغة والبيان والقريض .

ونبغ في عهد الانحطـاط شعراء فرس وترك كـانوا في طليعة أدباء الـدولتين الفارسية والتركية ، منهم ، من رجـال اللغة الفارسية : سلمان سـاوجي ، وخواجو كرمـانو وعبيد زاكاني وحافظ ، ومن رجال اللغة التركية : فضـولي البغدادي المعروف في تركية بـ «رئيس الشعراء» ، وقد توفي سنة ١٥٥٥م ، وابنه فضلي ، ورضائي وعهدي وشمسي ، وحسيني المتصوف المتـوفى سنة ١٥٧٧ ، وروحي المتـوفى سنة ١٦٠٥ ، وغيرهـم . ولا يزال الأدب التركماني مزدهراً في كـركوك وأنحائها ، ومـن أعلامه عبد الله صـافي المتوفى سنة ١٨٩٨ ، والشيخ رضا الطـالباني المتـوفى سنة ١٩١٠ . وكـان يعدّ أبلغ شعـراء الكرد ، لكنـه كان ينظم باللغات التركية والفارسية والعربية أيضاً . وقد سافر إلى تركية ، ومضى إلى القاهرة فعهد إليه بتدريس الفارسية لأنجال الخديوي إسماعيل ، على ما قيل .

ولا بدّ من ذكر أحمد هاشم الألوسي البغدادي الأصل (١٨٨٥ ـ ١٩٣٣) الذي يعدّ من أعظم شعـراء تـركية في العهـد الأخير ، وقـد عرف بشعـره الـرمـزي وشعر الطبيعـة والجمال . ومن شعراء التركمان في كركوك وأنحائها محمود هجري ددة (١٨٨١ ـ ١٩٥٢) وخضر لطفي (١٨٨٠ ــ ١٩٥٩) والأديب ناجي الهرمـزي (١٨٨٧ ـ ١٩٥٢) ومحمـد صادق (١٨٩١ ــ ١٩٦٧) والقاضي أحمد فـائز (١٨٤٢ ـ ١٩١٨) صـاحب المؤلفات باللغات العربية والتركية والكردية والفارسية .

ولعلّ خير أنموذج لـلأدب التركي في العراق في أوائل القـرن التاسع عشر مـا سجله كتـاب «تذكـرة الشعـراء أو شعراء بغـداد وكتابها في أيـام وزارة المرحـوم داود باشـا والي

بغداد»، وهـو من تأليف أو ترجمة عبـد القادر الخطيبي الشهـراباني. عني بنشره ا لأب أنستـاس ماري الكـرملي سنة ١٩٣٦. ذكـر هذا الكتـاب تراجم مختصرة لنحـو خمسين شاعراً وكـاتباً عاشوا في عهد الـوالي، وجلّهم إن لم نقل كلهم، من النكرات المحسوبين على الأدب ومن موظفي الـولاية وكتابها. ولم يخلفـوا أثراً سـوى واحد هو رسـول حاوي مؤلف «دوحة الوزراء» في تأريخ ولاة بغداد، وقد توفي سنة ١٨٢٦.

أما الأدب الكردي فـانتعش في السليمانية وأنحائها، وكان من أعـلامه العالم الأديب رسول مستي الملقب بشيخ الحكماء (١٨٢٣ ـ ١٩٠٨) والشعـراء محمد المحوي (١٨٣٦ ــ ١٩٠٩) وأمين يُمْني (١٨٤٥ ــ ١٩٢١) وأحمد الملا قادر (١٨٥٤ ــ ١٩١٠) وأمين فيضي (تـوفي ١٩٢٨) وصـالح حريـق (١٨٦٦ ـ ١٩٠٩) وحسن البـامـرني (١٨٦٧ ـ ١٩٣٧) وأحمد مختـار الجاف (١٨٩٦ ــ ١٩٣٣) وعبـد الله كَـوران (حلبجـة ١٩٠٤ .. ١٩٦٢) وفائق بيكاس (١٩٠٥ ـ ١٩٤٨). ولا بـدّ من ذكر الكاتب المربّي رفيق حلمي (١٨٩٨ ـ ١٩٦٠) وحسن فهمي الجاف (١٩٠٥ ـ ١٩٧٣). وأشهر شعراء الكرد على الإطـلاق توفيق بيره مـرد (السليمانية ١٨٦٧ ــ ١٩٥٠). ولا ننسى الـوزيرين العـالمين المؤرخ محمـد أمين زكي (١٨٨٠ ــ ١٩٤٨) والبحـاثـة المحقق تـوفيق وهبي (١٨٩١ ـ ١٩٨٤) مـؤلف القامـوس الكردي الإنكليـزي المطبوع في لنـدن (بالاشتراك مع الميجـر أدموندس).

الأدب العربي في عصر الانحطاط

كان الأدب العربي في عصر الانحطاط مظهراً من مظاهر التقليد والجمود والجفاف. فشت العجمة في الفكر والبيان، وطغت اللهجة العامية، وغلبت التركية لغة الدواوين والطبقة الحاكمـة. على أن النجف بقيت واحـة عربيـة ازدهر فيها الفقـه وعلوم الـدين واللغة والشعر التقليدي. وكان أبرز ممثلي الأدب العربي في ذلك العهد:

(١) الشاعر المدّاح الشيخ كاظم الأزري (١٧٣٠ ـ الكاظمية ١٧٩٦).

(٢) الشيخ صالح التميمي (١٧٦٢ ـ ١٨٤٤) ولـد في الكاظمية ودرس في النجف ومدح بشعره الولاة والأشراف.

(٣) المؤرخ عثمان بن سنـد البصري (١٧٦٦ ــ ١٨٢٧) مؤلف «مطـالع السعـود في طيب أخبار الوالي داود».

(٤) الشاعر المجيـد عبد الباقي العمري (١٧٨٩ ــ ١٨٦١)، موصلي الأصل وكان معاوناً لوالي بغداد.

(٥) مفتي بغـداد عبد الغني جميل (١٧٨٠ ــ ١٨٦٣) من وجهاء عصره وأغنيـائه،

نظم الشعر واشتهر بمطارحاته مع عبد الغفار الأخرس، وقد نشرها المؤرخ عباس العزاوي.

(٦) الشاعر عمر رمضان الهيتي، توفي سنة ١٨٣٦ .

(٧) المفتي أبو الثناء محمود شهاب الدين الألوسي. (١٨٠٢ ــ ١٨٥٤) صاحب الرحلات والمقامات والتفسير المشهور.

(٨) الشاعر النجفي الشيخ محسن الخضري (١٨١٩ ــ ١٨٨٥) اشتهر بمدائحه للوالي علي رضا باشا.

(٩) العالم الأديب المؤرخ إبراهيم فصيح الحيدري ولد في بغداد (١٨٢٠ ـ ١٨٨٣).

(١٠) الشاعر الشيخ حمّادي آل نوح الحلّي (نحو ١٨٢٥ ـ ١٩٠٧).

(١١) الشاعر أحمد عزت باشا العمري الفاروقي (١٨٢٨ ـ ١٨٩٢) ولد في الموصل وعاش في بغداد واستانبول وطبع ديوان الأخرس في العاصمة التركية سنة ١٨٨٧ .

(١٢) الشاعر العاشق الشيخ عباس علي النجفي (١٨٢٨ ــ ١٨٥٨)، وهو صاحب القصيدة المشهورة:

عديني وامطلي وعدي، عديني ... وديني بالصبابة فهي ديني

(١٣) الشاعر أحمد بك الشاوي (١٨٢٨ ـ ١٨٩٩).

(١٤) الشاعر السيد حيدر بن سليمان الحلّي (١٨٣٠ ــ ١٨٨٧) مؤلف «العقد المفصّل» في مدائح آل كبّة. وقد اشتهر بمراثيه الحسينية الشجيّة.

(١٥) نعمان خير الدين الألوسي (١٨٣٦ ـ ١٨٩٩) وكان عالماً لغوياً أديباً.

(١٦) الشيخ جعفر الشرقي (١٨٤٤ ـ ١٨٩٢) الشاعر الفقيه، والد الشاعر الشهير علي الشرقي.

(١٧) السيد جعفر الحلي من آل كمال الدين (١٨٦١ ـ ١٨٩٧) نشر ديوان شعره بعنوان «سحر بابل وسجع البلابل» وطبع في صيدا.

وقد غالى الدكتور محمد مهدي البصير في كتابه «نهضة العراق الأدبية في القرن التاسع عشر» في تقييم أدب ذلك العهد، فقال: «إن أدبنا . . . يمثل كل لون من ألوان الأدب العربي القديم وكلّ فن من فنونه . . .» وقال: إنه يمثّل حياتنا الاجتماعية والسياسية والدينية. وبالغ في نعت الشعراء، فهذا خليفة أبي نواس والآخر خليفة أبي العتاهية وذاك صنو ابن الفارض وقرين أبي تمّام، وهلمّ جرا.

كان الشعر بضاعة كاسدة لا تكاد تحظى بشيء من التقدير المادّي أو الأدبي. والمديح والرثاء زاخران بالمبالغات الصارخة، فكأن كلّ ممدوح نابغة عصره وسيّد مصره، وكل مرثيّ فاق الثقلين وغادر الأرض قفراً يباباً:

فالموت نقّاد على كفّه   جواهر يختار منها الجياد!

ونرى السيد جعفر الحلي يرثي القتيل ويهنىء القاتل في نفس واحد، يرثي الشيخ مزعل ويهنىء أخاه خزعل خان الذي اغتاله وحلّ محله على دست إمارة عربستان. ثم نراه يمدح قاطع الطريق من عشيرة شمر فيصفه بالليث الذي أوكل رزقه ببراثنه!.

وخلاصة القول: إن شعر عصر الانحطاط يكاد يخلو من المعاني والأفكار الأصيلة والبوارق الصوفية واللمعات الذهنية واللمحات الوجدانية. وإذا كان يمتاز بسلامة اللغة والبلاغة في أحايين كثيرة، فإنه يتّسم بالجمود والتقليد والصرامة وضحل الخيال.

وقد ترجمت لشاعرين يمثلان عصر الانحطاط الأخير أحدهما بغدادي (عبد الغفار الأخرس) والآخر نجفي (إبراهيم الطباطبائي).

عصر النهضة

أطلّ فجر النهضة الأدبية في مطلع المائة العشرين، وكان في الطليعة من روّاده الشاعران جميل صدقي الزهاوي ومعروف الرصافي، ثم تبعهما عند إعلان الدستور التركي محمد رضا الشبيبي وأخوه محمد باقر وعلي الشرقي وخيري الهنداوي وكاظم الدجيلي ومحمود الملاح.

ونبغ من الكتّاب والعلماء محمود شكري الألوسي والأب أنستاس ماري الكرملي وفهمي المدرس ومحمد حسين كاشف الغطاء... ونشأت الصحافة سنة ١٩٠٨ مع إعلان الحرية، فبرز فيها عبد اللطيف ثنيّان وداود صليوا وإبراهيم صالح شكر وإبراهيم حلمي العمر، ثم رزوق غنام وعبد الغفور البدري ورفائيل بطّي وتوفيق السمعاني وسليم حسّون...

ويمكن القول: إن الأمة العربية «أمّة الشعر». فقد كان للشعر منذ الجاهلية المقام البارز والأثر البليغ في الحياة الاجتماعية والسياسية والنهضة العلمية والأدبية. وكان الشعر يقوم مقام المقالات الافتتاحية قبل أن توجد الصحافة مع مزيّة أخرى له هي سهولة الحفظ والنقل والتداول والخلود.

وقد قلت في البحث الذي قدمته بعنوان «دور الأديب العربي في بناء المجتمع العربي العصري» إلى مؤتمر الأدباء العرب السابع المعقود في بغداد في نيسان ١٩٦٩: «يضطلع الأديب بتبعة جسيمة في بناء مجتمعه والمجتمع العالمي. فالأديب الحق يحمل مشعل التقدم والنهوض لينير السبيل لأبناء أمته ووطنه. ولئن كان ذلك صحيحاً مذ وجد الأدب ووجدت رسالة الأديب، لقد أصبحت هذه الحقيقة أشدّ خطراً وأبلغ أثراً في المجتمع العربي الحديث الذي يمرّ، من الجهة الواحدة، بطور انتقال، طور امتدّ منذ

حقبة طويلة ولا يزال جارياً بدرجة متفاوتة وتفاعل ملحوظ في مختلف أقطار العروبة لأجل إزالة آثار التخلف واللحاق بموكب الأمم العاملة العاملة، ويخوض، من الجهة الأخرى، معركة ضارية فرضتها عليه قوى الاستعمار والرجعية . . . ».

وقلت إن الأدب العربي قام في العصور الماضية بدوره في بناء المجتمع وتوطيد أركانه، وكان من أقوى عناصر القوة والتماسك التي تربط بين أبناء الشعب العربي في أقطاره المنبسطة شرقاً وغرباً. وقد رأينا الشعراء والأدباء في العراق والوطن العربي أجمع في عصر النهضة الحديثة يلهبون مشاعر الأمة وينيرون لها طريق الحرية والاستقلال ويدعونها إلى اليقظة والانطلاق.

قامت معارك اجتماعية ووطنية وسياسية خاض غمارها الأدب وكان النصر فيها حليف قوى التقدم والعرفان. وحسبنا أن نذكر مثالاً معركة تحرير المرأة والسفور والحجاب التي احتدمت بين الأنصار والمعارضين. وقد تعرّض الزهاوي للمحنة لمقال كتبه في الدفاع عن المرأة فبقي حبيس داره أياماً خوفاً من سخط الجماهير، حتى ليخاطب زوجه قائلاً:

أبثينَ، إن أدنى العدوّ حمامي	بمسدس يذكيه أو بحسام
فتجلدي عند الرزيّة واحسبي	أني اجتمعت إليك في الأحلام

وقال الرصافي:

لقد غمطوا حق النساء فشدّدوا	عليهنّ في حبس وطول ثواء
وقد ألزموهن الحجاب وأنكروا	عليهنّ إلاّ خرجة بغطاء

ودعا شعراء النهضة إلى العلم والحرية. واتخذ كتّاب الرواية والقصة والمسرحية آثارهم أداة لرسالة الثقافة والاستقلال. ثم تشعبت نواحي الأدب في مناهجه وأهدافه، وظهر الشعر المنثور والحرّ ومذهب الرمزية والسّوريالية، واتّسع مجال الأثر الأدبي بنشوء البثّ الإذاعي والتلفزيوني ونقل الشعر والنثر العربي إلى اللغات الأخرى بعد أن مرّ دور الترجمة والتعريب.

وأرجو أن تكون الصفحات التالية سجلاً لتعريف الشعراء والأدباء وبيان أثرهم في النهضة الحديثة، وذلك قصارى الجهد وغاية القصد والمرام.

لندن، شباط ١٩٩٤

مير بصري

القصص الشعري

أولع شعراء الشباب في مطلع القرن العشرين بالقصص الشعري، وكانت قصصهم في الغالب ساذجة شجيّة تنتهي بالفواجع، وكأنّ الدهر مأساة لا تبقي على غنيّ ولا متنعّم. ولعلّ أولئك الشعراء قد تأثروا بمصطفى لطفي المنفلوطي، الأديب المصريّ الأنيق الذي كان له تأثير عظيم في النصف الأول من القرن في طول الأقطار العربية وعرضها.

حدثني عبّاس العزاوي أن الكتب والمجلات كانت ممنوعة في عهد الاستبداد الحميدي، ولم يسمح بورودها إلا بعد إعلان الدستور العثماني سنة ١٩٠٨ وإطلاق حرية المطبوعات. أخذت المجلات والصحف المصرية كالمقتطف والهلال والمقتبس والزهور وغيرها ترد إلى بغداد فيتلقفها الشباب المتعلم ويطالعها بشغف ولهفة.

قال العزاوي: كنّا ننتظر وصول المجلات والكتب بنافد الصبر، فإذا تأخّر البريد مررنا بالمكتبات في سوق السراي كلّ يوم، بل كل ساعة، نسأل عنها ونستفسر عن أسباب التأخير. وكانت مقالات المنفلوطي التي تنشرها جريدة المؤيد تحظى باهتمامنا قبل غيرها، ولا سيما النظرات والعبرات والروايات المترجمة التي نشرت بعد ذلك كتباً مستقلة. فإذا وردت المؤيد أقبلنا على مطالعة مقالات المنفلوطي في المكتبة أو الطريق، ولم نصبر عن قراءتها حتى الوصول إلى الدار!

وللمنفلوطي نفسه قصص شعرية، منها منظومة «بين أسماء وعبد الله». تلك قصة أسماء بنت الصديق وولدها عبد الله بن الزبير الذي طلب لنفسه الخلافة فحاصره الحجاج بمكة وعرض عليه التسليم. لكن أمه أشارت عليه بالمضيّ في القتال حتى الموت:

إنّ أسماء في الورى خير أنثى ... صنعت في الوداع خير صنيع

جاءها ابن الزبير يسحب درعاً ... تحت درع منسوجة من نجيع

قال: يا أمّ، قد عييت بأمري ... بين أسر مرٍّ وقتل فظيع

خانني الصحب والزمان، فما لي ... صاحب غير سيفيَ المطبوع

وأرى نجميَ الذي لاح قبلاً ... غاب عنّي ولم يعد لطلوع

بـــذل القـــــوم لي الأمـــــان، فما لي غيره إن قبلتــــــــــــه مـن شفيـع
فـأجـــابـت، والجفـن قفـــر كـأن لم يكُ مـن قبلُ مـــوطنـــاً للـــدمـــوع :
لا تسلّــم إلاّ الحيـــــــــــاة وإلاّ هيكـــــــلاً شـأنـــــه وشـأن الجذوع
إنّ مـــوتـــــاً في ســـاحـــــة الحرب خير لـك من عيش ذلّــــــة وخضـــــوع

وختم الشاعر قصيدته قائلاً :

وأتـى أمّـــــه النّعيُّ فجـــــادت بعـــد لأيٍ بـــدمعهـــا الممنـــوع

ونظم المنفلـوطي أيضـاً رواية بـولس وفـرجيني لبرنـاردان دي سان بيير، وهي قصـة الطبيعة الساذجة والطفولة البريئة، ومطلعها :

يـــا بني الفقـــر، ســلامـــاً عـــاطـــراً من بنـي الـــدّنيـــا عليكم وثنـــاء

نشأ الطفلان في جـزيرة نـائية، وتمتّعـا بمشرق الشمس ومغيبها، ولعبـا معاً في ظل الأشجار الوارفـة وعلى ضفاف الجداول الرقراقـة. وقد تبادلا الحبّ وعزمـا على الزواج، لكن الفتـاة مضت إلى فرنسـة للمطـالبة بإرث لها فلم تحصل على المال. ولما عـادت إلى جزيرتها حيث ينتظرها الحبيب هاج البحر وماج، فغرقت السفينة وجرفت المياه العروس العائدة جثة لا حياة فيها ألقتها على الساحل.

كان جميل صدقي الـزهاوي من مبتدعي القصص الشعري، وقـد نظم عدة قصائد في هـذا البـاب، منها : أرملـة الجنـدي، سليمى ودجلـة، طـاغية بغـداد، الغـريب المحتضر، على قبر ابنتها، أسماء، مقتل ليلى والربيع، سعـاد بعد زواجها، ليلى وسمير، إلخ.

فأسماء فتاة تهوى أحد الشبـان، لكنّ أهلها يزفّونها إلى شيخ فانٍ له ثـلاث نساء فلا تجد مخرجاً من مأساتها إلا بتناول السمّ والموت في ميعة الصبا.

وأرملة الجندي يعضها الفقر بنابه بعد وفـاة قرينها فتصاب بالسلّ ولا تنال الكفاف من القوت مع طفلها لضآلة راتب التقاعد الذي يصرف لها.

ويقف الرصافي بين شعراء الشباب في العراق على قمة عالية لا تصل إليها الأبصار. إن منظوماته القصصيـة قصائد رائعة تجمع جمال الشكل إلى سموّ المعنى ولطف الأداء. إننـا نقـرأ «المطلقة» و «أمّ اليتيم» و «الفقـر والسّقـام» و «اليتيم في العيـد»، فنحلّق مع الشاعر في عالم روحانيّ من الرحمة والمحبّة وتخفق قلوبنا بالعواطف الإنسانية الرفيعة.

هذه المرأة تئنّ في سكون الليل، وقد لفّها الظلام والـوحشة والفقر بدثار قاس أليم، وإلى جنبها طفل جـائع ينتظر رجـوع أبيه الذي قتـل في مذبحة همجيـة. وهـذه الـزوجة المخلصة المحبوبة يطلّقها زوجها لزلّـة لسانية بدرت منه يحيلها جمود المجتمع وجهله إلى مأساة لا مخرج منها.

وهذا الصبيّ اليتيم البائس، صبيح الوجه، شاحب اللون، يخرج في صباح العيد ملتفعاً بأسماله البالية فيزيد من أساه وحرمانه ضجيج الناس وفرحهم ولعب الصبيان الذين يرتدون الملابس الزاهية ويمضغون السكر والحلوى ويضحكون ويمرحون في فيض من السعادة والهناء . . .

أما موشّح الفقر والسّقام فهو أنّة المضنى الكئيب ترتفع في الظلام يطلقها الفقير المريض الذي لا يجد طبّاً لعلّته ولا نفقة لأسرته . بشير الكادح الذي كان يسعى طول النهار ليكسب قوتاً زهيداً وليعيل أخته العانس أقعده المرض عن العمل :

إنّ سقماً بـــــــه وعقماً ألمّا ... تركاه يذوب يوماً فيوما
فهو حيناً يشكو إلى السّقم عُدْما ... وهو يشكو حيناً إلى العُدْم سقماً

باكياً من كليهما بانتحاب

وفي ليلة زمجرت العاصفة واكفهرّ أديم السماء والتمع البرق ودوّى هزيم الرعد، قضى بشير نحبه . ولم تلبث أخته أن تبعته إلى رحاب الموت، منطلقة من قبضة الحياة القاسية الشديدة .

لقد أبدع الرصافي الشاعر في تصوير قسوة الطبيعة وثورة عناصرها الهوج وسخرية القدر، وتجسيم الموت الذي ينشب مخالبه كالوحش الضاري في بني الفقر على الفراش البالي وفي ضياء السراج الضعيف . وبرع في الإفصاح عن رزايا الفقر وأوصاب المرض وسعار الجوع، ووصف عبرات الأرامل والأيتام وأنين المكلومين الذي يقطع الأحشاء بسيف مثلّم ويهزّ نياط القلب، والليل ساج حالك السواد، وكأنّ نجومه تصيخ إلى الزفرات المجمجمة . وبرع في تصوير البيت الخاوي المتهدّم الذي ينوء بأثقال البؤس، والجسم الهزيل الشاحب الذي يهدّه الجوع والسقام، والطفولة التي تشكو ضراوة الدهر قبل أن يتفتّح ذهنها لحقيقة الوجود، تغذيها أمها بالدموع إذا أعوز الخبز . والجمال الذي يذوي من الوجد في عنفوان الشباب، وذلّ مجتمع البؤس وتضامنه وتعاطفه وتبادله العون والحنان والنزر مما يمتلكه من حطام الأرض، وشموخ مجتمع الغنى والبذخ وعدم مبالاته واستهانته بالدموع والدماء، أليس كلّ ذلك وكثير غير ذلك قد عبّر عنه شاعرنا ألطف تعبير، ينفذ إلى مكامن ا النفس البشرية ويثير فيها أسمى العواصف والعواصف؟ وهل عجب أن يرسم الرصافي صورة حية للحزن، وهو القائل :

أنا للحزن دائماً ذو انتساب؟

إنّ الرصافي يروي قصص الأسى والألم والموت بصيغة المتكلّم، فهو قد رآها وسمعها وعاشها، أصغى إلى أنين الملهوفين وسأل عمّا أصابهم وخفف من آلامهم وودعهم يوم مماتهم الوداع الأخير وسكب على قبورهم دمعة حرّى صادقة هامعة من جفن قريح .

وقد كان إبراهيم صالح شكر، وهو الأديب الذوّاقة، معجباً باستعارات الرصافي

وتشبيهاته يعدّها من الروائع . استشهد بقوله في «أمّ اليتيم» :

أرى فحمـــة الظلماء عنـــد أنينهـــا فـأعجـب منهـــــا كيف لم تتضرّمِ

فقال ـ على ما أذكر ـ إن شاعرنـا قد شبّه الأنين ضمناً بالنار فعجب كيف لم تضطرم فحمة الظلماء .

ومن تشبيهاته الأخـرى في نفس القصيدة خفوق أنين الأرملة في قلبه كـرنّة الدرهم في قلب الفقير المترب . ثم شبّـه تقطّع أحشـائه بضربـة سيف مثلّم ، ولا يخفى مـا تسببـه ثلمات حدّ السيف من الألم عنـد تمزيقها الأعصاب . ثم انظر إلى الأحـزان التي هاجت فاغـرة الفم ، وإلى الدار التي هوى بها زلزال الخطـوب إلى حضيض الشقاء ، وإلى العين التي سال دمعها بكاءً ونظرتها تبتسم ، وهلمّ جرا .

إنّ خيري الهنداوي صديق الـرصافي وعشيره لا يرقى مرقاة صـاحبه ، لكنه مع ذلك يحسن نسج القصـة الشعريـة وحبك وقـائعهـا . ففي قصيدتـه «فتـاة سلانيك» يـروي حديث حبيبين عاشا زماناً في بلهنية الصّبا وصفاء السلم والوداد ، حتى نشبت الحرب . ومضى الفتى إلى ساحة الوغى فقتل وأسرت الفتاة الحزينة .

وقصيدتـه «زينب وخـالد» أو «فتاة بغـداد وفتاهـا» ملحمة المآسي والأحـزان . ومن زينب؟ ـ هي فتاة عربية نشأت في أحضان الفضيلة والعزّ والدلال :

فجـاءت كغصن البـــان يـورق نـاضراً وكـــــالشمـس إلاّ أنها ليـس تغـــــرب

خرجت ذات يـوم مع صديقـاتها في نزهة ، فـالتقت بفتاهـا جالسـاً في ظلّ دوحة . وقعت عينه عليها :

فجنّ بها حبـــــاً ، ولم يـــدر قبلهـــــا بـأن الهوى يـأتي الفتى وهـــــــو يلعـب

ورأته هي أيضاً فهامت به حباً :

مضت ومضـى للحيّ ، كـلٌّ مـــولّـــه بصــاحبـه يـدعـو الـرشــاد فيعـزب

ومرض خالد وقد تيّمه الحبّ ،

ينـــوح كما نـــاح الحمام صبـــابـــة ويشهق مـن فـــرط الغـــرام وينحب

وعرفت أمـه بالسرّ الذي يطوي عليـه جوانحه ، فخطبت له الحبيبـة وهيّئت أسباب الزواج . غير أنّ القدر يقف للمحبّ السعيـد بالمرصاد ، فقد جاء جنـد جنكيز واقتادوا خالداً وزجّوه في السجن ، ثم ساقوه إلى سيواس . وماذا كانت جنايته؟

لقـد كـــان صبّـاً بـــالعـراق وأهلـــه يثـــــور إذا سيمـــــوا الهوان ويشغـب
يـــدافع عن أحســـابهم وحقـــوقهم ويطعن في صـــدر العـــدوّ ويضرب
وهل ريبـــة أن ذبّ عن مجد قـــومـــه فتـى عـن بنيّـــــات العلى لا ينكـب؟

أعـدلاً يـرى الأقـوام حبس ابن حـرّة   يغـار على مجد العـراق ويغضب؟
إذا كـان في حب الـديـار جـريـرة   فكلّ فتى فـوق البسيطـة مـذنب!

وبعد أعوام قضاها في المنفى البعيد، عاد بطل قصّتنا فوجد أمه قد ماتت. وأمدّه صديق وفيّ بالنّقود فاقترن أخيراً بحبيبته زينب. لكنه عاد إلى العمل السياسي لتخليص بلاده من ربقة الاحتلال، فقبض عليه، وهو في غمرة أفراح ختان طفله، وسيق إلى المعتقل النائي مكبلاً بالحديد. وابتلي بالسلّ فقضى نحبه بعيداً عن أهله وأصحابه.

إيه، أيها الشاعر. لقد أحكمت حلقات المأساة، وأعرت الأيام مخلباً ونابا فلا تهدأ حتى تنشب أظفارها بالأرملة واليتيم وتختم الفاجعة بلا رحمة ولا تلكّؤ. وتخاطب الأم طفلها وهي تشعر بدنو الأجل:

بنيّ، إذا مـا متّ مَن لـك راحـم   ومـن بـك يعنى أم لأجلـك يتعـب؟
بنيّ، يتيماً أنت بعـدي مسيّبـاً   تعيش كما عـاش اليتيم المسيّب
بنيّ، لقـد هـان الـردى بعد خـالـد   ولكنـه في يتم نفسك يصعب

وجاءت جاراتها في الصباح فوجدنها ميّتة وطفلها يعول باكياً. وشغلوا بدفنها، فسهوا عن الطفل الذي خرج من الدار يسير على غير هدى حتى غرق في دجلة.

وهذا كاظم الدجيلي وقصيدته «بوليس بغداد»، فهل نستطيع أن ننعتها بالقصة؟ إنها إلى الحكاية أقرب وبالسّرد أوثق نسباً.

يستهلّ الدجيلي قصيدته بوصف مجلس شراب، فيصف الخمرة التي تميت الأحزان والخلّان الذين اختلسوا لحظات من السعادة والصفاء. وإذا بالشرطة تداهمهم وتلقي بهم في غيابة السجن. وهناك يلتقي الشاعر بأبناء البؤس الذين أناخ عليهم الظلم بكلكله: الفتاة المعسرة التي لم يخنها ضميرها، والمرأة الباكية التي ترضع طفلها في ذلك المكان الموحش، ولكل منهما قصة عذاب وشقاء.

ومن قصص كاظم الدجيلي الشعري قصيدته «مريم وحسّان» وهي تروي قصة «رومية من غيد بغدان» (أي بغداد) زارته قبيل الفجر ترفل في حلة لا كمّ لها ولا ردن وتتهادى في سيرها غنجاً. لكن عصابة شريرة اختطفتها. وجاءها جندي تركي فاتهمها بالخلاعة، لكن رجلاً شهماً استطاع إنقاذها. غير أن الجنود قبضوا عليه وساقوه إلى القاضي الذي أمر بحبسه، وقضى الفتى نحبه في السجن. ورأت مريم جنازته فصعقت وسقطت ميتة هي الأخرى!

وهي قصة متهافتة نظماً ومعنىً وسياقاً؛ ولا شك أنه نظمها في مستهلّ شبابه.

ويلقي إبراهيم منيب الباجه جي دلوه بين الدلاء، فينظم قصيدته «إقبال وإدبار».

فتـاة مـن الأعـراب هيفـاء مُعْصِرُ   يقـال لها في سـالف الـدهـر مَنْـوَرُ

ولعلّه استعار كلمة «معصر» من عمر بن أبي ربيعة فأساء فهم معناها، فالمعصر هي التي تقدم بها العمر وليست الغيداء الشابة.

وصف حسنها وحياءها وسحر عينيها وتورّد خديها ولين عطفيها وشقرة شعرها. نشأت في قصر منيف وترعرعت في بحبوحة العزّ في ظل أب نبيل حكيم. وأتى ظالم شرير من الغرب يريد خطف الفتاة، فقتل أباها بخنجره وفرّ هارباً. واستغرقت منور في جزعها وحزنها، فوضعت نهاية لحياتها بأن رمت نفسها من سطح الدار. ثم تبعتها أمها إذ ألقت بنفسها في بئر عند قبر ابنتها!

أما عبد الرحمٰن البناء فروى في «فتاة العرب» قصة رمزية تشير إلى اعتداء الدول الغربية على السلطنة العثمانية الهرمة وتكالبها على تمزيق أشلائها.

قال البناء:

قضت حقبة في عالم الشرق زينبُ ... لها المجد أمّ والفخار لها أب

عاشت زينب في صفاء ونعمة تجرّ ذيول الدلال وتمرح في روضة الشباب. تاهت يوماً في الصحراء، فلم تشعر إلا والليل قد أسبل على الكون رواقه الحالك. وأجالت طرفها في حيرة ووجوم، فرأت شبحاً قادماً خالته في بادىء الأمر صديقاً، ولما اقترب منها وجدته شيخاً أجرب من الغرب، دميم الخلقة، أحدب الظهر، أشعث الشعر. هددها بمديته فلم تغنِ عنها ضراعتها، وسلبها ملابسها وحليها. ولما طلع الصبح عادت إلى أهلها، وكانوا في أسى وقلق على مصيرها، فنادت أمها بالويل والثبور، وأهابت بالقوم إلى الثأر لابنتها:

أراكم حيارى ليس فيكم حميّة ... على طفلة من أمة الشرق تسلب
فقدتم بهذا الجبن كلّ مزيّة ... وعام بكم في لجّة الذلّ مركب
ألا فانهضوا واسعوا وجدّوا وسارعوا ... وكرّوا على دفع الأذى وتقرّبوا
حناناً حناناً، أيها الأمّة التي ... لها عند أخذ الثأر عزم مجرّب
ألستم بني الشرق الذي قيل عنهم ... لهم هيبة منها المقادير ترهب؟
ألستم بني الشرق الذي قيل عنهُمُ: ... إذا غاب منهم كوكب لاح كوكب؟

وفي منظومة أخرى يروي عبد الرحمٰن البنّاء قصة لبنى الفتاة الجميلة التي درجت في حجر أمّها الحنون. وقد ماتت الأم، واقترن الأب بامرأة شرسة خبيثة كرهت لبنى وسامتها الذلّ والعذاب، ثم لم تتورّع أن خنقتها في حندس الليل!

وماذا فعل الأب؟ لام زوجته،

ثم نادى عليّ بالنعش حتى ... ندفن الميت في المقابر دفنا
فأتوه بالنعش سرّاً، وفيه ... ليس يدري أقصى الأنام وأدنى

وضعــوهـــا بـــالنعش مـن غير غسلٍ ثـم ســـــاروا بها مسير الهوينــــا
ثمّ آبـــوا بجمعهـم بعــدمـــا قــدْ تــركـوهـــا في ظلمـــة اللحـــد وَسْنى
ثم قـــالـوا من مكـرهـم حين عـادوا: ربِّ إنّـــا إليك نـــرجـع، إنّـــا

وهي كما نرى قصة متهافتة متفكّكـة العرى، سقيمة اللفظ والسياق والمعنى، لكنّها تهوّل صورة اجتماعيـة فظّة من صـور المجتمع العراقي في العصـور المظلمة، وتـدعو إلى التأمل والاعتبار والإصلاح.

ولا بـدّ لنـا بعد ذلك أن نـذكـر قصيـدة الفتـاة المخدوعـة والشرطي الأثيم لمحمـد الهاشمي. لقد أحبّ صالح الشرطي فتاة طاهرة الذيل، جميلة القسمات (شأن القصص الرائجة في ذلك العهـد). وشجعته أمّها العجوز الماكرة، لكن الفتـاة أوجست منه ريبة وأحسّت أنه يريد اللهو بها لا الزواج منها. قالت الأم:

واضيعتي بعـــد عمـــر قـــد وقعت بـــه على تجاريـب إدبـــــار و إقبـــــال
دعي، ابنتي، هـــذه الأفكـار واتّئـــدي فـإنّ غشّك لم يخطـــــر على بـــــالي
وهـل سمعـت بـأم تخدع ابنتهـــــــا كيما تبيـت على حـــزن وبلبـــــال؟
مـــاذا يـــريبك منــــه؟ إنــــه لفتى مــــؤدب النفس لا جــافٍ ولا ســـال
زيـن الشمائل يسبـي القلب منظـــــره يحدّث العين عـن فضـل وإجــــلال
لـــو لم يحبّك حبّ الصـدق كـان لـــه عـــذر بهجـرك هجـر المعـرض القـالي

ولما قضى الأثيم منها وطراً لم يكتفِ بهجرها، بل أخبر بأنها بنت مريبة فأخذت قسراً إلى المباءة العـامة. وشاء الشـاعر بعد ذلك أن يحبـك المأساة من جميع أطرافهـا، فابتلى الفتاة المسكينة بالسلّ وسرعان ما أدركها الموت.

إنّ القـاسم المشترك بين شعراء النهضـة الأدبيـة الحديثـة كان، ولا ريـب، الشعـور الإنسـاني والعطف على مجتمع البـائسين. عبّر عن ذلـك الـرصـافي، وعبّر عن ذلك الزهاوي الذي قال:

يــا شعـــر أنت، إذا وصفتك مـــوجـزاً شكـــوى الكظيم ونفثـــة المصـــدور

وعبّر عن ذلك محمد الهاشمي إذ قال:

سـألقي نظـــرة ملئت حنـــانــــاً على البـؤســاء من طـرْفٍ خشـــوع
يعيـش الأغنيـــــاء على رخــــاءٍ ونحـن نعيش في بــــؤس وجـــــوع
تنـــام عيـــونهم بـــالليل، لكـن عيـــون البـائسين بـــلا هجـــوع

ولقد اضطلع الشعر العربي في عصر النهضة برسالة سامية لحفز الهمم وطلب العلم والإصلاح وتحرير المرأة واستقلال الوطن. ولا ريب أن القصص المنظومة كـانت جزءاً هادفاً من شعر النهضة الاجتماعية في مطلع القرن العشرين.


عصر
الانحطاط الأخير
والعهد الانتقالي

عبد الغفار الأخرس

ولد في الموصل وعاش في بغداد وتوفي في البصرة، وكان همزة الوصل بين القرنين التاسع عشر والعشرين. فلقد اتصل بداود باشا آخر ولاة المماليك الذي عزل ونفي في سنة ١٨٣١ ومدح السيد عبد الرحمٰن النقيب الذي ولي رئاسة الحكومة الوقتية في سنة ١٩٢٠ وتوفي سنة ١٩٢٧.

ذلكم السيد عبد الغفار عبد الواحد وهب المعروف بالأخرس لحبسة كانت في لسانه، ولعله كان أنبه شعراء بغداد ذكراً وأبعدهم صيتاً في عصر الانحطاط. وقد ردّد ذكر عقلة لسانه في شعره فقال من قصيدة يمدح أبا الهدى الصيادي الرفاعي حين زار بغداد سنة ١٨٦٧، وقد اشتهر بعد ذلك بصلته الوثقى بالسلطان عبد الحميد الثاني:

فهو عن مدح سواكم أخرس ... وبكم أفصح حزب الشعرا

وقال يمدح المفتي أبا الثناء السيد محمود شهاب الدين الألوسي:

وقد أخرستني من علاك فصاحة ... ألست تراني أخرس النطق أبكما؟

وقال:

هذا لساني يعوقه ثقل ... وذاك عندي من أعظم النوب

فلو تسببت في معالجتي ... لنلت أجراً بذلك السبب

ولد الأخرس في الموصل في نحو سنة ١٨٠٥ وقدم بغداد شاباً ولم يلبث أن ولج محافلها الأدبية واتصل بالوالي داود باشا الذي كان يعطف على العلماء والأدباء. وديوان الأخرس الذي جمعه أحمد عزت باشا الفاروقي وطبعه في الأستانة سنة ١٨٨٧ قد ضمّ مقطوعتين للشاعر قالها في عهد هذا الوالي، أولاهما بيتان قالها «حينما حبسه المرحوم داود باشا من جهة ما زوّره عن عبد الرحمن باشا والي الموصل وكان ذلك سبباً لاتصاله به»:

أقول للشامت لما بدا ... يكثر بالتعنيف والشين

أليس يكفيني فخاراً وقد ... أصبحت في قيد وزيرين؟

ولا نعلم شيئاً عمّا زوره الأخرس عن والي الموصل فكان سبباً لسجنه في بغداد واتصاله بواليها. أما المقطوعة الثانية فقصتها أنه كان واقفاً بين يدي داود باشا فأعطاه عريضة وأمره بأن يتلوها ويلخصها فارتجل البيتين الآتيين:

فديتك لا ترجو لنطقي تكلما   فإن يراعي عن لساني يترجم
غرقت ببحر من نوالك سيدي   فكيف غريق عائم يتكلم؟

ويروي جامع الديوان في ترجمته للشاعر أن داود باشا أرسله في صباه إلى بعض بلاد الهند ليصلحوا لسانه، فقال له الطبيب: أنا أعالج لسانك بدواء فإما أن ينطلق و إما أن تموت، فقال: لا أبيع كلي ببعضي وقفل راجعاً إلى بغداد. ولا ندري مبلغ صحة هذه الرواية، فظاهرها يدل على الصناعة والتنميق. ولم يكن مألوفاً إرسال المرضى للعلاج في خارج البلاد، وكانت صلة الوالي داود باشا في آخر عهده غير طيبة بالمقيم البريطاني في بغداد وبحكومة الهند. وديوان الأخرس على كل حال خال من أية قصيدة في مدح داود باشا في إبّان ولايته، لكن الشاعر مدحه بقصيدة طويلة بعد عزله أنفذها إليه إلى الأستانة، ومطلعها:

بوادي الغضا للمالكية أربع   سقتها الحيا منّا جفون وأدمع

ويقول منها:

فهل أنت مثلي قد أضرّ بك الهوى   وهل لك قلب لا أبا لك موجع؟
لئن نشرت طي الغرام الذي لها   فقد طويت مني على الوجد أضلع

ومنها:

أراني مقيماً بالعراق على ظما   ولا منهل للظامئين ومرتع
وكيف بورد الماء والماء آجن   يبلّ به هذا الغليل وينقع؟
لعلّ وما يجدي لعلّ وربما   غمائم غمّ أطبقت تتقشع
يعود زمان مرّ حلو مذاقه   وشمل أحبّائي كما كان يجمع
فقد كنت لا أعطي الحوادث مقودي   وإني لريب الدهر لا أتوجع
كأني صفاة زادها الدهر قسوة   من الصمّ لا تبلى ولا تتصدع
فسالمت حرب النائبات فلم تزل   تقود زمامي حيث شاءت فأتبع
وكنت إذا طاشت[1] سهام قسيّها   وقتني الردى من صنع (داود) أدرع

ثم يذكر جود الوزير وفضله وبأسه ويقول:

أبا حسن، هل أوبة بعد غيبة   فللبدر في الدنيا مغيب ومطلع
لئن خليت منك البلاد التي خلت   فلم يخل من ذكرى جميلك موضع
ففي كل أرض من أياديك ديمة   وروض إذا ما أجدب الناس ممرع

(١) لعل الكلمة «راشت» فهي أدل على المعنى.

وهو لا يفتأ يذكر داود باشا في شعره بعد أعوام طويلة، فإذا مدح السيد علي النقيب قال :

فبورك من لا زال يورثني الغنى ... وذكرني أيام داود ذي الأيدي

وإذا ذكر ابتلاءه بحرفة الأدب قال :

وليس لي حرفة سوى أدب ... جم ونظم القريض والخطب
من بعد داود لا حرمت منى ... فقد مضت دولة الأدب

لقد مضت دولة الوزير داود باشا لكن دولة الأدب لم تمض، فقد وجد الشاعر الأخرس من بعده حماة ورعاة كالسيد محمود نقيب الأشراف والمفتي أبي الثناء محمود شهاب الدين الألوسي ومحمد أمين الواعظ والشاعر عبد الباقي العمري والسيد علي النقيب وولديه سلمان وعبد الرحمن وعبد الغني الجميل وابنه محمّد وغيرهم من أشراف بغداد وعلمائها الذين حبوه بعطفهم وجودهم واتخذوه نديماً وزينة لدواوينهم. ومن الغرابة أن صلة الشاعر قد قطعت بالموصل مسقط رأسه أو كادت، فديوانه الضخم لا يحوي سوى قصيدة واحدة يمدح بها رئيس علماء الموصل عبد الله الفاروقي. لكنه وجد بديلاً طيباً في البصرة التي زارها غير مرة ومدح أشرافها ونقباءها واستمتع برفدهم وودهم.

كان الأخرس لطيفاً ظريفاً يضفي مع رفيقه عبد الله الخياط (المتوفى نحو سنة ١٨٩٠) على مجالس بغداد ودواوينها رائعاً من النوادر والفكاهات. وقد اعتبر الشعر تجارة يروج سوقها حيناً ويكسد أحياناً، فقال يخاطب السيد علي نقيب أشراف بغداد :

تاجرت في شعري إليك، وإنما ... نفق القريض لديك بعد كساده

وقال يمدح ولده السيد عبد الرحمن الكيلاني :

ربحت فيكم تجارة شعري ... لا رماها في غيركم بالكساد

وقال في مدح عبد الغني جميل :

أتاجر في شعري، وكل تجارة ... من الشعر إلا في علاك لفي خسر

وقال يرثي عبد الواحد جلبي من أعيان البصرة :

وقد كان فيك الشعر ينفق سوقه ... لديك ويبتاع الثناء ويشتري

ردّد هذا المعنى كثيراً في شعره لكنه كان مع ذلك عزيز النفس أبيّها، فإذا هنأ الشاعر عبد الباقي العمري بمنصبه الكبير قال :

سواي يروم المال مكترثاً به ... ويرغب في غير الذي أنا راغب
وإنك أدرى الناس فيما أريده ... وأعلمهم فيما له أنا طالب

وإذا سمت نفسه إلى المعالي اعتذر فقال :

أسفــــاً للشعــــر، لا حـظ لــــه ... في زمـــان الجهل والقـــوم اللئـــام

وقال:

لـــــــو تنبهت لها مجتهـــــــداً ... كيف بـالحظ إذا مـــا الحظ نـامـا؟

أو رأى المقــــدور فينــــا رأيـــــه ... مـــا تكلفت نهوضـــاً وقيـــامـــا

وهو لا يفتأ يندب جور الزمان وظلمه فيقول:

وإن فـــاض دمعي لا أزال أريقـــه ... فمن كبـــد تصلى ومن لـــوعـــة تصلي

وجـــور زمـان لـــو أرى فيـه منصفـاً ... لحاكمتـــه فيـــه إلى حكـم عـــدل

أمثلي يطـــوف الأرض شرقـاً ومغــربـاً ... على أرب يــرضى من الكثــر بـالقلّ؟

وتقــــذفني الأسفـــار في كل وجهـــة ... فمن مهمـــه وعـــر إلى مهمـــه سهل

وتحرمنـي الأيـــام مـــا أستحقـــه ... فـــلا كـــانـت الأيـــام إذ ذاك في حلّ

وأرجع أختـــار الإقـــامـــة خـــامـلاً ... حليف الجهـول الـوغـد والحاسـد النـذل

يطـــاولني من لست أرضـــاه مـوطئـاً ... وأكـــــرم نعلي أن أقيس بــــه نعلي

وفـــاخـــرني من يحسب الجهل فخـــره ... ونـــاظـــرني مـن لم يكن شكلـــه شكلي

فتبـاً لـــدهـــر تستـــذلّ قـــرومـــه ... وتستكبر الأنــــذال فيـــــه وتستعلي

أقـــامـوا مقـــامي مـن جهلت بـزعمهم ... فما قـــام في عقــد هنــاك ولا حلّ

ولـــو طلبـــوا مثلي لعـــزّ وجـــوده ... ومـــا وجـــدوا مثلي وأنّـى لهم مثلي؟

إلى مَ أمنّـي نفس حـــــرّ أبيـــــة ... شـديـد عليهـا في الـدنى مـوقف الـذلّ؟

ويثور وهو الساكن الهادىء فيصرخ قائلاً:

تـــركـت لكم، أعيـــان بغـــداد، منــزلاً ... تجور عليـــه النـــائبـــات وتعتـــدي

ففيم مقـــامي عنـــدكم ظـــامىء الحشـــا ... ولا أنـــا بـــالـــواني ولا بـــالمقيّـــد

وإني عـــزيـــز النفس لـــو تعـرفـــونني ... ولي بينكـم ذلّ الأسير المصفّـــــــد

ويقول:

وســـاء زمـــان بعـــد أن سرّهـــا بهم ... فماذا يـلاقي الحرّ في الـزمـن الـوغـد؟

ويقول أيضاً:

نتنفّس عـن وجـــد تـــوقـــد جمره ... فأجـــرى مسيل الـدمع ينهـلّ قطـــره

وبـــات يعـــاني الهم ليس ببـــارح ... على قلبـــه إقـــدامـــه ومكـــرّه

تمنّى ومـــا يغني التمنّـي مطـــالبـــاً ... حـــريّ بها لـــولا الـــدنيّـــة دهـــره

ودون أمــــانيـــه عـــوائق جمة ... يضيق لها في المنــزل الـــرحب صـــدره

تحمـل أعبـــاء المتــــاعب والتقـى ... على غـــرّة صرف الـــزمـــان وصبره

وأشقى بنـي هـــذا الـــزمـــان أريبـــه ... وأتعب مَـن فيــــه من النـــاس حـــرّه

ويقول:

إذا الحرّ ألفى الضيم شرط حياتـه رأى الـرأي فيها أن يموت ويقبرا

ولكنه بالرغم من كل ذلك رضخ لجور الدهر واستسلم لظروف الزمان. ولقد قيل: «إن سيّد نفسه يرث الآلام» فاطمأن شاعرنا إلى الدعة والخمول واتخذ ممدوحيه أسياداً يسترفد رفدهم ويعيش في ذراهم ولا يأنف أن يقول في بعضهم:

أراني ـ والخطوب إذا ألمّت ـ رجعت إلى جميل أبي جميل
كأن الله وكلـه برزقي وحولني على نعم الوكيل

ويقول أيضاً:

كفاني المهمات عبد الغني وذلك من بعض أفضاله
فإن نلت مالاً فمن جاهه وإن نلت جاهاً فمن ماله

إن شعر عبد الغفار الأخرس مثال لشعر عصر الانحطاط الأدبي، فهو شعر جامد جافّ يغلب عليه روح المحاكاة والتقليد ويكاد يخلو من الإشراق والانطلاق والابتكار. ويمكن القول إنّ قيمته قد أصبحت تاريخية أكثر منها أدبية. أما مواضيعه فتقتصر على المديح والتهنئة والرثاء والغزل والبكاء على الطلول وقد تتناول شيئاً من الوصف والهجاء شابتها المبالغة المستهجنة وشانها الإسراف الممجوج والتكرار المملّ. وهذا أخرسنا يهنىء السيد سلمان بنقابة الأشراف فلا يملك إلا أن يردد قول أبي العتاهية:

أتتك النقابة تسعى إليك تجرّ من التيه أذيالها
إذا لم تكن أنت أهلاً لها من الأنجبين فمن ذا لها؟

وهو يكثر في نسيبه من وصف المحبوب بالجؤذر والغزال والمتيم بالأسد الضرغام ويتساءل كيف يتسنى للغزال أن يتصيّد الأسد محاكياً في ذلك ابن الفارض الذي قال:

هل سمعتم أو رأيتم أسداً صاده لحظ مهاة أو ظبي؟

فإذا عرضت له مناسبة للإبداع ـ وقلما تعرض له ـ لم يستطع التحليق في شعره كما في وصفه للباخرة حين استقلها عائداً من البصرة فلم يقل فيها إلا أبياتاً متهافتة:

قد ركبنا بمركب الدخان وبلغنا به أقاصي الأماني
حين دارت أفلاكه واستدارت فهي مثل الأفلاك بالدوران

إلخ..

ولا يخلو ديوان الأخرس مع ذلك من الشعر الطريف، فمن ذلك وصفه لسرقة داره قبيل عيد الفطر.

يا ليلة في آخر الشهر قد جئت بعد الصوم بالفطر
كشف الصباح لنا حوادثها وتكشفت عن مضمر الغدر
أصبحت منها غير مفتقر أبداً إلى حرس على وكر

ثم يصف منزله الذي «أخذوا مساحته يوماً فما أوفى على شبر» ويصف صبيته الغرّ

الوجوه، السود الحظوظ الذين فرحوا بالغلائل الحمر فجرت دموعهم لضياعها، ويصف حليلته «نظيرة الخنساء» التي أسرفت في ندب أشيائها المسروقة وفقرها المدقع فيخاطبها قائلاً:

هل كنت قبل اليوم في سعة ... وملابس من سندس خضر؟
أو ما ذكرت العمر كيف مضى؟ ... لا كان ذاك العمر من عمر!

تلك قصيدة الأخرس في سرقة داره. ومن الطرافة أن نقابلها بقصيدة للشاعر الفرنسي كليمان مارو (١٤٩٧ ـ ١٥٤٤) Clément Marot في موضوع مماثل. يخاطب مارو ملك فرنسا عن سرقة داره، فيقول: إن سوء الحظ لا يأتي وحده بل يجلب معه مصيبتين أو ثلاث مصائب. ثم يقول إنه كان له خادم سكّير كذّاب جشع يجمع في نفسه كلّ الصفات المقيتة. وقد علم أن للشاعر كيساً ضخماً من النقود فابتدر غفلة منه وسرق دراهمه وملابسه، ثم امتطى ظهر حصان سيّده ومضى في الصباح الباكر دون أن يودّعه.

على أثر ذلك مرض الشاعر مرضاً شديداً ألزمه الفراش ثلاثة أشهر، ولم يبق منه سوى الفكر الذي يندب وينتحب. ولم ينفعه أطباء الملك الذين يعودونه ويتفقّدون صحته. ويمضي إلى القول إنه يخجل أن يطلب من الملك إعطاءه المال، لكن الدائنين يلحّون عليه مطالبين بدفع ديونه. وأخيراً يعد الملك بأن يفي صلته بمدائحه.

ومن جميل شعر الأخرس في الغزل:

إذا كان خصمي حاكمي كيف أصنع ... لمن أشتكي حالي لمن أتوجع؟
غرامي غريمي وهو لا شك قاتلي ... وكم ذلّ من يهوى غراماً ويخضع
أباح دمي بين الورى من أحبه ... فقلت وقلبي بالجوى يتقطع
دموعي شهود أن قلبي يحبه ... وحق الهوى عن حبه لست أرجع
وراموا سلوّي في هواه عواذلي ... وحق هواه لست أصغي وأسمع...
وأصبحت كالمجنون في حيّ عامر ... بليلى ومن وجدي أهيم وأولع
فلو زارني في النوم طيف خياله ... لكنت بطيف منه أرضى وأقنع

وقوله:

إلاّ يا فؤاداً قد أضرّ به النوى ... وأشجاه برق للحبيب لموع
إذا ما دعاك الصبر يوماً عصيته ... وأنت لما يقضي الغرام مطيع
كتمت الهوى دهراً فباحت بسره ... عيون وأفشت ما كتمت دموع
ويا منزلاً للّهو أبعده النوى ... أللمدنف النائي إليك رجوع؟
تذكرت فيك العيش، والغصن يانع ... وريق، وشمل الظاعنين جميع

وقوله:

زيـد لـومـاً فـزاد في الحبّ وجـدا ... مستهـــام تخيّـل الغـيّ رشـــدا
مـــازح الحب مـــرة فـأراه ... أن هـــزل الغـــرام يصبـح جـــدّا
ورمـى قلبـــه بجـــذوة نـــار ... أوقـــدتـــه بـلاعج الشـــوق وقـــدا

وقوله من موشح :

حبـــذا مجلسنـــا من مجلس ... جـــامع كـل غـــريب وعجيـب
نغـم العـــود وشعـــر الأخـــرس ... ومحبّ مستهـــــــام وحبيـب
يتعـــاطـــون حيـــاة الأنفس ... في بـــديع اللفـظ والمعنى الغـــريـب
بـــابليّ السحـــر معســـول الجنى ... أيـن هـــذا واشتيـــار العسـل؟
وإذا مـــــرّ نسيـم بيننـــا ... قلـت هـــذا ويحكـم مـن غـــزلي

وقوله وهو في البصرة وقد حنّ إلى بغداد :

فيـــا زمن الصبـــا ، هـل من رجـوع ... ويـــا عهـــد الشبـــاب متـى تعـــود؟
ســــلام الله أحبـــابي عليكـم ... إلى بغـــداد يحملهـــا البريـــد
يهيّـج لـــوعتي وجـــد طـــريـف ... لكـم ويشـــوقني وجـــد تليـــد
فهـل أخبرتـم أني بحـــــال ... يســـاء بها من النـــاس الحســود؟ . . .

وقوله :

مـن معيـــد لي أيـــامـــاً مضت ... كـــان فيهـــا الغيّ لـــو أنصفت رشـدا؟
أهصر الغصن إذا مـــا كـــان قـــدّاً ... وأشمّ الـــورد إذ مـــا كـــان خـــدّا
كم أهـــاج الشـــوق مـن وجـــد بها ... كلما جـــدده الـــذكـــر استجـــدّا
وجـــرى دمعي مـن الـــوجـــد فما ... يملك الطـــرف لجاري الـــدمع ردّا . . .

وقوله يتحسر على الشباب :

ذهبت لـــذاذات الصبـــا وتصرّمت ... أوقـــات أنسك في الـــزمـــان الغـــابـــر
وإذا امـــرؤ فقـــد الشبـــاب فما لـــه ... في اللهـــو بعـد مشيبـه مـــن عـــاذر
ولقـــد أقـــول لطـــامـع بـــرجـــوعهـــا ... كيف اقتنـــاصـك للغـــزال النـــافـــر؟

وقوله في الشوق والوداع :

تحنّ نيـــاق الظـــاعنين ، ومـــا لها ... تحنّ وفي القلـب المشـــــوق حنين
أبـــالنـــوق مـــا بـــالنـــازحين من الأسى ... ووجـــد بأحشـــاء الضلـــوع كمين؟
ولما التقينـــا للـــوداع عشيّـــة ... وبـــاحت بـأسرار الغـــرام عيـــون
بـــذلـت لها من هـــذه العين عبرة ... وإني بها لـــولا الفـــراق ضنين
فـــلا القلـب لما أزمع القلب صـــابـــر ... ولا الـــدمع من يـــوم الفـــراق مصـــون
فلـــولاك مـــا قـــاسيت ، يـــا غـــايـة المنى ... حـــوادث تقســـو مـــرة وتلين
إذا كنت لا تـدريـن مـا الشـوق بـالحشا ... سليني عـن الأشـــواق كيف تكـــون
جننت بـــذكـــر العـــامـــريـة ، والهوى ... جنـــون ، ولكـن الجنـــون فنـــون

ومن بديع حكمياته:

نؤمل أن يطول بنا الثواء ... ونطمع بالبقاء ولا بقاء
وتغرينا المطامع بالأماني ... وما يجري القضاء كما نشاء
تحدثنا بآمال طوال ... وليس حديثها إلا افتراء
وإن حياتنا الدنيا غرور ... وسعي بالتكلف واعتناء
نسرّ بها نساء به ونشقى ... ومن عجب نسرّ بها نساء
ونضحك آمنين، ولو عقلنا ... لحقّ لنا التغابن والبكاء
إلى مَ يصدّنا لعب ولهو ... عن العظة التي فيها ارعواء
وتنذرنا المنون ونحن صمّ ... إذا ما أسمع الصمّ النداء
ظهرنا للوجود وكل شيء ... له بدء لعمرك وانتهاء
لئن ذهبت أوائلنا ذهاباً ... فأولنا وآخرنا سواء
نودّع كل آونة حبيباً ... يعزّ على مفارقه العزاء
تسير به المنايا لا المطايا ... إلى حيث السعادة والشقاء
ولو يفدى فديناه ولكن ... أسير الموت ليس له فداء

وقوله:

وما حيلة الإنسان في ما ينوبه ... إذا كان أمر الله فيه مقدرا
وهبك اتقيت الرزء حيث رأيته ... فكيف بمن يأتيك من حيث لا ترى؟
ونحن مع المقدور نجري إلى مدى ... وليس لنا في الأمر أن نتخيّرا

وقوله:

نؤمل في الدنيا حياة هنيئة ... وما نحن إلا عرضة للمصائب
ونغترّ في برق المنى وهو خلّب ... وهيهات ما في الآل ماء لشارب
نصدّق آمالاً محال بلوغها ... ومن أعجب الأشياء تصديق كاذب
تسالمنا الأيام والقصد حربنا ... وما هي إلا خدعة من محارب
ونطمع أن تبقى ويبقى نعيمها ... فلم يبق منها غير حسرة خائب

أولع الأخرس بالخمر حتى شبهه الدكتور محمد مهدي البصير بأبي نواس ولكن أين هو منه؟ فالنواسي مجدّد في عصره، مبتكر في شعره، مفرد في وصفه، أما الأخرس فببغاء تردد معاني الأقدمين وأخيلتهم.

قال الأخرس:

أعندك علم بأن الهموم ... على خاطر المرء مثل الجرب
ولا من دواء لأدوائها ... ولا برء منها كبنت العنب
وحشر مع الغانيات الحسان ... إذا حشر المرء مع من أحب
وإني فقير إلى قهوة ... ومن لي بها مثل ذوب الذهب

تقـــوّي العظـــام وتشفي السقـــام ويـــذهب عن شـــاربيهـــا النصب
إذا مـــزجت بـــابن مـــاء السماء تـــولّـــد منهـــا لآلي الحبب

وقال:

قـد نحـرنـا الـزقّ يـوم العيـد نحـرا وأذبنـــــا بلجين الكـأس تبرا
وتخيلنـــا الحميّـــا لهبـــا وحسبنـــا أنها بـــالماء تـــورى
قـــال لي الســـاقي وقـــد طـــاف بها: هـي خمر وتـــراهـــا أنت جمرا
يـــا نـــديماً قـــد سقـــاني كأســـه اسقنيهـــا في الهوى أخـرى وأخـرى
إن أحلى العيـش مـــا مـــرّ على روضـــة غنـــاء والكـــاسات تترى
ويـــد المزن وأزهـــار الـــربى نشرت مـن بعـــد ذاك الطيّ نشرا
لا تخف مـن وزرهـــا في شربها أو تخشى مع عفـــو الله وزرا؟
راحـــة الأرواح بـــالـــراح التي لم تـــدع للهمّ في الأحشـــاء ذكـــرا

وقال:

إذا مـــا الشيخ في الكـأس احتســاهـــا غـــدا في الحال أنشط مـن غـــلام
لئن عللتنـي يـــا صـــاح يـــومـــاً بـأحبـــابي فعللني بجـــام
ومن لي بـــالكـــرى يـــومـــاً، لعلي أرى طيـف المليحـــة في المنـــام
ومـــا أنسى لها في الـــركب قـــولي وقـــد نظـــرت لأجفـــان دوام
نحـــولي مـــا بخصرك من نحـــول وسقمي مـــا بطـــرفك مـن سقـــام

وقال:

قـــام يجلـــوهـــا وبـــرد الليـل معلم خمرة مـــا اجتمعت يـــومـــاً مع الهم
فهـــي تبر في لجين ذائب أو كنـــار في فـــؤاد الماء تضرم
نظـم المزج عليهـــا حبـــاً رصع اليـــاقـــوت بـــالـــدرّ المنظّم
مـــرة يجلـــو بها العيـش وفي مثلهـــا قـــد يحمـــد الـــدهـــر المذمم
مـن رأى يـــا قـــوم منكم قبلهـــا قبـل هـــذا أن نـــوراً يتجسّم
فهـي سرّ منعـت سرّ الضيـــا في ضمير الليـــل مـــن أن يتكتـــم
قـــدمت في عصرهـــا حتى لقـــد أوشكـت تخبرنـــا عما تقـــدم

وقال:

جـــلا في الكـأس جـــاليـــة الهمـــوم وقـــام يميس بـــالقـــدّ القـــويم
وقـــد فـــرش الـــربيع لنـــا بســـاطـــاً مـن الأزهـــار مختلف الـــرقـــوم
بحيـــث الأفـــق مغبر الحواشي ووجـــه الأرض مخضر الأديم
هنـــالـــك تطلع الأقمار فيهـــا شمـــوس الـــراح في الليل البهيـم
كـأن حبـــابها نظمت نجـــومـــاً رجمت بها شيـــاطين الهمـــوم
وقـــد كـــانـت تـــدار عليّ راح تعيـــد الـــروح في الجســـد الـــرميم
أخـــذت بكـأسهـــا وطـــربـت فيهـــا فسلنـــي كيـــف شئـت عـــن النعيـم

بحيث الشمس طالعة مدامي ... وبدر التمّ يومئذٍ نديمي . . .

تلك أيام صفت للشاعر فنعم فيها بالحب والمدام، لكنه علم أنها لا تدوم وأن «الهوى أكبر داع للهوان» في «زمان من حقه أن يذمّا» فقال :

تركت الهوى بعد المشيب لأهله ... وراجعني حلم لسلمي يصارم
وما أنسَ لا أنسى زماناً قضيته ... وعود الصبا ريّان والعيش ناعم

وبث شكواه فقال :

شكوتك ما يلقى فؤادي من الأسى ... وما كل مَن أشكو إليه رحيم
فؤاد شجاه ما شجا كل وامق ... وما هو بعد الراحلين مقيم
أرى صبوة المشتاق دائمة الهوى ... فما بال صبر الصب ليس يدوم؟

ثم استكان وعلل النفس وقال :

هذي هي الدنيا كما تريانها ... حرم اللبيب وفاز فيها الأحمق
فصبرت فيها والخطوب متاحة ... لا ضاجر منها ولا أنا مشفق
حتى رأيت النائبات تقول لي : ... عجباً لصبرك كيف لا يتمزق!

أشرف الشاعر على السبعين من عمره، لكنه لم يترك قرض الشعر ولم يركن إلى العزلة والانزواء ولم يملّ الضرب في الأرض في سبيل بلغة العيش. ولعل آخر قصائده تهنئة السيد سلمان الكيلاني بنقابة الأشراف وورود الفرمان السلطاني بها إليه. وشدّ الرحال إلى البصرة فمرض فيها وأدرك حمامه في عشية عيد الأضحى سنة ١٢٩١ هـ ـ الموافق ليوم الأحد ١٧ كانون الثاني ١٨٧٥م .

وقد طبع ديوانه بعد وفاته بعناية أحمد عزت العمري الفاروقي، ونشر عباس العزاوي مجموعة له في شعر عبد الغني جميل وما قاله الأخرس فيه وطبعها ببغداد سنة ١٩٤٩ .

ولم يكد يمضي على وفاة شاعرنا الأخرس ثلث قرن ونحو ذلك حتى هبت على الشعر العربي نسمات جديدة ولاحت طلائع النهضة الأدبية الحديثة في وادي الرافدين، فكأنما بينه وبين الشعراء الذين تلوه دهر طويل .

إبراهيم الطباطبائي

الشاعر السيد إبراهيم بن حسين بن رضا بن السيد مهدي بحر العلوم الحسني الطباطبائي. اشتهر جدّه العلامة محمد المهدي بن مرتضى المعروف ببحر العلوم (١٧٤٢ ـ ١٧٩٧)، كما كان أبوه حسين (١٨٠٦ ـ ١٨٨٩) من شعراء عصره. ولد في النجف سنة ١٨٣٢، ودرس على والده الشاعر الفقيه. ونظم الشعر فتفوّق فيه وكان أستاذ عبد المحسن الكاظمي الذي لازمه حين قصد الطباطبائي الكاظمية وأقام فيها سنتين (١٨٨٧ ـ ٨٩). وتتلمذ عليه شعراء آخرون منهم محمد السماوي.

وقد توفي بالنجف سنة ١٩٠١، وطبع ديوانه سنة ١٩١٤ مصدّراً بمقدمة للشيخ علي الشرقي. قال الدكتور محمد مهدي البصير: «امتاز بخلال حميدة وصفات طيبة أهمها. . . اعتزازه بالعروبة وسرعة خاطره. . . وقوة حافظته. . . وخفة طبعه التي خلقت منه صورة مصغّرة لعمر ابن أبي ربيعة من حيث حبه للجمال وافتتانه به وتحدثه عنه. . .».

تبرّم بحاجته ورقة حاله، وهو الأبيّ المترفع، فقال:

لقد قسم الله رزق الورى	وقتّر بالرزق أقسامِيَهْ
فما زلت أشكره حامداً	وأقتل بالصبر آماليه
وهل نافعي أنني شاعر	تضرّ وتنفع أشعاريه؟
أديباً وتدركني حرفة الأديب،	فتعساً لآدابيه!

وشعره قديم الطراز، حسن الديباجة، أكثره في الغزل والفخر والوصف والمدح والرثاء والحكم والمواعظ.

ومن رقيق نظمه قوله:

أخي، هل راجع ليل فينظمنا	بشطّ دجلة نظم العقد إخوانا؟
بتنا على البدر حيث النجم يرمقنا	بطرفه في ضمير الليل نُدْمانا
بمجلس مشرف الأطراف مرتفع	عالٍ تطول به الجلاّس كيوانا
يا حيّ دجلة، والجرفان قد طفحا	فيضاً يسيل على الرَّضراض عِقْيانا

نسرّح اللحظ في مجرى سبائكها ... فيصدر الطرف دون الورد حيرانا
لو كنت تطلبنا، والملتقى كثب، ... لما طلبت حياةً دون لقيانا
مضت بتلك الليالي الصالحات لنا ... نوىً شطون تمدّ البحر أشطانا
أحبابنا، إن تهن فيكم وسائلنا، ... فحسبنا كلّ شيء بعدكم هانا
هلاّ نكون كما كنا وكان لنا، ... فإنما العيش ما كنّا وما كانا

وقيل في ترجمة الطباطبائي أنه كان مكثراً من النظم، ولكنه لم يتخذه يوماً حرفة ولا جعله لنفسه ساعة مهنة يكتسب بها نشباً أو يلتمس بها من العيش سبباً.

كان سريع الخاطر، حاضر البديهة، متفتّح القريحة، أكّد علي الشرقي أنه ربما ارتجل القصيدة التي تتألف من مئة بيت في مجلس واحد، كما فعل بعده تلميذه عبد المحسن الكاظمي. وقال محمد مهدي البصير أنه كان قويّ الحفظ، ، حديد الذاكرة، أملى شعره كله على ولده السيد حسن وكان راسخاً في ذهنه. وكان إلى ذلك رقيق الطبع، خفيف الروح، تأسره الصباحة وتستهويه الملاحة.

من شعر إبراهيم الطباطبائي في جبل عامل:

أين السهول من جبال عامل ... حكت مناط الشهب بالتواهل
أخاشب رواسب شوامخ ... بواذخ فوارع موائل
عادية، بل قبل عاد رسخت ... معاقلاً للفضل والفواضل
يحجب قرن الشمس مشمخرّها ... حتى ترى المجير كالأصائل
إذا النّسيم استنّ في ربوعها ... صحّ سقيم الروض في الخمائل

وقال يرثي الشاعر السيد حيدر الحلي:

لقد غلب الجرح أن يستطبّ، ... فمن أين أدمل فيك الجراحا؟!
أرح فلغيرك هذا الرواح ... برحت ولست أطيق البراحا!
أحيدر، زأراً بغيل القريض ... عسى أن تغضّ الكلاب النباحا!

وإذا ذكر الشاعر إبراهيم الطباطبائي وآله فلا بدّ من ذكر مأساة غرامية سجّلها التاريخ إلى جانب قصص المجنون وليلى وروميو وجولييت وغيرهم من المحبّين. روى هذه المأساة محمد مهدي البصير ورواها قبله وبعده كثير من الأدباء.

كان الفتى الشاعر الوسيم عبّاس علي النجفي (١٨٢٦ ـ ١٨٦٠) تلميذاً للسيد حسين الطباطبائي (والد إبراهيم) فأحبّ ابنته وقال فيها قصيدته الشهيرة:

عِديني وامطلي وعدي، عِديني ... وديني بالصبابة فهي ديني

ومُنّي قبل بينك بالأماني | فإنّ منيّتي في أنْ تبيني

ومنها:

صِلِي دَنِفاً بحبّك أوقفته | نواكِ على شفا جرف المَنون
أما لنواكُمُ أمد فيقضى | إذا لم تُقْضَ عندكُمُ ديوني؟
وكنت أظن أنّ لكم وفاءً، | لقد خابت، لعمر أبي، ظنوني
هبوني أنّ لي ذنباً، وما لي | سوى كلفي بكم ذنب، هبوني
ألست بكم أكابر كلّ هولٍ | وأحمل في هواكم كلّ هُونِ؟
أصون هواكم، والدمع يهمي | دماً، فيبوح بالسرّ المصون
يميناً لا سلوتُهُم يميناً | وشلّت إن سلوتُهُمُ يميني،
إذا ما الليل جنّ بكيتُ شجواً | وطارحت الحمائم في الغصون
ولو أبقت لي الزفرات صوتاً | لأسكتُّ السّواجع بالحنين...

وقيل إن الأستاذ ارتضى بعبّاس صهراً، لكن أبناءه الأربعة ـ ومنهم إبراهيم ـ أنفوا من هذه المصاهرة فأهانوا الشاعر العاشق وضربوه ضرباً مبرّحاً.

وتوفّي عباس شاباً في الرابعة والثلاثين من عمره.

شهاب الدين المليسي

الشاعر شهاب الدين العلوي المليسي المعروف بالسيد شهاب الموصلي، ولد في الموصل سنة ١٨١٥. وسافر في شبابه إلى بغداد والبصرة، وقضى فيهما نحواً من أربعين سنة ثم عاد إلى مسقط رأسه.

نظم الشعر المهلهل في الأغراض القديمة كالمديح والرثاء وما ماثلهما. وقد ذكره عباس العزاوي في الجزء الثاني من «تاريخ الأدب العربي في العراق»، فقال: إن له قصائد كثيرة هي شعر مناسبات، منها في الأستاذين أحمد شاكر الألوسي ونعمان خير الدين الألوسي، وله أبيات في تقريظ جريدة الجوائب لصاحبها أحمد فارس الشدياق. وكانت بينه وبين ناصيف اليازجي مراسلات، وله قصائد في رثاء الشيخ أحمد نور الأنصاري قاضي البصرة والسيد سلمان النقيب وغيرهما. وقد مدح والي بغداد محمد نامق باشا الكبير.

وتوفي بالموصل سنة ١٩٠٧ (وقيل ١٩٠٤).

من شعره: قال يؤرخ تعيين عبد الباقي الألوسي قاضياً لكركوك (١٨٧٧):

هـــو عبـــد البـــاقي الـــذي ببقـــاه قـــد رمى بـــالفنـــاء أهل النفـــاق
قـــد أتى مسعـــداً وجـــاء معيـــداً أملي لـــــــــلإثمار والإيـــــــراق
كلّ وقت إليـــه شـــوقي جـديـــد والليـــــالي قـــد أخلفت إطـــلاقي
علقت نفســـــه بكسب المعـــــالي والمعـــــالي من أنفس الأعـــــلاق
وارث عـن أبي الثنـــــاء أبيـــــه في المبـــاني روح المعـــاني الـــدقـــاق
قـــد تحلّت بـــه الشريعـــة جيـــداً وتحلّى الأعنـــــاق بـــالأطـــــواق
لقيت شهـــــر زور للـــــزور منـــه مـــاحياً مـــاحقاً شـديـد المحـاق . . .

إلخ . . .

وقال السيـد شهاب الـدين من قصيدة لـه في تقريظ كتاب مجمع البحـرين للشيخ ناصيف اليازجي :

حـــديقـــة أثمـــرت أوراقهـــا حكماً لنـــا شماريخهـــا امتـــدّت وقـــد يَنعَتْ
فمـن يشأ يتفكّـــــهْ في منـــــاقبهـــا ومن يشـأ يتفقّـــه بـــالّـــذي شرعتْ
طـــالعْ تقـــابِلْكَ مـــرآة الـــزمـــان بها وانظـر إلى صـورة الـدنيـا وقـد نصعت
كم أودعـت نبـذاً للسّمع قـــد عَـــذُبَتْ وِرْداً ومن قلـب ذاك الصـدر قـد نبعت
محاضرات بها الحضّـــــار راغبـــــة غـــابت عن الـراغب المفضـال وامتنعت

إلخ . . .

الشيخ حمّادي آل نوح

الشاعر محمد بن سلمان بن نوح الغريبي الكعبي المعروف باسم الشيخ حمّادي نوح، ولد في الحلـة في سنة ١٨٢٥ وتأدب فيهـا وقرض الشعر. كـان وثيق الصلة بـآل قزوين كبير العـلاقة بـالإمام السيـد حسن الشيرازي الذي تـرك النجف في نحو سنـة ١٨٣٥ ليقيم في سامرّاء.

اشتهـر بمدائحـه وتهانئه ومـراثيه، فكـان يقصد المحمّـرة ليمدح شيـوخها و يفـوز بعطايـاهم، كما كان يمدح آل القـزويني الذين يكرمونـه و يصلونه وسـواهم من رجال عصره.

لكنه عرف بنسكـه وتقاه وشعره الصوفي الذي يسبّح الذات الإلهيـة و يمجّدها حتى دعاه الدكتور محمد مهـدي البصير «خليفة ابن الفارض». وقال إن الشيخ حمادي كان جليل القدر، رفيع المنزلة، محترماً عند أدباء عصره، ولم يكن يحفل بشعر أحد عدا السيد

حيدر الحلي . وكان متمكناً من اللغة ، سئل عن القاموس فأشار إلى صدره وقال : هذا هو القاموس . وتوفي في الحلة في آذار ١٩٠٧ .

قال البصير إن شعره يكثر فيه الغريب ويغلب عليه الغموض . ومن شعره في تقديس الله :

شمّر الوهم أن ينال ثناكا ... فخبا دون شارقات علاكا

خرق الغيب فالتوى الوهم صالٍ ... قبس النور من سناء بهاكا . . .

بك ، يا حيرة البصائر، ضلّت ... فِكَرٌ منك حاولت إدراكا

حاولت كنه ذي الجلال ، ولكن ... عبرت في دجى الضلال عداكا

إلخ . . .

محمد سعيد الإسكافي

الشاعر محمد سعيد الإسكافي النجفي المعروف بالإسكافي وهو الشيخ محمد سعيد ابن محمود سعيد نائب كليدار الروضة الحيدرية ، ولد في النجف في ١٧ تشرين الثاني ١٨٣٤ . ودرس العلوم الدينية والعربية ، وأخذ الأدب عن خاله الشاعر الشهير عبّاس الملاّ علي المتوفى سنة ١٨٦٠ صاحب القصيدة المشهورة :

عديني وامطلي وعدي، عديني ... وديني بالصبابة فهي ديني

نشأ شاعراً فكانت له مساجلات أدبية مع أدباء عصره، ومدح آل بحر العلوم وآل كاشف الغطاء وغيرهم كما مدح والي بغداد سرّي باشا (١٨٩٠ ـ ٩١) . وقد ترجم لهذا الشاعر ونشر نماذج من شعره محمد علي اليعقوبي وعلي الخاقاني وسلمان هادي الطعمة ، وذكره عباس العزاوي في الجزء الثاني من تاريخ الأدب العربي في العراق .

هاجر إلى كربلاء في عقد الثمانين من القرن التاسع عشر وأدركه الحمام فيها في ١٤ آب ١٩٠١ .

نظم الشيخ محمد سعيد الشعر بالعربية والفارسية . ومن شعره في الغزل :

فؤادي لوصل الغانيات مشوق ... فللشوق عندي زفرة وشهيق

بنفسي من البيض الحسان خريدة ... فؤادي بها دون الحسان علوق

إلى مثلها يرنو الحليم صبابة ... إذا ما انثنت كالغصن وهو رشيق

وقال :

تذكرت عهداً بالحمى راق لي دهراً ... فهاجت تباريح الغرام لي الذكرى

وأومض من وادي الغضا لمع بارق فأذكى لنيران الغضا في الحشا جمرا
فيا حبذا تلك المغاني، وإن نأت، ويا ما أحيلى العيش فيها وإن مرّا
فيا طالما بالأنس كانت أواهلاً وإن هي أمست بعد موحشة قفرا

الشيخ محمد حسن كبّة

التاجر الوجيه والشاعر الفقيه الشيخ محمد حسن من آل كبّة من بيوت بغداد القديمة التي تنتسب إلى ربيعة، وهو بيت تجارة وأدب ورعاية للشعر والإحسان. ومحمد حسن ابن محمد صالح بن مصطفى بن درويش علي بن جعفر بن علي بن معروف، ولد في الكاظمية في حزيران ١٨٥٣، ونشأ في بغداد نشأة أبناء الأشراف. وعمل في التجارة، فلما بلغ التاسعة والعشرين من عمره، انقطع إلى العلم والأدب. وتتلمذ على علماء النجف والكاظمية، ثم رحل إلى سامراء سنة ١٨٨٩، ودرس على فقيه عصره محمد حسن الشيرازي الحسني (المتوفى سنة ١٨٩٤). ولازم بعد ذلك الشيخ محمد تقي الشيرازي، ونال الإجازة في علوم الدين. ووضع مصنفات كثيرة، طبع منها بعد وفاته: الأحكام الشرعية في المواريث الجعفرية (١٩٣١) إلخ.

وتوفي في سامراء في ٢١ حزيران ١٩١٨.

نظم محمد حسن كبّة الشعر، وكانت له مطارحات أدبية مع رجال عصره، ولا سيّما محمد سعيد الحبوبي، نشر معظمها في «العقد المفصّل» الذي ألفه السيد حيدر الحسيني الحلي المتوفى سنة ١٨٨٧ في مناقب آل كبّة وطبع ببغداد سنة ١٩١٣ ـ ١٤. وقد وصفه الدكتور محمد مهدي البصير فقال إنه كان كريم الطبع، سمح الكفّ، أريحي الروح، حاضر البديهة، رقيق الخيال، مشبوب الحسّ، محباً للأدب وأهله حباً جماً. وقال إن شعره في جملته يجمع بين الرقة والمتانة ونقاء الديباجة والجزالة.

وهو والد الشيخ محمد مهدي كبّة رئيس حزب الاستقلال.

من شعره في الغزل:

نحن قوم إذا نظرنا صبونا وإذا ما سلا الورى ما سلونا
فتنتنا بحسنها وجنات ككؤوس الطّلى صفاءً ولونا
وجفون رشقننا بنبال نحن منها، لولا الهوى، ما دنونا

وقال أيضاً:

عليك سلام الله ما ذرّ شارق وما أنّ مشتاق وما حنّ وامق
وما تيّمتني في هواك صبابة وما علقت بالقلب منك علائق
وما سجعت في أثل سَلْع حمامة كأني وإياها مشوق وشائق

وقال:

ضـــاع قلـب المولّـــــه المفتـــــون ... بــــــربـى الكـــــــرخ لا ربـى جيرون

فـــــانشـــــداه بين الظعــــون فـإني ... خلتـــــه ســــار بين تلك الظعــــون

يــا غــزالاً تــاقت لـــه النفس شـوقـاً ... لا لغيــــــــدٍ من الظبــــــاء العِينِ

أنت ليــلاي والـــرصــافــة نجــدي ... وأنــــا في هـــــواك كـــالمجنـــون

وقال أيضاً:

الصبر غـــــار وأنجـــــد الـــدمعُ ... من نــــاظـري فــاعشــوشب الــربع

والقلـب حيــث نــأى الخليــط نــأى ... رفقــــــاً بــــــه، فلــــه الهوى طبـع

-تّـــام تــرشـق بـــاللحـــاظ حَشـاً ... مــــا مسّهـــا لــولا النّـــوى صــدع

وقال من قصيدة في رثاء والده:

أأُبَيَّ، كيـف تـــذوق عيني لحظـــــة ... نــــومــــاً وكيف من المدامع تجمـــد

أم كيف قلبي لا يـــــذوب ومهجتي ... كمـــداً بنـــــار الحزن لا تتـــوقّــــد

وظعنـت عـن غـضّ النسيـم إلى البلى، ... يـــــا ليت لـــــو أنّي مكـــــانك أُلْحَدُ!

وتـــركـت مَن تحنـــو عليـــــه رقّـــــة ... أسفـــــاً يحنّ إلى لقــــاك وينشـــــد

ومن شعره الغزليّ:

كم ليلــةٍ من ليـــالي الشــوق مقمــرة ... هبّت بها نسمات الشّــــوق والشغـف

سهــرتها محصيــاً منهــــا كــــواكبهــــا ... مــراعيـاً بــدرهـــا مـن شـدّة الـدنف

فمــــذ أبت مقلتي إلاّ انسكـــــاب دمٍ ... وأشرفـت كبــــدي الحرّى على التلـف،

قـال النـديم: على مَ الـوجـد؟ قلت لـه: ... نعم، تــذكّــرت مَن قــد حلّ بــالنجف

فقطّعت قلبـي الــذكـــرى وبــــرّح بي ... شــــوق ملحّ وتــــوق أوهنــــا كتفي

محمد سعيد الحبّوبي

محمد سعيد الحبوبي من كبار شعراء العصر الأخير ولد في النجف في ١٩ نيسان ١٨٥٠ وتوفي بمدينة الناصرية وهو على رأس متطوعة العشائر لصدّ الزحف البريطاني في ١٥ حزيران ١٩١٥. وقد أوردت ترجمته في كتابي «أعلام اليقظة الفكرية في العراق الحديث» المطبوع في بغداد سنة ١٩٧١.

طبع ديوانه الكامل بعناية وزارة الثقافة والإعلام في بغداد سنة ١٩٨٠ وتحقيق ابن أخيه عبد الغفار الحبوبي. وهو محمد سعيد بن محمود بن قاسم بن كاظم بن حسين بن

حمزة بن مصطفى الـذي ينتهي نسبـه إلى الحسن السبط بن الإمـام علي بن أبي طـالب . ومصطفى أول مَن تلقب «حبّوبي» . وأصل الأسرة من الحجاز نزح جدها حميضة بن أبي نمي الأول إلى العراق سنة ١٣١٨ م، ثم استوطنت النجف منذ عهد بعيد .

كان محمود أبو الشاعر مزارعاً يمتلك أراضي بالقرب من الكوفة والمسيّب، ثم ذهب إلى حائل يمارس التجـارة مع بعض أقاربه . وقـد التحق محمد سعيد بأبيـه في حائل من أعمال نجد، وكـانت تـابعة لحكم أمـراء آل رشيد، وظل فيهـا ثلاث سنـوات وعاد إلى النجف سنة ١٨٦٧ . وانصرف إلى الشعـر، حضر المجالس الأدبية فجال فيهـا وصال . وكان يزور بغداد فيتصل بصديقه محمد حسن كبّة ويحضر ندوات الأدب . ثم انقطع إلى الفقـه وعلوم الـدين، فدرس على علماء كثيرين منهم الشيـوخ محمد حسين الكـاظمي ومحمد الشربياني ورضا الهمداني ومـوسى شرارة ومهدي الحكيم ومحمد طه نجف . وقال جامع ديوانه عبد الغفار الحبوبي إنه زامل أيام الدراسة السيد جمال الدين الأفغاني الذي مكث في النجف أربع سنوات يدرس الفلسفة والتصوّف .

ثم ترك نظم الشعـر وانصرف عنه انصرافاً كلياً إثـر حادثة حدثت لـه مع الملاّ كاظم الخراساني (الآخوند) . قال جعفر الخليلي إنه ناقش الملا في مسألة تتعلق بعلم الأصول، وألح في المناقشة حتى قال له الخراساني : إنك رجل شاعر، فما أنت والمسائل الأصولية؟ ومنذ ذلك اليوم قرّر الحبوبي تطليق الشعر لينصرف إلى الفقه .

وقد قال الدكتور إبراهيم علي أبـو الخشب في كتابه «تاريخ الأدب العربي في العصر الحاضر» وهو يتحدّث عن مصطفى لطفي المنفلـوطي الذي درس في ا لأزهر ثم انقطع إلى الأدب، إن علماء الأزهر كـان فيهم مَن يعتقد أن الأديب لا يكون عالماً، وربما كـانوا يرمون الشيخ محمد عبده بذلك أيضاً لغلبة البيان على منطقه وجريان الأدب في دمه .

ولما دخلت تـركيـة الحرب واحتلّ الإنكليـز البصرة في تشرين الثـاني ١٩١٤، دعـا الحبوبي إلى الجهـاد في صفوف الترك . وخـرج من النجف يتبعـه المجاهدون فـذهب إلى سـاحـة الحرب في الشعيبـة . لكن القـائد سليمان عسكري بـك اندحـر أمـام القـوات البريطانية وانتحر، فقصد الحبوبي الناصرية واشتدّ عليه المرض فتوفي بها .

رثاه الشيخ جواد الشبيبي فقال :

فقيـــــد المسلمين غـــــداة أودى | حسبـت الـــــدين بينهـم فقيـــــدا

وقال علي الشرقي :

حماة الحمى قـــد شيّعــوك إلى الثغـــر | فبـــالـــرغـم أن يستقبلـــوك إلى القبر
وشـــاؤوك لـــلأوطـــان ظهـــراً ممنعـــاً | ومـــا شعـــروا إلاّ بقـــاصمـــة الظهـــر

وممن رثـاه أيضاً من الشعـراء جـواد البلاغـي وعبد الحسين الحويـزي ومحمـد رضـا الشبيبي ومحمد مهدي البصير.

شعر الحبوبي :

من رقيق شعره :

مـــــا لقلبـي تهزّه الأشـــــواق؟ خبّرينــــا : أهكــــذا العشّـــاق؟
كـلّ يـــوم لنـــا فـــؤاد مـــذاب ودمــــوع على الطلـــول تُـــراق
عجبـاً كيـف تـدّعي الـورْق وجـدي ولـــدمعي بجيــدهـــا أطـــواق؟
كم لنـــا بـــالحمى معـــاهـــد أنس والصّبـــا يـــانع الجنى رقـــراق . . .
فـــارحمي، يـــا أُمَيْمُ، لـــوعـــة صبّ شفّـــه الـــوجـــد بعـــدكم والفـــراق
كـــاد يقضي من الصبـــابـــة لـــولا أن تحامـــــاه في الـــوداع العنـــاق

وصف شاعرنا الخمرة وقال فيها القصائد والموشحات ولم يخرج في خمرياته عن معاني الأولين. فالخمرة لديـه بيضاء كالشمس أو حمراء كالياقوت، شـذا أنفاسها يعطر الجوّ، عتقها القسّ في ديره سنين طوالاً فأدركت عهد الملوك الغابرين وشهدت دولهم دولة بعد دولـة. والخمرة تلطف الطبـاع وتبهج وتخدر الأحـاسيس، وهي علاج للنفس الحزينـة وتردّ الروح إلى الجسـوم الراقدة في القبور. وقد قـال عبد الغفار الحبوبي أن عمّـه لم يعاقر الخمرة ولم تسلب لبّـه، وقد وصفها عن مخيّلة خـلاقة وحسّ فني فجاءت كأنها منتـزعة من الواقع. وقد قال الحبوبي نفسه :

لا تخل، ويـــكَ، ومـــن يسمـــع يَخَلْ أنني بـــالـــراح مشغـــوف الفـــؤاد
أو بمهضـــوم الحشـــا ســـاهـي المقل أخجلت قـــامتـــه السّمـــر الصّعـــاد
أو بـــربـــات خـــدور وكلـل يتفنَّـن بقـــــرب وبعــــاد
إنّ لي مـن شرفي بُــــــــرْداً ضفـى هــــو من دون الهوى مــــرتهني
غير أني رمـت نهج الظُّـــرَفـــا : عفـــــة النفـس وفسـق الألسـن

والحقيقة أن الحبوبي قرأ شعر أبي نواس وصحبـه فتمثّله وقلد معانيه أحسن تقليد ولم يخرج في خمريـاته على جمالها الفني وتـركيبها المتين بـرأي جديـد أو فكرة طـريفة. وهـو يذهب أحياناً مذهب الصوفية وينهج سبيل ابن الفارض فيقول :

وقـــد شفّـت فما ظهـــرت لـــراءٍ فكـــان خفـــاؤهـــا فـــرط الظهـــور

ويقول :

وانْعتَتْهــــا ويـكَ في ألقــــابها فهـــي رَوْح وهـــي رُوح وهـــي راح

وذكر ناشر الديوان أن عمه قلما تطرق إلى الشعر الديني أو القومي، فخلا شعره من المدائح النبوية والمراثي الحسينية خلافاً لرجال عصره ومصره.

جواد الشبيبي

شاعر يعدّ في الطبقة الأولى من شعراء المدرسة القديمة في العراق، وهو والد الشعراء محمد رضا ومحمد باقر ومحمد حسين ورئيس غرفة تجارة بغداد محمد جعفر الشبيبي.

وهو محمد جواد بن محمد بن شبيب بن راضي بن إبراهيم بن صقر، ولد في بغداد في ٧ كانون الثاني ١٨٦٥، وكان أبوه الشيخ محمد مقيماً بها فراراً من سطوة بعض شيوخ المنتفق. ولم تمض على ولادته أيام قليلة حتى توفي والده، فأخذته أمّه إلى أبيها الشيخ صادق أطيمش في الشطرة، ونشأ الطفل اليتيم في رعايته.

ولما شبّ عن الطوق قصد النجف سنة ١٨٨٠ فدرس على علمائها اللغة والأدب وعلوم الدين. وكان من أساتذته السيد عبد الكريم الأعرجي والشيخ أحمد المشهدي والسيد مهدي الحكيم ومحمد الطباطبائي، وتخرّج في الشعر على الشيخ محسن الخضري والسيد محمد سعيد الحبّوبي.

وانصرف جواد الشبيبي إلى الشعر والأدب فبرز في النظم والترسّل. وكانت له مساجلات مع أبناء جيله كالسيد جعفر كمال الدين الحلي (١٨٦١ ــ ١٨٩٨) وعبد الحسين الجواهري وهادي كاشف الغطاء وعبد الكريم الجزائري. واستعان به المشير أحمد فيضي باشا وكيل والي بغداد (١٩٠٢ ـ ٠٤)، عند مروره بالنجف على رأس حملة عسكرية، في تحرير رسائل إلى شيوخ القبائل تحذيراً لهم من التمرّد والعصيان وترغيباً في الطاعة والإخلاد إلى السكينة.

وكان على وقاره حاضر البديهة، حلو الفكاهة، لطيف الدعابة. قال جعفر الخليلي: «وكان الشيخ جواد الشبيبي هو المجلّي في الغالب بشعره ونثره ونوادره وسرعة خاطره. وقد قيل أن نوادره الأدبية وتحفه الفنية من الكثرة بحيث تستوعب مجلدات ضخمة لو تصدّى أحد لجمعها». ثم قال: «. . . كان العلماء كثيراً ما يتخذون من قلمه ترجماناً للاعراب عن رغباتهم ومقترحاتهم، فيبعثون بها للباب العالي باسطنبول، أو يخاطبون بها الولاة ببغداد. وكثيراً ما يقصده أرباب الحاجة ممّن يريدون أن يسجلوا وصيّتهم بعد مماتهم، أو يريدون وقف أملاكهم أو تأسيس شركة لهم أو إجراء بيع أو شراء على الوجه الشرعيّ فيما بينهم، فيدبّج لهم بإنشائه وخطه وثيقة حسبها من القيمة الشرعية والعرفية أن يقال إنها من وضع الشيخ جواد الشبيبي. فقد عرف ببراعة إنشائه كما عرف بحسن خطه، ليس في النجف فحسب وإنما في جميع الأوساط الأدبية في العراق. وكثيراً ما كان ينظم الشعر الجيّد ويعطيه لمن ينتحله لنفسه لغرض من الأغراض».

وقد أقام جواد الشبيبي متنقلاً بين النجف وبغداد. وامتدّ به العمر، وسما أنجاله في عالم الشعر والأدب وتقلدوا المراكز الرفيعة في السياسة والتجارة والمال. وتوفي ببغداد في أوّل آذار ١٩٤٤.

مؤلفاته وشعره :

ترك تـآليف خطية لم يهيّأ لها الطبع ، منهـا ديوان شعره الـذي جمعه محمـود الحبّوبي ، ومجموعة مراسلاته وقد سماها «الروض الممطور بالدرّ المنثور» . وله كتاب في تراجم أدباء العصر، وآخر في حياة الشيخ خزعل آل الشيخ جـابر أمير المحمّرة، ونبـذة في الأصول إلخ .

وشعره رصين الـديباجة ، واضح الأسلـوب يشتمل على المعاني القديمـة والأغراض الاجتماعية والإخوانية والوطنية . فمن مدحه للسيد حسين القزويني :

أمنيـع أركـــــــان الفتـــــــوّه ... وربيـــــــــــــــع روّاد المروّه

وابن الـــزعـــامـــة والكـــرامـــة ... والإمـــــامـــــة والنبـــــوّه

ومـن الإلـــــــه بجـــــــدّه ... وأبيـــــــه في القـــــرآن نَـــــوَّهْ

قـــــد ، والنبـــيّ محمّــــــد ، ... أصبحـت لــــلإســـلام قـــدوه

ومن رثائه للسيد المومأ إليه أيضاً :

أصغت لـرعـدٍ أوقـر السّمع هـائلـه ... فقلـت : نعـيّ في السماء زلازلـــــــه

سما صـوتــه حتى إذا استـوعب السّما ... تحدّر في الأرض العـريضـة وابلـه

ومن شعره يخاطب السيدة أم كلثوم :

قمـريَّـــة الـدّوح يـــا ذات الترانيم ... مع النســور على ورد الـردى حـومي

سيري مع الجحفـل الجرار خـــافقـــة ... وســابقي فـوقـــه سرب القشــاعيم

ونـــاوحي الأمـــة الثكلى فقـــد رزئت ... بـــلادهـــا بـــالمطـــاعين المطـــاعيم

مـــا في العـــراق اذا استقـــريتِ بقعتـــه ، ... أذن تصيـخ لأفكـــــار الأنـــــاغيم

وقال شاكياً متألماً لحال أبناء الشعب :

يـا مـاطل الـوعـد ، مـا هٰـذي الأسـاطير؟ ... زادت على السّمع هـاتيك المعـاذيــر

العـــدل منـك سمعنـــاه ولم نـــره ... والجور منـك أمـــام العين منظـــور

إن قلتَ : عصري عصر النـور مفتخـراً ... فظلمـــة الظلم مـــا في فجـرهـــا نـــور

وهل يفيــد جمال ا لـوجـه نــاظـره ، ... والبرقع الـدكن فيـه الحسن مستـور؟

حتى يقول :

يـا حـارث الأرض والسّـاقي وبـاذرهـا ، ... قتّر إذا نفـع المحـــــــــــروم تقتير

إذا أتـــاك رجـــال الخرص فَــــألْقِهُمُ ... بطلعـــة بــرقـت منهـــا الأســاريــر

إن بــاغتـــوك بنــار شبّهـــا غضب ... وسعّــــرتها من العسـف الأعـــاصير،

فاحفظ بقايا حبوب منهُمُ سقطت، فللبقايا ببغدادٍ مناقير
طارت من الغرب، والأطماع أجنحة، والغاية الشرق، واللّفظ الدّنانير

وقال في نهضة العرب:

يا عربُ، أين جيادكم، وهي التي لم يثنها في الروع جذب عنان
الناشرات من السبيب مراوحاً يخفقن فوق مناكب الفرسان
سل عن جوانبها: إلى كم غرّبت ما بين ذي قار إلى حلوان؟

أما نثره فناصع الديباجة، واضح البيان، قديم الأسلوب، كثيراً ما يزينه بالسجع. وقد نقل له عبد المحسن شلاش نصّ رسالة حررها باسم المشير أحمد فيضي باشا، قال منها:

«ليعلم مَن وعت أذنه من قبائل جزيرة العرب وعموم أهل القرى والطّنب، أن مرهب الدول، خلف السلاطين الأول، ناشر العدل في الأرض، معدن البسط والقبض، صان الله تعالى ببركة وجوده بيضة الإسلام من الصدع، وجعلكم كسائر رعاياه ملقين له بالطاعة والسّمع. أمرنا بالصفح عن الماضي، وسرنا نحوكم لننشىء الإصلاح بينكم والتراضي، ونخمد نيران الفتن، وننهج بكم أوضح سنن، فوطأنا، ولله الحمد، أرضاً ما لسوى المسلمين بها وطأة قدم، ولا لغير الموحّدين يخفق في بقاعها علم. ورأينا أن نقرع أبواب مسامعكم بخطاب الإرشاد، ونجمع شملكم، أيها المسلمون، على الصفاء والاتحاد. ما جئناكم إلا لنختبر صفاتكم ونحقن دماءكم ونحكم بالقرآن الشريف والسنّة النبويّة ونؤلف بين قلوبكم، ومن العدل التأليف بين الرعيّة.

دعوا الشحناء والبغضاء واجتنبوا المغازي وسفك الدماء، فأنتم ملّة واحدة، والمسلمون أخوة سواء. وادخلوا حقيقة في مجاز الإيفاء لتغمركم الحاقة في الرّضى من بعد تلك الواقعة. ولا تصيروا أغماد سيوفكم هواديكم فتضعفون، وفوق الضعف تشمتون أعاديكم الكافرين...».

من شعر الشيخ جواد الشبيبي:

قال يتألم من داء الشيخوخة:

طبيبي، ما عرفت عياء دائي وأنت معالج الداء العياء
وبي ألم يؤرّقني، فتعى يميني فيه عن جذب الرداء
وحمّى خالطت عرقاً بجسمي فباتا مزمعين على اصطلائي
وكنت خلقت من ماء وطينٍ فها أنا صرت من نار وماء
مللت العائدين وقد أمالوا إليّ رقاب إخوان الصفاء

وقالوا: إنّ صحّته ترقّت، ... فقلتُ: أرى انحطاطي بارتقائي
وقالوا: قد شفيت، فقلت: كفّوا ... فمن عللي تعاليل الشفاء
أرى شبحاً يسير أمام عيني ... لغايته فأحسبه ورائي
وآخر عن مظاله تنحّى ... وأكره في مغادرة الشقاء...

وقال الشيخ جواد:

ألا قتل الإنسان، ماذا يريده ... وقد جاز حدّ المسرفين، أما يكفي؟
أبى أن يساوي نوعه في شؤونه، ... فجار على صنف ورقّ على صنف
وعالج، لا عن حكمة، ضعف نفسه. ... متى عولج الضعف المبرّح بالضعف؟

وقال:

عمّ السؤال، فلات حينَ سؤال ... أو ما كفتك قرائن الأحوال؟
انظر بتاريخ الزمان الخالي ... نظرات عينك في الزمان الخالي
تجدِ الظروف هي الظروف، وإنّما ... تتفاوت النظرات بالأجيال
يتخالف الإنسان في أخلاقه ... إمّا اغتدى متوافق الأشكال
والملح والعذب الفرات كلاهما ... ماء ولا كالبارد السّلسال
والدّوح نبت والثمار مناسب ... والكرم أكرم من عروق الضّال
والأرض تلك الأرض ما إن بدّلت ... بقوارع الأرجاف والزّلزال...
واحسرتا خلت البلاد، فهل بها ... من شاغل هذا الفراغ الخالي؟
تركوه مغزى يستهان، وإنهم، ... لو يشعرون، ربائق الأنفال
لا يفلتون ببراءةً من شعبهم، ... والمري من دمه دم القِيفَال[1]
جهل النّصيح عليَّ أثقل موضعاً ... من غلظة اللوّام والعذّال
رمق السّراب فجرّدت أثوابه ... عنه ليسبح في عباب الآل
واستعمر الجوّ البعيد خياله ... فبنى على الأوهام والآمال
حرث الجبال، وتلك ضيعة أشعب ... يستصعد التيّار من أوشال
عقد المنى سرجاً على متوهّم ... فجرى ولكن في مجال خيال
وكأنّه شحذ الهلال مهنّداً ... أو جاء معتقلاً مذنّب «هالي»

ثم قال:

---

(١) القيفال عرق في الذراع يفصد.

قالوا: أتتك من المشيب غلائل ... جدد تطرّز في نهى وجلال

فتَعَرَّ عن بُرْد الشباب، فإنه ... صدىء المفاضة، أقتم السّربال

حتّى إذا ملأ القميص معاطفي، ... أبصرت منه طرائق الإذلال

فطفقت أهتف، والمسامع لا تعي: ... مَن لي ببردٍ بُرودِيَ الأسمال؟

برد الشباب، لأنت نشرقي التي ... فيها فللت مضارب الأهوال

لو في متون العيس همّي لانثنت ... ملساً رمين الأرض بالأثقال

ولو أنها بالطّود عاديَّ الذرى ... لا نهار عن دعص النّقا المنهال

وقال يتشوّق إلى أصحاب له في النجف:

أروح على جمر الغرام كما أغدو ... فلا الدمع يطفيه ولا يسكن الوقد

وحيّرني النّائي، وموطنه الحَشَا، ... فلا قربه قرب ولا بعده بعد

أحبّاي بالوادي المقدّس، أخذكم ... عليَّ طريق الصبر ليس له ردّ

تذكّركم قلبي فطار شراره ... كأنّ حصاة القلب يقرعها زند

وطلّق عيني غمضها، فهي بعدكم ... تعدّ الليالي والشهور وتعتدّ

تحبّب لي نجداً عروبة أصلكم ... وأين من المغموس في دجلةٍ نجد؟

تنسّمتُ فيها نسمة من رياضكم ... يعطّرها شيح الجزيرة والرند

على ضوء هاتيك الثنايا زواهياً ... أطالع صحفاً من عناوينها المجد

خطوط بأقلام الرماح مشجّراً ... بها النّسب الوضّاح والحسب العدّ

يلذّ بعيني السَّهد في ذكرياتهم ... كأنّ مذاق السَّهد في مقلتي شهد

ومن ظلمات اللّيل بحر يخيفني ... فلا الجزر ينجيني ولا يُعْبَر المدّ

أرى ساحل الإصباح يَبْيَضُّ رمله ... فيضربه موج الظلام ويسودّ

بماذا أخوض البحر، والبحر هائج، ... ولا ساعد يقوى عليه ولا زند

أمانيّ نفسي أجهدتني تعلّلاً، ... وإنَّ التمنّي جهد مَن لا له جهد

وقال أيضاً:

يسائلني عن موطن العدل جائر ... ويعلم أنّ العدل موطنه اللّحد

على يده أدلاه بالحفرة التي ... تبلّج فيها الحقّ وابتسم الرشد

ويسألني عن كنز درّي مخاتل ... وفي يده ممّا احتفظت به عقد

لو انبسطت كفّي على قدر حقها ... أقمت عليه الحدّ لو أمكن الحدّ

وقال جواد الشبيبي من قصيدة له بعنوان «تَنَهّدات»:

عبر الـــــزمـــــان استحلبت عبراتي | وألانـت الأيـــام صـــدر قنـــاتي
أنّى أعـــان على الجهـــاد بـــواحـــد | وخطـــوبها يمـــلأن ستّ جهـــاتي
أنّى التفتُّ رأيت خطبـــاً هـــائلاً | فكـأنها الأهـــوال في لفتـــاتي
وإذا أردت صراعهـــا في نهضـــة | عـــاقتني الأيـــام عـن نهضـــاتي
نفسي لماء الــــرافـــدين يسيلهـــا | نفس يصعّــده جَـوى الـزّفــرات
يحيـا بـــه خصمي فأشرق بـالـرّدى | وأُذاد عنـــه وفيـــه مـــاء حيـــاتي
لا دجلتـي أمّ السّيـــول بـــدجلتي | كـــلاّ ولا هـــذا الفـــرات فـــراتي

ثم يقول:

ليَ من جَنَـاي ـــ ومـا اقترفتُ جنايـة ـ | أشـــواكــه والقطـف عنــد جنــاتي
وا ضيعـــة الأكفــاء بعـــد منـاصب | حفظت مقـــاعـــدهـــا لغير كفـــاة
ولـــوا الأمـــور، ولـو أطـــاعـــوا رشـدهم | لسعـــــــــوا وراء الحقّ سعـي ولاة
من كـل كـــاسٍ يستجـــدّ لنفســـه | حلـــلاً ولكن مـن جلـــود عـــراة
النّـــاهبي رمق الضعيـف وقـــوتـــه | والقـــاتلي الأوقـــات بـــالشّهـــوات
قطعـــوا البـــلاد ومنهمُ أوصـــالها | والقطـع يـــؤلم من أكـفّ جفـــاة
سكـــروا بخمـــر غـــرورهم والعـــامل (م) | المجهـــود بين الموت والسّكـــرات
غـــزوا المصـــايـف والهوى يقتـــادهم | لمســـارح الفتيـــان والفتيـــات
هم أغنمـــوا مغـــزوّهم وتـــراجعـــوا، | أفهـــذه العُقبـى مـن الغـــزوات؟
مـــال تكفّلت الجبـــاة بعسفهـم | إحضـــاره لخزائن اللّــــذّات
نهب من الحُجُـــرات صِيحَ بـــه، وفي | عـــزف القيـــان يُـــرَدُّ للحجـــرات
طـارت شعـــاعـــاً فيـــه أيـدٍ لم تـــزل | مخضـــوبـــة بـــالـــراح في الحانـــات...

عبد المحسن الكاظمي

الشاعر العربي الذي عرف بالارتجال وطول النفس وجزالة الألفاظ، ولد في بغداد يوم الأربعاء ٣ كانون الثاني ١٨٦٦، وهو عبد المحسن بن محمد بن علي بن محسن بن محمد بن صالح بن علي بن هـادي النخعي. وقـد درس في مسقط رأسـه ومـارس التجـارة والزراعة زمناً، ثم انصرف إلى مطالعة الكتب الأدبية وحفظ الشعر والنظم.

وقدم جمال الـدين الأفغاني منفياً من إيران سنـة ١٨٩١ فلازمه الكاظمي وأخـذ عنه

وتشرّب منه مبادىء الإصلاح. ولما خرج الأفغاني من بغداد أصبح الكاظمي موضع ريبة وتعقيب، فلاذ بالوكالة الإيرانية ثم غادر الزوراء خفية إلى البصرة ومنها إلى أبي شهر في الخليج العربي.

وقد عاد إلى بغداد بعد ذلك، ثم رحل من العراق سنة ١٨٩٧ فقصد إيران والهند، وألقى عصا الترحال في القاهرة (١٨٩٩). ونال الحظوة لدى الشيخ محمد عبده، واتصل بالمحافل الأدبية والقومية فكان موضع التجلّة والاحترام.

وقيل إن محمود سامي البارودي الذي عرف الكاظمي وقرّبه إليه بعد عودته من منفاه في جزيرة سيلان، قسّم شعراء عصره إلى طبقات فاستثنى الكاظمي واكتفى بالقول إنه «أمّة في الشعر وحده».

لكنه ضاق بمعيشته ولم يصب منها الكفاف. وقد قال وليّ الدين يكن في «تجاريبه»:

«علم من أعلام العراق، هو أبو القصائد المحبّرة والقوافي المحكمة، نزيل بمصر، مقيم في دار حزنه يعالج أيامه ويعاني شدائدها. وليس بمصر مَن يقول له: أين أصبحت، أيّها الأديب العظيم؟».

وتوفي في القاهرة في أول أيار ١٩٣٥.

طبع الجزء الأول من ديوانه في دمشق (١٩٣٩) والثاني في القاهرة (١٩٤٨). ونشرت له: معلّقات الكاظمي (١٩٢٤) عراقيّات الكاظمي (١٩٦٠). وله كتب نثرية منها: البيان الصادق في كشف الحقائق، تنبيه الغافلين.

شعره:

من شعراء الطبقة الأولى، في شعره أنفاس البداوة ومتانة المدرسة القديمة. أما مواضيعه فأغلبها قومي وطني، يدعو فيها العرب إلى اليقظة والنهوض وينعى عليهم الغفلة والجمود.

هامَ الكاظمي بالحرية فقال:

مهما تباعد فهو منك قريب ... يوم له بين الضلوع دبيب
فإذا تباعد فالحبيب مبغّض ... وإذا تقارب فالعدوّ حبيب
لا فرق بين المشرقين سوى الذي ... يصفو به هذا وذاك يشوب
كالشمس ما بين الأنام مشاعة ... ولها شروق مرة وغروب

واستنهض همّة قومه فقال:

سيروا بنـــا عنقـــاً وشـــدّا		سيروا بنـــا ممسىً ومغـــدى
سيروا فـــــــرادى او ثنـى		والجمـع للغـايـات أجـدى
لا يقعـــدنّ بعـــزمنــا		يــوم يــرينــا الهزل جــدّا

حتى يقول نادباً حال وطنه:

بـــالله، يـــا وطني، أجب		مـــا بـــال قلبك ليس يهدا؟
كــلٌّ يبــلّ غليلـــــــه		ممـــا رجـــاه وأنت تصـدا
يـــرضيك تصبح للخــراب		وكنت للعمـــران مهـــدا؟
يـــا أيها الـــوطن الـــذي		نـــادى بنيـــه واستمـــدّا
وأسرّ نـــــــاراً كلما		قيـل اخمدي تـــزداد وقـــدا
ورمـى بكلتـي مقلتيـــــه		ولم يجد مـن ذاك بـــــدّا
يـــدعـــو كهـــولهم كما		يـــدعـــوهـم شيبـــاً ومُـــرْدا
لـــك مـــن بنيـــك النّجـب		كـل غضنفـــر وقّـى وفـــدّى
روّح فـــــــؤادك واسترح		فبنـــوك لا يـألـــون جهـــدا...

أحبّ الكاظمي البلاد العربية قاطبة، وتوزّع قلبه بين موطنه العراق ومسكنه مصر. قال يحنّ إلى مسقط رأسه:

ألا خبر مـن ثنـــايـــا العـــراق		يطلـع أو زورة تطـــــــرق؟
هل الـــدار بعـــدي كعهـــدي بها		يبـــاكـــرهـــا العـــارض المغـــدق
أم البين أسلمهـــــــا للبلى		وعـــاث بها الـــذئب والخرنـق
رعـى الله أهـل الحفـــــاظ الألى		كما لقـي القلـب فيهـم لَقُـــــوا
أحبّـــــاي، هـل كلـف شيّـق		ينـــاشـــده الكلـف الشّيّـق
وإن خفـق البـــدر نحـــو الحمـى		نـــزت كبـــدي نحـــوكم تخفـق
على حـــرق أضلعي تلتـــوي		ومـن علـق أدمعي تـــدفـق

وقال يبارك مصر ويشكرها على رعايتها له:

تعـدّت صروف الـدهـر مصر وأهلهـا		ولا زال في أرجـــائهـــا البشر يسطـع
نعـم، أهـل مصرٍ، أنتمُ خير أمـــة		ومـــا الخير إلاّ منكم يتفـــرّع
لقـــد شـاع عنكـم كل فضل وســؤدد		وســوف نـرى للفخـر مـا هـو أشيع

وتمنّى لو كان العالم بأسره عرباً:

ليت الأنـــام جميعهم عـــرب		شبّـــوا وشـــابـــوا بعـــدمـــا اكتهلـــوا
أوليـــت كـــل المالكين لهم		عـــرق بـــذاك الأصل يتّصـل!

وقال يحنّ إلى مسقط رأسه بغداد:

أبغـــداد، لا فـــاتتك مني تحيّـــة ... يفسّر منهـــا مـــا أراد المفسّر
حنينـــاً إلى تلـك البقـــاع، إلى التي ... تطيب، إلى تلك التي هـي أطهـــر
حنينـــاً إلى الـزّوْرا، حنينـــاً إلى الصّبـا، ... حنينـــاً إلى العـــود الـــذي هـــو أنضر
حنينـــاً إلى تلك القـــرى وإلى الـــذي ... يعشّي بهاتيك القـــرى ويبكّـــر
حنينــــــاً إلى أرض حييت بتربها، ... ويـــا ليتني في ذلك التـرب أُقْبَرُ
هنـــاك شبـــابي قـــد تقضّى، وهـــا هنـا ... مشيبي، وفي الحالين أشكـــو وأشكـــر
لقـــد زعمـــوا أني نسيت، وأنني ... غـــدوت بهٰذي دون تلك أفكّـــر
وكيف تـــراني نـــاسيـــاً ذكـــر مـــوطنٍ ... لـــه مـــورد في كـل سمع ومصـــدر؟
منى النفـس أن يلقى العـــراق وعـــزّه ... مـن الخير مـــا يهوى ومـــا يتخيّر

مات عبد المحسن الكاظمي في مصر، فرثاه معروف الرصافي قائلاً:

أيها النـــادبـــون، غيريَ غُـــرُّوا: ... بـــرح اليـــوم للّبيب الخفـــاءُ
يُكْـــرَمُ المَيْت بـــالثنـــاء، وتحيـــا ... عنـــدكـم في المَهَـــانـــة الأحيـــاء
إن جفتنـــا بـــلادنـــا فهـي حِبٌّ، ... ومـن الحِبّ يستلـــذّ الجفـــاء
لم نَخُلْ عـن عهـودهـــا مـذ جفتنـــا، ... بل لها الـــودّ عنـــدنـــا والـــوفـــاء
إنّما هـــــــذه المواطـن أمّ ... مُسْتَحَقٌّ لها علينـــا الـــــولاء

وقال الزهاوي:

يـــا بلبـل الشعـــراء، مـــالك صـــامتـــاً ... من بعـــد تغـريـــد بشعـــرك مُشْجِنِ
قـــد سرت قبلي للـــرّدى متعجّـــلاً ... ولعلّنـــي بـــك لاحـــق ولعلّنـــي

وقال إبـراهيم عبد القادر المازني: «وجـاء الكاظمي إلى مصر، وكان الأدب فيهـا قد أخذ يشيح بوجهه عن زيف المقلّدين والعابثين من المتأخرين، وينثني راجعاً إلى الشعر الجيّـد والشعراء المخلصين، فنـزل منـزل الكـرامة بين فحـول ذلك العصر. وزيّنت لـه الإقامة ففعل، وعاش في مصر كريماً أبيـاً لا يمتهن نفسه ولا يهين شعره. ولم يعرف عنه قطّ أنـه مدح أحـداً مبتـدئاً، وإنما كان يشكـر المستحق على الصنيع الحسن. واشتهـر بـالقـدرة على الارتجال مع المحـافظة على طبقـة شعـره. والارتجال عسير، وقـد تسعف القريحة بالبيت، ولكن الكاظمي كان يسحّ بالعشرات ولا يقصر عن المئات. ولا شك أن ضخامة محفوظه من اللغة والشعر، وطول اعتيـاده الإملاء حين ينظم، كانا ممّا أعاناه على الارتجال. ولكن كثرة المحفوظ وحدهـا لا تكفي وعادة الإملاء لا تغني، ولا بدّ من استعداد خاص حتى تسعف القريحة وتؤاتي السليقة . . .

«وقد تغيّرت الدنيا في الشرق بسرعة تغيّراً ترك الكاظمي غريباً فيها. فهو لا يحسن إلا أن يقول الشعر، ولا يستطيع مع هذا أن يتكسّب به، وقد فطره الله على العزوف الشديد والإباء المرّ. فلا قدرة له على التزلّف والمصانعة، ولا قبول منه لحسنة أو صدقة أو معونة في صورة من الصور. . . وكان المرحوم الإمام الشيخ محمد عبده يرعاه ويتفقده بانتظام، وظلّ مواظباً على ذلك كاتماً له حتى توفي. . . فلما مات الشيخ محمد عبده اضطربت حياة الكاظمي واصطلحت عليه الفاقة والعلة، ولكنه احتملهما وصبر على بلائهما صبر الحرّ الكريم. وبلغ من أمره في ذلك أن كثيرين من ثقاته كانوا يجهلون مكان بيته في العام الأخير من حياته، لفرط تكتمه حقيقة حاله وإخفائها حتى عن أقرب الناس إليه وأصدقهم ودّاً له».

هذا وقد قال الكاظمي معبّراً عن إبائه وتعفّفه:

لو على قدر همّتي واعتزامي صال نطقي بلغت كلّ مرامي
همّة ترهق النجوم وعزم ضارب في الجبال والآكام
وأراني أرى القلوب رواءً غير قلب ما بين جنبي ظام
وإبائي يرى من الضيم أن يحمل (م) في الدهر منّة للغمام. . .
ليس عيش الفتى زخاريف لبس وشراب مصفّق وطعام
إنما العيش أن تكون عظيماً عالي الذكر في الأمور العظام
ليت أمي، إذ بشّرت بغلام بعد لأي، لا بُشِّرَتْ بغلام
ولدتني مجسّماً من إباءٍ وجلال ورفعة واحتشام
فترعرعت بين أكرم قوم شمخوا عزّة على الأقوام
ولأن أدبرت حظوظي أضحت حسناتي تعدّ من آثامي
أيّها المشفقون، إنّ فؤادي أقصدته بها تصيب المرامي
فاثأروني بمهجتي أو دعوني، أنا عرّضتُ مهجتي للسّقام

حتى يقول:

ألمي إن خلوت من آلامي وسقامي متى فقدت سقامي
ما شكت لي الضنى عظامي لكن قام يشكو لي الضنى من عظامي
فإذا كانت الحياة كهٰذي فعلى هذه الحياة سلامي

تحدث عبد المحسن الكاظمي عن نشأته الأدبية فقال: «أدخلت في أوائل صباي بمكتب فقيهة بالبلدة، ثم خرجت منه إلى معلم فارسي لأدرس اللغة الفارسية، لأن آبائي تجار، وللعراق صلة تجارية بإيران والأفغان والهند، والتخاطب التجاري باللغة

الفارسية في هذه البلاد كثير. فمكثت عنده ستة أشهر أمكنني بعدها أن أقرأ وأكتب . . . وذهبت إلى معلم عربي، ولكن ما لبثت أن خرجت من عنده. ثم أخذت أنظر في المخطوطات العربية والفارسية . . .

ولما بلغت الثانية عشرة من حياتي تطفّلت على موائد العلم بالكاظمية. وكان أخي محمد حسين مشتهراً بالأدب، فأخذت أطلع مثله على كتب الأدب، ولكن الأساتذة كانوا ينهونني عن ذلك بحجة أن هذه الكتب تشغل الطالب عن العلم وتؤخّره في تحصيله. فلم أستمع إليهم، ووجدت في نفسي شوقاً إلى الأدب والشعر، وصرت أكبّ على مطالعته في يومي الخميس والجمعة، وأكتب القصائد القديمة وأحفظها سراً حتى حفظت عشرة آلاف بيت. وحدث أن أخي وزميلاً له كانا يوماً يتطارحان الشعر وأيّهما غلب يكسب الرهان. وكان الاتفاق بين الفريقين على أن زملاء الرئيسين يتطارحون الشعر، فإذا عجز فريق منهم أنشد الرئيس بدله. ولما جاء الدور عليّ بدأت بهذا البيت:

أنا الذي نظر الأعمى إلى أدبي وأسمعت كلماتي مَن به صمم

واسترسلت في المطارحة حتى عجز الزملاء والرئيسان. ومن ذاك الوقت كان المتطارحون يتنافسون عليّ، وكانت سنّي وقتئذٍ ستة عشر عاماً. وقد نظمت قصيدة غزلية يبلغ عدد أبياتها ٥٥ بيتاً لا أذكر منها الآن غير الشطر الأول، وهو:

أيها الرامي وما أجرى دما . . .

وبعدها نظمت عدة قصائد. ولكن أول قصيدة ظهرت لي كانت رثاء لأحد علماء العراق. وذلك أنه كان من العادة عندنا، إذا أريد رثاء أحد الموتى، وقف منشد خاص لتلاوة ما نظمه الشعراء من القصائد. وكلما أتى إلى قصيدة، قال له الحاضرون: لمن؟ فيقول: لفلان. فيردّون: أنعم وأكرم. أما إذا لم يرد الشاعر ذكر اسمه فإن المنشد يجيب الحاضرين عن سؤالهم بقوله: لبعض المحبّين.

«فلما أتى دور قصيدتي في ذلك اليوم الذي أريد رثاء العالم فيه، لم ينسبها المنشد إلي لأنّي صغير. وكان هناك في هذه الأثناء أديب كبير يدعى السيد إبراهيم الطباطبائي فنسب الحاضرون هذه القصيدة إليه. فحزنت وطربت في آن واحد. حزنت لأنّ قومي لا يفرّقون بين قائل وقائل، وطربت لاشتباه شعري بشعر أديب كبير. ولكن لم تمض مدّة حتى ظهر اسمي، وانقلبت الآية فصار الناس ينسبون إليّ كلّ ما يستحسنون . . . ».

عبد المحسن الكاظمي:

ارتأى الدكتور إبراهيم السامرائي أن الشعراء الذين نشأوا في المواطن الشيعية كالنجف وكربلاء والكاظمية والحلة قد تأثروا بالشريف الرضيّ نقيب الطالبيين (٩٧٠ ـ

١٠١٥م) ودعبل الخزاعي (٧٦٥ ــ ٨٦٠م) والسيد الحميري (٧٢٣ ــ ٧٨٩م)، وفي مقدمة هؤلاء الشعراء عبد المحسن الكاظمي وجواد الشبيبي وولداه محمد رضا ومحمد باقر وغيرهم. وقد رأى السامرائي تأثير قدماء شعراء الشيعة ظاهراً في الطريقة التقليدية والروح البدوية ومراثي آل البيت.

والحقيقة أن لشعر الشيعة طابعاً خاصاً يتمثل في المراثي عامة وخصائص الحزن والتفجّع. على أن شعراء العصر الحديث فتحت لهم آفاق جديدة وسّعت شمول معانيهم ومواضيعهم مع احتفاظهم بالأساليب التقليدية القديمة، فقلّ تأثير الشريف الرضيّ وأمثاله من القدماء في شعرهم.

***

عبد المحسن الكاظمي: ممّن أخذ عنهم في النظم في صباه أخوه الأكبر الشيخ محمد حسين الكاظمي المتوفى في رشت من أعمال إيران سنة ١٩٣٦، والشيخ جابر الكاظمي المتوفى سنة ١٨٩٩، والسيد إبراهيم الطباطبائي الشاعر الشهير.

الكاظمي وثورة الحجاز سنة ١٩١٦:

نهض الشريف حسين وأعلن ثورته العربية الكبرى على الأتراك خلال الحرب العظمى، فاستبشر بها الوطنيون العرب، ومنهم عبد المحسن الكاظمي الذي حيّا الثورة وقادتها بقصائد عامرة ومدح الملك حسين وأنجاله ورجاله أمثال جعفر العسكري ومولود مخلص وفؤاد الخطيب. قال في الملك حسين:

هذا الحسين وذاك أوّل مَن دعا	والرأس أولى بالعلا أن ترأسا . . .
ذو عزمة جعل الإله شباتها	نقماً تصبّ على الطغاة وأيؤسا

وقال أيضاً:

مليك، وهل للعرب مثل حسينها	مليك توالى مَنّه وأبٌ برّ؟
أتحيي رجاء العرب من بعد موته،	أسيفك أمضى أم عزيمتك البكر؟

وكان الكاظمي في شعره من دعاة الحركة الوطنية المصرية ومريدي زعيمها سعد زغلول، مدحه في حياته ورثاه عند وفاته.

ورحب الكاظمي بمبادىء الرئيس وودرو ولسن وعدّها وسيلة لتحرير الشعوب، فقال يخاطبه:

عمــرت مجالسنــا بــذكــرك وانحنى — لـــرفيـع قـــدرك ســـائر المعمـــور
وأراك قـــد حمّلت مـن أعبـــائهـــا — مـــا فـــوق طـــاقـــة ألبهـــا وثبير
طهّــرت وجــه الأرض من بغي الــورى، — ولـــربّ مـــاء كـــان غير طهـــور. . .

شعر عبد المحسن الكاظمي :

في شعر الكاظمي جزالة وفيه جرس موسيقيّ عذب كأنّـه صدى من ألحان الأجيال الغافية في الصحـراء. ولكنّك تفتقد في ذلك الشعر تلك الطراوة وذلك الـوهج اللذين تلمسهما في شعر المجدّدين من معاصريه كشوقي وحافظ ومطران والزهاوي والرصافي. ولعلَّ الأمـر يرجع إلى تطـويله في قصـائده وتكراره للمعـاني واستعماله لحوشيّ الألفـاظ وضيق آفاقه وثقافته القديمة. فإذا حلّلنا قصيدته :

سيروا بنـــا عنقـــاً وشـــدّا — سيروا بنـــا ممسى ومغـــدى

نجـد أنها في أبيـاتها الستة والتسعين لا تخرج عن حثّ الأمـة على التقـدم والسير إلى الأمام ومجانبة التخلّف وتحفيز الهمم والالتفاف حول الوطن.

تفتّحت شـاعرية الكـاظمي واكتملت في العراق في أواخـر القرن التـاسع عشر قبل رحيله إلى مصر ومعايشتـه للنهضة الأدبية التي حمل لواءهـا البارودي وإسماعيل صبري وخلفاؤهم من بعـدهـم، فكان أقرب إلى شعراء عصر الانحطاط المتـأخّر كحيدر الحلّي وإبراهيم الطباطبـائي وجعفر الحلّي ومحمد سعيد الحبّوبي. وقد أفـاد من اتصاله بجمال الدين الأفغاني والشيخ محمد عبده في التطلّع إلى آفاق فكـرية جديدة كالنزوع إلى الحرية والدعـوة إلى النهضة والعلم والعـدالة والاستقلال والـدفاع عن الإسلام وذكر الشرق، وهو الاصطلاح الذي انتشر في مصر سابقاً لذكر العروبة وانتقل منها إلى العراق.

قال الكاظمي :

مهما تبـــاعـــد فهـــو منـك قـــريب — يـــوم لـــــه بين الضلـــوع دبيـب
لا فـــرق بين المشرقين ســـوى الــذي — يصفـــو بـــه هـــذا وذاك يشـــوب
هيهـــات يصبيني ســـوى حـــرّيـــة — يصبـو الشبـــاب لـذكـرهـــا والشيب
حـــريـــة الأمصـــار أنت حبيبـــة — في حبّهـــا يستعـــذب التعـــذيب
يـــا حبَّـــذا يـــوم الجمال وحبـــذا — يـــوم الـــوصـــال وأجـره المكســـوب
يـــوم يعـــود بـــه لنـــا استقـــلالنـــا — ويـــردّ فيـــه حقّنـــا المغصـــوب
حتّـــام نحتمـل المذلّـــة طـــوْعـــاً — ولنـــا بـــآفـــاق البـــلاد وثـــوب؟
لا فـــاتنـــا عـــزّ الحيـــاة ولا عـــدت — شعبـــاً تُـــذِلُّ بها الحيـــاة شعـــوب

وقال :

سيروا إلى الـوطن الموقّى ... بـالنقـائب والمفـدّى
يـا حبّـذا وطن أعـاد ... الفضل في الـدنيـا وأبـدى
يـا حبـذا وطن يغنّى ... بـاسمـه أبـداً وَيُحْدَى
أوطـاننـا أرواحنـا ... بل إنها بـالـروح تفـدى
أبـداً نطـالب بـالحقـوق ... حقـوقنـا أو نستردّا
أبـداً نجـاهـد دونها ... ونكـافح الخصم الألـدّا

وقال:

سيروا نُشِـدْ لـديـارنـا ... عـدلاً يهدّ الظلم هـدّا
مـا كلّ مَن سـاس الأنـام ... قضى فـريضتهـا وأدّى
شتّـان من سـاس الـورى ... عـدلاً ومن بهم استبـدّا...
يـا حبّـذا العَلَمُ الـذي ... إن تقصر الأعـلام مـدّا...

ومن قصائده الشهيرة «العينيّة» التي تبلغ أبياتها ١١٤ عدّاً. يستهلّها الشاعر بمعنى عزيز على شعراء الجاهلية، وهو إدارة الطرف في الأرض البلقع والبكاء على الطلول، وذكر الأحبّة الذين مضوا، والشوق إلى أيام القصف والهناء، والأسى لساعة الوداع. ثم يذكر سفره بالباخرة تاركاً المطايا في بواديها واقتحامه جيوش الأمواج التي ترتفع إلى عنان السماء، حتى وصوله إلى مصر، يجاذبه الحنين إلى وطنه في بلاد الرافدين والاستبشار ببلوغه وطن الحرية والنهوض. لكنه يشكو مقامه في دار الغربة وضياع مثله في خضمّ الحياة الدفّاقة. ويمضي إلى الإشادة بمصر وأهلها الذين يصفهم بأنهم خير أمة يتفرّع منها الخير والفضل والسؤدد. ويدعوهم إلى شحذ هممهم وشدّ عرى أوطانهم والدفاع عن عزّها ومنعتها. ويتلذّذ حيناً بالفخر بنفسه، وهو الأريحيّ السّميذع الذي يزعزع فكره أبطال الوغى، ويقول:

وكيف أخـاف الخطب يسـودّ ليلـه ... وأسيـاف عـزمي في دجى الخطب لُمَّعُ
فكم غمّـة كشّفتهـا وعظيمـة ... تسنّمتهـا، والليل أسـود أسفع

وينتقل من ذلك إلى مهاجمة المندّدين بالإسلام المتحاملين عليه من رجال الغرب، وفي مقدمتهم السياسي الأديب الفرنسيّ جبرائيل هانوتو Gabriel Hanotaux الذي تعرّض للدين الإسلامي فردّ عليه محمد عبده وأفحمه.

والحقيقة أن الكاظمي في شعره جسر يصل عصر الانحطاط بعصر النهضة الجديد ويضفي ثوباً من الديباجة القديمة على المعاني التي أخذ يردّدها شعراء الأمة المتفتحة على حياة العصر، المتحفّزة إلى الوثوب واليقظة من غفوة الأجيال.

أحمد الفخري

شاعر الموصل وقاضيها السيد أحمد الفخري، وهو ابن محمود بن محمّد أمين بن محمّد بن حامد بن فخر الدين بن يحيى، ينتهي نسبه إلى النقيب السيد فخر الدين الأعرجي الحسيني. ولد في الموصل سنة ١٨٥٨ وتعلّم في كتاتيبها وحفظ القرآن، ثم درس العلوم العربية والدينية على علماء عصره كالملا علي الحصيري وعبد الوهاب الجوادي والشيخ محمد النقشبندي. قال الشعر وهو يافع، ثم برع فيه وتفوّق. ووظّف في المحكمة الشرعية كاتباً وأصبح رئيساً لكتّابها ودرّس في المدارس الأهلية والرسمية. وعيّن على أثر احتلال الموصل قاضياً (أول أيار ١٩١٩) ونهض بمنصب القضاء حتى عيّن وزيراً للعدلية في وزارة جعفر العسكري (٢٢ ت٢ ١٩٢٣ ــ ٣ آب ١٩٢٤). وانتخب نائباً عن بلده في المجلس التأسيسي العراقي (١٩٢٤) وأعيد بعد تخليه عن الوزارة قاضياً للموصل (٢ أيلول ١٩٢٤) حتى تأليف مجلس الأمة العراقي إذ اختير عضواً في مجلس الأعيان (تموز ١٩٢٥). وأدركته الوفاة في الموصل في ٩ تشرين الثاني ١٩٢٦.

وقد عني بجمع شعره المتفرّق الأديب الفاضل السيد علي العلوي الذي استطاع أن يدوّن له نحواً من ١١٠ قصائد ومقطوعات في زهاء ٢٤٢٠ بيتاً. وصفه السيد العلويّ فقال: «كان وسيم الطلعة، معتدل القامة، عذب الصوت، كريم الخلق، أنيس المحضر، سريع الخاطر، حاضر البديهة، يرسل النكات من دون تكلف فيطرب لبراعتها الحضور، متواضعاً، محبّاً للغناء، مغرماً بالصوت الجميل».

كانت الموصل في القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين في عزلة وانزواء، فلئن كانت جزءاً من العراق، لقد كانت أقرب إلى حلب منها إلى بغداد. وكانت الرحلة إلى بغداد بطريق القوافل أو طريق الأرماث النهرية طويلة شاقة، فكانت الحدباء أوثق صلة بحلب الشهباء تتصل بها بأسباب تجارية وأواصر فكرية وروحية. فلا بدع أن حرمت الموصل النهضة الأدبية والوطنية التي لاحت بوادرها في بغداد قبيل إعلان الدستور العثماني.

إن بلدة أبي تمّام قد غطت في نوم عميق خلال عصور الانحطاط، فلم ينشأ فيها سوى نظامين لهجوا بالمدائح والمراثي، حتى إذا ما بزغ فجر القرن التاسع عشر، ظهر شاعران لهما شأنهما في ذلك العهد، وهما عبد الباقي العمري وعبد الغفار الأخرس، لكن كليهما نزح إلى بغداد وتفتحت شاعريته فيها. وعرفت الموصل بعد ذلك شعراء مقلّدين كأحمد عزت الفاروقي (المتوفى سنة ١٨٩٢) والسيد شهاب الدين العلوي المليسي (المتوفى سنة ١٩٠٧) وداود الملاح (المتوفى سنة ١٩١١) والشيخ محمّد ضياء الدين الشعار (المتوفى سنة ١٩١٢) ونجيب جلميران (المتوفى سنة ١٩١٧).

في تلك البيئة المغلقة المنطوية على نفسها نشأ شاعرنا الفخري وقال الشعر، فنظم المدائح الإلهية والنبوية ونسج القصائد الصوفية والوجدانية وأجاد في الوصفيات والإخوانيات وجانب من المدائح والمراثي والموشحات والتخاميس. وقد أدرك القرن العشرين وأصبح وزيراً وعيناً في الحكومة الوطنية وعاصر الزهاوي والرصافي وسائر أساطين النهضة الأدبية الحديثة، لكنه كان أقرب بشعره إلى عصر الانحطاط السالف وأدنى نسباً إلى ابن الفارض وأقرانه من شعراء التصوّف والغزل الأقدمين، ذلكم أحمد الفخري الذي يقول:

هذا الغرام وتلك حاجر   والدمع ليس عليه حاجر
وبروقهم لاحت فما   لسحاب دمعك غير ماطر؟
أخلا فؤادك أم حلا   لك غيرهم أم أنت صابر؟
أم ماء عينك جفّ من   حرّ الصبابة في الضمائر
أم رمت كتمان الهوى   والحبّ ليس عليه ساتر
وإلى مَ تكتم لوعةً   شهدت عليك بها الظواهر
وعلى مَ لا تبدي الجوى   أمن الملامة أنت حاذر؟
إن كان حبّك صادقاً   فدع العذول ولا تحاذر
اي والذي أحيا بأسرار   الهوى منّي السّرائر
أنا عاشق أنا مغرم   أنا ذو هوى في القلب ثائر
كيف الحياة بلا هوى   إنّ الهوى أحد العناصر
في الحبّ طاب تهتّكي   فهتكت عن سرّي الستائر
لا أرعوي، لا ألتوي   لا أنثني بملام زاجر
ماذا يقال سوى الذي   قد قيل في مجنون عامر؟

وليس من ريب أن الشعر الصوفي في العهود المحافظة المتزمّتة تنفيس عن المشاعر الملتهبة، فإذا قرأت شعر الفخري الوجداني لم تدر أين ينتهي الحبّ الإلهي ليبدأ الإحساس العاطفي.

وشعر الفخري راتب النسق، مفرد النغم، قديم الوحي في معناه ومبناه، بيد أنه يفيض بالبوارق الوجدانية التي تهزّ النفس واللوامع الفكرية التي يرتاح لها الذهن. يختلط فيه الغزل المكرّر المبتذل بعاطفة حب صوفية تنبثق من صميم القلب، وتعبق موشحاته بأنفاس الأندلس الزكيّة.

يؤمن الفخري بالحبّ ولا يخشى فيه لوم اللائم ولا تقريح العذول، فاستمع إليه يقول:

إن كان حبّك صادقاً   فدع العذول ولا تحاذر

وهو يجاهد نفسه في الغرام فيوماً يذعن لها ويوماً يتغلب عليها:

لاح للنفس غيّهـــا مـن هـــداهـــا وثُهاهـــا عـن الهوى قـــد نهاهـــا
وصحت بعـــد سكـــرة الجهـل، لكن بعـــد فيهـــا بقيّـــة مـن صبـــاهـــا
هـي تـــأبـى إلاّ الغـــــرام وأأبـى أن أرى الـــذلّ بـــاتبـــاع هـــواهـــا
فتراهـــــا طـــــوراً تميل عِنـــــاني وتـــــراني طـــوراً أطيل عَنَـــاهـــا

وقد نقل تفجّع الخنساء ونحيبها إلى لوعة العشق والهيام فقال :

ومـــا ذرَّ قـــرن الشمس إلاّ ذكـــرتها وأذكـــرهـــــا في وقت كـلّ غـــروب
وأذكـــرهـــــا مـــــا بين ذاك وهـــــذه وبـــالليـل أحـــلامي وعنـــد هبـــوبي
وقـــد شفّني شـــوقي وأبـــلاني الهوى وأعيـــــا الـــــذي بي طـبّ كلّ طبيب
وأعجب أني لا أمـــــوت صبـــابـــــةً ومـــــا كمـــــد في عـــــاشق بعجيب
وكـلّ محبّ قـــد ســـــلا، غير أنني غـــريـب الهوى، يـــا ويح كلّ قـــريب!
وكم لام فيهـــــا مـن أخٍ ذي نصيحـــــة فقلـت لـــــه : اقصر، أنت غير مصيب
أتأمـــر إنســـــانـــاً بفُـــرقـــة قلبـــه؟ أتصلـح أجســــــام بغير قلـــــوب؟

وعارض ابن زيدون في نونيّته فقال :

جـدّ الهوى ومضـى حكم القضـا فينـــا فهل لنـــا في الضَّنى آسٍ يـــواسينـــا؟
هيهـــات مـــا مـن دواء للغـــرام، فقـــد عـــالجت نفسي من داء الهوى حينـــا
وكيف ننسـى حبيبـاً روحنـــا امتـــزجت بحبّـــه وهـــواه كـــاد يضنينـــا؟
قـد لاح كـــالبـدر، والأبصـار شـاخصـة إليـه، فـــاحتلّ دون الحيّ نـــادينـــا . . .

والموصل التي لبثت تغطّ في نوم هادىء هنيء متمسّكـة بأهداب التقوى والورع، لم تزل على مرّ العصور تلتمس متعها البريئة ونزهاتها الجميلة في زيارة قبور الأولياء والخروج إلى ضواحي دجلة التـي يسبغ عليها الربيع أثواب الخضرة والبهـاء لعقد مجالس الطرب والحبور بين الماء والخضراء وتحت زرقة السماء . فهذا محمد حبيب العبيدي مفتي الموصل الذي نبغ بعد شاعرنا الفخري يصف أنس الربيع فيقول :

لقـــد ألبست قـــدّ الـــربيع يـــد المزنِ مـــلابس خضراً ذات لـــونٍ على لـــون
تفتحـت الأكمام عـن كـل زهـــــــرة وزهـــــرة قلبي في كمائم مـن حــــزن
نسيت، ومـــا أنسـى، بشـــاطىء دجلـة لـــواعـج وجـد حـــرّكتهـا يـــد اللّحن
نسيت، ومـا أنسـى، أحـــاديث صبـوةٍ يـــــردّدهـــــا سجـع الحمائم في أذني

ولئن كـان العبيدي قـد تـذكـر حبّه في مجالس الـربيع البهيّـة فـاستسلم إلى الوجـد والأسى، إنّ الفخري قد ألقى بروحه في تيّار الفرح والجمال الشامل فقال :

ويــــــوم تجلّى في الــــــربيع نهاره بُعَيْـدَ حَيـــاً أحيـــا الـــربـــوع انهماره
وقـــد كستّ الأزهـــار حلّـــة وشيهـــا أديم الحِمَـى فـــازدان منهـــا اخضراره
فتـــزّهـت في وجـه البسيطـة نـــاظـري فـــراق لـــديـــه حسنـــه وازدهـــاره
وجلتُ بـأكنـــاف الحمى متنـــزّهـــاً وقـــد فـــاح نشراً شيحـــه وعـــراره

وملت أريح النفس في ظلّ ربـوةٍ		يحلّي لجينَ الـورد فيهـا نضـاره

وهل يتمّ السرور في مجالس الطرب بغير العود والمزهر؟ فلنصغِ إلى شاعرنا يقول :

لـو تسمع العـود تـدري مـا الهوى وتـرى		للـروح أسرار وَجْـدٍ أودعـت وتـرا
أريشـةً بيـد العـوّاد تخفـق أم		ذي مهجـة الصّبّ ، ليت الصبّ قد شعـرا
وتلك أوتـار عـود دُقّ فـاضطـربت		أم ذي عـروق شجيّ بـالهوى استعـرا
يجسّ جسّ طبيب نبـض ذي مـرضٍ		عـوداً يبثّ أنينـاً يفلـق الحجـرا

والمعنى في البيت الثاني (أريشة بيد العوّاد . . .) ينظر إلى قـول الشاعر الدكتور نقولا فيّاض :

ليس «البيـانـو» الـذي بـاتت تكهـربـه		يـداك أطـوع مـن قلبي وأفكـاري
لَمَسْتِـه فتمشى السحـر بي فكما		تهتـز أوتـاره تهتـزّ أوتـاري
أصـابـع العـاج هٰـذي تلعبين بها		أم تلعبين بـأسماع وأبصـار؟

وقديماً قال ابن الرومي :

غلط النّـاس ، لست تلعب بـالشّطـرنج		لكـن بـأنفس اللّعبـاء
لك مكـر يـدبّ في القـوم أخفى		مـن دبيب الغـذاء في الأعضـاء

والفخري ، بعـد ذلك ، شاعر مـؤمن ، سعيد بإيمانه ، قـويّ النفس بالله ، فلنستمع إليه يتضرّع إلى العزّة الإلٰهية ويقول :

أيـا ربّ ، مـا لي غير لطفك خيمـة		تقيني ممّـا أتّقيـه من الـدهـر
أيـا ربّ ، ظلّلني بفضلـك واحْمِـني		بعـزّك واشرح لي بنـور الهدى صـدري
أيـا ربّ ، واضرب لي سرادق عـزّة		على عمـد التـوفيـق في طنب النّصر
أيـا ربّ ، وامـدد لي رواق عنـايـةٍ		على خيمـة العليـاء في سـاحـة الفخـر
أيـا ربّ ، واجعلني بفسطـاط نعمـةٍ		أعيش بها في راحـة سـائر العمـر

ولقد رأينا شاعرنا مولعاً بالبديـع مغالياً في المحسّنات اللفظية ، يطرّز شعره بالتشابيه والاستعارات الكثيرة . ففي هذه الضراعة إلى العزة الربانية جسّم الرحمة والعناية والتوفيق والنعمة بالخيمة التي تقي من الخوف وتؤمّن من الشر والعذاب ، فذكر السرادق والعمد والطنب والرواق . ورأيناه في قصائد أخرى يقرن فعل النهي بالنُّهى والحجى فيقول :

ونُهـاهـا عـن الهـوى قـد نَهَـاهـا

ويجمع فعل الرؤية بالوتر قائلاً :

لـو تسمع العـود تـدري مـا الهوى وتـرى		للـروح أسرار وجـد أودعـت وتـرا

وأمثلة ذلك كثير في شعره .

ومن لطيف شعره في النزاع بين هوى النفس وحبّ الله قوله :

عجبت لها تجفو، وتدري بوصلها حياتي وأني حيث تجفو شهيدها
فقال النهى: لا تعجبنّ فحب ما سوى الله نار في حشاك وقودها
سأترك للمولى سواه، فإن تكن حياتي على خَلْق فلست أريدها

لكنه لا يلبث أن يستسلم إلى الهوى فيقول:

كلّ يوم يموت بالشوق قلبي وبذكرى الحبيب يبعث حيًّا
أيها الناصح الخليّ اتّبعني في الهوى أهدِكَ الصراط السّويّا
كيف يصحو ويقبل النّصح صبّ خامرته من الغرام حُمَيَّا؟

وامتزجت روحه بروح الحبيبة هياماً:

روحان بعضهما ببعضٍ هامتا وجداً، ولا إحساس للأشباح
روح إلى روح تزفّ، وإنما ذاك الزفاف بعالم الأرواح

ومن موشحاته الجميلة أنشودة الحبّ التي قال منها:

ذهبت في الكون أنفاس الصَّبا بحديث سلسلته أدمعي
سلسل الدمع حديث الشوق عن
مقل أحرمها البين الوسن
عن فؤاد يوم جرعاء افتتن
بهوى من جرّعوه العطبا بنواهم جرعاً في جرع
والصبا أهدى حياة الأنفس
إذ بعَرْف من شذاهم قد كُبِي
ثم عادت نفسه من نفس
بسموم وهي تحكي لهبا عن سعير الشوق بين الأضلع...

ونراه في هذا الموشح وهو الشاعر الوجداني يغرق في الصناعة ويلبس ثوب المحدّث الفقيه. ثم يعود إلى حديث الهوى والحنين فيقول:

لم أكن قبل غرامي أعلم
أن جرح القلب لا يلتئم
لائمي، بالله جز حيّهُمْ
وتبصّر ثم عنّف من صبا ليس من يبصر كالمستمع
نظرات أعقبتها حسرات
في فؤادي كم لها من زفرات
هذه العين وتلك العبرات
فاسألَنْها زند وجدي هل خبا مذ صبا قلبي لوادي الأجرع؟

أنـــــا والليـل، إذا الليـل سجـى،
في هـــواهـم بين خــوفٍ ورجــا
فـإذا مـــا رقــد النـــاس دجـى
وقضـى بـــالأمـن كـلٌّ مـأربـــا   أتجافى عـن لـــذيـــذ المضجع
لا تقـل: غـــاب ولا قـــربٌ ولا
كـلّ بــدر بـــازغ إن أفــلا
هل تــرى أنّـا قطعنـا الأمــلا؟
لا، وإنّ عـــزّ لقـــاهم مطلبــا   مــا قلعنـــا منـــه سنّ الطمع

إنّ أحمد الفخري قـد عاش في العصر الحديث، لكنه في شعـره وغزله وتصوفـه كان يمتّ بصلة النسب الـروحي إلى أصحاب الموشحات الأندلسيّـة وإلى ابن الفارض وابن النبيه من أبناء القرون الخالية.

علي البـنّاء

الأُسْطَهْ علي البنّـاء الشاعـر الأمّي البغدادي تـرجم له علي عـلاء الديـن الألوسي في «الدر المنتثر» ونشر جانباً من شعره، قال:

«هـو أعجوبـة بغداد في هـذا العصر، فإنـه ينظم الشعر مـع كونـه أمياً لا يقـرأ ولا يكتب، ومشغول بصنعة البناء بعمله مكتسب».

ولد علي البنـاء سنة ١٨٤٩، وامتهن حرفـة البناء، ونظم الشعـر الفصيح. وكانت وفاته ببغداد في ٢٤ نيسان ١٩١٨.

وشعره تقليديّ جامد لا تتعدّى أغراضه المدح والرثاء وغيرهما. منه قوله:

أوجهك هـــذا أم سنـــا الشمـس لامع   من الشرق بـادٍ أم هـو البـدر سـاطع؟
وذاك شــذاك النـــافع العطـــر نـــافح   ببغـــداد أم نـــوع من الطيب ضـــايع
وهـــــذي معــــاليك التـي وازر العلى   عــلاهــا فأضحت وهـي شهب طـوالع
يسرّ حـــديث المجـــد يـــوم إيــابـــه   بمـــدحي لعليـــاهـم تسرّ المســـامع
لقـــد كـــان وجــه العيش أسـود كـالحاً   ببعـــدك فهـــو اليـــوم أبيض نـــاصع

وقال في قصيدة له يمدح الوالي ناظم باشا عند قدومه إلى بغداد:

إليـك من الأمّـيّ وافتك مـــدحـــة   سرى ذكـرهــا في نجـدهـا والتهـائم

وقد دعي أحياناً علي المعمار البغدادي.

ذكـر لنـا التاريـخ الأدبي عدداً من الشعـراء الأميين منهـم طـرفـة بن العبـد وغيره في الجاهليـة. أما في العصر العبـاسي فكان أشهـرهـم نصر بن أحمد المعـروف بـالخبـز أرزّي

المتوفّى سنة ٩٣٩م. كان يخبز خبز الأرز في مربد البصرة وينشد أشعاره الغزلية والناس يزدحمون على دكانه يأكلون خبزه ويستمعون إلى شعره.

عبد القادر العبادي

الشاعر عبد القادر بن عبد الله البزّاز العبادي المعروف بـ «عبد القادر شنّون»، عرف بالهجاء المقذع وروح الفكاهة والمجون، قال إبراهيم الواعظ:

إن كنت تهجو بأبيات منمّقة فإنني سوف أهجو هجو شنّون

ولد في بغداد سنة ١٨٦٥، ودرس على نعمان خير الدين ومحمود شكري الألوسيّين. ومال إلى النظم والظرافة شاباً، فلازم الفكه البغدادي الشهير عبد الله الخياط المتوفّى سنة ١٨٨٩ وحضر معه مجالس الأشراف ودواوين رجال الفضل والأدب.

ورحل إلى مدن العراق كالحلة والبصرة وحواضر الخليج، وزار الكويت والبحرين والحجاز انتجاعاً للرزق، ومدح الشيوخ والسراة. وعيّن قاضياً للقطيف فأصبح، كما قال عبد الله الجبوري في كتابه «من شعرائنا المنسيّين» (١٩٦٦)، ممدوحاً بعد أن كان مادحاً. لكن القضاء في تلك البلدة النائية لم يستقم له إلا شهوراً، وعاد إلى بغداد قبيل إعلان الدستور العثماني سنة ١٩٠٨.

عمل في الصحافة فتولى تحرير القسم العربي من جريدة الإرشاد التي أصدرها حسين فريد في شباط ١٩٠٩. ثم مضى إلى البصرة وحرّر جريدة إظهار الحقّ (أول حزيران ١٩٠٩)، وكان صاحبها قاسم جلميران. وعيّن كاتباً في المحكمة الشرعية براتب حسن، فقال ـ على ما رواه عباس العزاوي في الجزء الثاني من تاريخ الأدب العربي في العراق (١٩٦٢): «إن حظّي لا يحتمل مثل هذا الراتب، وهو مؤذن بقرب أجلي واستيفاء رزقي». وقد توفي بعد أشهر قليلة في البصرة في ٣ تشرين الثاني ١٩١٠ مصاباً بمرض الهيضة.

عاش عبد القادر شنّون بائساً عاثر الجدّ، ومات منسياً وتفرّق معظم شعره.

ولعلّه كان من حيث الفقر وسوء الحظّ والظرف والإقذاع في الهجاء أشبه بالشاعر المصري محمد إمام العبد (١٨٦١ ـ ١٩١١) صاحب حافظ إبراهيم، الذي قال:

أنا ليل، وكل حسناء شمس، فاقتراني بها من المستحيل!

شعره:

قال عبد القادر العبادي في جسر بغداد سنة ١٩٠٢:

هي الحضارة ما تعلو به الرتب وما سوى العدل في الدنيا لها سبب

وقد تخلّص إلى مدح السلطان عبد الحميد الثاني ووالي بغداد نامق باشا الصغير، ثم ذكر تشييده جسراً على دجلة :

كل البدائع جاءت في صناعته ... مستبدع الصنع، مأموناً به العطب
كأنه، ووضوح في طرائقه، ... مهنّد منتضى في متنه شطب
إن قال واصفه : فاق الحديد، فلا ... تعجب، فربّ حديدٍ فاقه الخشب

إلخ . . .

وقال في منارة سوق الغزل، وهي من بقايا جامع الخلفاء :

عُجْ بالرصافة وابكِ ربعها البالي ... وقف بجامعها إن كنت ذا بال
وانظر بعينيك في أطراف ساحته، ... هلاّ تجد أثراً من شامخ عال
فذي منارته في الجوّ شامخة ... كم أخبرت عنه في حالٍ وفي قال
جميلة ما رأى الرائي كرفعتها ... قامت على ساق تبجيل وإجلال
غريبة الشكل لا زالت تخبّرنا ... تغيّر الدهر من حال إلى حال
قد عشعش الذلّ في أعلى دوائرها ... من بعد عزّتها في حال إقبال
تمنطقت باسم بانيها مفاخرة ... أمثالها في زخاريف وأشكال

لقد أحبّ الكتاب واتخذه صديقاً وسميراً فقال :

كتابي، لا أروم سوى كتابي، ... فكم خفّفت فيه هموم ما بي
أجيل الطرف فيه فيجتلي لي ... مخائل حكمة في كلّ باب
إذا غمزت قناة الدهر قلبي ... أداوي في مباحثه مصابي
لئن أخطأت في فكري ببحثٍ ... ففيه قد هُديتُ إلى الصواب
وإن شاهدت من قومي جفاءً ... يسلّيني بأقوال عذاب

ولا ندري هل ملك كتاباً في حياته، وهو البائس الفقير، أم كان في المتربة كصاحبه جعفر الحلّي الذي قال :

ملكت فكرتي بِكار المعاني ... وإلى الآن ما ملكتُ كتابا!

وكان عبد القادر شنّون كثير التحسّر على آثار المجد العربي، يبكي على أطلالها ويسترجع ما مضى من صورها وأشكالها، فقال في المستنصرية :

يا دار، ما بال ربع العلم ينعاكِ ... فما دها في الورى أعلى مزاياك
يا دار علم عفت منها معالمها ... يد الخمول، فمن أفتى فأغواك؟
لهفي على ربعك المأنوس إذ خليت ... منه أفاضل حلّوا في ثناياك
لهفي على حلقات العلم ما صنعت ... أبحاث علمهم في ظلّ جدواك

وقال يندب أطلال سامراء :

هــذي مبــانيهـم، فأيـن البــاني؟ فتكـت بها وبــه يــد الحدثــان
خلت الــديــار فليس تلقى بينهــا غير الــوحــوش ومجمع الغــربــان
غــدرت بها أيــدي الــزمــان، كأنها لم تحوِ من حــور ومن ولــدان

وأعلن الدستور العثماني فاستقبله شاعرنا، كما استقبله غيره من رجال الشعر والأدب، بالبشر والأمل، وحيّا مطلع عصر الحرية فقال:

ألا إن عصراً جــاء بــالحقّ مشرقــاً هــو العصر لا عصر من الظلـم أغبر
رعى الله عصراً فيــه للحــرّ راحــة يقــول فــلا يخشى الأنــام ويظهــر
يبيت قــريــر العين، غير مفكّــر بما كــان قبل اليــوم فيــه مفكّــر

عبد المهدي الحافظ

عبد المهدي بن صالح بن حبيب الحافظ من أعيان كربلاء وتجارها وأدبائها، ينسب إلى أسرة خفاجية استوطنت المشهد الحسيني. وقد ولد في كربلاء ودرس في معاهدها، وأخذ العروض عن الشاعر الشيخ كاظم الهرّ، وتعلم اللغات التركية والفارسية والفرنسية.

انتخب رئيساً لبلدية كربلاء، ثم ناب عنها في مجلس النواب العثماني من كانون الأول ١٩٠٨ إلى كانون الثاني ١٩١٢. وتوفي بكربلاء في شباط ١٩١٦.

نقل عباس العزاوي في الجزء الثامن من كتابه «تاريخ العراق بين احتلالين» إن عبد المهدي الحافظ كان ذكياً ذا سلطة وجرأة، تزعم في أثناء الحرب العظمى حركة انتقاض على السلطات التركية، فأهين الموظفون وأخرجوا من الحاضرة ولم يعادوا إليها إلا بمساعدة حكومة بغداد.

وترجم له سلمان هادي الطعمة في كتابه «شعراء من كربلاء»، فقال إنه شبّ شاعراً متوقد الذهن، بليغ البيان، واسع الاطلاع، حفظ عيون الشعر العربي، وكان خطيباً مفوّهاً. وكان ديوانه المطلّ على الروضة الحسينية محط أنظار رجالات البلد وملتقى أهل الأدب...

امتاز شعره بالرقة والعاطفة المرهفة. ونظم قصائده في الغزل والتشبيب على الطريقة القديمة، منها قوله:

إلى الله أشكــو مــا أقــاسي من الجوى غــداة استقلّت بــالحبيـب ركــائبــه
وأقفــر ربـع طــالما كــان حــاليــاً بــه فخلـت أكنــافــه ومــلاعبــه
فبتُّ أقــاسي ليلــة مكفهــرّة وليس ســوى الشِّعْرَى بها مَنْ أخاطبه
أكفكف فيهـا الـدمع، والـدمع مـرسل كغيث همى لما ارجحنّت كتــائبــه

وأنـدب عيشـاً حـرّمتـه يـد النّـوى ... وعـاث بـه من جـائر الـدهـر لاعبـه
وأذكـــر داراً طـــالما بتّ آنســـاً ... بها بأغـنّ مـاطـل الـوعـد كـاذبـه
غـــريـــر إذا مـــا قصّر الليـل وصلـه ... أمـدّت ليـالينـا القصـار ذوائبـه . . .
فمن لي بـــربع غـــاب عنـــه ربيعـــه ... ومَن لي بقلب ودّعتـــه حبـــائبـــه

حـدّثني أحمد حامـد الصرّاف أن الحاج عبد المهـدي توفّي كهـلاً وكان ينظم الشعـر الرائق باللغة الفارسية .

محمد رضا الأصفهاني

الشاعر الفقيـه محمد رضا الأصفهاني النجفي ، وهو ابن محمد حسين بن محمـد باقر بن محمّد تقي . عـرفت أسرته بالزعـامة الدينية في أصفهـان ، وأمهم بنت الشيخ جعفر كاشف الغطـاء . وجدّه الشيخ محمد تقي صـاحب كتاب هدايـة المسترشدين في شرح معالم الدين .

ولد محمـد رضا في النجف سنـة ١٨٧٠ ودرس في معاهـدها . وقـد نظم شعراً كثيراً وألّف كتباً منها : نقض فلسفة داروين (في جزءين) ، الـردّ على البهائية ، وقاية الأذهان (في أصول الفقه) ، إلخ .

توفّي بمدينة أصفهـان سنة ١٩٤٣ . وكانت له في شبابه صحبة ومطـارحات شعرية مع السيد جعفر الحلّي المتوفى سنة ١٨٩٧ ، فكتب إليه الأصفهاني معاتباً ومداعباً :

حللتُ حِمى الحلّيّ ألتمس القِـــرى ... فكـــان قـــراه الهجـــو والشتـم والسّبُّ
جـــزاء سنمار جـــزاني ، ولم أكـن ... لأصحـب إلاّه إذا خـــانني الصَّحْـبُ
ولم يـــرعَ لي حـقّ الإخـــاء وسبّني ... ومـــا كـــان لي إلا محبّتـــه ذنب . . .
وكـــان لآمـــالي ربيعـــاً ومـــربعـــاً ... إذا مـا الـورى قـد عمّهـا القحط والجدب
فقـل لأبي يحيـى ، وإن هـــو ملّنـي : ... وإحســانِكـم مـــا ملّكم منّـي القلب
(صـــدودكم وصـل وسخطكم رضـــا ... وجـــوركم عـــدل وبغضكـم حبّ)

فأجابه الحلّي بقصيدة قال منها :

وحقّكُـم مـــا ازورّ لي عنكـم جنبُ ... ولا حلـن أحـــوالي ولا انقلب القلـب
صبـوت إليكـم قبل أن أعـرف الصّبـا ... ومـا كنـت لـولا طيب إحسـانكـم أصبـو
رأيتكـــم أحنـــى وأعطـــف مـــن أبي ... عليّ وأوفى الصحب إن خـــانني الصحب
فقلت لنفسي : هـــا هنـــا ويحكِ احبسي ... فهـذا المكـان الـرحب والمنـزل الخصب

وقـال في الأصفهـاني بعض أدباء النجف : «وللشيـخ آغا رضـا . . . حظ وافـر من الأدب ، وباع طـويل في النظم والنثر ، وشعر رائق جمع فيـه بين ظرافة الفرس وفصـاحة العرب» .

وقال الدكتور علي الوردي في مقدمة الجزء الثالث من كتابه «لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث» إن مجلة المقتطف كانت تنشر مقالات متسلسلة في شرح نظرية داروين بقلم الدكتور شبلي شميل. وحين وصلت المجلة إلى العراق، انبرى لها بعض علماء الدين في النجف يردّون عليها ويفنّدونها، وكان أنشطهم في ذلك الشيخ آغا رضا الأصفهاني والشيخ جواد البلاغي، وألفوا في ذلك كتباً ضخمة بأسلوبهم الجدلي. وقد أرسل أحدهم كتابه في نقد النظرية إلى شبلي شميل، ظناً منه أن هذا الرجل سيقتنع بسقم النظرية بعد قراءته للكتاب وسيعلن تركه لها، لكن شبلي شميل أرسل إليه جواباً مقتضباً هذا هو: «عذرك جهلك، والسلام».

عبد الحسين الحويزي

الشاعر الشيخ عبد الحسين بن عمران الحويزي ولد في النجف في حزيران ١٨٧٠ من أسرة هاجر جدّها الأعلى من الحويزة وأقامت في الغريّ منذ سنة ١٨٣١. درس على إبراهيم آل بحر العلوم الطباطبائي ومحمد حسين الكشوان وغيرهما من العلماء والأدباء.

وامتهن البزازة تجارة والده، ثمّ بارت تجارته فمضى إلى كربلاء في سنة ١٩١٧ وأقام فيها يعاني البؤس وشظف العيش ويتكسّب بشعره.

وتوفي بكربلاء في آب ١٩٥٧. وقد نشر جزآن من ديوان الحويزي (١٩٦٤ ـ ١٩٦٥)، كما نشرت له ملحمة باسم «فريدة البيان» (١٩٥٥) في مدح الرسول الأعظم وآل البيت.

وشعر الحويزي تقليدي قديم الطابع مواضيعه المدح والرثاء والغزل والهجاء والفخر وما ماثلها من الأغراض. وذكر سلمان هادي الطعمة في كتابه «شعراء من كربلاء» أنه عاصر الحبوبي والزهاوي والرصافي والهنداوي وغيرهم من مشاهير الشعراء وكانت له معهم صولات وجولات في ميدان الأدب.

من شعره في ثورة العشرين:

أيطلق شعبنا للزحف ساقا	وكم خطب له الحدثان ساقا
لقد عقد الضغائن فيه خصم	بخدعته ليحتلّ العراقا
فأورى فتنة عمياء شبّت	ليصلي حزب جيرته احتراقا

إلخ...

الملاّ عثمان الموصليّ

من أذكياء المكفوفين وآيات الفطنة وحسن التصرّف، الملا عثمان الموصلي المولويّ، كان حافظاً مقرئاً وموسيقياً شاعراً يجيد اللعب بالشّطرنج والعزف على العود وآلات الطرب.

وهو عثمان بن عبد الله السقّاء ابن فتحي بن عليوي آل الطحّان. ورجّح الدكتور عادل البكري، الذي ألّف كتاباً فيه سنة ١٩٦٦، أنه ابن عبد الله بن محمّد بن جرجيس من البوعلوان إحدى فرق الدليم.

ولد عثمان بالموصل سنة ١٨٥٤ لأسرة فقيرة، وفجع بوفاة والده وعمره سبعة أعوام، وكان قبل ذلك قد أصيب بالجدري ففقد بصره. وتعهده الوجيه محمود بن سليمان العمري بالرعاية، فهيّأ له حفظ القرآن وتعلّم مبادىء اللغة. ومضى بعد ذلك إلى بغداد سنة ١٨٨١ بصحبة أحمد عزّت باشا ابن محمود العمري ودرس على الشيخ داود النقشبندي وبهاء الحق. ودرس المقام وأصول الغناء على مغنّي الموصل، ثم اتصل بالمشهورين من رجال الفنّ في بغداد وأخذ عنهم.

ذهب إلى الحجّ، ثم عاد إلى الموصل سنة ١٨٨٦، وقصد استانبول (١٨٨٩)، وقفل راجعاً إلى بغداد. وشدّ الرحال مرة ثانية إلى قاعدة السلطنة والخلافة، وعرج على مصر سنة ١٨٩٥ فلبث فيها خمسة أعوام طبع في أثنائها كتبه وأصدر في القاهرة مجلة «المعارف» (١٨٩٧).

وفي سنة ١٩٠٠ مضى إلى استانبول، ثم قصد الشام وبقي فيها من سنة ١٩٠٦ إلى ١٩٠٩. وأدّى فريضة الحج ثانية، وعاد إلى دمشق، ثم زار بيروت واستانبول ودمشق وحلب، حتى عاد أخيراً إلى الموصل في حزيران ١٩١٣.

أخذ عنه فريق من المغنّين والموسيقيين في مصر ودمشق، منهم الشيخ سيّد درويش ومحمد كامل الخلعي وعلي محمود وأحمد أبو خليل القبّاني. وعلت له شهرة في دار الخلافة في قراءة الموالد وإحياء حفلات الذكر ومجالس الصوفية.

قدم بغداد في نيسان ١٩١٤ فعيّن شيخاً للقرّاء بمدرسة جامع الماديّة. وعرفت بغداد فضله، فكان محور حلقاتها وواسطة عقد أنديتها والمجلّي في محافل الأنس والطرب. ذكره إبراهيم الواعظ في «الروض الأزهر» بمناسبة عقد قرانه في تشرين الأول ١٩١٤، قال:

«ثم بعد أيام شرّف حضرة بلبل القسطنطينيّة ومصر والشام والعراق، الذي ذاع صيته حتى علا الآفاق، الأكمل اللوذعيّ والشاعر الألمعيّ المولويّ الملاّ عثمان أفندي الموصليّ حفظه الله إلى دارنا. وبعد تلاوة عشر من الكلام القديم، قال مؤرّخاً عام

القران، وفي الأبيات:

زفافك، فرع المصطفى وابن مصطفى، ... زفاف على الزُّهْر السّواري به الفخرُ
توخّيت شمس الفضل عن جعفر الهدى ... غدت لك شمساً حيثُ أنت لها البدر
شقيقك إسماعيل أبدي له الهنَا ... وذلك بعدي حيث لي عندكم ذكر
بعرسك هتّان المنى قال أرّخوا: ... زفافك، إبراهيم، شحّ به خير»

وقامت الثورة العراقية سنة ١٩٢٠ فكان للملاّ عثمان مواقف فيها محمودة شعراً وخطابة. وأدركته الوفاة ببغداد في ٣٠ كانون الثاني ١٩٢٣.

وقد أقيم له تمثال في مسقط رأسه الموصل سنة ١٩٧٠. رثاه عند وفاته عبد الرحمٰن البنّاء بقصيدة مطلعها:

رحلت، والصدر بالإيمان ملآن، ... في ذمّة الله شيخ العلم عثمان

مؤلّفاته:

من مؤلفاته المطبوعة في استانبول والقاهرة: الأبكار الحسان في مدح سيّد الأكوان (١٨٩٥) تخميس لاميّة البوصيري (١٨٩٥) المراثي الموصليّة (١٨٩٧) مجموعة سعادة الدارين (١٨٩٨). ونشر أيضاً: الأجوبة العراقية لأبي الثناء الألوسيّ (١٨٩٠) التر ياق الفاروقي (ديوان عبد الباقي العمري الفاروقي، ١٨٩٨)، إلخ.

قال عثمان الموصلي يمدح يوسف السويدي:

سلمنا الخطوب ونلنا المرام ... ومقدامنا حلّ دار السّلام
تناديه أربابنا مرحباً ... وأهلاً وسهلاً بمُزوي الأوام
بآبائه ضاء نور الهدى ... وفيه سنحظى بصفو المقام

وقال فيه أيضاً:

رسالة البرق قد جاءت مبشّرة ... أهدت إلينا سروراً آخر الزمن
أنجى الإلٰه عزيز المصر وانكشفت ... عنه الظنون وخابت فرقة الضغن

ومن شعره الصوفيّ، قال:

بني المصطفى، قلب المتيّم قد أبدى ... لكم فرط وجد لا لسلمى ولا سعدى

وقال:

قلبي بحبّكم، والله قد جذبا، ... وظلّ فيكم عن الأغيار محتجبا

ذكره الدكتور مصطفى جواد في بحث له عن الغناء والمغنين في العراق فقال: «... وملا عثمان الموصلي الضرير كان من أعلام المغنين والموسيقاريين، وله فيها تأليف، ويحسن قراءة المولد النبوي.

وكان من الخطباء المصاقيع في الحركة الوطنية بالعراق. أدركته، وكان يضع على رأسه القلنسوة المولوية البيضاء من اللّبد، توفي قبل عدة سنين».

وقال محمد هاشم الرجب استاذ المقام العراقي في معهد الفنون الجميلة ببغداد:

«الشيخ عثمان الموصلي... وهو إمام أهل الفن في هذا المضمار (أي مضمار المقام العراقي) يبتدع القطعة ببراعة في الاسلوب ودقة في الأداء. يجيد الغناء بأفانينه، يرتجل الشعر الرصين في المناسبات حسب البحور اللازمة لكل مقام، كما يحسن الضرب على العود والنفخ بالناي والعزف على القانون. وهو كفيف».

وقال جلال الحنفي: «كان كثير الاسفار في البلاد والتجوّل فيها. وكان صوته غليظاً أجشّ وفيه بحّة ـ وإلى الملا عثمان تنسب عشرات التنزيلات والاشغال المولوية المستعملة اليوم في الموالد النبوية».

وذكره أيضاً ابراهيم الدروبي في كتابه «البغداديون: أخبارهم ومجالسهم» باسم الشيخ عثمان البصير، فقال انه كان يتولّى تدريس علم التجويد والقراءات في جامع الخفافين ببغداد. ثم قال: «وكان حسن الصوت والأداء يخلب الألباب ويسحر العقول بنغماته الشجيّة، فضلاً عن كونه كان عالماً فاضلاً وشاعراً... وله إلمام في الموسيقى، وكان يحسن قراءة المولد النبويّ».

حدثني محمود صبحي الدفتري عن ذكاء الملا عثمان الموصلي فقال انه كان يعرف الناس من صوتهم أو لمسة يدهم.

قال الدفتري: سافر أبي فؤاد إلى استانبول سنة ١٩٠٥، فكان يجتمع دائماً بصديقيه موسى كاظم الباجه جي ووفيق الربيعي، فيأخذون الملا عثمان إلى بعض الأندية أو المقاهي ويتمتعون بفكاهاته ولطائفه. وذهبوا مرة إلى المسجد الذي كان يعظ فيه ويقرأ الأذكار، فلما أطال وأسهب، نبّهوه إلى وجودهم، فقال منغماً في أثناء ترتيله:

يا فؤاد، يا موسى، يا وفيق، إنني أنتهي قريباً، فانتظروني. وحسب الأتراك الموجودون في المسجد أن ذلك من جملة التراتيل فكانوا يردّون على أقواله: آمين، آمين!

ولم يلتقِ محمود صبحي نفسه بملاّ عثمان إلا في سنة ١٩٢٠. كان يسير بصحبة أحد أصدقائه، فتقدم محمود صبحي وسلّم عليه وصافحه قائلاً إنني أتشرّف برؤيتك لأول مرة، ايها الملا المحترم، ولكنني سمعت عنك الشيء الكثير من والدي. وتمايل جسمه يميناً ويساراً على عادته حين يفكّر، ثم قال على البديهة:

أوراق إخلاصي، إذا ما كتبت، ... تنشر في البلدان حسن الأسطر

كلّها محفوظة في مهجتي ... ومهجتي عند فؤاد الدفتري

الشيخ محمد السماوي

من شعراء المدرسة القديمة في العراق وذوي البصر بالكتب والمخطوطات القاضي الفقيه، وهو ـ كما سمّى نفسه في تقريظ قديم لكتاب «الروض الأزهر» الذي ألفه مصطفى نور الدين الواعظ ونشره ولده ابراهيم الواعظ ـ محمد ابن الشيخ طاهر التركي الفضلي الشهير بالسماوتلي، ولد في بلدة السماوة على الفرات سنة ١٨٧٦ . ولما بلغ العاشرة من عمره أرسله والده إلى النجف فدرس في معاهدها، ثم قصد سامراء ولازم عالمها الامام حسن الشيرازي. وعاد إلى مسقط رأسه سنة ١٨٩٧، ولبث متنقلاً بين السماوة والنجف حتى سنة ١٩١٣ حين قصد بغداد إذ أصبح عضواً في مجلس الولاية.

احتلّ الانكليز العاصمة العراقية سنة ١٩١٧ فبارحها إلى النجف، وعين قاضياً شرعياً بها في ٢٤ آذار ١٩٢١ . ونقل قاضياً لكربلاء (حزيران ١٩٢٤) فبغداد (آب ١٩٢٥)، وعيّن عضواً بمجلس التمييز الشرعي الجعفري (١٩٢٦). وأعيد قاضياً جعفرياً في بغداد (كانون الاول ١٩٣١) فالنجف (شباط ١٩٣٤)، حتى أحيل على التقاعد سنة ١٩٣٥.

وقد قيل إنه فصل من الخدمة وفقاً لأحكام قانون ذيل قانون انضباط الموظفين بناءً على مسعى السيد محمد الصدر، فداعبه محمد علي اليعقوبي قائلاً، بحسب رواية جعفر الخليلي:

قل للسّماوي الذي	فلك (القضاء) به يدور
الناس تضربها (الذيول)	وأنت تضربك (الصدور).

وسكن السماويّ النجف بعد ذلك منصرفاً إلى عالم الكتب. وانتخب عضواً مراسلاً بالمجمع العلمي العراقي في ايار ١٩٤٩ . وأدركه الحمام في النجف في ١٦ تشرين الاول ١٩٥٠.

شعره ومؤلفاته:

نظم محمد السماوي الشعر، وهو في ميعة الصبا، فأكثر منه في الغزل والاخوانيات، ثم اقتصر في نظمه على مدح النبي وآله.

ومن مصنفاته: شجرة الرياض في مدح النبي الفيّاض (١٩١٢) ثمرة الشجرة في مدح العترة المطهّرة (١٩١٣) إبصار العين، في أنصار الحسين (١٩٢٣) ظرافة الأحلام (١٩٤١) تاريخ المعصومين، صدا الفؤاد (١٩٤١) عنوان الشرف في وشي النجف (١٩٤١) مجالي اللطف بأرض الطفّ (١٩٤١) وشائج السرّاء في شأن سامرّاء (١٩٤١) الكواكب السماوية في شرح قصيدة الفرزدق العلوية (١٩٤١) موجز تواريخ أهل البيت (١٩٦١) الخ . . .

ومن مؤلفـاته المخطوطـة: الطليعة في شعراء الشيعـة (ثلاثة مجلـدات) قرط السّمع (أرجـوزة في الـربع المجيّب). ونشر كتـاب المدهش في علـوم القـرآن والحديث واللغـة الخ... لابن الجوزي (١٩٣٠) ومقتـل الحسين للمـوفّق الخوارزمي (في جـزءين، ١٩٤٨).

نهج في شعـره على الطريقـة القديمـة، فـاستهلّ أماديحه متغـزّلاً، كما قال في مـدح الرسول الأعظم:

أخجلتَ جيـد الـريم بـالالتفـاتْ وفقت سلّ السيف بـالانصـلات

بسمـت زهـواً بشتيت اللّمـى فأيّ شمـل لم تـدعـه شتـات؟

تقـوّل النـاس بتحقيقـه والله قـد أنبـت ذاك النبـات

ثغـر إذا لُحْنَ ثنـايـاه لي عجبتُ للـؤلـؤ وسط الفـرات

جـلا علينـا فمـه خمرة فهـاك، يـا سـاقي كأسي، وهـات

وقال في مدح علي السجّاد بن الحسين:

أبْـدِ لي مِمَّ احـورار المُقَـلِ أهـو من كحل بها أم كحلِ؟

بتُّ منهـا، وهي سكـرى، ثمـلاً هـل سمعتم ثمـلاً من ثمـل؟

تلفـت نفسي، أمـا يـرأف بي سـاحـر الأجفـان أو يعطف لي؟

وقال يتلهف على الشباب المدبر:

أبعـد أن عـرّى الصبـا أفـراسَـهُ تطلب إينـاس الهوى أو نـاسَـهُ؟

خفّض عليك فـالمشيب قـد أتـى يضحـك منك كـاشراً أضراسـه

لم تـدع الخمسـون منك جـانبـاً إلاّ وهـدّ مـرهـا أسـاسـه

سـوّد لي غـضّ الشبـاب كُتبَـهُ وبيّض الشَّيبُ بها قـرطـاسـه...

وقال متغـزّلاً في مطلع قصيدة له مـدح بها السيد مصطفى نور الـدين الواعظ مفتي الحلة:

صلينـي، يـا أميمُ، كما قطعتِ وعـاصي العـاذلين كما أطعتِ

فـديتـك قـد شربت بماء وجهـي رضـاك فما رضيـت ومـا قبلـت

أتيتـك أشتكـي فصفحـت عنـي كـأنّك مـا رأيـت ومـا سمعـت

تقـولين: السلـوّ بـه حقيـق عفـا الـرحمن عنـك، لقـد ظلمت

سلـوّي مثـل وصلـك مستحيـل فـإن أسلـو، ولن أسلـو، وصلـت

أجـدّك هل علمـت طـويـل ليلي فإني قـد سهـرت ومـا سهـرت...

وقال في النجف:

ألمّ على ذكـــــوات النجـف	ولاحـظ بطـــرفـك تلك الطُّـــرَف
هـــواءً نقيــاً تحفّ النفـــوس	بطيـب هـــدايـــا لـــه أو تحف
وتـــربــاً زكيـاً يـــودّ الفـــؤاد	يـــلاصقـــه من وراء الشغـف
وعـــرفـــاً ذكيـــاً يغير الكبـــا	إذا الأنـف نـــاشقـــه وائتنـف...
وإخــــوان صـــدق رقيقي الطبـــاع	تكـــاد طبــاعهُمُ تـــرتشف
كماة كـــرام يـــرون الشرف	بفـــرط الشجـــاعـــة أو بـــالسّرف
يـــؤلّفهـم جـــامـع مـن ولا	عليّ إذا مـــا القبيـل اختلـف
كـأن الجماهير حـــول الضريـح	حجيـج بمكـــة ذات الشرف
كـأنّ صفـــوفهـم في الصـــلاة	أكـــاليل درّ بتـــاج تُصَـف
كـأن العلـــوم إذا دارســـوا	بحـــار بأفكـــارهـم تغترف
سل الصحـن كـم فيـــه مـن لائذ	يقـــول عليّ لـــه : لا تخف
وكـم فيـــه مـن مستقيـل يقـــال	لـــه قـــد عفـــا الله عمّا سلـف
وكـم فيـــه مـن ذاكـــر ربّـــه	تقـــرّب بـــالمرتضى فـــازدلـف

ونظم محمد السماوي أراجيز في تاريخ النجف وكربلاء والكاظمية وسامراء، قال في مطلعها:

أحمد مــن قـــد أنشـأ السماءا	والأرض وامتـــازهما إنشـــاءا
واختـصّ بعـض الخلـق دون بعـض	بفضلـــه مـن السما والأرض...

قـال جعفر الخليلي: «لم يعـرف التـاريخ عالماً في العصـور المتأخـرة أحاط بـالكتب القـديمـة وتـواريخهـا ومـواضيعها وقيمـة الكتب الأثـريـة ونفـاستهـا كـالشيخ محمـد السماوي... فهـو في عصـورنـا المتأخـرة كمحمـد بن اسحق (ابن النـديم) صـاحب الفهرست في عصره، فقـد كان السماوي مـرجعاً فـذاً في تثمين الكتب القديمـة ومظانّ وجـودهـا... وقـد جـاءتـه هـذه الملكـة مـن افنـاء عمـره الطـويل في جمع الكتب، والمخطوطـات بصورة خـاصة، وللكتاب في نفسـه منزلـة ما حـاكـاها شيء معـزّة وحباً وتقديساً.

ولقد روى الراوون عنه، على سبيل الفكاهة، قوله: إنه عمل قاضياً اكثر من ثلاثين سنة (كذا)، وكـان يجنّب نفسه الاتصال بغير أصدقـائه الخلّص المنتقين، وكان يرفض قبول أية هـدية من أي شخص... حذراً من أن تشوب حكمه شـائبة من العواطف. لقد قـال: «لقد حـاول الكثير إغـرائي بشتى الطرق فلم يفلحوا لأنهم لم يكتشفـوا نقطة الضعف في نفسي، ولو عرفـوا قيمة الكتب عندي ومنزلتها في نفسي لأفسـدوا لي برشوة الكتب كل أحكامي!»

وكانت له مكتبة نفيسة جمع فيها المطبوعات والمخطوطات النادرة، ولقد طالما نسخ الكتب بخطه وجلّدها بيده ليضمّها إلى خزانته. وقد بيعت بعد وفاته وتفرقت مجلّداتها.

وللشيخ محمد السماوي رسائل ذات الديباجة القديمة، منها ما كتبه في مقدمة رسالة إلى المفتي السيد مصطفى نور الدين الواعظ سنة ١٨٩٨:

كفى حزناً أني أرى الورد حاضراً لديّ ولكن لا سبيل إلى الورد
وما كنت أخشى أن تكون منيّتي بكفّ أعزّ الناس كلّهم عندي

السلام الذي تهدّلت أغصانه النواضر، وتهلّلت غمائمه المواطر، وتنافحت نسائمه العواطر، فضاء برقه، وضاع عبقه، وارتاح ودقه. والتحية التي تحيي القريض، وتشفي المريض، وتبرد القلب الرميض، وتلبس ثوب المجد الطويل العريض، فهي أقرّ على العين من رؤية الروض الأريض. والثناء الذي عذب رقيق لفظه وملح حرّ معناه، وحلا بيته على كل سمع ولذّ مغناه، فهو أنظر من برد الشباب، وأنضر من مواصلة الأحباب، يهديها وينيرها ويسديها:

مغرم ما تنفّست نسمات الجوّ (م) إلا وهيّجت أنفاسه
وإذا ما الوميض لاح تلظّى وثنى طرفه وأطرق راسه

وهي طويلة نشر نصّها في كتاب الروض الأزهر في تراجم آل السيد جعفر لناشره ابراهيم الواعظ. وختمت الرسالة بقصيدة طويلة في مدح المفتي، ومطلعها:

صليني، يا أميم، كما قطعتِ وعاصي العاذلين كما أطعتِ

حتى يقول:

همام قد تفرّع من همام بأصل طيّب في المجد بَحْتِ
لقد غرسته دوحة آل فهر بأطيب تربة وأعزّ نبت
أطاب الخلق منه حسن خلق وزان الصّمت منه حسن سَمْتِ
تجمّع في علاه كلّ وصف وحاز على علاه كلّ نعت

الخ....

رضا الهندي

الشاعر رضا الهندي ابن السيد محمد بن هاشم الموسوي، ولد في النجف سنة ١٨٧٣، ودرس على محمد كاظم الخراساني المعروف بـ«الأخوند». وقد تفقّه في علوم الدين وقرض الشعر فجوّده.

كتب عنه جعفر الخليلي في الجزء الأول من كتابه «هكذا عرفتهم» فقال إنه بارع النكتة، لطيف المحضر، لم تنحصر صفاته بالأدب، بل كان فقيهاً غزير المادة، واسع الاطلاع، له في العلوم الدينية، ولا سيما الردود على الذين تناولوا الدين الاسلامي، جولات وصولات . . . وقال انه ولع بالبديع ولعاً كبيراً، ووضع «مقامات» هي شعر إذا شئتها شعراً ببحور مختلفة وقوافٍ متنوعة، وهي نثر إذا شئتها نثراً مسجّعاً أو مرسلاً. وله تواريخ شعرية غريبة في بابها، ومن قصائده التي اشتهرت «الكوثرية»، ومطلعها:

أمفلّج ثغرك أم جوهر ورحيق رضابك أم سكّر؟

قد قال لثغرك صانعه: «إنا أعطيناك الكوثر».

وروى جعفر الخليلي طرفاً من لطائف رضا الهندي ، ومنها أنه حكّمه ذات يوم في قضية أدبية ـ وكان يحسب نفسه محقاً فيها ـ فحكم لخصمه. وغضب الخليلي لذلك الحكم، فقال له الهندي: «إذا كنت تريد العراك وكنت شجاعاً، فيجب أن تبحث عن «تركي» حادّ المزاج لا أن تقصد «هندياً» بارد الطبع مثلي».

توفي السيد رضا الهندي في حزيران ١٩٤٣ في الفيصلية.

طبعت قصيدته الكوثرية في مدح أمير المؤمنين علي بن ابي طالب، وطبع من مؤلفاته: بلغة الراحل، الميزان العادل بين الحق والباطل (١٩١٣).

عبد الحقّ الأعظمي

عبد الحقّ حقّي الأعظمي الشاعر الأديب ولد في الأعظمية من ضواحي بغداد سنة ١٨٧٣ ودرس في معاهدها. ثم مضى إلى الهند، وهو شاب، فعهد اليه بالتدريس في كلية عليكره (وهي مدرسة أنشأها في تلك المدينة سنة ١٨٦٤ السر السيد أحمد خان ليجمع فيها التعليم الاسلامي القديم إلى العلوم العصرية، وقد رفعت الى مصاف الجامعات سنة ١٩٢٠).

عاد الأعظمي إلى بغداد بعد الحرب العظمى الاولى ونشر شعره في المجلات والجرائد. وألف: أعجب العجب من أحوال العرب (طبع بالقاهرة، ١٩٢٢).

أثنى عليه الشيخ محمد رشيد رضا صاحب مجلة «المنار»، وقد عرفه حين زار الهند سنة ١٩١٣ وقال إن الأعظمي كان مدرس اللغة العربية في مدرسة العلوم الكلية.

سافر إلى مكّة فوافته منيّته بها سنة ١٩٢٤، كما يستفاد من رثاء له بتوقيع «زهير» نشر في جريدة الضاد البغدادية لصاحبها محمد صالح سليم السهروردي (في العدد الخامس المؤرخ ٢٥ آب ١٩٢٤)، ومطلعه:

بكى العـــراق بـــدمــع ســـال منسكبـــا على الـــذي يتّم الأقـــلام والأدبـــا . . .

تـــالله قــد كـــان عبـــد الحقّ بـدر هـــدى يهدي الـــورى غير أنّ اليـــوم قـد غـــربـــا

العلم مـن بعـــده قـــد بـــات منكسراً والشعـــر من بعـــده قـد صـــار منعطبـــا

والأعظميـــة في ثـــوب الحداد غـــدت تقـــول : أين نـــزيـل الهنـــد قـــد ذهبـــا؟

منّـــا عليـك ســـلام كلما قـــرئت قصـــائد لك كـــانت تسحـــر الأدبـــا

عصر النهضة
الشعـــر

جميل صدقي الزهـاوي

شاعـر النهضة الأدبية جميل صدقي بـن مفتي بغداد محمد أمين فيضي الزهـاوي ولد ببغـداد في ١٨ حزيـران ١٨٦٣ وتـوفي بها في ٢٣ شبـاط ١٩٣٦ . كان نـائبـاً في مجلس النواب التركي وعضواً في مجلس الاعيان العراقي . وقـد ترجمت له في كتابي «أعلام اليقظة الفكرية» ترجمة وافيـة . اهتم الزهاوي بتحرير المرأة واتخذ شعـره أداة للدعوة إلى تثقيفها وانهاضهـا . وكانت شقيقتـه الآنسة أسماء الـزهاوي من رائدات النهضـة النسائيـة ، إذ أسست «جمعية النهضـة النسائية» في بغـداد سنة ١٩٢٤ وانتخبت رئيسـة لها . وعهدت بنيابة الرئاسة إلى السيدة نعيمة قرينة نوري السعيد .

عيّن الزهاوي على أثـر احتلال بغداد عضواً بمجلـس المعارف في أول ايلول ١٩١٨ واستمّـر فيه إلى ٣١ تموز ١٩٢١ . واختير في ١٩ شبـاط ١٩٢٠ مدرسـاً للّغـة العربيـة بمدرسة الحقوق . وعيّن رئيساً للجنة تعريب القوانين التركية في نظارة العدلية في أول آذار ١٩٢٠ حتى الغاء اللجنة في ٣٠ حزيران ١٩٢١ .

انتخب نائبـاً عن المنتفق في مجلس المبعـوثان (١٩١٢) وناب عن بغـداد في المجلس الذي تلاه . وقد عاد إلى بغداد قبيل نشوب حرب ١٩١٤ فبقي فيها ولم يعد إلى استانبول لحضور جلسات المجلس النيابي بخلاف زميله معروف الرصافي نائب المنتفق الذي لبث في العاصمة التركية إلى سنة ١٩١٩ .

وقد اشترك الزهاوي مراراً في منـاقشات المجلس ، فاعترض على جباية الضرائب من دور الفقراء واعفـاء قصور الأمـراء ووصيفات آل عثمان . وانتصر لحريـة الصحافـة عند بحث قانون المطبوعات فقال : أثبت تاريخ الأمم أنه كلما اشتد تضييق الخناق على حملة الأقلام والأفكار كـان الانفجار عظيماً . وطالب الحكومـة بجعل الأحكام العرفيـة تابعة للتمييز . وطلب جعل اللغة العربية لغة رسمية للمحاكم في العراق تحقيقاً للعدالة ولغة التـدريس في المدارس . ودعا إلى تأسيس كليـة طبيـة في بغداد أسـوة بدمشق . ونـاقش شؤون الزراعة ودعا إلى العناية بها .

وذكر سليمان فيضي في مذكراته «في غمـرة النضال» أن بعض القادة البحريين أوقفوا أوقافاً تصرف غلتها للأئمة الذين يقرأون البخاري في السفن الحربية . قال الزهاوي عند المذاكرة في ميزانيـة القوة البحرية إن البواخـر تسير بالبخار لا بالبخـاري وطالب بإنفاق

تلك الغلة على نشر التعليم ليتقن الناس استعمال البخار.

وفي مناسبة اخرى قال الزهاوي إن الآية الكريمة ﴿**إنّ الأرض يرثها عبادي الصالحون**﴾ لا تعني بالصالحين العبّاد والنسّاك بل تعني الصالحين لإعمارها، وقوبلت كلماته بالضجيج والاستنكار والتكفير.

وكان في العهد الملكي عضواً بمجلس الأعيان (الشيوخ) (١٩٢٥ ــ ٢٩) فكانت الكلمات التي ألقاها ينصبّ معظمها على شؤون لغوية ولفظية . . ولما انتهت عضويته في المجلس، وقد سقط بالقرعة، ولم تجدّد قال يخاطب نفسه :

سقطت فلا تحزن على ما فقدته، فما أنت بين السّاقطين بأوّل
فكم من وزير كان قبلك قد هوى (كجلمود صخر حطّه السّيل من عَلِ).

الزهاوي المتشكك :

كان الزهاوي متشككاً فحيناً مؤمناً وحيناً جاحداً وتارة اخرى لا أدريّاً. وقد استهوته نظرية التطوّر (أو كما كانت تدعى آنئذٍ: نظرية النشوء والارتقاء)، فطالع آراء داروين وهكسلي وغيرهما كما ترجمها «المقتطف» وعبّر عنها الدكتور شبلي شميّل والدكتور يعقوب صروف وفرح أنطون وإسماعيل مظهر. ونظم هذه الآراء في قصائده رغبة منه في التجديد كما نظم سواها من الأفكار العلمية والأخلاقية.

ولم يفهم نظرية داروين على حقيقتها، فظنّ أن الإنسان حسب نظرية التطور متحدّر من القرد فقال :

رجعت إلى الماضي البعيد بفكرتي وقلت لقرد الغاب: يالك من قرد
تقلبت في الأصلاب دهراً وبعده نسلت ابنك الإنسان نادرة الوُلْدِ

وقال أيضاً يخاطب الإنسان :

هل أنت إلاّ واحد من القرود في النسب؟
ألم تكن وأنت في طور الجنين ذا ذنب
مشابهاً جنين حيوان لو اسطاع وثب؟

وعلماء التطور إنما قالوا ان جدّ الإنسان والقرد كان واحداً قبل مئات الملايين من السنين، ثم اختلف النسلان على مرّ الدهور فأنجبا الإنسان والقرد في خط متواز كلاً منهما بمعزل عن الآخر. وقد قلت في ذلك :

يا قرود الغاب، نقريك السلام،
جدّنا كان لكم نعم الرفيق
أخرج الصوت شبيهاً بالكلام،

تــرك الأدغــال وارتـــاد الطـــريق . . .

زرع القمـح وأنـــــواع النبـــــات ،

شيّـــد الـــدور وقـــد أحيى الفـــلاة ،

وتعـــالى سيّـــد الأرض المطـــاع .

ومضى يـــومـــاً إلى الغـــاب البعيـــد

فأتـى بـــالقـــرد في طـــوق الحديـــد

هـــزأةً يسلـــو بـــه هم الصراع . . .

آمن الزهاوي بالعقل واتخذه نبراس الـوجود وحاول أن يستغني به عن الإيمان . لكن العقل قاصر يعجز عن ادراك منشأ الكون وخـاتمته وتصوّر اللانهاية المكانيـة والزمانية . وحار العقل في تعليل انبثاق الحياة وتطورها ، فاكتفى الزهاوي بأن قال :

مـــا حيـــاة قـــديمهـــا غير بـــاد ... لـــك الا تطـــــــــــوّر في الجماد

وقال :

رقيـت مـن الجماد فصرت حيـــــــــاً ... تميّـــز بـــالـــدراســـة والـــذكـــاء

وبينا نراه يكبر سلطان العقل إذا به يقول :

للكـــــــون فيها بـــــــدا لي ... ظـــــواهـــــر وخفـــــايـــــا

مـــــا قـــــام فينـــــا حكيم ... يحلّ بعض القضـــــايـــــا . . .

وهو يمعن في الإنكـار في «نزغـاته» التي نشرهـا هلال ناجي في القـاهرة (الـزهاوي وديوانه المفقود ، ١٩٦٣) فيقول :

تـــــوقّفتُ لا أدري تجاه الحقـــــائق ... ألنّي خلقـت الله أم هـــو خـــالقـي؟

لئن وثـق الجمهـــور بـــالله خـــالقـــاً ... فـــــربَّ حكيـم بينهـم غير واثـق!

لكنه في آخر الأمر يرتدّ نادماً ويستغفر قائلاً :

أنـــا فيها أبـــديتـــه من مقـــال ... مخطـىء ليس لي أقـلّ استنـــــاد

شهـــد الله والملائكـــة الأبـــرار ... أنّي ركبت غير السّـــــــداد . . .

وكذلك كان الزهاوي مؤمناً جاحدا لا أدريًّا ، حكيماً حائراً متردداً ، جمع العبقرية في نقائضه وتقلباته .

جميل صدقي الزهاوي

روايـة ليـلـى وسميـر :

(نظمها سنة ١٩٢٧ ونشرها في مجلة لغة العرب)

يفتتح المشهد الأول بزينب تغني اغنية النوم لابنتها ليلى حين كانت طفلة :

نعست بعـــد الــــرضـــــاع وللنعـــــــــــاس دواعـــي

تغفين فـــــــــــوق ذراعـــي والآن في المهــــــد نــــــامـي

وهي أغنية رقيقـة ساذجـة العواطف تمثل نفس الشـاعر الـوجداني المحب للطفـولة والبشرية.

ثم تكبر ليلى فيحبها الفتى سمير وتبادله الحب. ويلتقي الحبيبان على شاطىء دجلة في ليلة قمراء ويتحدثان في أمـر الزواج. لكن الشيخ عبد الله رجل الدين الكهل الذي طلق نساءه الثلاث واحدة بعد واحـدة يرسل الخطـابات إلى أم ليلى فتردهنّ. ويحرّض الشيخ الوالي على سمير متهماً إياه بـالطعن في الذات السلطانية، فـلا يجد سمير مناصاً من الهجرة إلى خارج العـراق وتقديم الشكوى إلى السلطان فيأمر هـذا واليه بالكف عن تعقيب الفتى البغدادي.

يعود سمير إلى ليلاه ويستعـد لعقد قرانه. لكن الرجل المسمي رجب الـذي يتظاهر بصداقة سمير ويكشف أسراره للشيخ عبد الله يكتب نشرة مقلداً خط سمير وفيها حثّ على الثورة باسـم الحرية. ويتهم سمير بالجريمة ويقبض عليـه، بينما تمرض زوجته بعد ولادة عسيرة وتقضي نحبها. ويختتم شاعـرنا روايته بقصائد حزينة أولاهـا لليلى في ساعة موتها، والثانية لزينب على قبر ابنتها. ويطلق سراح سمير بعد اعلان الدستور وإطلاق الحريات، وقد مضى على نفيـه عامان، فيعود ليرى طفلـه لأول مرة ويسمع خبر موت زوجته، فيلقي على جدثها قصيدة شجية:

هـل مــــا أراه قبر ليلـــــى مـــــاثـــلاً يبـــدو أمـــامي

كـــذبـــوا فإنـك في ظـــلام القبر يــــومــــاً لم تنــــامي...

سيظـل طـــــرفي هـــــاميــــاً يسقـي ثـــــراك على الـــــدوام

ويظـل قلبـي خـــــافقــــاً ممـــا يقـــاسي وهـــو دامـي

نوادر الزهاوي:

كان جميل صـدقي الزهـاوي في شبابه وكهـولته مرحـاً بعيداً عن التـزمت واصطناع الوقار.

قال ناجي شوكت في كتابه «سيرة وذكـريات ثمانين عاماً»: «كنت خلال هذه الفترة (سنة ١٩١٦) أتردد على دار العم مراد سليمان في أغلب الليالي. وكانت الدار المذكورة تضم من المداومين الدائمين السادة جميل صدقي الـزهاوي وأحمد القيماقجي (من ظرفاء بغداد المعـروفين) وعزت الفـارسي وعبد الرزاق الشيخ قـاسم والدكتور سامي سليمان. وكان الزهاوي يسمعنا من شعره كلّ طريف ولذيذ، كما كان يسمعنا عن آرائه في الكون والعلم كلّ غريـب، أما القيماقجي فكان يبتكـر لنا الحكـايات المضحكة التـي تدخل السرور على قلوبنا».

ثم يذكر ناجي شوكت سهرات ليالي الجمعة في دار مراد سليمان الواقعة في الصليخ،

وهي سهرات أنس وطرب. قـال: «وكان الزهاوي ينقلب في مثل هـذه الليالي التي تمتد حتى الصبـاح إلى شخصية أخـرى لا تمت إلى العلم والشعـر بصلة. وعنـد الفجر كنّـا نشكّل دائرة (حلقـة) حـول الـزهـاوي رحمه الله ونـردّد الأغنيـة المعـروفـة «يـا مسعـد الصبحية» . .

ومن النوادر التي تروى عن الزهاوي أنه شوهد ذات ليلة في استانبول يسير في بعض الشوارع المشبوهة، وكان آنذاك يرتدي الجبّة والعمامة.

فرآه شرطّي من شرطـة الآداب وقال لـه: أيها الخوجة (الملاّ)، مـاذا أتى بك إلى هنا؟ وأصرَّ على أخـذه إلى دار المشيخة الإسـلامية. لكن شـاعرنـا تصنّع جهل اللغة التركيـة وأجاب بالفارسية أنه غريب وقـد ضلّ طريقه. فأخذه الشرطي إلى دار السفارة الإيرانية وأخلى سبيله.

وكان الزهاوي يداوم الحضور في بغداد في مجلـس محمد باشا الداغستاني. وكان لهذا القـائد حديقـة كبيرة ملاصقـة لداره، وفيهـا أقفـاص للأسـود والحيوانـات الضاريـة الأخـرى. وكان من الـذين يحضرون المجلس مـدير الشرطـة التركي، وهـو رجل ضخم الجثة، شديد البأس، يبالغ في أحاديثه ويروي عن نفسه قصص بطولة عجيبة. وضاق الزهاوي ذرعاً بمفاخراته، فقال ذات يوم في المجلس الحافل: «هل تعلمون أن هرتز فلد العالم الألماني قد اكتشف في خـرائب سامّراء آثاراً غـريبة؟ وقد وجد في ضمنهـا صندوقاً أكل الدهر عليه وشرب ففضّه ووجد في داخله صندوقاً ثانياً وثالثاً ورابعاً. . .»

وظلّ الزهاوي يـواصل وصف الصناديق المحفوظة أحدها في داخل الآخـر، فقال له الحاضرون: «وماذا كـان في داخل الصندوق الأخير؟» قـال: «وجد العـالم في الصندوق الأخير ورقة عليها كتابة، فأكبّ على حلّ طلاسمها، فإذا فيها: لعن الله الكاذبين!».

وغضب مدير الشرطة وتحدى الزهاوي أن ينزل معه إلى قفص الأسد فيصارعه. وقبل الزهاوي التحدّي، فقام مدير الشرطـة ونزع معطفه وقميصه واستعد للدخول في قفص الضواري، لكن الزهاوي أسرع بترك المجلس والخروج هاربـاً. وقد ضاق الزهاوي ذرعاً بأحد الكذابين فقال فيه:

ومـدّعٍ بحيـاة البحـر معـرفـةً ... مـا حـازهـا أحـد في الأعصر الأولِ
فقلتُ: صـف لي كيف الحوت ممتحنـاً، ... فقـال لي: الحوت ذو قـرنين كـالجمل

وكان أصدقاء الزهاوي كثيراً ما يقسون في مداعبته. فمن ذلك أنه كان يحضر مجلس مراد سليمان صباح الجمعة، فأعدّوا له مهزلة أحكموا نسج خيوطها للسخرية منه. كان في بغداد رجل مهرّج يقلّد أصوات النساء، فاستدعي وكلّف أن يرتدي الملابس النسائية ويضع على وجهه النقاب ويأتي إلى دار مراد بك صباح الجمعة ليطلب مواجهة الشاعر الفيلسوف.

وفي ذلك الصبـاح، والمجلس حافل بـزوّاره من أعيان بغـداد وأدبائهـا، والزهـاوي

جالس يبهر الحاضرين بشعره ونوادره، إذا بامـرأة محجبة تدخل إلى باحة الدار وتصرخ بصوت نسائي رفيع: «اين جميل الـزهاوي؟ لقد وعد بزيـارتي مراراً وأخلف وعده. .» واستمّرت على الصراخ بكلام في هذا المعنى، والزهاوي يقول: «والله لا أعرفها، ولم أرها من قبل»، ويطلب من صاحب الدار أن يجدوا له مخبأ وأن يصرفوا تلك المرأة الرعناء.

وبعد ضحك طويل هدّأوا من روعه وجاؤوا بـالمرأة وأمروها برفع حجابها، فإذا هي رجل يسعى.

وكـان الزهـاوي يقـرأ شعـراً له في مجلس محمـود صبحي الـدفتري فـانتقده عـارف حكمت. فقال الزهاوي: إذا دخل عارف في الأدب فإننا نخرج عن الأدب!

ونظم الشـاعر قصيـدة وأبردهـا إلى مجلـة الهلال المصرية للنشر، ولم يكـد يرميهـا في صندوق البريـد حتى بدا لـه أن يغيّر كلمة فيها، فأسرع إلى الـدكتور فائق شـاكر مـدير البريد والبرق العـام وقال له: أرسلتُ قصيدة بـالبريد إلى مجلة الهلال في القاهـرة اليوم وأريد أن أصحّح بعض أبيـاتها، فأرجو أن تأمر باستخـراج الرسالة وإعـادتها إليّ. قال المدير العام: إن استخراج رسالتك، يـا استاذ، من بين آلاف الرسائل المبردة أمر عسير والأفضل أن تردفها برسالة ثانية تصحّح فيها ما تريد تصحيحه. قال الزهاوي: ولكنني لا أريد صاحب «الهلال» ومحرريها أن يعلموا أنني أصحح قصائدي بعد نظمها!.

واضطر الدكتور فائق شاكر أن يأمر موظفيه بفرز الرسائل المبردة إلى مصر واستخراج رسالة الزهاوي وإعادتها إليه.

وقـد حيّا الفنـانـات والفنـانين المصريين الذين قـدمـوا إلى العـراق، وعمره يقـارب السبعين، بقصائد عاطفية كفـاطمة رشدي ويوسف وهبي ومحمد عبـد الوهاب ونادرة وأم كلثوم وغيرهم.

وقال:

ليـــس الحديـــث عـن الهـــوى	مـن شـــاعـــر شيخ جـــريـــرة

واعترض عليه بعض المتزمّتين فقال:

يـــريـــدون أن أحيـــا بعيـــداً عن الهوى	فـــلا تبتغي عيني الحســـان النـــواهـــدا
يـــريـــدون أن لا أهبط الـــروض منصتـــاً	لشـــادٍ وأن لا أطـــرّي الـــزهـــر حـــامـــدا
ومـــا كنت في دنيـــا إليّ حبيبـــة،	وإن كـــدت استـــوفي الثمانين، زاهـــدا
أجل، كنت عينـــاً في زمـــاني ونـــائبـــاً	ولكنني مـــا كنت للـــذوق فـــاقـــدا

الزهاوي في مهرجان الفردوسي:

أوفد الزهـاوي لتمثيل العراق في مهرجان الفـردوسي الذي أقيم في طهران في تشرين الأول ١٩٣٤، وكان معه «تلميذه» أحمد حامد الصرّاف.

ألقى الزهاوي قصيدة رائعـة بالفارسية في المحفل الذي عقد برعايـة رضا شاه بهلوي وحضور رجال الدولة والادب والمستشرقين. وكان قـد أعدّ القصيدة في بغداد قبل سفره وقـرأها على فهمي المدرّس فـاستحسنها. ولما فـرغ الزهـاوي من القائهـا ضجّ المجلس بالتصفيق، وقام إليـه الصدر الأعظم رئيس وزراء إيران فقبّل يده تقديـراً لأدبه واعترافاً بفضله.

عاد الزهاوي إلى الفندق فاستدعى إليه الصّراف وقال له: يا ولدي أحمد، هل رأيت الصدر الأعظم وما فعله حينما فرغت من انشـاد قصيدتي؟ قال: أجل، يا استاذ، رأيته يسحب يدك على ملأ من القوم ويقبّلها. قال الزهاوي: احفظ ذلك جيداً، يا ولدي، فأنت شاهدي الوحيد في بغداد!

حدثني أحمد حامد الصرّاف ان عبد الاحد حبّوش أصـدر مجلة أدبية باسم «الزنبقة» سنة ١٩٢٢، فقال له: أرجو أن تعرفني بالزهاوي لكي أسأله نشر شعره في مجلتي.

قال الصراف: اخذت عدد المجلة فوجدته مصدراً بقصيدة لمعروف الرصافي، فقلت لصـاحبي: هلّم نذهب إليـه الآن. وذهبا إلى داره، فأعطى الصراف العـدد إلى الخادم وقال له: إذا جلسنا بضع دقائق فجيء به وسلمه إلى الاستاذ.

وقدم الصراف صـاحبه إلى الـزهاوي وقـال انه من الشبـاب الناهض المثقـف، وقد أصدر مجلة أدبية راقية، وهو يرجوك أن تعطيه شيئاً من شعرك الجديد لنشره.

سرّ الزهـاوي ورحّب بالأديب وقـال له: اننا بحـاجة إلى مثل هـذه المجلات كي لا نكون عالة على المصريين واللبنانيين. . . .

وفي تلك اللحظة دخل الخادم وقدم المجلة إلى الـزهاوي، فقال الصّراف: هذا عدد المجلة واسمها «الزنبقة».

وأخـذها الشـاعـر وفتح صفحتهـا الاولى فوجـد قصيـدة الرصـافي تحتل منهـا محل الصـــدارة، فقـــذف بها في الهواء حيث دارت دورتين أو ثـــلاثـــاً ثـم سقطت على الأرض. وقال: يا رجل، إذا كنت من أتباع الرصافي المعجبين به فلم تأتي إليّ وتريد نشر قصائدي؟ ألا تعلم أن في أوروبة لكل شاعر أتباعاً، فالذي يتأثر خطى فكتور هوغو لا يقصد لامارتين، وهكذا؟ . .

وخرج حبوش خجلاً يجرّ أذيال الخيبة.

وأقول: زرت جميـل صدقي الـزهاوي مـرتين أو ثلاثاً قبيـل وفاتـه في داره ببغداد في الشارع الذي سمّي بعد ذلك باسمه. وكـان يشكو كثرة متاعبه الأدبية، ويقول ان نظم الشعر يـؤرقه ويهّد من قواه. وقال مـرة ان مجلة «الهلال» سألته عن رأيه في شـؤون أدبية واجتماعيـة ومالـه عـلاقة بنهضـة الشرق، وهـو يعاني تعبـاً في الـردّ وفي ارشاد الأدبـاء والمتأدبين الذين يتـوافدون عليه لـلاستماع إلى آرائه. ومع ذلك فهو يشعـر بواجب أدبي عليه في رعاية الجيل الطالع وتوجيهه بالرغم من شيخوخته وعجزه.

معروف الرصافي

شاعر العراق معروف بن عبد الغني بن محمود ينتمي إلى قبيلة الجبارة القاطنة في أنحاء كركوك. ولد في بغداد سنة ١٨٧٥ وتوفي بها في ١٦ آذار ١٩٤٥. أقام الرصافي دولة للشعر في القرن العشرين وخلّد اسمه بين الشعراء الأفذاذ كالفرزدق وجرير وأبي تمام والمتنبي، فسارت قصائده مسير الأمثال في الاقطار العربية وسحرت أجيالاً من شداة الادب. شبهه عبد القادر المغربي بالبحتري في مزية السهولة ونمنمة الديباجة، ولكن أين البحتري من معاني الرصافي والآفاق الرحيبة التي فتحتها النهضة الحديثة في ذهنه العبقري؟

وردت ترجمته الوافية في كتابي «أعلام اليقظة الفكرية في العراق الحديث».

حينما ألفت الحكومة الوطنية في العراق لأول مرة منذ العهد العباسي السالف وأسند العرش إلى الملك فيصل الهاشمي، أراد العاهل القادم إلى وطنه الجديد إشراك اتباع المذهب الشيعي في الحكم شيئاً فشيئاً بعد أن كانوا بمعزل عنه في العهد التركي المتعصب لسنّيته. ولم يجد الملك ولا الانكليز رجالاً من الشيعة يليقون للمناصب الإدارية والوزارية أو يرضون بتبوّئها، فدعوا إلى الوزارة بعض رجال الدين والوجاهة الذين رفضوها في بداية الأمر ثم قبلوها. والتفتوا إلى الشعراء والادباء من الكهول والشباب، فهيّيء لمحمد حسن أبي المحاسن ومحمد رضا الشبيبي وأمثالهما أن يصبحوا من وزراء الدولة. أما الشعراء من أهل السنّة فلم يلوا من المناصب سوى التدريس وعضوية مجلس المعارف، واللجان العلمية، وكانوا بعد ذلك نواباً وأعياناً. وكان ذلك مدعاة لتذمر الزهاوي والرصافي وأمثالهما الذين نفسوا على زملائهم من الشيعة مناصبهم الوزارية.

شعر الرصافي أكثر من سواه باستهانة الملك والحكومة بأمره وعدم منحه ما يستحقه من التبجيل والإكرام. ومع أنه ظل يمدح ويرثي في كل مناسبة عرضت فإنه لم يترك التذمر والتمرد حين يجتمع بأصحابه وأخصائه. وقال سنة ١٩٢٢ يخاطب رجال الحكم:

يا مبعديَّ بظلم عن مناصبهم ... وقاطعين إلى ما أبتغي طرقي
علمت كلّ خفيّ من ضمائركم ... وما علمت الذي ترضون من خُلقِ
ماذا يوافقكم من شأن صاحبكم ... حتى يكون لديكم جائز السَّبق؟
إن كان عقل فإني عاقل فَطِن ... أو كان حمق فإني أحمق الحُمقِ

وقال أيضاً متجنّياً ناقماً:

لنا ملك وليس له رعايا ... وأوطان وليس لها حدود
وأجناد وليس لهم سلاح ... ومملكة وليس لها نقود

أيكفينــــا مـن الـــدّولات إنّـــا	تعلّق في الـــديـــار لنــا البنـــود؟
وكم عنـــد الحكـــومـــة من رجـــال	تـــراهـم ســادة وهـم العبيـــد
كـــلاب لـــلأجـــانب هـم ولكن	على أبنـــاء جلـــدتهم أســـود

وقال :

علـم ودستـــــور ومجلس أمّــــة	كــلٌ عــن المعنــى الصحيــح محرّف
أسماء ليس لنــا سـوى ألفــاظهــا	أمــا معــانيهــا فليست تُعــرفُ

وقال :

دار ذا الـــــدهـــــر مـــــداره	فـــــرأى النــــاس ازوراره
كـم وزيـــر هـــو كـــالـــوِزْر	على ظهـــــر الـــــوزارة!

وزار المس جرترود بلّ يعـرض اخلاصه ويطلب الإقالة والعـون، ثم يقول في الوقت نفسه :

لقــد جمع الــدهــر المكــايــد كلهــا	بقـــدر كبير صيغ مـن معـــدن الخُبْث
فصــاغ طبــاع الانكليــز من الــذي	تقــاطــر في الانبيق كـالمطـر الــدَّثِّ . .

وحاول مغـادرة العراق . فردّه عبد المحسن السعـدون رئيس الوزراء الذي كـان يودّه ويرعاه . وقد شكا إليه حاله فقال :

أعبــد المحسن السعـــدون، إنـي	أراك منـــاط أسبـــاب الـــرجـــاء
لـــذلك قـــد أتيت إليك أشكـــو	رثـــاثـــة بــــزّتي وبلى كســـائي
فقـــد رقّـت ثيـــابي اليـــوم حتّـى	تكـــاد تــــذوب من مسّ الهواء

ومـا هذه النقمـة وذلك التمرّد سوى مظهـر من مظاهـر العبقـرية التي تعتقـد أنها مستهان بأمـرها غير حائزة للتقـدير الذي تستحقـه . لكن الحكومة لم تغفل أمـره ، فقد عيّنته مفتشـاً بوزارة المعارف واستـاذاً بدار المعلمين العاليـة ، ثم انتخبته نـائباً في مجلس النواب بالرغم من معـارضته وتركه بغداد إلى بلده الفلوجة ليقيم فيهـا في رعاية الوجهاء من آل عريم .

وكان راتبـه يكفي لسـدّ رمقه وهـو الفرد الذي لا عـائلة لـه ينفق عليهـا . ولم يعدم أصدقاء أوفياء ومحبين مقدّرين لشأنه يسعفونـه ويرعونه بلا منّ ، ومنهم فخري الجميل وعبد اللطيف المنديل وخالد سليمان وحكمت سليمان ومظهر الشاوي .

ولما رأى نوري السعيد، الـذي طالما مدحه الـرصافي وهجاه ، ان راتبه التقـاعدي لا يقوم بأوده خصّـص له جعلاً من المخصصـات السّرية يـذهب به إليـه صديقـه محمود السنوي في كل شهر . ومع ذلك هجاه فقال :

ان نـوري السعيـد قـد كـان قبـلاً آدميــاً فــرُدَّ بـالمسخ قــردا

ولم تقم حركة رشيد عالي الكيلاني الوطنية سنة ١٩٤١ حتى بادر إلى تأييدها والتنديد برجال الحكم السابقين.

لقـد كان الـرصافي كسـواه من الشعـراء متردداً بين السلب والإيجاب، يرضى حيناً ويغضب أحيانـاً لدواع نفسية وظروف طارئة، مفيـداً من الفرص العارضـة وناقماً عليها ضائقاً بها ذرعاً في آن واحد.

وقد قـال مصطفى علي مؤرخ الرصافي وراويـة شعره ان الرصافي يعـاف الذل ويأبى الاستعباد ويأنف من الدنيّة، ويكره الاستعمار ويجتويه فلا يرضاه لبلاده ولا لأمّته. وقد حاربه ما وسعه أن يحاربه ولم يهادنه حتى فارق دنياه. وقال مصطفى علي ان الرصافي في شعره الـذي ندّد فيـه بالـوضع السياسي في البلـد إنما كان لـرغبة منـه في مصارحـة أمته والامتناع عن غشّها فيقول خلافاً لما كان يـرى، فلم يكتم ما كان يشعر به بل كان يعلنه ويـذيعه لما طبع عليـه من الصـدق والاخلاص والشغف بـالحقيقـة. واستشهد بقـول الرصافي:

أمـا الحيـاة فشيء لا قــرار لــه يحيـا بي المرء مــوقــوتـاً إلى حين

سيّـان عنــدي أجـاء الموت مخترمـاً مـن قبل عشريـن أم من بعــد تسعين

ولقد حاول بعض الادبـاء والمتأدبين بعد ثورة ١٤ تموز ١٩٥٨ أن يقولـوا إن الرصافي كان مضطهداً في العهـد الملكي معوزاً لا يجد من التقدير والـرعاية ما قد كـان أهلاً له. والحقيقة أنـه بالرغم من تنديـده بالملك ووزرائه في عهد الانتداب لم يفصل من منـاصبه الرسمية ولم يحرم من النيابة. وقيل انه كان في خـلال الحرب العالمية الثانية يبيع السكاير لسدّ رمقه. وحقيقة الأمـر ان راتبه التقاعدي والمخصصات السّرية التي كـانت تقدم له والاعانات السخيّة التي تـرده من محبّيه والمعجبين به كانت تزيد عـن حاجة رجل فرد لم يعرف بالإفراط، لـولا أن خادمه عبد كان يستولي على مـاله ويسطو على المآكل النفيسة التي تهدى إليه، كما ذكر ذلك تفصيـلاً مؤرخه مصطفى علي. وقد حـذر الرصافي كثيراً من خيانة خادمه، فلم يهتمّ ولم يطرده.

أما قضية بيعـه للسكاير فالحقيقـة ان صديقة الشاعـر أنور شاؤل، وقد كـان محامياً لشركة طبّارة وعبود صاحبـة معامل السكايـر، رأى أن يفيد الرصـافي بعد أن أصبحت السكاير تباع بأسعار باذخة في السوق السوداء، فحمل الشركة على تخصيص كمية منها له في كل شهـر. وكانت تباع هذه السكـاير مباشرة ويقدم فـرق أثمانها إلى الرصافي دون مشاركة أو جهد منه.

وضع الرصافي قصصاً شعـرية استوحى مواضيعها من البيئة العـراقية المحلية. ونرى في الوقت نفسه الشاعـر المصري الكبير اللبناني الأصل خليل مطران (١٨٧٢ ـ ١٩٤٩)

ينظم قصصاً متعددة، غير أنه استمدّ مواضيعه من مصادر أجنبية وتاريخية كمقتل بزرجمهر ونيرون وشيخ أثينا وفتاة الجبل الاسود الخ .

محمد رضا الشبيبي

نابغة من نوابغ الشعراء المتأخرين وزعيم وطني معروف المنزلة، ولد محمد رضا الشبيبي في النجف في ٦ ايار ١٨٨٩ وتوفي في بغداد في ٢٦ تشرين الثاني ١٩٦٥ . تولى وزارة المعارف مراراً وكان رئيساً لمجلس الاعيان ورئيساً لمجلس النواب وعضواً بالمجمع العلمي العربي في دمشق ومجمع اللغة العربية في القاهرة ورئيساً للمجمع العلمي العراقي. ومنحته جامعة القاهرة سنة ١٩٥٠ مرتبة الدكتوراه الفخرية في اللغة العربية والدراسات الإسلامية. ترجمت له ترجمة وافية في «أعلام اليقظة الفكرية» .

قالت المس بيلّ في رسالة لها إلى أبيها تأريخها ٤ كانون الأول ١٩٢٠ أنها حظيت بزيارة ممتعة من الشيخ محمد رضا الشبيبي الذي عرفته سنة ١٩١٨ . وقد ذهب فجأة إلى الحجاز وسورية حيث كتب مقالات شديدة ضدّ بريطانية في الصحف المحلية منتقداً طريقة حكمها لهذه البلاد. ويظهر أنه أصيب بخيبة أمل من جراء استقرار السوريين في ظل الحكم الفرنسي، فأتى يعبر عن قناعته بأن ما يفعله الانكليز هنا هو الصحيح. وقالت إنه رجل معروف وله قلم ساحر، فإذا تعاون معنا مجازفاً بأن يدعوه المتطرفون انكليزياً فقد يكون ذا قيمة لا تقدر.

الشبيبي والمجالس الادبية
في صيدا والشام :

قضى محمد رضا الشبيبي في ربوع الشام شهوراً سنة ١٩٢٠ فاجتمع بأدبائها من الشباب الناهض الذي حلم بالوحدة العربية واستبشر بقيام الحكومة الفيصلية. وعقد المجالس الأدبية في صيدا مع سليمان الظاهر وأحمد عارف الزين وأحمد رضا وأديب الزين والدكتور شريف عسيران وغيرهم. وقال فيها قصيدته :

عروس من البلدان ليس لها مهر ... ومصر سبتني لا الصعيد ولا مصر

والتقى في دمشق بشفيق جبري وخير الدين الزركلي وسائر ادبائها فقال قصيدته :

ببغداد أشتاق الشآم، وها أنا ... إلى الكرخ من بغداد جمّ التشوق

فباراها شفيق جبري قائلاً :

أحنّ إلى بغداد من أرض جِلَّقٍ ... وأسأل أهل الشام عن كلّ معرق

ونظم جبري قصيدته :

شط المزار فربع دجلة نازح ... دون العراق سباسب وأباطح

قال إنه القى هذه القصيدة في سهرة بدار الزركلي، فلما فرغ من إنشادها ظهرت الكآبة على وجه الشبيبي وقال: لولا أن قصيدتك أبكتنا لصفّقنا لكل بيت.

ثم قضى الفرنسيون على الحكومة العربية وأخرجوا فيصلاً، فذهبت الآمال وتبددت الاحلام. فقال الشبيبي قصيدته «دمشق وبغداد» ومطلعها:

ماذا بنا وبذي الديار يرادُ؟ فقدت دمشق وقبلها بغدادُ

محمد رضا الشبيبي يعالج شؤون القطر:

قدم محمد رضا الشبيبي قبيل وفاته (في ٢٨ تشرين الاول ١٩٦٥) مذكرة إلى رئيس الوزراء عبد الرحمن البزاز أوضح فيها القضايا والمشاكل الخطيرة التي تواجهها البلاد. وأشار إلى الأحداث والكوارث التي حلت بها نتيجة تصارع الآراء وتضارب الاهواء وتشجيع التفرقة، وطالب بإجراء الانتخابات ليقول الشعب كلمته في الحكم. وقال ان الوحدة العربية هدف يتم باستفتاء الشعب عليه، وأشار إلى أخطار الطائفية المقنعة التي تفتّ بعضد الوحدةالوطنية. وقال ان الشعب العراقي انتفض أكثر من مرة على سياسة التفرقة النكراء وعمل منذ ثورته الاولى سنة ١٩٢٠ على اقامة حكم وطني ديمقراطي يسهم بإقامته وينعم في خيراته أبناء الشعب كافة لا يفرقهم عنصر أو دين أو مذهب. وشجب بعد ذلك سياسة المحاباة التي كانت نتيجتها تبوّء المقربين لمناصب الدولة وهم محرومون غالباً من المؤهلات والكفايات والاخلاص.

وطالب الشبيبي في مذكرته بدرس القضية الكردية درساً دقيقاً لصيانة الوحدة الوطنية وحقن الدماء وإعادة السلام والطمأنينة إلى الربوع الشمالية لأن العرب والاكراد شركاء في هذا الوطن يتقاسمون غرمه وغنمه. ودعا إلى تحرير النقابات من الضغط السياسي وتوكيد حقوق العمال. ثم التفت إلى الاشتراكية ونادى بلزوم مراعاة الواقع في شأنها، إذ أن تطبيقها بقرارات ١٤ تموز ١٩٦٤ قد أدى إلى تخبط الاوضاع المالية وارتباكها وزيادة البطالة وقلة الانتاج وتبذير أموال الدولة وتهريب رؤوس الأموال وعجز الميزانية. ودعا إلى الديمقراطية الاقتصادية قائلاً إنه «النظام الذي يلائم ظروفنا وحاجاتنا» وان الفروق الاقتصادية الواسعة خرق للعدالة الاجتماعية التي نؤمن بها.

وذكر انه يمكن العمل على تقليل تلك الفروق عن طريق توزيع الضرائب وزيادة مكاسب الطبقة العاملة ووضع خطة شاملة للتنمية وزيادة الدخل العام.

ثم تناول القطاع الزراعي الذي يمثل في نظره مصدراً أساسياً من مصادر الثروة العامة، فأشار إلى أخطاء قانون الإصلاح الزراعي ـ تلك الأخطاء التي أدت إلى تخلّف الزراعة، وطالب بإعادة النظر في أسس ذلك القانون وتطوير شؤون الزراعة وحماية الانتاج وتحديد واجبات الزراع وتعويض الفئات التي تم الاستيلاء على أراضيها. وطالب بعد ذلك بإصلاح نظام الضرائب، واستخلاص حقوق البلاد من شركات

النفط وإعادة النظر في تكوين الاتحاد الاشتراكي العربي الذي تنازعته الأهواء وأفضى إلى احتكار العمل السياسي وتطبيق مبدأ الحزب الواحد المعارض للديمقراطية.

ولا شك أن هذه المذكرة التي قدمها الشبيبي إلى السلطات المسؤولة قبل شهر واحد من وفاته كانت أروع خاتمة لحياته الأدبية والسياسية ووصيّته التاريخية لابناء البلاد في تلك المرحلة الدقيقة.

محمد رضا الشبيبي : شؤون واحاديث

تعرّفت إلى محمد رضا الشبيبي في سنة ١٩٣٩ وتوثّقت صلتي به بعد اختياري عضواً بنادي القلم سنة ١٩٤٢ وكان هو رئيسه. وزادت هذه الصلة إحكاماً بعد ذلك، فكنت في سنواته الأخيرة أكثر من زيارته في داره والمجمع العلمي، كما كان يمر بمكتبي مرة أو مرّتين في الاسبوع حتى توفاه الله.

وأذكر أنه كان يلقى عندي في بعض الأحيان علي الشرقي، وكانت بينهما جفوة، فبادره الشرقي بالسلام والكلام حتى استقام ما بينهما وعادت مودتها القديمة شيئاً ما.

كان الشبيبي يحضر مؤتمر مجمع اللغة العربية بالقاهرة كل عام ويقضي في مصر شهراً أو بعض شهر، فإذا عاد حدثنا بطرائف مما شهده وسمعه. وقال لنا ان الدكتور طه حسين سأله ذات يوم: «لماذا كان العراقيون دائماً ثائرين لا يستقرون على حال ولا يرتضون حاكماً؟ فقد قرأت تاريخ العراق منذ الفتح الإسلامي حتى الآن، وقلما وجدت حقبة خالية من الفتن والقلاقل». فأجابه الشبيبي: «أتسمح لي أن أسألك أنا أيضاً؟ لماذا كان المصريون دائماً خانعين خاضعين؟ لقد قرأت تاريخ مصر منذ الفتح الإسلامي وقبله أيضاً، فوجدت المصريين دائماً يسترضون حكامهم مهما جاروا وطغوا ويخفضون الهام لكلّ متحكم فيهم حتى لشجرة الدّر!».

قال الشبيبي: وقد اغتاظ طه حسين لجوابي، لكن الحاضرين قالوا له: لا يحق لك الغضب، يا دكتور، فجواب الشيخ من طبيعة السؤال.

وقد قيل قديماً: إن العقل لحق بالشام، فقالت الفتنة وأنا معك. ولحق الشقاء بالبادية فلحقت به الصحة، ولحق الخصب بمصر فلحق به الذّل.

وكان أمين هويدي سفير مصر في بغداد والذي دعي «المندوب السامي المصري» وقد أصبح فيما بعد مديراً للمخابرات ووزيراً لحربية جمال عبد الناصر كثيراً ما يزور الشبيبي ويسأله عن رأيه في الاتحاد مع مصر. فأجابه الشيخ بصراحة أن العراق لا يحب عبد الناصر وان الاتحاد أو الوحدة سابق للأوان. وقال له: بلّغ الرئيس عبد الناصر أن لا يغرّه كلام عبد السلام عارف (رئيس الجمهورية آنذاك)، فالعراقيون عازفون عن الوحدة بالرغم من حبّهم لمصر واعترافهم بمكانة الصدارة التي تتبوأها في مجتمع الدول العربية.

وقد اشتد الخلاف بين عبد السلام عارف والشيخ الشبيبي حتى أنه أصبح رئيساً اسمياً للمجمع العلمي العراقي لا يستطيع الحلّ ولا الربط، وقد تولى الامور فعلاً نائب رئيس المجمع بتشجيع من الحكومة، فكان الشبيبي يأتي إلى غرفته في المجمع ويخرج منها دون أن يباشر عملاً.

ودعيت مجامع اللغة العربية إلى عقد مؤتمرها السنوي العام في بغداد، فانتهز الشبيبي فرصة دعوة وجهت له للسفر إلى عمان، فزايل بغداد إلى الأردن وعقد المؤتمر في غيابه. وعاد من عمان بعد انتهاء المؤتمر، فلم يكد يصل إلى داره حتى قضى نحبه في نفس تلك الليلة.

***

أصدر الكاتب السوفياتي كوتلوف كتاباً عن «ثورة العشرين» نقلها إلى العربية عبد الواحد كرم. وقد ذهب الكاتب إلى أن الثورة العراقية كانت ثورة عمال وفلاحين على الاقطاع والرأسمالية على الرغم من قادتها من شيوخ الدين والعشائر، ومنح العوامل الاقتصادية والصراع الطبقي أهمية بالغة في نشوب الثورة. وسجّل للشيخ محمد رضا الشبيبي آراء تؤيد ما ذهب إليه. فسألنا الشيخ عن تلك الآراء، فقال ما معناه: جاءني ذات يوم المؤلف بموعد سابق ومعه مترجمان رجل وامرأة، إذ كان لا يحسن سوى اللغة الروسية. وقد بحث معي عن ثورة العشرين وأسبابها، وكان يتكلم بالروسية فينقل المترجم كلامه إلى الانكليزية ثم تترجمه المترجمة إلى العربية، فأردّ عليه وينقل كلامي إلى الإنكليزية فالروسية ليفهم صاحبنا مآله. وكانت تلك طريقة متعبة فضلاً عن احتمال ضياع المعنى أو اختلافه خلال هذا النقل المزدوج.

وقد أرسل المؤلف نسخة كتابه بالروسية إلى الشبيبي بعد طبعه (وذلك قبل سنوات من ترجمته إلى العربية)، فاستعان بأحد الطلاب العراقيين لترجمة ما جاء فيه على لسانه. ولما اطلع على الآراء المنسوبة إليه استنكرها وتناولها بالنقد والتجريح.

وقد ناقش الدكتور علي الوردي، في الجزء الخامس من كتابه «لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث» (القسم الثاني)، آراء كوتلوف في ثورة العشرين، فأبدى عدم موافقته على ما ذهب إليه المؤلف من نسبة الثورة إلى جماهير الفلاحين والبدو وعمال المدن. قال الوردي: «وأعترف أني، حين قرأت الكتاب، شعرت كأنه يتحدث عن ثورة غير الثورة التي عرفناها وأدركنا رجالها، وعن بلاد غير البلاد التي نعيش فيها». وأضاف قائلاً: «ويبدو أن كوتلوف حاول أن يصبّ ثورة العشرين في القوالب التي يحملها في ذهنه بغضّ النظر عمّا جرى في الثورة من وقائع مشهودة».

حدثني محمد رضا الشبيبي أنه هاجم نوري السعيد، وهو رئيس الوزراء، في مجلس الاعيان وندّد بسياسته تنديداً شديداً، فوقف نوري يردّ عليه بحدة وانفعال، وقال ما معناه: ليس هذا كلام سياسي مسؤول بل هو خيالات شاعر وأوهام كاتب.

ولم يكن من الشبيبي إلا أن التفّ بعباءته وخرج غاضباً من القاعة. ولكن لم يحلّ المساء حتى فوجىء بزيارة نوري السعيد له في داره يطيب خاطره. وهكذا كان رجال ذلك العهد يميزون بين المناقشات والمهاترات السياسية والعلاقات الشخصية. وقال له السعيد: سوف يأتي يوم تترحمون فيه على عهدنا.

***

كثيراً ما كنت أسمع محمد رضا الشبيبي بعد ثورتي ١٩٥٨ و ١٩٦٣ يشكو ويترحّم

على عهد الملك ونوري السعيد.

قلت له: كنت معارضاً مزمناً تسلق الحكومات المتعاقبة بألسنة حداد، فما عدا مما بدا؟ قال: أجل، كنت معارضاً أتسقط مخالفات الحكومة وانحرافها وأطلب الإصلاح، لكنني لم أطلب انهيار النظام وذهاب ريح السلطة واستبداد فئة قليلة جديدة لا خبرة لها ولا حسن نيّة بأمور البلاد. حين كنت أصارح المسؤولين وأتعقب أخطاءهم وسوء أعمالهم وآخذ عليهم التواء طرقهم كانوا يصغون إليّ ولو على مضض ويفعلون أحياناً أو لا يفعلون. أما هؤلاء الذين ينعتون أنفسهم بالثورية والتقدمية وسائر الصفات فلا يستمعون إلى أحد ولا يقبلون مصارحة، ويسرعون إلى اعتقال خصومهم والفتك بهم، وكمّ الألسنة والصحف وحرية القول... وبقي الشبيبي ساخطاً متألماً حتى أدركه الحمام.

وقد جاء إلى داره زبانية الأمن في عهد الرئيس عبد السلام عارف بعد منتصف الليل للقبض على ابنته المتهمة بالشيوعية. حاول الشبيبي اقناعهم بإرجاء الاعتقال إلى الصباح فلم يفلح. وأخيراً تمكن من الاتصال هاتفياً بعبد السلام فشكا له الأمر وترحّم على العهد الملكي البائد، فأمر الرئيس بصرف النظر عن اعتقال الفتاة.

انتخب الشبيبي عضواً بمجمع اللغة المصري في مقعد الأب أنستاس ماري الكرملي، ولما كان المألوف أن يتكلم العضو الجديد عن سلفه الذي حلّ محله، فقد طلب إليّ أن يطلع على قاموس الأب «المساعد» ليبحث فيه. وقد اتصلت بالآباء الكرمليين في الدير وهيأت للشبيبي أن يطلع على مسوّدات المعجم، فوضعت تحت تصرّفه ونظر فيه ونقل ما يروم نقله لخطابه في المجمع المصري.

***

على أثر قيام ثورة ٨ شباط ١٩٦٣ والقضاء على حكم عبد الكريم قاسم، قررت حكومة الرئيس عبد السلام محمد عارف مفاوضة الملا مصطفى البارزاني الذي قاد التمرد الكردي منذ سنة ١٩٦١. وارتأت إيفاد لجنة مفاوضة للتعرّف على مطالب الاكراد وأسندت رئاستها إلى محمد رضا الشبيبي، وكان من أعضائها فائق السامّرائي.

ذهب الشبيبي إلى المناطق الكردية وفاوض البارزاني، واتفق معه على منح المنطقة الكردية «لا مركزية» إدارية، وعاد فبلّغ السلطات العراقية بنتيجة مساعيه.

قال الشبيبي: بعد أيام سألني الرئيس عبد السلام عارف عن معنى «اللا مركزية»، فقلت له: انني رجل لغويّ و «اللامركزية» ليست محدّدة لغةً بل يحدّدها الاتفاق على نطاقها السياسي والإداري، وذلك شأنكم أنتم السياسيين.

***

جاء إلى بغداد سنة ١٩٤٧ رشاد بيبي مندوباً عن إذاعة الشرق الأوسط التي كانت تذيع من قبرص، فاتصل بالأدباء للحصول على أحاديث منهم.

وقابل محمد رضا الشبيبي الذي سأله : ما معنى لقبك «بيبي»؟
قال : انه الشبيبي بدون «ش» .

***

توفي صديق للشيخ محمد رضا الشبيبي فمضى لقراءة الفاتحة على روحه تتبعه حاشية كبيرة من أقربائه وأصحابه ، ولم يكن يعلم أن هذا الصديق الذي نعي إليه ولم يره منذ سنوات طويلة قد ترك داره في بعض شوارع بغداد القديمة وابتنى داراً انتقل إليها في أحد الأحياء الجديدة .

دخل الشيخ وجماعته إلى الزقاق الذي فيه دار الصديق الراحل القديمة فرأى رجالاً واقفين على الجانبين . ولم يكادوا يرون الشيخ حتى حفوا به واستقبلوه استقبالاً لائقاً وأدخلوه إلى الدار وأجلسوه وصحبه في صدر المجلس . ولكن . . كان المقرىء يقرأ السورة القرآنية الخاصة بزواج موسى القويّ الأمين ، وهي تقرأ عادةً في حفلات عقد القران . وقدمت للشيخ وصحبه الحلوى والعصير ، والجمع في أنس وسرور . إذن لم يكن هناك مجلس تعزية ، بل كانت حفلة عرس .

وخرج الشيخ بعد أن هنأ أسرتي العريس والعروس . وسأل بعد ذلك عن دار صاحبه المتوفى فأرشد إليها وقصدها ليقرأ الفاتحة على روحه .

***

حدثني محمد رضا الشبيبي أنه سافر ذات مرة إلى الشام ونزل في فندق أميّة . وفد رجال السياسة والأدب للسلام عليه ، وجاءه معلّم خدم في المدارس العراقية يوم كان وزيراً للمعارف ، فدعاه إلى تناول الغداء في داره . واعتذر الشبيبي بكثرة مشاغله ، لكن المعلم لم يقبل له عذراً .

وجاء المعلم إلى الفندق في اليوم الثاني قبل الظهر واصطحب الشيخ في عربة اكتراها وقال للحوذيّ : مرّ في طريقك بسوق الحميدية . واستأذن ونزل إلى بعض الدكاكين واشترى خبزاً و «كباباً» وفاكهة وشيئاً من الحلوى وضعها في العربة وأمر الحوذي بالمضيّ إلى داره .

ولما بلغاها وضع المعلم الطعام الذي ابتاعه على المائدة ، واتى بقدح ماء ، وقال للشيخ : تفضل باسم الله ، واعذرني عن التقصير في شأنك فإنّ زوجتي لا تطبخ . وفرغا من تناول الطعام فأركب الشيخ عربة وأعاده إلى الفندق معزّزاً مكرّماً .

***

دعي الشيخ الشبيبي إلى زيارة مدينة فاس عاصمة المغرب القديمة مع نخبة من أدباء العرب وأعضاء مجمع اللغة العربية المصري ، والمدينة قائمة في وادٍ ينزل إليه بطريق وعر متعرّج من الهضبة ، وهو طريق يصعب على السيارات السير فيه . وقد اضطرّ الشيخ ورفاقه إلى النزول على أقدامهم ولقوا في ذلك مشقّة عظيمة . وبعد زيارة معالم المدينة وقضاء بضعة أيام فيها وحان موعد العودة قال الشبيبي للدكتور عبد الهادي

التازي المرافـق للوفد أنـه يصعب عليه وعلى رفيق لـه من شيوخ المصريين الصعـود من الوادي ورجـاه أن يجد لهما وسيلة للركـوب . وكلم التازي هاتفيـاً أحد المسؤولين بـاللغة الفـرنسية وقـال لـه : لديّ شيخـان ميتّان مـن التعب فجد لهما وسيلـة نقل . ولم يسمع المسـؤول العبـارة «من التعب» ، فظن ان الـرجلين قـد ماتـا فعـلاً فأسرع وارسل سيـارة اسعـاف تحمل تابـوتين . رأى التازي السيـارة القادمـة فبادر إلى إعـادتها قبل أن يراهـا الشيخان ، ثم نبّـه رفيقه أن الـرجلين حيّان وطلب ارسـال سيارة «جيب» لتقـوم بمهمة النقل .

دعي الشيخ محمد رضـا الشبيبي إلى زيارة الكويت ضيفاً على أميرهـا ، وقد استقبل فيها استقبالاً حسناً ووضعت تحت تصّرفه سيارة وسائقها . أخذه السائق لزيارة العمران الجديد والأسواق المليئة بالبضائع الشرقية والغربية وكل النعم التي نالها البلد الصغير من ثروته النفطيّة المفاجئة .

قال الشبيبي للسـائق ذات يوم : أريد أن أرى الكويـت القديمة . فأجابـه : أنا على استعداد لأخذك إليها ، لكن السيارة لا تدخل السوق العتيق . قال الشيخ : أنا أستطيع المشي على قدميّ .

وأخذه السائق إلى سوق الكويت القديم ، فشـاهد الدكاكين المتواضعة . ورأى امرأة جـالسة على الأرض تبيع بعـض الاعشاب الهزيلـة وتـرشُها بـالماء بين الحين والحين من سطل بين يديها . قال السائق : هذه الكويت القديمة . أما صناعة السفن الشراعية فقد انقرضت أو كادت .

***

أشاد عبـد الرزاق الشيخلي ، في رثاء له لمحمـد رضا الشبيبي ألقاه في حفلـة تأبينه ، بمزايـاه الكثيرة وأدبه الجمّ ، وذكـر مواهبـه وصبره وجلده في التصميم والعمـل ونضجه الفكـريّ المنبعث من إدراك عميق وتمييـز بين الحقـائق والأوهام والانطـلاق والجمـود ، ومجابهته لـدنيا الحقـائق مباشرة بـاحثاً عن الجوهر ، غير آبـه بالظـواهر المتغيّرة والمظـاهر الخارجية ، والتزامه جانب البساطة وهي عماد الحياة ومحورها .

وقال ان التحدّث عن الفقيـد الشبيبي ليس يسيراً ، إذ شمل جهاده كل الميادين من علمية وأدبيـة واجتماعية وسياسيـة ، بنظمه ونثره ، على مـدار الساعـة ولنصف قرن من الزمن . وقـال إن الحياة التي عـاشها والآفاق البعيـدة التي امتّد إليهـا بصره ونفذت إلى أعماق بصيرته تكـاد تكون وثيقـة تاريخيـة وسفراً ضخماً حـافلاً بمآثـره ومحامده لعهـدين متعاقبين : العهـد العثماني في إبّان احتضاره والعهـد العراقي الذي تـلاه . وقال إن سيرة الشيخ منبثقة من إيمانه العميق بكرامة الإنسان وحريته ومن مفهومه للسياسة بأنها ترمي إلى الإصلاح الجذري في الإنسان ذاته لتضمن له أخوّته مع الغير وأمنه وسعادته .

ورثى الشبيبي الشاعر المصري عزيز أباظة (باشا) بقصيدة طويلة قال في مطلعها :

قـم فأدِّ العـــزاء لـــلإسـلام	في زعيـم وشـــاعـــروإمـــام
الشبيبـي ، أيـن ثـــــاني الشبيبـي	إذاطمّـت الخطـــوب الـــدّوامـي؟

علي الشـرقيّ

عليّ بن الشيخ جعفـر بن محمـد حسن بن أحمد بن مـوسى بن راشـد الشرقي أو الشروقي، وقد قال الدكتور محمد مهدي البصير في الشيخ جعفر (١٨٤٣ ـ ١٨٩٢) أنه كان من كبار فقهاء العراق وشعرائه في القرن التاسع عشر.

وقال: «وقد يسّر المترجم، وهو في قبره، أنّي أعـرّفه بابنه (أي الشيخ علي الشرقي)، ولكن ثقوا أنه كان أنبه شأناً وأعلى قدراً وأسير ذكراً من أن يعرّف». وتنتمي أسرة الشرقي إلى قبيلة بني خاقـان العربية، المقيمة على ضفاف الغرّاف في قضـاء الشطرة، وكان أول من استوطن النجف منها جدّها الشيخ موسى.

ولد علي الشرقي بالنجف سنة ١٨٩٠، وتوفي والده وهو طفل صغير، فنشأ في كنف خاله الشيخ عبد الحسين الجواهري. ودرس علوم العربية والدين على علماء الغريّ فبرّز فيها تبريـزاً، وقال الشعـر صغيراً وجوّده شـاباً. وكـان من الشباب الـواعي المتطلّع إلى النهضة الأدبية والفكرية في أواخر العقد الاول من المائة العشرين.

وصف الشرقي طفولته أروع وصف في كتابه «الأحـلام» فقال: «ويموت أبو الوليد، ويترعرع اليتيم يعوّضه حنان الأم عن حدب الأب.

وكـانت لأمّه جـارة من آل الفحّـام، ذلك البيت الجليل المنجّم بالعلماء والأدبـاء، تولّت تعليم الوليد. وكان لتلك المعلمـة الحبيبة أخوان هما السيد حسن والسيد محمود، وكـان الكثير من ناشئـة النجف يتأدبّون عليهما. وكـان مجلسهما للتعليم في عمارة الميتم الذي أنشأه الدرويش إبراهيم خان في أواخر القرن الثالث عشر للهجرة وجعل فيه قسماً داخلياً وبـذل عليه أمـوالاً طائلة، ومـوقعه في محلـة العمارة تحت الطاق المعـروف بطاق الدرويش. لقـد أودعت المعلمة الوليـد عند أخويها، ولما أتقن الكتـابة تقدم للـدراسة العلمية. وكان يلبس البـزّة العربية الشائعة كوفية وعقـالاً، ولكن احتراماً للعلم وضعوا على رأسه العمامـة. وكان من عادتـه أن يلف العمامة للشيخ الجديـد شيخ قديم محترم. وعندما كوّرت على رأس الشيخ الجديد، دفعها الشيخ القديم ورصّها كي لا تكون قلقة على هذا الرأس، ولكن بكلّ أسف بقيت قلقة حتى الآن».

ثم وصف «الجامعة النجفيّة» التي نشأ في أحضانها ودرس في حلقاتها وتأدّب بآدابها وتخلّق بأخلاقها فقال:

«فاتيكان الشيعة وأزهر العراق قبل أن يوجد الأزهر. ولا تمتاز هذه الجامعة بأسلوب فكريّ خـاصّ، إنما هو اسلوب الفكـر القديم طبعته الكوفـة بطابعها: طـابعه الآداب العربية والعلـوم الإسلامية، وكانت على الأخص مدرسة علويـة أسّسها منبر عليّ عليه السلام ومن تتلمذ عليه من أبنائه وأصحابه . . .»

ويقول بعـد ذلك: «أما طـريقة التـدريس في النجف فقديمـة تتردّد بين الطريقتين

اليونانيّين: طريقة التحليل وطريقة التفسير. . . ومراحل التدريس في النجف ثلاث: المرحلة الأولى في المقدّمات يدرس فيها النحو وعلم الصرف وعلم المنطق وعلم البيان والبديع. . . المرحلة الثانية: السطوح، وهي دراسة الفقة والأصول على سطح كتاب مفتوح ينشر بين يدي الاستاذ والتلميذ. . . وفي هذه المرحلة يدرس الحساب والجدل والفلسفة النظرية. . . ويدرسون أشكال إقليدس للهندسة، ويراجع الطلاب لدراسة اللغة القاموس المحيط للفيروز أبادي والصحاح للجوهري ومجمع البحرين للطريحي، ويراجعون لعلم الرجال كما يسمونه كتاب رجال أبي علي، ويراجعون للحديث كتاب الوسائل، وللتربية كتاب المفيد والمستفيد للشهيد العاملي».

ثم يتطرق إلى ذكر المرحلة الثالثة، وهي الدراسة الخارجية، أو كما يسمونها «الخارج» فيقول: «وهي محاضرات يلقيها الاستاذ على مجموعة من التلاميذ لا ينشر لها كتاب، بل هي أشبه بمذكرات على موضوع مركزّ وللتلميذ الحرية الكاملة في المراحل الثلاث أن يختار المدرس والمدرسة والكتاب المدروس. . .».

* * *

لم يكد الشرقي يبلغ مبلغ الشباب حتى مضى إلى كرمنشاه لجباية حقوق للشيخ كاظم الخراساني، ثم عاد مسرعاً إلى النجف بعد تفشي وباء الهيضة في ربوع إيران.

وأكبّ الشرقي الشاب على المطالعة والمناقشة والمباحثة واستشفاف معالم النهضة الأدبية في مصر وسورية ولبنان. واتفق مع نفر من أقرانه على جمع الكتب والدواوين الشعرية وتبويبها وشرحها، فتولوا طبع ديوان إبراهيم الطباطبائي وغيره.

ونشبت الحرب العظمى في أواخر سنة ١٩١٤، فلجأ إلى الشطرة، وكان ذلك مبدأ اتصاله بالغرّاف والمنتفق، مسقط رأس آبائه من قبل، وتعرّفه بزعمائها من آل السعدون وسواهم. ثم لحق بالمجاهد السيد محمد سعيد الحبوبي في الناصرية، وكان له يد في محاربة الانكليز. ونشر الاحتلال البريطاني ظله على بغداد وجنوبيّ الفراتين، فجاء إلى النجف وقدم منها إلى بغداد، ثم عاد إلى المنتفق مساهماً في الحركة الثورية.

رحل إلى الحجار سنة ١٩٢١ عن طريق البصرة والبحر الأحمر وقابل الملك حسيناً في جدّة ومكة وألقى بين يديه قصيدة مطلعها:

أعلاك ربّي، ما أعزّ وأشرفا، علماً على الملك الأغرّ مرفرفا

وقفل عائداً بعد نحو من سبعة أشهر. وقد عين عضواً بمجلس التمييز الشرعي الجعفري في بغداد(٧ تموز ١٩٢٨) ونقل قاضياً في البصرة (آب ١٩٣٣) وأعيد عضواً بمجلس التمييز الشرعي بعد أمد وجيز (شباط ١٩٣٤)، ولم يلبث أن أصبح رئيساً له (٢٥ كانون الاول ١٩٣٤). وقضى في هذا المنصب نحواً من ١٣ عاماً، حتى عين عضواً بمجلس الأعيان في تموز ١٩٤٧. واختير نائباً أول لرئيس مجلس الاعيان (٥ آذار ١٩٤٩) وجدّد انتخابه في أول كانون الاول ١٩٤٩ حتى عين وزيراً بلا وزارة (١٠ كانون

الاول ١٩٤٩ ـ ٥ شباط ١٩٥٠).

وأعيد تعيينـه وزيراً بـلا وزارة في ٧ أيار ١٩٥٣ إلى ١٧ أيلـول ١٩٥٣، ثم في ٣ آب ١٩٥٤ . واحتفظ بمنصبه في الوزارات المتعاقبة المؤلفة في ١٧ كانون الاول ١٩٥٥ و ٢٠ حزيران ١٩٥٧و١٥ كانون الاول ١٩٥٧ إلى ٣ آذار ١٩٥٨، ثم من ١٩ ايار ١٩٥٨ إلى ١٤ تموز ١٩٥٨ . وقـد استمّـر عضـواً بمجلس الأعيـان إلى ٦ تموز ١٩٥٥، وجـدّد تسميته عينـاً في شهر تشرين الثـاني من نفس السنة إلى ثـورة تموز ١٩٥٨ . واعتقل عند قيام الثورة، ثم أفرج عنه بعد مدة قصيرة.

وضع مؤلفات منها: عواطف وعواصف (ويحوي جانباً من شعره، طبع ١٩٥٣)، ذكـرى السعـدون (١٩٢٩) الأحـلام (١٩٦٣) العـرب والعـراق (١٩٦٣). وقـد نشر مقالات متسلسلة في المجلات والجرائد، منها: الغـراف والبطائح (في مجلة لغة العرب) والألواح التـاريخية (في مجلة الاعتـدال النجفية) والأحلام والأنديـة العراقية (في جـريدة العراق) ونكت القلم الخ . .

توفي ببغداد في ١١ آب ١٩٦٤ ووري التراب في مقبرة أسرته بالنجف.

علي الشرقي الشاعر:

كان علي الشرقي رجل قضـاء ورجل سياسـة، لكنه لم يكن طوال حيـاته الا شـاعراً بالفطرة. تطبّع بالمظاهر الدينية والدنيوية، فتغلّب عليه الشعر في أحرج مواقفه وأشدها قسوة وغلظة وانقاد لزمام العاطفة في مقام الجدّ والصرامة.

ولقد نشر طـائفة من شعـره في ديوانـه الموسوم بـ «عواطف وعواصـف» فأهدى إلي نسخة وشّحها بالكلمة الآتية:

«إذا جـاز أن تحمل الفاكهـة إلى بستـانها فإني أحمل اليكم هـذا الأثر، مع إخـلاص الشاعر».

وكتبت إليه برسالة جاء فيها:

«أمـا الشعر فسحـر وعطر. وهـو شعـر نابض بـالحيـاة، صادق اللهجـة، واضح السّمات، ينطق بلسان البلد والجيل، ويحمل طابع العصر ورسالته. وقد مرّ زمان كان في مقياسه أعذب الشعـر أكذبه، أما اليوم فخير الشعر مـا عبّر عن آلام الشعب وآماله ومشاعر الأمّة في طموحها وتحفزها.

وخير الشعر مـا أفصح عن حبّ المغرم وبهجـة الخليّ وحسرة الشجيّ وأمل الشباب وذكريات الشيخوخة وجميع ما يهز أوتار القلب البشري من نوازع ولواعج.

«ولقد وفّقتم لترديـد نواح البلبل السجين وصداح البلبل الطليق، ولوعـة الفلاح في كـوخه، وتـرجمتم عن نـزعـات الشعب المتطلّع إلى الحيـاة والحرية، ودعـوتم إلى الألفـة والإخاء، وأشدتم بالنهضة والإصلاح، فجاء ديوانكم سجلاً حافلاً للحياة العراقية في النصف الأول من المائة العشرين . . .».

أجل، إن في شعر الشرقي كلّ ذلك وأكثر من كل ذلك. وشعر الشرقي قبل كل شيء شعر الشعب، فهو يفصح عن أماني الفقراء والكادحين ويعبّر عن مشاعرهم ونزعاتهم، وهو يأنس إلى الأرياف وفلّاحيها ويحنّ إلى مرابعها وأكواخها، ولا سيّما إلى نواحي الغرّاف التي قضى فيها شطراً من صدر شبابه، وقال في ذكرها:

زهو القصور ونزهة الأرياف	غرف مطّلات على الغرّاف
تلقى الحضارة والبداوة عندها	بإزاء فرع أو بجنب طراف
أنفت على الأحقاف، فهي مدلّة	لكنها ببساطة الأحقاف
الفارهات بساطةً وجلالةً	هذي القصور وغيرهنّ أثافي
نهضت على حمراء دجلة زانها	صافي الأديم على الأديم الصافي
بمحلّة الأغصان تحسب أنها	من حسنها بمحلّة الأعطاف
ملء المجالس عفّة وطهارة	ومحبّة وتكرّم وتصافي
معمورة الأطراف، كم من ليلة	بجوارها معمورة الأطراف
النهر مضفور السّلاسل فلّه	جري النسيم وكفّ منه الضّافي....
قمر السّما، لك فوق دجلة منظر	متنّوع الأطياف والألطاف
وكأنّ دجلة شعلة وهّاجة	سالت أشعّتها على الأجراف

ولا يأنف الشرقي أن يضمّن شعره كلمات أبناء الشعب وأمثالهم وحكاياتهم. ولعلّ هذا الشعر لا يتّسم بجزالة اللفظ ومتانة التركيب لكنه يفيض بالأصالة والإخلاص وصدق اللهجة وطيبة النفس وحبّ البشرية والناس، تقطر منه أنداء اللطف والعطف والحنان كالعبرات الباردة التي تسكبها المآقي الحزينة.

لقد تمنىّ لو تمطر السماء مروءة وحناناً، وروّعته دمعة المظلوم، فقال:

مدّ زعيم لطبيب يداً	كانت على رغمي ملثومة
قال له: ليس بها من أذى	فصاح: لا... كفيَّ محمومة
ومرّ من حولها شاعر	ردّدت الدنيا ترانيمه
فقال: ظنّي بمكان الأذى	قد سقطت دمعة مظلومة!

وعلي الشرقي شاعر الأسى والألم: فقد أباه طفلاً، وذاق مرارة اليتم والحاجة حتى إذا ما ابتسم له بعد لأي الزمان ومنحه السعادة والأمن وأتاح له الحبّ والزواج، فاجأه بموت عروسه في ليلة الزّفاف. فإذا بالشموع التي أعدّت لموكب العرس قد أسرجت في موكب الموت. وإذا بالشاعر قد أخرسه هول المصاب حيناً ثم أنطقه شعراً مؤسياً حزيناً:

شمعــة العــرس، مــا أجـدتِ التأسّي ... أنـت مشبـــوبـــة ويُطفـأ عـــرسي

أنت مثلي مشعـــولـــة القلـب، لكن ... من سنـــاك المشـــؤوم ظلمـــة نفسي

يـــا رعـى الله للـــزفـــاف شمـــوعـــاً ... يتهـــافتن حـــول نعش ورمس

عـــاكست حظّهـــا الليـــالي فـــذابت ... خجـــلاً تـــرسل الـــدمـــوع بهمس

هكـــذا ذاب بـــاحتراقٍ فـــؤادي، ... هكـــذا ســـورة الـــدمـــوع بـــرأسي

جلـــوة أم منـــاحـــة لنجـــوم ... يتنـــاثـــرن بين سعـــد ونحس

كـان حـــدسي تـذكـو الأمـاني شمـوعـاً ... واللّيـــالي خيبّن ظنّـي وحـــدسي

انّ العروس الشابّـة التي قضت نحبهاليلة الزفـاف لتذكرنا بقصيدة الشـاعر الفرنسي أندره شنييه (١٧٦٢ ـ ١٧٩٤)، تلك القصيدة التي قـالها في رثاء «ميرتو» التّارنتيّة الفتاة الحسناء التي ركبت السفينة لتلحق بخطيبها حيث تنتظـرها السعادة والأغاني والزواج. وقفت وحيدة تحدّق في الأمواج المتلاطمـة، فهبّت ريح هوجاء نفخت الشراع وأطاحت بالفتاة في حضن المياه المزبدة. لقد تلقّت الأعماق جسدها الجميل، فخرجت إليها ربّة البحـر دامعـة العين من كهفهـا السحيق، وحفظـت جسمهـا من أنيـاب الـوحـوش الضـاريـة، وأمـرت قيان الماء فـأخذنها إلى السـاحل واستـدعين غيـد المروج والمنـابع والجبال، فأقمن لها منـاحة لم تشهد الأرض مثلهـا. وقلن لها نادبـات: «أسفاً عليك، أيتهـا العروس، لم تبلغي دار الحبيـب ولم ترتـدي ثيـاب العرس، وحلى الـذهـب لم تحط بساعدك البضّ، ولم يزيّن إكليل الزفاف شعرك المنسدل على كتفيك».

ولا عجب أن يطغى الألم على نفس الشـــاعر الشرقـي فيخـاطب البلبل الأسير قائلاً:

أيّها البلبـــل المعلّـــق في السجّـــن ... ســـــلام، وهكـــــــذا لي روح

إن تكن ذكـــريـــاتـك الـــورد والأطيـــار ... تشـــدو فـــذكـــريـــاتي جـــروح

كـلَّ يـــوم يلـــوح فجـــر لعينيـك ... فهـــلاّ يـــومـــاً لعيني يلـــوح؟..

إنّ هذا البلبل السجين الذي خاطبه في رباعيّاته لم يكن سوى طيف الشاعر نفسه.

لقد كان هذا الشاعر أسير الحياة الاجتماعية يبغي الانعتاق والانطلاق، فهل بدع أن يلتقي وبلبله الحبيب في قفص السجن، كما يقول:

التقى الشـــاعـــران في قفـص السّجن ... فلـم يعبـــــــــاً بحبس وضيـق

يـــرســـلان الألحان للمـــلأ الخابط ... تيهـــاً في عـــالم مصعـــوق

فكـــــــأنّ الأسير غير أسير ... وكـــأن الطليـــق غير طليـــق

لقد مزج الشرقي في رباعياته التصريح بالرمز وقرن السياسة بالاجتماع والمادة بالمعنى فلا بدّ للقارىء من إمعان الفكر في خفايا السطور ليستشفّ معاني بعيدة في أغوار الكلمات الظاهرة. وان شاعرنا ليكثر من الصور والاستعارات والتشابيه والكنايات، أليس هو القائل:

أنا أصدح باللفظ   لمن في صدره المعنى

والقائل: ثوب الصداقة يبلى سريعاً، وبيت الحكم الذي أسّسوه له ألف باب، واليوم المضرّج بحر هائج والغد المؤمّل في ساحل الأمان، والمرآة لا تفيد في كفّ الأعمى، وماذا يلقط الطائر من دكّان الحدّاد؟، وأية خميرة ترجى من الفطير؟ . . .

وهو يقول:

هذي الصدور مواقد   خمدت فبثّت بالدخان

ويقول:

إنّا، ولا غَزْلَ لنا،   نحسن فتل المغزل

ويقول:

من وراء المرآة صوت يناغي   ببّغاءً توحي عن المرآة

ويقول:

جسدي قارب وقلبي شراع   وحياتي حبل وعقلي نوتي

ويقول:

بعض القلوب طيور   لم تستطع أن تطيرا

ويقول:

بلدي رؤوس كلّه: أرأيت مزرعة البصل؟

ويقول:

شمعتي بالرغم من مقراضها،   كلّ آن ولها رأس جديد. . .

شمعة طاف بها الجمّ الغفير   تتلالا بابتهاج وارتياح

تتهادى من ضرير لضرير   قضوا العمر عثاراً ونطاح. . .

***

أقام الشرقي شطراً من حياته في الريف ورأى نصب الفلاح وعناءه ورثى لبؤسه وشقائه فقال:

أتراني بين القرى والضواحي   طفت ظهراً وفي يدي مصباحي

إن تفتّش عن ارتياح بلادٍ   فتفقد شؤونها في الضواحي

مـــا لهذا الفـّــلاح في الأرض روح، أهـــو مـن معشر بـــــلا أرواح؟
هـــو في جنّـــة ينـــال عـــذابـــاً وهـــو تحت الأشجـــار أجـــرد ضـــاحِ
وقـــرى النمل، لهف نفسي، أثـــرى من قـــراه إلاّ مـن الأتـــــراح . . .
ربّ قصر من فـوق دجلـة كـالطّـا(م) ووس للـــزهـــو نـــاشر بجنـــاح
لـــو كشفنـــا أطبـــاقـــه عن أســـاس لـــوجـــدنـــاه منجل الفـــلاح!

ولقد ضاق الشاعر بأمر نفسه فقال:

لهفي لخمسين مـن سنّي قـــد انـــدرست في الكُتُب بحثـــاً كـأني دودة الكتـب

وضاق ذرعاً بالعقل والفكر واليقين فقال:

ليتني كنـت في الـــريـــاض شقيقـــاً لـــــوورود بـــــدون عقـل ولـبّ

وقال:

انني قـــد غـــدوت أنعم في الشكّ لأنّي منغّـص بـــــــــاليقين

وقال:

وبلـــــوى البشر المكّـــــار أن يمعـن في الفكـــــــــــر

وضاق ذرعاً بالتاريخ ورجاله فقال:

في رمـــال التـــاريخ آثـــار أقـــدام رفـــــاق تخطّت التـــــاريخا
نفخت في الجراب دهـــــراً وولّـت فـــورثنـــا جـــرابها المنفـــوخـــا
وإذا بي مـــا بين أجـــربـــة تمشي على الأرض ســـادةً وشيـــوخـــا

ولقد حسد الطائر السّجين فقال:

ولا يضيرنـك أن غـــــدوت أسيراً، كـم طليق يكـــابـــد التنكيـــدا
قفـص من جـــريـــدة النخـل خير من ريـــاض عن طيرهـــا لن تـــذودا

ونفس عليه أنغامه الفطرية فقال:

بلّـــدتنـــا صنـــاعـــة اللحن في القـــول فغـّـــرد لنـــا بلحـن السّليقـــه

وقال أيضاً:

إن تكن قـــد سجنـت، يـــا طير، جسماً فأنـــا قـــد سجنـت روحـــاً وجسما

وقال:

إن يكـن قلبـك المولّـع بلـــــواك فـإنّي بلـــــواي قلـب وراس

وقال:

وهـــــــذا قلبـي المغلـق من يفتـح أبـــــوابـــــه؟

وقال من فرط الوجد والألم:

عسى أن تـرقص الـدنيـا، ولـو رقصـة مـذبـوح!

وأساء الظن في المجتمع فقال:

لست أخشى عليك من سـارق قط ولكن خـوفي من الحرّاس

والشرقي بعد ذلك عدو التعصّب والرياء، فهو يقول:

ذممت التعصّـب مـن قبـل ذا وهـا أنـا في ذمّـه لا هج
دعـونـا نـوسّع آفـاقنـا ليقبلنـا المزج والمازج
أقـول، وقـد سألتني الـرفـاق: أأنت على وضعنـا خـارج؟
أبى الثمـر الفجّ عن جـذعـه فصـالاً وينفصل النـاضج

ويقول:

سبعـون معصيـة قـد أتيتهـا في الخفـاء
كـانت أبـرّ وأزكى من طـاعـة في ريـاء

ولقد هام علي الشرقي بوطنه وبلاده ورثى لحالها وطلب رقيّها ورفعتها ومجدها، وردّد في شعره ذكر أقطار العروبة من مصر والشام والحجاز ونجد إلى طر ابلس وفلسطين.

وأقضّ مضجعه خمول العراق، فقال:

نطقت بحـاجتهـا الشعـوب وأفصحت وأرى عـراقـي واجماً لا ينطق
وكأنّ هـذا الشرق سفـر غـرائب شرحـوا عليـه الـدارجـون وعلّقـوا
ختمت صحـائفـه وجئنـا بعـدهـا حتّى كأنّـا فيـه فصل ملحق

وفي موشّحه «صفير العسس» عرض لأحداث الدهر في بلاد الرافدين من سقوط عبد الحميد ودك عرشه وغليان الثورة القومية إلى تشتت الآراء وتخاذل الرجال. ولقد طالما راودته الأحلام، فرأى الفراتين وقد ازدهرت على ضفافهما نينوى وبابل وأور، ومرت مواكب آل ساسان وأكاسرة المدائن، ورأى شبح الموبذان خاشعاً بين يدي سابور.

ثم ازدحمت الجموع في يوم ذي قار والقادسية، وارتفعت رايات الرشيد والمأمون، وهجمت المغول، وجاءت دولة آل عثمان، وإذا العين تحلم بدولة عربية، وإذا العراق قد بنى بيتاً له ألف باب، واحتفل بدولة الألقاب، فنعم الغدوّ ونعم المآب.

تألم الشاعر لحال بلاده فقال:

لم يبقَ وجـه بشـوش في الكـوخ أوفي الخصـاص

وقال:

في جـــانِبَيْ قطـــري زيت يفـــور فـأين أيـن الأمّـــة الشـــاعلـــة؟

وقال :

ليس تجديك سكتـــــة الأفـــواه حين نمسي بثــــورة في الصـــدور

والشرقي شاعر يجيد الوصف ولا سيّما وصف الحالات النفسية والنوازع الخفية، فهو يقول :

شـــاعـــر خـــاشع يحسّ بها في النفس مـن وحشـــة وفـــرط التيـــاع

رجّـف الصـــوت بـــالحنين وأصغـى لـــــــرفيـف الأرواح في الأسماع

ذلك علي الشرقي الرجل والشاعر!

إيه، يا أبا إحسان، أيها الإنسان الفاضـل. إنّي لأذكر ساعات وأياماً وسنين مضيئة قضيتها متمتعـاً بأدبك الرفيع ولطفك الجّم ومـودتّك الجميلة المتواضعـة. لقد كنت في عهـدك الأخير تشعر بـدنّو الأجل، سـافـرت للاستشفـاء في لندن، ثـم عـدت وكأنّك متجّرد عن الحيا ة الدنيا. فأسرعت بطبع كتابين لـك وهيّأت كتاباً ثالثاً لم يمهلك الزمن لنشره. وكنت تقول: ليـس لي شيء من المتاع، فداري وسيّـارتي وكلّ ما ملكت يميني إنما هي لإحسان وللعـائلة . . . ولا أنسى أنني زرتك قبل مرضك القـاتل الأخير، وكان لديك جمع من الـزوار، فلما استأذنت بالخروج ومضيت في توديعي متفضّـلاً إلى الباب، قلتُ: أريد أن أستشيرك في أمور، يا أبا احسان، فـاسمح لي أن أزورك في فرصة قريبة. وقلت لي: بل عـد الآن، وأنا كفيل بصرف الـزوّار، فنختلي ونتكلم. ولكنني قلت: لا داعي للعجلة، وانصرفت ولم أعلم أن القدر يقف بالمرصـاد، وأنّ زيارتي التالية ستكون للسؤال عن صحتّك وأنت راقـد في الفراش تعاني أوصاب الداء الفتّـاك. ثـمّ دقّ جرس التلفون بعد أيام قليلة، وكان نعيك الذي صكّ السّمع وأضنى النفس وأدمع العين.

***

كـان الشيخ علي الشرقي متـواضعاً، أنيس المحضر، لا يـأنف، وقد أصبح شـاعـراً عربيـاً ووزيراً عـراقياً مـرموقاً، أن يتحـدث عّما لقيه في صبـاه وصدر شبابـه من ضيق وشظف عيش، حتى شقّ طريقه في الحياة وبلغ منزلته الرفيعة.

وقد حدثني يوماً أنه كان، وهو شابٌ، يعاني عسراً شديداً حتى ضاقت به السبل ولم يعرف باباً للأمل. وفي تلك اللحظات العسيرة طرق بابه وجاء أحد أبناء شيوخ العشائر يسأل عن الشيخ علي الشرقي.

ولما عرّفـه بنفسه قال القـادم: ان الفرس عربيـة أصيلة ولكنها لا تسـاوي أكثر من ستين ليرة ذهبـاً، فإذا شئـت دفعت لك ثـلاثين ليرة عن نصـف ثمنهـا، أو رغبت في أخذها فادفع لنا ثلاثين ليرة وخذها، بارك الله لك فيها!

ولم يدر علي الشرقي قصة الفرس ولم يسأل عن أمرها، ولا ساوم في ثمنها، بل قال :

هات ثلاثين ليرة واحتفظ بالفرس .

وقبض المبلغ وحمد الله الذي فرّج كربته من حيث لا يعلم .

ومضى اسبوع أو اسبوعان ، وجاء صديق علي الشرقي إلى النجف وقال له : هل قبضت نصف ثمن الفرس؟

قال : قبضت ثلاثين ليرة ، وحقك محفوظ فيها . ولكن حدثني ما القصة ، وما شأنك في الأمر؟

قال : انني نازل في مضارب الشيخ . . . رئيس عشيرة . . وقد أدركته الوفاة ، فاستدعاني وقال لي : أعلم ان هذه الساعة آخر عهدي بالحياة ، ولي فرس أصيلة أريد أن أصرف نصف ثمنها في وجوه البرّ ، فأي جهة من جهات الخير أجدر بها؟ فقلت : أوصِ بنصف ثمنها إلى مقام علي الشرقي (وهو مزار يقابل قرية علي الغربي على الجانب الآخر من نهر دجلة) . وأوصى الشيخ ، ثم قضى نحبه .

وأتم الصديق حديثه قائلاً : وجاءني أولاد الشيخ الراحل يسألون انفاذ وصيّة والدهم ، فقالوا انهم قدّروا ثمن الفرس بستين ليرة ذهب ، وسألوا عن مقام علي الشرقي ، فقلت : اسألوا عنه في النجف الأشرف . وأرسلوا أحدهم إلى النجف ، فكان ما رأيت وسمعت!

قال علي الشرقي : بل كان ذلك الفرج الذي أرسله الله .

ولقد تحدّث علي الشرقي في «الأحلام» عن فقر النجف المذقع وأحلامها العريضة ، تلك البلدة التي كما قال :

فيهـا مفـاتيح لأبـواب	الـرجـا وبها مغـالـق
ولها مجاز ينتهـي	بـالسّـالكين إلى حقـائق
مـلأى بكـل طـريفـة	مـن كـلّ معجـزة وخـارق

حار ورفاقه من الشباب في التماس الرزق ، فألفوا «شركة مقاومة الفقر» وشرعوا بطبع الكتب والدواوين الشعرية . ثم ضربوا في القرى والدساكر ومنازل الريفيين والعشائر ، وباتوا في الخيام والعراء وحجر الطين التي تجري فيها الفئران وتصب السقوف ميزاب أمطارها ، وجابوا ساحات الحرب ودهاليزها الخلفية وميادين الثورة والجهاد . . . وقد كتب الشرقي صفحات صادقة من تجارب الشباب وتجوّلاته وتطلّعاته ، صفحات تمتاز بنثرها القلق القافز المتعثّر وتكاد تشبه أحاديث جان جاك روسّو في اعترافاته . وقد قال :

فصح الشعـور بـه ، ولم أكُ شـاكيـاً	إلاّ لكـوني شـاعـراً وفصيحـا
في النفس أشيـاء ، فهل مـن مـوضع	حـرّ الفضـاء لأشتكي وأبـوحـا؟

امتحن علي الشرقي الحياة وعرك الدهر فخرج بحكمة عملية لخّصها بقوله :

«وانّي أكاد أن أكون مخضرماً: لقد توسطت جيلين وشهدت عهدين لا يلتقي أحدهما مع الآخر، ولكني التقيت مع هـذا وذاك وأدركت وداع أحدهما واستقبلت الآخـر. لقد تتلمـذت على منبر ذاك وتـوسطت حلقـة هـذا ، وأغـرب مـا أدهشني وحـدة الجوهـر واختـلاف الأسلوب. الضجـة التي سمعها المعّـري في الـلاذقّية ، وان الاصـوات التي كانت مرتفعة في أروقـة البصرة والكوفة وبغداد ودمشق والقاهرة وغرنـاطة واشبيلية ، وما كـان يتصاعـد من أبواق دراويش المتصـوّفة ومن قعقعـة السيوف الخشبيـة التي يتكىء عليها خطباء الجمعـة ، كلها تطلب البلسم للجرح وتريد العلاج لهذه الـدنيا المريضة ، ولكن كلّ ما جاءت به مسكّن لا العلاج الشافي. وكـذلك دعاوة اليوم وما تقوم به هذه الأكـوام من المؤلفـات والمحـاضرات والمجلات والجرائد ومكـاتب السيـاسيين ومنـابـر البرلمانات وصفـوف الجامعات وأنباء المراسلين ، وكلّ مـا سجّلته الأقلام ورتبتـه حروف المطـابع ، تلك الأقلام وتلك المطـابع التي تكتب وتطبع بحبر رماد الحقّ . فقـد قيل إنّ الباطل أحرق الحقّ ، وجاء البشر أو شياطين البشر فلم يجدوا إلاّ رماد الحقّ ، وسرعان ما جعلوه مادة حبر لما يكتبون وما يطبعون . والدنيـا في يومها وأمسها برغم الانقلاب الأول والثـاني أساليب تتبـدل وظواهـر تتطّور، ولكـن كلّ ما جـاءت به عـلاج مسكّن وليس بالشافي.

«إنك إذا تقصّيت وفحصت بعمق لم تجد في الرؤوس شيئاً. وهـذا الإنسان في قديمه وحديثه لم تنفعه تفّاحة آدم ولا صمّـونة مولوتوف(*) ، بل هذي وتلك طـردته من الجنّة وأبعدته عن النعيم. . . »

الشيخ علي الشرقي :

كان عاطفياً سريع الإنفعـال في حياته الشخصية والأدبية ، وقد أثـر فيه يتمه ونشأته الصعبة في البيئـة النجفية الجامدة تأثيراً عميقاً. ولـذلك نرى شعره يختلف اختلافـاً بيّناً عن شعر معاصريه بكثرة مجازاته وإيماءاته وصوره الغريبة وحدبه على الفقراء والفلاحين والكادحين.

لم يكد يبلغ مبلغ الشباب حتى ثـار على بيئته الجامدة ووجد نفسـه سجيناً يصبو إلى الحرية والانطـلاق ويرنو إلى آفـاق بعيدة خارج مجتمعـه . وهو يحمل على رجـال الدين المتـزمتين ويداعب الأفكـار الحرّة الجديـدة التي انبعثت من النهضـة الفكريـة في مصر ولبنان على قدر ما تسمح به ثقافته الدينية الأصيلـة وعدم معرفته باللغات الغربية . وقد جاء نثـره وشعره متماوجين بين القديم والحديـث لا يستقر لهما قرار شأن نفسيتـه القلقة المضطربة.

(*) صمونة مولوتوف (او قنينة مولوتوف، على الأصحّ) اسم أطلق خلال الحرب العالمية الثانية على قنابل بدائية استعملها الروس في الدفاع عن بلادهم، ومولوتوف وزير الخارجية السوفيتية عهدئذ.

ولعل هناك بوناً شاسعاً بين الشرقي الشاعر والشرقي القاضي الشرعي العالم الناجح والشرقي الوزير الـذي مالأ الوضع الذي ينتقده وسايره لينعـم بمنصبه. لكنه كان دائماً مخلصاً وفيـاً لأصحابه معتدل السيرة غير منـدفع في خصومته ونقده. عـرف في القضاء فقيهاً ملماً بـالأحكام الشرعيـة متمسكاً بالتسـامح والتزام مفاهيم العـدالة في تطبيقـاته وتخريجاته. أما في الـوزارة فكان شفافاً كـالماء الذي يتلوّن بلون الإنـاء، فلما جاءت ثورة ١٤ تموز ١٩٥٨ وقضت على العهـد الملكي الـذي زامله في حيـاتـه السياسيـة مضى في «أحلامـه» يحمل على سياسة الامير عبـد الاله ونوري السعيـد. ومن الحق أن يقال إن شعره قبل الثـورة كان زاخراً بـالشكوى والتبّرم من الاوضـاع السائدة، فكان ثمـة ستار فـاصل بين حيـاتـه العمليـة والفكـريـة لم يحاول رفعـه. لم يكن الشيخ علي الشرقي من الرجـال المكافحين في سبيل المبادىء والآراء، الـراضين بالتضحيـة وتحمّل المشاق، بل كان بطبعه سهلاً ينقاد للواقع ويماشي ويجامل إلى أبعد الحدود.

وقد قال في احدى رباعياته:

يـا رامـي الشجـر العـالي بأكـرتـه،	هـلاّ تعلّمت أخـلاقـاً من الشّجـر
تـرميـه بـالحجـر القـاسي بـلا خجل	وإنـه دائماً يـرميك بـالثمـر

لقد هادن المغالين المندفعين والمعتدلين المسايرين وقنع برفاهة العيش وهناءة الأسرة والقبيل واكتفى بالنقد البريء والقول الهادىء، فقال:

هـذي الـرؤوس ولكـن كلهـا وجع،	وذي العيـون ولكن كلهـا رمـد
وكم صـدور بهذا القطـر فـارغـة	جـوفـاء ليس بها قلب ولا كبـد
صـدور أنـديـة في جهلهـا انتفخت	حتى تشـابـه فيهـا الهرّ والأسـد

وصحّ فيه قوله:

يـا بـلاداً تجهّمت بظـلام	ألمصـابيح فيك مـلأى بـزيت
إنني هـامس بأذنيك قـد كنت	ولكـن لا أريـد أرفع صـوتي

وكان المسالم الذي قال:

مـا لـدار السـلام أضحت بـرغمي	تشتهـي أن تكـون دار الخصـام؟
تنطـح الصخـر في قـرون الطين	وتغـزو الأمجاد بـالأقـزام

***

اطلع احـد شعـراء النجف المتـزمتين على منظـومـة إيليـا أبي مـاضي «لست أدري» فعارضها بمنظومة مثلها حسب أنها نقضت كل شكوك الشاعر المهجري وجعل عنوانها «أنا أدري». فانبرى له علي الشرقي بمعارضة جديدة مختصرة ختمها بقوله:

أنت مجنـون ولكـن لست تـدري،	أنـا أدري.

علي الشـــرقي :

حـدثني علي الشرقي أنـه جـاء من النجف إلى بغـداد بعـد أمـد قصير من احتـلال الانكليز لها سنـة ١٩١٧ ونزل في بعض خانات الكـاظمية . وتحلّق روّاد الخان عصراً في الساحة وأخـذوا يتحدّثون عن الأتراك ومـا جنوه على العراق فسلقوهم بـألسنة حداد، وقال بعضهم إن الأتـراك كانوا كفّاراً والإسلام بـريء منهم . . . فاعترض علي الشرقي، وكان جالساً معهم تمضيةً للوقـت، وقال إن الأتراك مسلمون ولا ريب، وليسوا كفّاراً، والأولى انتقادهم بأنهم علّـة تأخر البلاد التي حكمـوها نحواً من أربعة قـرون في دياجير الجهل والفقر . . .

وفي صباح الغد مضى الشرقي إلى بغداد ودخل السوق وجلس في دكّان السيد محمد رحمة الله، وكان جعفـر الشبيبي عـاملاً لديـه . وفيما هم يتحدثـون إذ جاء بعـض أفراد الشرطـة وتفحّص وجـه علي الشرقـي وقـال لـه : أنت علي الشرقي القـادم أمس من النجف؟

قال : نعم

فأشار إليـه الشرطي أن يرافقه إلى «خـان دلّة» وهو آنـذاك مقّر الشرطة الانكليـزية . ومضى بصحبته فأدخل على قوميسير (مفوض شرطة) انكليزي يتكلم العربية بطلاقة، وقال له : أنت علي الشرقي (ومضى يسرد حياته وأعماله) . ثم سأله : ماذا قلت أمس في خان الكاظمية وأنت جالس تتسامر مع الجماعة؟

فأخبره الشرقي بما دار الحديث حـولـه ومـا قالـه هـو نفسـه، فقال المفـوض : هـذا صحيح، وكلامك لا غضـاضة فيه . لكن العـوامّ لا تفهمه وتؤوّلـه شتى التأويلات في هذه الظروف التي تخيّم عليها سحابة الحرب، فالأولى أن تحذر الكلام وتلوذ بالصمت .

وأذن لـه بالـذهاب بعـد هـذا التحذيـر، فخرج وهـو يعجب لـدقّة الاستخبـارات البريطانية .

عبد الحسين الأزري

عبد الحسين الأزري من شعراء الطبقـة الثانية التي برزت بعـد رائدَيْ النهضة الأدبية الزهاوي والرصافي . لكنه بقي محافظاً إلى حدّ ما ولم يساير التجديد إلى آخر أشواطه شأن محمد رضا الشبيبي وأخيه محمد باقر وعلي الشرقي وأقرانهم .

نسبـه علي الشرقي إلى الأسرة الأزريّة المتفـرعة من محمـد بن مراد التميمي البغـدادي المتوفى سنة ١٧٤٩، وهو أول من لقّب بالأزري لتعـاطيه بيع الأُزر المنسوجة من القطن والصوف، وقـد نبغ من هذه الأسرة الشـاعران محمـد كاظم (١٧٣٠ ــ ١٧٩٦) ومحمد رضا المتوفّى سنة ١٨٢٤ .

لكنّ جعفر الخليلي يذكر مستنداً إلى أصحّ المصادر أن الحاج عبد الحسين بن يوسف ابن محمد المعروف بالأزري ابن محمود بن ابراهيم الحضيري التميمي لا صلة له بآل الأزري المتقدم ذكرهم سوى أنّ أحد جدوده من الحضيريين تزوج بابنة الشيخ محمد رضا أخي الشاعر الشيخ كاظم فطغت شهرة الأزرية على هذا لبيت.

ولد عبد الحسين الأزري في بغداد في شهر شباط ١٨٨١، ودرس في مدارسها الإبتدائية. ثم تتلمذ على الشيخ شكر الله قاضي الجعفرية فأخذ عنه العلوم العربية والدينية. وأكبّ على مطالعة الشعر والأدب، ونظم القريض وهو يافع. عمل في التجارة حيناً، وهي مهنة أسرته، وكان موظفاً في شركة ترام الكاظمية.

وافتتحت المدرسة الجعفرية في بغداد سنة ١٩٠٨ فألقى في حفل الافتتاح قصيدة قال فيها:

زيدي بنيك محاسناً وجمالا ودعي الحوادث تقنع العذّالا
وامشي بهم مشي الهلال معانياً حلك الدّجى حتى يتمّ كمالا

وأعلن الدستور العثماني في تلك السنة فكفل حرية الكلام والصحافة. وأصدر الأزري جريدة «الروضة» (٢٢ حزيران ١٩٠٩)، لكنها أغلقت قبل مرور سنة على صدورها فشفعها بجريدة «مصباح الشرق» (أول آب ١٩١٠). وصدرت هذه الصحيفة أشهراً ثم أصابتها يد التعطيل.

وأصدر بعد ذلك جريدته الثالثة «المصباح» (٧ آذار ١٩١١) فـ «المصباح الأغرّ» (١٤ تشرين الثاني ١٩١١) وظلّت تصدر ثلاث سنوات. وتولّى الأزري في الوقت نفسه ادارة مجلة «العلم» التي أصدرها هبة الدين الحسيني الشهرستاني.

ولما نشبت الحرب العظمى وخاضت الدولة التركية غمارها، نفي إلى قيصرية الأناضول مع لفيف من أحرار العراق ورجال الفكر والإصلاح، فمكث في منفاه نحواً من سنة وعشرة أشهر. وسمح له بالعودة إلى بغداد مع صحبه سنة ١٩١٦. وقال يذكر وادي أرجيوس من قمم جبال طوروس القريبة من قيصري:

وادي أَرَجْيُوس، حسبي ما أقاسيه، شيبّت رأسي كما شابت نواصيه
كفاك سجن غريب بين مجتمع يعدّه كأسير من أعاديه
ضيّعت، ويلك، شطراً من شبيبته قد ظنّه برغيد العيش يقضيه
يشكو إلى الليل من صبح يعيد له (م) البلوى وللصبح من ليل يداجيه

ويحنّ إلى بغداد فيقول:

إذا ذكرتك، يا بغداد، أرقّني ذكرى حبيب بروحي كنت أفديه
تركته ساعة التوديع في وَلَهٍ لم يدر كيف عن الأنظار يخفيه

وبين جنبيــــه نفس لا تطـــاوعـــه   على النــوى وفــؤاد لا يــواتيــه . . .

وهي من رقيق الشعر تذكّرنا بهائية ابن زريق البغـدادي(لا تعذليه فإنّ العذل يولعه) ونونية محمود سامي البارودي :

محا البين مـــا أبقت عيــون المهـــا منّي   فشبت ولم أقـضِ اللبّـــانـــة مـن سنّي

أصدر الأزري بعـد الحرب مجلة «الإ صلاح» (٢ آب ١٩٢٤) فلم ينشر منهـا سوى عددين .

وانتخب نائباً عن الديوانية في مجلس النواب (كانون الاول ١٩٣٤) فلم تدم نيابته الاّ أشهراً إذ حلّ المجلس في نيسان ١٩٣٥ . وقد قال في المجلس النيابي :

يــــــا رواق المجلس الحافــل   بــــالـــــوفـــــد الضيـــــوف ،
يـــــا جنـــــاح المطعـم الغـــــاض   بـــــــرواد الـــــــــرغيـف ،
أيها الحافـظ لـــــــــلآثـــــــار   ربّـــــــات الـــــرفــــــوف . . .
حـــــــرت في الأمـــــــــر ، فهـل   عنـــــــــدك مـن رأي حصيـف؟؟
كيـف مـــــــالـت كفّـــــــة   الميـــــزان بـــــالــــوزن الخفيـف؟

وعدّ المجلس صالة تمثيل هزلي تحرّكه الإشارات من وراء الستار ويعيش جوقه اللاهي على كدّ الألوف من المواطنين . وقـد قال الشاعر العراقي في القرن التـاسع عشر ـ ولعلّه عبد الباقي العمري ـ :

صـــور وأشبـــاح تـــروح وتغتـــدي   خلف الستـــارة والمحــــرّك بــــاقي

وكـان لـلأزري بعض الإلمام بـاللغـات التركية والفـارسيـة والفـرنسيـة . ومن أولاده الوزيـران المهندس عبد الأمير والاقتصـادي عبد الكريم . أدركـه الحمام في بغداد في ١٧ كانون الاول ١٩٥٤ .

مـؤلفـاتـه :

له شعر نشر في معظم المجلات والصحف العربية ، ثم جمع في ديوان طبع في بيروت سنة ١٩٧٩ بمقدّمة للشيخ علي الشرقي . ووضـع تاريخاً للعـراق قديماً وحديثاً وروايات منها : قصر التاج ، بـوران ، بطل الحلة ، وكلها لم تطبع ، ومجموعة مقـالات في السياسة والاجتماع والأخلاق .

شعره :

عبـد الحسين الأزري شـاعـر محافظ في معـانيـه ومبـانيـه ، جـزل الألفـاظ ، مشرق الديباجـة . ذكر علي الشرقي مزايا شعـره فقال : «هو إقليمي في فنّه ، انسـاني في نزعته ، قومي في أهدافـه . وبما أنه ترعرع في أحضـان الثورات والانتفاضات فقـد كان يكثر في شعره النقد الـلاذع وتصطبغ قصائده أحياناً باللون القـاتم . . . يحب من الشعر الخيال

الجميل ويبدع في الأسلوب القصصي».

وقال جعفر الخليلي إنّ الأزري، إلى جانب شاعريته الفياضة، محدّث بارع وظريف لبق. كان على جانب كبير من الوقوف على التاريخ العربي، وقلّما روى شيئاً دون أن يستشهد بأقوال شعراء الجاهلية والإسلام والوقائع التاريخية. وكان لغوياً واسع المعرفة، خفيف الروح، يعشق الجمال في كلّ شيء ولاسيما في المرأة. (اهـ)

امتاز شعر الأزري بالجزالة والرواء. وهو شاعر وجدانيّ قبل كلّ شيء. أليس هو القائل:

خطأً كان، فاذهبي بسلام	واغفري ما اقترفتُ من آثامي
وتناسي بحرمة العهد ما كنت	تقاسين في سبيل غرامي
من عتاب مرّ وآلام شكوى	فيهما قد تصرّمت أيامي
غرني طيفك الملمّ بجفني	حينما كنتُ غارقاً في منامي
وتخيّلت أنني فزت بالقرب	وأدركت منك بعض مرامي
لست أدري، وليتني كنت أدري،	أنا في سورة من الأحلام...

والقائل:

صدق الهوى، ما كلّ ودّ صادق،	فلكم تذرّع بالوداد مماذق
ومكابرٍ بالعشق لو كاشفته	لعرفت منه سرّ ما هو عاشق...
أحمامة الوادي، سبقتك بالغِنَا،	لولا فمي بالماء دونك شارق
ولربما سكت الحزين، وفي الحشا	نفس معذّبة وقلب خافق

وقال يخاطب شجر البان:

هل مسّك الوجد مثلي، أيها البانُ	فآذنت بذبولٍ منك أغصان؟

سأل الشاعر شجر البان: هل روت له الحمامة حديث الهوى مشوباً بالأشجان والأحزان، وهل اتخذت الظباء ملجأً في ظله الوارف الفينان، ثم أمست مغانيه قفرة موحشة كنفس الشاعر الولهان؟

وفي قصيدته «اليتيم» التي أنشدها سنة ١٩٢٥ في حفلة المعهد العلمي لرعاية الجمعية الخيرية للأيتام يقول:

هدأ الدجى لولا أنين عليل	وممدّد بسقامه مشغول
ونشيج والهى خشية من أنها	تبقى وصِبْيَتُها بغير كفيل

طال السّقام على الشقّي المريض، وبجانبه صبية صغار وحليلة تتكلّف الصبر الجميل، ومن الصبر ما يثقل ويرهق إرهاقاً. وقفت عند سريره تكفكف دمعها وتنظر

إلى أولادها وقد باتوا على الطوى. حتى إذا ما قضى ربّ الأسرة بقيت المرأة المفجوعة تعاني البؤس، حتى سئمت الذلّ ووردت حياض الموت تاركة أيتامها ظعائن في قفر راحت مشتّتة بغير دليل.

وقصيدة الأزري مؤثرة حزينة تبتدىء وتنتهي بالفاجعة على عادة شعراء زمانه وفي مقدمتهم الرصافي ناظم «أمّ اليتيم» و «اليتيم في العيد».

وفي شعر شاعرنا، أنّات وحسرات، فهو نفسه قد ابتلي بالمصائب فقال:

عشتُ دهراً فلم أجد غير ما بتُّ (م)   أقاسيه من نوائب دهري
غصص لو حسبتها لتلاشت   دون إحصائها دقائق عمري

فلا عجب أن أصبح سيّء الظن بالدهر وبالناس.

ألم يقل:

أضحكتنا، وربّ ضحك بكاء،   فترة من زماننا رعناء

وقال أيضاً:

نحن في كلّ غُدوة ورواح   هدف الموت والقضاء المتاح

وقال:

لم يبق في الناس موثوق بعفّته   إلاّ الذي عصمته رحمة الباري

وقال:

تمشي بنا القهقرى مَشْيَ الكسيح بها   دنيا تقدم أذناباً على الراس

وقال:

قد ذهب الصدق وظلّ اسمه،   يا ليته ولىّ مع الصّدق

وقال يرثي لحال الأديب:

جهلوه في قيد الحياة، وبعدها   لمّا مضى أسفوا على فقدانه
فكأنّهم فيضان دجلة حينما   يأتي إلى الوادي بغير أوانه

وقال يذكر صديقاً خانه:

ولي صاحب قد كنت أوثر حبّه   فلما أساء انسل من قلبي الحبُّ
لقد خانني فيما عليه ائتمنته   وربّ أذى مستقبح بعده العتب

وقال، ولعلها الغاية في الشكوى من العقوق والكنود:

حسبي عتاباً على من قد خلصتُ له   وقد جفاني أنّي لا أعاتبه
ممّن تحذّر من صُلبي نفضت يدي،   فكيف أرجو الوفا ممن أصاحبه؟

والأزري شاعر وطني تألّم لحال بلاده وسائر أقطار العرب والشرق وطلب لها الحرية

والعلم والنهوض. فها هو ذا يخاطب وطن الرشيد قائلاً:

وطني، لأجلك قد عدمت قراري ... وسئمت فيك حياة هذي الدار
أحيي الليالي والعيون هواجع ... وهواجسي في جنحها سمّاري

حتّى يقول:

ناديت أوطاني، وما أعني بها ... ناديت غير دوارس الآثار
الناثرات فضائلي ومفاخري ... والشاهدات بعزّتي ونجاري
والناظرات إليّ نظرة آمل ... إحياء مجد دارس وفخار
والباعثات بنفسي الشّمم الذي ... يأبى الحياة بذلّة وصَغَار...

ويقول في قصيدته «المجد مكتسب»:

دم ذاكراً فيك، يا شعبان، من وثبوا ... فسوف يحفل في تمجيدك العرب
واحفظ لهم عهد صدق عند نهضتهم ... بنوده الشرف الموروث والحسب
واسعد بقوم على ورد الرّدى عقدوا ... راياتهم أو ينالوا كلّ ما طلبوا...

ويقول في قصيدته «مظاهر ودّ كلّهن مصائد»:

ألا أيها الوادي الكئيب الذي له ... على بؤسه مجد طريف وتالد
لقد كنتُ أرجو أن تحلّ من الإبا ... محلاً به تلقى إليك المقالد
ظمئنا وللأغيار فيك موارد ... إذا علّ منهم صادر حلّ وارد

ويقول في قصيدة أخرى:

ليس يجدي من الضعيف الكلام، ... يسمع النّاس ما يقول الحسام
إنّما الحقّ سلوة العاجز الأعزل (م) ... فيها لو جارت الأحكام
يتسلّى به كما يتسلّى ... بحديث الصّبابة المستهام

ولا يفوته ـ على عادة شعراء عصره ـ أن يطلب العلم لأمته، فيقول:

نال فيك الغرب، يا علمُ، المراما ... فغدا لم يَرْعَ للشرق ذماما
أشرقت شمسك في الغرب ولم ... نرَ من آثارها إلاّ ظلاما...

حتى يقول:

يا بني الشرق، خذوا العلم ولا ... تجعلوا منه إلى الظلم دعاما
واتقوا عادية الدهر به، ... فهو العروة لا تخشى انفصاما

ثم يلتفت إلى وطنه فيخاطبه قائلاً:

أيّها القطـر الـذي في مجده ضـارع النجم علـوّاً ومقـامـا
كلما رمـتُ أنـاجيـك بها في فـؤادي قطع الـدمع الكـلامـا
لـك في عهـد حمورابي على سـائر الأقطـار فضل لا يُسـامَى
وعلى آثـاره قـد شهـدوا أنّك المبـدع في الأرض النّظـامـا
بـدأ العلم بمغنـاك فهل فيـه تحظى اليـوم بـدءاً وختـامـا؟

خلا شعر الأزري من المديح باستثناء الأماديح النبوية والمراثي الحسينية. لكنه رثى رجال عصره، وفي طليعتهم الملوك الهاشميون حسين وفيصل وغازي، والسياسيون محمد جعفر أبو التمّن ورستم حيدر وسعد زغلول، والأدباء الزهاوي وشوقي والرافعي والمنفلوطي، والزعماء الروحيون محمد تقي الشيرازي ومهدي الخالصي، الخ. ولعلّه الشاعر العربي الوحيد الذي رثى شاعر الهند طاغور، وإن يكن الأدباء كتبوا عنه وترجموا له كثيراً ومنهم مصطفى صادق الرافعي. قال الأزري في طاغور:

أيّها الـراحـل الـذي كـان يشـدو وهـو رهـن القيـود والأغـلال
مثلما تصـدح الطيـور صبـاحـاً مـن وراء الأقفـاص والأقفـال

والحقيقة ان طاغور لم يعرف القيود والأقفاص، بل شدا وترنّم حراً طليقاً، فلقي التكريم في مواطنه وفي بريطانية والمحافل الدولية التي منحته جائزة نوبل للآداب. واقتصر نضاله في سبيل الهند على اعادة الأوسمة التي منحته إياها الحكومة الانكليزية بعد الحرب العظمى الاولى.

وقال الأزري:

لم تصـل للكمال نفـس، ولكـن كـدت فيهـا تجتـاز بـاب الكمال
أدب لـذت من شجـونك فيـه عـدت فيـه بمعجـزات الخيـال
خطـرات شفـافـة ككـؤوس مـن رحيـق معتـق سلسـال
أو نسيـم بين الـريـاض بليـل أو كماءٍ عـذب المذاق زُلال...

وهو يستطرد في رثاء الزهاوي إلى حكمة الحياة والموت، فيقول:

ضرب الغمـوض على الحياة حجـابـه، فـارفـق بنفسـك، أيها المتعمـقُ
قصرت خطـاك عن الـوصـول ولم تـزل تـدنـو فتبعـد أو تعـوم فتغـرق
مشت العصـور على غـرار واحـد: نفس بها تحيـا وأخـرى تـزهـق
والأرض تثمـر والمنيـة تجتني، والليـل يجمـع والنهـار يفـرق
والـدهـر كـالبحـر الخضمّ يفيض في رحم الـذين مضـوا ويجرف من بقُـوا
.... الـخ

ويرثي ولداً احتسب به صبياً فيقول ملتاعاً:

بين نشر الدجى وطيّ النهار ... سبق الشمس للمغيب هزاري...

أيّها الحاملون للقبر دُرجاً ... من عطور أوباقةٍ من بهار،

كفّنوه بالورد فهو أخوه، ... واجعلوا القبر سلّة من نضار

لا تهيلوا على الأقاحي تراباً، ... فحرام تَعَفُّر الأزهار

ويرثي قريبة له عزيزة عليه فيقول:

كأنك في قبرين: قبر بأضلعي ... يصونك مما بتّ تلقَيْن في اللحد

أجدد فيك العهد كلّ عشية ... وإن فصمت أيدي المنون عُرَى العهد...

وقبرٍ به وَسَّدْتُ خدك تُربه، ... وبالرغم مني بتِّ عافرة الخدّ

وقفت عليه خاشع القلب مطرقاً ... كأني تمثال من الحجر الصَّلْد

وهو يرثى سعد زغلول فيطلقها صرخة وطنية مدوية، ويرثي أحمد شوقي فيمجّد الأدب ويكبر الشاعر والأديب، ويرثي يوسف رجيب فيأسى لهوان الأديب الحرّ ويحزن لبؤسه وشقائه.

والمواضيع الأخرى التي يطرقها الأزري يماثل معظمها تلك التي شغلت بال معاصريه من الشعراء.

فهو يرثي لحال وطنه ـ ذلك الوطن الذي قال فيه:

وطن يرانا الخير من غربائه ... وتعدّنا النّكبات من أبنائه

وتكاد تنكرنا الحياة، كأنّنا ... لسنا بهذا القطر من أحيائه

لقد عدم قراره لأجل هذا الوطن وسئم الحياة فيه، فأرقت لياليه. طلب لقومه العلم والنهضة والسّؤدد، وحيّى ذكرى الثورة العربية وثورة العشرين، وقال إن الحقّ لا ينال بغير النضال، واستنكر الشقاق وتفرق الكلمة، وقال:

تعهدوا، يا شباب اليوم موطنكم ... من أن تضيعه الأحزاب والشّيعُ

كان الوفاق لكم أيام نهضتكم ... ركناً، ولكن أراه اليوم ينصدع.

والأزري بعد ذلك رجل محافظ وقف من قضية تحرير المرأة موقف الوجل والحذر، وردّ على دعاة السفور قائلاً:

أمنازل الخَفِرات في الزوراء، ... لا زعزعتك عواصف الأهواء

قال لبنات قومه إنّ الحجاب لم يكن إساراً، وحذرهنّ من أن يخدعهنّ الشعراء بخيالهم، وندّد بالمسارح والملاهي قارناً التهذيب بالفضيلة والحياء. وطلب تشييد

المدارس للفتيات ورفع مستوى أخلاقهنّ ليكنّ نساءً فاضلات، صالحات لتربية الأجيال الطالعة.

ومن طريف شعره قصيدته «الغادة العذراء في أحلامها». وللشاعر الفرنسي ألفرد دي موسّيه مسرحية منظومة لطيفة عنوانها «فيم تحلم الفتيات» أو «أحلام الفتيات» يصوّر فيها أختين تتناجيان في الحبّ والزواج والتبرج والجمال. تحلم احداهما بالعريس الذي دعاه أبوها لزيارة الأسرة في الغداة وتسمع، وهي على فراشها سكرى بحسنها وصباها، صوت شابّ يغني لها خارج النافذة ويقول: أيتها الفتاة، ماذا تفعلين بحياتك؟ السّاعات تهرب، والورود تذبل، والشتاء يعقب الخريف. قلبك يخفق وعيناك تتوهّجان. أنت تذهبين إلى البحر بلا نجم هاد وإلى المعركة بلا نشيد. وما قيمة الحياة بلا حبّ؟ إنما الحياة رقاد والحبّ أحلامه.

وتقول الفتاة: إنني أشعر بهزار يترنّم في أعماق قلبي. ويأتي الحبيب ليختار احدى الفتاتين فيتردّد ويحار، ويقول: لا تسخروا منّي، أنا لا أعرف طرق الحبّ. انا لا أعرف سوى النظر وإنزال عبرة ساكنة وترديد آهة خجلة. النار تضطرم في صدري ولساني عاجز عن البوح بهيامي... وتنتهي الأحلام بالزواج السعيد.

إنّ أحلام فتيات الشاعر الفرنسي تضجّ بالبطولة والحبّ والمجازفة والغناء. أمّا غادة الشاعر العراقي فتريد سعادة هادئة لا تعصف بها الرياح. قال الشاعر:

عصفت بها ريح الهوى فتدلّت، ... من ذا يردّ الريح عن أدراجها؟
وتطلعت في الأفق من أستارها ... كتطلّع الأقمار من أبراجها
عذراء فاتنة وكم من فتنة ... كان الهوى سبباً إلى إرهاجها؟
قد جاوزت اعصارها وتهيّأت ... للقطف كالثمرات في إنضاجها
وبدت ترائبها كماء بحيرة ... وكأنّما النهدان من أمواجها
نظرت رشاقة قدّها فتنهدت ... وكأنّما خشيت فوات زواجها
خلع الإهاب عليه أجمل حلّة ... يسمو ببرقته على ديباجها
ويشفّ عن هيف القوام رداؤها ... كالرّاح تظهر من وراء زجاجها
تختال ضامرة الحشا، لكنها ... تتثاقل الخطوات من رجراجها
جاءت لتعرضه على مرآتها ... من بعد ما عبث الهوى بمزاجها
وتلفّتت لترى انعكاس خيالها ... في ميسها ودلالها وغُناجها
وتكفّ ما قد سال فوق جبينها ... من شعرها لتزيد نور سراجها

وأيقنت الفتاة أنها تسنمت عرش الجمال، فتساءلت عن الذي سيكون حارس تاجها. غير أننا نرى الشاعر ينتقل إلى موضوع أحبّ إلى نفسه وأقرب إلى فكره، فيفصح عن خوفه من أن يعود عصر حوّاء فتتستّر الغيد بأوارق الشّجر.

وللأزري غزل لطيف، منه:

بـــدا لي محيّـــاهـــا على حين غفلـــة فخـــرّ على أقـــدامهـــا صَعِقـــاً قلبي
فقـالت: أفق من سكـرة أنـا كأسهـا، وهـــا أنني أستغفـــر الله من ذنبي
وهّمت بإســـدال القنـــاع تعطّفـــاً على كبـــد شبت بـــه جـــذوة الحب
فقلتُ: أصـاب السّهم مـرمـاه فـارفقي، وهيهـات بـرء الجرح من نصله الـرّهب
رأيـت الهوى استـــوفى بـأول نظـــرة نهايـة مـا استـوفـاه من عـاشق صب
قفـي أتـــزود من محيـــاك لحظـــة قفـي قبلما أقضي على حكمـــه نحبي

وقال:

بينـي وبينـك ألّـف القـــــــدرُ فـــاللحـن أنت وحبّك الـــوتـــر

لقد أحسن الأزري رواية قصص الحبّ الخيالية في شعره العذب المنسجم، فقال:

زارني طيفـك فـــــاستقبلتـــــه وأنـــــا في مضجعـي لثماً وضما
مثلما عـــــــوّدتني في يقظتـي أن تـــــزوري دون أن أسبق علما
فتنسّمتـك لطفـــاً كـــالصبـــا وتنشقتـك كـــالـــزهـــرة شما
وتحدثـت بصـــــوت مثلما كـــان عهـــدي في اليقظـــة نغما
هـل تحوّلت خيـــالاً في الكـــرى وتقمصـت مـن الأحـــلام جسما؟
وعجيـب أنـت والطيـف معـــاً كيـف لم تختلفـــا لـــونـــاً وطعما
خفـق القلـب لمرآك بـــــه، ليت شعـري كيـف عـدّوا الطيف وهما؟
لم لا؟ أحسـب حلمـي يقظـــة عنـــدمـــا ألقـــاك واليقظـــة حلما
حلّليـــــه كيفما شئـت فما زال رؤيـــاي لـك اللغـــز المعمى

انّ شاعرنـا قد طوّف في المدائن والمعاهد، وتجشّم المتاعب والمشـاقّ، عاشر الشيوخ في آلامهم والشباب في آمـالهم، وعلّل النفس وهدهـدها بـالأماني والأحـلام، فرجع إلى عزلته خائباً حائراً. والتجأ إلى «واحـة الإيمان» ينشد الراحة والسّكينة في ظلال الأدب، منشداً لنفسه:

حسبـي يـــراعـي ســـاقيـــاً ومـــــــداد محبرتي شرابي
وأنـــا الـــــذي لم يبـق لي الاّ منـــادمـــة الكتـــاب

محمد حبيب العبيدي

مفتي الموصل وشاعرها ولد فيها سنة ١٨٧٩ وتوفي بها في ١٩ تشرين الاول ١٩٦٣ . وقد نشرت ترجمة وافية له في «أعلام اليقظة الفكرية» .

وأضيف هنا أنه كان مع الجيش التركي في ساحة فلسطين حين احتلها الانكليز سنة ١٩١٨ ، فقبضوا عليه واعتقلوه في معتقل الأسرى بالاسكندرية . وأطلق سراحه بعد انتهاء الحرب .

من شعره الوطني :

أضرموا النار، يا سراة العراق، ... واغسلوا العار بالدم المهراق

إنّ ضيماً حملتموه عظيم ... كاحتمال الأطواق في الأعناق

كلَّ آنٍ تُسقون كأس هوان ... فاقطعوا بالسيوف كفّ السّاقي

يا رجال العراق، لستم أسارى ... لتزينوا الأعناق بالأطواق . . .

قال فيه إبراهيم صالح شكر انه تعشق البطولة والعظمة من الصغر، فوضع العمامة على رأسه وتخيل نفسه نذير القضاء على جمود المسلمين وبشير الإصلاح المنشود في الشرق . فلما وصل سنّ الشباب رأى نفسه أهلاً لأن يقوم بالدعوة لإصلاح حال الشرق والمسلمين، فأخذ يخطب ويكتب في هذا الباب . ورحل إلى سورية والاستانة مراراً، ثم قام برحلة يطوف فيها العالم الإسلامي داعياً إلى الإصلاح . ونشرت له جريدة الرأي العام البيروتية قصائد ومقالات طنّانة حماسية واجتماعية . ولما نشبت الحرب العظمى أصبح خطيباً للفيلق التركي الرابع بقيادة جمال باشا السفاح . وألف كتاباً عن «جناية الانكليز» وآخر بعنوان «حبل الاعتصام ووجوب الخلافة في دين الإسلام» .

وجاء إلى الموصل بعد الحرب فخلع عن نفسه ثوبه التركي الطوراني . وعاودته فكرة الزعامة ، كما قال إبراهيم صالح شكر، فجمع له زمرة من الشبيبة الموصلية وأخذ يدعو إلى العرب ونهضتهم ويتغنى بأمجاد قحطان وعدنان ويمتدح ملوك العرب ومجاهديهم . . .

الشيخ كاظم الدجيلي

سلام على شطّ الدّجيل، فحسبه ... عُلىً أنه مَغْنَى الدّجيلي كاظمِ

أديب سياسي أريب وشاعر ... وبالفضل معروف كثير المكارمِ

إذا قال شعراً ردّد الدّهر شذوه ... وفي نثره سحر كسَجْع الحمائمِ

وصاغت أيادي الشيب تاجاً لرأسه | لجيناً، وقلب الشيخ غضّ البراعم
يفيض بأوصاف الحسان قصيده | ويا قلّما قد خاض غَمْر الملاحم!
شبيه بأفلاطون في الطّهر حبّه | على أن شعر الحبّ جمّ المزاعم
على أن شعر الحبّ عذب نشيده | فلا تستمع فيه للوم اللوائم

قرأ علينا الاستاذ الشيخ كاظم الدجيلي في السنوات الأخيرة طرفاً رائعاً من شعره غير المنشور أمتع أسماعنا وسحر ألبابنا، فكان أن خاطبته بتلك الأبيات مازجاً التقدير والتعظيم الذي أكنّه للصديق الشاعر بالدعابة والملاطفة.

ولد كاظم الدجيلي في قرية دجيل المعروفة بسميكة شمالي بغداد في ١٠ آذار ١٨٨٤، وهو ابن حسين بن عيدان بن درويش بن نهار الخزرجي. وجاء به والده إلى بغداد وعمره ستة أشهر فاستوطن جانب الكرخ. ودرس في الكتاتيب فحفظ القرآن وألمّ باللغة العربية وطرف من العلوم، ثم لازم فريقاً من أفاضل العلماء والأدباء كشكري الألوسي والسيد حسن الصدر والأب أنستاس ماري الكرملي وجميل صدقي الزهاوي فأفاد منهم فوائد جليلة.

وقد حدثني أنه كان يغشى مجالس رجالات بغداد كالسيد عبد الرحمن النقيب وعبد المجيد الشاوي وغيرهما، فكان النقيب يستقبله كلما وافى ديوانه مردّداً البيتين التاليين:

أسال بالصّبح سيل | أم زيد في الليل ليل؟
يا إخوتي بدجيل | وأين منّي دجيل

والبيتان للشاعر عليّ بن الجهم قالهما حينما مضى إلى الشام، فلما قرب حلب، خرج عليه اللصوص وجرّحوه وأخذوا ما معه وتركوه على الطريق، فاستنجد بإخوته في دجيل، وأين منه دجيل؟ (وكان مقامه بمحلة دجيل في بغداد).

وأتيح له بعد ذلك أن انتمى إلى مدرسة الحقوق في بغداد فنال شهادتها في سنة ١٩٢٣.

وقد عمل مع أبيه في تجارة الحبوب ردحاً من الزمن في صدر شبابه، ثم أقبل على المطالعة ونظم الشعر. وأعلن الدستور في السلطنة العثمانية سنة ١٩٠٨ فحيّاه بقصيدة ألقاها في الاحتفال الذي أقيم في السراي تخليداً لهذا اليوم، ومطلعها:

بشرى الأنام وبشرى أهل بغداد | فالدهر وافى بإقبال وإسعاد

وصدرت الصحف بعد أن كانت الأفواه مكمومة في العهد الحميدي الدابر، فحرّر الدجيلي في جريدة «بغداد» التي أصدرها مراد سليمان و«الإرشاد» لحسين فريد وجريدة «الحقيقة» لصاحبها عبد المجيد طلعت من رجال حزب الاتحاد والترقي. وأصبح في سنة ١٩١١ مديراً لمجلة «لغة العرب» التي أصدرها الأب أنستاس الكرملي حتى

أغلقت عند نشوب الحرب في أواخر سنة ١٩١٤ . وحكم عليه بالسجن في نفس هذه السنة لمقالة نشرها في مجلة «المستقبل» المصرية لصاحبها سلامه موسى، ولم يلبث أن أطلق سراحه، وقد نظم في السجن قصائد منها قصيدته «بوليس بغداد» التي يصف فيها مآسي السجن وأهواله ختمها بقوله :

ولا يحسبنّ المرء تلك خرافة فناظمها سامعها وخبيرها
ولم تك مأساة لعمري غريبة ففي جانبي بغداد جمّ نظيرها

وقام الدجيلي في السنوات السابقة للحرب العظمى برحلات إلى إيران وكردستان وأطراف العراق وعربستان وجاب القرى ومنازل الأعراب ودرس أخلاقهم وعاداتهم وأحوالهم الاجتماعية وكتب عنهم ما لم يتهيأ لغيره من الرحالين والرواة .

وقد رحل إلى البصرة على اثر احتلال الإنكليز فوظف بدائرة الشرطة (٢٨ كانون الاول ١٩١٤) . ثم رفع إلى وظيفة معاون مفتش شرطة (كانون الاول ١٩١٦) فمفتش شرطة (تموز ١٩١٧)، لكنه استقال في ايلول من تلك السنة، وقد عاد إلى الشرطة بصفة معاون مفتش في (كانون الثاني ١٩١٨) ولم يلبث أن استقال بعد شهرين. ثم اعتقل في النجف في كانون الاول من تلك السنة وسجن في بغداد نحواً من ٤٠ يوماً .

وانتمى إلى مدرسة الحقوق عند إعادة افتتاحها، وعيّن في الوقت نفسه سكرتيراً خاصاً لرئيس محكمة الاستئناف في بغداد ومحرراً لمجلة «العدلية» (حزيران ١٩٢١) فمحرراً للوقائع العراقية، وهي جريدة الحكومة الرسمية، عند صدورها في (كانون الاول ١٩٢٢).

وانتخب عضواً بالمجمع العلمي العربي في دمشق (١٩٢٣)

وعيّن في أواخر سنة ١٩٢٣ مدرساً للّغة العربية في معهد الدراسات الشرقية في لندن فبقي فيها إلى سنة ١٩٢٩ . وقام في الوقت نفسه بتدريس اللغة العربية للأمير غازي ولي عهد العراق في أثناء دراسته في العاصمة البريطانية (١٩٢٦ ـ ٢٨)، وقام أيضاً بوكالة سكرتيرية المثلية السياسية العراقية في لندن (٤ أيلول ١٩٢٧ ـ ١٢ آذار ١٩٢٨).

وعاد الدجيلي بعد ذلك إلى بغداد (ت١ ١٩٢٩)، فلم يلبث أن عين في السلك الخارجي وسمّي نائب قنصل في مصر (٥ كانون الاول ١٩٣٠). ونقل في السنة التالية مراقباً للبعثات العلمية في لندن (تشرين الاول ١٩٣١) فنائب قنصل في المحمّرة (أيار ١٩٣٤) فبيروت (١٩٣٥) فقنصلاً في حيفا (١٩٣٥) فالقدس (١٩٣٧) فبومبي (آب ١٩٣٨)، ونقل قنصلاً في كراجي (كانون الأول ١٩٣٩) فتبريز (حزيران ١٩٤٣). ولما أنشئت المفوضية العراقية في موسكو عيّن مشاوراً (١٨ تشرين الأول ١٩٤٥) وأصبح بعد ذلك قائماً بأعمالها حتى أحيل على التقاعد (آب ١٩٤٨).

وقضى الأعوام الأخيرة من حياته متنقلاً بين العراق وأوروبا، حتى أدركه الحمام في فيينا عاصمة النمسة في ٢٣ آذار ١٩٧٠، وجلب جثمانه إلى بغداد ودفن في النجف.

وقد وضع كاظم الدجيلي رسالة في «أحداث ثورة العشرين» حققها حكمت رحماني ونشرها سنة ١٩٧٣.

مؤلفاته:

لكاظم الدجيلي شعر كثير متفرّق في الصحف والمجلات العراقية والمصرية والسورية واللبنانية. وقد وضع مؤلفات عديدة نشرت معظم بحوثها في مجلة «لغة العرب» والهلال والمقتطف وسواها من المجلات والجرائد، لكنها لم تطبع كتباً. منها: رحلة الفرات، تاريخ النجف، تاريخ الكوفة، تاريخ كربلاء، المشاهد المقدسة في العراق، سامراء قديماً وحديثاً، تاريخ الكاظمية، وتاريخ البصرة، الآثار العراقية، أشعار الأعراب، أعراب العراق، الأغاني العراقية، صابئة العراق، اليزيديّة، الأسر البغدادية، الفرق الثلاث (وهي الفرق الامامية الأصولية والأخبارية والشيخية أو الكشفية)، الأمثال العراقية، المصطلحات العراقية، السفن العراقية، الشعر القصصي الحماسي، الخ.

وكتب بالانكليزية بحثاً عن الشيعة نشر في كتاب «أديان الانبراطورية». وقال انه وضع روايتين باللغة الانكليزية أيضاً باسم «رواية عربية» و «باشا بغداد».

وللدجيلي بصر بالمخطوطات والآثار. ولم يمنعه عمله في السلك الخارجي وتنقله بين العواصم والبلدان المختلفة من الاهتمام بالأدب، فكثيراً ما كان يكتب إليّ وهو في الخارج رسائل تتناول تعليقات وشؤوناً أدبية.

شعره وأدبه:

كاظم الدجيلي أديب حرّ الفكر، صريح القول، واسع الأفق، زادته اقامته في الأقطار الاوروبية وغيرها واتصاله بأرباب الفكر العالميين ثقافة واطلاعاً. وقد أودع أشعاره ومقالاته آراء بعيدة الغور اقتبسها من تأملاته ومطالعاته الكثيرة. يدور شعره في الغالب على المواضيع الاجتماعية و الفكرية، وله غزل ووصف رائع. ولكم يثور على التقاليد البالية وينعى على المجتمع الرياء والتعصب والجهل. ورثاؤه قليل، منه مرثاته لأخيه المحامي جواد الدجيلي وهي تقطر لوعة وأسى. وقد أرسل من موسكو بمرثية لشيخه وصديقه أنستاس الكرملي، يقول في مطلعها:

ويح المنون! فما لها من رادع ... وقفت لكل الخلق بالمرصاد

ان الحياة على تعاظم شرها ... محبوبة حتى لدى الزهاد

الدجيلي والنقد الذاتي :

حـــديثك عن غير القـــويّ حـــرام　　وسعيك في نصر الضعيف أثـــــام
تحدث بمجـــد الأقـــويـــاء فإنهم　　قعــود بـأحكـــام الــورى وقيـــام
يـــؤلّــه مـــذ صـــار ابن آدم قـــوة　　ومـــا الكـــون الاقـــوة ونظـــام . . .

لم ينظم هذه الأبيات بعض أعوان هتلر أو تلاميذ نيتشه، بل قالها شاعر عراقي وديع هو كاظم الدجيلي الذي روّعته أهوال الحرب العظمى فحدثته على الجهر بها لا يعتقده ويرتضيه . ولذا أقدم على نقد نفسه في مقال طريف نشرته له صحيفة «الحقائق المصّورة» البغدادية في عددها المؤرخ في ٢٢ شباط ١٩٢٥ . قال الدجيلي : «في ليلة مطيرة تراكمت فيها الأحزان على قلبي وحاولت أن أسرّي الهم عني بالمطالعة، التفتّ نحو عالمي الصغير ـ أي مكتبتي ـ وأخذت أضرب أخماساً لأسداس . فقلت : هل أقرأ «علم الحب» لأوفيد وانا سوداوي، أم أقرأ «أصل الأنواع» لداروين وأنا أعتقد حتى الآن بأن الإنسان وحش مفترس؟ هل أقرأ «الفردوس المفقود» وأنا في جهنم، أم أقرأ رواية «البؤساء» وعلاقتي معهم تقضي عليّ أن لا أنبش قبورهم؟

«هل أقرأ «بحيرة» لامارتين أم «جان الصغير» لهوغو، وفي النفس صوت يمنعني عن المطالعة في هذه الليلة إلا في لغتي العربية . وبينما كانت هذه التأملات تجول في فكري المتضعضع الإحساس، رأيت شبحاً ينظرني بألف عين، فقلت في نفسي : لا شك أن هذا شاعر حيرتي وتردّدي، ولذا تراه يصوّب نظره إليّ لأنشد أحلامه ولأرثي أمانيه . ثم اختفى بين صحائف «الأدب العصريّ في العراق العربي» . أما أنا فللحال أخذت الكتاب وبدأت أقلب صفحاته حتى عثرت على الشيخ الذي اختفى عني، فإذا به كاظم الدجيلي» .

ويمضي الشيخ كاظم في مقاله فيقول :

«دخلت أول مدينة في عالمه واسمها «الحياة الاجتماعية» وفي البيت الاول من أول شارع وجدت فيه :

حـــديثك عن غير القـــويّ حـــرام　　وسعيك في نصر الضعيف أثـــــام

«أما تخاف الله أيها الشاعر؟ أتروم أن تتحدث دائماً عن الأقوياء، ومن سعى في نصرة الضعيف والأخذ بيده يعدّ اقتراف ذنب يحاسبه الله عليه؟»

ثم يـضي الشاعر في نقد أبيات قصيدته حتى يقول : «رباه! أتروم أن تنتقم مني لهبوطي العالم الذي لم أجد فيه سلوتي بل ترك لي حسرة وزفرة تتصاعد وتنخفض . . » اهـ

إن قصيدة الدجيلي هذه تزخر بالأفكار وتعبّر عن حيرة الشاعر في رتابة الحياة وتناقضها . فهو يقول :

إذا كنت بين العالمين أخا قوىً رعتك عيون الناس حين تنام

حمى الغاب بأس الليث من كل طارق ولم ينجُ من فتك البزاة حمام

يقولون: إن الحق من فوق قوّة وما الحق الا مدفع وحُسام

ولو درسوا علم الطبيعة لانثنوا وفيهم غرام بالقوى وهيام

ثم يلتفت إلى الخلق فيراه جائراً باسم عادل، ينوح على الميت ويأكل لحمه، ويهدي الصديق الزاد ممزوجاً بالسمّ الزعاف. وماذا يرى الشاعر في الناس؟ انهم أشياع مذاهب يزعم كل منهم صلاح مذهبه وسداده، فهذا قد أفنى الحياة في العبادة، لكن معبوده الأوثان وهي رجام، يقدم لها النذور ويروم الرزق والمغفرة والعافية. وذلك خرافي يروح ويغتدي وأفعاله الشّر والمعاصي، حتى إذا ما قضى نحبه قدّسه بعد مماته الطغام وشادوا عليه قبّة وجاؤوه من شرق البلاد وغربها يطوفون بقبره ويلتمسون بركته وشفاعته:

وقالوا، وهم يبكون شوقاً ورهبة وصار لهم حول الضريح زحام:

بك الله يحيينا غداً ويميتنا وأنت شفاء للورى وسقام.

ويمضي الشاعر في جولته الاجتماعية، فيقف عند جحود ينكر الله جهرة وينعى على القوم أساطيرهم وخرافاتهم، وعالم يحار في سرّ الطبيعة الغامض ويحاول حلّ ألغاز الكون فيموت وفي نفسه حسرة منها وفي حشاه ضرام.

وما الأديان؟

حكاية أديان الأنام عجيبة تجمّع فيها فرقة ووئام

تريد الهدى والخير للناس كلهم وكم ثار منها فتنة وخصام

وغايتها القصوى عبادة واحد حقيقته ما إن ترى وترام

عظيم لديه يصغر الخلق كلّه وتستصغر الأجرام وهي عظام

له أثر في كل شيء وآية وبين قواه والوجود لزام

دعوه بأسماء قد اختلفوا بها وعدّوه نوراً لا يكاد يُشام

وقالوا وهم في حالة اليأس والرّجا: متى تتلاشى ظلمة وغمام؟

متى تجمع الأديان في الأرض وحدة لها سنّة مشروعة ونظام

ويسلك كلّ العالمين سبيلها وغايتهم منها هدى وسلام...

وينفذ الشاعر في قصيدة أخرى إلى أعماق النفس البشرية فيخاطبها قائلاً:

يا لك من آمرة ناهية أحكامها نافذة ماضية

لم يقـــو مخلـــوق على ردّهـــا ... لـو كـان ربّ السلطـة القـاضيـة
جـامعـة الأضـداد شيطـانـة ... إلاهـة رشيـدة غـاويـة
قـاسيـة رقيقـة الحاشيـة ... سـافلـة عـاليـة راقيـة
خبيثـة شريـرة بـاغيـة ... طيبـة طـاهـرة زاكيـة
عـاجـزة قـادرة إن ونـت ... أو عـزمت، خـالـدة فـانيـه
تقلبت كـالـريح أوضـاعهـا ... هـادئة عـاصفـة عـاتيـة
الحبّ والبغـض لها شيمـة ... فـدأبها غـاضبـة راضيـة . . .
أعنـي بها النفـس التـي حيّرت ... أفكـار أربـاب النهى السـاميـة

وهو يرى الشر أصيلاً في النفس فيقول :

تجنّب الشّر لا خـوفـاً ولا طمعـا ... والشّر في النفس قبل الخير قـد طُبعـا

ويقول :

إلى النـاس نشكـو النـاس من سـوء فعلهم ... فقـد كثـرت آثـامهـا وشرورهـا
أرى الشّر قـد عم البريّـة كلهـا ، ... أكلّ الـورى ، يـا قـوم، مـات شعـورهـا؟
فـلا الـديـن منّـاع ولا العقل رادع ... ولا العلم جـالٍ ظلمـة أو منيرهـا
أرى النـاس في هيجـاء من أمـر عيشهم ... تنـازع فيهـا عبـدهـا وأميرهـا
فكـانـوا ودنيـاهم سبـاعـاً وجيفـة ... تعـاوت عليهـا أسـدهـا ونمـورهـا
تقـدم في الـدنيـا فسـاد أخـو الغنى ... وأُبْعِـدَ كل البعـد عنهـا فقيرهـا
إذا قـال ربّ المال قـولاً تطـاولت ... إلى وعيـه من كل قـوم نحـورهـا
لـه حـرمـة في النـاس وهـي عظيمـة ... وقـدر جليـل لم يجزه قـديـرهـا
لـه الـرأي متبـوع، لـه الحكم نـافـذ ... لـه شهـرة كـالشمس سـار مسيرهـا

وقد غشي التشاؤم بصر الشاعر فقال :

وسـائل يسأل عـن مبـدئي ... فقلـت: إني رجـل أسـوئي
خبرت دنيـاي وأبنـاءهـا ... مـذ نشأتي خبرة مستقـرىء
فلم أشـاهـد غيرمـا حـالـة ... أرتنـي السـوء بكـل امـرء

وساء ظنه بالناس فقال :

الجميـل يصنعـه ... مـن لـه بـه أرب
والالـه يعبـده ... مـن يخيفـه اللهـب!

وخاب فأله في بلده وصحابه فقال :

إني أرى العيش في أرض سـوى وطني إذا رحلت اليهـا اليـوم أصفى لي
والعيش في بلـد قلّ الـرفـاق بـه خير مـن العيـش بين الصحب والآل

وقال متألماً:

أنـا من عـاش في العـراق غـريبـاً أنـا حـرّ مقيّـد بقيـود
أنـا مـن قـال في الحقيقـة قـولاً فـانتحـاه مكـابـر بـالـردّود

لكنه يتألم لحال بلاده وحال الشرق المتأخر فيرجو لبلاده وللشرق الرقيّ والمعرفة والنهوض، فيقول:

يـا نـديمي، وأين منّي نـديمي، غنّني واسقني ابنـة العنقـود
فلقـد هـاجني تهدّم مجد كـان في الشرق ذا بنـاء مشيـد
هـدّ أركـانـه الـزمـان وأبقى رسمـه نـدبـة بـوجـه الصعيـد.
أيها الشرق، هـل ليـومك عَـود؟ أيها الشرق، مَنِّنَـا بـالـوعـود
يـا مقـرّ الالـه، يـا معبـد الكـون، عجيب تـدهـور المعبـود!
نهض الغـرب للـرقـي ففـاز القـوم فيـه هنـاك بـالمقصـود
سبقـونـا إلى العـلاء بعلـم تخذوا منـه سلّماً للصعـود
ووقفنـا جهـلاً ونحـن كسـالى ننظـر القـوم مـن مكـان بعيـد
نتمنّـى الـرقـي حيث قعـدنـا كيـف يـرقى إلى العلى ذو قعـود؟
وادّعينـا بـأننـا علماء تلك دعـوى محتـاجـة للشهـود...

وينظر إلى حال وطنه المريض فيقول:

ولي وطـن يعـذّبـه أنـاس بـدعـوى أن قصـدَهُمُ شفـاؤه
ولـوتـركـوه يختـار المداوي لأُصْلِـحَ حـالـه ولـزال داؤه

ويفكر في حال وطنه الفقير فيقول:

يـا سـواد العـراق، بيّضك الجدب فصرت البيـاض وسط السـواد
يـا سـواد العـراق، فيك كنـوز يعلـم الله مـا لها مـن نفـاد
يـا سـواد العـراق، أمحلك القـوم وقـد كنت روضـة المرتـاد
يـا سـواد العـراق، شلّت يمين ذات إثـم دلـت عليـك الأعـادي

ومن طريف شعره في المرأة:

يـا زوجـة المرء ويـا أمّـه حـارت بك الأبصـار والبـاصرة
مـا أنـت إلا امـرأة فـذّة قـد نعتتهـا الأمـم الحاضرة

إلاهـــــة معبـــــودة تـــــارة وتـــارة شيطـــانـــة ســـاحـــره
تغضب في حـــال الـــرضـــا مثلما تـــرضى وفيهـــا غضـب الـــواتـــرة
لا وصلهـــــا دام ولا قطعهـــــا كـــدولـــة عـــادلـــة جـــائره!

وقال في دلال الحبّ وذلّه:

أرأيـت كيـف تمنّـعُ المعشـــــوق ودلال شـــائقـــة وذل مَشُـــوقِ؟
يـــا للـــرجـــال المُسْعَـــدين لعـــاشقٍ بسهـــام لحظي غـــادة مـــرشـــوق
من ذا يســـاعــــده على فتّـــانـــة أسرت نُهاه فعـــــــاد غير طليـق؟
حـــــوراء ألبسهـــــا الجمال بهاءه والشمـس ببهجتهـــــا أوان شروق
صبّت بهيكلهـــا الطبيعـــة حسنهـــا فبـــدت مثـــال الحسـن للمخلـــوق
وروت محاسنهـــــا حـــديث جمالها متسلســـلاً عن يـــوسف الصّـــديق

ولما يفـرغ من وصف المحبوبـة ومقلتهـا وقوامهـا وطيب رائحتهـا وثغرهـا وصدرهـا وبشرتها، يشيد بحلو حديثها ومنادمتها في الشراب، ثم يقول:

أصبـــو فيتركنـي الغـــرام مكـــاشفـــاً بكُمُ عـــدوّي إن فقـــدتُ صـــديقي
لله مـــا يلقى فـــؤادي من جـــوى وصبـــابـــة وتقـــرح وخفـــوق
يـــا سعـد، كن لي في الصبـابـة مسعـداً فهـــــــوى المحّـب أراه غير حقيـق
شأن الـــزمـــان وتلـك سيرة أهلـــه قـــال الصـديـق فكـان غير صـــدوق

الدجيلي والآنسة ميّ:

كانت الآنسـة ميّ زيادة الأديبة النـابغة قـد اتصلت بالأب انستاس مـاري الكرملي وراسلته في سنـة ١٩٢٠ وساجلته في شـؤون الأدب، فاهتم بحسبهـا ونسبها وكتب إلى زميل لـه من رهبان النـاصرة ـ حيث رأت أديبتنا نـور الشمس ـ يسـأله مراجعـة سجلّ الكنسية وتحقيق مـولدهـا وأسرتها. فأجابه الـراهب انها ولدت في النـاصرة وعمّدت في كنيستها في ١١ نيسان ١٨٨٦، وسمّيت «بربارة»، وأمّها من الناصرة، أما أبوها الياس زيـادة فمن قضاء كسروان في لبنـان، وكان عنـد ميلاد ابنتـه معلماً في مدرسـة «الأرض المقدسة» (تيراسنتا) الفرنسية في الناصرة.

وقد كتبت الآنسة مّي في مجلـة «المقتطف» سنة ١٩١٩ عن الشعر القصصي الحماسيّ وعدم معرفة العرب ايّاه، فردّ عليها كاظم الدجيلي، ثم ترضاها بقصيدة قال فيها:

قلبـي بكلّ هـــواي لاسمـك ذاكـــر هل أنـت شـــاعـــرة؟ فإنّي شـــاعـــر!
يـــرتـــاح للـــذكـــرى ويطـــرب كلّما وافـــــاه طيـف من خيـــــالـك زائر
يـــا من تحدّثـت الـــرجـــال بفضلهـــا وبها النســـاء النّـــابغـــات تفـــاخـــر

لك في سويداء الفؤاد وفكرتي وبمقلتي وفمي محلّ عامر
إني امرؤ بالنّابغات متيّم وإلى النوابغ شوقه متكاثر
الحبّ أضناه وبرّح قلبه وأمضّ آلاماً محبّ صابر
لم يبق منه الشوق الا صورة يأسى لها لما يراها الناظر. . .
في كل قلب، يا أميمة، نبعة للحبّ زاهرة وغصن ناضر
والحبّ منتجع الحياة وكلّ ما أحيا النفوس فذاك حبّ طاهر
والحبّ سلطان تملّك أهله خضعت سلاطين لها وجبابر
والحبّ فلسفة تعذّر وصفها وعن الحقيقة كلّ فهم قاصر
والحبّ معنى الله أو هو ذاته طمحت إليه خواطر ونواظر
إني لأحوي في الفؤاد محبّة لم تحوها للعاشقين ضمائر
ليتيمة الشرق المضيع حقّه دول له تقضي وفيه تناظر
في عدلها جور وإن حكمت له ومن الغريب يقال: عدل جائر!

ولم يكن الدجيلي أوّل من تغزّل بميّ غزلاً أدبياً بريئاً طاهراً، فقد تغزل بها الادباء والشعراء، وهي الفتاة العبقرية الفريدة، غزلاً كثيراً لا يخرج عن التجاوب الفكري والتعاطف الروحي والتعارف الأدبي الذي جعل المرأة المثقفة الحساسة حلماً في العيون ومغناطيساً جذاباً للأفئدة والقلوب وخيالاً ماثلاً ولكنه، في الوقت عينه، عزيزاً بعيد المنال. وهل كان وليّ الدين يكن يقصدها حين قال:

تمسين ناسية وأمسي ذاكرا عجباً، أشاعرة تهاجر شاعرا؟
فهل الملائك كالحسان هواجر ان الملائك لا تكون هواجرا
إن كنت لا أسعى لدارك زائراً فلكم سعى فكري لدارك زائرا

ولنعد إلى شاعرنا الدجيلي فقد شكته الآنسة ميّ إلى الأب الكرملي، فكتب إليها رسالة مطوّلة، وكان ذلك في سنة ١٩٢٢، فكان أن أرسلت إليه بأحد كتبها وخاطبته في كلمة الاهداء: «إلى أعدل الظالمين من الشعراء».

وعيّن الشيخ كاظم مدرساً للّغة العربية في جامعة لندن فمرّ في طريقه بالقاهرة في أوّل سنة ١٩٢٤ ومكث فيها أياماً التقى في أثنائها بالدكتور يعقوب صروف صاحب المقتطف، لكنه سافر إلى لندن دون أن يتاح له التعرّف بالآنسة. وعاد إلى اثارة النقاش في موضوع الشعر القصصي الحماسي عند العرب فكتبت ميّ تقول:

«لقد عاد الشيخ كاظم الدجيلي في فبراير ١٩٢٤ إلى موضوع الشعر القصصي الحماسي. . . ناقشني وصمت خمسة أعوام درس خلالها الحقوق ونفحني بقصيدة

نشرها في «الهلال» ودعاني فيها ببعض الأسماء الحلوة التي يبتكرها الشعراء يوم يوطدون النفس على معالجة العناد عند امرىء بوجه من الوجوه وعلى أن يسترضوه بالأوزان والاسجاع ليخاصموه بالنثر المرسل . . . » .

وختمت ردّها تقول : «قيل لي يا سيدي الاستاذ ، إنك رحلت إلى انجلترا لتدرّس اللغة العربية في جامعة لندن . وسواء كنت الآن في انجلترا أم في العراق فهات يدك أصافحها ! . . »

ومرّت الاعوام ، وحلّت سنة ١٩٣٠ ، فإذا بالدجيلي ينقل إلى القنصلية العراقية في القاهرة ، فيؤمّها ويغشى محافلها الأدبية والاجتماعية . وهيىء له لقاء ميّ لأول مرّة في بعض الحفلات ، وكان الذي قدمه إليها الدكتور أمين معلوف ، فقد أخذ بيده واتجه صوب سيدة مشرقة الطلعة من غير جمال أخاذ وقال : هل تعرفين هذا الرجل ؟

قالت : لم يسعفني الحظّ بلقائه من قبل . فضحك الدكتور معلوف وقال : كيف ذلك ؟ إنه صديقك وخصمك كاظم الدجيلي ! فصافحته ببشاشة وقالت : إذن أنت ذلك البغدادي الذي ناظرني وقارعني وترضاني منذ سنين ! . .

ولبث الدجيلي في القاهرة سنة واحدة كان يزور الآنسة في أثنائها مساء الخميس من كل أسبوع بحضور والدتها . وكان الكلام يدور حول الأدب والعلم والتاريخ والاجتماع . وفي سنة ١٩٣١ أعيد نقله إلى لندن مراقباً للبعثة العلمية في المفوّضية العراقية . ومضت سنتان أو ثلاث ، وفوجىء شاعرنا ذات يوم بزيارة ميّ على غير موعد ، وكانت قد جاءت إلى العاصمة البريطانية في رحلة قصيرة . وقد سرّ بلقائها أيّما سرور واحتفى بها في خلال الأيام القليلة التي أمضتها قبل عودتها إلى مصر ، واحتفل بها أيضاً عطا أمين القائم بأعمال المفوضية آنذاك وثابت عبد النّور . وقد وجدها الشيخ كاظم في اضطراب نفسي شديد : فقد توفّيت والدتها التي كانت تلازمها وتتعهدها برعايتها وبقيت وحيدة لا أخ لها ولا أخت ولا صديق يؤاسيها ويعطف عليها .

عادت ميّ إلى القاهرة فكتبت إلى الشيخ رسالة شكر ختمتها بقولها : «أسأل الله أن يوحي إلى شاعرنا ألف قصيدة وقصيدة ! » ولم يكن بوسع الدجيلي إلاّ أن يجيبها بقصيدة قال منها :

سلام على ميّ ، سلام على مصر ... سلام على صحبي بها أبد الدّهر
وإني ، وتهيامي بميّة ، عاجز ... عن النظم حتى في محاسنها الغرّ
تطالبني بالشعر ميّ وتبتغي ... لشاعرها وحياً من الله بالشعر
ولم تدرِ أني في حياة بعيدة ... عن الشعر إذ أنّي تقدّمت في عمري
ومارست أعمال السياسة سالكاً ... مسالكها القصوى إلى حيث لا أدري

وكان بعد ذلك من أمر ميّ ما كان ، فغلب عليها الداء وحجرت في المستشفى لتعود

بعدهـا فلا تلبث حتى تقضي نحبهـا . وكان ذلك اخـر العهد بـالمناظـرات الأدبية بين الشاعر العراقي والأديبة المصرية التي شغلت المحافل والناس سنين طويلة .

محمود الملاح

في دار منعزلـة بمحلة السعـدون في بغداد يعيش شـاعر منـزو يعدّ من كبـار شعراء المدرسة القديمـة في العراق . ذلكم الشاعر «محمود الملاح» الذي يـلازم داره وحيداً منذ عشرات السنين لا يكاد يبرحها ولا يزوره إلاّ نفر يسير من أقرانه وأصدقائه .

ولد محمود الملاح في الموصل سنة ١٨٩١ ، وهـو محمود بن عبد الله بن يونس الملاّح ، ونسبتـه إلى سـوق الملاحين في مسقط رأسـه ، وهـو سوق قـديم يبـاع فيـه الملح وسـائر الحاجـات . وقد نشأ في ربـوع الموصل ودرس العلـوم الدينيـة والأدبية على علمائهـا وفي مقدمتهم عبـد الله النعمة وعثمان الديـوه جي قاضي الموصل . ونال الاجـازة العلمية في سنة ١٩١٢ فوظف مـداوماً في قلم تحرير الولايـة . ولم تلبث الحرب العظمى أن اضطرم أوارها فجنّد لكنه استمر على مزاولة وظيفتـه في الولاية إلى عقد الهدنة وانسحاب الاتراك وتسليم المدينة إلى القوات الانكليزية .

كانت الموصل في ذلك العهد بلدة منعزلة راكدة الثقافة لا تكاد تستشفّ بصيصاً من أنوار المدنيـة الحديثة . وكـانت الثقافة التركيـة تعمّ المحافل الـرسمية وتستهـوي الطبقة الراقية ، أما الثقافة العربية فكـانت ضيقة الأفق محصورة في نطاق المحافل الدينية . وقد استطاع فتـانا مع ذلك أن يحصل على طـائفة من الكتب الصـادرة في القطرين المصري والسوري وأن يتتبع سيرة دعـاة الاصلاح أمثال جمال الـدين الافغاني ومحمد عبـده وعبد الرحمن الكـواكبي ومحمد رشيد رضا ويغـذي روحه النهمة بـآرائهم وتصانيفهم . وأعلن الدستور في السلطنة العثمانية على أثر انقلاب سنة ١٩٠٨ وانتشرت المبادىء الاصلاحية واللامـركزيـة في ربوع الشام وانتقلـت منها إلى العراق . فكـان أديبنا الشـاب في طليعة الشباب الموصلي الناهض الذي آمن بهذه المبادىء وأشرب حبّ الثقافة العربية الجديدة على بعد الشقة وعسر الاتصال . وقد قام بتدريس التـاريخ والجغرافية بصورة فخرية في مدرسة محمد رؤوف الغـلامي ، واشترك مع فريق من الشعراء منهم داود سليمان الملاح ، وفاضل الصيدلي في نظم أناشيد عربية للأطفال تولّى الغلامي طبعها في كتيّب .

وفي سنة ١٩١٩ شـدّ الرحال إلى سوريـة واستقرّ في حلب أمداً على عهد حكـومتها العربية . ووظف في مجلس إدارة الولاية ومدير التحـرير آنذاك ابراهيم هنانو الذي عرف بمواقفه الوطنية السامية ، وقد رثاه الملاح عند وفاته في سنة ١٩٣٥ بقصيدة مطلعها :

جللـــوا الأرض بـــالســـواد حـــدادا   إن فقـــد الـــزعيم هـــزّ البـــلادا

ولما شدد الفرنسيون سيطرتهم على البلاد السورية وقضوا على حكومتها العربية ضاق محمود الملاح ذرعاً بـوظيفته فعاد إلى الموصل سنة ١٩٢٢ . ولم يلبث أن قـدم بغداد سنة ١٩٢٤ وألقى بهاعصا الترحال. قام في أول الأمر بإعطاء دروس خاصة في اللغة العربية ثم عين رئيساً لكتاب مجلس النواب عند إنشائه في سنة ١٩٢٥ لكنه قضى في هذه الوظيفة أياماً معدودة. وعين بعد ذلك مدرساً في بعض المدارس الأهلية فمدرساً في المدرسة الثانوية الرسمية (١٩٢٥ ــ ٢٨). وعين بعد سنتين معلماً للّغة العربية في المدرسة العسكرية (١٩٣١ ـ ٣٣)، وأصدر جريدة أدبية باسم «التجدّد» (٢٤ تموز ١٩٣٠)، فلم يكتب لها التعمير طويلاً. وانتخب نائباً عن الموصل في كانون الأول ١٩٣٧ ، فلم يطل عهد نيابته سوى أمد قصير، إلى حلّ المجلس في شباط ١٩٣٩ . وقد توفي محمود الملاح في بغداد في ١٩ آذار ١٩٦٩ ، ودفن في الموصل.

عالج محمود الملاح قرض الشعر صبياً. وما إن وفد على بغداد حتى اتصل بمحافلها الأدبية والثقافية ونشر قصائده ومقالاته في مجلاتها وجرائدها . ومن بواكير شعره الذي نظمه في مدينة السلام قصيدته «تمثال مود». فقد شاهد تمثال القائد الانكليزي ولم يكن له سابق عهد بالتماثيل والأنصاب فخاطبه قائلاً :

أتروم في جوّ السماء مطارا ... أم أنت ملتمس لها أخبارا؟
لم نلق حيا طائراً بجواده ... لكنّ ميتاً فوق مهر طارا
فكأنما ضاقت به فسح الفلا ... فأراد في فسح الهواء مغارا

ويقول منها :

يا أيها الشعب الجهول تعلّمن ... من ميّت درس الحياة جهارا
طأطأت رأسك للحوافر بعدما ... طاولت فوق متونها الأقمارا
ما زلت عن وقع الخطا متغافلا ... وكفى بلوغك وقعها إنذارا
وأراك في ذيل الشقا متلفعاً ... فمتى أراك تسابق الأبرارا؟
فيم ادعاؤك للأصول، ولا أرى ... نفعا بوصف الفاكه الأشجارا
يا خابراً من أمتي أعراقها ... أترى الدم الجاري بهنّ معارا؟

ومنها :

الغرب يبني في السماء منازلا ... والشرق يحفر في الثرى آبارا
والغرب في درج العلا متصاعد ... والشرق تحت طباقها يتوارى
جهلوا الطريق ولا دليل مبصر ... فهم ببيداء الحياة حيارى. . .

نشر هذه القصيدة في جريدة «العراق» بتوقيع مستعار فاستحسنها الشاعر محمد

الهاشمي ونقلها في مجلتـه «اليقين» وقدّم لها بتـوطئة كلهـا مدح وإطـراء . ولم تمضِ أيام حتى لقيـه محمود الملاح وأخبره ان القصيـدة لـه ، فقال الهاشمـي : «لقد أثنيت عليهـا لأنني ظنتها للسيد محمد حبيب العبيدي مفتي الموصل» .

لازم محمود الملاح في أثناء إقـامته ببغداد أدباءها وفضلاءهـا وغشي مجالس الزهاوي والرصافي والكرملي وعبد العزيز الثعالبي وفهمي المدرس وطه الراوي وعبد اللطيف ثنيان وياسين الهاشمي ومولود مخلص وعباس العزاوي وأضرابهم وشارك في المناسبات الوطنية والأدبية بشعـره ونثره . ولـه مباحث في اللغة وقـواعدهـا والتاريخ العـربي والاسلامي . واجتمع لـه ديوان ضخم تفـرقت قصائده في الصحف والمجـلات . ونشر رسائل منهـا «الوحـدة الاسلامية بين الأخذ والـردّ (١٩٥١) عبد الباقي العمري (١٩٥٣) ، تـاريخنا القـومـي بين السلب والايجاب (١٩٥٦) ، دقـائق وحقــائق في مقـدمـة ابـن خلـدون (١٩٥٥) نظـره ثانيـة في مقدمـة ابن خلـدون (١٩٥٦) تحذير المسلمين من المتـلاعبين بـالـدين ، تعليقـات وحـواشي على كتاب ابـن سينا (١٩٥٣) حقيقـة إخـوان الصفـا (١٩٥٤) تشريح شرح نهج البـــلاغــة (١٩٥٤) النحلة الاحمديـة ، البابية والبهـائية (١٩٥٥) ، المجيـز على الـــوجيـز (١٩٥٦) ، الآراء الصريحة لبنــاء قـوميــة صحيحـة (١٩٥٦) ، الزرية في القصيدة الأزرية (١٩٥٢) حجّة الخالصي (١٩٥٢) .

وللملاح مطـارحات شعريـة ومداعبات إخـوانية كثيرة مع أصدقـائه وفي مقدمتهم عبـاس العزاوي ومحيي الـدين أبـو الخطاب المحـامي ، وقد سجـل طرفـاً منها المرحـوم ابراهيم الواعظ في كتابه الجامع «الروض الأزهر» .

***

تعرف محمـود الملاح على أثر قـدومه إلى بغداد بـالأب أنستاس مـاري الكرملي ونشر المقالات في مجلة «لغـة العرب» ثم نشب خلاف بينهما في أثناء الاحتفـال بيوبيل الكرملي فلـم يلتقيا بعد ذلك .

ومن طريف ما يـرويه الملاح أن الكرملي تحدث أمامـه ذات يوم عن المآكل والمشارب الطيبـة التي تقدم لـرهبان الـدير وخصّ بـالذكـر النبيذ المعتق الـذي يقدم على مـائدة الطعام ، فتاقت نفس الشاعر إلى مشـاهدة هذا النبيذ وسأل الأب أن يخصه بشيء منه . قال الأب «إن النبيـذ ملك الديـر ولا سبيل إلى إخراج شيء منـه» . وألح الاستاذ الملاح وألحّ في الطلب وقال : «إذا قدم لكم النبيذ على الخوان فصبّ قليلاً منه في قنينة وأحكم سدّهـا وضعها في جيب ثـوبك الفضفاض» . فلم يسع الـراهب إلا أن يمتثل واحتفظ بالقنينة حتى إذا ما جاءه صديقه الشاعر بعـد أيام قدمها إليه قائلاً : « هاك النبيذ المعتق الذي طلبته» .

أخذ الملاح القنينة وأطال النظر إلى السائل الأحمر القاني الذي تحويه وقال : «إذن هذا

هو النبيذ الـذي يسيل له اللعاب ويطرى به الاهاب ويخضلّ الشبـاب» ومضى بالقنينة إلى داره ووضعها على الـرف في بعض الغرف وقـال: «لعلّي أتذوّق هذا الشراب يـوماً». لكنه لم يفعل بل كان كلما دخل الغـرفة نظر إلى القنينة وكـرّر ذلك القول. وفي ذات يوم وجد القنينة قد سقطت على الأرض وكسرت وسال شرابها الثمين. لقد مرّ فأر على الرف فعثر بها، وكذلك كانت نهاية النبيذ المعتق الذي لم يذقه الشاعر.

إنّ الملاح على ألمعيتـه وحدّة ذكـائه كثيراً ما تجوز عليـه الهنات: فمن ذلك أنـه حين استحـدثت مسكـوكـة المائة فلس لأول مرة ظنهـا ريـالاً، فمضى إلى الحلاق وكـان من عادتـه أن ينفحه بمائتي فلـس، فلما فرغ من الحلاقـة سلمه القطعـة الجديدة ذات المائة فلس، فلـم ينبس الرجل ببنت شفة بل شكره بانحناءة إلى الأرض وتبجيل لم يعهده من قبل.

وخطـر له بعـد ذلك أن يتحقق عن قيمـة هـذه القطعة النقـديـة فسأل صبياً عنهـا فأجابه: «إنها مائة فليس، ألا تقرأ الكتابة على وجهها؟» وعجب الملاح من نفسه كيف فاته مثل هذه البداهة.

وحدث مرة أخـرى أنه اكترى سيارة وأراد أن يدفع ١٥٠ فلسـاً إلى السائق. ولم يكن في جيبه إلا ورقة نقدية ذات ربع دينار وقطعة ذات مائة فلس، فدفع إلى السائق القطعة من فئة مائة فلس وسأله أن يستوفي أجرته ويعيد الباقي.

ومن النوادر التي اتفقت للاستاذ الملاح أنـه كان يسكن داراً تطلّ على حديقة الأمة. فلما قرر هـدم هذه الدور والحاق أرضها بـالحديقة، جاءه مأمور التبليغ وطـرق الباب. وكان الوقت عصراً والحر شديداً، فخرج إليه الشاعر في مباذله.

قال المأمور: «أين صاحب الدار؟»

ـ تفضل، أيها السيد، ما تريد؟

ـ لقـد تقرر هـدم البيوت المطلـة على الحديقة فـوراً، فيجب إخـلاء الـدار في أيـام معدودة.

وما أن بوغت الشاعر المنزوي بهذا الكلام حتى صقع وعظم عليه الأمر، فصاح: «سبحان الله، كيف أفرغ داري خلال أيام وأين أذهب...»

لكن المأمور قال بغير اكتراث: لا بـدّ من ذلك، وأرجو أن تتبلغ بالأمـر. ولم يدع له مجالاً للتفكير أو الجواب بل سحب يـده وغمس إبهامه في الحبر وطبع بـه ورقة التبليغ، ثم أخذها وودع وخرج.

قال الشاعـر: «لم يسألني هل أحسن الكتابة، وكان من هول المفـاجأة وشدة وقعها عليّ أني لم يخطر ببالي أن أقول له أإني أعرف التوقيع باسمي».

وقد ذكرتني هذه الحادثة الطريفة بنادرة تنسب إلى اللغوي الاميركي نوح ويبستر صاحب القاموس الشهير الذي أفنى عمره في وضعه. كان يعمل طوال النهار مجهداً فكره وجسمه لإنجاز معجمه، فلما أمسى المساء خرج للترويح عن نفسه وقصد بعض المطاعم لتناول العشاء. ولم تلبث الخادمة أن جاءته بقائمة الطعام، فأخذها ببطء وألقى عليها نظرة كليلة مرهقة ثم أعادها إلى الفتاة وقال: «ألا تختارين لي برأيك شيئاً نفيساً آكله؟».

واختارت له الخادمة ما شاءت من الطعام، فلما فرغ من تناوله وأتت لترفع الصحون، قالت: «هل أعجبك طعامنا؟».

قال: «أجل، أجل، لقد أحسنت الاختيار فشكراً».

فقالت: «لا تنس أن ترسل إلينا أصحابك ممن لا يحسنون القراءة، فأنا كفيلة بخدمتهم وإرضائهم»...

يجمع محمود الملاح في شعره كل خصائص مدرسة النهضة الشعرية الأولى التي حمل لواءها محمود سامي البارودي في مصر وترسّم خطاه شوقي وحافظ والزهاوي والرصافي وأضرابهم. والسمات العامة لهذه المدرسة الاعجاب بالديباجة العباسية والالتزام بالاساليب الفصحى والعمود الشعري الدقيق. ذلك من حيث الاسلوب، أما من حيث المعاني والاغراض فالغالب على شعراء هذه المدرسة النظم في المواضيع الوطنية والاجتماعية والدعوة إلى النهضة والاصلاح والتقدم والتضامن العربي والشرقي والحملة على الاستعمار والاستغلال وتكريم مشاهير الامة ومصلحيها ورثائهم وإحياء أمجاد العرب والاسلام ووصف الطبيعة والمخترعات الحديثة ومباراة القصائد القديمة وطرق المواضيع الاخرى من حكم وقصص وأمثال وغزل ونسيب والاعراب عن المشاعر والعواطف، كل ذلك مع الاهتمام بوحدة القصيدة والتوسع في الأغراض والمطالب وتحري المعاني المنفردة والحكم المأثورة واستلهام آداب الأمم الغربية والشرقية إن رأساً وإن عن طريق الترجمة والاقتباس.

وقد عني الملاح بتلك الأساليب والمواضيع. وتفتحت قريحته بعد قدومه إلى بغداد واتصاله بمحافلها الأدبية والوطنية، فنظم أكثر ما نظم في الوطنيات والسياسيات والاجتماعيات والمراثي وشارك في الندوات والحفلات وأنشد في الموالد النبوية ومواسم المعهد العلمي. وكان صوته ينطلق في كل مناسبة سانحة ينعى على الأمة العربية تشتت كلمتها وتمزّق شملها.

لكن تفرّقنا أودى بعزّتنا ففاتنا في الأنام العزّ والخطر

وهو يدافع عن عروبة فلسطين ويرثي شهداء عالية وينافح عن سيادة العراق وكرامته واستقلال البلاد العربية في المشرق والمغرب ويدعو إلى النهضة والاصلاح

والتمسك بلباب الدين ونبذ القشور والخرافات. وهو يتفجع للانسانية المعذبة المهانة في الحرب العالمية الثانية ويقارع الاستعمار والانتداب ويندّد بالادواء الاجتماعية ويهاجم النواب الذين يستهينون بحقوق الشعب وكرامة الأمة. وهو يرى أن كل ما يهزّ الشاعر يصلح أن يكون موضوعاً للشعر فيستهجن التقليد والمحاكاة والتصنّع ويحبذ إرسال الشعر على طبيعته. ونظراً إلى دراسته اللغوية وإدمانه مطالعة الشعر القديم وحفظه، نراه يهتمّ كل الاهتمام بصقل منظوماته وتجديدها ولا يتورّع عن استعمال الكلمات الفصيحة المهجورة. وهو ينقاد أحياناً لقوافيه، فإذا طاوعته القافية ـ وكثيراً ما تطاوعه ـ توسع في المعنى وكرّر القول حرصاً على استيفاء القوافي المؤاتية، ولذلك جاء معظم منظومه من القصائد المطولات يتبسط فيها تبسطاً ويشعب آفاق الكلام.

إن شعر محمود الملاح يصور عهداً تاريخياً حافلاً من عهود العراق والأمة العربية، وقد ظل يلقي هذا الشعر وينشره قرابة ثلث قرن. وحفلت به صفحات الجرائد والمجلات المعروفة كالعراق والاستقلال والبلاد والاخاء الوطني والزمان واليقين ولغة العرب والحاصد والهداية الاسلامية. واتخذ الرثاء ذريعة لاطراء الشيم واستنهاض الهمم، فممن رثاهم سعد زغلول وعبد المحسن السعدون وشعلان ابو الجون وعمر المختار وابراهيم هنانو وجمال الدين الافغاني والمنفلوطي واحمد تيمور وحافظ ابراهيم واحمد شوقي واحمد زكي وعبد المحسن الكاظمي وعبد المسيح وزير وعبود الكرخي ومحمد أمين العمري ومولود مخلص وعبد الوهاب عزام وغيرهم من رجال الوطنية والسياسة والقلم. انتصر الملاح لفلسطين فقال (سنة ١٩٣٦):

فلسطين، بيّضت وجه العرب ... وقمتِ بحقّ جهاد وجب
لقد هان عندكِ بذل النفوس ... كما هان عندك بذل النّشب
غلاء النفوس بإرخاصها ... وإحياؤها بارتياد العطب
صعيدك من عُصُر خاليات ... يروّى بكلّ دم منكسب
ولا يرجع المجد مثل الدماء ... إلى أمّة مجدها قد سلب...
فلسطين، رجّحت سلّ الحسام ... على شغف بيان الخطب
ولا نفع في خطب صارخات ... إذا لم تؤيد بحد القضب
ولَلسيفُ أخطب من قائم ... على منبر نادباً ينتحب...

وقد دافع عن جميل صدقي الزهاوي أول قدومه إلى بغداد وقبل أن يتعرف بشخصه فقال على لسانه:

سائلي عن أحبّتي وخليلي ... صاح، هلاّ سألت عن مستحيل؟
كنت من غير مازن فاستبيحت ... ابلي بعد شيبتي ونحولي...
إن سئمتم إقامتي سوف لا يسأم ... ذكري مدى الزمان الطويل

فلما مات الزهاوي رثاه بقصيدة فريدة صوّر فيها الشاعر الذي غمط حقه في حياته

ينظر إلى موكب تشييعه الحافل فيعجب ويستغرب :

أطلّ الزهاويّ من نعشه ... فشاهد من حوله محشرا
رأى منظرا لم يكن في الحياة ... يؤمل من جنسه منظرا
كأنّ المناكب من تحته ... غوارب بحر إذا زمجرا
وللقوم همس فهذا يقول ... لقد جلّ ما قطرنا أخسرا
وذاك يقول : « هوى كوكب ... من الأفق من بعد لن يظهرا
فيا أسفاً يذهب الفيلسوف ... ويترك مربعنا مقفرا » . .
جرت خلفه زاخرات الجموع ... فأنشأ يسأل «ماذا جرى»؟
فقالوا : «حييت وقد كنت ميتاً ... فصرت لتقديسنا مظهرا
ورجلك عرجاء كانت فصارت ... بموتك تعرج نحو الذّرى . .

وقال على لسان الشاعر الحكيم :

فماذا يريد الألى أنكروا ... عليّ سلوكي وقالوا : «افترى»
عجبت لمن جاء يبغي الصلاة ... عليّ وبالأمس لي كفّرا

ومن الذكريات التي يرويها الملاح أن الزعيم التونسي عبد العزيز الثعالبي سعى مرة بالصلح بين الشاعرين المتنافسين الزهاوي والرصافي ودعاهما إلى داره لتناول الطعام ، وكان الملاح حاضراً . ولما علم الضيوف أن الثعالبي قد طهى الطعام بنفسه وأحسن طهيه ، قالوا له : «لو لم تكن لك إلا هذه الملكة لاستغنيت بها . . » .

إن شعر الرثاء قد كان في النصف الأول من القرن العشرين في مصر وسورية ولبنان والعراق وسائر الاقطار العربية المنبر المدوّي لروح الوطنية والنهضة السياسية والاجتماعية واللسان المعبّر عن المطامح والأماني السامية . من منّا لم يقرأ آيات الوطنية والنهضة في مراثي اسماعيل صبري وأحمد شوقي وحافظ ابراهيم والزهاوي والرصافي وخليل مطران وعبد المحسن الكاظمي وأحمد محرم وأحمد نسيم وأحمد الكاشف ومحمد عبد المطلب وعلي الجارم وبشارة الخوري ومهدي الجواهري وعباس محمود العقاد وبدوي الجبل وغيرهم من شعراء العربية الملهمين؟ من منّا لم يهتزّ للمراثي التي قيلت في أعلام الوطنية والجهاد من مصطفى كامل ومحمد عبده ومحمد فريد وشهداء العروبة في سورية ولبنان إلى سعد زغلول وعبد المحسن السعدون وابراهيم هنانو ومحمود شكري الآلوسي ومحمد جعفر آل أبي التمن وغيرهم من الزعماء والافذاذ الخالدين؟ ولقد أدلى شاعرنا محمود الملاح بدلوه بين الدلاء فاتخذ الرثاء أداة للتعبير عن طموح الأمة ونهضة الشعب .

قال يرثي السعدون :

فـــوادح خطب سيلهـــا متتـــابع ... وأحـــداث دهـــر كلهـن فـــواجع . . .
سليل العـــلا هـــلاّ التمست ذريعـــة ... ســـوى الموت إذ ســـدّت عليك الـذرائع
وأنّـى لجفـن منك غـضّ على القـــــذا ... غـداة هـوت فـوق الـرؤوس المقـامع
وقـــال لشريـــان يجول بـــه الإبـــا ... لي الـــذمّ إن وقّـــاك منّي مـــانـع
أيجري دم الأمجاد فيـــــك وأمتـــــي ... لقـد قصمت منهـا الظهـور الفظـائع
رأيت اعـوجـاجـاً ظـاهـراً وتلـوّنـاً ... فـلا عضـد لي يـوم الكفـاح يشـايع
فقـــدت مطيعـاً بينهـم لنصـائحي ... ولم يبـق لي إلا المســـدّس طـــائع
زرعـت لآمـــال العـــراق نـــواتها ... إذا أحسنـوا استغـلال مـا أنـا زارع

وقال يرثي عمر المختار بطل برقة الشهيد :

أراهـــا لا تقـــرّ على قـــرار ... زوابـع مـــا فتئـن على مثـــار
تنـــازلنـــا الحوادث في جيـــوش ... تسير على التتـــابع كـــالقطـــار . . .
رويـــد ، رويـــد ، دكتـــاتـور رومـــا ... فكـم كـــرّ يـــؤول إلى فـــرار
وربّ هـــزيمـــة شنعـــاء تبـدو ... لعين الغـــرّ في زي انتصـــار
دمـــاء الأبـــريـــاء إذا تجارت ... بـأسّ الملـك آل إلى انهيـــار
حقـــرتم غـــاريبلـــدي إذ رميتم ... غـــريبلـــدي العـــروبـةبـــاحتقـــار
هما بطـــلان مختلفـــان أصـــلاً ... ومتفقـــان في كـــرم النجـــار
وألقيتـم على الأقـــوام درســـا ... يعـــاف سماعـــه وحش الصحـــاري
فـــلا يفخـــر بقتل العـــزل بـــاغ ... فما في قتـل أعـــزل مـن فخـــار

وقـال في جمال الـدين الافغـاني عنـد نقل رفـاتـه عن طـريق بغـداد في سنـة ١٩٤٤ :

جمال الـــدين كـــان فـــريـــد عصر ... بـــه اعترف المصـــادق والمعـــادي
أتـــوا بـــرفـــاتـــه من ألـف ميل ... تلقـــاه بـــلاد عـن بـــلاد
وحـــاز الفخـــر مـــوطننـــا بحفل ... أقيـم لمصلـح للشرق هـــادى . . .

وقد قدّر الملاح شعر عبود الكرخي وأثره في العوام فقال يرثيه :

من بعـــد عبـــود الكـــرخـي لا تثقن ... بـــالشعـــر غلب ألبـــاب الجماهير
بمنطق لـــو غـــدا حسّـــان يطلبـــه ... مـــا كـان مطلـوبـه يـومـا بميسـور
خير من اللغـــة الفصحـى يشـوّههـــا ... تخليط أجـــوف ذي جهـل وتقصير . . .
سن الخطيئـــة لـــلأخـــلاف سنّتـــه ... لما رأى الفضل شيئـــاً غير مشكـــور
ليس العـــراق بـــريئـــاً من مهـــازل في ... شعـــر لأحمد في النـــوبي كـــافـــور

أمـا هجاؤك عنـدي فهـو أصـدق من مـدح تكلفتـه لم يخل مـن زور
حبّ الصراحـة في الآراء أنطقنـي وللصراحـة ذنب غير مغفـور

إن ديوان محمـود الملاح الذي نـرجو أن يتـاح له النشر روضـة غناء فيهـا من الازهار والاثمار أفانين. فمن قصيدة له يخاطب طاغور:

طـاغـور عـدت إلى مـواطنك التي منهـا خـرجت وكنت عنهـا غـافـلا
أفأنـت لـلاقـرار جئت بحقهـا حتى إذا أقـررت عـدت مـواصـلا؟
عـاودت أصلك والأصـول حقيقـة مـا زلـت مفتـونـاً بها متسـائلا

ومنها:

طـاغـور، وهم النـاس غـال عقـولهم وهـو المصيب من العقـول مقـاتـلا
لا يستطيعـون الحيـاة بـدونـه كـالماء يجري الفلـك فيـه حـافـلا
فلـذاك كـان الـوهـم اكثـر نـاصرا ولـذاك كـان العقـل أكثـر خـاذلا

وله من «خواطر مرتجلة»:

إن الحيـاة اغتراب وفي المـمـات المـآب
فـإنما الـوطـن الأصلي الثـرى والتـراب
وقـد يسمى حيـاة عـن التـراب الغيـاب
كما يسمـى وفـاة إلى التراب الإيـاب
إن الحيـاة لعمـري كما ينـار الثقـاب
نـار بـأيـدي الـريـاح الخمـود والالتهـاب...
كـأنما الأرض كـأس ونحـن فيهـا حبـاب
وكـل مـا حـوت الكـأس للهـلاك شراب

وقال من «خواطر شتى»:

يـأتي على أجسـامنـا أبـد مثـل الـذي قـد مـرّ مـن أزل
سيّـان سـابقنـا ولاحقنـا مـا ثمّ مـن أخـر ولا أول
غـرقى ببحـر لا قـرار لـه إلا الـذي يـأتي مـن الأجـل
ذراتنـا في الكـون سـابحـة في وهـدة طـوراً وفي جبـل
بينـي وبين المشتري صلـة مـا ليس بين النفـس والأمـل

ومن طريف شعره قصيدة عنوانها «لو قدّر للسود أن يسودوا البيض...» يقول منها:

اقتلـوا البيـض ولا تبقـوا رمـق إن لـون البيـض من لـون البهـق
اقتلـوا النـاصل منـه صبغـة فهـو للشيطـان صنـو إذ أبـق
صبغـة الله، ولا أحسـن مـن صبغـة الله تعـالى مـن خلـق

أيها السود انبذوا البيض ولا تأكلوا معهم طعاماً في طبق
لم يكونوا من أبينا آدم إن ما قالوه شيء مختلق . . .
ليس في البيض عقول رجحت كل ما في البيض طيش ونزق

ولقد نقل معروف الرصافي عن قصيدة تركية للشاعر توفيق فكرت فقال :

كلوا يا أيها السادة كما تنكره العادة
كلوا من مطبخ الدستور أكل الساسة القادة
كلوا بالسبعة الأمعاء حتى تنقذوا زاده
كلوا لا تخشوا الناس فإن الناس منقاده . . .

أما شاعرنا الملاح فقال في «مطبخ الوحدة» :

كلوا من مطبخ الوحده ففيه طابت الثرده
كلوا من فاخر الألوان حتى تطفح المعده
كلوا ما فيه من حلوى كلوا ما فيه من زبده
كلوا المطعوم والمشروب والمشموم كالورده
وإن العود محمود لمن يرغب في العوده
ضعوا في الفم والجيب وفي الصرّة والعقده
ولا تصغوا إلى عذل فإن المأكل العمده

ورأى الملاح طغيان الماء في بغداد فقال :

بغداد مشرفة على الغرق والقوم مختلفون في الطبق
لا يخدعوك إذا هم اختلفوا فالقوم كلهم على نسق . . .
لهفي على بلد ذووه شقوا فيه غداة بخاذليه شقي
لم يسق من ماء الحياة وان هو من دماء الثائرين سقي
أما القصور فليس ضائرها تيار نهر مشرف العنق
سكنت إلى الأيام واثقة بوعودهن غداة قلن : ثقي
بين الرياض تلوح زاهية مثل الكواكب لحن في غسق
قلبي يرفّ إذ أشاهدها مخضوبة الشرفات بالشفق

وأشفق من النفط فقال في «المارد الأسود» :

ضللت حتى صرت لا أهتدي | وطال تسهيدي عن السّهد
ولم يطل سهدي إلا على | قوم على ضيم به رقّد
فبدّدت أحلامي الغرّ في | شعب إلى أحلامه مخلد
واعترضتني في الورى جنّة | بعد النّهى من مارد أسود
فياله أسود أزرى بنا | وصيّر الأحرار كالأعبد
قد كان موطوءاً بأقدامنا | حتى اعتلى مرتبة السيّد
تالله ما كافور في مصره | حاز الذي للنفط من سؤدد
إن جار كافور فعذر له | غربته في الأصل والمحتد
وعبدنا جار على أهله | لما خلوا من ناصح مرشد. . .
لم تنكب الأوطان في مرفق | نكبتها في المرفق الأوحد

وقال في قسوة الناس وحقارتهم:

لعن الله قسوة الإنس، إنّ | الانس من جنّها أحقّ بلعنِ
مقتوا الشيطان الرجيم ولو قيس | بأعمالهم لباء بغبن
إن يكن خارجاً على الله إبليس | فهم خارجون، لكن بفنّ
حارب الله من وراء مجنّ | وهم حاربوه دون مِجَنّ
يفترون الهراء وجهاً لوجه | ويقولون حكمة غير ظنّ
كان صلباً في ظنّه حين ضحّى، | مثبتاً رأيه، بجنّة عَدْن
وهمُ إن رأوا يضحّون بالرأي | إذا أتحفوا بلعقة دهن

وقال مداعباً في كلب سيّدة:

يا كلب سيّدة، حسبتك سيّدا | لما قعدت من المليحة مقعدا
لو لم يكن إلاّ يد من غادة | تحنو عليك بلطفها لكفت يدا
نلت المنى من غير قصد للمنى | كم غافل في القصد نال المقصدا
السرّ كل السرّ في الذنب الذي | أيقنت تحريكاً له أنّى بدا
لا تكترث ما دمت تحمل سرّه | إن كنت أبيض منظراً أو أسودا
ذنب ثمين لست منه مبدّلاً | ذنباً لطاووس يضاهي عسجدا
هل أنت منه مبدّل، وهو الذي | جعل النعيم عليك وقفاً مرصدا؟
لو أنّ زنديقاً بعيشك راتع | ما كان خالقه الكريم ليجحدا

وقال في سنة ١٩٢٩ يدافع عن حقوق البلاد :

حتّـام تهضم للبـلاد حقـوق ... ويهينها من ولـدهنّ عقـوق
عجبـاً لشعب واجم لعـواصف ... والصخـر إن مـرّت بـه منطيق
الشعب مهضـوم الحقـوق وسـاكن ... في الـرمس كلّ في البـلاء شقيق
هـذا يضيق بـه الطـريق إذا مشى ... ذلاً وذاك بـه اللحـود تضيق

ومنها :

لـو أن طغيـانـا تحمّلـه الثـرى ... صبرت على حكم الطغـاة «فـروق»
تـرف واسراف بمثلهما هـوت ... من قبل ذا الـرومـان والاغـريق
مـا جمّعـوه من دمـوع بـوائس ... في كل مـوبقـة لـه تفـريق
بين الجوانح شعلـة مشبـوبـة ... إنّي لأخشى أن يشبّ حـريق

وقد لازمت الملاح ثلاثين عاماً أو يزيد، ونعمت بصداقته ومودّته، وأفدت من أدبه وفضله. وكان لي معه مطارحات شعرية ومراسلات أدبية ومساجلات اخوانية كثيرة لا تزال ذكراها تثير القريحة وترهف الفكر وتنعش الروح.

كان للملاح هرّ يعنى به ويطعمه حتى هرب ذات يوم بلا وداع. وأعرب الشاعر عن أسفه لفراقه، فأرسلت إليه بالأبيات الآتية :

قـد كـان يـؤنسنـا هـرّ ونـؤنسـه ... في وحشـة الـدار بين الصبح والغَسَقِ
يأتي فنطعمـه من زادنـا، فنـرى ... فنّـاً عجيبـاً من الألعـاب والملَق
لكن مضى لم يـودّعنـا بـلا سبب ... مخلّفـاً حسرة بـانـت على الحدق
لقـد محضنـاه وداً يـوم مقـدمـه، ... فيـا لـه آبقـاً مستهجَنَ الخُلُق
إنّ الطبيعـة نـادت فـاستجـاب لها، ... وراح يسرح حـراً في ذُرَى الطـرق

وتذاكرنا يوماً في الكتب القديمة وما ضاع منها فنسي الحاج خليفة كاتب جلبي وكتابه الفذّ «كشف الظنون»، فقلت له :

عجبـاً لمثلـك عـالمـاً ... جمّ المعـارف والفنـون
تنسى أريبـاً فـاضـلا ... وكتـابـه كشف الظنـون
للترك يُنْمَى أصلـه ... والعـرب فـازت بـالثمين
قـد شـاد صرحـاً سـامقـاً ... للعلـم والأدب الـرصين
لـو أنّ «عبّـاسـاً» درى ... لاستـاء من ظلم وهُـونِ
واحتـجّ غضبـانـاً على ... إنكـار ذي الفضل المبين

والاشارة إلى صديقنا المؤرخ عباس العزاوي. وقد أجابني الملاح بأبيات يعرّض فيها بالعزاوي، منها:

أسباب ذلك أن عبّاساً غزانا بالمجون
فتشتّت أفكارنا حتى حكت مسحوق طين...
لا تغترر بتظاهر إذ عندنا كلّ اليقين

حين حلّ محمود الملاح في بغداد أشير عليه بالانتماء إلى مدرسة الحقوق كما فعل الكثيرون من صحبه وأبناء بلده، فقال إنه لا يحمل الشهادة الثانوية الرسمية. لكن سمح له ولأمثاله من أصحاب الدراسة الخاصة أن ينتموا إلى الصف الأول على أن يؤدوا بعد ذلك امتحاناً في المواضيع العامة موازياً لامتحان الدراسة الاعدادية.

داوم الملاح في مدرسة الحقوق أشهراً، ثم عين موعد الامتحان العام، ووجهت إلى الطلاب الذين لا يحملون الشهادة الثانوية أسئلة في الرياضيات والطبيعيات واللغة ومواضيع أخرى، وكان منها أسئلة في العروض. وقد سرّ الشاعر الملاح بهذا السؤال بوجه خاص لبعد عهده بالمواضيع العلمية والحسابية، وهنأ نفسه سلفاً مؤملاً أن يحمل إلى النجاح على موجة سعيدة من بحور الخليل. لكن كل الطلاب الذين شاركوه في الامتحان أو جلهم لم يجيبوا على أسئلة العروض، فتقرر آخر الأمر اهمالها وإسقاط درجاتها من متوسط النجاح العام. فخاب أمل شاعرنا، وكان ذلك آخر عهده بدراسة الحقوق.

نثر محمود الملاح:

كان الجمود فاشياً في عهد نشأة محمود الملّاح، وكان الكتّاب يلتزمون بالسجع غير مكترثين بأسلوب الترسّل الواضح المؤدّي للمعنى. ووجد الملاح نفسه صعوبة في التخلّص من ذلك الأسلوب العقيم، فقال في ذلك في كتابه «نظرة ثانية في مقدمة ابن خلدون»:

«ومن الغريب أن الأدباء درجوا على السجع حتى عصرنا الذي أدركناه ولم يحدّث أحد نفسه باطّراح هذه البدعة. ولعلّ لابن خلدون الفضل في اطّراح كتّاب العصر الحاضر لها.

وكنت أنا من أواخر من نهج نهجه بعد قراءتي وصيّته في المقدّمة وأنا في عهد التحصيل. وعانيت في الانتقال من طبيعة إلى طبيعة صعوبة حتى أنّي جشّمت نفسي حفظ النثر المرسل للتخلص من السجع! وأتذكر أني حفظت قسماً من كليلة ودمنة... وكنت أعكف على المقدّمة لذلك، وكانت الكتب البليغة النثر عسرة التحصيل.

«وطبيعة السجع التي كانت فيّ لم تأتني من قبل حفظ كلام مسجّع، كلا، فإني لم أحفظ كلاماً مسجّعاً قطّ. ولكني أسمع كلاماً مسجّعاً وأطالع في كتب مسجعة كمقامات الحريري ومقامات البديع ونهج البلاغة، فينطبع في ذهني السجع، ولا يزال فيّ أثر منه!»

وكان محمود الملاح معجباً بابن خلدون، وقد قال:

«إنّ مقدمة ابن خلدون فتح في الفكر الاسلامي يشبه الفتح الأمويّ في التاريخ الاسلامي، وكلاهما آية من آيات الاسلام». وكان ابن خلدون يلي الكتابة والسفارة والأعمال لأمراء المغرب والأندلس في دويلاتهم المتصارعة فيما بينها، ثم اعتزل أربعةأعوام في قلعة ابن سلامة متخلّياً عن الشواغل ألف في أثنائها مقدمته الشهيرة.

قال الملاّح: «ولولا مطاردة ابن خلدون لحرمنا أثمن ما أنتجه المخّ العربي. فإذا ذكرت ضروب الاضطهاد، فحيّهلا بالضرب الذي عاناه ابن خلدون!».

ومن نثره الرائق مقالته «القطوب بعد الابتسام» التي نشرها في صحيفة البلاد (١٤ كانون الثاني ١٩٣٠)، قال فيها:

ما من ابتسامة إلاّ في عقبها قطوب.

كذلك كانت ابتسامة المغيب، إذ هي أشبه بصحوة المحتضر. هنالك قطعت صلاتي بكل ما كان يطيف بي من شواغل «القهوة» (المقهى) وضوضائها وتكلّفت شبه غفوة نفرّغت فيها لمشاهدة طيوف الماضي معروضة على رقوق الخيال، وهي محفوفة بالحلك شأن السّينما.

فثارت حينئذٍ ذكريات «العروبة» ومجدها الرافل ببرده على ضفاف الرافدين، حيث الراية السوداء سواد مقلة الأيام وسويداء فؤاد الدهر، فعنّ لبالي بيت من قصيدة نظمتها في عهد التّرك، ثم غالها غول التجسّس، وهي:

ما زالت الأيام تبكي دولة كانت سواد عيونها سوّادها

أما أنه لو نطقت هذه الأمواج، أو لو ترجمنا لغة خريرها التي تشبه غمغمة السياسة أو لغة الدواوين، لغمرتنا بالقصص ولحدّثتنا بواقعة الجسر وواقعة القادسية من أيامنا البيض وأخبار هولاكو وأحاديث تيمور من أيامنا السود.

نعم، لو ألحفنا على هذا الماء واستجوبناه استجواب متّهم لاعترف لنا بالجرم الذي اقترفه أو كان عوناً على اقترافه يوم ألقيت في قعره كتب المستنصرية وأسفار النظامية، فانطوى عليها انطواء القمطر. ويوم تحرّى أخوال المأمون... أخاه ابن زبيدة بالحرّاقات التي أنفذها طاهر بن الحسين كما يتحرّى السمك هؤلاء الذين أراهم الآن يمخرون دجلة بزوارقهم...

ثم شخصت ببصري إلى الأفق الغربيّ لأعاتب الغرب على جفائه لأخيه الشرق جفاء المأمون للأمين، وإن كنت لا أملك من وسائل عتابه إلا أضعفها، وهي هذه القصبة التي هو منّ بها عليّ! لكن قطع على نظري الطريق منظر حدائق النخيل المسطورة على هامش الشاطىء الغربي، إذ كان لون لمهما أشبه ببقايا الخضاب في لمم الكواعب. فهاج ذلك المنظر ذكرى الصقالبة يوم كانوا خولاً للعرب يتخلّلون بنواصيهم الشقراء حدائق الخلفاء.

ثم رجعت إلى نفسي وقلت: هل أذاقنا الموت الأحمر إلا الافتتان بذيّاك الشعر الأشقر الذي خلب الألباب فأضعف إرادتها؟ وهل ثلّ عروش الملوك إلاّ الاندفاع وراء الشهوات واتخاذ الأباعد ركائب لاقتناص شواردها حتى يصبحوا شبحاً في حلق أهل البلاد الذين بنيت العروش على سواعدهم؟ كذلك نفض العبّاسيون أيديهم من العرب، فنفضت العرب أيديها منهم، فكان نفضها نقضاً، وما بين النفض والنقض إلاّ نقطة!

ها هي ذي ملكة النهار تزفّ لترسب في قعر الظلمات كما كانت الفتاة المصرية تزفّ لترسب في قعر النيل. وصورة زفافها أن يحاك لها إكليل من الغمام مبرقش بالحمرة والصّفرة والزرقة، ثم يقام على جمّة تسرحها الرياح فلا تتركها ثابتة على قرار، كأنها تحاول أن تستوعب عامة «الموضات» وتجرّب جميع الأوضاع، فهي حائرة في الاعتماد على واحد منها. وللغواني أحلام وأماني لا يضبط منتشرها ولا يضطلع بتحديدها إلا بياض الكفن أو بياض الهرم.

وهناك ثارت رفاف من أطيار النهار متراجعة إلى أوكارها فأحدثت في الفضاء شبه الخيلان، وقامت على أثرها رفاف من أطيار الليل التي لا تطيق النظر إلى بهجة الكون إلاّ في بهمة الحندس. أطيار ليلها النهار ونهارها الليل، وشروقها الغروب وغروبها الشروق، وأصيلها الفجر وفجرها الأصيل، بحيث لو كانت بشراً لاحتاجت إلى الشمس التي تخيّلها المتنبّي في مدح «الأسود» ولما استغنت عن مصابيح من الظلمة. وغاصت الغزالة ولم يبق منها إلا غدائر طافية تلكأت عن الرسوب وارتكم الدم في وجنتها حين شدّ عليها الخناق، فانبسط جانب من لونه على حاشية الأفق. وعلى أثر خمود تلك الشعلة الكبرى من العالم الأكبر، خمدت شعلة الفكر من العالم الأصغر وعرا نشوتي فتور اضطرني إلى التقهقر بفلول آمالي . . .

محمود الملاح:

سألت محمود الملاح يوماً لمَ لا يجمع شعره ويسعى إلى طبعه؟

فقال: إنني بيّضت شعري منذ أعوام طويلة، لكنني أخاف معاودة النظر فيه. فكلما وقع بيدي شيء من شعري السالف صرت على غير إرادة مني أضيف إليه

وأصحّح فيه وأسقط منه حتى عييت وقررت أن أتركه وشأنه .

وجاءني بمجموعة شعره فنقلت منه ما شئت في جلسات متعدّدة .

استملاك دار الملاح :

لاستملاك دار الملاح قصة طريفة لا بأس من روايتها بعد أن استأثرت رحمة الله ببطليها . فقد قررت أمانة العاصمة منح الملاح بدل استملاك قدره ثلاثة آلاف دينار، فاستقلّه وجاء في المساء إلى المحامي عباس العزاوي في المقهى الذي اعتاد الجلوس فيه على شاطىء دجلة وشكا له قلّة التعويض .

قال العزاوي : الأمر هيّن ، ويمكنك الاعتراض لدى المحكمة .

ـ ولكنني لا أعرف ما يجب أن أعمله .

ـ تعال غداً إلى دار المحاكم واعمل وكالة باسمي ، وأنا أقوم بما يلزم .

ـ وكم تتقاضى أجرة أتعابك؟

ـ نحن أصدقاء العمر، ولن أتقاضى منك فلساً واحداً في سبيل رفع الغبن الذي وقع عليك .

ـ وماذا تفعل إذا وكلتك رسمياً؟

ـ هناك إجراءات معلومة : فإنني أعترض على البدل ، فيعيّن الحاكم خبراء يمثلونك ويمثلون أمانة العاصمة ويقوم وإياهم بالكشف على الدار، ثم يقرّر البدل المناسب .

وكذلك كان . وجاء الملاح بعد أيام يسأل العزاوي عن سير القضية فطمأنه وأعلمه أنها سائرة على وجهها الصحيح .

قال الملاح :

ـ إذا رفع البدل إلى خمسة آلاف دينار فإنني أعطيك أجراً كبيراً .

ـ قلت لك إنني أفعل ما أفعله لأجل صداقتنا ولا أرغب في تقاضي أيّ أجر.

وجاء الملاح في اليوم التالي وقال :

ـ إذا رفع البدل إلى ثمانية آلاف فإنني أمنحك الأجر الذي تطلبه .

ـ ولكنني قلت لك مراراً إنني لا أطمع في الأجر!

وظلّ الملاح يزيد كلّ يوم في بدل الاستملاك الذي يرجو الحكم له به ويعد صديقه العزاوي بأجر عظيم، حتى كانت عشيّة البتّ في القضية . فجاء إلى المقهى وقال :

ـ إذا رفعت المحكمة البدل إلى خمسة عشر ألف دينار فإنني آتي بالمبلغ جميعه إليك لتتقاضى منه ما تشاء! .

قال العزاوي: لا أدري ما ستقرّر المحكمة ولكنني أكرّر القول إنني لا أطمع في أجر ولا مثوبة.

وذهب الحاكم والخبراء في اليوم الثاني إلى الدار المستملكة وسأل الحاكم ممثل أمانة العاصمة عن البدل فقال: لقد تقرّر تعويض صاحب الدار بمبلغ ثلاثة آلاف دينار، وهو بدل مناسب إذا أخذنا بنظر الاعتبار حالة البناء والموقع...

ثم سأل الحاكم ممثل محمود الملاح عن رأيه، وكان ذكيّاً، فقال:

أنا لا أعرف الأرقام المجملة ولكنني أدري أن المتر المربع الواحد في هذه المنطقة من بغداد لا يباع بأقلّ من مائة دينار بصرف النظر عن البناء.

فصاح ممثل أمانة العاصمة معترضاً: ماذا تقول؟ مائة دينار؟ إنك لا تجد مشترياً بثمانين ديناراً.

فقال ممثل الملاح: إنني أوافق على ثمانين ديناراً.

وتمت الموافقة على ذلك، ولما حسب التعويض على هذا الأساس بلغ البدل ثلاثة وعشرين ألف دينار قبضها الملاح صكاً على المصرف وهو لا يكاد يصدّق عينيه.

قبض الملاح المبلغ ومضى إلى داره وأرسل إلى العزاوي أبياتاً يقول فيها: لقد وكلتك محامياً عني فماذا فعلت؟ إن الفضل يعود إلى الخبير اللبق الذي عرف من أين تؤكل الكتف.

وغضب العزاوي غضباً شديداً وقال: إنني فعلت ما فعلت واخترت الخبير وسرت في الاجراءات القانونية بدافع الصداقة ولم أطمع في الأجر. ولكن صاحبنا يقبض أضعاف ما حلم به، ثم يبخل عليّ بالشكر، ويجازيني بشعر يبخس من حقي ويغضّ من شأني. والله لأعلّمنه درساً لن ينساه أبداً واتقاضاه أجراً مضاعفاً.

واشتدّت الجفوة بين الملاح والعزاوي الذي هدّد برفع الأمر إلى القضاء، فقلت له: لا تفعل، يا أبا فاضل، واترك الأمر لي.

قال: لا أرضى بأقلّ من ألف دينار.

ومضيت إلى الملاح وعاتبته وقلت له: لو كنت قد مدحت صديقنا بشعر أشدت فيه بذكره وأطريت فضله لما وقع ما وقع.

قال: لقد كانت دعابة ولم أقصد شيئاً، وهو لا يرضى بأي أجر.

قلت: أما الآن فهو يريد الأجر ولا يتنازل عنه.

وبعد مكالمة ومساومة فصلت مقدار الأجر بخمسمائة دينار قبضتها من الملاح ودفعتها إلى العزاوي، فعادت مياه الصداقة بينهما إلى مجراها.

حدثني محمود الملاح قال: كنت كاتباً للنفوس في ولاية الموصل في أواخر عهد الاستبداد الحميدي. وكان السلطان يحرص ألا يشاركه أحد في لقبه، فالويل لمن يجرأ أن يكتب اسمه (سلطان) ولو سمّاه به أبواه عند الولادة. وكان هؤلاء ـ وهم كثر في الموصل ـ يكتبون اسمهم (سلتان) بالتاء ويتجنّبون حرف الطاء.

قال الملاح: وكان عملي أن أكتب الأسماء في سجل النفوس الأساسي، وهو سجل يحظر فيه الحك والشطب. ولذلك كنت أملأ المعلومات في حقوله بدقة شديدة وخط واضح خوفاً من حصول خطأ. فإذا حضر رجل اسمه (سلطان) لتسجيل أحواله المدنية، ترك مميز الدائرة أعماله ووقف على رأسي يراقب الأمر بنفسه خوف الزلل وسوء العاقبة، فيشير عليّ بأخذ الأهبة والعناية، ويقول لي: احذر الغلط، يا ولدي. اكتب (سلتان) بالتاء لا بالطاء، أفهمت؟ ويكرّر ذلك مثني أو ثلاثاً، حتى إذا ما خططت اسم الرجل انحنى على السجل ورأى الرسم صحيحاً فربت على كتفي وقال: آفرين، يا ولدي، أحسنت.

وكانت هذه الرواية تتكرر كلما جاءنا «سلطان» لتسجيل نفسه.

محمود الملاح في حلب:

حدثني محمود الملاح قال: كنت كاتباً في مجلس إدارة ولاية حلب بعد نهاية الحرب العظمى، وكان مدير التحرير ابراهيم هنانو، وكانت حلب تابعة للحكومة الفيصلية في الشام. ولم يمض أمد طويل حتى احتلّ الفرنسيون سورية وأخرجوا الملك فيصلاً منها (١٩٢٠)، فظلّ مجلس الادارة يعمل تحت إمرة الحاكم الفرنسي.

وكان التنافس شديداً في المدينة بين المسلمين والأرمن. وجاءت في هذه الأثناء امرأة أرمنية بعريضة إلى مجلس الادارة تطلب اعتناق الدين الاسلامي، وقد فهمنا أنها أقدمت على هذه الخطوة رغبة منها في التخلص من زوجها الذي كان يسيء معاملتها. وجاء زوجها الأرمني، وكان فظاً غليظاً، فأخذ يتوعد المجلس واعضاءه وموظفيه ويهدّد باستنزال نقمة الفرنسيين عليهم إذا هم ساعدوا امرأته على الدخول في الدين الاسلامي والتخلص من ربقة زوجها.

وكان المجلس يميل إلى قبول اسلام المرأة، لكنه كان يحسب حساباً للحكام الفرنسيين وموقفهم المعروف من الأمر. وفي هذه الأثناء اتصل الرجل بشيخ مسلم من المعمّمين وطلب إليه حلّ مشكلته ودفع له الأجر بسخاء. فقال المعمّم: أتريد أن تحتفظ بزوجتك؟

ـ نعم.

ـ إذن فاطلب أنت أيضاً اعتناق الدين الاسلامي، وعند ذلك تبقى المرأة في عصمتك إذا قبل اسلامها.

ولم تجد المرأة المسكينة بدأ من الاحتفاظ بدينها والعودة إلى منزل الزوجية .

الموصل في أواخر القرن التاسع عشر:

كانت الموصل في أواخر القرن التاسع عشر تشكو العزلة والخمول والانحطاط الاقتصادي ، وتعاني فقراً مدقعاً يعزّ على الوصف . حدثني محمود الملاح أن الرجل كان يسير في السوق فيرى بصقة على الأرض ، وانه ليحدّق فيها ملياً لعلها تكون متليكاً يهمّ بالتقاطه ، والمتليك أدنى قطع النقد العثمانية .

وجاء أحد أمراء ايران لزيارة الموصل ، فحار الوالي التركي كيف يستقبله بما يليق بمنزلة الدولة . وكان الجند يلبسون الملابس البلدية ذات الأشكال والألوان المتباينة ، فقرّر الوالي بعد التفكير واعمال الرأي شراء قماش خشن من نسج الجبل وصبغه بالنيل ، فعمل منه بزّات رسمية لعشرة أو بضعة عشر جندياً توحيداً لزيّهم ، لتحيّة «الشاهزادة» عند قدومه . وظلّ هذا النفر من الجند بملابسه الخشنة المصبوغة مضرب المثل في الموصل عهداً غير قصير!

وكان الناس لا يعرفون الشاي شراباً . ومن ذكريات الملاح عن طفولته أن جدّه أصيب بالمرض ، فجيء له بالشاي دواءً . وقال الجدّ : أعطوا شيئاً من الشاي إلى هذا الطفل ليذوقه ، فلما أشربوه منه مجّ طعمه وأخذ بالبكاء .

محمود الملاح :

حدثني محمود الملاح أنهم كانوا ثلاثة يدرسون على الشيخ عبد الله النعمة ، هو وضياء يونس وشيت خطاب ، وقد اتصلت بينهم المودة فصاروا لا ينقطعون بعضهم عن بعض نهاراً ولا مساءً . ولم يتزوج الملاح ، ولم ينجب ضياء يونس ولداً ، أما شيت خطاب فتزوج وأنجب ولدين سمّى أولهما باسم محمود الملاح ، وهو محمود شيت خطاب صاحب المؤلفات العسكرية واللواء في الجيش العراقي والوزير في العهد الجمهوري . وسمّى ثانيهما باسم ضياء يونس ، فكان ضياء شيت خطاب الذي أصبح رئيساً لديوان التدوين القانوني ونائب رئيس محكمة التمييز ورئيسها بعد ذلك .

حدثني محمود الملاح أنه حين أنشئت الحياة النيابية في العراق سنة ١٩٢٥ ، عيّن صديقه ضياء يونس سكرتيراً لمجلس الأعيان . وتوسط له لدى رئيس الوزراء ياسين الهاشمي فعيّن الملاح رئيساً لكتاب مجلس النواب براتب ٢٥٠ روبية شهرياً .

قال : داومت في الدار التي قرّر اتخاذها مقراً للمجلس النيابي قبل افتتاحه ، وكان العمال والنجارون منهمكين في تنظيم قاعة الاجتماع ومقاعدها لاعدادها لحفلة الافتتاح . وكنت أنا وسائر الموظفين المعيّنين واقفين نشرف على العمل ونصدر التعليمات

بشأن إتمامه . فجاء رجل معمّم باللباس الأهلي ووقف يراقب عملنا ، ثم صار ينتقد العمل ويصدر الايعازات والتوجيهات ، فقلت له : يا أسطَى ، ما شأنك في الأمر؟ ورجوته أن يخرج ، فلم يفه ببنت شفة .

فقال لي أحد الفراشين : خفّف من غلوائك ، إنك تكلم الحاج عبد المحسن شلاش وزير المالية السابق . فخجلت ومضيت بعيداً .

ثم افتتح المجلس وانتخب رشيد عالي الكيلاني رئيساً ، فلم يقرّ التعيينات السابقة ، بل أصدر أوامره بتعيين موظفين جدد . وتلقيت أمراً بتعييني كاتباً براتب ١٥٠ روبية ، فغضبت وانقطعت عن الدوام . وقد نصحني أصدقائي بقبول هذه الوظيفة ، فلم أفعل . ومرّ أسبوع أو أسبوعان فاعتبرت مستقيلاً وأنهيت خدمتي قبل بدئها .

محمّد حسن أبو المحاسن

الشاعر الوطني ووزير المعارف العراقية الشيخ محمد حسن بن الشيخ حمادي بن مهدي آل محسن الحائري ، من قبيلة آل علي . تسكن أسرته في قرية جناجة بجوار الهندية في لواء الحلة وتنحدر من ابراهيم بن مالك الأشتر . وقد ولد في كربلاء سنة ١٨٧٦ وطلب العلم في مسقط رأسه ودرس علوم العربية والدين على يد محمد حسين الشهرستاني وكاظم الهرّ وغيرهما . وامتاز بشعره الجزل الرقيق ، وآمن في شبابه بالمبادىء الاسلامية وناصر الخلافة العثمانية حامية الاسلام ونظم في ذلك القصائد الكثيرة . وكان له اطلاع على الشعر الفارسي . ولما اختلّ نظام الحكم التركي في الحلّة خلال الحرب العظمى ، خرج من كربلاء بأسرته إلى قرية جناجة وأقام فيها ردحاً من الزمن .

ونشبت الثورة العراقية سنة ١٩٢٠ وتولّى زمام الأمور في مدينة كربلاء الزعيم الشيخ محمد تقي الشيرازي ، فعهد إلى مترجمنا برئاسة المجلس الملّي والحكومة الوقتية ، حتى إذا ما خبا أوار الثورة سجن في الهندية ، ثم أطلق سراحه في آخر أيار ١٩٢١ .

وعيّن وزيراً للمعارف في وزارة جعفر العسكري (٣ كانون الأول ١٩٢٣) ، وقد استقال في ٢٧ ايار ١٩٢٤ . وانزوى في قريته جناجة حيث وافاه الأجل في ٢٤ حزيران ١٩٢٦ . وطبع ديوان شعره سنة ١٩٦٤ بإشراف الشاعر الخطيب الشيخ محمد علي اليعقوبي .

شعره :

اشتهر أبو المحاسن بشعره الاسلامي والوطني ، فقد سجّل أحداث التاريخ العثماني بعد إعلان الدستور سنة ١٩٠٨ منتصراً للدولة العليّة التي كانت تجمع شمل الاسلام وتدافع عن حماه . ومما قاله يخاطب الدين الاسلامي ويشيد ببيض أياديه :

لك الشرف الباقي، وإن رغم العدى — أبى الله إلا أن يدوم مخلّدا
تردّيت بالمجد الأثيل، وما لهم — إذا اجتذبوا ذاك الرداء سوى الرّدى
وما أنت إلا الشمس في الأرض ما لها — غنى عن سواها فهي تطلع سرمدا
وما لنظام الكون غيرك كافل — لك الله فاسلم كي نعيش ونسعدا
نشرت لواء العدل في كل بلدة — وساويت فيها بالمسود المسوّدا..

وقال في رثاء محمود شوكت باشا بطل الانقلاب العثماني:

بكى الشرق، يا خير الصدور الأعاظم — عليك بمنهلّ الدموع السّواجم
نعيت إليه فاستهالت ربوعه — مصاباً ومادت أرضه بالمآتم..

ومنها:

ألم يكشف الكرب الذي ضيّق الفضا — على أمة باتت بقبضة ظالم؟
فشيّد صرح العدل مذ هدّ سيفه — على «يلدز» الشمّاء صرح المظالم

ومن شعره الوطني:

يا أيها الوطن العزيز لك الهنا — قد نلت أشرف بغية ومراد
سيعيد تاريخ العلى لك نفسه — ويعود مجد رجالك الأمجاد
أبناء يعرب يطلبون تراثهم — إنّ البنين أحقّ بالأجداد
لا يقنعون من الفخار بتالد — ما لم يضيفوا طارفاً لتلاد

حتى يقول:

فمتى تؤلّف وحدة عربيّة — وطنيّة الاصدار والإيراد
ليس العراق بموطني هو وحده — فبلاد قومي كلّهن بلادي

وقال يفتخر بقومه:

بقومي أسمو راقياً شرف العلى — وأسطو بهم يوم الوغى وأصول
هم القوم أما عزّهم فمشيّد — تليد وأما مجدهم فأثيل
شمائل كالروض الأريض تضوّعت — بطيب شذاه شمأل وقبول

وقال في مدح النبيّ الأمين:

وأشرقت أنجم التوحيد محدقة — منه ببدر هدىً يجلو دجى الظلم
نبوّة حاولوا إخفاءها فبدت: — إن الشموس سناها غير منكتم
كأن شرعته ضوء النهار جلت — من الضلالة ليلاً حالك العتم
من صفو أخلاقه سلسال كوثره — جرى بصفو معين سائغ شبم

وقال في السجن :

أنـا والنجم كـلانـا سـاهـر — غير أني مفـرد بـالشّجـن
لا أبـالي، والمعـالي غـايتي، — وصل أشجـاني وهجـر الـوسن
في سبيـل المجـد منّـا أنفس — رخصـت وهـي غـوالي الثمن
ليس غير الشعب واستقـلالـه — ليَ شغـل فهـو أضحـى ديـدني
نحـن للعليـاء والعليـا لنـا — لـو أقـالتنـا صروف الـزمن
عُـرِفَ المعـروف والعـدل بنـا — ولنـا تـأسيس تلـك السُّنن

ولأبي المحاسن غـزل لطيف على الطريقة القـديمة، كقصيدته «شجـو الغرام» التي يقول فيها :

أجـدّك هل لي مـن هـواك مجير — فـأيسر شجـوي لـوعـة وزفير
أسـامـر في ليـل التمام نجـومـه — وكـل شجـيّ للنجـوم سمير
وقـد منعـوا طيف الخيـال، فـلا الكرى — يلـمّ ولا طيـف الحبيـب يـزور. .
ولما وقفنـا للـوداع بـذي النّقى — نعـرّض بـالشكـوى لهم ونشير
وفي القلب مـن بـرح الصّبـابـة لاعج — لـه بين أثنـاء الضّلـوع سعير
وقـد أشرقت للنـاظـريـن طـوالعـاً — بـدور لها فـوق الحدوج سفـور
جـرت لمراعـاة النّظير مـدامعي — نجـومـاً فـلاحت أنجم وبـدور. .

ومن رقيق شعره الوجداني :

لعلّ النّـوى تـدنـو فيجتمـع الشّمل — فـلا عيش إلا من وصـالك لي يحلـو
فـدىً لك نفسي، كيفما شئـت فـاحتكم — فمثلـك لا يُسْلَى ومثليَ لا يسلـو
ومـا أنـا إلاّ عـاشـق قـد تقـاسمت — هـواه المعـالي الغـرّ والحدق النّجل
ومـا اختلفـت سبل الهوى غير أنني — أواصل نهجـاً فيـه تـأتلف السُّبْـلُ
معـاني جمالٍ غيرمـا افتتنـوا بـه — فـلا حـور العينين منـه ولا الكحل

وقصيدته «الربيع النّاضر» من أمثلة الوصف البارع الجميل :

بـوركـت يـا زمن الـربيـع النّـاضر — مـا أنت إلا بهجـة للنـاظـر
أقبلت يـا ملك البسيطـة رافـلاً — بمطـارف الحسن السّنـيّ البـاهـر
رجّعـت لـلأرض الموات حيـاتها — وكسـوتها بُـرد الشبـاب الـزّاهـر
فتضـوّعـت أزهـار كـلّ خميلـة — تجزيـك بـالنّعماء حمد الشـاكـر
نطق الحمام عن الـريـاض بشكـرهـا — فـاسمع ثنـاءك مـن غنـاء الطـائر
ضحكت ثغـور الأرض فهـي بـواسم — مهما بكت عين السحـاب الماطـر

خطــــر النّسيم الغـضّ يحمل نفحــــةً مسكيّــــة فيهـــا ارتيـــــاح الخاطـــــر
والشمس صـــاغت بـالشعـــاع سبائكــاً يجلـــو النّضـــار بها جميـل منـــاظـــــر
وجــــــرى لجين الماء فيــــــه فحلّيت أشجـــــاره بمعـــــاضــــد وأســــاور

ومن شعره الغزليّ:

مـــــــا تثنّـى الغصـن إلاّ وصفـــــا لـكِ قـــــدّاً وقــــوامــــاً أهيفـــــا
يطـــــــرب الغصن إذا شبّهتــــــــه بـكِ حتـى ينثنـي منعطفـــــــــــا
وســــــلاف الـــــــراح في نشـــــوتها تصف الثغـــــر وتحلـــو مـــرشفـــا
أرضـــــاب الثغـــــر أم مشمـــــولـــة قـــد جـــرت في لـؤلـــؤ قـــد رصفـــا
فيـــه للظـــامي شفـــــاء من جـــوى لـــــو رأى الظـــامـي سبيـــلاً للشُّفَـــا
ومهــــــاة غـــــادرت ألحاظهـــــــا مهجـــــة الصبّ المعنّى هـــــدفـــا
إن مشت هـــــزّت قنـــــاة صعــــدة أو رنت سلّـت حســـامــــاً مـــرهفـــا
مـــا ثنـــاهـــا السّكــر، لكنّ الصّبــا من نعيـم قـــد سقـــاهـــا قـــرقفـــا
صفـــــة الحسن بها قـــــد أغـــــريـت فـــزهت حسنـــــاً وفـــاقت شرفـــا

كان لأبي المحاسن مطارحات شعرية مع رجال عصره كرضا الاصفهاني وعبد المهدي الحافظ وهـادي عبـاس آل كـاشف الغطاء وعبـد المطلب الحلي وجـواد الشبيبي وعبـد الحسين الحويـزي وغيرهم. ومن طـرائفه التي رواهـا محمـد علي اليعقـوبي أبيات قـالها يداعب الشيخ علي الأسدي الذي أناف على التسعين:

أمعمّــــــراً عمــــر النســــور، إلى متى تبقـى وأنـت الميت في الأحيــــــــاء؟
حـدّث، فـلا حـرج، حـديث جـذيمـة مــــا كـــان قصّتــــه مع الـــزّبـــاء؟
وعن البســــوس ومـــاضيـــات حـــروبها حــــدّث فإنّـك حـــاضر الهيجــــاء

قال سلمان هـادي آل طعمة: وكـان الشاعـر صلب الرأي، سـامي الخلق، واسع الخيـال، مرهف الاحسـاس، . ويمتـاز شعـره بحرارة العـاطفـة وصدق التعبير ورقـة الشعور.

قال وهو سجين في الحلّة:

أنـاجـز جيش الخطب، والخطب فـادح، يكــــافحني طـــوراً وطــــوراً أكــــافح
إذا كلّ عـــزم القـــوم أو طـــاش حلمهم فعــــزمي مسنـــــون وحلمي راجـح
فيثبت قلبـي والقلـــــوب مَـــرُوعــــة ويشرق وجهي والـــوجـــوه كــــوالح
وقـد نصحـوا لي بـالخضـوع إلى العـدى ومـــا كـلّ من يهدي لك النصح نـــاصح

فقلت: معاذ الله أن يستذلّني عدوّ، فغيري للدنيّة جانح
وأهون عندي أن أمدّ لهم يداً تصافحهم أن تختلبها الصفائح

من قصيدة له يطالب بالاستقلال في أثناء ثورة سنة ١٩٢٠ :

وثق العراق بزاهر استقلاله والشعب متّفق على استقلاله
أضحى يؤمّل نيل أشرف غاية، يا ربّ، أوصله مدى آماله
فله إلى التحرير، وهو حبيبه، نظر المشُوق المستهام الواله
قد أطلق العاني وفكّ إساره فإلى مَ يبقى وهو في أغلاله؟
وردت شعوب الارض باستقلالها عذب الرجاء ورُوّيَتْ بزلاله
أفيحرم الشعب العراقيّ المنى، والشيء محمول على أمثاله؟
فازوا بنيل حقوقهم، وحقوقه بضمان أهليه وعزم رجاله
إن يُعْطَ واجب حقه فلحقّه أولا فمفزعة إلى أبطاله...

وقال من قصيدة يرثي الامام محمد تقي الشيرازي :

يا غلّة الأحشاء غاض المورد، يا أزمة الأيام غاب المنجد
لا نجدة للمستغيث ولا روى يشفي غليل حُشاشة تتوقّد
قلّ الغرار فلا فم لخطابة عند الخطوب ولا حسام ولا يد
بكر النعيّ وقال: قد أودى التقى ومضى إمام المسلمين الأوحد
ومنها: إن كان قد أودى التقيّ محمد فلقد أصيب به النبيّ محمّد
يا آية الله المقدّسة التي أمست إليه بها الملائك تصعد
غادرتنا والخطب داج ليله واليوم من صبغ الحوادث أسود
فمن المُدافع والاسنّة شرّعٌ والبيض تبرق والمدافع ترعد؟
الشرق، يا شمس الهداية مظلم، مذ غاب عنه ضياؤك المتوقد
لو لم تعاجلك المنيّة لانجلى عنه سحاب المغرب المتلبّد

أحمد الصافي النجفي

إن سيرة هذا الشاعر إنما هي شعره :

وهـو أحمد بن علي بن صافي من أسرة نجفيـة يتصل نسبهـا بالامـام موسى الكـاظم وكانت تعرف بآل السيـد عبد العزيز الذي نزل النجف ، وهـو الجدّ السادس للشاعر. أما جـده لأمه فهو الشيخ محمـد حسين الكاظمي من آل معتوق في صـور. وولد أحمد في النجف سنة ١٨٩٦ ، وتـوفي والده بوبـاء الهيضة وعمـر صبيّنا ١١ سنة ، فكفلـه أخوه الاكبر محمد رضا .

قال أمين الريحاني في كتابه «قلب العراق» إن هذا الشاعر رأى نور الشمس «يوم كان الحسن الخَلْقي والصحـة والنعمة تتنـزه كلها في الكـون الأعلى ، فما رمقته بنظـرة ساعـة الولادة ولا دنت بعد ذلك من ملعبه أو من رحله أو من كوخه . . انه لطير غريب يحسن الطيران والغناء ولا يحسن سواهما . . . » وقد قال الصافي :

أسـيـر بجسم مشبـهـه جسم ميّت كأني إذا أمشي بـه حـامـل نعشي

ولما بلغ الخامسة من عمره أدخل الكتّاب ، فتعلّم القرآن والخطّ وشيئاً من الحساب .

وقد قال في ترجمة مخطوطة لنفسه كتبها سنة ١٩٣٦ :

«وما كـدت أتجاوز العقد الأول من عمـري حتى نكبت بفقد والـدي بمرض الـوباء الذي اجتـاح العراق يـومئذٍ وتـرك في كل دار مناحـة ، ولا سيما في بلدة النجـف . وقد كانت الصدمة شديدة على نفسي ، وما زلت حتـى اليوم أتمثل ذكراها الفظيعة وحوادثها المؤلمة ، ولا أنفكّ حتى اليوم أشعر بهولها .

فكفلني أخي الاكبر، وكان بالرغم من عطفه عليّ ، قاسياً في معاملتي ، ضاغطاً على حرّيتي ، مقيّداً لي تقييداً يكاد يكون استعباداً أو استعماراً ! . . . »

وحين بلغ الثالثة عشرة أخذ يدرس قواعد اللغة والمنطق وعلم الكلام والمعاني والبيان والاصول وشيئـاً من الفقه على أساتـذة منهم الشيخ محمد حسن المظفـر والسيد حسين الحمّامي والسيد علي اليزدي ، ثم حضر دروساً على السيد أبي الحسن الاصفهاني والشيخ مهدي الخالصي .

وكان منـذ الطفولة ضعيف البنيـة ، ميالاً إلى الكسل والتأمّل ، فلم يحتمل مـواصلة الدرس الذي زاد في مرضه العصبيّ . ثم توفيت والـدته سنة ١٩١٢ ، فاشتدّ عليه الداء ومنعه الأطباء من الانكباب على الدرس ، فانصرف إلى المطالعة ومراجعة الشعر والأدب وتصفح الكتب العصرية والمجلات كالمقتطف والهلال .

وكان أقرب كتاب إلى نفسه ـ كما يقول ـ لزوميّات المعرّي، ومن الذين أثروا في تفكيره في تلك الحقبة محمد رضا الشبيبي وعلي الشرقي.

وفي سنة ١٩١٦ ترك النجف مع رفيقه محمد علي كمال الدين قاصدين البصرة للعمل فيها، فاخترقا خطوط الحرب ووصلا إلى البصرة، لكن لم يجدا فيها شغلاً يمسك رمقهما.

وذهبا إلى المحمّرة (خرّمشهر) في ايران، فخلع الصافي البزّة الدينية وارتدى لباس العمّال وشرع يبحث عن عمل، وانتقل لتلك الغاية إلى عبّادان والكويت. . . وكتب عن هذا الدور من حياته فقال:

«ثم إني سافرت بعد ذاك إلى عبّادان لاشتغل عاملاً فيها فلم أوفّق. فتوجهت إلى الكويت في سفينة شراعية ورمت الاشتغال فيها بأحد المخازن، فلم يقبلوني مما اضطرّني أن أكون بنّاءً طيلة يوم كامل وقعت في انتهائه ميتاً من شدة التعب، فذهبت قبل أن أستلم الأجرة. ولما رأيت عدم استعدادي لهذه المهنة الشاقة، سافرت إلى بندر بوشهر المرفأ الفارسي، وكانت رحى الحرب إذ ذاك دائرة بين القبائل الفارسية والانكليزية بتحريض القائد الالماني «وسموس» الذي كان قبل الحرب قنصل الحكومة الالمانية في شيراز. فلم أتمكن من الوصول إلى قرب بوشهر إلا بمشقّة تعرّضت أثناءها إلى الغرق في الخليج الفارسي (العربي)، لولا صندوق شاي كان معنا في الزورق، فطفا على سطح الماء وتعلقت به فكان سبب إنقاذي.

«ومن هناك سافرت مشياً على الاقدام مع قافلة تجارية قاصداً شيراز، فوصلت بعد اثني عشر يوماً قطعناها في الجبال والطرق الوعرة إلى بلدة فيروز آباد موطن الفيروز آبادي المشهور صاحب المعجم العربي المعروف بالقاموس المحيط. وهناك أصبت بالتيفوئيد، فانفردت عن القافلة. وقد تعرّف إليّ المجتهد المرحوم الامام السيد عبد الحسين اللاري الذي كان تلميذاً لجدّي المرحوم الشيخ محمد حسين الكاظمي، ولولا عنايته بي لقضى عليّ التيفوئيد. وبعد إبلالي من المرض سافرت إلى بندر عباس، ومنها قفلت راجعاً إلى النجف الأشرف بعد مفارقتها تسعة أشهر، كانت خلالها قد انقطعت أخباري عن أهلي. وقبل وصولي إلى النجف بشهرين كانت بغداد قد سقطت بيد الجيش الانكليزي. . .»

بدأ الصافي بنظم الشعر. وقد سمع بأنباء ثورة الحجاز التي رفع لواءها الشريف حسين، فكانت باكورة نظمه قصيدتين في مدح الشريف وتحية الأمة العربية الثائرة. ثم شارك في الثورة الوطنية التي شبّ أوارها سنة ١٩٢٠، فسجن اخوه الاكبر محمد رضا الصافي، وهيّىء لشاعرنا أن فرّ إلى طهران عن طريق الكوت وجبل حلوان.

عكف الصافي على دراسة اللغة الفارسية وعمل مدرساً لـلأدب العربي في المدارس الثانـوية. وترك التدريس بعـد سنتين، واشتغل بالترجمة والتحريـر في امّهات صحف طهران كجريدة «شفق سرخ» وغيرها. وأكبّ على مطالعة الادب الفارسي، فقرأ المثنوي ديـوان جلال الـدين الرومي وربـاعيّات الخيـام ودواوين حافظ والمنـوجهري وسعـدي والشعـر المعاصر. وتعـرّف بشعـراء ايـران أمثال بهار ملـك الشعراء وحيـدر علي كمالي وجلال المالك وعارف القزويني والشاعـر عشقي الذي ذهب ضحية قصيدة حمل فيها على رضا شاه بهلـوي. واختير بعد ذلك عضواً في النادي الأدبي، وقـام بترجمة رباعيّات الخيام، ولم ينقطع في تلك الاثناء عن مطالعة الادب العربي قديمه وحديثه.

ثم انخـرط في سلك مـوظفي الحكـومـة الايـرانيـة مترجماً بـوزارة المعـارف، فنقل إلى الفارسية كتاب علم النفس لعلي الجارم ومصطفى أمين. وعاد إلى بغداد بعد ثمانية أعوام قضـاها في ايـران (١٩٢٨)، فاتّصل بمحـافلها الأدبيـة وصادق الـزهاوي وسـواه من الشعراء. ورشحتـه الحكومـة العراقية قـاضياً شرعيـاً في الناصريـة، لكن المرض عاوده بسبب المناخ واشتدّت عليه وطأته.

وأشار عليه الأطبـاء بالنزوح إلى سورية، فبـارح العراق إلى دمشق سنة ١٩٣٠، ولم يستطع ـ كما قال ـ وبالرغم عن وصيّـة الطبيب الابتعاد عن الاشغال الفكرية، فأخذت صحته بالتأخـر وعانى جملة أمراض منها تضخم الكبـد وضعف القلب ومرض الكلية والتهاب الحنجرة وضعف الأعصاب!

لقـد هيىء للصافي أن يتغلّب على جميع تلك الأمـراض، وقد أنـاف على السبعين. وعـاش متنقلاً بين ربـوع سوريـة ولبنـان. ولما احتلّ الانكليز بيروت في خـلال الحرب العالمية الثانية اعتقلوه وأودعوه السجن (١٩٤١)، فلبث في غيابته شهراً ونصف شهر، وخرج منه بديوان شعر أسماه «حصاد السجن».

وكانت حيـاته بعد ذلك تقتصر على كلمة واحـدة، هي الشعر الذي واصل قـرضه وأخرج دواوينه في تتابع وانسجام.

مؤلفاته:

دواوين شعـره: الأمواج (١٩٣٢) أشعّـة ملوّنـة (١٩٣٨) الأغوار (١٩٤٤) التيّـار (١٩٤٦) ألحان اللّهيب (١٩٤٨) هـواجـس (١٩٤٩) حصـاد السجن (١٩٥١) شرر (١٩٥٢) اللفحات (١٩٥٨) الشلال (١٩٦٢) شباب السبعين (١٩٦٧) ثمالة الكأس (١٩٧١).

ولـه عـدا ذلك: ربـاعيات الخيـام (تـرجمة شعـريـة (١٩٣١)، هزل وجـدّ (نثـر، ١٩٣٧).

شعره :

الصافي شاعر أصيل انصرف إلى الشعر وعاش له وعرف به، حتى قال :

لي في الشعـــر عـــالم مستقلّ   أنــافيــه فــرد بــدون خــلاف

لم أشـــارك غيري لأنّي ربّ   واحــد لا شريك لي في القــوافي

وقال :

سمــوت بشعـري فـوق جيلي، ولم يـزل   يشـكّ بشعــري معشر البلهـــاء

فإن لم أكـن في أمـة الشعـر واحـداً،   أكـن أمّــة أعلى مـن الشعـــراء!

وقد آثر الحرية والانطلاق من القيود فقال :

يــروم زيــارتي عشّــاق شعــري   فــــلا يجدون لي في الأرض دارا

تــراني كــالنّسيم أطــوف حــراً   فلست، ولا النّسيم، نــرى قــرارا

فــزوروني بـأنفــاس الخزامى   وزوروني بــآهــات العــذارى

وقـــد آوي لقلب أخي غـــرام   وأصعــد منــه أنّــات حيــارى

وعاف المجاملة والتقاليد الاجتماعية :

أفـــرّ مـن النّـــوادي زاخـــرات   بألـــوان المجـــاملـــة الـــوضيعـــة

وآوي للحقـــــول طليـق نفس   فلستُ مجامـــلاً إلاّ الطبيعـــة

أرهفت حسّه الأمراض التي ركبت بدنه وأضنت جسمه، فقال :

لقـد عـدت أمـراضــاً أحـار بعـدّهـا   ومن ذا يطيـق العـدّ للـــرّمـل والنّمل؟

يقـــولـــون لي : مـــاذا بجسمك مـــؤلم؟   أقلـب، أرأس؟ قلت : يـــؤلمني كلّي

وداهمته الخُطوب وهدّته المصائب فأوحت إليه أرقّ الشعر وأروعه :

سأشكـــر للـــدهــر الخؤون خطـــوبـــه   وإن كـدت منهـا أفقـد الـرشـد والصبرا

فإن خطـــوب الـــدهـــر أذكت بصيرتي   وإن خطـوب الـدهـر أوحـت لي الشعـرا

وكم مـن مصـــاب حـلّ بي فحسبتـــه   سيفقـــدني روحـي ويسكنني القبرا

فما زال يغلي فيّ حتـى تفجّـــــرت   ينـــابيع شعـــري منــه وانــدفقت نهرا

ولكنــــه نهر من النّـــار ســـائل   تشـــور بــــه أمـــواجـــه شعـــلاً حمرا . .

وهل عجب بعد ذلك أن يكون شاعراً إنسانياً يتفجّر قريضه رحمة وحناناً وأن يتّخذ مـواضيع شعره أبنـاء الشعب الكادّيـن الكادحين والفقـراء البائسين من بـائع الحصير والأعمى والمسلول والسّائل القروي إلى راعي الغنـم والبلهاء والشحّاذ. . . وإنه ليأسى لحال صبّاغ الأحـذية، والشـاعر وحذاؤه عـدوّان للصّبغ والاناقة، فـلا يرده خـائباً مع ذلك :

جـــاء يـــومـــاً إليّ صبّـــاغ نَعلٍ وبنعلي صبـغ مـن الأيــــــــــام
مــــرّ دهـــر عليـــه لم يَـــرَ صبغـــاً غير صبـغ الغبـــــار والأقـــــدام
وكستـــه أشعّـــة الشمس لـــونـــاً صـــار منـــه كقطعـــة مـن رغـــام
جـاء نحــوي من بعـد مـا طـاف يـومـاً دون ربـح غير العنـــا والسقـــام
جـــاء نحـــوي يـــروم صبغ حـــذائي وأنـــا للصبـــاغ أعـــدى الأنـــام
أنـــا خصم الألـــوان تخفـي عيـــوبـاً إنّ عنـــدي الألـــوان كـــالأوهـــام
رمـت رداً لـــــه فلم يـــــرضَ قلبـي ردّه خـــــــائب المنـــى والمرام
قلـت: أحبـــــــوه درهمـاً، غير أني خفـتُ من أن يُـــــذلّـــه إكـــرامـي
قلـت: فـــــاصبغ لي الحذاء بصبـغٍ فيـــه أغـــدو مثـل الـــذّوات العظـــام
فغـــــدا يصبغ الحذاء بحـــــذقٍ مبـــــديـــــاً فيــــــه كلّ فـنّ تمام
ثـم بـــــادرتـــــه بما ضـمّ جيبـي مـن نقـــودٍ أعـــددتها لطعـــامـي
فمضـى هـــــائنـــــاً ورحـت كـأني ثمـل بـــالسّخـــاء لا بـــالمدام

إن هذه المقطـوعة مثال الشعر الفطـريّ الأصيل الذي لا تكلف فيه ولا صنـاعة ولا إغراب، ينساب كالجدول الرائق: يصف حذاء الشاعر الذي كسته الأيام لون التراب، ثم يلتفت إلى الصبّاغ المسكين وقـد أخطأه التوفيق وفاتـه الرزق سحابة يـومه، فيهمّ أن يردّه فلا ترضى عاطفته الانسانية، ويهمّ أن يمنحـه صدقة فيخاف أن يهينه ويذلّه. فلا يكون منه إلا أن يدعوه إلى صبغ حذائه ويمنحه أجرة عمله النقود التي هيأها لطعامه.

وقد عظمت رحمة الشاعر وفاض حنانه حتى شملا الحيوان بعد الانسان، فقال:

لـــو يعلم الحيـــوان مـــا عنـــدي لــــه مـــــــن رحمة لأتـــــــى إليّ مسلّما
ولأصبحت كـل الـــوحـــوش أليفـــة عنـــــدي وخـــــالتني أبـــاً أو أرحما

وقصيـدته «على طـريق بيروت» مأسـاة تهزّ النفس وتثير في أعماقهـا أسمى المشاعـر وأشدّهـا ألماً ووجداً. فلئن كان الشـاعر الفـرنسيّ ألفرد دي فنيي يصف لنا في قصيـدته «موت الـذئب» تسامي الـوحش وأداءه للواجب بصمـت وسكون وزهده بعـد ذلك في الحياة، إنّ شاعرنا الصافي ليصف لنا «موت الكلب» ويحيط فاجعته بإطار إنسانيّ حزين من الشعور الدافق والوفاء النبيل والـرحمة التي تنفذ إلى صميم القلب البشري. لقد كان الشاعر مسافراً في سيارة تقطع الفلاة مثل الفيل الذي تشع عيناه في دجى الليل:

فـــلاح على الطـــريق لنـــا مشـــاة يــــــــؤلـف بينهـم نسـب وحـبّ
أب شيـــــخ وطفـــــل دون سبـــــعٍ وأمّ زان منهـــــا الـــــرأس شَيْـبُ
ورابعهـــم، كـــأهـــل الكهـــف، كلـبٌ يلـــــوح كأنـــــه في الشكـل ذئب
يسير بجنبهـــم يحمــــي حماهُـــمْ وفي عينيـــــــــــه نيران تشـبّ

ويحدّق الكلب في السيارة فيهجم عليها ويوسعها نباحاً، وقد ظنها وحشاً غريباً يريد سوءاً بالقافلة التي يحرسها، فينتقم السائق القاسي منه بأن يسحقه ويقتله ظلماً وعدواناً.

ويمضي الشاعر في وصف المأساة فيقول:

فظلّ الكلب يرفس رفس موتٍ ... عظام حطّمت وانشقّ قلب
تفجّع أهله فبكوا عليه ... بدمع ملؤه ألم وكرب
وجاء الطفل يبغي ضمّ كلب ... له معه هَوىً ماضٍ ولعب
لقد نشآ معاً والكلب جرو ... وليس عليه سنّ الطفل يربو
يداعبه ويؤنسه بقفز ... وذاك الطفل فوق الأرض يحبو
رأى دمه فصبّ عليه دمعاً ... وصاح وصوته نَوْح ونَدْبُ
وظلّ يروم مسح الترب عنه ... وللدم منه فوق الأرض سكب
يحاول حمله حيناً فيعيا ... ويبغي أن يسير به فيكبو
ويلثمه لينعشه بلثمٍ ... كأنّ اللّثم للمجروح طِبّ

حتى يقول:

تركناهم، وفي قلبي شجون، ... ولم يأبه معي للأمر صحب
فثرت على الأنام لقتل كلبٍ ... وصرت كأنني للكلّ حرب
وقلت: بأيّ ذنب أوردوه ... رداه، وهل دفاع الكلب ذنب؟
بكيتُ وللسماء رفعت رأسي ... وقلت: أما لهذا الكلب ربُّ!

وفي قصيدته «ذكرى سمكة» يذكر جلوسه على ضفاف العاصي فيرى الأسماك تنأى وتدنو من الشاطىء وكأنها جائعات، ويلقي إليها بفتات الخبز طعاماً. وإذا بالصياد قد جاء يرمي شصّه، وقد كمن فيه الموت لهذه المخلوقات الضعيفة:

أنا أطعمتها لتحيا وقومي ... أطعموها لتجرع الموت مرّا
ثم لم يكفهم نفاق وغدر ... فرأوا رحمتي جنوناً مضرّا
إن يكُ الرّفق بالضعيف جنوناً ... فأنا أعظم المجانين طرّا

وبلغ من حنان الصافي ورأفته أن شمل النمل فرعى هذا المخلوق الصغير بعطفه وقال:

تضايق كأس الشاي عندي نملة ... لها ولع بالحلو يجذبها قسرا
وأخجل من طردي لها إذ أخالها ... تقول: أما أوحيتُ قبلُ لك الشعرا؟
تقبّلتها لي في الحياة شريكة، ... لها السكّر المحبوب أنثره نثرا
فتحمل منّي للثقوب ذخيرةً، ... وإن لم أكن في العيش متّخذاً ذخرا

وقديماً قيل عن الشاعر الفرنسيّ لافونتين (١٦٢١ ــ ١٦٩٥) أنه أحبّ الحيوانات وعرضها في أمثاله وقصصه التي سحرت أجيالاً متعاقبة من الصغار والكبار. وقد شوهد مراراً مكبّاً يراقب النمل في عمله الدائب ونظامه العجيب حتى نسي نفسه ساعات طويلة وسها عن مواعيد الطعام.

إنّ الصافي النجفيّ شاعر روحيّ عرف الله بوجدانه وسما اليه بايمانه، قال:

راح يقـــــوى على المَدَى إيماني — فبربّي قـــد امتـــلا وجـــداني
قيـل لي: هل عـــرفتــه بـــدليـل — أو بحسّ شهــدتــه أو عيـــان؟
قلـت: كـــلا، ايمان قلبـي أقـــوى — مـن دعـــاوى الحواسّ والبرهـــان
واضـح لي وضــــوح روحـي وعقلي — مـــائـل في مـــداركـي ككيـــاني
هـــو رمـــز الـــوجـــود، سرّ التجلّي — هـــو روح الأكـــوان معنى المعـاني

وقد نظر إلى الوجود بعين البشر فاستهجن قبحه ودمامته، ورآه بعين الاله فأبصر بهاءه وسناه:

نظــــرت الـــوجـــود بعين البشر — فـــلاح الـــوجـــود قبيح الصّـــور
ولما نظـــــرت بعين الإلـــــــه — إليـــه بـــدا لي بـــوجـــهٍ أغـــر

ولا بدع بعد ذلك أن يصيح: اللّه أكبر!

أفكـــر بـــالتّفـــاسف في الحيـــاة — وأحسبهـــا حقـــائق راهنـــات
فيقطـع لي ســـلاسـل تـــرّهـــاتي — صيـــــاح مـــــؤذن: الله أكبر
وأضرب ســـادراً بين الهمـــــوم — وأسعـى للـــــوصــــول إلى النعيم
فيـــدعـــوني إلى النهج القـــويـم — هتـــــاف مـــــؤذّن: الله أكبر
وأفني في الـــرقـــاد ثمين عمـــري — كـأني ميّت في جـــــــوف قبر
فيـــوقظني لأحشر كـلّ فجـــر — صيـــــاح مـــــؤذنٍ: الله أكبر
ونـأخـــذ في أحـــاديث شتـــات — ونبقـى بين هـــاك وبين هـــاتِ
فأسمـع صـــوت حيّ على الصـــلاة — فأنهض صـــائحـــاً: الله أكبر

لقد عرف الصافي الغربة البدنية والروحية فجرع غصص الأولى وهفا إلى مغاني الثانية. نزح عن وطنه فقال:

حتّى مَ أقضي ثمين العمـــر مغتربـــاً — كـأنني ليس لي مثل الـــورى وطـنُ؟
فمـن رآني أطـــوي الأرض منتقــلاً — يقــول: مـا ليَ لا أهـل ولا سَكَنُ...
لم يـــرضَ بي وطني، لم يـــرض بي وطنٌ — فهل تُـــرى يـــرتضيني القَبر والكفن؟

وحنّ إلى الوطن المجهول فهتف قائلاً:

أبغي أسافر، لا إلى جهة ... كأنني عن وجودي أبتغي السَّفرا
فكم قصدت جهات ما لها عدد ... فما بلغت بها قصداً ولا وطرا
فلا الإقامة في الأوطان تسعدني ... ولا التغرّب يجلو عنّيَ الكدرا
أنّى جلستُ رأيت النفس في قلق ... يثيرها فتعاف الصّحب والسّمرا
وأين سرت رأيت القلب منقبضاً ... والعين في كل شيء تبغض النّظرا
كأنني باحث في الكون عن وطنٍ ... به شغفت ولم أعرف له أثرا
لم ألْقَهُ وأنا حيّ وبي رمق، ... فهل سألقاه لما أغتدي خبرا؟

إنّ هذه الابيات المفعمة بالضياع والحيرة والحنين لتذكّرنا بقصيدة شارل بودلير: الدعوة إلى السفر، ففي هذه القصيدة يتحدث شاعر «أزهار الشرّ» عن عالم بعيد يتمنّى أن يعيش فيه، عالم زاخر بالحبّ والموت، عالم يغشاه النظام والجمال والترف والهدوء والهيام اللاّهب، عالم تظلله الشموس المبلّلة والسموات المضطربة، يسحر الشاعر بفتنة خفية كعيني حبيبته الخائنتين اللامعتين خلال الدموع.

بل تذكرنا هذه الابيات بقصيدة «السفر»، وهي من قصائد بودلير ايضاً، يتشوّق فيها إلى وطن مجهول ويقول: إن المسافرين الحقيقيين هم اولئك الذين يذهبون لأجل الذهاب فحسب، قلوبهم خفيفة، يستجيبون لنداء القدر الذي يدعوهم دون أن يتساءلوا عن السبب ويصيحون:

هيّا ولنذهب! . . ويقول الشاعر الفرنسي: إن العالم لصغير وانه ليجري على وتيرة واحدة ولا يعكس إلا صورتنا كواحة من الهول في صحراء الملل والسّآمة. ثم يختتم قصيدته داعياً الموت، ذلك الربّان القديم، ليعد سفينته ويرفع قلوعه، فلئن كانت السماء والبحر متشحين بالسواد القاتم، إن قلوبنا، نحن المسافرين، مغمورة بأشعة النور البهية تترقب المجهول لتجد فيه الجديد الذي تتطلّع اليه!

وللصافي بعد ذلك ألوان شتى من الشعر، وطني واجتماعي ووصفي وغزليّ. وله شعر خفيف يتّسم بالحلاوة والدعابة والسخرية، كقصيدته «حسناء تسوق سيارة حسناء»:

وغانية فاقت على جيلها ... وحق قرآني وانجيلها
ساقت (أو تمبيلاً) رقيقاً لها ... يجري رُخاءً وفق مأمولها
كأنه الطيف إذا ما سرى ... في ساحر المقلة مكحولها
ألطف ما قد صيغ من جيله ... فيه التي ألطف من جيلها
آخر (موديل) جمال كما ... (موديله) حلو كموديلها
نشوان من نفحة أردانها ... يختال إذ خصّ بتفضيلها

أضحى مليكـــاً بين أتـــرابـــه متـــوّجـــاً منهـــا بإكليلهـــا
أحيتـــه فهـي الـــروح حلّت بـــه بلمس كفيّهـــا ومنـــديلهـــا
مـــرّت كما مـــرّت بنـــا نعمـــة من عـــاطـــر الأزهـــار مطلـــولها
تعلّـق القلـب بها فـــاغتـــدى يحوم كـــالطير لتقبيلهـــا
أهـــوى ركـــوبـــاً ليَ في جنبهـــا أو لا فـــدهســـاً بـــاتـــومبيلهـــا

ومن ذلك بيتان قالهما في معرض دمشق الدولي:

ومليحـــةٍ جـــاءت لمعـــرض جلّقٍ تخفي منـــاظـــره بمنظـــرهـــا الـــوَضِي
هي مـــا أتت كيما تشـــاهـــد معـــرضـــاً: جـــاءت لتعـــرض حسنهـــا في المعـــرض

قال من قصيدة حين خصصت له الحكـومة العراقية راتباً تقاعدياً شهـرياً قدره مائة دينار:

ليس مـــالي فضـــة أو ذهبـــاً، مـــاليَ الفكـــر الـــذي عـــزّ نظيرا
مـــاليَ الخير الـــذي أعملـــه، مـــالي السعي الـــذي يـــرضي الضميرا
مـــاليَ النـــور الـــذي أرسلـــه يبـــدل الظلمـــة في الأفكـــار نـــورا
مـــاليَ الـــوحي الـــذي يلهمني، مـــالي الشعـــر الـــذي يحيي الشعـــورا
لم يغير خلقـــــــي أو سيرتي عـــــارض المال وإن كـــان وفيرا
أعشق الـــزهـــد صريحاً فكـــرتي، أعشق الكـــوخ ولا أهـــوى القصـــورا
أعشـق العيش بسيطـــاً هـــادئاً، أشتهـي الارض مهـــاداً لا السّريـــرا
كـم هـــويت الصخـــر لي متكـأً وافترشت الصخـــر لا الفـــرش الـــوثيرا

سجنه الانكليـز عند دخـولهم إلى لبنان سنـة ١٩٤١ بعد دحـرهم سلطات فيشي، فقال:

حبست وضـــاق الحبس بي حين زُجَّ بي إلى غـــرفـــة ظلماء محكمـــة الســـدّ
فقلت: عـــلام الحبس؟ لا أنـــا ســـارق ولا آثـم عمـــداً ولا دونها عمـــد
ولما رأيت الـــذنب خـــدمـــة مـــوطني حـــلا السجن حتى خلتـــه جنّـــة الخلـــد

وقال في أحداث لبنان التي جرح فيها (١٩٧٥):

بين الـرصـاص نفـذت ضمـن معـارك، فبرغم أنـف الموت هـــا أنـــا ســـالمُ
ولها ثقـــوب في جـــداري خمســـة وقـــد أخطأت جسمـي وهنّ عـــلائم

وصف أمين الريحاني الصافي في كتابه «قلب العراق» فقال إنه تنقل من كوخ إلى كوخ ومن بلد إلى بلد، وكـان يدعى عجمياً في النجف وعربيـاً في بلاد العجم. ثم راح يقيم بين البدو فظنّـوه من الحضر، وجـاء سورية فظنـه أهلها من البـدو. ثم قـال: إنه لطير

عجيب غريب يحسن الطيران والغناء ولا يحسن سواهما. وهو. . . وليد برج النحوس، فالدمامـة أمه والسقم أبوه والبؤس أخوه. . . أما الروح منـه فهي سليمة قوية، بل هي روح جبّارة في هيكل سقيم:

أســـــير بجسم مشبـــــه جسم ميّت　　　كـأني إذا أمشي بـــــه حـــــامل نعشي

من آخر ما نظمه احمد الصافي بيتان على لسان السياسي اللبناني صائب سلام على أثر بلوغه السبعين (١٩٧٥)، قال:

سنّي بـــــروحي لا بعـــــدّ سنين　　　فـــــلأسخـــــرنّ غـــــداً من التسعين
عمـــري من السبعين يـــركض مسرعـــاً　　　والـــــروح ثـــــابتـــــة على العشريـن

أيام الصافي الأخيرة ووفاته:

أصيب الصافي في أحـداث لبنان برصـاصات فنقل إلى بغـداد في ١٩ شباط ١٩٧٦ حيث عـولج. وكتب إليّ جعفـر الخليلي يقول إنـه لم ينقطع عن زيـارة الشـاعر منـذ أن جيىء به إلى بغـداد ليقضي دور النقاهة بعد استخـراج الرصاصة من صـدره. ثم قال: والعجيب أنه شفي تماماً من هـذه الاصابة الخطرة ثم مات بمرض الشيخـوخة الذي لا علاج له.

وكانت وفاته في بغداد في ١٧ حزيران ١٩٧٧.

محمّد مهدي الجواهري

شاعر العراق والعرب محمد مهدي بن عبد الحسين بن عبد عليّ بن صاحب الجواهر الشيخ محمد حسن المتوفّى سنة ١٨٥٠. ولـد محمد مهدي في النجف يـوم الأربعاء ٢٦ تموز ١٨٩٩ ونشأ في كنف والده الـذي توفي سنة ١٩١٧. درس أمداً وجيـزاً في المدرسة العلويـة في مسقط رأسه، ثم أخذ علـوم اللغة والأدب عن محمد علي المظفر وعلي ثـامر وحسين الحمامي وغيرهم من مشايخ الغريّ. ونبغ في الشعـر، قرضه قبل أن يبلغ الحلم وبـرّز فيه تبريـزاً، وبـدأ بنشر قصائده منـذ مطلع سنـة ١٩٢١ في جـريدة الاستقـلال والعراق وغيرهما من صحف بغـداد. وسافـر إلى ايران لأول مرة سنـة ١٩٢٤، فرأى من طبيعتها الخلابة ومشـاهدها الجذابة ما سـاعد على تفتّح مواهبه وصقل قـريحته وتوسيع آفاقه.

وجاء إلى بغـداد سنة ١٩٢٧ فعيّن معلماً في بعض مـدارس الكاظميـة، ولم يلبث أن نقل مـوظفاً بـدائرة التشريفـات في البلاط الملكـي. واستقال من الـوظيفـة بعد ثـلاث سنوات، فأصـدر جريدة «الفرات» (ايار ١٩٣٠). وأعيـد إلى سلك التعليم في اواخر

السنة التـالية، ثم أصبح رئيساً لديـوان التحرير في وزارة المعارف، فمـدرساً في المدارس الثانويـة بالبصرة والحلة والنجف ودار المعلمين الريفيـة، حتى اعتزل التدريس في تموز ١٩٣٦ . وقد اتهم بنشر قصيدة سيـاسية في جريدة «الإصـلاح» البغدادية، وأحيل على القضاء فبرّأت محكمة الجزاء ساحته .

وأصدر جريدة «الانقلاب» في بغـداد في ١٥ تشرين الثاني (١٩٣٦) فجريدة الرأي العام (١٩٣٧) والمعـرض (١٩٣٧) . وأيّد حـركة ايـار ١٩٤١ ، فلما انتهت بـالاخفاق مضى إلى ايران، ثم عـاد في نفس تلك السنة واستأنف إصدار جـريدته الـرأي العام . وأصدر في آب ١٩٤٦ جـريدة صـدى الدستـور. وانتخب نائبـاً عن كربـلاء في المحل الشاغر بـوفاة عبد الرزاق شمسة (تشريـن الثاني ١٩٤٧)، لكن المجلس حلّ في شباط ١٩٤٨ .

وسـافر إلى فـرنسـة سنة ١٩٤٩ فنظم ملحمتـه الغـزليـة «أنيتا» التي قـال في سبب نظمها : «كان حبـاً عارماً لا يريـد، ولا يقدّر له لو أراد، أن يقف عنـد حدّ» . وأقام في مصر سنة (١٩٥٠ ـ ٥٢)، ولما عـاد إلى بغداد حرّر في صحف منها الأوقـات البغدادية والجهاد والثبات والاستقلال . واعتقل في أبي غـريب في تشرين الثاني ١٩٥٢ . وأصدر جريـدة «الجديد» في ايـار ١٩٥٣ . ثم غادر العـراق إلى دمشق سنة ١٩٥٦ ، فـاتخذها سكناً وعهد إليه بتحرير جريدة «الجندي» التي تصدرها رئاسة أركان الجيش السوري .

وعاد إلى بغداد في تموز ١٩٥٧ ، ولم تمض سنة واحدة حتى قـامت ثورة تموز، فحيّاها بشعره وأعـاد إصدار جـريدتـه الرأي العام (تشريـن الأول ١٩٥٨) . وانتخب في السنة التالية رئيساً لاتحاد الأدباء ونقيباً للصحفيّين . وفي سنة ١٩٦١ سافر إلى تشيكوسلوفاكية وأقام في براغ سبعة أعوام، ولم يعد إلى الوطن إلا في تشرين الأول ١٩٦٨ . وأعيد انتخابه رئيساً لاتحاد الأدباء العراقيين عند إعادة تأليفه في كـانون الثاني ١٩٧١ . ثم عاود الرحلة الى براغ ومكث فيها أمداً طويلاً . وانتقل منها إلى دمشق حيث يعيش الآن (١٩٩٤) .

ديوان الجواهري ومؤلفاته :

أصدر الجواهري «حلبة الأدب» (١٩٢٣) وهي مجموعـة أدبية، ثم طبع ديوانه سنة ١٩٢٧ . وصدر الجزء الثـاني من ديوان الجواهري في النجف (١٩٣٥) . وطبع الـديوان في ثلاثة أجـزاء (١٩٤٩ ـ ٥٣)، ثم طبع للمرة الرابعة في الشـام (١٩٥٦ ـ ٥٧) وللمرة الخامسـة في بغـداد (١٩٦١)، وثم في بيروت (١٩٦٨) . وشرعت لجنة بـوزارة الاعـلام بطبع ديوانه الكامل، فصدر الجزء الاول منه سنة ١٩٧٣ ، وعقبته ستة أجزاء طبع آخرها سنة ١٩٨٠ .

ولمحمد مهدي الجواهـري عدا ذلك : شكوى إقبال وجـوابها (١٩٣٦)، وهو ترجمة

شعرية لقصيدتين للشاعر محمد إقبال، بريد الغربة (١٩٦٥) بريد العودة (١٩٦٩) أيها الأرق (١٩٧١) خلجات (١٩٧٢).

وقد قرر المكتب الدائم لاتحاد الكتّاب الافريقيين والآسيويين في دورته الخامسة عشرة المعقودة في موسكو منح جائزة لوتس الدولية في الآداب لسنة ١٩٧٥ إلى الجواهري بالاشتراك مع كاتبين آخرين باكستاني ونيجيري.

مازال الجواهري يعيش في دمشق. وقد حضر في ١١ آذار ١٩٩١ مؤتمر الاحزاب العراقية المعارضة لحكم صدّام حسين في بيروت وألقى فيه كلمة، ووضع مذكرات بعنوان «ذكرياتي» صدر الجزء الاول في دمشق سنة ١٩٨٨، ثم صدر الجزء الثاني.

وقد رغب في المجيء الى لندن في آب ١٩٩١، لكنه مرّ في طريقه ببراغ ومرض فبقي فيها للمعالجة. ثم حضر إلى لندن في كانون الاول ١٩٩١ وتوفيت زوجته بها في الشهر التالي، ونقل جثمانها إلى دمشق حيث دفن. وعاد الجواهري للاقامة في دمشق.

شعره:

الجواهري عملاق الشعر العربي الحديث، عبّاسيّ الديباجة، طويل النفس، يرصّ كلماته وأشطره رصاً فتجيىء قصائده كالصرح الممرّد أو الطود الشامخ، ويكسو معانيه أثواباً مؤنقة من جزل الألفاظ. قرض الشعر يافعاً وجوّل في آفاقه وجلى في حلباته وتفنّن في أغراضه من غزل ووصف واجتماعيات وسياسيات ووطنيات، وله من القصائد آيات بيّنات. ولئن كان في حياته الشخصية متقلّب الأهواء، كثير النّزوات شأن العباقرة النّابغين، لقد كان شعره دائماً إنسانيّ النزعة، فوّار العاطفة، تقدّمي الأغراض. وكان الشاعر مؤمناً بجماهير الشعب، معبراً عن آمالها وآلامها.

يرثي محمد جعفر أبا التمّن فيستهلّ رثاءه أيّما استهلال:

طالت، ولو قصرت، يد الأقدار ... لرمت سواك، عَظُمْتَ من مختار
من صفوة لو قيل: أيّ فذّهم؟ ... لم تعدُ شخصك أعين النظّار
لكن أرادت أن تحوز لنفسها ... عين القلادة فازدرت بنثار
وأرى المنايا بالذي تختاره ... للموت عاطلة وذات سوار
فطوتك في درج الخلود فعطّرت ... بك سالف الأحقاب والآثار
واستنزلتك لغربة، ولأنت من ... علياك في لجب من الأنصار
وتجاهلت أن البلاد بحاجة ... لك حاجة الأعمى إلى الإبصار

ثم يصف الراحل فيقول:

بكر النعيّ فما سمعت بمثلها ... عبثاً على الأسماع والأبصار
وترنّح الأحرار ينذر بعضهم ... بعضاً بفقدهُمُ أبا الأحرار

لله درّك مــن نقــيّ لم ينــل   أذيــالــه وضر مـن الأوضــار

في حيثُ تــزدحـم الشرور وتــرتمي   شبهــاتها حتّى على الأخيــار

خــاض السيــاسـة وانجلى عـن جِّهــا   ألـق الجبين، مكلّــلاً بــالغـار

في حين رام ســواه خــوض عبــابها   فطغى عليــه، فضــاع في التيّــار

وصليب عــود حين بعض مــرونــة   في ضعفهــا خطــر من الأخطــار

وطــريّ نفـس حين بعض صــلابــة   في عمقهــا حجــر من الأحجــار

وخفيّ كيــد حيث يسمــو كــائد،   ومـن المكــائد جــالـب للعــار

وصريـح رأي لم يجد عـن خطّــة   ليلــوذ من تـأويلهــا بجــدار

حــرب على مستعمــر وربيبــه   ومســالم مستعمــراً ومُجار

ويلتفت إلى حالة البلاد التي كان الفقيد يذود عنها ويريد حريتها ورفعتها فيقول :

ومفــرّقين عنــاصراً ومــذاهبــاً   متكفّلين سيــاســة استعمار

نـزلـوا على حكم الغـريب وعـرّسـوا   في ظـلّ مأثمــة لــه وفجــار

وتحلّبــوا أوطــارهـم، فـإذا بها   وشـل لما استحلى مـن الأوطــار

واستفــرش الشعـب الثـرى، ودروبهم   مفــروشــة بنشــارة الأزهــار

ذعــر الجنــوب فقيل كيــد خــوارج   وشكــا الشمال فقيـل صنـع جــوار

وتنــابــذ الــوسط المدلّ فلـم يــدع   بعـض لبعـض ظنّــة لفخــار

ودعــا فــريق أن تســود عــدالــة   فــرُمُــوا بكـل شنيعــة وشنــار

ومشى المغيـث على الجيــاع بقــوتهم   وعلى العــراة بجحفـل جــرّار

وتســاءل المتعجّبــون لحالــةٍ   نكــراءَ: من هم أهـل هٰـذي الــدار؟

هي للصحــابــة من بني الأنصــار   مـن كل بــدريّ وكـل حــواري

للحــاكمين بـأمــرهـم عن غيرهـم   ولصفــوة الأسبــاط والأصهــار

من كـلّ غــازٍ شــامـخ في صــدره   زاهي الــوســام، مــدوّخ الأقطـار

هي للّــذين لــو امتحنت بــلاءهم   لعجبت مـن سخــريــة الأقــدار

هي للــذي مـن كلّ مــا يصـم الفتى   كــاسٍ، ومـن جهــد يشرّف عــار

ويحيّي الجواهري ثورة تموز بقصيدة عصماء يقول منها :

لم يبـقَ شيء لم نقلــه تشكّيــاً   فيما مضى بــالمصرحــات وبــالكنى

كنّــا نقــول لهم: حــذار مـن لظى   إمّــا اعتلت ومن اللهيب إذا دنــا

ومن الصــدور الحابســات زئيرهــا   ومن النفــوس الكــاظمات تحيّنــا

ومن السجـــون الـــداجيـــات، فإنها كـــانت ومـــا زالـت لبـــاغٍ مـــدفنـــا
ومن السيـــاط، فإنّ حـــرّ نشيـــدهـــا بنهـــايـــة الجلاّد كـــانـت ملحنـــا
ستحـــول سلسلـــة السجين وقيـــده من معـــدنٍ بخس لأثمـن معـــدنـــا
كنّـــا نحـــذّرهـم ونضرب راعيـــاً مثـــلاً لهم وقطيعـــه مثـــلاً لنـــا
مـــا أقبح الـــدنيـــا إذا ضلّ الصـــوى راعٍ بثلّتـــه ومـــا أدنى الـــدّنـى.

إنّ شعـر الجواهري الثـائر المتأجّج، المنافح عن الشعب المظلـوم، النّازل على ظهـر الحاكم الظالم كالسوط اللاهب، ليشبه شعر فكتـور هوغو في دفاعه عن الحرية وتنديده بالطغيـان والطّغاة. أجل، إنـه ليشبه فكتـور هوغـو خطيب الجماهير في ثورة ١٨٤٨، وصاحب «نابليون الصغير» و«العقوبات»، والمبعد إلى جزيرة بحر المانش «تلك الصخرة التي حطم عليها جناحـه». وسيبقى شعر الجواهري أبداً سجلاً حافـلاً للجهاد العربي وتحفّز الشعب وظمأه إلى الحرية والكرامة.

الرصافي والجواهري

تـلاقى الشاعـران الرصـافي والجواهـري على صعيد الفكـر فتناجيـا وبثّ كل منهما لاعجته وشكواه. قال الرصافي:

أقـول لـربّ الشعـــر مهـدي الجواهـــر الى كم تنـــاغي بـــالقـوافي السّـــواحـــر
فترسلهـــا غـــرّا هـــواتـف بـــالعلى يـــزوّد منهـــا سمعـــه كـل شـــاعـــر
وتشـــدد بها، والقـــوم صم عن العلى فلـم تلـقَ إلا غير واعٍ وذاكـــــــــر؟
أتـــرجـو من الحسّـــاد عـونـاً ونـاصراً فتـــدعـــوَ منهم خـــاذلاً غير نـــاصر؟
كـأنك لم تبصر ســـــواد قلـــوبهم فهل أنـت مغـــرور ببيض المنـــافـــر؟

ثـم ناغاه الجواهـري فهزّ ـ كما قال ـ الأسـد الرابض الضائق ذرعاً بعـرينه، المنطوي على نفسه ألماً وغضباً وكبرياء، فزأر الأسد الرصافيّ وقال في معرض الجواب:

بِكَ الشعــرُ لا بي أصبح اليـــوم زاهـــرا وقـــد كنـتُ قبل اليـــوم مثلك شـــاعـــرا
فأنت الـــذي ألقت مقـــاليـــد أمـــرهـــا إليـــه القـــوافي شُرّداً ونـــوافـــرا
بلغـت مـن الإبـــــــداع أرفـع ذروةٍ هـوى النجم عنهـا صـاغـراً متقـاصرا
إذا شيءَ ظلـم قمـت للظلم رادعـــــاً وإن سيءَ حقّ قمـت للحقّ نـــاصرا

تذكرنا هذه المطارحة الشعريـة بين معروف الرصافي والجواهري المراسلة الشعرية التي جرت في اواخر القرن الماضي بين الشاعر المنفي الشيخ محمود سامي البارودي والشاعر اللبناني الشاب شكيب ارسلان، وقد نشرتها مجلة الزهور المصرية في مختاراتها.

وللجواهري صرخات ثورية مدوّية، أليس هو القائل:

يتبجّحون بأن موجاً طاغياً ... سدّوا عليه منافذاً ومساربا
كذبوا، فملء فم الزمان قصائدي ... أبداً تجوب مشارقاً ومغاربا
تستلّ من أظفارهم، وتحطّ من ... أقدارهم، وتثل مجداً كاذبا
أنا حتفهم، ألج البيوت عليهُمُ ... أغري الوليد بشتمهم والحاجبا

ومن موشحات الجواهري التي نظمها في عهد شبابه «وشاح من ورد» قال فيها:

روح الصبا تسري ... بالبعث والنشر ... على البطاح
ويانع الزهر ... يلتفّ بالنهر ... مثل الوشاح

الروض مزدان
تكسوه ألوان ... من الربيع

***

والنبت فينان
روح وريحان ... صنع البديع
والرند والبان
صادٍ وريّان ... زاهي الفروع

والشمس في سكر ... من رشفة الخمر ... من الإقاح
تسري ولا تدري ... بالنهي والأمر ... بلا جماح

وسيمة الفجر
يفترّ عن دَرّ ... من السقيط

***

وكائر النّسر
يلوذ بالوكر ... خوف السقوط
والبدر في الأسر
يغزل للفجر ... بيض الخيوط

والصبح إذ يسري ... بطالع البشر ... على النواحي
وريّق القَطر ... يحوك للزهر ... ثوب ارتياح

والكأس ملآن

والشهب نُدمان   بعض لبعض
والكل فرسان
والروض ميدان   للقطف والعضّ
والصدغ بستان
والحظّ وسنان   كالنرجس الغضّ

والشعر كالشّعر   في اللف والنشر   فيه افتضاحي
والخدّ كالبدر   كالشمس في الظهر   في الأفق ضاحي

ناجي القشطيني

تنتسب الأسرة الى قشطين من أعمال حلب، وهي أسرة طائية امتهن أفرادها التجارة ونزحت الى بغداد بعد فتح السلطان مراد الرابع. وقد عرف منها محمود القشطيني رئيس بلدية الكرخ المتوفى في ١٩ كانون الثاني ١٩١٥، وهو عمّ الشاعر المربي محمد ناجي القشطيني.

ولد محمد ناجي بن عبد الوهاب بن عبد الحميد بن أحمد في كربلاء سنة ١٨٩٦، وكان أبوه زراعاً قبل الوظيفة على مضض لخسائر حاقت به، فعمل في كربلاء أربع سنوات، ثم عاد الى الزراعة وتوفي سنة ١٩١٣. وجيء بناجي طفلاً الى بغداد، فلما كبر أخذ يدرس على خاله عباس حلمي القصاب وغيره من العلماء. وعيّن القصاب مدرساً للمدرسة الدينية في سامراء، فلحق به الفتى ناجي وقضى في تلك المدينة سبعة أعوام يتلقى العلم في مدرستها.

قرض ناجي القشطيني الشعر في صباه، وكان من أوائل نظمه رثاؤه لوالده الذي أدمت وفاته قلبه الغضّ فقال:

لم أدرِ مصرع والدي أم مصرعي   هو لا يعي، وأنا كذلك لا أعي
وصحوت أسأل من رأيت، فلم أجد   أحداً يجيب سوى غزير الأدمع

ثم رثى عمّه الذي تعهده برعايته وحنانه فقال:

موت عمي أمات مني اللّسانا   فاعذروني إذا فقدت البيانا
كان لي حجّة وكان إماماً   أتلقى منه الهدى والأمانا
كان لي جُنَّة وكان حساماً   أتحدّى به العدى والزّمانا

وكان شبابه عهد جدّ ودرس وصرامة، فلا عجب أن ذكره قائلاً:

شيئـــان مـــرّا بي كلمح البصر عهـــد شبـــابي وجمال الصُّـــوَرِ
أمـــا شبـــابي فهـــو مـــا يـــؤسفني مضـى ومـــا خلّـف غير العبر

واحتّل الإنكليز بغداد ففتحوا في حزيران ١٩١٧ دورة لتدريب المعلمين انضمّ إليها الشاعر فيمن انضمّ من الشباب الناهض. ولما تخرج فيها عيّن معلماً فمديراً للمدرسة البارودية (أول نيسان ١٩١٨). وقد حيّا عهد العلم والعرفان فقال:

إن المعـــارف قـــد لاحـت بشـائرهـا متى بنهضـــة أوطـــاني تبشّرني؟
هي التي ضـــاءت الـدنيـا بطلعتهـا: لـولا المعـارف هـــذا النّـور لم يكنِ

ثم عيّن بعد ذلك مديراً لمدرسة الكرخ فالكاظمية (أيلول ١٩٢٣) ثم عيّن مدرساً للعربية في المدرسة الثانوية المركزية (١٩٢٤)، وانتمى في السنة نفسها الى دار المعلمين العالية التي افتتحت آنذاك وكانت الدراسة فيها مسائية استمرت سنتين. وعيّن مديراً لجريدة الوقائع العراقية الرسمية (آب ١٩٢٦) ثم عمل مدرساً أعواماً طويلة حتى عيّن مديراً للمدرسة الشرقية المتوسطة (آب ١٩٣٦). ونقل في آذار ١٩٣٨ الى مديرية الدعاية العامة مميزاً للمطبوعات الداخلية ثم أعيد مديراً للمدرسة المتوسطة المسائية (آذار ١٩٣٩) فمميّزاً للمطبوعات العربية (آب ١٩٤١). وأعيد إلى سلك التدريس في تشرين الأول ١٩٤٦، ثم عيّن مفتشاً إختصاصياً بوزارة المعارف (آذار ١٩٥٣) حتى اعتزل الخدمة سنة ١٩٥٩. وتوفّي ببغداد في ١٥ كانون الأول ١٩٧٢.

شعره:

نشر ناجي القشطيني «اللهفات» ديوان شعر ونثر (١٩٦٨)، «ومن عيون الشعر» (١٩٦٨)، وهي مختاراته لشعراء العربية، ونفثات الأخرس (١٩٦٩).

وشعره وطنّي النزعة، إسلاميّ الطابع، يكاد يقتصر على المواضيع القومية والدينية، وليس له شعر وجدانيّ يذكر. ولئن كان القشطيني المربّي قد أنشأ أجيالاً من الشباب المثقف الواعي، لقد شارك القشطيني الشاعر في المناسبات الوطنية والاجتماعية خلال نصف قرن، فأنشد قصائده في ميلاد الرسول الأعظم، وارتفع صوته في عيد الثورة العربية وتكريم جميل صدقي الزهاوي والثعالبي التونسي وطلعت حرب ورثاء محمود شكري الألوسي والمنفلوطي وشوقي والزهاوي وفهمي المدرس ويوسف السويدي وعبد المحسن السعدون وغيرهم من رجال الأدب والزعامة والسياسة.

إن القشطيني غيور على دينه وأمته، فلنستمع اليه يقول:

ربّ، هـب لي مـن فنـــون الأدب حكمـــة الشعـــر وسحـــر الخطب
ربّ، هيّـيء لي رشـــاداً وحجىً ربّ، أيـــدني بـــآيـــات النّبي
لأنـــاجـي أمّتـي فيماأرى وأريها مـــا وراء الحجـب

أو يقول :

الحقّ أبلج وضّاح الى الأبد ... كالصبح يسطع لا يخفى على أحد
فقل عن الحق ما تهوى، فأنفسنا ... تلتذّ في ذكره المعسول كالشَّهَد
وإن ترد مثلاً أعلى لتضربه ... للحقّ غير أبي الزهراء لم تجد
طه، ومن مثل طه في خلائقه، ... أثنى عليها كتاب الواحد الصّمد
سرّ من الله لم تعرف حقيقته ... ولم يَدْرُ كُنْهُ معناه على خَلَد
قد جاءنا بنظام كله حكم ... وأنعم نفّست عن كل مضطهد
كانوا يطوفون بالأصنام جامدةً ... ويسجدون لها في زيّ معتقِدِ
يدعون لله أبناءً تشاركه، ... والله حاشاه لم يولد ولم يلد

وهو وطني صلب، ثابت المبدأ، يقول :

لا السجن يُبكينا ولا التبعيد ... كلاّ، ولا الإرهاب والتهديد
سنظلّ نهزأ بالخطوب تجلّداً ... مهما استمرّ الضغط والتشديد
وإذا تناوشت الحراب صدورنا ... هتفت إليها في الصدور كبود
إنّا تحالفنا على نيل المنى ... وتسجّلت منّا بذاك عهود
الصبر شيمتنا وليس يهمّنا ... إن قال فينا ما يشاء حسود
والقيد مهما أحكمت حلقاته ... كسرته منّا أذرع وزنود

ويكبر عزم الشباب وقوة الشعب فيقول :

هو الشعب كالبركان يقذف ناره ... وهل تمنع البركان يوماً موانع ؟
لقد كان مخدوعاً فثاب لرشده ... وفحّص فيما يدّعيه المخادع
فلم يرَ إلاّ زمرة أشعبيّة ... تناضل عن غاياتها وتدافع
قد اجتمعت لمّا صفا الجوّ صحوةً ... كما اجتمعت حول النقود الأصابع
تحاول ستر الحقّ في برقع الهوى ... وهل سترت شمس النهار البراقع ؟
وتزعم أن الشعب طوع بنانها، ... لقد كذبت فالشعب ما فيه طائع . . .
ألا قل لمن يبغي الخيانة بعدما ... رآها وفي أنيابها السّمّ ناقع
تكتّم وحاذر ما استطعت، فإنه ... لسرّ على رغم التكتّم شائع
لقد أنهكت ظهر العراق ضرائب ... يقدّمها من جلده وهو جائع
أناخ عليه الأجنبيّ بجيشه ... وبثّ به ما حرّمته الشرائع
فهانت كرامات وضاعت فضائل، ... وبارت تجارات وماتت مزارع . . .

وقد هزّته نكبة حزيران سنة ١٩٦٧ فأطلقها لهفة أخيرة من نفس ذاهلة كسيرة،

وقال:

أتبكي أم تعدّد أم تنوح،	فهل يطغى اللّظى دمك النّضوح؟
ولو أنشدت قومك ألف بيتٍ	وبيتاً هل ستندمل الجروح؟
لماذا تستغيث ولا مغيث،	أتسمعك الروابي والسّفوح؟...
وليس لنا إذا رمنا حياة	يحيّيها التأمّل والطموح
سوى صبر يؤزّره جهاد	ويغسل عاره دمنا السَّفُوح
وكم سُفِكَتْ لأمّتنا دماء	وكم هدمت لموطنها صروح

من شعر ناجي القشطيني:

أمن مصائب عصر النور، يا قلم،	أراك ترعش أم أودى بك الهرم
وهل هيامك فوق الطرس من ألم	أم عادة لك هذا الحال لا ألم؟
صدى أنينك أشجاني وأرّقني	وراعني إذ جرى من مقلتيك دم
إني عهدتك لا تخشى الخطوب ولم	تسأم، فمن أين هذا الخوف والسّأم؟

وقال أيضاً:

خطر النّسيم الغضّ يحمل نفحة	مسكية فيها ارتياح الخاطر
والشمس صاغت بالشعاع سبائكاً	يجلو النّضار بها جميل مناظر
وجرى لجين الماء فيه فحلّيت	أشجاره بمعاضد وأساور

عبد العزيز الجواهري

شاعر عراقي عاش في إيران، لكنّ روحه بقيت متّصلة بوطنه العراق ومسقط رأسه النجف، وهو الأخ الأكبر لمحمد مهدي الجواهري: عبد العزيز بن عبد الحسين بن عبد عليّ المولود بالنجف في ٣٠ أيلول سنة ١٨٩٠.

وقد أرّخ مولده الشاعر جعفر الحلي فقال:

بشراكمُ هذا غلام لكم	مثل الذي بشّر فيه العزيز
سمعاً، أباه، إنّ تاريخه	أعقبت، يا بشراك، عبد العزيز

درس عبد العزيز الجواهري في معاهد بلدته وحصّل العلوم العربية والدينية على عادة أهل زمانه، حتى إذا ما بلغ مبلغ الشباب اتصل بالحركة الفكرية الجديدة التي هبّت أنسامها على البلد المنعزل وراء الصحراء. لقد أعلن الدستور في إيران وعقبه

إعلان الدستور في السلطنة العثمانية، وصدرت الصحف في بغداد بعد أن أطلقت حرية النشر والتعبير، ووردت الجرائد والمجلات من مصر وسورية ولبنان تحمل الأفكار الجديدة والشعر المحفّز للهمم، المفصح عن يقظة دينية ووطنية بعد سبات القرون الطويل.

وسار فتانا في ركاب النهضة الى جانب محمد رضا الشبيبي وعلي الشرقي وأضرابهما، وأخذ ينظم في المطالب العصرّية ويخلع عنه رداء الجمود والانغلاق الذهني. وقد نشر قصائده في المجلات العربية الكبرى كالعرفان والمقتطف، وتولّى طبع ديوان محمد سعيد الحبوبي في بيروت سنة ١٩١٣.

ثم غادر العراق بعد الحرب العظمى الأولى واتخذ مقامه في طهران. وقد ترجم مقدّمة ابن خلدون الى اللغة الفارسية، ووضع دائرة معارف إسلامية في عشرة مجلدات، وصنّف تآليف أخرى منها: النهاية في الشرح والتحرير للكفاية (في ثلاثة أجزاء) آثار الشيعة الإمامية (في عشرين مجلداً طبع منه الثالث بالفارسية والرابع بالعربية) المكتبات الإيرانية (بالفارسية ١٩٣٣)، جواهر الآثار في ترجمة مثنوي جلال الدين الرومي شعراً (١٩٥٨) الخ.

تفتّح ذهن عبد العزيز الجواهري الشاب للحياة العاملة فخاطب الشباب قائلاً:

تطلّب في شبابك للصّعاب ... فما عمر الفتى غير الشباب
وسلّ حسام عزمك للمعالي ... فإن السيف يصدأ بالقراب
ودع طلب الهوان لمبتغيه ... فإن المجد أجدر بالطّلاب
وكرّر لو خطأت الجدّ يوماً ... فكم خطأ يؤول الى الصواب

وآمن بالشعر الحيّ الذي لا يموت فقال:

خليليّ، ما معنى الشعور؟ فإنني ... أرى كلّ شيء شاعراً مترنّما
أرى الكون في لوح الوجود قصيدة ... تخطّ عليها الخلق شعراً منظّما
هو الشعر باقٍ ليس تفنى حياته ... نقيم احتفالاً أو نشيد مأتما
تصوّره روح الخيال، فلو بدا ... إذن لرآه الطرف شخصاً مجسّما
وتنشر أسفار الطبيعة شعرها ... رموزاً فيمليها الهزار مترجما
هل النجم إلاّ روضة نرجسيّة ... أرى البدر فيها شاعراً متبسّما
فدىً لدموع العاشقين فإنها ... قصيدة شعر بينها الحبّ نُظّما

عــرائس حبّ إن تجلّت بـدورهـا لـدى الصبّ ليلاً زفّها الـوجـدأنجما
تقبّل خـدّ الجلّنـارة وجنـةً وتلثم ثغـر الأقحـوانـة مَبْسَماَ

ويمضي الشاعر في اقتفاء خطي الشعر، فيسمعه في الروض الذي تداعبه أضواء البدر ونسيج الليل فوقه وشياً منمنماً، حتى يقول:

تقـرّيت أسفـار الخلائق في الثـرى وفتّشت أسرار العـوالم في السّما
فلـم أرَ إلا روضـة أو خـريـدة ولم ألْـفِ إلا شـاعـراً أو متيّماً
ألا كل صـوت طـارق صوت شـاعـر وسيّـان فينـا من بكـى أوترنّما

وليس من ريب أن هذا الصوت يعيد الى أذهاننا صوت معروف الرصافي الذي قال:

قـرأت، ومـا غير الطبيعـة من سفـر، صحـائف تحـوي كلّ فـنّ من الشّعـر

وخلع السلطان عبد الحميد الثاني في سنة ١٩٠٩، فكان لخلعه صدى كبير دوّى في جوانب الدولة العثمانية المترامية الأطراف من مصر الى العراق. قال شوقي:

سـل يَلْـدِزاً ذات القصـور هل جـاءهـا نبأ البـدور؟

وردّ عليه وليّ الدين يكن قائلاً:

هـاجتك خـاليـة القصـور وشجتك آفلـة البـدور
وذكـرت سكّـان الحمى ونسيت سكّـان القبـور

أما صاحبنا عبد العزيز الجواهري فبدّل الوزن واحتفظ بالرويّ، وخاطب السلطان السّجين قائلاً:

بعيشك كـم تحنّ الى السّريـر وكم تـرنـو بطـرفك للقصـور
هـلاليـاً أراك نحلت جسماً أمـا تشفيك آفلـة البـدور؟
طـواك الـرعب قبل الموت مَيْتـاً وأحيتك المنى قبل النشـور
أهـانتك القصـور وكنت ملكـاً تهيّب منـه سكـان القبـور
قـريت الـوحش من جثث البرايـا ورويت الـرّبى بـدم النحـور
بكت منك الثغـور دمـاً مـراقـاً وتضحك عنـد بـاسمـة الثغـور
فأقسم أن عـود الـدّست لـو لم يكن من حـرّ بأسك في سعير
لأثمـر في رؤوس الجنـد روضـاً وأزهـر من دمـاهـا في غـديـر

لقد سقط السلطان المخيف وتألب عليه الشعراء والأدباء يشيّعونه بسخطهم ولعناتهم.

وأين صاحبنا الجواهري الذي ودّع عبد الحميد بتلك القصيدة، أين منه هو نفسه قبل أعوام قليلة حين مدح خليفة الإسلام قائلاً:

عُليّ بطـــريف مجدك والتّليـــد وليس وراء مجدك من مـــزيـــد
وفخـــراً في عـــلاك فقـــد تحلّى بفيض نـــداك عـــاطل كـلّ جيـــد

ومن شعر عبد العزيز الجواهري في رثاء الشيخ محمد كاظم الخراساني :

بكـاك الحيـا دمعـاً كما بكـت الـورى فهل كنت فـوق النجم أم كنت في الثّرى؟
تحيّر عقلي كيـف أرثيـك واصفـــاً، تعـالى الـذي صفّـاك للنّـاس جـوهـرا
لئن كنت نـوراً في حشـا الكـون مظهـراً فقـد عـدت سراً في حشـا الغيب مضمـرا

وهذه المرثية قديمة الطراز فيها المعاني المتصيّـدة والمبالغة المتعمّدة . لكنّ شاعرنا حين يفقـد أخاه يثيره الـوجـد ويرهفـه الحزن والأسى ، فيبثّ صبـابتـه تهزّ النفوس وتكـوي الضلوع :

بـــزغ الهلال ، فـأين عهـــد وفـــائه أن لا يخون بــــودّه وإخـــائه؟
أيـــرى أخـــاه مغيّبـــاً تحت الثـــرى قمــــراً ويشرق زاهــــراً بسمائه؟
إني خضبت أنــــاملي بمــــدامعي وطلبـت طـــوق الحزن في ورقـــائه
وعكفت حـــول أزاهـــر مـن قبره نبتـت تسبّـح في ضريـح ثـــــوائه
نـــذر عليّ لئـن زهـــا ريحانــــه لأروّيـنّ الـــــورد في أنـــــدائه
يـــا لهف أيـــار تفـــرّط ورده بيــد المنـــون وجفّ قبـل نمائه . . .
أهـــلال عيـــدي، أيـن غيّبك الثـرى فحـــــرمتني مـن بِشْرِهِ وهنــــائه
أغنتــه عن جـــدد الحلى أكفـانــــه وكفـــاه صبـغ الـدمع عـن حنّـائه
وتـــركت قلبـي حـــول قبرك حـائماً شبــه الفـــراش يحوم حـــول ضيـائه
إن شـعّ لي قبس الحيــــاة فـإنّـــه لهب السّراج يلـــوح في أطفـــائه
أأخيّ، يـــا قـــوسي ونبل كنـــانتي ومـــديـــر جيشي بـل أمير لـــوائه
أبقيت قلبي للـــزمـــان دريئـــة ونصبتني غـــرضـــاً الى أبنـــائه . . .

وفي هذه القصيدة الحزينة صور متعاقبة رسمت هول الفاجعة في ذهن الشاعر الذي سلبه الموت شقيقه الحبيب : فلقـد بزغ هلال العيد، فالقمـر يتألق في العلاء لكنّ أخاه مغيّب في أطباق الثرى. ثم هذه الخميلة الزاهيـة في فصل الربيع ، تفتّح زهرهـا وجرى ماؤها وصدح عنـدليبها ، لكن زهرة الشاعر قد صوّحتهـا يد الردى قبل الأوان ، وبلبله رقد في قفـص التراب . ولقد حامـت نفس الشاعـر حول القبر كـالفراشة التـي يجتذبها النور، وهيهات ، وهيهات ، فقد خبا ذلك النور ولم يكد يشرق .

وكان الشـاعر يأمل في أخيـه نصراً ومعونة ، فإذا هـو قد بات طـريدة الـزمان ونهب المصائب واللـواعج ، كالفارس الذي أضـاع قوسه وكنـانته وكالجيش الذي فقـد قائده

وأميره. ويختتم الشاعر المفجوع مرثيته راجياً أن يحظى بلقاء أخيه في المنام وسائلاً رضوان أن يحفظه في فردوسه الخالد.

إن الشاعر قد فكّر في الحياة فلم ير سوى نار تضطرم ثم تخمد، فقال:

أرى عمـــر الحيـــاة شـــواظ نـــار ... مـن الأجســـام تكمـن في زنـــاد

ومـــا ليل الشبـــاب ســـوى دخـــان ... ومـــا صبح المشيب ســـوى رمـــاد

ذكر عبـد العزيز الجواهري، فيمن ذكـره، الشيخ علي الشرقي فقال إن عبد العـزيز الأرغن الذي يجسّ بتوقيعه العـواطف ولا يغنّي في الغالب إلا على رحيق الوطنيات... وقد توفي عبد العزيز الجواهري في طهران سنة ١٩٧٦.

محمّد الهاشمي

الشاعـر الأديب القاضي محمد الهاشمي، ولـد في بغداد سنـة ١٨٩٨ وأبوه يحيى بن عبـد القادر ينتهي نسبـه الى الشيخ عـلاء الدين الحمـوي الفقيـه الشافعي المتصـوّف، صاحب المزار في حماه، المتوفى سنة ٩٣٦ هـ = ١٥٣٠م. وقد انتقلت الأسرة الى هيت ثم استوطنت جـانب الكرخ من بغداد، وعـرفت بآل مطر. وللمترجم ثـلاثة أشقاء عـرفوا بالأدب، أكبرهم عبد المجيـد عمل في القضاء والتدريس وتوفي سنـة ١٩٤٦، وثانيهم عبد الـرزاق (١٨٨٣ ـ ١٩٦٤) وكان شاعـراً وقاضياً وعضـواً بمجلس التمييز الشرعي (١٩٤١ ـ ٤٦). وثـالثهم الشاعر محمد رشيـد (١٨٩٦ ـ ١٩٤٣)، وقد كانت حيـاته مأساة من المآسي.

توفي والده وشـاعرنا محمد الهاشمي لا يـزال في السابعة من عمره فتعهـده أخوه عبد المجيد بـرعايتـه وأشرف على تدريسه. ثم دخـل المدرسة الرشـدية (١٩٠٨) فـالمدرسة السلطـانية (١٩١٢) ولازم محمـود شكـري الألوسي فأفـاد منـه. ونظم الشعر صبيًّـاً، فاستدعته السلطات التركية وحاكمته عن قصيدة نشرها في جريدة «الرياض» لصاحبها سليمان الدخيل، ومطلعها:

يـا قيصر الـروس، شلّ الله عـرشك هل ... علمت منقـلب الظلاّم إذ ظلمـوا؟

وقصيدة أخرى ينتصر فيها للّغة العربية قال فيها:

تـركـوك، يـا لغـة النبي، وآثــروا ... في المسلمـين سيـاسـة التـتّريك

وحكم عليه بالسجن ثلاثة أشهر. واستطاع أن يسافر الى القاهرة قبل تنفيذ الحكم، وكان ذلك في أواخر ١٩١٣.

وانتمى الى الجامع الأزهر فنـال شهادته الأهلية (١٩١٧). وعـاد الى مصر بعد زيارة للحجاز فـالتحق بالجامعـة المصرية، وقضى فيهـا سنتين. ثم مضى إلى دمشق ومكث فيها الى سنة ١٩٢٠ حين عاد الى مسقط رأسه بغداد.

وقد أحبّ مصر التي أقام فيها عهداً من شبابه كما أحب وطنه العراق فقال مودّعاً:

آن يـوم من الـرحيل قـريب ... فيـه يـدمى قلب وتبكي عيـون
مـا بقـاء الغـريب في البلـد ... النـازح إلا صبـابـة وحنين
كيف بـالنيل إن ذهبت الى دجلـة؟ ... إنّي بـالـواديين ضنين
قـد تحيّرت بين هـذا وهـذا ... وانتحتني قبل الـرحيل شجـون
فتمتـع قبـل الفـراق ففي مصر ... زمـان غـضّ وعيـش ثمين

وظف في وزارة الدفـاع كاتباً ثم نقـل الى الديوان الملكي ودرّس بعـد ذلك في المدرسة الثانوية. ودخـل مدرسة الحقوق فنال شهادتها سنة ١٩٢٥. وأصـدر في الوقت نفسه مجلّة اليقين (نيسان ١٩٢٢ ـ ١٩٢٥)، وكانت من المجلات الأدبية الراقية في عهدها.

وعيّن حاكماً في المحاكـم العراقية (٢٦ أيار ١٩٢٧) فخدم في القضـاء أكثر من ثلث قرن وتنقل بحكم منصبه في معظم أنحاء العراق. وكان أول تعيينه حاكماً للصلح في أبي الخصيب (أيـار ١٩٢٧) فحاكم بـداءة البصرة (حزيـران ١٩٢٨) فحاكم صلح قلعـة صالح (ت٢، ١٩٢٨) فالفلوجة (أيلول ١٩٣١) فدلتاوة (أيار ١٩٣٣) فالشطرة (آب ١٩٣٥). ونقل حـاكماً في محكمة بـداءة بغـداد (ك٢ ١٩٣٦) فكركـوك (آذار ١٩٣٧) فحاكم كربلاء المنفرد (١٩٣٧) فحاكم جزاء النقليات (   ) فحاكم جزاء بغداد (آذار ١٩٣٩). ونقل حـاكماً في محكمة بـداءة بعقوبـا (نيسان ١٩٤٠) فحـاكم جزاء بغـداد (١٩٤٢) فحـاكم صلـح تكـريت (   ) فحـاكماً منفـرداً للكـوت (تموز ١٩٤٣) فحـاكم بداءة النـاصرية (   ) فبغـداد (تموز ١٩٤٦) فحـاكم محكمة استئنـاف تسـويـة حقـوق الأراضي في بغداد (آذار ١٩٤٧) فعضـو المحكمـة الكبرى فيهـا (آذار ١٩٤٨). ونقل مفتشـاً عدليـاً (ك١، ١٩٤٨) فنـائب رئيس محكمة استئنـاف البصرة (ك٢، ١٩٤٩) فـرئيس المنطقـة العدليـة في بعقـوبـا (نيسان ١٩٤٩) فحـاكم بـداءة الـرمـادي (أيلـول ١٩٥٠) فـالعمارة (آب ١٩٥٢). وأصبح عضـواً في مجلس التمييـز الشرعي السنّي (أيلول ١٩٥٣) فرئيساً لـه (٣ كانون الثاني ١٩٥٦)، وانتدب للعمل في محكمة التمييز العراقية (أيلول ١٩٦٠). وقـد أحيل على التقاعد فاعتزل الخدمة في أول تموز ١٩٦١.

وقد أصيب محمد الهاشمي بداء عضال ألـزمه داره بضع سنوات، حتى وافاه الأجل في بغداد في ١٠ تشرين الثاني ١٩٧٣.

مؤلفاته

له: عبرات الغريب وقد تضمن شعـره إلى سنة ١٩١٨ وطبع في الشام (١٩٢٠) أبو العـلاء المعرّي (١٩٤٤) الأبطـال الثلاثـة (١٩٣٣)، النعت (١٩٤٧) سميراميس بين الحقيقة والأسطورة (١٩٥٩) ديوان المثـاني (١٩٦٢) القضاء بين يديك (١٩٥٧). وقد نظم رباعيات الخيام شعراً ونشر ديوان عبد الله بن الدمينة مشروحاً مع السيد محي الدين

رضا في أثناء إقامته في مصر (١٩١٨) وجمع «أراجيز العرب» وهي تضم مئات الأراجيز التي عثر عليها في مصر وسورية والعراق. وله عدا ذلك ديوان شعر كبير معدّ للطبع ومقالات نشرت في مجلة المقتطف واليقين وسواهما من المجلات والصحف العربية. وقد نظم ملاحم وقصصاً شعرية منها: سميراميس الآنف ذكرها، بلقيس، إعترافات مقامر، الفتاة المخدوعة، في الوفاء وفي الغدر، قصة الإمام عليّ الخ.

شعره:

ذاق محمد الهاشمي مرارة اليتم طفلاً وخبر آلام البؤس والفاقة والغربة شاباً، فلا عجب أن جاء شعره حزيناً ناطقاً بالشجو والألم.

فهذه قصيدته «اليتيم الباكي» تعرب عن حاله وتفصح عن ذات نفسه لا زيف فيها ولا إغراب:

إلى كم أنت تكتب بالدموع ... روايات عن الخطب الفجيع؟

على قلبي دموعك نازلات ... ألم تره يدقّ من الدموع

كأن وقوعها حجرات نار ... أحرّ من الصهير على الضلوع

دموع قد أفاضتها عيون ... بها لليتم آثار الخشوع

إذا أجهشتُ أجهش لي فؤاد ... يطاوعني على الألم الوجيع

أرقّ من النسيم هوى وعطفاً ... أبيّ الطبع للزمن الفظيع

يؤاسي كلّ ذي حزن بحزن ... ويقتسم الشجون على الجميع

ولو حمّلته قسطاً ثقيلاً ... من الآلام آذن بالخضوع

ولو تشفي الدموع غليل قلب ... إذن لشفيتُ بالدمع الهموع...

سألقي نظرة ملئت حناناً ... على البؤساء من طرف خشوع

يعيش الأغنياء على رخاء ... ونحن نعيش في بؤس وجوع

تنام عيونهم بالليل، لكن ... عيون البائسين بلا هجوع

نسوا البؤساء في الدنيا جياعاً ... وخلّوهم الى الزمن المنوع

لكل من بنيهم ألف ثوب ... عليه علامة الصنع البديع

أناموهم على بيض الحشايا ... وفي غرف من القصر الرفيع

وأطفالٍ على الأوساخ ناموا ... كأفراخ الحمام على الجذوع

وليس لهم سوى الدقعاء فرش ... ولا التحفوا سوى الثوب اللذوع

يقضّون النهار طوى وجوعاً ... ويطوون الليالي بالدموع

أحاديث الشقاء لهم عزاء ... تعلّل نفس ذي البؤس الجزوع

ويضرب منهمُ ذو السقم عيّاً ... بليلته هزيعاً في هزيع

رأيت اليتم ذنباً لليتامى ... يراه الأغنياء بلا شفيع

وقال منها:

مضى أهلي وعرّضني زماني　　لفتك من مصائبه ذريع

يتيم ليس يعرفني قريب　　ولست على الشقاء بمستطيع

أبي، أمي! علامَ تركتماني　　ضعيف مطامع وقصير بُوعِ

أجيبا دعوتي، أنا مستغيث　　وليس سواكما لي من سميع

لقد همّا بيوم نوى قذوف　　ولكن لم يهمّا بالرجوع

تذكر أمه وأباه يوماً　　فأسبل ديمة أخذت بروعي

له قلب وليس له لسان　　يطاوعه على الدمع المطيع

مضى أبواه قد تركاه طفلاً　　ترعرع قبل أيام الربيع

وقصيدته «الفتاة المخدوعة» صرخة مدوّية من صرخات الألم والفجيعة تروي قصة فتاة أوقعتها أمها بين براثن وحش مفترس وعدها بالزواج لكنه نصب لها فخاً وألقى بها في مهاوي الرذيلة، فابتليت بالسل وقضت نحبها شهيدة الفضيلة والعفاف.

وهو يردّد أنغام الحزن والأسى حتى في الحبّ، فيقول في موشّحه «آلام الحياة»:

ثمَّ في الصحراء، في القفر الجديب　　فوق غصن شائك غير رطيب

أخذت منه شمال وجنوب　　يتباكى بلبل الوادي الغريب

كان من قبل محباً مغرماً　　علمته الحبّ أملاك السّما

فلماذا لا يرى مبتسماً　　بعد إلا بسمات بقطوب؟

أي قلب للمحبّ المبتلى　　ضيّع الماضي والمستقبلا

ذاهل عن كل شيء ما خلا　　نزعة من ذلك الحبّ الكئيب

يا غريباً ضاع في أوطانه　　يملأ الصحراء من ألحانه

نغماً يكشف عن أحزانه　　كلّنا مثلك مهجور غريب

إسأل الأسحار عن أحلامنا واسأل الظلماء عن آلامنا

قد نفثنا السّمّ من أقلامنا هو سمّ لا يداويه طبيب . . .

آهٍ على هذه الدنيا المليئة بالأحزان والكروب! إن المرء ليصرخ وليبكي ويستغيث، ولكن الصراخ والدموع كلها عقيمة فلا سامع ولا مجيب:

هي دنيا كل ما فيها شجون فاغضِ عن كل مساويها الجفون

إنما سخطك فيها كالجنون والتغابي سلوة الصّبّ الأريب

نادِ أفلاك السموات العلى واندب الفجر إذا الفجر انجلى

واملأ السهل بكاً والجبلا نادِ! هل من سامع أو من مجيب؟

آهٍ من صمت على الأرض عميق خرس الكون فهلاّ تستفيق

هذه الآلام تذكو كالحريق في فؤاد دَنِفٍ كاد يذوب

والهاشمي يقرن الحبّ دائماً بالشجو والألم، فهو يقول في قصيدته «ليلة عاشق»:

أيّها السّاهر، ما هذا الأرق لِذكرٍ أم بعاد أم قلق؟

غرق النوّام في ليلهمُ وتولاّني همّ قد طرق

ظلمة تأتي وأخرى بعدها تشبه البحر إذا البحر اندفق

أنا في الليل غريق، وأرى موجه يسبقني قبل الغرق . . .

فيك، يا ليل، مواعيد الهوى يتقاضاها الأسى ممّن عشق

إن فلسفة محمد الهاشمي في شعره فلسفة اليأس والشكوى: فالإنسانية معذبة والحياة شقيّة بائسة، والحنان قد مات في النفوس، والعدالة لا مكان لها في الأرض، والدماء تسيل مسيل الأنهر، والنار والأعاصير تفتك بالأرواح. وهذه قصيدته «صوت من الإنسانية» صورة مؤسية للبشرية في عصر الحضارة والعرفان، فلنصغِ إليه يقول:

أفي الأرض تبقى أم الى النجم ترفع نفوس لها في الأرض مبكىً ومجزع؟

لعلّ لها بعــد المنيّــة رقــدة | تخفّف عنهـا بعض مـا تتــوجّع
وتنسى بها بــؤس الحيــاة وشرّهــا | فـإنّ حيــاة البــائسين تفجّـع
لقـد سـاءهـا مـا في الحيـاة وسرّهـا | لها في الثـرى بين المقــابــر مضجع

ويقول:

تمتعت مـن نجم الثـريّــا بنظــرة | لك الله، مــا هــذا الــذي أتمتّع!
أحــاول أن أرقى إليهــا بجثتي | ومــا لي إليهــا سلّم فيــه أطلـع
أهيم إذا لاحت بها وبحسنهــا | ويخفــق قلبــي كلما هــي تلمــع
فيــا أيّها النجم المطلّ على الــورى، | لمثلي أن يشــوي بمثلـك مطمع
فيــا ليـت أني قبل مــوتي صــاعــد | إليك وأني في بــلادك أرتـع
وكنت إذا مـا جنّ ليل وأشرقت | كــواكب في داجٍ مـن الليـل شرّع
نظـرت الثـريّـا ثـم أغضيت نـاظـري | وقلـت: ألا ليـت المنيّــة تسرع
لأنجــو من أرض بها الفضل ضـائع | وفي أهلهــا بــالشرّ والســوء مقنع
فقــد سئمت نفسي الثــواء بمجمع | تــزيّـن فيــه المنكــرات وتصنع
يــذلّ بــه المستضعفــون ويعتلي | بــه الظــالم المستكبر المترفّع...

ومحمد الهاشمي شاعـر وطني يجري في عروقه حبّ العراق والأقطار العـربية جمعاء، فمن قصائده الوطنيـة «تحية الشهداء» نظمها في القاهرة وقـد شهد بعينيه مصرع شهداء الثورة المصرية سنة ١٩١٩ ورأى القتلى تتخبّط بدمائها عل قارعة الطريق، فقال:

لا تـدفنــوا الـدم بـالتراب فـإنّـه | يجري لنصر الحقّ فهــو مطهّــر
بل فــاكتبــوا منــه على أعــلامكم | كَلِماً كنيران الغضــا تتسعّــر
هــذا دم الشهــداء يهدر فيكمُ | لا تتركــوه على البسيطــة يهدر...

وقال يذكر المجد العربي الضائع:

نقضت لـك الأيــام عهــدا | إذ كنت للعــافين سعــدا
إذ كنـت تبغي مـن بغــاك | مـن النــدى صــدراً وورداً
فــأطــاعـك العصران | والملــوان معبــوداً وعبــدا
وإذا أبيت أبى الــزمــان | وإن دنــوت دنــا وجــدا
تمــضي الحــوادث كيفمــا | مــارستهــا حــلاً وعقــدا
وتــدور بين العــزّ والإقبــال | إبــرامــاً وردّا
ولقــد حميت الملك حتّى | صــار لــلآمــال مهــدا
ولقــد عمــرت الأرض بعــد | خــرابها عهــداً فعهــدا

وإليك أخلــــــدت الأنــــــام وأعــــــرضت عمّن تعــــدّى
وعـــــدلت فيما كنت تحكم بينهم فـأصبت رشـــــدا
ومضيت بـــالحكم الـــرشيـــد مـــدىً فما جـاوزت قصـــدا. . .
ولقـــــد بنيت مفـــاخـــراً شـمّ الـــــذرى وبنيت مجدا
وعنـت لـك الأقـــــــدار إذ ملكـت يــــداك لها مـــردّا
غـــالبت دهــراً عـــاتيـــاً حتـى تجبّر واستبّـــــــدا
فـأضـــاع دهـــرك غــــادراً بك نــاكثـــاً لك منـــه عهـــدا

ويختتم الشاعر قصيدته بالدعوة إلى النهوض وزرع بذور العزّ لحصد جناه.

ويحبّ الهاشمي الأمثال الشعرية حبّه للقصص المنظومة. فمن أشعاره «الوردة والفراشة» و «القبر والزهرة»، وكلاهما مقتبس عن فكتور هوغو، و «الذئب والحمل» أو القوة والضعف، و «النحلة والجلّنارة». وقصيدة هوغو «الوردة والفراشة» ترجمها شاعر لبنان الدكتور نقولا فيّاض (١٨٧٤ ـ ١٩٥٨) بعنوان (الزهرة والفراشة)، قال:

زهـــرة في الحقل يـــومــاً سألت من فَـــراش الحقل معشـــوقـــاً صغيرا
مـــا الـــذي يلهيك عني جـــاعـــلاً لك كـــالنجم اختفـــاءً وظهــورا؟
غـــائبـــاً حينـــاً وحينـــاً حـــاضراً مـــالئـــاً نفسي غيـــابـــاً وحضـــورا
أفما أنـــت رفيقـــي في الهوى أبـــداً أرشفـك الثغــــر الطهـــورا
عـــائشـــاً في عـــزلـــة الحبّ معي لا تَـــرى إنســـاً ولا تخشى شرورا
قـــد تماثلنـــا جمالاً وسنىً وتفـــاهمنـــا حفيفـــاً وشعـــورا
ولبسنـــا ثـــوب نـــور واحـــد فكـــلانـــا زهـــرة تسطع نـــورا
لا أرى مـــا بيننـــا فـــرقـــاً، بلى ســـوء حظي جعل الفـــرق كبيرا
أنـت في الجوّ طليق وأنـــــا بـــالثـــرى رابطـــة جسمي الأسيرا
كـم سرت نحـــوك أنفـــاسي فلم تتـــزوّد عطـــرهـــا إلاّ يسيرا
هـــائماً بين أزاهير الـــرّبى تـــائهـــاً في الجوّ زهـــواً وسرورا
وأنـــا أنظـــر ظلّي دائراً حـــول جسم عـــاجــز عن أن يـــدورا
وأبيتُ الليـل أشكـــو وحشتي بفـــؤاد لم يكن عنك صَبـــورا
ولـــذا تلقى بجفنـي أدمعـــاً كلما عُـــدْتَ مـع الفجـــر منيرا
هـــاجـــري، إن صح عهــد بيننـا فـــدع الهجـــر طـــويـــلاً وقصيرا
واتخذ مثلي أصـــلاً في الثـــرى أو أعِـــز جسمي جنـــاحـــاً فأطيرا

وقد أضاف نقولا فيّاض تكملة لقصيدة هوغو فأجاب عن لسان الفراشة يخاطب الزهرة قائلاً إنها مفتونة بهواها، متيّمة بحسنها، وبعادها عنها إنما هو سرّ من أسرار الطبيعة، فهي كالريح رسول الهوى تحمل ذرات الغبار الى الأزهار القاصية.

أما شاعرنا الهاشمي فيقول في ترجمته :

فراشة وقعت يوماً على شجر ... تفتحت فيه أزهار وأكمام
قالت لها زهرة صفراء ناضرة ... وقلبها فيه أحزان وآلام :
لا تهربي وأجيبيني بمسألة ... عن حظّنا، وحظوظ الخلق أقسام
شأني وشأنك في أمريهما اختلفا ... لغيرنا فيهما نقض وإبرام
تمضين أنت الى العلياء طائرة ... ولا أطير ولا لي ثَمَّ إعزام
لقد ضجرت ولكني على ضجري ... أحبّ نفسي وما في حبّها ذام
أعيش والناس عني مبعدون وكم ... في قربهم علل شتّى وأسقام
أشبهتني فلنكن زهراً نطير معاً ... لنا بها فوق هذا الروض إلمام
لكن أرى الأرض، والهفاه، تمسكني ... والريح تعليك: هذا الحظّ ظلاّم
إني سأعطيك من عرفي الجميل لكي ... يعطّر الجوّ نشر منه نمّام
لا، لست أعطيك، إن الزهر يصحبني ... وأنت يقصيك إنجاد وإتهام
رضيت عيشي وحدي في الرياض أرى ... ظلّي وينعشني ضوء وإظلام
وتهربين فتأتين الضياء إذا ... رأيت ناراً لها لمع وإضرام
في كل صبح بكائي دائم وعلى ... خدّيَّ من عبرات الفجر تسجام
آهِ لحبّكم الماضي الذي ذهبت ... به ليالٍ سعيدات وأيام
خذي، كما لِيَ، جذراً أو هبي ورقي ... جنحاً، كما لكِ، والآمال أوهام!

إنّ الهاشمي قد نظم رباعيات الخيام باللغة العربية جعلها خماسيّات واستند في نقلها الى ترجمة أحمد حامد الصرّاف النثرية، لكن ترجمته لا تتّسم بالدقة والسلاسة التي امتازت بها ترجمات عربية أخرى كترجمة الصافي النجفي وأحمد رامي. فمن أمثلة خياميّات الهاشمي :

يا الهي، إذا جنيت فإثمي
يا الهي، على شبابي وجسمي
وعلى نفسي الحزينة جرمي

أنا جانٍ رجوت عفواً وصفحاً ... منك قد غرّه رضاك فجارا

جيئتي في الدّنيا أذىً واضطراب

وبقـــــائي تحيّر وارتيـــــاب
وبقسرٍ يكــــون منّي ذهـــاب
أيّ قصـــد مـــن جيئـــة وبقـــاء وذهـــاب؟ قـــد ضلّت الألبـــاب
من حضيـض الثـرى الى حيثُ يبـدو
زحـل كلّ مشكـل فيـــه عقـــد
لاح منـــه في حيلتي لي رشـــد
كـــلّ ســرّ حلـــلت ثمّـــة إلاّ أجل مـــا كشفتـــه عـــن خفـــاء
لم يـــر الخلـــد واحـــد والسّعيرا
مـن أتـى مـن وراء مـــوت صغيرا
أفـــزع الموت والـــرجـــاء صـــدورا
نـــازعت مـــا يغيب عنهـــا ويخفـى غير ذكـــر الأســـماء والأوتـــار

سميراميس

نظم شـاعرنـا الهاشمي ملحمـة شعـرية عن سميراميـس بين الحقيقة والأسطـورة. وسميراميس ملكـة بـابل القديمـة حبيبـة الى الشعـراء، أثيرة لدى رجـال الفنّ، طـرق موضوعها غير واحد منهم. فهذا فولتير ينسج من حياتها رواية مسرحية مأساوية، وبول فاليري يصوغ منهـا مسرحية جديدة، وروسّيني يخرج عنها أوبرا موسيقيـة. وهذا بلند الحيدري صـاحب «خفقة الطين» يقول فيها قصيـدة تعجّ باللذة المحرّمة والحبّ الآثم واللّظى المخمور والقشعريرة الداجية والضحكة المحمومة المغرية المغرّرة.

ويهيم بالملكـة الأسطوريـة عمر أبـو ريشة شاعـر سوريـة فيستوحي منهـا مسرحية شعرية هي قصة الحب والجمال والطيوف والأحلام، تقول سميراميس في مطلعها:

عبيرك يـــا ليل وهـج الحيـــاة فـــلا تتنفـس على مضجعي
بعثـت بـــآخـــر مـــا تمتمت شفـــاه الـــربيع على مسمعي
أحـسّ بـــه رعشـــة في دمي وحلماً جـــريحاً على مـــدمعي
ألا أيـن بـــدعـــة حلمي إذا تـــرنّحتُ بـــالقـــدح المترع
وأيـن الصـــدى لنـــداء الحنين إذا عـــربـــد القلب في أضلعي
أريـــد... ودوني انهيـــار الفتـــون على كـــلّ ذي هيـــف ممتـــع

أما سميراميس الهاشمي فصحراء ممتدّة الأطراف تكتنفها الواحات والرياض.

ينظر الشاعر الى الوجود قبل الخليقة بمنظـار الأساطير البابلية، فإذا هو فراغ عظيم لا نور فيه ولا ظلام:

قبل خلق السماء والأرض كـان الأب «أبسـو» هـو الإلـه العظيما
و «تيـامـات» الأم كـانت فكـان اثنـان لا مـن ثـلاثـة أقنـومـا
حين لا ليل في المكـان ولا يـوم ولا مجهـولاً ولا معلـومـا
قيل: لا شيء، قيل: سرّ بعيـد مـن عماء أن لا نـراه سـديما
عـدم مـن وجـوده وهـو صفـر في فـراغ لا يقبـل التقسيما
أهـو نفي، وكيف يـدرك نفي؟ أم ثبـوت، فما وعَمَّ وفيـمَ؟

ثم كـانت الخليقـة وكـانت الآلهة وكـان الصراع والحرب. وكـانت بعـد ذلك بـابل وحمورابي ونينوس، وهذه سميراميس ترقى العرش فتخاطب شبح بعلها قائلة:

هَـوِّنْ، وحسبـك مني أنني امـرأة لا يثقـل التـاج أحـلامي ويلهيني
نـم مطمئنـاً فـإنّ الملـك يشغلني عـن احتفـال بتحسين وتـزيين
يكفي النسـاء عبير يـدّهـنّ بـه، وليـس إلاّ عبير المجـد يكفيني
إن الكيـاسـة في الأنثى مظـاهـرة جمالها تقلب الـدنيـا مع الـدين
حـوريـة أنـا لا غـول نـزلت بهم من عرش مردخ[1] ذي الخمسين أو«سين»[2]
ويشهـدان بـأني غير قـانعـةٍ حتـى أرى مصر في ملكـي الى الصين
فأمـلأ الأرض مـن حـرب ومن ظفـر ومـن سـلام ومـن فتح إلى حين

لكن الدسائس والمؤامرات لا تلبث أن تسري في أروقـة القصر الملكي فيقول الكاهن الأشوري:

إذا سكتـوا فعـن داء دفينٍ وإن نطقـوا عـلانيـةً فهلـكُ
يـداهن بعضنـا بعضـاً ويحيى حيـاة الموت، إنّ الموت تَـرْكُ
عـزيـز النفس ذلّ، وكـل حـرّ لـه عيش وراء العـزّ ضنـك
وقيـد الليـث إن يصبرْ عليـه يحصّ اللبـدتين ولا يفـكّ
ومـا شـمّ الأذى أنـف حَمِيّ ولـو أن الأذى ورد ومسـك
ومـن حلم اللبيب مغـامـرات تـدكّ بها الجبـال ولا تـدكّ
أرى بشريـة تـدمى وهـدر دم حـرّ على يـدهـا وسفـك
وقل: كيـف الإقـامـة في بـلاد مشقّـة عيشهـا معك ودعـك
وليـس الملك مـن تـاج وعـرش وحـاشيـة بل الأخـلاق ملـك
صـلاتـك للحسـام العضب ديـن وصـومك عن مـذاق الـذلّ نسك

---

(١) مردخ إلـه بابلي.

(٢) «سين» القمر وهو «ود» عند العرب.

ويحلّ رأس السنة فيهرع أهل بابل للاحتفال بالمهرجان و إقامة طقوس العيد :

صبـــاح غــد عيــد وجـاءت وفـوده ... ليحتفلـــوا والـــوافـــدون جموع
سما بهم شــــوق الى أمّ بـــابـل ... وغصّت ديـــار منهم وربـــوع
وصفت جنـــود واستعـــدّت تحيّـــة ... فمنهـم سجـــود دونها وركـــوع
وآلهة في فلكهـــا ووفـــودهـــا ... أتـــوهـــا وكلٌّ ســـامـع ومطيع . . .
هنـا معـرض الـدنيا فما شئت فـاقتبس ... بـروعـــاً، وآيـــات النبـــوغ بـروع
فهـــذا يـــريك العلم كيف فنـــونـــه ... وهـــذا يـــريك السّحـــر كيف يـــروع
وهم زُمَـــرٌ والنـــاس فـــوضى بأنهم ... لكـلٍ الى مـــا يشتهيـــه نـــزوع
وهـزل وجـــدّ بـالسيـوف وبـــالقنـا ... ووثب وقفـــز تـــارةً ووقـــوع . . .

تشهد سميراميس مشاهد المهرجان فلا تني تقول :

ســـلام وحـبّ أيها البلـــد الخَصْبُ ... بحبّك فلتصبـــو القلـوب التي تصبـــو
على خير أرض فـــوقهـــا خير أمـــة ... إذا ذكـــرت بـــالمجـد قيـل لها : حَسْبُ
وجنّـــة عـــدن رافـــداهـــا وأرضهـــا ... بها النخل والكـــرم المعـــرّش والعشب
جـــرى كل إقليـم اليهـــا بمائه ... لها الشرق مـن أنهارهـــا ولها الغـــرب
مفجّـــرة الماءين في كـلّ بقعـــة ... فتروى ويـروي مـا بها مـاؤهـا العـــذب
خصـــوبـــة صقع من زكـــاة تـــرابــه ... فـلا القحط معهـود عليهـا ولا الجدب
وكـــالتّبر لـــون الماء جـارٍ سبيكـــه ... وكنـــز عليهـــا الطين والـــرّمل والتّرب
وغـــاب نخيـل ســـابغ الظـل والجنى ... وفـــاكهـــة مـــا تشتهـي العين والقلب
ومـــا الشهـــد إلاّ تمرهـــا لـــو تـــذوقـــه ... لقلت : أشهـــد في الكـــوارة أم قسب . .

لكن الحياة لا تلبث أن تجور على الملكة فتبدّد أحلامها وتخيّب آمالها ، فتقول :

هـــذه حيرة الحيـــاة انتظـــار ... يُـــذْكـــر المرءَ مـــا يكـــون وَيُنْسي
والأمـــاني شعـــاعـــه في سراب ... مـن ضيـــاء على ظهـــور وطمس
لا تقل في الغنـــاء نغمـــة سعـــد ... إن تقـل في البكـــاء أنّـــه نحس
هـــذه الشمس كلهـم عبـــدوهـــا ... وإذا مـــا انفـــردت أعبـــد نفسي
مَنْ دليلي على ابتكـــار؟ فقـــد طـــال ... وقـــوفي على قـــرائح دُرْس
خـــذ إليك الكـأس التي لـك واشرب ... فلغيري لا ينبغـي أخـــذ كـأسي
قتـل الأذكيـــاء مـــا وجـــدوه ... مـن فســـاد على النفـــوس ورجـس
حيّرتها دلائل الحرص حتّـــى ... عقـــدت حظهـــا بختم وكـــرسي

وكانت الخاتمة، فإذا نينياء الشاب يرقى عرش أمّه وإذا سميراميس الملكة المخلوعة تنسخ حمامة فتنوح قائلة:

صورٌ: برج له سبعته ... صور فيها رعايا وملوك
صور: يوم وأمس وغد ... وخيال وظنون وشكوك

وتقول القهرمانة ناناث:

آخر العهد كان في باب إيلا ... مسحت وجنتيك أنمل بيلا
خلعت ثوبها إليك وطارت ... بعد أن مسّها التراب قليلا
وأثارت في الأرض حرباً وسلماً ... وأطالت إقامة ورحيلا
الوداع، الوداع، أيتها الأرض ... احتملنا عليك حملاً ثقيلا
إفتحوا لي باب السماء فبئست ... حفرة الأرض من سماءٍ بديلا

رشيد الهاشمي

محمّد رشيد بن يحيى بن عبد القادر الهاشمي، ولد في بغداد من أسرة فقه وأدب في سنة ١٨٩٦، ودرس اللغة العربية وآدابها على يد أخيه عبد المجيد، ولازم بعد ذلك محمود شكري الألوسي فأفاد من دروسه. ونظم الشعر، ومال الى الأدب، وآمن بالمبادىء القومية والوطنية، فقصد الحجاز سنة ١٩١٦ والتحق بالثورة. ثم شخص الى القاهرة في بداية سنة ١٩١٨. ومضى الى الشام عند تأسيس حكومتها العربية فعيّن كاتباً في المجمع العلمي العربي عند تأليفه سنة ١٩١٩.

عاد الى بغداد سنة ١٩٢٠، فعمل في ميدان الصحافة. وكان محرراً لجريدة «دجلة» التي أصدرها داود السعدي (٢٥ حزيران ١٩٢١) وجريدة «الرافدين» لصاحبها سامي خوندة، وقد صدرت في ١٦ أيلول ١٩٢١ ودامت الى ٢٤ آب ١٩٢٢. ونشر شعره وبحوثاً أدبية واجتماعية في مجلة اليقين التي أصدرها شقيقه محمد الهاشمي (١٩٢٢ ـ ٢٥). ونشرت مقالاته وقصائده في الجرائد العراقية كالعراق والاستقلال والفلاح والصحف الحجازية والسورية والمصرية كالقبلة والعقاب والمقطم والنور ولسان العرب والمفيد والنهضة الخ.

وغالى في تطرّفه فهجا الملك فيصل الأول وحكومته، وكان قبل ذلك قد مدحه حين إعتلائه العرش سنة ١٩٢١، فقال:

رقاك، يا عرش، من ترجو وتنتظر ... وزانك العلم لا الياقوت والدرر
يهنيك فيصلٌ الجليل ومن ... في راحتي جدّه قد سبّح الحجر
يا ابن النبّي، وأحلى الشعر أصدقه، ... سيل المفاخر من واديك ينحدر
.... الخ.

إنتمى الى مدرسة الحقوق في أواخر سنة ١٩٢٢ ومكث فيها أربع سنوات، حتى إذا ما آن أوان التخرّج، أصيب برجّة عصبيّة فأودع مستشفى الأمراض العقلية حيث قضى نحواً من سبع عشرة سنة. وتوفي ببغداد في أوائل سنة ١٩٤٣. وقد رثاه أخوه محمد الهاشمي فقال:

قل لهم: ما وفاء حق الأديب؟ شغلوا عنك بالزمان العصيب
ليس داء الأعصاب فيك عياء بل دليل القضاء عجز الطبيب
كلهم يسألون عنك وعنّي فيقولون للدموع: أجيبي
ما افترقنا، وليس كالموت بُعْدٌ فيه عهد القرب غير قريب
ونحيبي حزن عليك وشعر وغناء الحزين صوت نحيب

وقد طبع ديوان رشيد الهاشمي سنة ١٩٦٤ بعناية عبد الله الجبوري ـ وصدّر بمقدمة لمحمد بهجت الأثري.

وقيل إن رشيد الهاشمي توفي في ١٥ تموز ١٩٤٦ في دار الشفاء ببغداد حيث قضى الـ ١٩ سنة الأخيرة من حياته لمسّ أصابه في عقله.

مأساة النبوغ:

إن النبوغ إذا اقترن بإرهاف الحسّ ورقة الشعور، وامتحن بالحرمان والفشل والجحود، وصهر في بودقة ألم النفس وعذاب الجسم، كثيراً ما يدفع بصاحبه الى الإرهاق العصبّي والجنون أو الموت. وقد سجل التاريخ الأدبيّ فواجع رهيبة في إطار من البؤس والهوان والرثاثة والدم: فهذا الفيلسوف المتصوّف أبو حيّان التوحيدي الذي اتّهم بالزندقة ولقي من العنف والاضطهاد ما حمله على إحراق مؤلفاته واستتاره عن الوزير المهلبي الذي ألحّ في طلبه، حتى مات في نحو سنة ١٠١٠م.

وهذا الشاعر الإنكليزي توماس شاترتون (١٧٥٢ ــ ١٧٧٠)، رأى نور الحياة يتيم الأب، وتمرّغ في أوحال الفاقة والجوع والحرمان، حتى إذا ما غلب عليه القنوط، مزّق آثاره المخطوطة وتناول السمّ في ربيعه الثامن عشر. كان شعره يفيض باللوعة والمرارة، دعا القارىء الى البكاء معه، فقد مات حبّه تحت شجرة الصفصاف. كان حبّه فاحم الشعر كليل الشتاء، أبيض البشرة كثلج الصيف، أحمر الخدّ كضوء الصباح، وهو يرقد الآن بارد الجسم في حفرة القبر.

وتصّور الحرية ترتدي معطفاً ملوّثاً بالدماء، وقد كلّل رأسها بالأعشاب البرّية.

وذلك الشاعر الفرنسي هيجيسيب مورو (١٨١٠ ــ ١٨٣٨) قضى الحياة هائماً شريداً، وعمل ممرّضاً في أثناء تفشّي وافدة الهيضة في باريس سنة ١٨٣٢ سداً لرمقه. باع شعره لبعض الناشرين بدريهمات معدودة، وانتهى به المطاف الى ملجأ حيث وجد

الراحة أخيراً في الموت. قال في بعض قصائده: «لقد كنت تلميذاً فقيراً حالماً غريب الأطوار، ولكم نثرت فتات الخبز لطير الشاطىء فقال لي الماء: تمسّك بأهداب الأمل، فإنّ الله سوف يعيد لك خبزك! لكنّ الله لا يزال مديناً لي به».

وماذا عن جيرار دي نرفال الأديب الشاعر (١٨٠٨ ـ ١٨٥٥) الذي هام بفاوست، رواية غوتي، ونقلها الى اللغة الفرنسية بما يكتنفها من سحر وإغراء وظلمات جهنميّة؟ لقد ألم بشيء من العربية والفارسية، وانصرف الى قراءة كتب التصوّف وما وراء الطبيعة، وهام على وجهه في القسطنطينية وربوع سوريّة وجبل الدروز. وزادت هواجسه يوماً بعد يوم، واستغرق في لجج مظلمة بعيدة الغور من الرؤى والآمال، حتى انتهى به المطاف الى مصحّ للأمراض العقلية. وفي مساء يوم قارس البرد، وجد مشنوقاً في شبّاك بعض الدور المنزوية بأحد الأزقة الباريسية. لقد انتحر ذلك الشاعر الذي يقول: «إنني فتى الظلام الثاكل الذي لا يعرف السلّوان، أنا الأمير الذي هدمت قلعته. أفل نجمي الوحيد، وصدح قيثاري بأنغام الشمس السوداء والملنخولياء...».

ومأساة الشاعر الأديب المرهف الحسّ محمد تيمور (١٨٩٢ ـ ١٩٢١) ابن العلامة أحمد تيمور باشا أشهر من أن تعرّف: فقد ضاق ذرعاً ببيئته الأرستقراطية وعزف عن دراسة الطب، ثم احترف التمثيل وخالط المحافل الأدبية والفنية. ألحّ عليه المرض فقال:

هيئّوا لي في باطن الأرض قبرا	ودعوني أنام تحت التراب
في ظلام القبور راحة نفسي	ومن النور شقوتي وعذابي...

وقضى في ميعة الشباب.

وذلك الشاعر المصريّ أحمد العاصي (١٩٠٣ ـ ١٩٣٠) الذي قال فيه شوقي:

هذا شباب الشعر يلمح ماؤه	من جدول العاصي ومن ديوانه

مرض بداء الصدر وعاش متبرماً بالحياة، غلبته هواجسه فأغلق نوافذ حجرته في مسكنه بالقاهرة وصبّ على نفسه مادة كاوية أودت بحياته.

والأديب الغريب إسماعيل أدهم (١٩١١ ـ ١٩٤٠) الذي اختلف الناس في سيرته ودراسته، نبغ في الرياضيات وألف في التاريخ الإسلامي والزهاوي الشاعر والإلحاد ونظرية النسبية وعلم الأنساب. أضناه داء السلّ، فلم يجد خيراً من الانتحار غرقاً في ساحل الإسكندرية اللازورديّ.

والشاعر إبراهيم أدهم الزهاوي (١٩٠٢ ـ ١٩٦٢) رأيناه بيننا غريب الأطوار، عجيب الأخبار، يجمع العنف الى الطيبة وسلامة الطويّة، ويمزج الورع الشديد بالتصوّف والتحلّل، يحبّ الناس حباً أفلاطونياً خالصاً ويحتقرهم ويسيء الظنّ بهم في آن واحد. ولقد طالما شهدناه يجلس في المقهى أو يسير في الشارع متثاقل الخطوات وقد أطلق لحيته وتهدّل شعره على كتفيه ورثّت ملابسه، وهو يحدّق في الفضاء ويرسل الى اللانهاية نظرات شاردة جوفاء.

أما شـاعرنا رشيـد الهاشمي فقد توفي والده وهـو يدلف الى التاسعـة، فتركه لرعـاية أخويـه الكبيرين، ونشأ مـرهف الحسّ ثائراً تتـوقد بين أضـالعه النار وتنطلـق في ذهنه العواصف. إنتمى الى الجمعيات السرية الوطنيـة، وهجا الأتراك مرّ الهجاء. ورغب في التطوّع للقتال في صفـوف جيش الثورة الحجازية، ونطق بـالشعر الحماسيّ الذي يلهب النفوس ويثير الهمم والعزائم.

رافقته المصائب والأحزان منذ طفولته فخاطبها قائلاً:

نوب الليـــــــالي، خفّفـي،	أو مـــــــا سمعـت تـأفّفـي؟
رافقتنـي طفـــــــلاً، وذا	زمـن الصّبـــــا، فتخلّفـي...

ثم تمرّد وقال:

زيـــدي عــــداءك، إنّ نــــور	قـــــــــريحتي لا يختفـي
لا تحسبــــــــــي أني أذلّ	ونــــــار عـــــزمي تنطفـي

وعاش رهين أسرين فقال:

بين أسريـن عشت عيش اضطـــــرار	خــاضعـاً لــلأجسـام والأقــدار
تلك للــروح قــد قضت بـالأسـار	والأخيرات حيّرت أفكـــــــاري:

مـــا نجـــاتي، وأين أيـن قـــراري؟

ظلمات الضلــــوع تـــزعج قلبي	هـي كــــالليل لا يضيء بشهب
غير أني لما شعــــــرت بحـبّ	قلت: رفقـــاً بقلب عبـــدك، ربّ،

كــلّ حـبّ مخفّـف أكــــــــــداري

آمن الشاعر بالحبّ شعاعاً لمعنى الجمال والخلـود، لكن الشكوك ساورته: ما مغزى الحياة، وما الفكر، وما أسرار الوجود؟

يـــا نيـــامـــاً تحت التراب، إلا مـــا	لا تخبرون عن ســؤالي كـــلامـــا؟
أضيـــــاءاً رأيتم أم ظـــلامـــاً	أم رأيتم في نــومكـم أحــلامـــاً؟

لا تنـــامـــوا، قــد لاح ضـــوء النّهـــار.

وقد راعه حال أمته وما بلغته من جهل واستكانة فقال:

يـــا نـــائمين على جـــور الهوان، كفى	ذلّ يغـــادر صـــدر الحرّ مـــوقـــودا
هبّـــوا وذبّـــوا عن استقـــلالكم بظبىً	تخلّف الـــدهـــر مضنى القلب معمـــودا
لا بـــدّ للعـــرب أن تحيـا بـــوحـــدتها	وأن تـــرى تـــاجهـــا للكف مـــوســـودا

وهاج بلابله الليل البهيم فحدّثه قائلاً:

أيها الليـل، يـــا أبـــا الأسحـــار،	أيـن زهــــر النجـــــوم والأقمار؟

كـــان للبـــدر في ســـوادك ضـــوء ... مـــــلأ الخافقين بـــــالأنــــــوار
كنت، يـــا ليل، عبـــده، ولقـــد كـــان ... مليكـــــاً لـــــه النجـــوم جـــواري
كـــــان يـــوليك رحمة وحنـــانـــــاً ... كـــــان يكســوك حلّـــة الأحـــرار

ويشعر، وهو الشاعر الشابّ الذي لا حول له ولا طول، كأنه مسؤول عمّا آل إليه أمر أمته وبلاده، فيقول:

دافعت عن حق قـــومي حيث أنهمُ ... قـــد قلّـــدوني هـــاتيك المقـــاليـــدا
بمنطق تــــــرك الأسماع واعيـــــة ... والـــروح تطلب منيّ فيـــه تـــرديـــدا
إنّـــا لقـــوم ورثنـــا الفضل من قـــدم ... والحلم والعلم والإخــــــلاص والجودا
جَـــدّي الـــذي قهر التيجـــان قـــاطبـــةً ... وشــــاد للعـــرب ملكـــاً ليس محدودا
إنّـــا هجمنـــا على كسرى ودولتـــــه ... وبـــدّدت خيلنـــا الأروام تبـــديـــدا

ويعيد النظر في حال بلاده فيصيح:

يـــا للـــرجـــال ويـــا للصيـــد من مُضَرٍ ... ضـــاع العـــزيـــزان: ديـن الله والحسبُ
أين الحميّـــة، بل أين الشهـــامـــة، بل ... أين الشجـــاعـــة والهنـــديـــة القضب؟
أين الأُلَى تــــزأر الـــدنيـــا إذا زأروا ... ويغضب الله والأمـــلاك إن غضبـــوا؟..
بغـــداد بـــاكيـــة، والشـــام شـــاكيـــة، ... والقـــــدس مـــرتهب للشرّ مـــــرتقب
لا تبخلنّ بـــــروح أنت حــــاملهـــا ... فـــالموت، يـــا شهم، في نيل العُلَى ضَرَبُ

ويغضب أخيراً ويثور فيخاطب ملك العراق خطاباً شديداً ويعاتبه عتاباً مراً، فيقول:

يـــا لابس التـــاج في بغـــداد هُنِّئتَـــا ... بـــه، إذا كنت لاستقـــلالـــه جيتـــا
لا يكمل التـــاج إلاّ أن يكـــون لـــه ... جيش يشتّت شمل الـــذلّ تشتيتـــا
فـــزنـــه بـــالحقّ والعـــدل الأعمّ، ولا ... تـــرصع لـــزينتـــه دراً ويـــاقـــوتـــا
واستعمل الحزم وانقـــذ أمـــة نصبت ... من بعـــد نهضتهـــا لـــذلّ طـــاغـــوتـــا
نحن الـــذيـن بنينـــا في جماجمنـــا ... عـــرش المليـك وثبتنـــاه تثبيتـــا
شيخ الـــوزارة ميت لا حـــراك بـــه ... إن جئت مجلســـه تلقـــاه تـــابـــوتـــا

طغت الهواجس على نفس الشاعر وجثمت على صدره كالليل الرهيب، فناء بها جسمه الواهن ولم تحتملها أعصابه المرهقة. وكذلك ذُهِبَ بلبّه وطُوّح بعقله، وعاش بقيّة عمره في فراغ ذهني، حتى انتقل من ضباب الخبل الى ظلمة الموت.

***

في تقرير سرّي للآنسة جرترود بل كتبته إثر زيارتها لسورية في تشرين الأول ١٩١٩، حين كان الأمير فيصل يرأس الحكم في دمشق، قالت إنها استدعت رشيد الهاشمي

الذي كانت تعرفه في بغداد، ثم مضى فجأة الى الشام. قال لها إنه فرَّ من العراق بعد اتهام أخ له بالاتصال بالأتراك.

قالت المس بل إن رشيد وأخاه محمد الهاشمي مناوئان بشدة للأوروبيين، ورشيد يعمل سكرتيراً لياسين الهاشمي. وقد خطب قبل أسابيع فقال إن دجلة ستجري دماً، ولم يصرّح أهو دم عربي أو بريطاني. وعلى أثر ذلك أمر علي رضا باشا الركابي حاكم دمشق بالقبض عليه وسجنه أمداً قصيراً. وقد بدأت علاقة رشيد بالبريطانيين سنة ١٩١٦ في البصرة جاءها هارباً من الترك، فمنحه الإنكليز مخصصات الى ما بعد سقوط بغداد. . .

ولم يحصل بعد ذلك على وظيفة لأن عقله ـ كما قالت المس بل ـ لم يكن ثابتاً وظهر لها كأنه «ضئيل المسؤولية».

إبراهيم منيب الباجه جي

الشاعر إبراهيم منيب الباجه جي ينتمي الى الأسرة الباجه جية المعروفة، وهو ابن أحمد بن محمد سليم بن عبد الرحمن. ولد في بغداد في سنة ١٨٧٦، وأحسن والده تربيته وتعليمه. ثم أدخل إحدى المدارس الابتدائية عهداً قصيراً، ووضع بعد ذلك في دائرة تحرير ولاية بغداد للتمرّن على الأعمال الكتابية (١٨٨٩). وتقدم في سلك الخدمة، ومهر في النظم والنثر باللغتين العربية والتركية. واستقال من الوظيفة سنة ١٨٩٦، وسافر الى استانبول، ثم عاد منها واستأنف العمل في دائرة الولاية (١٩٠٠)، وعيّن أخيراً معاون رئيس التحرير في إدارة الأملاك السّنية.

كان ابراهيم منيب من فتيان زمانه المولعين بالخيل واللهو والغناء. وقد أطلق الرصاص على بعض شباب الملاهي سنة ١٩٠٧، فحكم عليه بالسجن. وسجّل معروف الرصافي تلك الحادثة ـ التي قامت لها بغداد وقعدت ـ شعراً في قصيدة رثى بها القتيل وبرّر فعل القاتل، وقال:

قضى، والليل معتكر بهيم، ولا أهل لديه ولا حميمُ

وأصدر بعد ذلك جريدة أدبية باسم «الرياحين» في ٢٨ آذار ١٩١٣.

واحتلّ الإنكليز بغداد فعيّن إبراهيم منيب مفتشاً في دائرة الشرطة (١٩١٧) أمداً وجيزاً، ثم عيّن كاتباً في وزارة الدفاع (١٩٢١). وأحيل على التقاعد في آخر آذار ١٩٣٧، ثم أعيد استخدامه في تموز من نفس العام لعهد غير طويل.

وتوفي في بغداد في ١١ حزيران ١٩٤٨.

مؤلفاته وشعره :

وضع رسالتين في «التبصرة لمولعي الخمـرة» و «نزهة الأحداق في مبـاحث السباق» ، ورسالة ثالثة باللغة التركية عن رحلته الى الإستانة .

وطبع ديوانه الأول سنة ١٩١٣ ، ثم طبع مجموعة ثانية من شعره باسم «زنابق الحقل» (١٩٣٨) .

ويتسّم شعره بالرقّة والسّهولة ، ويزخر بالمعاني التقليدية والأفكار السائدة في عصره ، فقلّما تجد فيه ابتكاراً أو التماعة ذهنية .

نظر شاعرنا الى طاق كسرى فقال :

بنـــاء شـــاده ملك كبير ... دعـائمـه العـدالـة لا الصخـور

تسـامى مشمخـراً بـارتفـاع ... لـديـه كلّ ذي طـولٍ قصير

كـأني بـالسماء عليـه شيـدت ... كطـاقٍ حـولـه الآفـاق سُـورُ

تفـرّد في الفـلاة ولا أنيس ... ولا خـلّ لـديـه ولا سمير

تعـالجه الـزعـازع وهـو رآسٍ ... كطـود لا يـزول ولا يمـور

فكـم عصر تقضّـى بعـد عصر ... ومـا أبلت معـالمه العصـور

ومـا قـد كـان شيّـد فوق عـدلٍ ... فـلا تبلي معـاليـه الـدهـور

ونزعت به نفسه الى المعالي فقال :

طلبت العلى ، لا بـالحسـام المهنّـد ... ولكن بـرأي كـالسّهـام مسـدّد

فـأدركتـه حتى ملكـت قيـاده ... وأصبح عنـدي وهـو واحـد أعبدي

لقـد رام إذلالي العـداة بكيـدهم ... وهيهـات من إذلال أروعَ أصيـد

فإني ، وإن أمسيت في السجـن غـاربـاً ، ... سأشرق بعـد اليوم كـالشمس في غـدِ

ولا بأس أن أصبحت كـالسيف مغمـداً ... فكل حسـام إن مضى الحرب يغمـد

ومـا ضرّني سجني وتقييـد أرجلي ... فعضب لسـاني مطلق دون حُسَّـدي

حدت به تجاربه في الحياة على العزلة والانفراد فقال :

تجرّد مـا استطعت وعش وحيـدا ... إذا مـا رمت أن تحيـا سعيـدا

أرى الإنسـان في دنيـاه يشقى ... إذا هـو لم يعش فيهـا فـريـدا

وقال على لسان طاق كسرى :

يـد الأيـام لم تعبث بمثلي ... وإن أضحت دوائرهـا تـدور

ولكـن قـد رأيت العـدل ولى ... وحـلّ محلّـه الظلم الكبير

فملت الى التـزهّـد بـانفـرادي ، ... ومثلي يفعـل الـرجـل البصير

وشعره طافح بالمعاني الإنسانية، فهو يحبّ أمه ويقول:

ولــدت خليـــاً لست أدري بها عنـــدي ... ولم أدر مـــا همّي ولم أدرِ مـــا قصـــدي

فـأوّل شيء حــلّ قلبي محبّـــــــــة ... لأمـي التـي لم تنأى عنّي مــــــا يجدي

يــــلاطفنـي منهـــا حنــــان ولم يكن ... يقـابلـه مني سـوى الضحك في المهـد

وذاك لـــديها نعمـــة عــــزّ مثلهـــا ... تــــراقبهـــا منّي ببـــاصرة الحمـــد.

وهو في قصيدته «في سبيل البؤساء» يأسى للبشرية المتألّمة ويقول:

وافى بـــــدمع ذارف هتّـــــانِ ... يشكـــو الـــزمـــان وقســـوة الخلاّن

شيخ مـــلامح وجهـــه دلّت على ... مــاضي وجــاهتـــه بكلّ معـــاني

وعليـــه أطمار تـــراهـــا رقّعت ... مـن فقـــره بغــرائب الألـــوان

يمشي فتــوقفـــه طــوارىء ضعفـــه ... متعكّـــزاً عـــوداً من العيـــدان

والـــوجـــه منــه قــد علتــه صفــرة ... تحكي هنـــالـك صفـــرة اليرقـــان

وقف الشيخ يسأل ذليلاً وهو يتضوّر جوعاً، فأخذه الشاعر الى داره وأتاه بأطايب المأكل والمشرب. ثم استعلم عن حاله فقال إنه عاش ستين عاماً هانئاً سعيداً، ثم تـوالت عليه المصائب، فبارت تجارتـه وبقي بـلا مال ولا ولـد ولا سكن، ونأى عنه الصحّاب حتى لقد تمنّى الموت فلم يسعفه الموت:

مـــا لي أرى الإنســـان يقســو قلبـــه ... تلقـــاء رقّـــة دمعـــة الإنســـان؟

مــــا لي أرى الإنســـان لم يعطف على ... حـــــال الفقير البـــــائس الحيران

أفٍّ لقلـب لم يـــــرقّ لبـــــائس ... لهواً مـن الـــدنيـــا بعيشٍ فــــان

وهو مولع بـالقصص الشعري، ففي قصيدته «إقبال وادبار» يـروي قصة فتاة هيفاء جميلة من الأعراب، نشأت في عز وحشمة بين أبيها وأمّها. ثم قضى الأب وقد فتك به خنجـر ظالم شرّيـر أراد خطف فتاتـه. ولم يمض وقت طويل حتى قضت الفتـاة حزنـاً وأسى، فشيّعهـا الشاعـر الى القبر أسيفـاً. وشاء أن يكمـل خطوط المأسـاة فجعل الأم تلقي بنفسها في بئر قريبة من تربة ابنتها، فدفنوا الثلاثة جنباً الى جنب.

إن شعر إبـراهيم منيب يطفح بالألم، لكنـه يذكر أحيـاناً لهو شبابـه وأنسه فيحن الى أيامه السّالفات ويقول:

رعى الله ســـاعـــات تقضّت من العمـــر ... بـــدجلـــة، والأرجـــاء تـزهـــر بـــالبـــدر

وزورقنــــــا إذ ذاك طيراً تخالــــــه ... يمــدّ جنــاحيــه مـن الشـــوق كـــالنّسر

ودجلــــة تجري في مــــذاب مفضّض ... يـازجـــه ضـــوء المقـــاصير بـــالتّبر

يـــــلاعبـــــه نفح النسيم فتنجلي ... مــــويجاتـــه عـن نسج درع من الـــدرّ

ويطـــرب سمعي من بعيـــد خـريـــره ... إذا انحـطّ من عــــالٍ الى أسفـلٍ يجري

وتغرق الباخرة «تيتانيك» سنة ١٩١٢، فيتبارى شعراء العراق في رثائها. ويدلي شاعرنا دلوه في الدلاء فيقول:

سرت والبدر في أفق السّماء يساريها بأجنحة الضياء
سبوح تزدري بالبدر زهواً منوّرة بنور الكهرباء...
ولما أن نأت عن كل أرض ولم ترَ غير آفاق السّماء
أتاها تحت طيّ الماء طود يطوف من الجليد على عماء
فشتّت شملها الموصول قسراً الى ما غير وصلٍ والتقاء
وأغرقها بمن فيها سوى مَنْ توصّل بالسّلامة للنّجاء
وأمست وهي راسية بقعر من الظلماء من بعد الزّهاء
على حين الكواكب زاهرات ووجه البحر يشرق بالضياء

وكذلك الحياة الى فناء، والكواكب زاهية والطبيعة ضاحكة:

فلا عيش يدوم ولا صفاء، وهل بعد الحياة سوى الفناء؟

حدثني أحمد حامد الصّراف قال: كان إبراهيم منيب الباجه جي مولعاً بالسباق لا يفوته يوم من أيامه. وكان حلاّقه يشاركه نفس الهواية، فلقيه يوماً في الحلبة وسأله عن الحصان الفائز ليراهن عليه، ودلّه إبراهيم منيب على حصان أو حصانين فلم تصدق فراسته.

وفي صباح اليوم الثاني مضى الشاعر كعادته الى دكان الحلاق وجلس على الكرسي ليحلق ذقنه. وسلّم عليه صاحبه هاشاً باشاً. وشدّ الفوطة على صدره، ووضع على وجهه الصابون ثم قال:

يا أستاذ، لم تصدقني البارحة في ساحة السباق. لقد دللتني على الخيل الخاسرة وراهنت على الفرس «الصقلاوية» التي فازت فربحت مبلغاً جسيماً.

واعتذر الباجه جي بأنه إنّما دلّه على الخيل المعروفة، أما «الصقلاوية» التي راهن عليها ففازت مصادفة، وهو ما يعرف في اصطلاح أهل السباق بـ«فلوك» أي حظّ.

ولم يقنع الحلاق بهذا الجواب، بل ظلّ يجمجم ويدمدم، وصاح: يا غلام، هات الموسى «الصقلاوية» لنحلق وجه الأستاذ. قال ذلك وهو يفرك وجهه بالصابون بحركة عصبية.

وبادر الباجه جي فنزع الفوطة وقام من الكرسي وجرى قائلاً: عفواً، لقد نسيت أمراً مهماً ويجب أن أعود الى الدار. وخرج الى الشارع راكضاً لا يبالي بالصابون الذي يلطخ وجهه.

قال الصراف: رأيته مضطرباً فهدّأت من روعه وقلت له: ماذا دهاك، ولم هذا الخوف؟

فأجاب: رأيت الشرّ في عيني الحلاق وحركاته فنجوت بنفسي. ولو ذبحني بالموسى لرقدت تحت التراب مضرّجاً بدمي، مستعجلاً قدري، مبتدراً منيّتي. وهل كان يعزيني أو يخفّف عني أن يقبض على الحلاق ويحاكم ويلقى به في غيابه السجن؟

من شعر إبراهيم منيب الباجه جي

حماسة لا سياسة:

طلبت العلى، لا بالحسام المهنّد ... ولكن برأي كالسهام مسدّد

فأدركته حتى ملكت قياده ... وأصبح عندي وهو واحد أعبدي

لقد رام إذلالي اللئام عداوةً ... وهيهات من إذلال أروعَ أصيد

فإني، وإن أمسيت في السجن غارباً، ... سأشرق بعد اليوم كالشمس في غد

ولا بأس أن أصبحت كالسيف مغمداً ... فكل حسام إن مضى الحرب يغمدِ

وما ضرّني سجني وتقييد أرجلي ... فعضب لساني مطلق دون حُسدّي

فإنّ يراعي مفلق وفعاله ... لدى الحرب أمضى من فعال المهنّد

وإني بآرائي على الرغم منهُمُ ... بنيت مقاماً فوق نسر وفرقد

فإن يقدروا فليهدموا ما بنيته ... وأنّى لهم لمس الكواكب باليد

سيعرفني قومي إذا سلّ صارمي ... وراح جوادي سابقاً كلّ أجود

فإنّي مقدام وفارس نجدة ... إذا الحرب شبّت كنت أوّل منجد

وإني كطود في الثبات لدى الوغى ... وإن ماد سطح الأرض لم أتميّد

وإني ذو سلم لكل مسالم ... وحرب لأعدائي ولست بمعتدي

وإني أراعي للصديق ذمامه ... كراعي السُّهَى وجداً بجفن مسهّد

وإني على عهد الصديق محافظ ... وإن خان يوماً لم يخنه تودّدي

وإني مقيل للكريم عثاره ... إذا جاء في ذنب بغير تعمّد

وإني حليم دون ذي الجهل عالماً ... بأنّي إن أغفر له الذنب أُحْمَدِ

وهذا يراعي ناطق عن حقيقتي ... ومالي سواه من فخار وسؤدد

قضى الباجه جي في السجن أعواماً حتى أطلق سراحه بعفو سلطاني سنة ١٩١٣.

ومما قاله في الحبس عند نشوب حرب طرابلس:

وذي عزمات أوقفته الموانع ... فظلّ يدكّ الأرض وهو يمانع

يروم حراباً بين مشتبك القنا ... لنصر ربوع زعزعتها الزعازع

فيمنعه سدّ فيفزع صارخاً ... وتنهلّ مثل السّحب منه المدامع

يروم السُّرى نصراً إليها بنفسه ... ولكنّما سدّت عليه الشوارع

لقد سدّها كفّ من الدهر ظالم ... فأقعده عمّا نوى وهو جازع

وقال في السجن أيضاً:

أمـا والـذي في صنعـه حيّر الفكـرا	لفي السجن مـا ينسي القيـامـة والحشرا
تـرى النـاس فيـه في ازدحـام وضجّـة	فمـن مـرتـج يسراً ومن مشتكٍ عسرا
يقـاسـون أنـواع الهوان بمـوقف	تحكّم فيـه العبـد واستعبـد الحرّا
ولا تحسبنّ القبر أقـوى مـرارةً	من السجـن، لا لا والـذي فلق البحـرا

فاضل الصيدلي

الشاعر فاضل حامد المعروف بالصيدلي، ولد في الموصل سنة ١٨٨٢، وتعلّم الصيدلة في استانبول دار الخلافة. ودرس اللغات العربية والتركية والفارسية والكردية وشدا شيئاً من الفرنسية.

وقد عيّن صيدلياً في نجد، ثم عاد الى العراق، فأسندت إليه وظيفة كتابية في بغداد، واختير من بعد مديراً لبعض نواحي قضاء سنجار. وعيّن في المعهد الوطني مفتشاً صحياً في الموصل، وعمل صيدلياً في الجيش في الموصل وبغداد وكركوك والسليمانية، حتى استقال في سنة ١٩٢٧. وعيّن كاتباً للضبط في مجلس الأعيان (١٩٢٨)، واعتزل الخدمة سنة ١٩٣٣. وعاد الى الموصل ملازماً للعزلة، منصرفاً الى الشعر والأدب حتى توفي فيها في ٢٠ تشرين الثاني ١٩٤٩.

مال فاضل الصيدلي الى الشعر يافعاً. وأصدر في سنة ١٩١١ كرّاساً باسم «بدائع الأفكار» باللغتين العربية والتركية. ونشر ديوان شعره في دمشق بعنوان «هدية الأحرار» (١٩٢٧)، ونظم بعد ذلك شعراً كثيراً لم ينتظم في مجموعة. وكان له شعر غزليّ كثير أحرقه حين اعتنق مذهب التصوّف.

قال فيه إبراهيم الواعظ: «تعرّفت به فعرفت فيه الروح الأبيّ والوطني المجاهد والأديب الكامل والشاعر الذي أخلص لأمته ووطنه إخلاصاً منقطع النظير».

وقال عنه ذو النون أيّوب: «... مؤمن متديّن الى حدّ التعصّب، متزمّت متمسّك بالقوالب الأخلاقية تمسّكاً لا يقبل تأويلاً ولا تعليلاً، كاره للتجديد الذي يجد فيه كل الجراثيم التي سبّبت انهيار هذا المجتمع وتفسّخه السياسي والاجتماعي والأخلاقي، وذلك طبيعي جداً عند من حبس نفسه في داره بعد أن يئس من إمكان تبديل الفاسد وتقويم ما اعوجّ من أمر هذا البلد».

وقال محمد توفيق حسين أستاذ التاريخ العربي في جامعة بيروت الأميركية: «ولم يسعد في حياته العائلية فحوّل حياة العائلة كلها شقاءً. ولم يسعد في حياته العاملة فانسحب من معترك الحياة مخفقاً بائساً. ولم يسعد في آماله الأدبية... ورأى آماله في

الحياة وآراءه الدينية والوطنية تتهاوى مندحرة، فحزن وابتأس وعاش شقياً».

وقال مجيد شوقي البكري في تقديم ديوانه «هدية الأحرار»: «فهو لم يكتب إلا ما شعر ولم يعرب إلا عن هاجس، وما انقاد في كل ما كتب، (اللهم غير الغزل والنسيب اللذين هما مسرح الخيال وفاكهة الشعراء) إلا لإحساسه وقلبه السليم. وليس له رائد إلا الإخلاص، ولا قصد إلا وجه الله وخدمة الوطن والدين فالأخلاق فالانسانية».

شعره

كان فاضل الصيدلي من أوائل شعراء الموصل الذين تأثروا بالنهضة الأدبية الحديثة، فترك الأساليب القديمة وسار على نهج الزهاوي والرصافي وحافظ وشوقي وأندادهم. وقد نظم في المواضيع الوطنية والاجتماعية، واستنهض الهمم المتقاعسة، ووصف الأدوية والقطار والسيّارة والسينما وكرة القدم. ووضع الأشعار الروائية على لسان المعتصم وموسى بن نصير والمقوقس صاحب مصر والأرمانوسة وعمرو بن العاص وغيرهم من الشخوص التمثيلية.

وقد عدّ الصيدلي رسالة الشعر رسالة خلق وهداية فقال:

ألا إن شعراً ليس يدعو الى هدى	فذلك شعر لا يقام له وَزْنُ

لكن بيانه كثيراً ما يقصر عن شأو شعراء النهضة الحديثة البارزين.

رأى أهوال الحرب العظمى التي فتكت بالبشرية سنة ١٩١٤ فقال:

لقد فاجأتنا بالمصائب والردى	ليالٍ تردّت بالمكايد والغدر
فليت الذي قد حلّ فينا من العنا	بأعدائنا، بل بالليالي وبالدهر
فيا ليت شعري، ما يكون مصيرنا	وماذا لنا قد أضمر الدهر من نُكُرِ؟
فإن كان خيراً فالمراد، ولم أخل،	وإن كان شراً فالزمان أبو الشرّ
وإنّا لفي يوم تشيب لهوله	نواصي الرزايا السّود لو أنّها تدري
وإنّا بهذا اليوم في وسط لجّة	فإمّا الى قعر وإمّا الى قفر
وإمّا حياة بعد موت مريئة	وإلاّ فمن قبل الممات الى القبر

وأنكر على الإنسان عدوانه على أخيه الإنسان وخوضه غمار الحرب الطاحنة فقال:

ألا هل ترى الإنسان قد فقد اللُّبّا	إذ اختار غير الخير واستهل الصّعبا
طغى فبغى واستبدل الغيّ بالهدى	فجرّ على أبنائه الويل والكربا
لماذا، لماذا ذي الرجال تطاحنت،	وما ذنب هاتيك النساء التي تُسْبَى؟
لِمَ البغي والعدوان في غير طائلٍ؟	ألا شاه وجه الحرص كم أمّة أصبى...

ونعى على المجتمع ضعة الأخلاق ورواج النفاق فقال:

شكـــوت لصـــاحـب إدبـــار حظّي	لــدى أهل الـــزمــان، وكــان حــاذق
وقلت لـــه: اهــدني، جــوزيت خيراً،	الى نهج السلـــوك، فقـــال: نـــافق!
فجئت الســـوق، ســـوق العصر، أبغي	نفـــاقـــاً أشتريـــه ولـــو بـــدانق
رأيت النـــاس قـــد حـــامـــوا عليـــه	جميعـــاً بين مسبـــوق وســـابـق
فلـم أظفـــر بشيء منـــه، لكـن	تيقّنت النفـــاق اليـــومَ نـــافـق

وقد آمن بالعزة، والإباء والكرامة، فلنستمع إليه يقول:

إنما العيـش عـــــزة وإبـــاءُ	وعلى العيش دون ذَيْـن العفـــــاء
والـــذي يبتغي الحيـــاة صفـــاءً	ليس تطفي أوامـــه الاقـــذاءُ. . .
فحيـــاة الانســـان علـم وعـــز	وحيـــاة الانعـــام تبـن ومـــاءُ

ومـــا لـــذّة الحيـــاة في مـــذهبـــه؟

لـــذة العيـــش صحـــة وشبـــاب	واقتنـــاع مـع التقى وكتـــاب
وكفـــاف وكـــفء زوج لهـــا مـــن	نعمـــة العلـــم والخـــلاق نصـــاب

وقد هوى الشعر فقال:

إني ليطـــربني السماع فـأسكـــر	ويـــروقني نظـــر الجمال فـأشعـــر
ويميـل قلبي للغـــرام مـع الصبـــا	فـأروح نشـــوانـــاً بـــه أتبختر
فـــالشعـــر لهوي والمحـــاسن لـــذتي	والصـــوت كأسي لست عنـــه أصبر
فـأظل أشـــدو كـــالهزار مغـــرداً	بـــرقيق وصـف كـــالمدامـــة يقطـــر

ودعا الى العلم والنهوض فقال:

طـــلول العلـم والعـــصر الخـــوالي	ويـــا عهـد المفـــاخـــر والمعـــالي
ألا يـــومـــاً لنـــا بـــين الليـــالي	رجـــاء في تـــلاقٍ كـــالمحـــال

فيرجع فيـــك جـــيد العيـــش حـــالي؟

وصـــالاً منك، يـــا علم، جـــديـــدا	وعـــد عَـــوْداً ولا تَعـــدِ الـــوعـــودا
بحقـــك لا تضـع فيـــك النشيـــدا	وبـــدّل نحس طـــالعنـــا سعـــودا

فنـــدرك صبحنـــا قبل الـــزوال. . .

بهجرك شرقنا أمسى ظلاما وأضحى الغرب فيك لنا إماما
مشينا القهقرى ومشى أماما ويا ليت اقتدينا حين قاما

لسعي فيه قد بلغ المعالي. . .

متى هذا العراق يقرّ عينا ونجلو عن نُهانا فيك رَيْنا
فبادر قبل أن يُقضى علينا جعلتُ بذمّتي إن عدتَ دينا

بأن أقضي بخدمتك الليالي

هام الصيدلي بحبّ وطنه وقومه فندب تأخرهم وطلب لهم اليقظة والمجد والحرية والعلى، ونظم في ذلك قصائد كثيرة. قال:

أيشرب الغير برداً من مواردنا ونحن نشربها حَراً وغِسْلِينا؟
أعيذ قومي، وقومي من عرفتهُمُ، من أن يساموا على الإذلال توطينا
يا آل يعرب، نَهْضاً للرجوع الى عهود مجد لنا أضحت تنادينا
لقد كفانا رقاد ملء أعيننا فإنّ هذا التواني كاد يُرْدينا
واهاً لأيامنا الغرّ التي سلفت متى تقرّ بلقياها مآقينا؟

وقال:

وطني، كيف، والحبيب حبيب، لك أسلو أو عن هواك أتوب؟
كيف أنسى منك الأيادي وفضلاً له منّي بكل عِرْقٍ دبيب؟
كيف أجفوك، والجفاء عقوق، وأنا في حمى ثراك ربيب؟
وطني، أنت ملجأي وملاذي وشفائي في علّتي والطبيب
عقدت بينك الولاء وبيني فطرة حرّة ودين صليب

وقال نادباً:

تولّت عن حِمانا المكرُماتُ فلا صدق هناك ولا ثبات
وساد على النفوس هوى الأعادي لحبّ الذات، فلتهنا العداة!
تعالى الله، يا قومي، لماذا وحتّى مَ التهاون والسّبات؟
هدمتم مجد آباءٍ مَشيداً فمن يبني وقد عدم البناة؟
بنوكِ، بنوك، يا أوطان، خانوا فمن يحمي إذا سرق الحماة؟
لقد عاد العراق غريب قوم فلا أهل تقيه ولا رعاة
وأضحى العرب عُرْضَة كل رام وأمسى العرب ليس بهم رماة
وصار الشرق مطمح كلّ عين ولا عين تردّ ولا رُقَاةُ

بمـن تثق المواطـن بعـــــد هـــــذا — وقــد خــانت بــذمّتهـا الثقــات؟
فــلا تــذكــر أبــاة الضيم يــومــاً — لــدى ضيم فقــد رضي الأُبــاة

وقد بكى شاعرنا الحق المهضيم فقال :

قضـى الحقّ إلا مــــا بـــــه يُتمطّـق — وأخلق ثـــوب العـــدل أو كـــاد يخلق
فـــلا العهــد مســؤول ولا الشرط أملك — ولا الــوعــد مفعـول ولا القـول مـوثق
يقـولـون : نبغـي الحقّ ، والفعل عكسـه ، — فقلت : كـذبتم ، هــا هـو الفعل أصـدق
يقولـون : نقضي العدل ، والنقض ظـاهر ، — ولـــو سكت الأشهـــاد فـــالحال ينطق
ومــــا رزىء الأقـــوام تـــالله رُزْءَهُمْ — بمـــوت حقـــوق دونها النفس تـــزهق

***

الشقاء والصيدلي :

وسم الشقاء شـاعرنا الصيدلي بميسمـه ، فرافقه رفقة العمـر وناء بأثقاله وأوصـابه . ولقـد وصـف الشاعـر الفـرنسي ألفرد دي فنيي (١٧٩٧ ــ ١٨٦٣) Alfred de Vigny الشقاء في قصيدة له فقال :

«يجوس الشقاء خلال المدائن الباهتة ، وقد لاذ بأذيـاله شبح الانتحار العاقّ ، يرقبنا على عتباتنا الوجلة طالباً فريسته .

فيسمع الشباب المنغمس في ملذّاته ويتأوّه ويذبل ريعانه ، ويهبط الشيخ الى قبره كما تسقط أوراق الشجر ، وقد حرم الجذوة التي تنعشه وتغذّيه .

«أين المفرّ؟ لقـد جلس الشقاء ذات يوم على عتبة داري ، وأنا أحملـه منذ ذلك الحين في غضون أيامي المكفهّرة .

«تلك أجنحته المفجعة تطبق عليّ كالرداء القاتم ، في وهج الشمس وغيابة الدياجي وفي كلّ صقع ومكان . تلفّني ذراعاه الجشعتـان بآلامهما ، وتشهر يداه الـدّكناوان المدية على فؤادي . . . »

ونظم الشاعر الإنكليزي توماس غراي (١٧١٦ ـ ١٧٧١) Thomas Gray نشيداً الى الشقاء ، فخاطبه قائلاً :

«أيها الشقـاء ، ذو الحول والطول ، مـروّض القلـوب البشرية ، يـا من يخيف الأشرار بسوطه الحديدي وساعته الرهيبة ويبتلي الأخيار الطيّبين . . . » .

ووصفـه بأنـه يربـط بسلاسلـه المتجبّرين فيـذيقهم طعم الألم ويترك الطغـاة لابسي الأرجـوان بئنّون ، وقـد عصرت الغصص أرواحهم عصراً ، لا يـرحمهم أحد في وحـدتهم القاسية .

ثم يبتهل الشاعر الى ربّة الشقاء ويسألها أن تسبغ على قلبه الرّقة لا الجروح والكلوم، وأن تـوقـد شرارة النّبل المنطفئـة في أعماق ذاته، وأن تلقّنـه المحبّـة والصفح والغفـران، وتستلّ شوائبه ومعائبه ليعرف نفسه رجلاً.

أمّا شاعرنا الموصلي فتغنّى بالبؤس والشقاء في أكثر من قصيدة. قال:

خلقـت، ويـــــا ليـت لم أخلـق،   لكـل شقـــــــاء، ومـن للشقـي؟
تطـــاردني عـــاديــــات الخطـــوب   ولـــــو أنني لـــــذت بـــالأَبْلَقِ
سئمـت الحيـــــاة وعـبء الحيـــــاة   وصرت مـــــن الموت لا أتّقـــــي
حيـــــاة مضت كلّهــــــا مُــرّةً   وهيهـــــات تحلـــــو بها قـــد بقـي
فحظي استعـــار ســواد الشبـــاب   ولـــــون ضميري دهـى مفـــرقـي
شبـــاب تـــولّى بـــلا طـــائل   وغصـن تـــــدلّى ولم يــــورق
ولكنّها أثقلتـــــــه الهمــــــوم   فـأوهـت قـــــواه فلـم يبسق..
ولي طـــــالـع أيـن وجّهتـــــه   أبـى أن يعـــــــود ولم يُخْفِـقِ
وأحـــلام ســؤل تعلّقتهـــــا   ولكـــن بها الكـــفّ لم تعلـــق
وليــــس طِماحــــي لمال ولا   منـــالٍ لــــه لست بــــالشَّيِّق
ولكـن لما لم يَحُمْ حـــولـــه   ســــــواي وفي العصر لم يَنْفُـق
ونُصرة حـقّ وقـــــوم وديـن   وخُلْـق أراه على مَــــــزْلَـق

وقال:

سئمت حيـــاتي بعـــد فقـد شبـابها   ولـــو تشترى بـــالموت كنت أبيعهـــا
حيـــاة الفتى عـام بـه الصيف والشّتـا   حـــروراً وبـــرداً والشبــاب ربيعهـــا
إذا مـا انقضى عهـد الشبـاب تقلّصت   ظــلال حياة ثـم أقـوت ربـوعهـــا
على أنني مـــا فـــزت في لـــذّة الصبـــا   ومـــرّت حيـــاتي بـــالهمـــوم جميعهـــا

وقال:

يـــــا عيش، إنك نُكْـــــرُ   فهـل لـــــذنبك عُـــــذْرُ؟
إن لم تـــكُ الموت حقـــــــاً   فـأنـت منـــــه أَمَـــــرُّ
إن كـــــــان بعضـك خيراً   فـــــإنّ جلّـــــــك شرّ

وقد رأى النحس حتى في طلعة القمر، فقال:

أطلّ علينـا البـدر جـذلانَ ضـاحكـاً   يبشرّنـا بـــالنحس والـــويل والشّقـــا
فـلا كنت، يـا شهـر الفجـائع، طـالعـاً   ففيك قضت آمـــالنـــا ولـك البقـــا

ساء ظنّه في الناس والإنسانية فقال:

بلـــوت النّـــاس حتى ســـاء ظنّي بكـل النـــــــاس حتى فيَّ نفسي
وعـــاشرت الأنـــام فشبت غماً لما قـــد مـــرّ من عجب بـــرأسي
وكـــدت أمـــوت من أسف وحـــزن ومـــــا أغنـى التصبّر والتأسّي
وصرت أودّ لـــــو آنست جنـــــاً وأنفـــــر وحشـــــة من كل إنْسِي
وأخجل مطـــــرقـــــاً لّما أراني بـأن القـــوم من أبنـــاء جنسي

لقد ساء ظنه حتى في نفسه، وقال نظير ذلك محمد رضا الشبيبي:

كلّنـــا يطلب مـــا ليس لــــه كلّنـــا يطلـــب ذا حتّى أنـــا

وضجّ الصيدلي بالشكوى من سقوط الأخلاق وموت الفضيلة وانتشار الرذيلة فقال:

هـوت رفعـة الأخـلاق للهـوّة السّفلى فيـا ويح قـومي للـرزيّـة، واويــلا
أضلّـوا طـريق الحق والـرشـد حينما أحبّـوا على بـاقـي الثنـا عـرضـاً يبلى؟
أضاعـوا نُهاهم مـذ شروا بـالهدى الهوى وبـالجهل بـاع العلم أكثـرهم جهـلا
وعن كـرم الأخـلاق زاغـوا، فما تـرى لها أثـراً في العصر فعـــلاً ولا قـــولا

حتى يقول:

وإني لأزري بـــالحضـــارة عنـــدمـــا أراهـــا أذاعت بيننـــا الغشّ والغـــلاّ

وقال في قصيدة أخرى:

مـات الـوفـاء وخـانت الإخـوان وتلـــوّنـت في طـــورهـــا الأزمـــان
وتقلّبت ظهـــــراً لبطـن مثلـــــه أهـل الــــزمــــان فـإنّهم أقــــران
لهفي على خـــالي العصـــور وأهلهـــا مـــا كـــان أعلى شأنــه الإنســـان!

وقد بلغ من ريبته وسوء ظنّه أنه حذّر القمر قبل أن يغزو الإنسان القمر، فقال:

إن رمت تسلم فـاغـرب، أيّها القمـر، فقـــد نـــوى لك شراً، ويحك، البشر
جاســوا خـلال نـواحي الأرض قـاطبةً فـــدمّـــروهـــا وظنـــوا أنهم عمـــروا
واليـــوم مـــدّوا شبـــاكـــاً للسماء لكي يـــرمـــوك في شرك الأنكـــاد، فـــالحذر

وقال:

ليلي وليلك، يـا بـدر الـدجى، سهـر هـل أنـت مثلي معنّى، أيها القمـــــر؟
هل غـــازلتك لحاظ الغيـد من بُعُـدٍ فـــــراح يعبث فيـك الكحـل والحَوَر؟
أم قـد دهـاك هـوى الغـزلان أم سلبت قـــرارك الـوجنـــات البيض والطّـــرر؟
أم هـــاج وجـــدك ألحان البـــلابل في ريـاضهـــا أم شجاك العـود والـوتـر؟

أم أنت تعشق من ذي الشهب جارية ... وحال بينكما التغريب والسفر
أم أنت مثلي من الأيام في نكد ... فصرت تطلع حيناً ثم تستتر

وكذلك نرى شاعرنا قد افتقد البهجة والهناء ولم يجد صديقاً يبثه ألمه وشجاه، فخاطب القمر وباح له بأسراره:

هيهات، يا بدر، ما ليلي كليلك في ... صفو، ولكنّ ليلي كلّه كدر
أبيت منفرد الهجران محتجباً، ... وأنت حولك تزهو الأنجم الزُّهُرُ
وأنت تمرح في علياءَ واسعة ... وإنني رهن ضيق فيه أنحدر
وإن هوى لك نجم بتَّ مكتئباً، ... فما أقول وفي قومي هوى القَدر؟

أحبّ الصيدلي التمثيل المسرحي فقال:

إنّ للماضين روحاً تنجلي ... ما لها غيب وإن هم غُيّبوا
إن للغيب لمرآةً بها ... يُجتلى منه الحجى والأدب
وهي التمثيل والفنّ الذي ... ليس عنه غائب يحتجب
فهي من جدّ علوم وحجى ... ما بها هزل يُرى أو لعب
وهي النزهة للنفس، بها ... يُجتنى أنس ويحلو طرب

ووصف كرة القدم قائلاً:

كمروق السّهام بعد السّهام ... وانقضاض الرجوم من أجرام
ترتقي للفضاء شوطاً وتهوي ... مثل صقر يخرّ فوق حَمَام
كرة حوّم الرماة عليها ... ترتميها الشبّان بالأقدام
بين خطف وبين جذب ودفع ... واقتحام وحملة وازدحام
بين كرّ وبين فرّ وزحف ... واستباق وخلفة والتحام
حيّرتها الأضداد أين تولّي ... وجهها من تقاذف واصطدام
ذا ليُمْنَى وذا ليُسرى وهذا ... للوراء يرمي بها وأَمام
لا تكاد الأنظار تثبت فيها ... لمرور بسرعة الأوهام
أو خيال الأديب عند ارتجال ... أو كطيف الحبيب في الإلمام
أو كقلبي من الوجيب وجيفاً ... واضطراباً لكربة أو سقام

ووصف فوّارة ماء فقال:

وفوّارة ترمي بقضبان فضّة ... من الماء يعلو للفضا ويرفرف
ويخرج كالسّلك النضيد مُسَلْسَلاً ... ويلوي كمنثور اللآلي ويعطف

إذا صعّدت فهي السّهام صواعداً ... وإن هبطت فهي الشواقب تقذف
فما هو إلاّ اللؤلؤ الرّطب ساقط ... على الأرض نثراً حين يهدي فيرجف

وهذا الوصف قد جاء على طريقة ابن المعتزّ العباسي الذي قال في الهلال:

أنظر إليه كزورق من فضة ... قد أثقلته حمولة من عنبر

وقد سئل ابن الرومي لِمَ لم يبلغ في تشبيهاته مبلغ ابن المعتز، فأجاب: واغوثاه! لا يكلف الله نفساً إلا وسعها. ذاك إنما يصف ما عون بيته لأنه ابن خليفة، وأنا أيّ شيء أصف؟...

ونظم فاضل الصيدلي في الغزل والنسيب، لكنه طوى هذا الباب من شعره في عهد كهولته وعفا عنه، وكان تشبيبه مصنوعاً لا عاطفة فيها ولا حياة، فممّا قاله:

واعدتنا بوصلها الحسناء ... ثم لم يعقب الوعود وفاء
تصل الليل بالنهار وعوداً ... فصباح يمضي ويأتي مساء
ولنا الوعد والوفا لسوانا ... قسمة ما قضى بها الإفتاء
نحن همنا بحسنها فحرمنا ... ثم فازت بوصلها الرقباء
وأتت من تشاء قرباً ولقيا ... وكذا تمنع اللّقا من تشاء
أنفتنا وآلفت بهواها ... لأناس ما هم لها أكفاء
قاضي الحبّ، هل يجوز لديكم ... مثل هذا؟ إذن فبئس القضاء
أنا أهوى والوصل يجنيه غيري ... فعلى العشق، إن يكن ذا، عفاء

وقال:

يا حمى ليلى، ويا أهل الحمى، ... كيف ليلى، هل تراعي خلّتي؟...
قاتل الله وشاة بيننا ... فلكم قد سلبوا من نعمةِ
ليت ربي في الهوى أوقعهم ... ليروا كم للهوى من غصّة
لوعة الوجد وتبريح الهوى ... ولظى العزل وحرّ الغيرة
وتصاريف زمانٍ لم يزل ... كلّ يوم بارزاً في محنة

وقال:

أمن الحور أم ظباء الفلاة ... أم سراج يضيء في الظلمات؟
غلط القائلون عنها فتاة، ... أيّ شيء يعنون؟ أيّ فتاة؟...
هي شمس، وفي الملاحة بدر، ... وهي الريم، وَيْكَ، في اللّفتات
ودعا حسنها الأنام ينادي: ... أيّها الناس، فانظروا معجزاتي

الموصل والربيع :

وصف شعراء العرب فصل الربيع في مختلف عصورهم وأجاد الأندلسيّون في ذلك أيّما إجادة لجمال رياضهم وسناء طبيعتهم وشغفهم بالماء والخضراء. ولم يقصّر المشارقة في ذلك، فقال صفّي الدين الحلّي:

ورد الربيع فمرحباً بوروده	وبنور بهجته ونَوْر وروده

وقال أيضاً:

خلع الربيع على غصون البان	حللاً فواضلها على الكثبان
ونمت فروع الدَّوْح حتى صافحت	كَفَل الكثيب ذوائب الأغصان
وتتوّجت هام الغصون وضرّجت	خدّ الرياض شقائق النُّعمان
وتنوّعت بُسُط الرياض، فزهرها	متباين الأشكال والألوان
والظلّ يسرع في الخمائل خطوه	والغصن يخطر خِطْرة النشوان . . .

وقد كان لشعراء الموصل القدح المعلّى في وصف الربيع والتمتّع بحسنه ومباهجه، ولعلّ مردّ ذلك لبرد صقعهم، فيقبع أهل الموصل في دورهم طوال الشتاء، حتى إذا ما حلّ فصل الربيع، اكتست البرّية المحيطة بالمدينة والمطلة على دجلة بالورود والأعشاب وخرج إليها أبناء البلد زرافات ووحداناً، رجالاً ونساءً وأطفالاً، للنزهة والاستجمام واجتلاء محاسن الطبيعة، يعقدون مجالس الأنس واللهو البريء على بُسُط الحشائش السندسية ويتلذّذون بالغناء والموسيقى تحت قبّة السماء الزرقاء بين خرير الماء وحفيف الشجر. وصف شعراؤهم مجالس الربيع ومآدبه وتغنّوا بالطبيعة التي نضت عنها سربال الغيث والصقيع والضباب، كما قال الشاعر الفرنسيّ القديم شارل دورليان Charles D'Orléans (١٣٩١ ـ ١٤٦٥م) في مقطوعته الربيعية اللطيفة:

«إنّ الزمان قد خلع رداءه، رداء الريح والبرد والمطر

واتّزر بوشاح مطرّز من السماء الساطعة الصافية الجميلة.

ولم يبق من حيوان ولا طير إلاّ تغنّى بلغته وصاح . . .

وقد لبس النهر والغدير والجدول حلّة أنيقة موشّاة باللّجين والنّضار، وجدّد كلّ شيء لباسه . . .»

ومن شعراء الموصل المحدثين الذين وصفوا الربيع أحمد الفخري ومحمد حبيب العبيدي. ومنهم شاعرنا فاضل الصيدلي الذي قال في تحيّة فصل الزهور:

بسم الربيع بزهره وورده	فأقرّ عين الكون عند شهوده
وشبيبة الأيّام عادت غضّة	فرحاً بإدبار الشتا وجموده

فالروض يزهو في بديع حليّه … والنبت يمرح في بهاء بروده
والطير بالألحان غنّى مطرباً … والورد حرّك عُودَه لنشيده
والغصن والأوراق هذي صفّقت … واهتزّ ذا طرباً بكلّ وجوده
والشمس فوق الورد ألقت نفسها … شغفاً لترشف من رحيق خدوده
والنرجس الزاهي تطلّع شاخصاً … من كُمّه بعيونه وبجيده
كبّرت إذ شاهدته متخاشعاً … متواجداً بركوعه وسجوده

وقال من قصيدة أخرى:

ما لهذا النسيم هبّ عليلاً … وأتى وانياً يجرّ الذيولا؟
ليت شعري أزهوةً واختيالاً … أم سقاماً به دعاه كليلا. . .
إنّ فصل الربيع طال بقاه … لَهُوَ العيش لو يعيش طويلا
فيه تحيى الأرض الموات فتُزهَى … فهو ينفي العنا ويفني المحولا
هو سرّ الأزمان والدهر، لكن … غير خافٍ معنى بليغاً جليلا
هو بيت القصيد في العمر، فاصدع … ثم رتّل آياته ترتيلا
غرّة الدهر، شامة الحَوْل، فيه … عاد طرف الزمان أحوى كحيلا
ما أحيلى الربيع في العيش، لو دام، … وإن كان دومه مستحيلا

ثم يقول:

يا زمان الربيع، أنت شبابي … وشباب الأيام جيلاً فجيلا
أنت أوفى من الشباب ذماماً … كلّ عام تردّداً ومثولا
أنت تأتي فتوسع الأرض خصباً … ورواءً وبهجة وبقولا

ولئن كان ربيع الموصل فصل السرور والزهور، إنّ خريفها حزين يحمل النفس على الأسى والانقباض. وقد قال الصيدلي في ذلك:

تساقطت الأوراق وانتثر العقد … فلا شاعر يهفو ولا طائر يشدو
إذا القيظ ولّى والربيع تقوّضت … خيام له فالعيش وجهه مُسْوَدُّ
ويبدو محيّاً للطبيعة كالح … عبوس كئيب قاحل سبطه جعد
ويكشف عن ساقٍ به الروح حاسراً … هزيلاً نحيفاً أو هو العظم والجِلْدُ
ويغبّر وجه الجدّ كالأرض كاسفاً … فتبكي السّما وجداً، وما إنْ بها وجد
فلا الأفق بسّام ولا الشمس تزدهي … ولا نورها فوق البسيطة ممتدّ
تولّى شباب للطبيعة زاهر … يليه من الثلج المشيب لَدُنْ يبدو

إنّ حياة الشاعر الصيدلي كانت كهذا الخريف الموصلي الذي أجاد وصفه، تناثرت أوراقه وتصوّحت أزهاره وصمتت عنادله بعد التغريد والغناء، فلا عجب أن ودّع الأرض غير مشفق ولا آسف، يرجو في الموت أملاً لم تجد به الأيام.

عرف من أبناء الشاعر فاضل الصيدلي عبد الحق وأكرم.

عبد الحق فاضل

الأديب القاصّ اللغوي الدبلوماسي عبد الحق ابن فاضل الصيدلي ولد في الموصل سنة ١٩١١. تخرّج في كلية حقوق بغداد، ووظف أمداً في وزارة المالية (١٩٣١) ومديرية الأوقاف العامة. ثم عاد الى الموصل ومارس المحاماة، وكان رئيس تحرير مجلة «المجلة» التي صدرت في تشرين الأول ١٩٣٨.

إلتحق بالسلك الخارجي فعيّن ملحقاً في المفوضية العراقية في طهران (١٩٤٥) فملحقاً أول في مفوضية آنقرة (١٩٤٦) فمفوضية كابل (١٩٤٨). ونقل سكرتيراً ثالثاً في طهران أيضاً (١٩٤٩) فسكرتيراً ثانياً في مفوضية روما (١٩٥٤). وأعيد الى ديوان وزارة الخارجية سنة ١٩٥٧ مديراً عاماً للشعبة الشرقية. عين بعد ثورة ١٤ تموز وكيلاً لوزارة الخارجية فسفيراً في بكين (١٩٦٠)، ولما سقط حكم عبد الكريم قاسم فصل من منصبه في نيسان ١٩٦٣.

مضى الى المغرب وانصرف الى الدراسات اللغوية. وعاد الى بغداد بعد نحو ٢٠ سنة، وتوفي بها في كانون الثاني ١٩٩٣.

أصدر مجموعات قصصية: مجنونان (١٩٣٩) فرح وما أشبه (١٩٤٠) حائرون (١٩٥٨) طواغيت (١٩٥٨). وله أيضاً: ثورة الخيام (١٩٥٢) ٤ نساء و٣ ضفادع (مسرحية، ١٩٦٨) مغامرات لغوية (١٩٦٨) الخ.

الدكتور أكرم فاضل

أكرم فاضل الصيدلي ولد في الموصل سنة ١٩١٨ ودرس في مدرسة الصناعة، وعين معلم مدرسة ابتدائية في بعض القرى. ثم مضى الى بغداد ودرس في كلية الحقوق. وقد أولع منذ حداثته بالأدب الفرنسي المترجم واللغة الفرنسية فدرسها على نفسه. وأوفد في بعثة دراسية الى باريس فدرس الحقوق في جامعتها وحصل على درجة الدكتوراه.

كان حيناً ما كاتباً في محاكم الموصل. وعيّن أخيراً مديراً للفنون والثقافة الشعبية في وزارة الإعلام في العهد الجمهوري فقضى في منصبه أعواماً طويلة، وأشرف على إصدار مجلة «بغداد» بالفرنسية.

أدركته الوفاة ببغداد سنة ١٩٨٧ .

أصدر مجموعة شعر بعنوان «الكوميديا البشرية» (١٩٤٨) . وله كتب منها : مأساة الشعب الجزائري (١٩٦٠) . وقد اشترك في ترجمة رواية «الآباء والبنون» لإيفان تورغنيف (١٩٥٠)، كما ترجم الى العربية : يا لحياة المنفى من مهنة شاقة للشاعر التركي اليساري ناظم حكمت (١٩٥٩)، اللقيطة للسيدة لوسيت توفيق (١٩٦١) الحياة في العراق منذ قرن ١٨١٤ ـ ١٩١٤ للسفير الفرنسي بيير دي فوصيل (١٩٦٨) أسطورة الشعب المختار (١٩٦٩)، المعجم المفصل بأسماء الملابس عند العرب للمستشرق الهولندي رينهارت دوزي (١٩٧١) . وله أيضاً : تعليقات على لهجة بغداد العربية للويس ماسّنيّون (١٩٦٢) .

أكرم فاضل شاعر خفيف الروح إنسانيّ النزعة يرى العالم كله مهزلة، فجعل عنوان مجموعته «الكوميديا البشرية» . لكن هذه «الكوميديا» في الحقيقة تخفي في طياتها «دراما» بل مأساة . وأبطال شعره البخيل والغانية والضحية والراقصة والحلاق والفلاح والحمّال والشحاذ والفنانة البائسة، فضلاً عن دون جوان الجاري وراء الحبّ ومحاكمة الهرة والحظوظ بين المعدمين والمتخمين ومهزلة الغرام ودموع البائسين .

خاطب القارىء في مقدمة شعره :

أيها القارىء، هذا ديدني	فارضَ أو لا ترضَ، فالأمر سواء
وإذا ما هجت أحسنت الى	شاعر يهوى هياج السخفاء
وإذا لم تستسغ لفظي ولم	تتقبّل فكرتي دون عناء
فاطرح «الديوان» واعلم، يا أخي،	أنني لا أستضيف الثقلاء . . .

كان شاعرنا رقيق القلب يحنو على البائسين ويتألم للمتألمين أشخاصاً وأمماً . وبلغ به الحال أنه كاتب مجلة فرنسية تختصّ بالغجر البوهيميين . وقد نظمتُ قصيدة في الغجر فطلب منّي ترجمتها الى الفرنسية وأرسل بها الى تلك المجلة لنشرها .

قال ذنّون أيوب في مقدمة «الكوميديا البشرية» مقدماً صديقه الناظم إنه «شاب صغير السنّ، رقيق المزاج، تضيق نفسه ويضيق عقله وحسّه بكل ما في الوجود من قيود، فينطلق على سجيّته بعض الأحيان ثائراً متجاهلاً كل عرف وتقليد، ثم ينتبه فجأة كما ينتبه المرء من حلم فيدرك أنه قد اشتطّ في سلوكه، فينكص على عقبيه خائفاً خائباً تعباً . . . » ثم قال : «إني أعتقد أن أكرم من أولئك الذين لا يتقصدون أن يكونوا شعراء، ولكنهم يجدون أنفسهم شعراء، فيندفعون مع الشعر محاولين أن يثبّتوا لهم قدماً فيه ويقطعوا شوطاً في مضماره» .

وقال إن شعره ليس من النوع الذي يرتفع الى السماء السابعة ليشرف على العالم من عليائه ويعطي نتائج قطعية جازمة في الأخلاق والسلوك ومصير البشرية وعلل العالم،

بل يزحف على الأرض محتكاً بالمخلوقات الزاحفة مثله من حيوان وانسان، فيتبادل معها العواطف والإحساس بل والآراء أيضاً! فما أكثر ما نراه في شعره «مشاهداً» في محكمة عقدت لعقاب القطط أو محامياً عن شحاذ أو متآخياً مع كلب. . . وهو بذلك صوفيّ بطبعه، لكن شطحاته مع المخلوق لا مع الخالق.

محمّد علي اليعقوبي

الشيخ محمد علي بن الشيخ يعقوب الحاج جعفر النجفي، الشاعر الخطيب، ولد في النجف في ٢٩ شباط ١٨٩٦، وكان والده الشيخ يعقوب شاعراً (١٨٥٤ ـ ١٩١١)، ولد في النجف وتوفي في الحلة. وقد حقق ابنه ديوانه ونشره سنة ١٩٦٢.

وانتقل والده الى الحلة سنة ١٨٨٣ إثر نزاع وقع بينه وبين إخوته على وقف لهم في النجف، وكان لهذا الاغتراب أثر عميق في نفس الشاعر الشيخ فقال:

تغرّبت عن أرض الغريّ، فلم تكن	تقرّ عيوني أو تطيب حياتي
حبست ركابي عندها اليوم بعدما	أذبت عليها النفس بالزفرات
مواطن آبائي بها وأحبّتي،	وفيها مغاني أسرتي وسراتي
فمن تربها أصلي ومبدأ نشأتي،	وأرجو بها مثواي بعد وفاتي

ونشأ الفتى محمد علي في الفيحاء وأخذ عن والده مبادىء علوم العربية والدين، حتى إذا ما أدركته الوفاة سنة ١٩١١، انقطع فتانا الى السيد محمد القزويني الذي أحسن تربيته وتهذيبه. ثم خرج الى قرية جناجة على ضفة الهندية اليسرى واتصل بمحمّد حسن أبي المحاسن وأفاد منه فوائد جزيلة في الشعر والأدب. ولما نشبت الحرب العامة التحق بالمجاهدين في الشعيبة تحت لواء السيد محمد سعيد الحبوبي (١٩١٥). وعاد اليعقوبي الى النجف سنة ١٩١٧ بعدتنكيل الأتراك بقيادة عاكف بك الأرناؤوطي بأهل الحلة، واشتهر خطيباً من خطباء المنبر الحسيني وداعية من دعاة الإصلاح الديني. وظلّ يتنقل بين الحيرة والكوفة حتى استقرّ في النجف، وتولى رئاسة جمعية الرابطة الأدبية فيها في كانون الأول ١٩٣٦. وتوفي بالنجف في ١٧ تشرين الأول ١٩٦٥.

كان الشيخ محمد علي اليعقوبي شاعراً مجيداً عرف بقصائده الوطنية التي أشادت

بـذكـر العـرب من الـريف والجزائر الى العراق وفلسطين، ولـه ديـوان خـاص بمأسـاة فلسطين. وكان الى ذلك عالماً بتاريخ الأدب، اشتهرت خـزانته بما ضمته من كنوز أدبية مجهولة تصدّى لنشر بعضها في أعوامه الأخيرة.

شعره وأدبه:

نشر ديوان الشيخ محمد علي اليعقوبي سنة ١٩٥٧، ومن آثاره الأخرى «البابليات»، وهي مجموعـة أدبية تاريخية في ثـلاثة أجزاء (١٩٥١ ـ ١٩٥٥). ولـه «المقصورة العليّة» (في سيرة الإمـام علي ١٩٢٦) «وعنـوان المصـائب» (في مقتل الإمـام علي ١٩٢٩) والذخائر (في مدح آل البيت ١٩٥٠) وجهاد المغرب العربي» (شعر، ١٩٦٠).

وقـد حقق ونشر دواوين كثيرة، منهـا: الجعفـريـات (شعـر جعفـر القـزويني، ١٩٥٠)، ديوان الشيخ عبـد الحسين شكر (١٩٥٥)، ديـوان الشيخ عبّاس الملا علي (١٩٥٥)، ديوان أبيه الشيخ يعقوب (١٩٦٢)، ديوان الشيخ محمد حسن أبي المحاسن (١٩٦٤)، ديوان الشيخ صالح الكـواز (١٩٦٥)، ديوان الحاج حسن القيّم (١٩٦٥) الخ. وترك في خزانتـه دواوين شعرية أخرى لم يهيّأ له طبعهـا، منها: ديوان الشيخ مير رشيد الهنـدي، وديوان سبط ابن التعاويـذي، وديوان صادق الفحـام، وديوان الشيخ علي الناصر.

وعرف اليعقـوبي بارتجال الشعـر وسرعة البديهة وحـدة الذاكـرة والظرف والفكـاهة المشوبين بالحشمة والوقار.

ويتّسم شعر اليعقوبي بنزعة إنسانية، فقد نشأ بين الشعب وعاش في أنديتهم وشارك في سرّائهم وضرّائهم، فلا عجب أن رثى لحال فقيرهم ومـريضهم وجاهلهم. وممّا قـاله في ألم الفقر ووطأة المرض:

يـا شعب، مـا أكثـر هـذا العنـا	من هـاهنـا طـوراً ومن هـاهنـا
قـد علقت فيك، ولا منقـذ،	مخالب الفقـر ونـاب الضّنـا
خطب عظيم الـوقـع، لكنـه	يـراه مـن لم يعنـه هيّنـا
ألمّ كـالضيف ثقيـلاً، أمـا	آن لهذا الضيف أن يظعنـا؟
في مـدن الشعب وأريـافـه	مـا شطّ منهـا نـائيـاً أو دنـا
مـا أكثـر الشـاكين، لـو أنهم	تمكنـوا أن يطلقـوا الألسنـا
مـن يَـرَ أهليك ومـا نـابهم	لم يَـرَ إلا منظـراً محزنـا

وكم لـــذي الفقـــر بجنح الـــدجى
من لـــوعـــة مـــا ذاقهـــا ذو الغنى

مستعـــــذبـــــاً مـن دون آلامـــــه
ورد المنـــــايــــــا، وهـي أقصى المُنَـى

يكتم مـــا فيـــه لفــرط الإبــــا،
والبـــؤس يبـــدي سرّه معلنـــا. . .

يـــا مـــوطنـــاً كنّـــا سعـــدنـــا بـــه
دهـــراً فـأضحى للشقـــا مـــوطنـــا،

حملـت أعبـــــاء الخطــــوب التي
تكـــاد منهـــا الهضب أن تـــوهنـــا

تئنّ من سقـم ومـن فـــــاقـــــةٍ،
هـل غـــايـــة الحالين إلا الفنـــا؟

ومن شعره في رثاء يوسف رجيب:

مـــا مـــرّ ذكـــر أولي المكـــارم والـــوفـــا
ألاّ وكنت لـــذكـــرهم عنـــوانـــا

أولسـت في الأحـــــداث أربـط منهُـمُ
جأشـــاً وأثبت في الخطـوب جَنَـانـا؟

لـك نفس حـــرّ للعلى وثـــابـــة
تستصغـــر الأهـــوال والحدثـــانـــا

كم مـــوطـن قـــد كنت أشجـع واقف
فيـــه وكـــان ســواك عنـــه جبـــانـــا

لا قستُ فيـك معـــاشراً لم يعـــرفـــوا
للفضل مقيـــاســـاً ولا ميـــزانـــا

العـــابـــدين هيـــاكـــلاً منصـــوبـــة
كـــالجاهليـــة تعبـــد الأوثـــانـــا

جهلـــوا مبـــادئك التي مـــا شـــابها
دنس، فكنـت أجلّ منهـم شـــانـــا

كم محنـــة في الشعـب غضّـــوا دونها
طـرفـــاً وكنت السّـاهـــر اليقظـــانـــا

فمضـــوا وسلطتهم مضـت في إثـــرهم
وبقيـت أنفـــذ منهمُ سلطـــانـــا

وتـــركت دنيـــا لم تـــدع من وفـــرهـــا
إلاّ الثنـــا والمجـــد والإحســـانـــا

وقال في رثاء سعد زغلول:

يـــا مصر، مـــا لصبـــاح شعبك حـــائل؟
غـــربت ذُكَـــاك وبـــدر سعـــدك آفل

يـــا مصر، مـــا نـــزلت بِحِماك كهـــذه
طخيـــاء جـــاء بها القضـــاء النـــازل

عصفـت على مصر فهالـت دهشـــة
هضب الشـــآم لها ومـــاجت بـــابل

مـــا خـصّ هـــذا الـــرزء شعبـك وحـــده
لكنـــه لشعـــوب يعـــرب شـــامل. . .

فجعـت بنـــــوك بمنقـــــذٍ ومحرر
وأب يكـــــافـح دونها وينـــــاضـل

ذهـب المؤمّـل والـــــزعيـم المرتجى
فـــاستيأس الـــراجي وخـــاب الآمل

حتى يقول:

يـــا قطـب دائرة السيـــاســـة كلما
طـــاش الحليم بها وحـــار العـــاقل

مـــا قمت عـن مصر تجادل وحـــدهـــا
بـل عـن جميـع الشرق قمـت تجادل. . .

إن تمضِ فـالشرف الـذي خلّـدتـه بـاقٍ وذكـرك في حيـاتك كـافل
أو يخلُ منـك بمصر أكـرم منـزل فلك الخواطـر والقلـوب منـازل
ولأن طُـويتَ فقـد نشرت صحـائفاً عنـوانهن منـاقب وفضـائل
خلّفت بعـدك أمـة أيقظتهـا للعـزّ، ليس بها نـؤوم كـاسل
نهضت بأعبـاء نهضت بها ومـا وهنت لها عـن حملهنّ كـواهل
مـا مـات من بقيت بأنـديـة العلى تثني عليـه أواخـر وأوائل

***

ومن لطيف شعر اليعقوبي :

من عـادة النّاس لـلأصنـام تعبدهـا ، من حطّـة النـفس لا مـن رفعـة الصّنم

ولا أنسى سفـرة لطيفـة الى النجف وربوع الفـرات قمنـا بها في شتـاء ١٩٥٠ برفقـة الصديقين أحمد حامد الصّراف ومصطفى جواد ، ثم صحبنا الشيخ محمد علي اليعقوبي الى كـربلاء . كـان الطريق وعـراً غير معبّـد ، كثير الغبار تثيره عجـلات السيّارة فيمـلأ الخياشيم ويعلق بالـوجوه والثياب ، لكننا قضيناه نستمع الى لطائف اليعقـوبي وبدائعه الشعرية والنثرية ، حتى بلغنا مدينـة الحسين ولم نكد نصدّق أننا قطعنا تلك المرحلة ولم نشعر بمزعجـاتها . ولعلّها كانت المرة الوحيـدة التي رضي فيها الصّراف أن يفسح لغيره مجال الكلام فلا يحتكره ويستأثر به على جاري عادته .

إشتهر محمد علي اليعقوبي خطيباً من خطباء المجالس الحسينية ، وكان يقيم في بداءة أمره في بلـدة الحيرة المعروفـة باسم «الجعـارة» . ثم علت شهرته وانتقـل الى النجف سنة ١٩٢٩ أو بعيـدها وصـار ينافس أبـرز خطبـاء ذلك العهد وهـو السيد صـالح الحلّي . وتطرق جعفـر الخليلي في الجزء الثاني مـن كتابه «هكـذا عرفتهـم» الى ذكر المنـافسة بين الخطيب المخضرم والخطيب الناشىء ، فقـال إن نجم السيد صالح بدأ بـالأفول ، وبدأ نجم اليعقوبي بالصعود، على الـرغم مما كان يوجهه الحلي اليه من نقـد وتنديد وصراحـة وكنايـة . فقد كان السيـد صالح ـ كما قـال الخليلي ـ سليط اللسـان جريئاً يخشـاه أجرأ العلماء . وكان اليعقوبي مسالماً عفّ اللسان بعيداً عـن اللمز والغمز، ولذلك لم تبد منه ولا كلمة شائنة في حق السيد صالح وإنما كان يظهر عليه باطلاعه الواسع ووقوفه التام على التاريخ الإسلامي وتاريخ الأدب : فقد كان اليعقـوبي موهوباً، وكانت له ملكات طبيعية ممتـازة نماها وصقلها أبـوه الشيخ يعقوب الـذي كان هو الآخـر من خطباء المنبر الحسيني البارعين .

وقال الخليلي إن اليعقوبي عرف بسعة الاطـلاع والعلم والظرف والأدب وصوغ النكتة وسرعة الخاطر، كما عرف بارتجال الشعر وصناعة التاريخ المنظوم . ويزخر شعره بالبديع من الجناس والتورية والأمثال والتضمين يرسله عفو الخاطر بلا تكلف ولا تعقيد . ومن

طرائفه أنه هجا شاعراً تنقّص المتنبي فقال :

يـــا هـــاجيـــاً ربّ القـــوافي «أحمـــداً» بلـــواذع مـن قولـــــه وقـــــوارص
حسبـــي وحسبـك في جوابـك قولـــه : «وإذا أتتك مـــذمّتي من نـــاقص»!

ابراهيم أدهم الزهاوي

الشاعر إبراهيم أدهم بن الحاج صالح بن المفتي محمد فيضي الزهاوي، ولد في بغداد في ٣٠ كانون الأول ١٩٠٣، ودرس في مدارسها الابتدائية ثم حضر دروس عبد المحسن آل بكتاش وقاسم القيسي وأمجد الزهاوي. وانتمـى الى جامعة آل البيت وتخرّج فيها سنة ١٩٣٠. وقرض الشعر صبياً، فبرّز فيه تبريزاً حتى لقد أمل عمه جميل صدقي الزهاوي أن يكون خليفته.

كان عنيفـاً في وطنيته وتديّنه، غـريباً في أطواره، متقلّب النـوازع والأهواء، فحفلت حياته بـالمآسي والمناقضات والآلام. وقد اشترك مع عبد الستار القـراغولي في طبع ديوان صديقهما نعمان ثابت عبد اللطيف باسم «شقائق النعمان» (١٩٣٨) وكتابه «الجندية في الدولـة العباسيـة» (١٩٣٩). ووظف كاتبـاً في وزارة الشؤون الاجتماعيـة (كانـون الثاني ١٩٤٠) فلم يطق قيد الوظيفة طويلاً وتوفي ببغداد في ١٥ آب ١٩٦٢.

ألّف كتاب «إبطـال اللانهاية في الفلسفة» (١٩٤٧). وجمع شعـره عبد الله الجبوري وطبعه في القاهرة بعنوان «اللهفات» (١٩٦٩).

شعره :

له شعر وطني واجتماعي متين، شديد اللهجة.

فمن شعره الوطني :

لنـــا مثلما للغــاصبين ســـواعـــد فما بـــالنـــا عـن مجدنـــا لا نجـالـــد؟
وأيّ حيـــاة هـــذه فنلـــذّهـــا لأيسر منهـــا يشتهي الموت خـــالـــد
وإنّـــا لفي عصر تيقّـظ أهلـــه فـأدرك معنـى العيـش حتـى الخرائد
فــلا تطمعنّ الغــرب فينــا فنـونـه فما هـي إلا رغبـــة وعـــوائد
لنــا أصلهــا النـامي، وهل من عجيبـة إذا انتقلت منـــه إلينـــا الـــزوائد؟
فنحن الألى لـــولا نتـــاج عقـــولنـــا لما كـــانت الـدنيـــا على مـــا نشـاهـد
لئن قـــابلـــونـــا بـــالإسـاءة والأذى فما عـــرفـت غير العضـاض الأســاود

جزى الله عنّا الحادثات فإنها ... تقارب ما بين الورى وتباعد
فيثبت ودّ بين شعبين خالص ... ويمحق ودّ بين شعبين فاسد
فلا يرتجوا من بعد هذا ودادنا ... لقد خابت الآمال والترك شاهد
خرجنا عليها وهي منّا قريبة ... إن اختلف الأصلان فالدين واحد
فهل وضعت أغلالها عن رقابنا ... لتخلفها أغلالهم والمقاود؟
فأين ادّعاءات لهم يدّعونها : ... أتلك ثعابين وهذي قلائد؟

ومنه :

يا بني العرب، والحروب سجال، ... والليالي بمن تحطّ تقوم
وحدوا وحدوا الصفوف ولا تستـ ... ـصعبوا السهل فهو خلق ذميم
لا تميّزكم الديار ولكن ... لغة الضاد والنّجار الكريم
فهي لولا تخاذل السائسيها ... لم يفرّق ما بينها التقسيم

وقال :

أنا الداعي الى أمجاد قومي ... أذكرهم عهود الأوّلينا
وأدفع عنهم طعن الأعادي ... فأترك شلو طاعنهم طعينا
أعدّد منهمُ بيض الأيادي ... على أهل البسيطة أجمعينا
فكل يد لهم جحدت سنان ... تراه بقلب جاحدها مكينا

وقال في رثاء سعد زغلول زعيم مصر:

هي الأعمار أثواب تعار ... وأوقات تزور ولا تزار
وأيام تديم النحس حتى ... تساوى الليل فيها والنهار
تغير خطوبها في الناس تترى ... وما غير النفوس لها مغار

حتى يقول :

كذا الدنيا شؤون الدهر فيها ... شؤون في مجاريها بحارُ
لحاها الله لم تترك عليها ... مكاناً يجتبى فيه الجوار
فملك العجم مغبّر النواحي ... وملك العرب أنذره البوار
فلا أمر الجزيرة مستقرّ ... ولا قطر العراق له خيار
ولا حكم الجزيرة في بنيها ... ولا في الشام للأحرار دار
فقد أمسوا حيارى في ديار ... شعار القاطنين بها الصّغار

تنيلهم ـــ إذا طلبوا ـــ العوالي | وتخبرهم ـــ إذا سألوا ـــ الشّفار
وتلك دماؤهم نادت نزاراً | فما لبّت لها الدعوى نزار
ووادي النيل لم يفتأ مضيماً | يهدّده إذا وثب الدمار
وفارقه الزعيم فزاد كرباً | على كرب وتمّ له الخسار
سرت بنعيّه الأنباء حتى | أذاعتها المفاوز والبحار
فضّج لها بقاع الشرق حتى | خشينا أن تشبّ بهنّ نار
وقيل: دم الحقوق، حقوق مصر، | أُميرَ وسعدها ذاك المهار
ولو غير الزمان رماه نالت | مناها من حشاشته الشفار
ولكن دهره أخنى عليه | فلم يؤخذ لها فيهنّ ثار. . .

وكان سيء الظن بالناس، يراهم يميلون الى الشرّ، يحفلون بالغنيّ ويظلمون الفقير والضعيف، لا يخضعون إلا للقوة القاهرة ولا يتمسّكون إلا بأهداب الغيّ، ويسعون الى المنافع ويغترّون بالمطامع. فإذا جادوا بالمال أو طلبوا العلم قصدوا التباهي والتعالي والتفاخر. وهم يثيرون الحرب تارة باسم الدين وطوراً بحجة نشر العلوم والفنون وإحياء المكرمات وجمع الشتات:

محال، وإن خيل في الممكنات، | ركون الأنام الى الصالحات
خلا نفراً شذّ في طبعه | فكاد يعدّ من المعجزات
وقد يخرج الحيّ من ميّت | وقد يخرج الميت من ذي الحياة
فرفقاً بنفسك أن تستغرّ | بماء يساق لأرض موات
فما الناس مزرعة للصلاح | ولا معدن الفضل والطيّبات

***

كتب إبراهيم أدهم الزهاوي في سنة ١٩٣٦ كلمة خطية موجزة يترجم فيها لنفسه بضمير الغائب، قال منها:

«إبتدأ ينظم الشعر وعمره ١٧ أو ١٨ سنة، ولو قرأ العربية قبل ذلك لنظم الشعر قبل هذه السنّ. وهو شديد النقد لشعره، لا يثبت منه إلا ما جزل لفظه وحسن معناه. وينظم في كل زمان ومكان، وأكثر ما ينظم في المقاهي، ولا يبالي بما يكون حوله من الضجيج، لأنه لا يحسّ به أثناء النظم لاستغراقه فيه. وهو لا يكتب شيئاً مما ينظم حتى تتمّ القصيدة، فيكتبها حينئذٍ بنفسه أو يمليها على أحد معارفه. وأحب الشعراء إليه من المتقدمين أبو الطيب المتنبيّ، ومن المتأخرين أحمد شوقي، ولا يقدم على المتنبيّ شاعراً، ويحفظ كثيراً من شعره، ويعتبره أستاذه. وفي ذاك يقول من قصيدة طويلة

ترجم فيها المتنبيّ:

أنت علّمتني نظام القوافي أنت أعليت في البلاغة كعبي
لم يحل بيننا التراب، وأنّى للثرى أن يغيب بالمتنبيّ

وهو شديد الولع بمطالعة الكتب القديمة والحديثة، ولا تكاد تراه إلا ومعه كتاب يطالعه، ويرى في ذلك سعادته. وهو لا يحب الظهور ولا يسعى له، لأن حب الظهور عنده رياء، والرياء من أقبح خلائق الإنسان وآلامها، لأنه غشّ، ومن غشّنا فليس منّا. وقد حرق شعره مرة وصمّم على ترك نظم الشعر، فلم يلبث طويلاً حتى عاد إليه، لأن الشاعر غير مختار في نظم الشعر، ولو ظنّ أنه مختار بحسب الظاهر، بل ليس في الكون كله حركة اختيارية إذا أمعنت النظر ولم تنخدع بالظواهر. والنثر عنده أفضل من الشعر، لأنه الأساس الذي قام عليه رقيّ البشر، والله لم يخلق الإنسان إلا للرقيّ، وليس في استطاعة الشعر أن يقوم مقامه، بل متى تورّط في ذلك خرج عن أن يكون شعراً. ويرى أن النثر العربي قد بلغ في هذا العصر شأواً بعيداً من الجودة لم يبلغه الشعر، إلا فيما خلّده شوقي من الآيات البيّنات. ولا يرى في ذلك عيباً على اللغة ولا قصوراً منها، لأن الشاعر من مواهب الطبيعة تهبه متى تشاء، وقد تشحّ الطبيعة بالشاعر النابغ وتتمادى في شحّها أجيالاً كثيرة وعصوراً متطاولة».

قال حسين الظريفي:

«. . . . والمرحوم إبراهيم أدهم الزهاوي كان معجباً، بل كلفاً، بشعر المتنبّي، فتراه متأبّطاً ديوانه في كل آنائه، وإني لأعجب كيف لم يحفظه مع طول قراءته له، كما كنت قد حفظته في صيف العام قبل الماضي وكما حفظه أخوه عبد الرزّاق الزهاوي.

«إن بين المتنبّي والزهاوي أكثر من شبه واحد، وقد انعكست هذه المشابه في شعر الرجلين. وهي مشابه موروثة لا يد فيها لأيّ منهما. وإن وقائع الحياة التي يمرّ بها الإنسان تتولّى ما انتقل إليه إرثاً من الآباء والأجداد بالصقل آناً وبالطمس آناً آخر، بحسب ما تكون عليه تلك الوقائع من تفاعل مع المواريث تفاعلاً موجباً أو غير موجب.

«وأول هذه المشابه تلك الشخصية القوية التي يتأثر بها القارىء تأثراً يصل به الى عمق الانفعال، فتراه مأخوذاً ببريق ما يقرأه وكأنه يركض به في فهم المعنى الطافي على وجه ألفاظه فهماً مبهراً، ومن ثمّ يكون مؤثراً، حتى إذا تكرّرت النظرة ظهر له في ما يمكن أن يحمل عليه من مآخذ. . . .».

وأضاف حسين الظريفي أن المتنبّي سلك في شعره كله طريق الغوص على المعاني أولاً، ثم إيجاد القوالب الشكلية لها بعد ذلك، مستجيباً فيما قدم وأخّر الى نداء الطبع فيه. وكذلك فعل إبراهيم أدهم الزهاوي، فإنّ المعنى الطافي على وجه شعره يكاد

يخطف البصر. ولكن متى انتهت الهزّة الأولى وأعاد القارىء أو السامع مع النظر في البيت إعادة الناقد الهادىء، تبيّن له أن وراء ما عليه من طلاء ظاهر باهر شيئاً يستوقف النظر. . . (جريدة التآخي، في ٩/ ٣/ ١٩٧١).

وكتب عبد القادر البراك عن إبراهيم أدهم الزهاوي فقال: «إن الزهاوي الصغير كان من الكتاب المقتدرين وقد تجلّت قدرته الكتابية وأحاطته بالعديد من العلوم العقلية والنقلية في الفصول التي ردّ بها على آراء عمه الشاعر المتفلسف المرحوم جميل صدقي الزهاوي في الفلسفة والفلك والكون وغير ذلك مما تضمّنه كتابه «المجمل مما أرى». . . كما سبق له أن نشر مقالات في الدفاع عن الشعر العمودي يوم انطلقت الدعوات الى الشعر المرسل والشعر المطلق والشعر الحر في مطلع القرن الحالي، فكان بحق أول المدافعين عن عروض الخليل والذابّين عن اتهامه بعدم وفائه بالتعبير عمّا استجدّ من أغراض الشعر الحديث. هذا إضافة الى المقالات العديدة التي ناقش بها فيلسوف الفريكة أمين الريحاني حول ما تضمنّه كتابه «قلب العراق»، والمقالات الأخرى في الملل والنحل والمعتقدات والتي يعتبر كتابه «إبطال اللانهاية» المطبوع في القاهرة في أواخر الأربعينات من أهم نماذجها».

هذا وقد جمع عبد الله الجبوري ديوان شعر إبراهيم أدهم الزهاوي وطبعه في القاهرة سنة ١٩٦٩ مع دراسته بقلم الدكتور شوقي ضيف.

عبّاس الخليلي

الشاعر الأديب العراقي المغترب في إيران عباس بن أسد بن المولى علي بن الخليل الطبيب الطهراني الأصل، المتوفى سنة ١٨٦٤ في النجف.

قدم الخليل الذي تنتسب إليه الأسرة الى العراق في نحو سنة ١٨٠٠ ومارس الطب وعمّر زهاء مائة سنة. واشتهر ابنه المولى علي (١٨١١ ــ ١٨٨٠) عالماً زاهداً بلغ رتبة عالية في الاجتهاد وألف خزائن الأحكام وسبيل الهداية وغيرهما من كتب الفقه والأصول. واشتهر أيضاً الشيخ حسين الخليلي الذي انتهت إليه الزعامة الدينية بعد وفاة السيد حسن الشيرازي، وتوفي سنة ١٩٠٨ عن نحو تسعين عاماً.

ولد عباس الخليلي في النجف سنة ١٨٩٦، ودرس في معاهدها، وقرض الشعر وهو شاب يافع. وقد اشترك في ثورة النجف الأولى على الاحتلال البريطاني سنة ١٩١٨ ــ وهي الثورة التي قام بها الحاج نجم البقال ــ فحكم عليه بالاعدام، ولكنه استطاع الهروب والاختفاء في الآبار حتى بلغ إيران آمناً. وأقام عباس الخليلي في طهران، وأصدر فيها جريدة «إقدام» الفارسية اليومية، فظهرت أكثر من عشرين عاماً حتى سنة ١٩٤٨. وأبعد عن البلاد الإيرانية سنة ١٩٣١، فجاء الى بغداد وأقام فيها بضعة

أشهر، ثم سمح له بالعودة الى طهران.

وقد وظف في دائرة بلدية طهران، ثم كان وكيلاً لدائرة القوانين في وزارة العدلية فرئيساً لها. وعمل في وزارتي الداخلية والخارجية، ثم عيّن في سنة ١٩٤٨ سفيراً لإيران في الحبشة واليمن، وكان بعد ذلك عضواً في لجنة مصايد أسماك بحر قزوين.

قال حين فرّ من العراق:

رويداً، رجال الإنكليز ورأفةً ... إن اليوم أسرفتم فإنّ لنا غدا...

ثم التفت الى أبناء وطنه يحييهم قائلاً:

يحيّيكم، أهل العراق، على النوى ... فتى في سبيل المجد أمسى مشرّدا
تحية عانٍ كلما هبّت الصَّبا ... ينوح كما ناح الحمام مغرّدا
إنِ اليوم أطلقت اللسان بحبكم ... فبالأمس عنكم قد سللت المهنّدا

وهو كاتب باللغتين العربية والفارسية وشاعر عربي نشرت قصائده مجلة المقتطف والهلال والعرفان الخ.

ومن شعره بعنوان «الرائد»:

أبثّك ما بي من جوى يقلق الصمّا ... يجيش إذا ما رائد الأمل احتمى
وأخشى على نفس بجنبك حرّة ... إذا بحثت أن لا تحمل البثّ والهمّا
جوى كلما أخفيته عنك يلتوي ... على القلب صِلاً أرقماً ينفث السمّا
رعى الله قلباً قلّبته يد الهوى ... على الجمر إن سار الظلام رعى النجما
تحيّر بين الحبّ والمجد تائهاً ... فمن جانب عفواً ومن جانب رغما

وقال حين عاد الى العراق سنة ١٩٣١:

قبّلت منك بعيني الأرض لا بفمي ... وجفّ دمعي فروّاك الحشا بدمي
عفّرت بالترب وجهي إذ سجدت ضحى ... فناب للسعي رأسي فيك عن قدمي
وكاد ينطق طرفي بالسّلام على ... أرض العراق فهذي أدمعي كَلِمي
ما الدمع واللفظ إلا لؤلؤ رطب ... خلطت منتثراً منه بمنتظم
رضعت فيك لبان المجد من صغر ... فلست حتى الردى عنه بمنفطم...

توفي في طهران في ١٠ شباط ١٩٧٢.

وضع مؤلفات عديدة ونقل الى اللغة الفارسية تاريخ ابن الأثير وكتاب «ضحى الإسلام» لأحمد أمين الخ. وترجم الى العربية ١٧ ألف بيت من شاهنامة الفردوسي. ومن مصنفاته: إيران بعد الإسلام، إيران والإسلام، الخ.

وكانت آخر قصائده «اللوح» نظمها قبيل وفاته، قال في مطلعها:

مـــا على الصبح لـــو أزال الإزارا فمحـــا الليل ثم خطّ النهـــارا
بمـــداد من عسجـــد ويـــراع من شعـــاع الشمس استمـــدّ النّضـــارا
وبسفـــــر زمـــــرّدي وكـفّ مـــن لجين تنمّق الأسفـــــــارا
هـي كفّ الفجـــرالتي لاح فيهـــا رمـــز خطّ تمحـــو بـه الأسحـــارا...

قال من قصيدة نظمها بعد فراره الى إيران سنة ١٩١٨:

أمـــا وغمام يشبـــه الظلم أســـودا ورعـــد حكى قصف المدافع بـالصّـدى
وبـــرق يـــرينـا ومضـه الحقّ خـــافقـاً، فسرعـــان مـــا يخفى عن الطـرف إن بـــدا
وغيث همى هطـــلاً يـــذكّـــرني الـــوغى يمثّل رشـــاشـــاتها تمطـــر الـــردى
وأفق على فقـــد السيـاســة صـــدقهـا جـــداداً بمســـودّ من الفشـل ارتـــدى
وعـــاصف ريـح مـــرّ كـــالموعـد الـــذي لنـــا ضرب «السكـون» نـــاهيك مـوعـــدا
وليل هـــو الحكـم الحديـــديّ حـــالك قضـى لي قهـــراً أن أبيت مسهّـــــدا
يمينـــاً، ولم يقسم فتـى قبل بـــالـــذي وصفـت ولكنّي حلفـتُ تعمّـــــدا
لقـــد صبغـت منّـــا الـــدّمـا كـلّ بقعـة زهت فبـــدت غنّـــاء في أعين العِـــدَى

عبد الكريم العلّاف

الشـاعـر الأديب، نـاظم الأغـاني الشعبيـة، عبـد الكـريم بن مصطفى بن سلمان العلاف العزّاوي، كان أبوه مصطفى العلّاف ينظم الشعر وله تواريخ منظومة بحساب الجُمَّل. ولـد في بغداد سنـة ١٨٩٤ ودرس على الشيخ عبد الـوهاب النـائب. ومال الى الأدب ونظم الشعـر منذ فجـر شبابـه، فقـال أولى قصائده في مـدح أستاذه النـائب، ومطلعها:

رعـــى الله صبـاً عنـــّفـــته عـــواذلـه وشطّت بـه نحـو البعـــاد منـازلـه

وكـان من شعـراء الثـورة العـراقيـة سنـة ١٩٢٠، ألقى قصـائد حماسيـة في جـامع الحيدرخـانة والاجتماعات الـوطنية. ثم فـرّ الى مضارب عشيرته العـزّة وسجن في دلتاوة (الخالص).

وعيّن سنة ١٩٢٦ كاتباً في دائرة المال بقضاء الكاظمية، ثم عمل أعمالاً مختلفة وتولى تحرير مجلة الفنون الأسبوعية (شباط ١٩٣٤).

وقد نظم أشعاراً رائقة لحّنت وغنّيت. من تآليفه: بغداد القديمة (١٩٦٠) الطرب عند العرب (١٩٤٥) الموال البغدادي (١٩٦٣)، نيل المرام في قاموس الأنغام، الأغاني والمغنيات (١٩٣٣) أيام بغداد (١٩٦٩) قيان بغداد (١٩٦٩) مجموعة الأغاني والمغنيات (٢٤ حلقة ١٩٣٥ ـ ١٩٤٦) موجز الأغاني العراقية (١٩٣٠)، قطف الأثمار في الأشعار والأخبار.

من شعره في رثاء شيخه النائب:

ترحل صاحب الفضل العميم	وخلّف في القلوب لظى الجحيم
مضى عنّا وكان العيش غضاً	بجانب ذلك الفذّ الرحيم
ومادت راسيات الأرض حزناً	عليه وقد هوت زهر النجوم
وقد فاضت عليه كلّ عين	ولم تنجُ القلوب من الكلوم

حتى يقول:

لقد عفت الحياة، ونحن فيها	نكابد لوعة العيش الذميم
وحقّك ما الحياة حياة عزّ	تطيب لكل شيطان رجيم
خيار القوم تلقاهم نياماً	على مضض كأصحاب الرقيم
فكيف يطيب عيش في بلاد	يدلّ بها الكريم على اللئيم؟...

وقد اشتدّت به الفاقة في أيامه الأخيرة وهدّ جسمه المرض، فاضطرّ أن يمتهن كتابة العرائض في دائرة طابو بغداد سداً لرمقه. ثم عيّن مشرفاً أدبياً لفحص الأغاني بمصلحة المسرح والسينما.

وتوفي العلاف في بغداد في ٢٣ تشرين الثاني ١٩٦٩.

كان العلاف شاعراً عاطفياً، سئل عن رأيه في الشعر الحرّ فقال: «ليس هناك شعر حرّ، فالشعر يلتزم بالقافية والوزن. وهو كما هو معروف ينمّ عن العاطفة والوجدان. وإذا تحرّر الشعر من القافية والوزن فقد أهم ميزاته ولا تكفي العاطفة وحدها لتسميته بالشعر. فنحن نقول أحياناً كلاماً عاطفياً جميلاً بكلمات منمّقة رشيقة، لكنها بعيدة من أن توصف بالشعر».

نظم العلاف مئات الأغاني الشعبية التي انطلقت من حناجر مغنيات فترة ما بين الحربين فهزت النفوس وترددت على الألسنة، وأشهرها: يا نبعة الريحان، خدّري الشاي خدّري، قلبك صخر جلمود الخ. ويصحّ مقايسة العلاف بأحمد رامي شاعر الشباب المصري لولا الفارق الفنّي الجسيم بين مصر والعراق في تلك الآونة.

وقد أعجب العلاف بالملا عثمان الموصلي فسار على نهجه في أغانيه الشعبية.

قال عبد الكريم العلاف من قصيدة له «هيا الى الحرب» في ثورة ١٩٢٠ :

أيـن أهل الحفــاظ، أهـل الحميّــة أين أحفـــاد قـــادة القــادسيّــة

أيـن أبنـــاء يعـــرب ونــــزار أين تلـك الشهــامــة العــربيّــة

يـــا أســـود العـــراق، أنتـم حماه من قـــديـم الــزمـــان بين البريّــة

لكم في الـــوغى مـــواقف حــرب هي كـــالشمس في النهـــار جليّــة

وثبـــات في الحادثـــات وعـــزم ونفـــــوس عن الهوان أبيّـــــة

كلما الحرب جـــاش فيهـــا عبـــاب خضتـم كلّكـم عبـــاب المنيّـــة

كيف تغضـــون عن إغـــاثـــة شعب مستجيراً يأبى قبـــول «الـــوصيّـــة»

كيف تـــرضـــون، يـــا أبـــاة، وفيكم رامت الحكم دولـــة أجنبيّـــة

حكمت في البـــلاد ظلماً وقـــالـت: إن هـــذي حكـــومـــة وطنيّـــة

آل قـــومي، هيّـــا الى الحرب هيّـــا، إنّ فيهـــا حيـــاتنـــا الأبـــديّـــة

وامـــلأوا مسمـع العـــداة دويّـــاً كـــدويّ الـــرعـــود وقت العشيّـــة

إنّ عين الإلـــــه تـــرعى حماكـم وتنير المسعى بكــل قضيّـــة

القصص الشعري :

نظم عبد الكريم العلاّف قصصاً شعرياً على منوال معروف الرصافي في «أمّ اليتيم» و «المطلّقة» و «اليتيم في العيـد»، وخيري الهنداوي في قصيدتـه «زينب وخالـد» أو «فتاة بغداد وفتاها»، وكاظم الدجيلي في «بوليس بغداد». رسم العلاف في قصيدته «الوحش الكاسر» صورة من صور بغداد في عهـد الاحتلال البريطاني، ولم ينس في مطلع قصيدته أن يصف حالته النفسية فيقول :

أرقتُ، وضـــوء البـــدر في الليـل يسطع ونجم الـــدجى سهـــران والنـــاس هُجَّعُ

تحيـط بي الأرزاء مـن كـل جـــانـب وقلبي على مـــا حلّ فيـــه مـــوجّع

كـأنّي في دنيـــا الهمـــوم أراكـــة يميـل بها عـــاتي النسيم فتركـع

وصرت أنـــاجـي الفكـــر في حـــال أمتّي وأحسـب أشتـــاق الأمـــور وأجمع

وطـــرفي على أطـــلال بغـــداد مـــرسل سحـــائب دمع مـن جفـــوني تنبـع

على مـوطن قـد كـان بـالأمس آهـلاً وأصبح هـذا اليـوم والـدار بلقع
سمعت بـه صـوتـاً على البعـد راعني وأيّ فـؤاد بـالأسـى لا يـروّع؟
نشيج لـه في ظلمـة الليـل رنّـة كـأنّ بـه سيفـاً لقلبي يقطـع

قام من فراشه وسار يتحرّى مصدر البكاء، فجاء الى دار خيّم عليها الحزن والكآبة. ووجد فيها امرأة حسناء تبكي بحرقة، وقد أحاط بها فتيات أربع، وفي حضنها طفل ألمّ به الطوى... تقرّب منها يستطلع حالها:

تقـرّبت منهـا، وهي تخشى تقـرّبي، أودّ على أحـوالها أتطلّـع
وقلـت لها: من أنـتِ؟ بـالله خبّري، لقـد سـاءني منـك النشيج المرجّـع
فقـالت: أنـا سعـدى فقـدت سعـادتي ويـا ليت لي تلك السعـادة تـرجع
بكيت على حظـي، على مـا أصـابني، على بـدر عـزّ غـاب هيهـات يطلع

بكت سعدى على قرينها الذي كان ملازماً عسكرياً، دعاه داعي الحرب فودّع زوجه وأطفاله، ومضى يؤدي واجبه في ساحة الوغى، ومات شهيداً يناضل عن قومه ووطنه، مخلفاً أسرته بين فكّي الحزن والمذلّة والفاقة.

وقـد دخـل الأعـداء بغـداد عنـوة وصـار لهم فيهـا نفـوذ ومطمع
وجـاروا علينـا واستبـدّوا بحكمهم وخـانـوا عهـود الإتفـاق وضيّعـوا
وبـالأمس منهم واحـد حلّ دارنـا يهيم كـوحش بـالفـريسـة يطمع
و مـال على إحـدى البنـات بقسـوة فجـاذبها بـالـرغم والبنت تـدفع
ولما رأيت الغـدر يبـدو بـوجهـه وقـد أوشك الملعـون للبنت يصرع
صرخت بصـوت من فـؤاد مـروّع: الينـا، الينـا أيها النـاس أسرعـوا
أنـادي فلا ألقى مجيبـاً سوى الصـدى ولا واحـد وافى الى الخطب يـدفـع
وقـاومـت ذاك العلج في عـزم حـرّة فبـاء بخسران الى حيث يهرع

وأسفت المرأة على ضياع النخوة وصبر القوم على الأذى وانغماسهم في الملاهي والملاذّ وتقويضهم صروح العلم لينشئوا المسارح والمراقص. ولا يبخل الشاعر عليها بالتسلية والعزاء، آملاً أن تكون الحال التي ذكرتها سحابة صيف عن قريب تقشّع، فيرتفع في البلاد علم العرب الميامين، وتزدهر الأوطان وتخضرّ المزارع والمرابع، ليعيش الناس في عزّ ونعمة.

من شعره في الثورة العراقية سنة ١٩٢٠:

شعب العراق :

لـك الخير، لا راعت حِماك الأجـــانـب ... ولا بلغـت للخصـم فيك مـــآرب

أبـى الله إلاّ أن تعيش مـــؤيّـــداً ... بـــرغم العـــدى، والله لا شك غـــالب

وقال :

نهضتم، بني قـومـي، الى عـزّكم نَهْضَـا ... وقـوّضتمُ صرح التخـالف والبغضـا

نهضتم إلى استقـلال شعبكـم الـذي ... يكـاد عليـه من يـد الجور أن يُقْضَى

طلبتم حقـوق الشعـب، والشعب قـائم ... على قـدم يبغي التقـدّم لا الفـوضى

عبد الحسين الحلّي

الشاعر العـالم الأديب الشيخ عبد الحسين بن القاسم بن صـالح الحلّي ولد في الحلة سنة ١٨٨٣ ودرس في معاهـد النجف وتصدّى للتدريس بها واشترك في الحركـة الوطنية في النجف سنة ١٩١٨ ـ ٢٠، ثم عيّن قاضيـاً للبحرين، قال في ذلك جعفر الخليلي في الجزء الأول من كتابه «هكذا عرفتهم» :

«لا أدري كيف رضيت (النجف) لنفسها أن تراه يغـادرها الى البحرين بصفة رئيس للتمييز الشرعي دون أن تحرّك النجف ساكناً؟ وهي تعلـم ـ أي النجف ـ أن الشيخ عبد الحسين قد أفنى زهرة عمره في سبيل عزتها العلمية وشهرتها الأدبية . . . وإني لأذهب الى أن موقف أهل بغداد مع عبـد الوهاب المالكي في القرن الـرابع، الذي حمله ضيق ذات اليـد على السفـر الى مصر والذي اجتمع حـولـه العلماء والفضـلاء ليحولـوا بينـه وبين الهجرة، فقـال أنه لو وجـد من يدفع لـه كيلاً من الباقـلاء في اليوم لعـدل عن الهجرة، فبكى الجميع ولكن لم يظهـر أحد استعداده لسـدّ هذه الخلّـة، أقول: إنني لأذهب الى القول بأن مـوقف بغداد في القـرن الرابع (الهجري) مع عبـد الوهـاب ـ على نبوّه ـ كان ألطف بكثير من موقف النجف مع الشيخ عبد الحسين في القرن العشرين .

وقد أمضـى في قضاء البحريـن نحواً من عشرين سنـة وتوفي بها سنـة ١٩٥٥ . وقد قال :

تطلعـــــت مــــن المربـــــأ ... الى العـــــود الى المبـــــدأ

وسرّحـت بــــه طـــــرفــــاً ... حــــديـــد الطــــرف لا يخسأ

وفكـــــراً لم يـــــزل يخطـــــو ... ولكـــــن قلّما يخطـــــأ . . .

نظم شعراً كثيراً نشر بعضه في مجلة الهاتف النجفيّة وسجل نماذج منه علي الخاقاني في

الجزء الخامس من «شعراء الغريّ» . وألّف الحلي كتباً منهـا : نصرة المظلوم ، النقد النزيه لرسالة التنزيه (١٩٢٩) مسائل فقهية (١٩٦٤) حياة الشريف الرضيّ (١٩٦٨) الخ .

***

روى جعفر الخليلي أن عبد الحسين الحلّي رشّح قاضياً شرعياً ، لكن زعم أنه أخفق في الامتحان وعيّن بدلاً منه الشيخ مهدي سميسم . وزار هذا الأخير الشيخ جواد الشبيبي في أثناء ذلك ، فقال الشبيبي وهو لا يدري أن سميسم قد حلّ محلّ الحلي : حسناً فعلت الحكومة ، فإني لا أجد برهاناً أكبر على غباوتها وتحيّزها من رفض تعيين رجل فاضل كالشيخ عبد الحسين وترشيح حمار لا يدري أي طرفيه أطول ليحلّ محلّه . . .

فامتقع وجه مهدي سميسم وظهر عليه الاضطراب والخجل وقال : أؤكد لكم أنني رفضت قبول القضاء لولا إلحاح وزارة العدلية وإصرارها .

قال عبد الحسين الحلي يحيّي النجف :

حيّ أوطاني اذا سعدت ... بالتحايا الغرّ أوطان
وأصيحاباً عهدتهُمُ ... وهم في الله إخوان
لهم في كل مكرمة ... أثر بالفضل ملآن
كيف يخفى فضلهم ، وله ... بينهم من لطفه شان ؟

جعفر نقدي

الشيخ جعفر محمّد تقي نقدي القاضي الشاعر الأديب ، وهو جعفر بن محمّد بن عبد الله النقدي من أسرة تنتمي الى ربيعة ، ولد في العمارة سنة ١٨٨٥ ، ودرس الفقه والعلوم العربية والدينية . وقد عيّن قاضياً للعمارة في حزيران ١٩١٩ ، وكان عضواً في مجلس التمييز الشرعي الجعفري ، ثم تولّى القضاء الشرعي في كربلاء (كانون الأول ١٩٣١) ، وعيّن بعد ذلك قاضياً في البصرة (حزيران ١٩٤٥) ، واعتزل الخدمة سنة ١٩٤٧ .

توفي سنة ١٩٥١ .

نشر علي الخاقاني جانباً من شعره في الجزء الثاني من «شعراء الغريّ» . ووضع جعفر نقدي مؤلفات كثيرة ، أهمها : الإسلام والمرأة (١٩٣٠) الحجاب والسفور (١٩٣٠) أباة الضيم في الإسلام ، تنزيه الإسلام (١٩٤١) الدروس الأخلاقية (١٩٣٨) ، ذخائر العقبى ، زهرة الأدباء (١٩٣٨) ، زينب الكبرى (١٩٤٧) ضبط التاريخ بالأحرف (١٩٤٧) نزهة المحّبين في فضائل أمير المؤمنين (١٩٥٠) وسيلة النجاة في شرح الباقيات

الصالحات لعبد الباقي العمري، الأنوار العلوية (١٩٥٨) تاريخ الإمامين الكاظمين (١٩٥٠) غزوات أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (١٩٦١) فاطمة بنت الحسين (١٩٦٤). . . وحقق ونشر كتاب تدابير المنازل أو السياسات الأهلية للرئيس ابن سينا (١٩٢٩).

قال جعفر الخليلي: والشيخ جعفر نقدي عالم فقيه كان لفتاواه في أحكام القضاء حين كان يشغل القضاء الشرعي أثر كبير في التيسير. وكان من كبار العلماء في تاريخ الأدب العربي، وهو بعد ذلك من الشعراء المعروفين في عصره.

كان لجعفر نقدي مطارحات شعرية مع محمد مهدي الجواهري الذي خاطبه بقصيدة مطلعها:

مرّ النسيم بريّاكم فأحيانا	فهل كذكراكمُ في القلب ذكرانا؟

فأجابه جعفر نقدي:

لو كان يألف قلب الصبّ سلوانا	ما بات يصلى بأيدي الشوق نيرانا
أو لم يكن ذاب وجداً في محبّتكم	لما تعذّب بالأشجان ألوانا
حمّلتموه هموماً لو تجشّمها	ثهلان دكت على الغبراء ثهلانا
مقدّمات على دعواه أنتجها	قياسها مدمع الأجفان برهانا
إنسان عيني جرى دمعاً فأغرقني	وربّما أغرق الإنسان إنسانا. . .

وقال الجواهري:

أنا مذ همت فيكم كان دأبي	إنّ ما تشتهوه يحمله قلبي

فأجاب نقدي:

يا أخلاّي في الحمى، أي وربّي	أنتمُ في الحياة منية قلبي
بهواكم أنست لا بسواكم	ولكم في الوداد أخلصت حبّي. . .

وقال الجواهري:

الله يصحب بالسلام مودّعي	عجلاً وإن أخنى عليّ بعاده

فأجاب نقدي:

أحبابنا، بعض العتاب لواجد	شوقاً للقياكم يحنّ فؤاده
مهما تشبّب في الغريّ فأنتمُ،	يا ساكني أرض الغريّ، مراده

قاسم الشعّار

القاضي الفقيه الشاعر الشيخ قاسم الشعّار، ولد في الموصل سنة ١٨٨٧ . وكان أبوه الشيخ محمّد ضياء الدين الشعار القادري الحاتمي عالماً شاعراً ناثراً، ألف كتاب «السعادة» المطبوع في استانبول سنة ١٨٩١ ، وتوفي في تموز ١٩١٢ .

درس قاسم الشعار على أبيه وغيره من علماء الموصل وتصدّى للتدريس سنة ١٩١٠ . وعيّن قاضياً في المحاكم الشرعية في شباط ١٩١٩ ، وأصبح قاضياً في يعقوبا (أيلول ١٩٢٥) والموصل في كانون الثاني ١٩٣١ ، فكركوك فالموصل ثانية (آب ١٩٣٧) فالبصرة (أيار ١٩٤٢) فكركوك (شباط ١٩٤٦)، فالموصل أيضاً حتى اعتزل الخدمة في كانون الأول ١٩٤٩ .

توفيّ في ٨ شباط ١٩٥٥ . وكان شاعراً عالماً، وضع تصانيف في الأصول والفرائض والفقه والتصوّف .

محمّد رضا الخطيب

الشاعر محمد رضا الخطيب الذي اشتهر بقصيدته في هجاء الطبيب ، ولد في بلدة طويريج المعروفة بالهندية على الفرات سنة ١٨٩٣ ، وهو محمد رضا بن هاشم الموسوي، واتصل بآل القزويني فتأدّب عليهم ، ونظم الشعر فأجاد فيه وأحسن .

كتب عنه عبد القادر البرّاك الذي عرفه حقّ المعرفة فقال : « . . . فرأيت أن أردّ بهذه الكلمة المحضة الى الأذهان صورة ذلك الشيخ الذي كان يضطرب في الحياة ، فلا يشعر بوجوده أحد لإيثاره الدعة ولطول الكبت الذي أقعد همه عن كل طائلة يكسب من ورائها الراحة والاطمئنان . . . » .

وكان الخطيب برماً بمحيطه الضيّق ، فكان يزور بغداد بين الحين والحين فيلتقي بأدبائها ويحضر ندواتها . وقد حظي بتقدير الزهاوي الذي قال فيه الخطيب :

تنتاب نفسي النائبات فتلتوي ... لكن بقربك تستعيد جمالها

وخاطب محمد رضا الخطيب معروفاً الرصافي بقصيدة قال منها :

لك في القريض مواقف مشهودة ... في الشرق هزّ الغرب صوت دويّها
وسياسة كفكفت من غلوائها ... وجعلت علياها على سفليّها
وكأنني بك قد رفضت بأن ترى ... متربعاً يوماً على كرسيّها
ولو أنها قد أنصفتك لأصبحت ... ولك التصدّر في رفيع نديّها

فأجابه الرصافي قائلاً :

إني لأشكــــر من محمــــد الــرّضـــا شعــراً ذكــرت بــه زمـــانـــاً قــد مضى
شعــراً غــدوت على جـريــر فــاخـراً فيـه، ورحت عن الفـرزدق معــرضـا
قـــد دبجّتـــه يـــراعـــة لمحمــدٍ أخـذت تقيم مـن القـريض مُقَـوَّضا
هـي في التفنّـن ريشـــة لمصـــوّر ولــدى القــراع هـي الحسـام المُنْتَضَى
لـــو كـــان في كفّ الــرضيّ نظيرهـا حسـد الــرضيّ بها أخــوه المرتضى...

وقد توفي محمد رضا الخطيب في مسقط رأسه في ٩ شباط ١٩٤٦. ونشرت نماذج من شعره في «بـابليات» محمد علي اليعقوبي (١٩٥٥). وألف: «الخبر والعيان في أحوال الأفاضل والأعيان» (في مجلدين).

هجاء الطبيب

فكّـــر لنفسك، أيها الـــدكتـــور، إن كـــان ينفـع قـــاسيـــاً تفكير
أصبحت تحكـم بـــالنفـــوس فمـوتها وحيـــاتها أبـــداً عليك يـــدور
يمسي الفقير يئـنّ مــن آلامـــــه ليـــلاً وليلـك ضـــاحـك مسرور
لا أنـت تـــرحمه وليس يجيبــه مـــال ســـوى كفّ إليـك تشير
متـوسّـــداً حسـك القتـــاد ومـــالــه منـــه فـــراشـك سنـدس وحـريـر
بـــدمـــائه أبـــواب قصرك صبّغت وعلى الجماجــم أُسِّسَـــتْ لـــك دور
كـم بـــائس هـــدمت بظلم داره كيما تشيّـــد للطبيب قصـــور
بـك يستجير ولا يجار فعنـــد مـن يشكـــو إذا كـــان المجير يجور
أمقطّـــراً مـــاء الشراب وكـــان من عبرات ذاك البـــائس التقطير...
تـــالله إن شهـــادة طبيـــة صـــدرت بحقك كلهـــا تـــزويـــر...
قلـب الغنـيّ تعيره سمّاعـــة وتصـمّ أذنـك إن أتـــاك فقير
وإذا دعـــاك أخـــو الثـــراء لـــداره تسعـى كأنـك خـــادم مأجـــور
وإذا جفـــا أكـل الشعير حماره وعـــراه مـن أكـل الشعير شخير
أصبحت بيطـــاراً لـــه ومضمّـــداً وحـــداك نحـو عـــلاجـه التـدبير
والبـــائســـون إذا أتـــوك فحظّهم مـــن لطفـــك الإزراء والتحقير...
وأخـــوك عـــزرائيل أنت وكيلـــه فينـــا وصهـــرك منكـــر ونكير...
أمقصّر العمــر الطـــويل، وسعيـــه عنـد الحكـومـة صـالح مشكـــور
بـــاعُ المحـــاكم للبريء ينـــالـــه عسفـــاً وأمـــا عنـك فهـــو قصير

وسلمت من وخــز الضمير لأنـــه   مـن أيـن للــــرجـل الخؤون ضمير؟

وهي طويلة اكتفينا منها بالأبيات المتقدمة. ومن الطريـف أن الشاعر جعفر الحلّي ابتلي بطبيب نجفي اسمه صادق فقال يهجوه:

في كـلّ شيء صــادق صــادق   إلاّ إذا جـــاء اليـــه العليـل

يقـــول: هـــذا داؤه قــاتـل   ويـــوجب الإفطـــار لا عن دليـل

ليس لـــه في الطب شيء ســوى   نسبتـــه للشيخ مـــرزا خليـل

والمرزا خليل طبيب نجفي شهير طهرانيّ الأصل.

عبد الوهاب الصافي

الشاعر القاضي عبد الوهـاب الصافي ابن عم الشاعر أحمد الصافي النجفي، ينتمي الى الأسرة النجفية المعروفـة، وقد ولد بالنجف سنة ١٨٩٩ ودرس في معـاهدها. وكلّف في أثناء ثورة العشرين بالإشراف على الأسرى الإنكليـز والهنود في الجعارة والنجف تحت إمرة عبد المحسن شلاش (آب ١٩٢٠).

كان أحـد مؤسسي جمعيـة الرابطـة سنة ١٩٣٢ وتولّى رئاستهـا. ثم انتمى الى سلك القضاء (٢٨ كانون الأول ١٩٣٦)، فعيّن قاضياً شرعياً للبصرة (أيار ١٩٣٨) فالناصرية (١٩٤١) فالنجـف (آذار ١٩٤٢) فالبصرة ثـانية (كـانون الثـاني ١٩٤٣) فبغداد (آب ١٩٤٤) فالعمارة (أيار ١٩٤٥) فالنجف (حزيران ١٩٤٧).

واعتزل القضـاء سنة ١٩٥٠، وخوّل ممـارسة المحامـاة. ثم وظّف في مديريـة ميناء البصرة حيث قضى عدة سنين.

وهو شـاعر أديب، يحسن اللغة الفـارسية وقد تـرجم عنها روائع من شعر شعـرائها نظماً.

أخبرني عبـد الـوهاب الصـافي أنـه اعتـزل القضاء قبل أن يكمل المدة التي تـؤهلـه لاستحقاق راتب التقاعـد، فتشبّث للعودة الى الخدمة الحكوميـة، وعيّن موظفاً في إدارة ميناء البصرة على عهد وزير المواصـلات والأشغال عبد الوهاب مرجـان. ولم يعهد إليه بعملٍ ما، بل أعطي كرسياً ومكتباً في غرفة واحدة مع موظف مرهق بالأعمال يشتغل ليلاً ونهاراً لإنجاز مهامّه. فقال الصافي له: لا يصحّ أن نجلس في غرفة واحدة، أنت تعمل كثيراً وأنـا عـاطل لا أدري كيف أقضي سـاعـات الـدوام. فأعطني جـزءاً من عملك لأساعـدك على قدر إمكـاني. فأجابـه: وهل تعرف اللغـة الإنكليزيـة أو تعلم أوليّات شؤون الملاحة الفنية؟ إذا كنت تعرف شيئاً من ذلك فهلّم ساعدني.

ومضى الصافي إلى رئيس الدائرة وقال له: أعطني عملاً أستطيع القيام به، فلا يصحّ أن أقبض راتباً ولا أنجز عملاً. وبعد لأي عهد إلى الشاعر الصافي بمديرية زراعة الميناء، وكلّف بالإشراف على تنظيم الحدائق والبساتين، فصار يعمل ليل نهار ولا ينجز مهام وظيفته. فقال: ألا يوجد شيء وسط؟ فإما أن تبقى عاطلاً وإما أن تشتغل آناء الليل وأطراف النهار؟

وعيّن اللواء مزهر الشاوي الجندي الشاعر بعد ثورة تموز ١٩٥٨ مديراً عاماً للميناء، فأصبح عبد الوهاب الصافي، على ما حدّثني به، سكرتيراً شعرياً له ينظر في منظوماته.

توفي عبد الوهاب الصافي في بغداد شيخاً هرماً سنة ١٩٨٩.

الشيخ محمد حسن حيدر

محمد حسن حيدر ابن الشيخ باقر بن علي بن محمد علي حيدر من أسرة معروفة في سوق الشيوخ بالمنتفق ومن رؤساء قبائل الأجود. ولد في سوق الشيوخ سنة ١٨٨٨، وكان أبوه من رجال الدين جاهد في الشعيبة في بداية الحرب العظمى، ثم مرض ونقل الى بلده حيث توفي سنة ١٩١٥.

درس محمد حسن العلوم العربية والدينية وحاز على مكانة روحية وأدبية، ونظم شعراً نشر أغلبه في مجلة العرفان وجريدة دجلة والهاتف والغريّ ومجلة الاعتدال. واشترك في الحركة الوطنية سنة ١٩٢٠. فلما استولت العشائر على بلدة سوق الشيوخ في إبّان الثورة (آب ١٩٢٠) عهد إليه بإدارتها.

إنتخب نائباً عن المنتفق في المجلس التأسيسي (١٩٢٤) لكنه استقال. وانتخب بعد ذلك نائباً عن المنتفق في مجلس النواب سنة ١٩٢٨ ـ ٣٠و١٩٣٣ ـ ٣٤و١٩٣٤ ـ ٣٥، فنائباً عن العمارة ١٩٣٥ ـ ٣٦، فنائباً عن المنتفق أيضاً في شباط ١٩٣٧و١٩٣٧ ـ ٣٩و١٩٣٩ ـ ٤٣ و١٩٤٣ ـ ٤٤. وانتخب نائباً ثانياً لرئيس مجلس النواب في ٥ تشرين الثاني ١٩٤٠.

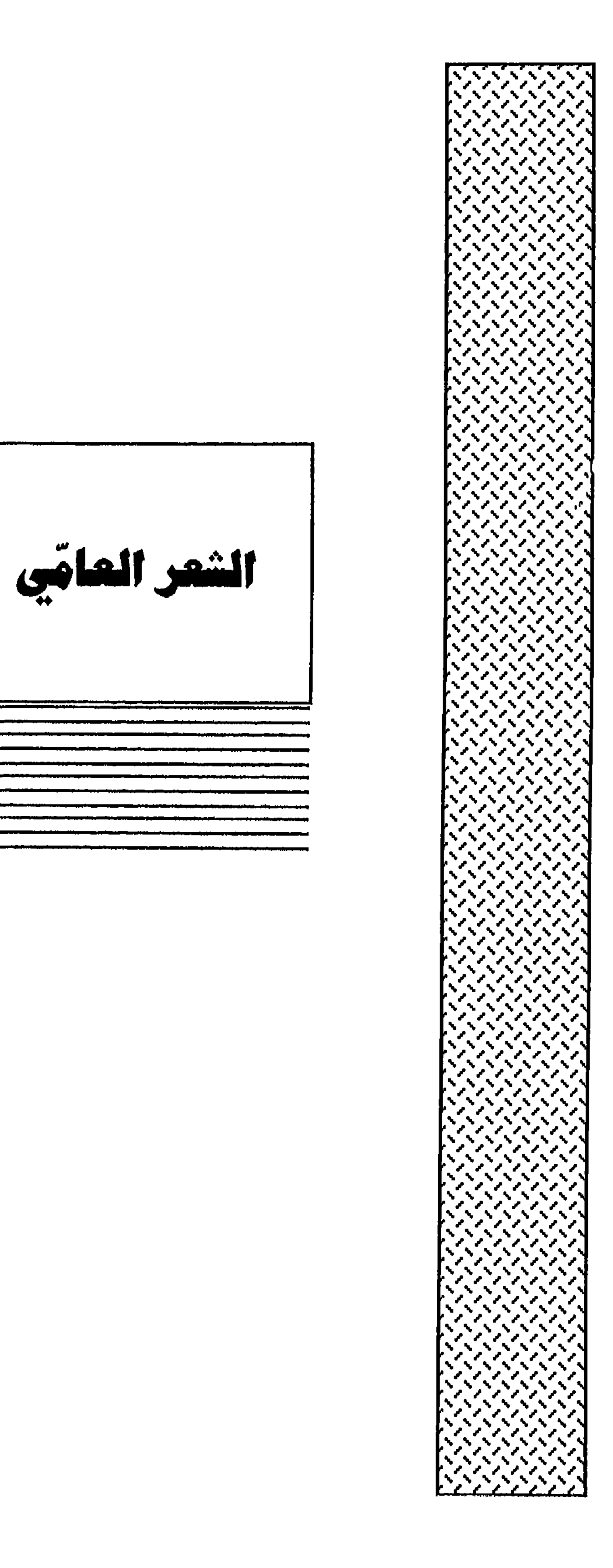
عارض المعاهدة العراقية البريطانية في المجلس التأسيسي عند المذاكرة فيها (١٩٢٤). وقال: إن إعطاء زمام البلاد للأجنبي خيانة، والخيانة خسران الدين والشرف والعيش الحرّ. واضطر بصفته نائب رئيس مجلس النواب في عهد حركة رشيد عالي الكيلاني (نيسان ١٩٤١) الى دعوة المجلس للانعقاد واختيار الشريف شرف وصياً على العرش في محلّ الأمير عبد الإله. فلما قضي على الحركة وعاد الأمير الى بغداد لوحق الشيخ محمد حسن وأهين، فاعتذر بأنه كان مرغماً في فعلته غير مخيّر. وبقي منكسر النفس مكسوف الخاطر حتى أدركه الموت في بغداد في ٢٤ تشرين الثاني ١٩٤٤.

له مراسلات شعرية إخوانية مع إبراهيم الواعظ والملاعبود الكرخي والشيخ عبد الغني الخضري وغيرهم. ونشر شعراً كثيراً في جريدة دجلة الصادرة في بغداد سنة ١٩٢١ ـ ٢٢، منه:

هي أمّة العرب التي نهضت، وقد رفعت بنهضتها منار جلالها
نهضت بعبء المكرمات فأحرزت علياءها بجلادها وجدالها
حتى أشادت وحدة عربية في أسد غابتها وفي أشبالها
نهضت فنالت دولة عربية قومية قد شيّدت برجالها
نهجت بمنهاج الفخار فخلّدت عزاً لها يبقى الى أجيالها
ما كان لولا الإتفاق تنال ما رامت بمبدأ أمرها ومآلها
ما كان لولا الإتحاد بسعيها تحظى بسؤددها وباستقلالها
سل أمّة الفرس الأُلى والروم في ذي قار ما فعلته في أقيالها
سل عن معاليها المواضي والقنا والخيل يوم الحرب عند نزالها
بخصالها يزهو الزمان سناً غداً يزهو الزمان سناً غداً بخصالها
بنوالها عمّت بني الدّنيا ندى، عمّت بني الدنيا ندىً بنوالها
يا شرق، تِهْ فخراً فأنت مؤيّد ومعزّز لا زلت في أبطالها...

وله أيضاً:

أقرارٌ ولا أرى لي قراراً بمحيط فيه الخمول استدارا...
كم أنادي ولا حياة لمن قد غار في منهج الخمول وسارا
فإلى مَ الخمول باق، وهذي أهل بغداد قد تسامت فخارا؟
نهجت منهج الكمال الى أن تخذت أنجم السّماء سمارا...



الشعر العامّي

الملاّ عبّود الكرخي

الشاعر الشعبي الذي ملأ الدنيا وشغل الناس في فترة ما بين الحربين، عبود بن الحاج حسين السهيل الكرخي، ينتسب الى فرقة البوطيف من عشيرة البوسلطان الزبيدية، ولد في بغداد في ٢٢ حزيران ١٨٦٩ ، ودرس في الكتاتيب وحلقات الدرس في مساجد بغداد والكاظمية. ولما بلغ الرابعة عشرة من عمره انضمّ الى والده الذي كان يتاجر بالإبل والجلود ورافقه في سفراته بطريق القوافل الى إيران والشام والحجاز ومصر والأقطار التركية(١).

واستقرّ في بغداد بعد وفاة والده سنة ١٨٩٦ ، وتعاطى أعمالاً مختلفة من متاجرة ونقل وأنشأ سنة ١٩٠٨ شركة مع آل عارف آغا لنقل المسافرين بين أمهات المدن العراقية. ثم أصبح متعهداً للبعثة الألمانية التي قامت بمدّ خط السكة الحديد الى سامّراء سنة ١٩١١ وألمّ بشيء من اللغة الألمانية، علاوة على ما كان يعرفه من التركية والفارسية والكردية.

ولما أعلنت الحرب العامة سنة ١٩١٤ ، رافق الحملة التركية الى إيران ترجماناً ومجهزاً للمواد الغذائية والمواشي والخيول. وأسره الروس في بعض المعارك، لكنه استطاع الفرار والعودة الى صفوف الجيش التركي. وسمع بأخبار الثورة التي أعلنها الشريف حسين في مكة سنة ١٩١٦ ، فترك القوات العثمانية ولجأ الى بعض القرى والأرياف حتى آذنت الحرب بالانتهاء.

عمل بعد ذلك في الزراعة فلم يؤاته النجاح، وعاد الى بغداد. واندلعت نار الثورة سنة ١٩٢٠ ، فأخذ ينشد قصائده الوطنية في جامع الحيدرخانة. وطبقت شهرته الآفاق، وتسابقت الجرائد الى نشر شعره العامي الذي لقي من الجمهور إقبالاً. ثم أنشأ

(١) ذكر عبود الكرخي في ترجمة له كتبها سنة ١٩٣٥ انه ولد في ١٢ ربيع الأول ١٢٨٦ هـ ويوافق ذلك الثلاثاء ٢٢ حزيران ١٨٦٩ . أما في ديوانه فذكر تاريخ ميلاده سنة ١٨٦١ . وذكر فائق بطي تاريخ ميلاد الكرخي في كتابه «أعلام في صحافة العراق» ١٩ حزيران ١٨٦١ .

جريدة «الكرخ» في ١٠ كانون الثاني ١٩٢٧ ، فكانت من الصحف الشعبيّة الرائجة . وعطلتها الحكومة فاعتاض عنها بجريدة «صدى الكرخ» (١٧ نيسان ١٩٢٨) و «صدى التعاون» (٢ نيسان ١٩٣١) و «الكرخي» (٢ تموز ١٩٣٢) و «الملاّ» (٣٠ أيلول ١٩٣٣) و «المزمار» (٤ حزيران ١٩٣٤). وعادت الكرخ الى الظهور خلال تلك المدة وبعدها ، فقضى في الصحافة نحواً من خمسة عشر عاماً (الى سنة ١٩٤٢).

وأسس مطبعة سنة ١٩٣٣ ، ونشر في تلك السنة الجزء الأول من ديوانه . ثم نشر بعد وفاته جزآن من شعره (١٩٥٥ ـ ٥٦) ونشر الجزء الثالث سنة ١٩٦٧ ، والأدب المكشوف (١٩٦٧) أيضاً. وساءت صحته في سنواته الأخيرة ، فلزم داره حتى قضى نحبه ببغداد في ٩ تشرين الثاني ١٩٤٦ .

شعره :

يمثل شعر عبود الكرخي نهجاً خاصاً في الأدب الشعبي العراقي ، وقد اتّسم بسّمات المرحلة الانتقالية التي مرّ بها العراق خلال السنين التي عقبت الحرب العظمى الأولى (١٩٢٠ ـ ٤٠). قرض الكرخي الشعر العامي منذ فجر شبابه ، وبرّز فيه تبريزاً ، وذاع بعد ذلك على ألسنة الناس وتناقلته الصحف والإذاعة والمجالس الخاصة . وهو يبدع في النقد والهجاء ، وله في سائر الأغراض كالسياسيات والوطنيات والاجتماعيات والغزل والنسيب صولات وجولات . وهو يحسن إستخدام اللغة العامية العراقية بمختلف لهجاتها والقديم والحديث من عباراتها ، ويطعّم شعره بالقصص والحكم والأمثال الشعبية ، ويرصّعه بالكلمات الفصيحة والكردية والفارسية والتركية والهندية والانكليزية والعبريّة وغيرها ممّا هو مألوف لدى أبناء الشعب .

وكانت للكرخي مساجلات ومطارحات شعرية مع شعراء العامية في عصره وفي مقدمتهم حسين قسّام .

حظي شعر الكرخي بتقدير شعراء الفصحى وأدبائها ، فقال الرصافي :

لله درّك ، يا عبّود ، من رجل	يا رافعاً في القوافي راية الزجل
جريت جري قدير في مزالقه ،	لم تخش من زلق فيه ولا زلل

وقال الزهاوي :

الشعر ما قاله الكرخيّ عبّود	ففيه للأدب الشعبيّ تجديد
شعر يفيض من القلب المشعّ له	على اللسان ، فما إن فيه تعقيد . . .
عبود إن عدت الأفذاذ في بلد	فأنت في أول الأفذاذ معدود
فتحت للشعر أبواباً ، ولا عجب	ففي يمينك للنظم المقاليد
إذا هجوت فنيران مؤججة ،	وإن شدوت فأغرود وأغرود

وقال عبد الرحمن البناء :

إن رمت للجمهور من شاعر فشاعر الجمهور عبّود

وقال محمود الملاح :

من بعد عبّودٍ الكرخيّ لا تثقن بالشعر يخلب ألباب الجماهير

وشبَّهه بالحطيئة الذي سنّ سنّة الهجاء لما رأى الفضل في الناس منكوراً غير مشكور.

وقال فهمي المدرّس : «جمع أسلوبه بين لغة العوام وما يقارب اللغة الفصحى تدريباً للعوام على الفصيح من القول، وهو أسلوب حديث في الأدب العامي، والأدب العامي في بلاد تتغلب عليها الأميّة لا يقلّ شأناً عن أدب الخواصّ . . . ».

وقال محمد بهجت الأثري : «والشاعر قدير بلا شك، وهو رافع لواء الشعر العامي في العراق . . . وشعره صورة للمجتمع، فإنّ فيه كثيراً من الحقائق الاجتماعية والسياسية وفّق في تصويرها الى مدىً كبير. . »

وقال رفائيل بطي : « . . . وهو يكنز في أشعاره ثروة طائلة من إحساس العامة وصور أفكارها ونظراتها الى الحياة، وهو يمثل عيشة طبقات الشعب ذات الصبغة المحلية البحتة . . . »

وقال انستاس الكرملي يخاطب الكرخي : «وامتاز شعرك أيضاً بحفظ لغة العراق الخاصّة به، بآدابه وأخلاقه وآرائه . . . ».

وقال علي الشرقي : «تفضل عليّ الشاعر الزجلي الاجتماعي الملا عبود بتقديم نسخة من ديوانه العام. ولما تصفحته وجدتني قد تصفحت العراق كله. نعم، فإنّ بين دفتي ذلك الديوان عراق الثلث الأول من القرن العشرين، فها أنا أتجوّل في شوارعه ونواديه ومراسحه ومقاهيه، في ريفه وحواضره، أسمع الحوار السياسي والاجتماعي والنقد الأدبي واللوعة الاقتصادية، والصبر إبتسامة الأمل، وأسمع أنّة الألم بلغة عراقية وتمثيل صحيح يقوم به شاعر الجمهور. . . ».

وقال القاضي جعفر نقدي : «إن شعر الكرخي يشتمل على أبّهة امرىء القيس وطرب الأعشى ورغبة زهير واعتذارات النابغة وغضبة جرير وفخر الفرزدق ومدائح أبي تمّام ومحاسن البحتري ونفسية المتنبّي ولطائف كشاجم وظرائف ابن الحجّاج وبدائع بديع الزمان، كلّ ذلك بلغتنا العراقية العاميةالتي يألفها عشاق الأغاني الشعبية. . . ».

وقال عباس العزاوي : «وفي ديوان المترجم ما يعيّن سعة اللغة العامية. . وقد اتفقت كلمة أدبائنا على أن شعره من أفضل الشعر في الأدب العامي، ولم يبخسه أحد حقّه» .

والكرخي بعد ذلك ظريف له دعابة حسنة وفكاهة مستملحة. وينقل عنه أنه قال : لم يغلبني أحد سوى أعرابيّ لقيته في زورق في شط العرب، وكان هذا الزورق يسير

بمحاذاة الشاطىء ويقوم مقام الباص، يأخذ الركاب وينزلهم بين القرى المنبثة على ضفاف النهر. وقد ركبته ذات يوم قاصداً بعض الأنحاء لجمع بدلات اشتراك جريدة الكرخ، فإذا بأعرابي يجلس الى جانبي ويحدثني بأحاديث لقطع الطريق. وسألني الأعرابي: ما اسمك، يا ملاّ؟

ـ ملا عبود.

ـ نعم، ماذا كنّا نقول، يا ملا أحمد؟

ـ إسمي الملا عبود. . . عبود. .

ـ عفواً، عفواً، يا ملا. . .

وناداه الأعرابي في خلال حديثه بكل الأسماء، فتارة ملا حمد وطوراً ملا علي أو جواد، والكرخي يقاطعه قائلاً: إسمي الملا عبود، فيعتذر صاحبنا ويعود الى تسميته باسم آخر في سياق الكلام. وضاق الكرخي ذرعاً بالأعرابي المتغابي، فقبض على ساعده وهزه هزاً عنيفاً وقال: اسمي جرو. . . جرو. . . ألا تعرف ما الجرو؟

وهنا بلغ الأعرابي المكان الذي يقصده وأشار الى صاحب الزورق بالوقوف، فلما خرج الى الشاطىء صاح بملء فيه: «في أمان الله، يا ملاّ جرو!» قال الكرخي: «قاتلك الله، لقد نسيت الملا عبود عشرات المرات، ولم تنس الجرو مرة واحدة!».

حدثني مصطفى علي أن محمد مهدي الجواهري أصدر جريدته «الفرات» سنة ١٩٣٠ وسرعان ما دخل في مهاترات صحفية مع عبود الكرخي صاحب جريدة «الكرخ» ونوري ثابت (جزبوز) الذي كان آنئذٍ موظفاً بوزارة المعارف ويكتب في الوقت نفسه حقلاً هزلياً في جريدة رفائيل بطي «البلاد». وقد هجا الكرخي محمد مهدي الجواهري هجاءً مقذعاً بقصيدة عامية ختمها بأبيات يقرنه فيها بملهى الجواهري (وهو من ملاهي محلة الميدان المعروفة في ذلك العهد)، فلم يكن من الجواهري إلاّ أن أقام عليه الدعوى بتهمة القذف والتشهير.

وكان حاكم جزاء بغداد آنذاك عبد العزيز الخياط، فمثل الكرخي أمامه وقال: إن هذه القصيدة قديمة نظمتها في العهد التركي ولا علاقة لها بالجواهري.

قال الحاكم: وهل كان ملهى الجواهري قائماً في العهد التركي؟

فالتفت الكرخي الى نوري ثابت الواقف وراءه وقال: كيف فاتنا هذا الأمر، يا نوري؟

وقد حكم على الملا عبود بغرامة قدرها ٣٠٠ روبية دفعها عنه ـ على ما قيل ـ عبد الكاظم الشمخاني.

أصبح شعر الملا عبود الكرخي مصدراً من مصادر الفولكلور العراقي واللغة العامية

وصورة المجتمع في النصف الأول من القرن العشرين، وكان في الغالب مجتمعاً راكداً محافظاً على حالته قبل تطوره بدخول الإنكليز وتأليف الحكومة الوطنية. أما العامية فقد تطورت بعد ذلك كثيراً بتأثير الصحافة والإذاعة وانتشار المدارس. وقد استمد الكرخي ثقافته من التراث الشعبي، في حين أن شعراء الفصحى استوحوا أدبهم من التراث العربي الخالد والانفتاح الحديث على الآداب العالمية.

أشيع نبأ وفاة الملا عبود الكرخي في البصرة كذباً فخاطبه معروف الرصافي قائلاً:

أعبـود إنـك ذو فطنـة	تعيش بها عيش حـرّ سعيـد
قـريحة شعـرك فيـاضـة	لها في الأنـاشيـد مـرمى بعيـد
أتيت مـن الشعـر بـالمضحكـات	وبـالمبكيـات التي لا تبيـد

حتى يقول:

يبـاهي بك الكـرخ أبنـاءه	ويثني عليك بها لا مـزيـد
ولكـن حسّـادك الخاسريـن	يبيتـون منك بغيظ شـديـد
أشـاعـوا نعيّك من غيظهم	يـريـدون للشعـر مـا لا يـريـد
ولما تبيّن بهتـانهم لـدى النـاس	عـادوا بغيظ جـديـد...

شعر عبّود الكرخي

صوّر الكرخي في شعره حياة الفلاحين والنساء القرويات والمشاكل الاجتماعية، وذكر الأمثال والخرافات العامية. ودعا الى العلم والاستقلال الوطني، حارب السفور مع الحجابيين سنة ١٩٢٤ ــ ٢٥، ورحب بالتجنيد الإجباري، وبكى على نكبة دمشق وفلسطين. نوّه بمتاعب الزراعة وبؤس الفلاح وآلام الصحافة، وانتقد العادات الشعبية المستهجنة ومهازل الانتخابات النيابية وجهل بعض النواب. ونظم شعراً غزلياً على الطريقة القديمة. وله أشعار بذيئة منع نشرها في العراق فطبعت بعد وفاته في بيروت.

المحالات:

قصيدة طويلة نظم فيها الأمور المستحيلة في رأيه. فقال: هل يتزوج وهو الشيخ الفاني بفتاة أم تكون له حورية في الجنّة؟ هل يصعد الى السماء بسلّم وهل يطلب الفرج من المصلوب؟ هل تباع الخيل في سوق الهرج، وهل يحيى الأموات في المقابر؟ هل يجمد النهر في الصيف أم يعود الشيخ الى الشباب؟ هل يأتلف القطّ والفأر أو يتساوى الفحم والماس؟ هل يغلب الحمار الحصان في السباق؟ هل تنشأ السفن من الورق وهل يأكل الأسد التبن والحشيش؟ هل يكون الهندي خطيباً في البدو؟ هل يفترس الحمل الذئب،

وهل يؤكل لحم الكلاب؟ هل يدرس العالم على الأغبياء وهل ينسج البدو القزّ والحرير؟ هل تربط البقّة بالحبل، وهل يسحب النمل السفينة؟ هل يؤسس معمل ورق في الهندية؟ هل يكون الصُّلَيبي أعلم من أديسن وهل يكون ماركوني غبياً؟ هل يظهر نبيّ من زرباطية وهل يكون طلاب اكسفورد وحوشاً؟ هل يطيل فورد ذقنه؟ هل يزرع التبغ في الشامية، وهل ينبت جناح للجاموس فيطير؟ هل يصدر الغبار من أمواج البحر، وهل يدخل الفيل في شقّ الإبرة؟ الخ.

حسين قسّام

الشاعر الشعبي الذي نافس عبّود الكرخي فلم ينل شهرته وذيوع صيته، وهو حسين بن عبّود قسّام الخفاجي، ولد في النجف سنة ١٨٩٧، ونشأ في محافلها ومجالسها، وتفتّحت قريحته بوحي المنابر الحسينية. وأولع بالأدب العامي، وهو غضّ العود، ومال الى النظم والظرف والمفاكهة. قست عليه الحياة ومنحته البؤس والحرمان، فلاذ بالسخرية والهزء. نمت في نفسه نزعة الى الدعابة والهزل، فظهر أثر ذلك في شعره كما ظهر في مساخره وحكاياته. وقد زار بغداد مراراً وطوّف في أنحاء الفرات الأوسط، وعرف شعره وانتشر في المحافل الشعبية ومجامع العوامّ، وكانت له مع أقرانه من شعراء اللغة العامية صولات ومساجلات ومفاخرات. وقد توفيّ سنة ١٩٥٨. طبعت مجموعات من شعره، منها: الأفكار المطلسمة (١٩٥٧) سنجاف الكلام (١٩٦٣) قيطان الكلام (١٩٦٣) محراث الكلام (١٩٦٤).

ولعلّ شاعرنا قد أشبه في هزله والقياس مع الفارق الزمني ـ محمد بن دانيال الخزاعي الموصلي المتوفّى بالقاهرة سنة ١٣١٠م، ذلك الشاعر الذي نعت بالأديب الحكيم الخليع وألف «طيف الخيال» وكان صاحب نكت ونوادر ومجون، وقد قال:

قد عقلنا والعقل أيّ وثاق ... وصبرنا والصبر مرّ المذاق

كلّ من كان فاضلاً كان مثلي ... فاضلاً عند قسمة الأرزاق

وقال سعيد الديوه جي أن ابن دانيال تفوّق في فنّ «خيال الظلّ» وكان يضع له القصة وينظم الأصوات ويلحنها ويعيّن الأزياء لها... أما حسين قسام فكان يسخر من السذّج الغرباء ولا سيّما الزوّار الهنود والفرس، ويمثّل في جموعهم مسرحيات يخرجها على قارعة الطريق، ويضفي عليها لبوس الجدّ والصرامة، ويكون في أكثر الأحيان مبدعها ومؤلفها وممثلها الوحيد.

كنّا ذات يوم نزور صديقاً لنا من أصحاب دور السينما، فجاء حسين قسام، ولم نكن نعرفه، فتقمّص دور صاحب دار سينما في بعض الألوية وأخذ يساوم صاحبنا على

شراء أفلام. وظلّ يتكلم في الموضوع كلاماً طويلاً ويجادل ويناقش ويوافق ويعارض، وصديقنا يلاطفه ويداريه ولا يشكّ في حقيقة أمره. ولما كشف أمره أخيراً أحد الحاضرين العارفين له، استذكرنا كلامه فوجدناه سفسطة خالية من المعنى!

ومثّل في يوم آخر دور قرويّ ساذج، فجاء الى دار السينما واشترى بطاقة الدخول، ثم دافع الناس وحاول أن يدخل من شبّاك بيع التذاكر، والناس تضجّ بالضحك ولا تشك أنه جاهل يسير على سجيّته.

ترجمه محمّد هادي الأميني في مجلة التراث الشعبي البغدادية (أيلول ١٩٦٣)، فقال إنه طرق جميع أبواب الشعر الشعبي ونظم فيها، فأبدع في تصوير مشاهد الحياة وآلامها وألوان العواطف الإنسانية وخلجاتها، وأطلق صرخات الأنفس الحرّة التي يعذّبها الظلم ويكويها الألم فلا تخور ولا تستكين. ونظم القصص والحكايات والنوادر والأمثال، وندد عيوب المجتمع، وبرع في فنون الشعر كالموال والميمر والعتاب والأبوذيّة والحزّورات والهوسات... وأدخل في نظمه من المصطلحات الشعبية ما هو متداول في أنحاء العراق وسائر الأقطار العربية كلبنان ومصر والمغرب. ومن أمثلة شعره السّاخر وصيّة ريفي معدم لا يملك شروى نقير، فهو يوصي أهله بترك البكاء والتفّجع ويعدّد الأشياء التي خلّفها فإذا هي لا تخرج عن حيوانات هزيلة وخنجر بلا قراب وأثاث محطم ولوازم بيتية عتيقة، ويشدّد على أهله بالعناية بكل تلك الأشياء والمحافظة عليها...

ومن شعره الساخر قصائد يحسبها السامع هراء لما حوت من مبالغات وغرائب تفوق حدّ المعقول، ولكنها تظهر لدى التأمّل عميقة المغزى، بعيدة الغور في الهزل القائم على فكرة التناقض والتعجيز والتلميح. فمن ذلك قصيدته التي قالها يواسي صديقاً له سرق اللصوص متاعه القليل، فهو يعده بنصره ومساعدته، ويقول له: إنني لمرسلٌ لك جنوداً من الهنود تكرّ على خيولها في منتصف الليل وعند الظهر، بنادقها من الخشب ورصاصها نارنج، ترجّ البلد رجاً، وقد ساندها جموع العرب والكرد والبربر، رجالهم تمشي على أطراف النخيل وفرسانهم تجول فوق السطوح...

***

ذكر جعفر الخليلي حسين قسّام في الجزء الثالث من كتاب «هكذا عرفتهم» عند كلامه على الظرفاء الذين عرفهم، فقال إنه تجاوز الخامسة والستين من عمره فافتقد تلك المقدرة التي كانت تعينه على تمثيل أدوار المساخر المضحكة وضاقت به الدنيا، وأعسر فلم يكن له مورد سوى راتب ضئيل يتقاضاه من دائرة الأوقاف لقاء سدانته لمقام هود وصالح بمقبرة وادي السلام في النجف.

ثم قال إن حسين قسّام نسيج وحده في تمثيل الأدوار الفكاهية والظرف ونسج الأهابيل والنكات ونظم الشعر الهزلي. وهو يجيد تقليد أغلب اللغات ويجيد حكاية اللهجة في أية لغة ولكن بدون معنى. وكثيراً ما يراه الرائي وهو يكلم أحد الهنود أو الترك

أو الإيرانيين أو الإنكليز بلغة لا ينقصها شيء غير المعنى، فيهّزون رؤوسهم أمامه ويضربون عنه صفحاً. وهو يتكلم العربية بهذه الطريقة فلا يدعك تفهم منه شيئاً. وقد يقصد بعض الحكام شاكياً، فينصت له الحاكم ويسعى ليفهم شيئاً من كلامه، فلا يفهم إلا النهاية التي يتركها واضحة ليقضي على الشك الذي يبعثه سرعة كلامه وعدم اتزانه. وهو فوق ذلك يحسن تكييف نفسه وقلب سحنته كما يشاء دون أن تبدر منه بادرة تفسر عمله أو تشكك فيه. وقد سيق في أثناء الاحتلال الإنكليزي ليعمل في السخرة ويحمل أكياس الرمل لتقوية سداد النهر. فحمل حسين قسّام أول كيس مكرهاً، فحين عاد مع العائدين، انطوى على نفسه في غفلة من الحرّاس وعوّج إحدى رجليه وصعّد حاجبه الى لأعلى وجعل أعضاءه تهتزّ كمن به رجفة، ومرّ على هذا الوجه بين المراقبين وهم لا يشكّون أنه بعض العاجزين المشلولين المشوّهين. ولم يزل هذا شأنه حتى تجاوز حدود المراقبة فأطلق عند ذلك ساقيه للريح . . .

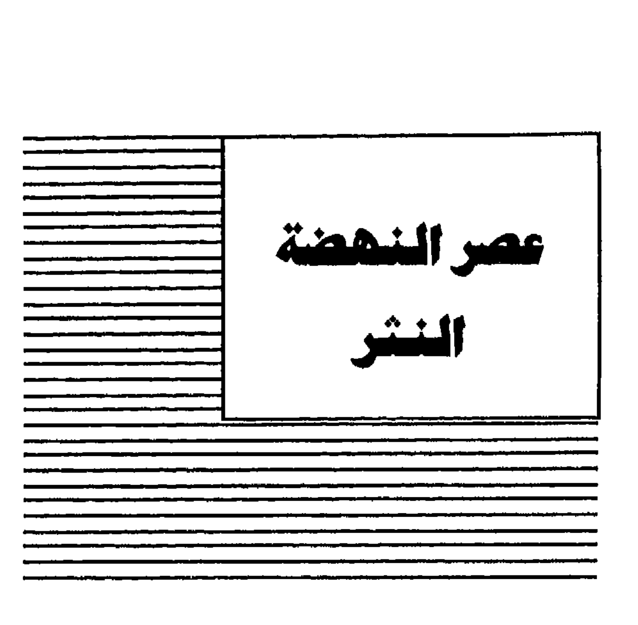
يذكرنا حسين قسّام المعوز الدائم الذي قلما يجد ما يقيت به أسرته بأبطال المقامات كأبي الفتح الاسكندراني صاحب بديع الزمان الهمذاني وأبي زيد السّروجي صاحب الحريري وميمون بن خزام صاحب الشيخ ناصيف اليازجي، وغيرهم من الذين يحتالون لنيل رزقهم بشتى الحيل الأدبية واللغوية والتمثيلية. وكان حسين قسّام ينتظر قدوم الزوار الهنود والأفغانيين والأعجام الى النجف، فيقيم لهم المآتم الحسينية والعلوية ويستدرّ بكاءهم بخطبه الرنانة الفارغة وتعازيه السفسطائية، وهم لا يفهمون كلامه بل يتأثرون بكلماته وحركاته، ولا يبخلون عليه في آخر الأمر بالنقود، ثم يمضون راضين حاسبين أنهم قضوا واجباتهم الدينية.

أدب اللامعقول

LITERATURE OF THE ABSURD, OR IRRATIONAL LITERATURE

ظهر في أوربة في منتصف القرن العشرين مسرح اللامعقول، وهو تطوّر حديث للرمزية والوجودية والسريالية وما يكتنفها من غموض وإبهام، يرمي الى تجسيم سخافة الحياة وتهافتها واستحالتها. وممن برّز فيه أوجين يونسكو EUGENE IONESCO والأديب الفرنسي الإرلندي الأصل صموئيل بيكيت SAMUEL BECKETT. وحذا توفيق الحكيم حذوهم فوضع مسرحيته «يا طالع الشجرة».

وإذا دققنا شعر عبود الكرخي وحسين قسّام وغيرهما من شعراء العامية نجد أنهم سبقوا أولئك الأدباء الغربيين في أدب اللامعقول. ومن أمثلة ذلك قصيدة المستحيلات المنشورة في ديوان الكرخي والكثير من قصائد حسين قسّام كتلك التي نظمها يواسي صديقاً له سرق متاعه القليل ووصية الريفي المعدم عن توزيع تركته الهزيلة الخ.



عصر النهضة
النثر

محمود شكري الألوسي

العالم البحّاثة الذي أحيا سنّة جدّه شهاب الدين محمود الألوسي وضرب مثالاً سامياً في الزهد والقناعة والتجرّد للعلم. ولد في بغداد في ١٢ أيار ١٨٥٧ وتوفي بها في ٦ أيار ١٩٢٤. وقد ترجمت له ترجمة وافية في كتابي «أعلام اليقظة الفكرية».

قال الدكتور علي المحافظة الأردني في كتابه «الإتجاهات الفكرية عند العرب في عصر النهضة ١٧٩٨ ـ ١٩١٤» (بيروت ١٩٧٥): «كان محمود شكري الألوسي مصلحاً دينياً سلفياً جمع بين مبادىء الدعوة الوهابية في الاعتماد على القرآن والسنّة ومحاربة البدع الدينية والطرق الصوفية وبين مبادىء النهضة العلمية العربية الحديثة في الاهتمام بالعلوم غير الدينية مثل التاريخ والفلك».

علي علاء الدين الألوسي

قاضي بغداد علي علاء الدين بن نعمان خير الدين بن محمود شهاب الدين الألوسي، ولد في بغداد في ١٧ شباط ١٨٦١. أخذ العلوم العقلية والنقلية عن والده وعن الشيخ عبد الوهاب النائب وإسماعيل الموصلي وابن عمّه محمود شكري الألوسي. وقد أرسله والده سنة ١٨٨٢ الى الهند، فاجتمع بالسيد صدّيق حسن خان (١٨٣٢ ـ ١٨٨٩) ملك بهوبال وفاتحه في طبع مؤلفات أبيه وجدّه، وأخذ عنه الحديث فأجازه إجازة عامة. ثم قصد الأستانة مع والده سنة ١٨٨٣، فانتمى الى مدرسة القضاة وتخرّج فيها.

وولي القضاء في عدة مدن في فلسطين وبعلبك والعمارة والديوانية. وعهد إليه، على أثر وفاة أبيه سنة ١٨٩٩، بالتدريس في مدرسة مرجان وجامع الشيخ صندل ببغداد.

وانتخب نائباً عن بغداد في مجلس النواب العثماني بعد إعلان الدستور (١٩٠٨) الى حلّه في ١٨ كانون الثاني (١٩١٢). ولما نشبت الحرب العامة أوفد مع محمود شكري الألوسي بمهمّة الى أمير نجد عبد العزيز آل سعود (تشرين الثاني ١٩١٤). وعاد الوفد

في نيسان ١٩١٥ ولم يفلح في مسعـاه لحمل الأمير على مناصرة الدولـة العثمانية . واختير بعد ذلك عضواً بمجلس الولاية العام .

احتّل الإنكليـز بغداد ، فعيّن علي عـلاء الدين قـاضياً لها سنـة ١٩١٧ . ثم أصيب بالفالج وتوفيّ ببغداد في ٧ كانون الثاني ١٩٢٢ .

ذكره إبـراهيم الواعظ فـوصفه بالـرزانة والخلق المتين ، وأشار الى معـارضته لسيـاسة الاتحاديين الأتراك . وقـال : «ثم عرفته قاضيـاً بعد الاحتلال البريطاني ، وكـان صلباً في رأيه ، متمسّكـاً بدينـه . وقد كلفـه ناظر العـدلية بـونهام كارتـر البريطاني بـالموافقة على استبدال أموال الأوقاف ، فلم يوافق وبقي مصراً على رأيه الى أن توفاه الله» .

مؤلّفاته وشعره

ترك علي علاء الدين الألوسي مؤلفات ، منها كتاب الدرّ المنتثر في رجال القرن الثاني عشر والثالث عشر (طبع ١٩٦٧) ، ومجاميع ضمّنها نـوادر وأخباراً وطرائف من شعره . ونظم الأجـروميـة وكتب تعـاليق وحواشي على كتب كثيرة . وقـد آلت معظم تصـانيفـه المخطوطة الى عبّاس العزاوي تلميذه وكاتب المحكمة الشرعية في عهده .

ونشر كتباً منها : نقـد مقامات الحريري لابن الخشّـاب (١٩١٠) والحباء في الإيصاء لنعمان الألـوسي (١٩١٠) وسيرة الرسـول لعبـد البـاسط زين الدين الملّطـي القاهـري الحنفي المتـوفّى سنـة ١٥١٤م (١٩١٠) وكتـاب التـوحيـد لـلإمـام جعفـر الصـادق (١٩١٢) .

ونقل عن الفارسية رسالة للطوسيّ في معرفة التقويم .

كان ينظم الشعر مقلاً . وقد نظم ارجوزة في سور القرآن وقصائد في مدح جمال الدين شيخ الإسلام سمّاها «روضة الإفهام» .

ومن شعره رثاؤه لصديقه مصطفى نور الدين الواعظ ، قال :

أسفـاً لقـد حـلّ الحِمام بفـاضِل — من فقـده الـرُّزْزا بـأمـر بـاهظِ
قـد كـان في علم الشريعـة حـافظـاً — ولسنـة المختـار جـدّ محافـظ
ولـه اليراع العضب يـرعف ثغـره — للـدين خير مـؤازر ومـلاحـظ
فقضـى حقـوق العلـم غير مقصّر — بكتـابـة وخطـابـة ومـواعظ

وقال في السمر والبيض :

قـالـوا : جعلنـاك فما بيننـا حكماً — في السُّمْـر والبيض ، قلتُ : أُصغُوا لتعـريضي
كـلا الفـريقين عنـدي حبّهـم حسن — لكـنّ في السّمـر معنـى ليس في البيـض!

وذكر إبراهيم الواعظ أنّ محمد رشيد رضا صاحب المنار زار بغداد سنة ١٩١٣ فحلّ

ضيفاً على بعض وجهائها. ولم يتمكن علي علاء الدين الألوسي من زيارته لبرود كان بينه وبين الوجيه صاحب الدار، فأرسل إليه بالأبيات التالية معتذراً:

أهلاً ببدر دنا، والدار نائية، والقلب من أهلها ـ حاشاك ـ نفّار
إنّي أحيّيك من بعد على ثقة بالودّ منك ودون القرب أعذار
قد يترك الماءَ محتاج اليه وقد تُعاف للهون أوطان وأوطار
لو كانت النار ما عاقتني ثانيةً عن الزيارة، إلاّ أنّه العار

***

ولي علي علاء الدين القضاء أعواماً طويلة في العهد العثماني وعهد الاحتلال، وكان يرى فيه رسالة سامية لإعزاز الحقّ ونصرة الضعيف. قال في ذلك:

إنّ القضاء هو البلاء، فلا تكن متعرّضاً فتصابَ من سوء القَضَا
وإذا ابتُليتَ به على كُرْه فخذ نهج العدالة إنّها سبب الرّضا

وقال متشوّقاً الى بيروت:

لإخوان الصفاء محضت ودّي فأغنوني بهم عمّن عداهم
ترى عيني جميع الناس فيهم وإنّي لست في المعنى سواهم

وقال يحنّ الى العراق:

أومض البرق من ثنايا العراق فاستفاضت له شؤون المآقي
وبدا لامعاً فأجّج ناراً تتلظّى بين الحَشَا والتَّراقي
ليت شعري، وللزمان شؤون، هل يضمّ الأحبابَ شملُ التّلاقي؟
وديـاري كما أحبّ ديـاري ورفاقي كما أحبّ رفاقي؟

وقال:

روحي وجسمي لمّا بنتُمُ افترقا فالروح في بلد والجسم في بلد
بالله جودوا بطيف من زيارتكم كي تجمعوا لي بين الروح والجسد

عبد المجيد الشاوي

الأديب البغدادي الظريف صاحب الكلمات اللاذعة والاشارات البارعة. ولد في بغداد سنة ١٨٦٢ وتوفي في بيروت في ١٦ أيلول ١٩٢٧. وكان في العهد العثماني نائباً في مجلس المبعوثان. وأصبح في العهد الوطني وزيراً بلا وزارة ورئيس بلدية بغداد ومتصرف لواء الدليم ونائباً. وعين عضواً بمجلس الأعيان وقد اشتدّ عليه المرض، فقال

لما بلّغ بالإرادة الملكية:

أتت وحياض الموت بيني وبينها وجادت بوصل حين لا ينفع الوصل

ترجمت له في كتابي «أعلام اليقظة الفكرية»، ورويت طرفاً من أدبه ونوادره. وقد ذكره أمين الريحاني في كتابه «فيصل الأول» فقال إنه حضر مأدبة في البلاط الملكي بثوب افرنجي عادي ولم يرتدِ اللباس الرسمي. وصفه بأنه ذلك العربي الحرّ الجريء الجامع بين محاسن البدو والحضر، ذلك الفيلسوف الذي نثر الحكم وما كتبها. وقال: كان له رأس كرأس سقراط شكلاً ومعنى ولسان كلسان صموئيل جونسن سقراط الإنكليز بفصاحته ولواذعه.

سمع الريحاني عبد المجيد الشاوي يقول في تلك الليلة: «وهذا الاستبداد الحديث العهد، استبداد «الموضة» جاءنا كذلك من الغرب. أما نحن العرب فلا نضيع وقتنا ومالنا وتعقّلنا في سبيل «الموضة»، فقد كان، ولا يزال، خلاصنا في بسيط عاداتنا وسذاجة طباعنا. أنتم تبدأون حيث يمكنكم أن تنتهوا. أقول: يمكنكم ولا أقول: يجب أو يجوز أن تنتهوا بهذه الرسميات، بهذه الترّهات».

فقال رستم حيدر: ولكنك أنت أيضاً خاضع لسلطة الموضة في ثوبك الإفرنجي هذا، قابل باستبدادها. فأجاب الشاوي على الفور: وأنا أيضاً حمار!.

رويت عدداً من النوادر المحفوظة عن الشاوي في كتابي المذكور. وأروي هنا بعض الطرائف الأخرى:

وقف وزير المالية ذات يوم في مجلس النواب وقال في معرض كلامه: أبشركم بزيادة الضرائب في الميزانية المقبلة. فقال النائب ثابت عبد النور: يا لها من بشرى سعيدة يبشرنا بها معالي الوزير! ولم يكن من عبد المجيد الشاوي إلا أن قال: النائب معذور، فإنه لم يقرأ قوله تعالى: وبشرّ الذين كفروا بعذاب أليم (سورة التوبة).

وكان الشاوي النائب إذا خرج من الجلسة مرّ بكتّاب الضبط وقال لهم ما معناه: «هنيئاً لكم، يا أولادي، تخرجون كلاماً منمقاً من الأحاديث السخيفة التي تسمعونها في المجلس». وقيل إن بعض النواب كانوا يمرون بكتاب الضبط فيلاطفونهم ويرجونهم أن يصلحوا من الخطب والكلمات المرتجلة التي كانوا يلقونها في قاعة المجلس قبل إثباتها في المحاضر.

وكان الشاوي في مجلسه عصراً يحفّ به رجالات بغداد ولفيف من أبناء الأسرة الشاويّة، فإذا به يسمع منادياً في الطريق ينادي على حمار ضائع ويعد بالحلوان لمن يدلّ عليه. فأمر بإدخال الرجل وقال له: هل حمارك حساوي أم شاوي، يا ولدي؟ فقال: إنه شاوي، يا سيدي.

وأشار عبد المجيد بك الى أفراد أسرته وقال له: دونك هؤلاء الشاوية، فاختر واحداً

منهم بدل حمارك، والعوض على الله.

قام الملك فيصل الأول ذات مرة بزيارة للألوية مصطحباً بعض وزرائه وخواصّه ومنهم عبد المجيد الشاوي. ولما وصل الموكب الملكي الى العمارة، وكان متصرف اللواء عبد الله الدليمي، نزلوا في دار المتصرف الذي وقف وموظفيه في خدمة الملك. وكان الشاوي يكره الدليمي ويعلم أن هذا الضابط العسكري السابق والإداريّ اللاحق قد تزوّج من مطلقة الأمير زيد، فأسرّ الأمر في نفسه.

وفي الصباح بينما كان الملك وحاشيته يتناولون طعام الفطور والمتصرف واقف في خدمتهم، قال الشاوي: أليس من المناسب، يا سيدي صاحب الجلالة، أن نقرأ شيئاً من القرآن الكريم؟ وعجب الملك، وهو يعرف مخاطبه لا يعبأ كثيراً بأمور الدين، فقال له: تفضل اقرأ. وقرأ عبد المجيد الشاوي في سورة الأحزاب ﴿**فلما قضى زيد منها وطراً زوّجناكها**..﴾، فخجل المتصرف وانصرف.

والأسرة الشاوية التي ينتمي إليها عبد المجيد من أسر العراق القديمة تنتسب الى شاوي الشاهري الحِمْيَري رئيس قبيلة العُبَيْد من عشائر زُبَيْد، وورد ذكره لأول مرة سنة ١٧٠٧ حين ذهب مع والي بغداد حسن باشا لتأديب قبائل زبيد والدليم. وكان ابنه عبد الله بك الشاوي «باب العرب» أي مدير شؤون العشائر في مقرّ الولاية، قتله الوالي عمر باشا سنة ١٧٦٩. وعلى أثر ذلك نهض ولداه سليمان بك وسلطان بك فحشدا عشيرتهما في ناحية الدجيل وأحدثا اضطراباً.

وكان سليمان بك بن عبد الله بك أديباً شاعراً تولّى منصب «باب العرب» أيضاً، وقد قتله الوالي سليمان باشا سنة ١٧٩٤. وانتدب محمد بك بن عبد الله الشاوي في حملة أرسلها الوالي سليمان باشا الى الأحساء لمحاربة الأمير سعود بن عبد العزيز. واتهم إثر عودته بالميل الى المذهب الوهابي فقتل سنة ١٨٠٢.

وعرف من متأخري أبناء الأسرة الشاعران أحمد بك الشاوي (١٨٢٨ ــ ١٨٩٩) وولده عبد الحميد بك المتوفى في البصرة سنة ١٨٩٨، وأحمد توفيق بك بن سالم بك (١٨٤٤ ـ ١٨٩٥) وكان موظفاً إدارياً تولى قائمقامية أقضية الشامية والسماوة والديوانية وخانقين.

***

رثاه إبراهيم صالح شكر عند وفاته فقال: «شعلة ذكاء متقدة عصف المنون بها فانطفأت وتركت في جوانب النفوس كآبة مظلمة ولوعة مدلهمّة».

وصف نفسه الممراحة التي لم يلاطفها غير الأدب الغضّ وروحه اللطيفة الجذابة التي ملؤها الظرف والكياسة. وذكر دعابته الحلوة اللذيذة والبداهة الحافلة والحديث الطلي

الشهي المملوء عظة وعبرة والروعة اللامعة المبتسمة. ونعته بشيخ الشباب النابه وفتى الشيوخ الأفاضل.

إغناطيوس أفرام الرحماني

إغناطيوس مار أفرام الثاني الرحماني بطريرك أنطاكية على السريان الكاثوليك ومن علماء التاريخ واللغات الشرقية، ولد في الموصل في ٧ تشرين الثاني ١٨٤٨، وكان اسمه لويس بن إبراهيم رحماني. درس اللاهوت في روما ورسم كاهناً (١٨٦٣) ثم عاد الى مسقط رأسه واختير نائب أبرشية الموصل سنة ١٨٨٠. ثم كان أسقفاً للرها (١٨٨٧) وبغداد (١٨٩٠) وحلب (١٨٩٤) واختير بطريركاً لطائفته في ماردين (ت١ ١٨٩٨).

وقد نقل مركز البطريركية الى بيروت سنة ١٩٠٢ وأصدر مجلة الآثار الشرقية سنة ١٩٢٦. واختاره البابا بنديكتوس الخامس عشر مستشاراً للمجمع الشرقي في روما.

كان يحسن لغات متعددة قديمة وحديثة منها العربية والفرنسية والإيطالية والسريانية واليونانية واللاتينية والعبرية، وله معرفة بالخطوط المسمارية والكوفية. وقد توفي في القاهرة في ٧ أيار ١٩٢٩ ودفن في لبنان.

من مؤلفاته: مقالة في سوريا (١٩٢٦) مقالة في مملكة أشور (١٩٢٦) المباحث الجليّة في الليتورجيات (الطقسيات) الشرقية والغربية (١٩٢٤) مختصر التاريخ القديم (١٨٧٧) مختصر تاريخ الأجيال الوسطى (١٨٧٧) مختصر التاريخ المقدس (١٨٨١) الخ. ووضع عدا ذلك قاموس اللغة السريانية ومصنفات باللاتينيّة والفرنسية والسريانية.

قال يوسف أسعد داغر في الجزء الثاني من كتابه «مصادر الدراسة الأدبية» إن البطريرك رحماني «استخدم معارفه الواسعة في علوم الدين والدنيا في حرث البحث العلمي الدقيق وأمدّ الثقافة والتاريخ المدني والكنسي بهذه الدراسات المخدومة التي نشرها بمختلف اللغات وبتلك المقالات المستفيضة البحث التي دبّجها في شتّى العلوم والموضوعات التاريخية واللغوية والكتابية . . .».

أدّي شير

المطران أدّي شير إبراهينا ولد في شقلاوة في شماليّ العراق في آذار ١٨٦٧، ودرس بمدرسة الآباء الدومنيكيّين في الموصل، وتعلّم اللغات العربية والكلدانية والتركية والعبرية والفارسية والكردية واللاتينية والفرنسية. ورسم مطراناً على سعرد سنة ١٩٠٢،

وقتل في بعض قراها في أوائل الحرب العامة في آب ١٩١٥ خلال المذابح التي تعرض لها أبناء أبرشيته .

وضع مؤلفات كثيرة منها : الألفاظ الفارسية المعرّبة (١٩٠٨) التاريخ السعردي (لمؤلف نسطوري مجهول ، حققه وترجمه الى الفرنسية في جزءين ١٩٠٧ ـ ١٩٠٨) تاريخ كلدو وآشور (في جزءين ١٩١٢ ـ ١٩١٣) . مدرسة نصيبين الشهيرة (١٩٠٥) . ومن مؤلفاته الفرنسية المطبوعة في باريس : حوادث من تاريخ كردستان (١٩١٠) تاريخ محمد باشا المعروف بمير كور (١٩١٠) دراسة إضافية عن الكتاب السريان الشرقيين (١٩١٠) الخ . وعرّب كتاب «شهداء الشرق» في مجلدين (١٩٠٠) .

كان المطران أدّي شير في مقدمة العلماء الباحثين الذين تحرّوا أصول الكلمات واجتهدوا في إرجاعها الى مصادرها . وقد قال اللغوي الدكتور إبراهيم السّامرائي الأستاذ في كلية الآداب في جامعة بغداد :

«أظنّ أن تجربة أدي شير صاحب «الألفاظ الفارسيّة المعّربة» وتجارب الآخرين . . . غير موفّقة ، لأنهم جاروا على العربية . فقد زعم غير واحد من هؤلاء الآباء الموقرين أن «كتب» و «قرأ» من المواد السريانية وهي دخيلة في العربية . ولا أدري كيف فاتهم أن هذه المواد العربية هي ساميّة الأصول ، فوجودها في العربية والسريانية والعبرانية والأكدية والأشورية وغير هذه من وجود اللغة الساميّة الأم .

على أني لا أنكر أن يكون في العربية دخيل معرّب اقتبسته العربية في عصور مختلفة من لغات عدّة لسبب من الأسباب ، وقد أشار الى ذلك القدماء والمحدثون» .

انستاس ماري الكرملي

البحاثة اللغوي والمؤرخ المحقق الأب انستاس ماري الكرملي ، واسمه قبل أن يترهب بطرس ميخائيل ماريني ، ولد في بغداد في ٥ آب ١٨٦٦ وتوفي بها في ٧ كانون الثاني ١٩٤٧ . أصدر مجلة لغة العرب الشهيرة وانتخب عضواً بالمجمع العلمي العربي في الشام عند تأسيسه سنة ١٩٢٠ وعضواً بمجمع اللغة العربية في القاهرة .

وضع قاموساً ضخماً بعنوان «المساعد» ، طبع منه جزآن سنة ١٩٧٢ و١٩٧٦ بعناية وزارة الإعلام العراقية وتحقيق كوركيس عوّاد وعبد الحميد العلوجي ، وهما يتناولان حرف الهمزة وقسماً من حرف الباء فقط . والمساعد إنما هو قاموس القاموسيين ، فليس هو بالمعجم الاعتيادي الذي يفيد منه القارىء والمتعلم والأديب ، بل هو ثبت للكلمات الغربية والأصول اللغوية وقياس اللغات واللهجات مع جولات في الجغرافية والتاريخ وأساطير الأمم وتتبّعات في الكتب القديمة والحديثة ومناقشات للآراء والأسماء والأقوال والأفعال واستطرادات أدبية وعلمية وفكرية وشعبية عامية . . .

وعني الأب انستاس بتحرّي تطور معاني الكلمات ودلالاتها وإن كان يشدد على المعنى الأصلي ويعدّ المعنى الجديد في كثير من الأحيان غير فصيح. وقد ناقشته مراراً في هذا الموضوع وقلت إن اللغة كائن حيّ يتطور بتطور الزمن وظهور حاجات التعبير عن معاني العصر. فلا بدّ إذن من الاعتراف بأن الكلمات في جميع اللغات تتحوّر وجوه استعمالها: مثال ذلك أن (القهوة) في العربية كانت تطلق على اللبن المحض والخمرة ثم اتخذها المولّدون علماً للبنّ. و (القرن) يعني حقبة من الزمن ثم اختص بمائة سنة فقيل: القرن التاسع عشر والعشرون. . . و (الوجدان) مصدر للوجود ثم أطلق خصيصاً على الضمير والنفس. و (المقارنة) في الأصل المصاحبة والاقتران والجمع ثم أخرجت الى معنى المقايسة والمفاضلة. و (الثقافة) أتت بمعنى التقويم والحذق فصرف الى معناها الحاضر وهو الحضارة الفكرية وتهذيب العقول والأخلاق، لتنظر الى معنى كلمة (كولتور) الألمانية والفرنسية و (كلشر) الإنكليزية. وهذه الكلمة الغربية نفسها (كولتور) كانت تعني في بادىء الأمر الزراعة والعبادة والتحسين ولم تطلق على مفهوم الثقافة الحاضر إلا في أوائل القرن التاسع عشر.

ولا يزال الكتاب والمتكلمون يخرجون للكلمة معنى جديداً على صواب أو على خطأ فيشيع ويعمّ استعماله ويعسر على الفصحاء استئصاله. وليس ذلك بدعاً في العربية: فقد نبّه الدكتور مصطفى جواد على كلمة (الصمود) وقال إن العرب لم تعرف الصمود مصدراً وإنما المصدر (الصَّمْد) كالقصد وزناً ومعنى. فإذا كان العرب قد استعملوا الصمد في حروبهم للقصد والسير الى العدوّ، فكيف يستعمل للثبات والقرار وهو عكس معناه؟

ونبّه الدكتور جواد أيضاً، وهو تلميذ الكرملي، على كلمة (الاستهتار) فقال إن معناها الغرام والولوع بالشيء وأخطأ المحدثون في استعمالها بمعنى التهاون بالشيء والاستهانة به، كأن يقال: فلان مستهتر بالقانون. وقالوا (الهاوي) وجمعها (الهواة) بمعنى المحبّ وغير المحترف كالموسيقيّ الهاوي والمصارع الهاوي وهواة الطوابع وفصيحها (الهوي) بلا ألف، إذ معنى الهاوي لغةً: الساقط والجراد الخ. وكرّر مصطفى جواد تنبيهه وبحّ صوته في «قل ولا تقل»، لكن جمهور الكتاب والقراء لم يبالوا بذلك التنبيه واستمروا على أخطائهم لا يرضون عنها بديلاً.

وقد ترجمت للكرملي ترجمة وافية في «أعلام اليقظة الفكرية» فليرجع اليها.

الأب أوغسطين مرمرجي

من علماء اللغة العربية الراهب الدومنيكي أوغسطين مرمرجي، وهو أوغسطين سِبَسْتيان ابن يوسف المعروف بالمرمرجي ابن جرجَس بن شمعون الحائك الموصلي الأصل. ولد ببغداد في ٣١ تموز ١٨٨١ من أبوين موصليين ودرس في مدرسة الإتفاق

الكـاثوليكي . ثم أرسل الى الموصل وانتمـى الى المدرسة الأكليركيّـة الدومنيكيّـة ، ورسم قسّيساً سنة ١٩٠١ .

عاد الى بغداد سنة ١٩٠٦ وعيّن معلّماً للعـربية في مدرسة الطائفة السريـانية . وأخذ يكـــاتب المجـــلات الشهيرة كـــالمشرق والبشير البيروتيّتين والمقتطـف والهلال المصريّتين . وبعد ستة عشر عاماً مضى الى فرنسة واعتزل في بعض أديرتها سنتين . واختير سنة ١٩٢٥ مـدّرساً في المعهد الكتـابيّ والآثاريّ الفرنسي بـالقدس الشريـف . وانتخب عضـواً بالمجمـع العلمي العربي في دمشق وعضـواً مـراسـلاً في مجمع اللغـة العربيـة في القاهرة .

إختصّ الأب مرمـرجي بدراسة العربيـة ومقايستها بسائر اللغات السـاميّة ، ووضع مؤلفات في هذا الموضـوع ، منها : المعجمية العربية على ضوء الثنائيـة والألسنيّة الساميّة (١٩٣٧) هل العربية منطقيّة؟ (١٩٤٧) معجميّات عربيّة ساميّة (١٩٥٠) .

وألّف أيضـاً : بلدانيّـة فلسطين العربيـة (١٩٤٨) ، [وقد تـرجمه الى الفرنسيـة أيضاً وطبعـه في باريس] ، العـلاقات بين الأسرة والألفـة الاجتماعيّة ، محاضرات مختـارات في الدين والفلسفة والاجتماع (١٩٤٧) ، الخ .

وكانت له مناقشـات لغوية مع الأب أنستاس ماري الكرملي والبطـريرك إغناطيوس أفرام برصوم .

أدركته الوفاة في القدس في ٢٩ نيسان ١٩٦٣ .

يعقوب سركيس

أمضي فتبقى صـــورتي، فتعجبـــوا : تمضي الحقـــائق والـــرســـوم تـــدوم

أهـداني يعقـوب سركيس صـورتـه قبل سنـوات فكتب عليهـا هـذا البيت من نظم نـاصيـف اليـازجي . ولم تمض على ذلك أشهـر قليلـة حتى أعيـاه الصمـم وأوصـاب الشيخوخـة فاعتكف في داره منقطعـاً عن أصدقائه مخلـداً الى وحشته وانفـراده . ووافته منيته ببغـداد في مساء الأربعـاء ٢٣ كانون الأول ١٩٥٩ قبيل منتصـف الليل . وكذلك انطوت صفحة ناصعة من صفحات الحيـاة الإنسانية ، صفحة حياة شيخ وقور انصرف الى البحث والتحقيق ودقق صحائف مجهولة من تاريخ وادي الرافدين وجمع خزانة كتب فريدة حافلة بنفائس المخطوطات والمطبوعات .

ولد يعقوب نعوم سركيس في بغداد في ٢١ آب ١٨٧٦ من أسرة حلبية الأصل ودرس في مدرسـة اللاتين فتعلم العـربية والفـرنسية والتركية . ولما تخرج في مـدرسته عهـد إليه بالتدريس فيها أمداً وجيزاً في محل أحـد المعلمين الغائبين . ثم ألحقه أبوه بعمل كتابي في

بعض البيوتات التجارية ليتعلم المراسلة والمعـاملات . ولم يبلغ السابعة عشرة من عمره حتى توفي أبـوه نعوم سركيس ، وكان ملتزمـاً لمقاطعات في أنحاء المنتفك ومـلاكاً فيها ، فتعهده عمه بولس وأخذه معه الى الشطرة للإشراف على مزارع الأسرة . ومنذ ذلك الحين أمضى أربعين سنـة أو نحوهـا يخرج في كل سنـة الى أنحاء الشطـرة والحي وقلعة سكـر والناصرية ليعيـش أشهراً في الخيام أو الدور القـروية متعهداً أملاكـه وزراعته . ولم يشذ عن تلك القـاعـدة إلا في سني الحرب العـالميـة الأولى وبعض السنـوات الأخـرى ، ثم انصرف عنهـا بعد أن اجتـاز سن الكهولـة . وكثيراً ما كـان يبتهج بأنه نصف بـدوي أو فلاح لقضائه معظم أيام حياته في القرى والأرياف واعتياده معيشة الخيام وركوب الخيل ومجالسته للزراع ورجال العشائر ومعرفته بعاداتهم وآدابهم وأهازيجهم . وكان محافظاً يلزم نفسه بالتقاليـد القديمة ويقول في كل مناسبة تعـرض : «قطع الخشوم ولا قطع الرسوم» يريد بـذلك وجوب التقيد بالأصـول والرسوم ولو أدى الأمر الى جـذع الأنوف والإرهاق والأذى . وكـذلك أصبح يعقوب سركيس قطعـة من تـربة الـوطن وجزءاً لا يتجـزأ من تاريخه قبل أن يتصدى لتدوين صحائف من أحداثـه وشؤون رجاله وبقاعه . وقد ورث عن آله ميلاً الى جمع الوثائق والرسائل والمخطوطات ، فانصرف الى هذه الهواية منذ نعومة أظفاره . ثم استبدت به هذه الهوايـة فجمع خزانة كتب ضخمة ضمت نفائس لم يتيسر اقتناؤها إلا ببـذل المال الوفير وإنفاق سنين تربو على الخمسين . وقـد حدثني مراراً عن المتـاعب التي لقيها في شراء الكتب ، لا سيما في صـدر شبـابه في أثنـاء عهد الاستبـداد الحميدي . فلقـد كان بيع عـدد كبير من الكتب ودوائر المعـارف محظوراً لاحتـوائها على مباحث في الحرية والنظريات الاجتماعية والاقتصادية . واضطر الشاب يعقوب سركيس أن يكلف صـديقـاً لـه زار أوربة في مطلـع القرن الحاضر ــ وكـانت تلك الـرحلـة من الأحداث النـادرة آنذاك ـ كلفـه بتهريب نسخـة من دائرة المعارف الفرنسيـة ليضمها الى مكتبته ، وبقي بحاثتنا يحتفظ بهذه النسخة ويحرص عليها الى آخر حياته .

وقد أشرف بحـاثتنا على الأربعين من عمـره دون أن تخطر الكتابـة ببالـه . ثم أصدر الأب انستاس مـاري الكرملي مجلتـه «لغة العـرب» فشجعه على تـدوين معلومـاته عن المنتفك ، فكتب نبذة عنوانها «خواطر في المنتفق وديارهم» بتوقيع مستعار . لكن يد الأب تناولت هذه النبذة بالتنقيح والتصحيح حتى «شوهتها» فطواها يعقوب سركيس وأغفل نشرها في مجموعته .

بيد أن تلك النبـذة كانت فاتحة عهـد جديـد في حياة الأستاذ يعقـوب ، فقد واصل الكتـابة منـذ سنـة ١٩١٣ ونشر مقالاتـه وبحوثـه الممتعـة في مجلات وصحف عديـدة كمجلة لغة العرب وغرفة تجارة بغداد والنجم الموصلية والاعتدال النجفية والأدب والفن اللندنية ومعـالم الغد والبيان والجزيرة وسـومر والنور والمجمع العلمي العراقـي وجريدة البلاد والـزمان والعراق والأخبار والشعب والطـريق والأوقات العراقية الخ . وقـام بعد

إلحاح شديد من أصدقائه بجمع مقالاته في كتاب «مباحث عراقية» في الجغرافية والتاريخ والآثار وخطط بغداد الخ , فأصدر القسم الأول سنة ١٩٤٨ بتقديم محمد رضا الشبيبي ، وأردفه بالقسم الثاني سنة ١٩٥٥ وقد قدمه رفائيل بطي ومير بصري . تضمن هذان الجزآن أغلب كتاباته التي تستوعب مجلدين آخرين .

واختاره المجمع العلمي العراقي في كانون الأول ١٩٤٩ عضواً فخرياً فكتب مقالات نفيسة في مجلة المجمع أهمها بحثه في النقود العراقية الذي جاء بشكل تعليق على كتاب الأب انستاس الكرملي في النقود العربية وعلم النميات ، وهو بحث مسهب يشكل كتاباً متوسطاً قائماً بذاته . وترجم يعقوب سركيس في أخريات أيامه الفصول المتعلقة ببغداد من رحلة أوليا جلبي ، نقلها عن اللغة التركية وشرع بكتابة الحواشي والتعليقات مما قدر له أن يتجاوز المتن ، لكن الزمن لم يسعفه لإنجازها .

وطريقته في الكتابة والبحث أن يراعي الدقة ويتحرى التفصيل ، لكن قلمه لم يكن يطاوعه ـ على ما كان يقول ـ فكان يصرف في كتابة البحث أو المقالة أياماً وأسابيع يراجع المصادر وينقل النصوص ويزن كل كلمة وعبارة خشية مجانبة الحق أو إساءة التعبير. وكان قلما يعنى بطلاوة الأسلوب وجمال الصياغة ، فلم يكن يعتبر نفسه أديباً وإنما كان يرمي الى الإفادة دون أن يهمه الإمتاع . وكنت أعرض عليه أحياناً شيئاً من شعري أو كتاباتي الأدبية فكان يقرأها بإمعان ثم يقول متواضعاً في صراحته المعهودة : «لعل هذا جيد ، ولكنني لا أستطيع الحكم» . أو ما كان في هذا المعنى . ومن أمثلة دقته أنه كتب ذات يوم يرد على أحد الأدباء في موضوع تاريخي فأشار الى إسم الكاتب «فلان الملقب نفسه بالفلاني» . فلما سألته لماذا لم يكتب «فلاناً الفلاني» كما هو المألوف قال «إن هذا الرجل يدعي الانتساب الى قوم مضوا ، فإذا ذكرت اسمه على علاته حسب مني ذلك إقراراً بنسبه» .

ولقد تحدثت قبل سنوات طويلة عن يعقوب سركيس البحاثة المؤرخ فقلت : حظي يعقوب سركيس بالصفات المطلوبة في المؤرخ المحقق ، فأولع منذ حداثته بتتبع الأخبار واستقصاء الأنباء ، وأوتي جلداً على التمحيص والتنقيب ، ومعرفة بلغات تعين على الإستطلاع والاستقراء ، وبصيرة نقادة تحاكم الوقائع وتميز بين المعقول والمختلق ، وغيرة على الحقيقة لا ترضى عن الصدق بديلاً ، وروحاً علمياً ينزع الى التدقيق والتحقيق يذلل الصعاب ويهزأ بالنصب والعناء . ورزق الى جانب ذلك قلما إن يكون رزين العبارة غير مشرق الديباجة ، فإنه واضح الأسلوب قريب المتناول بعيد عن التعسف والتكلف لائق بالبحث العلمي التاريخي . . إختص سركيس بعهود مجهولة من تاريخ هذه البلاد وأتيح له أن يجمع وثائق ومخطوطات نادرة ثمينة ذات صلة بهذه الحقبة من الزمن وأن يرث من أسرته أوراقاً يرجع أقدمها الى نيف ومائة سنة ، ويحوي بعضها معلومات ذات شأن لم ترد في مرجع معروف ويفسر وجودها هذا الميل المتأصل في نفسه الى التحقيق والتدوين .

ومن أثمن ما ضمته خزانة كتبه مجموعة كبيرة منقطعة النظير من الرحلات الى العراق لمختلف الرحالين الـذين أتوا هذه البلاد منذ أقدم العصور حتـى عهدنا الحاضر. وهذه المجمـوعة التي بـذل صـاحبها في سبيل الحصـول عليهـا جهداً ومـالاً وفيرين، كتبت بلغـات مختلفة وفيهـا المطبوع والمخطـوط، ومعظمها نـادر عسير التطلاب. وإذا كـان بحاثتنا قد جـد في طلب هذه المصادر القليلة الشهيرة وأنعم النظر في ثنايـاها، فلا بدع أن جاءت أبحاثه غزيرة المادة طريفة الموضوع كـاشفة لمناح مجهولة من تاريخ هذه البلاد في الأزمنة الأخيرة. ولا شك أن هذه الأبحـاث سوف تبقى أسانيد تاريخيـة جليلة القدر كبيرة القيمة.

لقد عرفت الراحل الفاضل عشرين سنة ونعمت بصحبته وتمتعت بأحاديثه وأخذت من علمه وفضلـه وطالعت من مكنونـات خزانته مـا شئت ورغبت، فوجدتـه، على ما بيننا من فارق السن، نعم الصديق الوفي الكريم والرجل المهذب الوقور والعالم المتخلق بأفضل الأخلاق والمتبع لسنن العدالة والحق والمتسم بالرصانة والصراحة والصدق. لقد كان عصامياً بالرغم من ثروته وجـاهه، وكان معتدلاً في كل أمـوره مبتعداً عن التفريط والإفراط، وكان حليماً واسع الصدر متواضعاً للصغير والكبير، فيا لأسفي على فقده ويا للوعتي وأسـاي على وفاته. إن الجيل الذي أنجبـه قد مضى وانطوى في ذمـة التاريخ، وقد بقي فقيدنا الى آخـر أيامه مثالاً حياً لآبائنا الجادين الأخيار البسطـاء وأنموذجاً طيباً لأحسن صفاتهم وشمائلهم. فيا أيها الشيخ النبيل والـراحل الفاضل الجليل، لقد آلمني المصاب وأخـرسني الحزن والشجن، فماذا أقول في تأبينك وكيف أثني عليك وأعـدد ما شهـدت من مزايـاك وسجايـاك؟ إنك حي في نفوس عـارفيك، مأثور الفضل منشـور الذكر، وقديماً قال المتنبي:

كفل الثنـــاء لـــه بـــرد حيـــاتـــه   لما انطـــوى فكأنـــه منشـــــور

آثاره ومصادره:

إن أبحاث يعقوب سركيس ودراساته سـوف تبقى مصدراً من مصادر تاريخ العراق في العهد العثماني الأخير يـرجع اليها مؤرخ المستقبل في تحقيق مـوضوعه وتدوينـه. وقد كان فقيدنا مولعـاً بمباحثه يحبها حباً جماً ويتلذذ بكتابتها وتـدقيقها وإعادة النظر فيها. وكان يقـول: «أظن كتاباتي جيدة، ولكنني كـالأب يحب أولاده في جمالهم ودمامتهم». وكان يتبجح ـ وهو الرجل المتواضع الذي يـؤثر العزلة ويتحاشى الظهور ـ فيقول: «إن المصادر التي هيئت لي قلما هيئت لغيري...».

إن دراستنا لسيرة البحـاثة الـراحل لا تكون كاملـة إذا لم نردفها بنظـرة عامـة في آثاره ومـراجعـه. إن كتـابات يعقـوب سركيس التي دونها ونشرهـا خـلال حقبـة تنيف على

الأربعين سنة تتناول مواضيع شتى وتستند جميعها الى مراجع مخطوطة أو نادرة. ومن أهم هذه المواضيع :

١ ـ تاريخ المنتفق وآل السعدون، وقد كتب في هذا الموضوع صفحات كثيرة اعتمد في أغلبها على وثائق ذات شأن وصلت إليه من أبيه الذي كان وثيق الصلة بآل سعدون.

٢ ـ خطط بغداد وآثارها كمنارة سوق الغزل وجامع الخلفاء والمدرسة المستنصرية وجامع قمرية والمدرسة العمرية ودار المسناة والقصر العباسي وخان جغالة زادة المعروف بخان جغان الخ.

٣ ـ بحوث أثرية كموقع خرائب تلو (تل هوارة) وواسط وطاق كسرى.

٤ ـ بحوث في طائفة من مدن العراق كالبصرة والنجف والعمارة والكوت والبغيلة وآلتون كوبري.

٥ ـ بحوث في الملل والنحل كاليزيدية وعقائدهم.

٦ ـ تراجم أشخاص كنظمي وآله وإبراهيم يحيى العاملي وحكيم زاده البغدادي.

٧ ـ شؤون العشائر كآل قشعم وقبيلة العزة.

٨ ـ طرائف تاريخية كرحلة أول عراقي الى العالم الجديد وظهور حوت في دجلة والأسود في العراق واشتداد الحر وسقوط الثلج ومقاييس الماء وظهور أول سيارة وأول طيارة في بغداد وهلم جرا.

٩ ـ مباحث في تاريخ العراق الاقتصادي. وضع يعقوب سركيس دراسات ذات قيمة في هذا الموضوع. وقد سألته ذات مرة أن يجمع هذه الشذرات والمقالات بين دفتي كتاب يطلق عليه اسماً ذا دلالة على الموضوع، فقال إنه يؤثر إدراجها في محلها من مجموعة مقالاته بحسب تسلسل تاريخ كتابتها. وقام فعلاً بذلك فنشرها في القسم الثاني من مجموعته «مباحث عراقية» فاستوعبت زهاء ١٦٠ صفحة من القطع الكبير. ويصح أن يضاف إليها بحوث أخرى منها «بعثة جسني رائد الفرات» بصدد الملاحة في هذا النهر (مجلة دار المعلمين العالية ـ ١٩٤٨) ورسالة مطولة في «النقود والنميات» (مجلة المجمع العلمي العراقي ـ ١٩٥٠) الخ.

وأستطيع أن أقول إن إقدام يعقوب سركيس على تدوين مباحث في التاريخ الاقتصادي قد كان بطلب وإلحاح مني. فقد تعرفت عليه في مجلس أنستاس الكرملي في سنة ١٩٤٠ فلم ألبث أن دعوته الى الكتابة في مجلة غرفة تجارة بغداد التي كنت أشرف على تحريرها، كما دعوت فريقاً من أفاضل الكتاب والعلماء أمثال انستاس الكرملي وعباس العزاوي ويوسف غنيمة ومصطفى جواد وداود الجلبي وهاشم جواد وعبد القادر رشيد وشيت نعمان وغيرهم.

وقد واصل يعقوب الكتابة في هذه المجلة من سنة ١٩٤٠ الى ١٩٤٤، فتناول في مواضيعه مبدأ زراعة بعض الثمار والخضر في وادي الرافدين، وتاريخ التبغ والقهوة والنقود العثمانية وآخر العهد بضربها في بغداد، وواردات العراق بين عهدين، ورسم الاستهلاك في القرن التاسع عشر، وكمرك بغداد في عهد السلطان مراد الرابع، وتعرفة الاحتساب، وواردات المنتفق، وتجارة البصرة في صدر المائة الماضية وهلم جرا. وفي وسعي أن أقول إن كل كلمة خطها وكل رقم ذكره يستند الى مصدر من كتاب قديم أو رحلة نادرة أو وثائق وأوراق خطية عثر عليها في الزوايا والخبايا. ومن المعلومات التي حققها أن زراعة الطماطة والفاصولية والبطاطة حديثة عهد في هذا القطر، وإن التتن قد عرف في العراق منذ مطلع القرن السابع عشر وعرفت القهوة قبل ذلك، وقد بني أول مقهى في بغداد سنة ١٥٩٠ م. وكانت واردات ولايات العراق الثلاث في أواخر العهد العثماني قبل الحرب العظمى الأولى ـ على ما خمنه ـ لا تزيد على ٩٠٠ ألف ليرة. وكان والي بغداد مفوضاً بسك النقود في دار الضرب (السكة خانة) ثم انقطع الضرب في سنة ١٨٣٥ على عهد الوالي على رضا باشا اللاز.

أما مصادر يعقوب سركيس التي كان يرجع إليها في تدوين مباحثه فأهمها، بلا ريب، رحلات الرحالين الذين أموا العراق في القرون الماضية. وقد جمع في مكتبته من هذه الرحلات الشيء الكثير ولا سيما كتب الرحالين الإفرنج الذين جاؤوا الى بلاد الرافدين منذ سنة ١٥٦٥ الى أوائل القرن العشرين. وهذه الكتب بلغات مختلفة كالفرنسية والإنكليزية والإيطالية والألمانية والتركية، ومعظمها مطبوع قبل مئات السنين، وهي تجلو صفحة خفية من تاريخ هذا القطر وأحواله المعاشية والاقتصادية والسياسية.

ومن المصادر النادرة التي هيئت لبحاثتنا وثائق آل سعدون التي سبق الإشارة إليها وأوراق ورسائل لآل عبود أسرة والدته ـ وترجع هذه الأوراق الى أواخر القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر ـ وقد استخرج منها فوائد كثيرة تتعلق بأخبار العراق وتجارته في ذلك العهد. وقد رأيت لديه سجلات يومية مخطوطة لعدد من الأشخاص باللغات الفرنسية والإنكليزية والإيطالية، منها ما يعود الى أوائل القرن الماضي وكان يرجع إليها بين الحين والحين لاستخراج معلومات طريفة وأخبار فريدة. ولا ريب أن أهم تلك السجلات يوميات يوسف زفوبودا البغدادي المتوفى سنة ١٩٠٨. كان هذا الرجل كاتباً في باخرة شركة لينج التي كانت تمخر عباب دجلة بين البصرة وبغداد، وقد حرص على تدوين مذكراته يوماً فيوماً باللغة الانكليزية خلال ٤٦ سنة فجاءت في ٦١ دفتراً وقع أغلبها في يدي يعقوب سركيس. كان زفوبودا يدون يومياً ما يسمعه من الأخبار والوقائع وما يحدث له من الأمور غثها وسمينها، وقد كتب آخر كلماته قبل يومين اثنين فقط من وفاته.

إنني لأذكر هذه الدفاتر جيداً فهي على وفرة عددها بحجم واحد تفتح طولاً ومجلدة بجلد أحمر وقد كتبت بخط دقيق ظهر عليه الضعف واضحاً في الدفتر الأخير. ولغة الكاتب الانكليزية تتسم بالركة والخطأ، وأكثر مدوناته لا تعدو أخباراً شخصية أو عائلية تافهة، حتى ليحتاج قارئها الى حظ وافر من الصبر والجلد. ومع ذلك عكف يعقوب سركيس على مطالعتها سنين طويلة ووضع لها فهارس وجداول واستخرج من آلاف سطورها طائفة من الأخبار والوقائع والطرائف. وحري بالذكر أن معظم هذه الدفاتر آلت الى بحاثتنا قبل أعوام طويلة، ثم وجد في السنوات الأخيرة عدداً من الدفاتر الناقصة فكان فرحه بها عظيماً أشدّ من فرح الطفل بدمية جديدة يعثر عليها. وكانت معرفة سركيس باللغة الانكليزية ضئيلة فكان يستعين بي وبغيري من الأصدقاء لترجمة ما يريد من أخبارها.

يعقوب سركيس ومخطوطاته

خلف لنا أناتول فرانس، أديب فرنسة الفذّ، في بعض رواياته شخصية حيّة عجيبة هي شخصية «سلفستر بونار» عضو المجمع العلمي الذي يمثل البحاثة المدقق المنصرف الى التنقيب والتحقيق، المعتكف بين كتبه وأوراقه، الناظر بروحه وفكره الى زمان سالف. أولع الأستاذ بونار في صدر شبابه بالتحقيق التاريخي حتى انشغل به عن الزواج. واختص بتاريخ القرون الوسطى التي حجبتها سدل من الظلام كثيفة، فأكبَّ على دراسة مظانّها وتحرّي أخبارها وكشف مجاهلها.

وقف صاحبنا اتفاقاً، في بعض المراجع القديمة، على ذكر مخطوطة فريدة في بابها تضمنّت طرفاً نادرة من أنباء الحقبة التي أنفق عمره في تحقيق تاريخها، فهام بها وهو لا يدري أباقية هي في إحدى الزوايا أم قد ذهبت بها يد الحدثان. أصبحت هذه المخطوطة العدمليّة منية فؤاد أستاذنا، يحلم بها في يقظته ومنامه ويتغزل بها ويشتاق إليها، والأذن تعشق قبل العين أحياناً. ومرت السنون وهو على عهدها مقيم، حتى أتيح له ذات يوم أن وجد اسمها في فهرس لأحد الكتبيّين الإيطاليين. فطار لبه فرحاً بها، وشدّ الرحال الى صقلية في سبيل شرائها، وهو الشيخ الذي مضت عليه ثلاثون سنة في دار واحدة لا يكاد يبرحها. لكنه تجشّم مشاقّ السفر الى ذلك البلد البعيد ليجد مخطوطته الحبيبة قد انتقلت الى نفس باريس التي خرج منها، فعاد اليها على عجل، والمخطوطة تمعن في الفرار منه، وهو يجدّ في أثرها، حتى حظي بوصلها، ولأياً ما فعل، إذ أهدتها إليه، بعد أن يئس من اقتنائها، جنّية من بنات الإنس راعية للجميل.

لم يدر في خلدي أن آنس ذات يوم بلقاء «سلفستر بونار» بشراً سوياً حتى هيء لي التعرف بيعقوب سركيس المؤرخ المحقق والتنعم بصحبته الكريمة وصداقته النبيلة. أنفق سركيس سنين طويلة في جمع خزانة كتبه التي تضمّنت كل ما استطاع حيازته من مصادر تاريخ العراق، وفي مقدمتها رحلات الرحالين الشرقيين والغربيين الذين زاروا

بلاد الـرافدين خـلال الأعوام الألف الأخيرة، من ابـن جبير وابن بطوطـة وسيدي علي وأوليـا جلبي ودرّي أفنـدي ومصطفى الصدّيقـي وأبي طالب مـرزا، الى بـالبي وتكسيرا وديلا فالي وتيفنو وتافرنية ونيبوهـر وروسو وشيزني وجونس ولوفتس وسون وجرترود بل.
لكن هذه المجموعة الفريدة في بابها قد أعوزتها مخطوطة لا تقوّم بثمن: فقد علم الأستاذ سركيس في أثناء مراجعاته، بوجود رحلة مخطوطـة لرحالة برتغالي قديم مجهول الاسم زار العراق في نحو سنة ١٥٥٤، وكانت هذه المخطوطـة النادرة في حوزة الميجر مارتن هيوم الانكليـزي في مطلع المائة العشرين. أشار الى هـذه الـرحلة البرتغـالية المستشرق غـاي لسترانج في هامـش كتابه «أراضي الخلافـة الشرقية» مستنـداً في ذكرهـا الى ما كتبـه عنها مـالك نسختهـا الفريـدة نفسـه في صحيفـة «الأثينيوم» في عـددهـا المؤرخ في ٢٣ آذار ١٩٠١. ولم يقرأ بحاثتنـا العراقي خبر هذه الرحلة في هـامش لسترانج حتى ملكت لبّه وشغلت بـاله، فشرع يبحث عن عـدد الصحيفة الانكليزية التي وصفتها. لكـن هذا العدد نفذت نسخه، وقد مرّت على صدوره عشرات الأعوام، فلم ينل ذلك من عزيمة البحاثـة المحقق، بل استمر على طلبه حتى وفّق للحصـول على نسخة منه ــ بعد بضع عشرة سنة! وقد سرّه أن يجد على صفحات هذا العدد رسالة من الميجر هيوم يصف فيها مخطوطته المجهولـة المؤلف ويسأل القراء أن يرشدوه الى صاحبها الـذي خرج من لشبونة في منتصف القـرن الســادس عشر، وجـاب أوربـة غـربيّهـا وشرقيهـا، ثم عـرج على الأناضـول وسوريـة وفلسطين ومصر ووصل أخيراً الى وادي الرافـدين والخليج العربي.
وقد كتب البرتغـالي الذي غمـر اسمه وشخصـه حجاب النسيان يصـف البلدان التي زارها والمغامـرات التي خاضها في رحلته الطويلة الشـاقة، فكانت مدوّناتـه بعد مئات السنين سجلاً رائعاً لعهود بعيدة وأقطار مغمورة.

يـا لسرور الأستـاذ بـالعثور على وصـف مخطوطتـه الحبيبة بقلم من حـاز نسختهـا الوحيدة! لكن هذا الوصف لم يكن ليبلّ الغلّة، بل إنه لم يكن إلا ليزيد الظمأ الى الرحلة الموصوفة كما يشتدّ جوع الجائع عند ذكـر الطعام السائغ المريء. فكيف الحصول عليها وأين الوصول إليها؟ لقد امتلكها ضابط انكليزي في مطلع القرن، فماذا فعل الدهر بهذا الضابـط وماذا حلّ بمخطـوطته الثمينة؟ أهـي لا تزال في قيـد الوجود خبيئـة في بعض الزوايا، أم قد ذهبت بها يد العبث والإهمال فزال أثـرها وزال بزوالها آخر سجلّ لمغامرات عجيبة شـائقة؟ أم لعلها قد وقعت في قبضـة هاوي كتب متبلّد الـذهن، فعضّ عليها بالنواجذ وضمّها في خزانة مغلقة ينفس عليها نور الشمس وأعين الناس. . . لقد نقب بحـاثتنـا وأمعن في التحقيق والتـدقيـق، وراجع فهـارس دور الكتب وقـوائم الكتبيّين والهواة، وكتب الى «لوزاك» وأمثال «لوزاك» من قنّـاصة الآثار الشرقية النادرة. . . ولكن هيهات أن يجد الى ضالتّه المنشودة سبيلاً. . .

وقد أهـديت كتب يعقـوب سركيس ومخطوطـاته بعـد وفاتـه الى جامعـة الحكمة في

بغداد، فعهد الى كوركيس عوّاد بوضع فهرست للمخطوطات صدر سنة ١٩٦٦ . ثم نقلت الى مكتبة المتحف العراقي في تموز ١٩٧١ .

كان ليعقوب سركيس دائرة معارف بريطانية تتألف من عشرات الأجزاء مطبوعة قبل سنة ١٩٠٠ ، وكان يعتز بها كل الاعتزاز. وقد اشترى طبعة جديدة بعد ذلك، لكنه بعد أن أهدى الطبعة القديمة عاد فاسترجعها وضمّها الى مكتبته. وقد سألته عن السبب فقال: إن طبع الكتب والجرائد واستيرادها كان ممنوعا في عهد الاستبداد الحميدي يعاقب عليه بأشدّ العقوبات، لا سيّما تلك التي تذكر الحرية والحقوق المدنية والثورة والتاريخ الحديث. وقد سافر صديق له الى أوروبة سنة ١٩٠٠ فكلفه بجلب دائرة المعارف له، فتحمل مشقة كبيرة في إدخالها الى ميناء البصرة وحملها الى بغداد خوفاً من الكمارك والرقباء. ووضعها يعقوب سركيس في مكان خفيّ من داره حذراً من العيون يطالعها سراً، حتى إذا ما أعلن الدستور سنة ١٩٠٨ وتم تحرير المطبوعات، أخرجها الى النور بلا وجل.

كان يعقوب سركيس يمتلك مخطوطاً في تاريخ آل سعود والوهابيين كتبه أحد كتابهم في نحو سنة ١٨٧٥ . وقد ترك المؤلف خدمتهم والتحق بخدمة آل سعدون في المنتفق، فأجرى في مخطوطته بعض التصليحات.

وكان يعقوب سركيس يحرص على هذه المخطوطة ويعدّها فريدة في موضوعها، وقال لي إنه يرضى ببيعها الى الحكومة السعودية إذا دفعت فيها ثمناً كبيراً، لا سيّما أنها تقبض إيراداً جسيماً من مواردها النفطية.

ودعونا الشيخ عبد الله الخيّال سفير المملكة العربية السعودية في بغداد ورفائيل بطّي لفحص المخطوطة، فأبدى السفير اهتمامه بها ووعد أن يكتب الى حكومته حاثاً إياها على شرائها. ولكن لم يحصل أي نتيجة.

ولما توفي يعقوب وقام أخوه يوسف بإهداء مكتبته الى جامعة الحكمة، أخبرته بقيمة المخطوطة، فآثر الإحتفاظ بها ولم يهدها مع الكتب والمخطوطات الأخرى التي آلت بعد ذلك الى الحكومة العراقية عند تأميم الجامعة.

هذا وقد جمعت مقالات سركيس في كتابه «مباحث عراقية: في الجغرافية والتاريخ والآثار وخطط بغداد الخ. (الجزء الأول ١٩٤٨ ، الثاني ١٩٥٥). وله أيضاً: تلّو أي تل هوارة (١٩٣١) شهداء حلب (١٩٣٤) التتن والقهوة في العراق (١٩٤١) كمرك بغداد في عهد السلطان مراد الرابع وخلفه السلطان إبراهيم (١٩٤٢) واردات العراق بين عهدين (١٩٤١). وعني بنشر الجزء الثالث من «مباحث عراقية» معن حمدان علي سنة ١٩٨١ .

أصيب يعقوب سركيس في السنتين الأخيرتين من حياته بمرض الشيخوخة فصار

ينسى الحوادث القريبة. سألته يوماً عن الجزء الثالث من مباحثه العراقية الذي جمع مقالاته وهيأها للنشر فقال لي لا أذكر ذلك. ثم سألته عن مجيء سليمان البستاني مترجم الإلياذة الى العراق قبل سبعين سنة، فانبرى يذكر التفاصيل بدقة وقال إن البستاني جاء الى بغداد والبصرة وأقام فيهما ثماني سنين ومارس التعليم والتجارة واقترن بفتاة عراقية . . . ولم ينس بحاثتنا الشيخ الأحداث التي مرت قبل عشرات السنين.

رشيد السعدي

محمّد رشيد بن داود السعدي، كان أبوه الشيخ داود من علماء بغداد وعيّن مدرساً ومفتياً للمنتفق سنة ١٨٥٥. ثم تولّى إفتاء الجيش في الاحساء وألف رسالة في «طريق الحج من الاحساء الى الرياض فالحجاز» طبعت سنة ١٨٧٢. وتوفي ببغداد سنة ١٨٧٦.

درس محمد رشيد على علماء عصره وأنشأ مطبعة في بغداد سنة ١٩٠٣. وألف كتباً منها: غاية المراد في الخيل والجياد (١٨٩٦) قرّة العين في تاريخ الجزيرة والعراق وبين النهرين (١٩٠٧)، ونشر من الكتب: سبائك العسجد لعثمان ابن سند (١٨٩٧!) وديوان الشيخ كاظم الأزري (١٩٠٢)وقد طبعت تلك الكتب جميعها في بومبي بالهند.

قال إبراهيم الدروبي في كتابه «البغداديون»: «كان هذا الرجل أعجوبة في قوة الحجة وبعد النظر والاطلاع الواسع على قياسات أغلاط أهل المنطق، يناظر ويبحث في علوم الملل والأديان فلا يجعل للخصم حجة ولا يبقي له كلاماً. كان آية في عرض الكلام في معارض بلاغية متنوّعة . .».

كان له شعر، وتوفي ببغداد سنة ١٩٢١.

الدكتور سليمان غزالة

الطبيب الشاعر الأديب الدكتور سليمان غزالة، وهو عبد الأحد سليمان بن جرجس بن يوسف غزالة، ولد ببغداد في ٢١ أيلول ١٨٥٣ ودرس فيها. ثم قصد الموصل لمواصلة الدراسة، وعاد الى مسقط رأسه سنة ١٨٧٠، وعيّن معلماً في مدرسة الأليانس الأهلية (١٨٧٣)، وشدّ الرحال بعد ذلك الى بيروت سنة ١٨٧٩ فكان معلماً بمدرسة اليسوعيين، لكنه أكبّ على الدرس في الوقت نفسه.

وسافر الى باريس في السنة التالية فانتمى الى كلية الطبّ (١٨٨١) وتخرّج طبيباً سنة ١٨٨٦. واختصّ بالقبالة وطبّ العيون والبكتريولوجية ثم عاد الى الاستانة سنة ١٨٨٧ وحصل على وظيفة طبيب صحة العراق.

وقد وصل الى البصرة في حزيران ١٨٨٨ ، وجعل مقرّه في الحلة ، وعهد إليه بمكافحة وباء الهيضة والطاعون في الألوية الجنوبية . وفي سنة ١٨٩٣ أوفد بمهمة صحية الى طور سيناء، ورحل منها الى الاستانة وسيواس ونواحي الأناضول وحلب في سبيل أداء أعماله الطبية .

عيّن طبيباً في طرابلس الغرب في كانون الأول ١٨٩٥ ، ثم نقل الى دمشق سنة ١٨٩٧ . وتوفيت زوجته الأولى صوفي كرومي ، فسافر الى باريس مجازاً . وتعرّف بالأديبة الفرنسية جان التي اشتهرت باسمها المستعار غي دافلين GUY D'AVELINE واقترن بها في العاصمة الفرنسية في ١٢ آب ١٨٩٧ ، وعمرها آنذاك نحو ٣٠ سنة .

وعاد الدكتور غزالة بزوجته الى الأستانة فأعيد تعيينه الى طرابلس الغرب (شباط ١٨٩٨) . وظلّ فيها الى الاحتلال الإيطالي ، فغادرها الى مالطة (تشرين الأول ١٩١١) ، ومن ثمّ قصد الأستانة فعيّن طبيباً للسفارة التركية في طهران . وقد وصل إلى إيران في آذار ١٩١٢ ، واختير رئيساً لمجلس الصحة الدولي في العاصمة الفارسية في تشرين الأول ١٩١٤ الى كانون الثاني ١٩١٦ .

وقد رجع الى بغداد بعد غياب طويل في كانون الثاني ١٩٢٠ . واتخذ مقامه في البصرة وانتخب نائباً عنها في المجلس التأسيسي (أيار ١٩٢٤) ، وبعد ذلك في مجلس النواب (١٩٢٥ ـ ٢٨) . وأدركته الوفاة في بغداد ١٨ تشرين الأول ١٩٢٩ .

مؤلفاته

وضع سليمان غزالة مؤلفات كثيرة بالعربية منظومة ومنثورة ، منها : رواية لهجة الأبطال (١٩١١) سوانح الفِكَر (١٩١٥) سوانح الكَلِم (١٩١٥) السّبيل الأقصد (١٩١٧) سبب الموت الطبيعي (بالعربية والفرنسية) ، القصيدة الفيصلية (١٩٢٤) الحرية فلسفياً (١٩٢٤) الاعتماد على النفس (١٩٢٧) المعضلة الأدبية (١٩٢٧) حياتي الشخصية والوظائفية (١٩٢٩) الخ .

وصنّف «الوضيعة في الحكمة الخلقية في ١١ كتاباً (١٩٢٤ ــ ٢٧)» ، وهي تتناول : الحياة الاجتماعية (١٩٢٤) منهاج العائلة (في جزءين ١٩٢٤ ــ ٢٦) خلاصة أركان الاقتصاد السياسي (١٩٢٦) العشق الطاهر (١٩٢٥) القصيدة الفردوسية (١٩٢٤) تاريخ الحرية البشرية (١٩٢٦) الهوى (١٩٢٦) الحبّ البشري (١٩٢٦) خلاصة الأدب الرياضي العملي (١٩٢٧) الاقتصاد السياسي (١٩٢٧) الأدب النظري العمومي (١٩٢٧) .

أما زوجته الثانية الفرنسية فكانت روائية معروفة ولها مشاركة في الفنّ كالرسم بالزيت على قماش الكتان . ولدت سنة ١٨٦٧ ، وعاشت مع قرينها في طرابلس الغرب وطهران والبصرة وبغداد وتوفيّت بعده . ونشرت باسمها المستعار «غي دافلين» روايات لطيفة باللغة الفرنسية أشهرها «أتيلا» ملك الهون الذي دمّر الحضارة الأوروبية في القرن

الخامس الميلادي، وكان يقال إنّ العشب لا ينبت حيث وقعت سنابك خيله. وقد قال الشاعر بشارة الخوري (الأخطل الصغير) في هذا الفاتح الطاغية:

إنّ آتيــلا، ومــا كــان ســوى	نقمـــــة الله وسيـف الغضـب
مــلأ الأيــام هــولاً ودمــاً	فحَشَــاهـا خــافق من رهـب
وهــو المأثــور عنــه قــولــه	في سبيل الفخـر فـاسمع واعجب:
«لم يغــادر بي جــوادي تــربــة	وعليهـــا أثــر للعشب!»

ومن رواياتها الأخرى: رسّام السيّدة، سكن بيننا، كنز علي خوجه، نجم بزغ، وردة الشواطىء، مريم المجدليّة (١٩٢٧) الياقوت القتّال (١٩٢٧)، الخ.

وكان للدكتور غزالة وقرينته، بعد إقامتهما في بغداد سنة ١٩٢٤، مجلس يؤمّه رجال البلد وتبحث فيه موضوعات العلم والأدب والفن والاجتماع.

أغا بزرك الطهراني

الشيخ محمّد محسن بن علي الرازي المؤرخ البحاثة المعروف باسم «أغا بُزُرْك الطهراني»، ولد بطهران في ٧ نيسان ١٨٧٦ ودرس على علمائها.

قدم النجف سنة ١٨٩٥، فتتلمذ على يد الشيخ محمد كاظم الخراساني وشيخ الشريعة الأصفهاني والسيد محمد كاظم اليزدي والشيخ محمّد طه نجف وغيرهم. ثم قصد سامرّاء ولازم محمد تقي الشيرازي أعواماً. وعاد الى النجف سنة ١٩٥٥ فانصرف الى التأليف والتصنيف. وجمع خزانة كتب حفلت بنفائس المطبوع والمخطوط، وقد وقفها على طلبة العلم سنة ١٩٥٥. ورحل الى إيران والهند وسائر الأقطار الإسلامية والعربية بحثاً عن المصادر للموسوعة التي عكف على وضعها في تصانيف الشيعة.

توفي بالنجف في ٢٠ شباط ١٩٧٠.

قال فيه سلمان هادي الطعمة: «إنّ هذا المفكر الذي عرفته عالماً بارعاً وأديباً فذاً ورجل بيان أمضى حياته بالتتبّع والدراسات العميقة، أوتي مكانة فريدة في الثقافة الجامعة وأحاط بأسرار اللغتين العربية والفارسية...».

وضع مصنفات كثيرة أهمها: الذريعة الى تصانيف الشيعة (صدر منه ١٨ جزءاً في ٢١ مجلداً، ١٩٣٧ ـ ٦٧)، الكرام البررة (في جزءين ١٩٥٤ ـ ٥٨)، نقباء البشر في القرن الرابع عشر (٤ أجزاء ١٩٥٤ ـ ٦٨). وله أيضاً: حياة الشيخ الطوسي (١٩٥٧) ذيل كشف الظنون (١٩٦٧) المشيخة (١٩٣٧) مصفّى المقال في مصنّفي علم الرجال (١٩٥٩) الخ.

اسماعيل باشا البابان

من فضلاء الأسرة البـابانية اسماعيل بـاشا المعـروف بالبغدادي أو النـوري ابن محمد أمين باشـا بن سليم بـاشا، ولد ببغـداد ودرس في استانبـول. وكان من رجـال الجيش التركي في عهد السلطـان عبد الحميـد الثاني، نـال رتبة أمير لواء. وكـان آخر منـاصبه مديـرية الشعبـة الثانيـة لدائرة الضبطيـة (الشرطة) في استـانبول قبل أن يعتـزل الخدمة وينصرف الى التأليف.

إشتهر بكتابـه «إيضاح المكنون في الذيل على كشف الظنـون» (طبع في مجلدين سنة ١٩٤٥ ـ ٤٧)، وقـد أنفق في تأليف هذا الذيل نحـواً من ثلاثين سنة وفـرغ من تصنيفه سنة ١٩١٢. وألف أيضاً «هدية العارفين» في أسماء المؤلفين وآثار المصنّفين (في مجلدين ١٩٥١ ـ ٥٥).

توفيّ إسماعيل باشا في استانبول سنة ١٩٢٠.

قال عباس العزاوي إنه كان دؤوباً على العمل، عارفاً بالكتب والمخطوطات، وكان الى ذلك خطاطاً ماهراً يشار اليه بالبنان.

يوسف رزق الله غنيمة

الوزير البحاثة الأديب يوسف رزق الله غنيمة ولد في بغداد في ٩ آب ١٨٨٥ وتوفي في لندن التي قصـدها مستشفياً في ١٠ آب ١٩٥٠. كـان وزيراً للمالية والتمـوين وعضواً بمجلس الأعيان ومديرا عاماً للآثار الخ.

من مـؤلفاتـه: تجارة العراق قـديماً وحديثاً، نـزهة المشتـاق في تاريـخ يهود العراق، محاضرات في مدن العراق، الحيرة: المدينة والمملكة العربية الخ.

أسهبت في ترجمته في «أعلام اليقظة الفكرية».

***

نشر المحامي حارث ابن يوسف غنيمة كتاباً في سيرة والده: يوسف غنيمة من أركان النهضـة العلمية في العـراق الحديث (طبع ببغـداد، ١٩٩٠) وكـان قد نشر أيضـاً قبل ذلك «يوميات يوسف غنيمة: رحلة الى أوروبا ١٩٢٩» (بغداد، ١٩٨٦).

ذكر حارث ان الجدّ الأعلى للأسرة القسّ يشوع بـن الشماس غنيمة كان من النساطرة متزوجـاً حسب عادة الكهنة الشرقيين، وكان يقيم في بغـداد في النصف الأول من القرن السابـع عشر. وانتمى حفيده عيسى بن الشماس غنيمـة الى الكنيسة الكـاثوليكيـة سنة ١٧٤٣. أما والد يـوسف، وهو رزق الله غنيمة، فكان رئيس كتـاب المكوس في بغداد

وتوفي في الثامنة والثلاثين من عمره. ولما ولد يوسف سمي يوسف نعمة الله قرياقوز لكنه عرف باسمه الأول. وتوفي والده وهو في الخامسة من عمره فكفلته والدته ورعاه عمّاه شكر الله ونصر الله.

درس في المدرسة الكلدانية الابتدائية ثم انتقل في أوائل سنة ١٨٩٨ الى مدرسة الأليانس وتخرج فيها سنة ١٩٠٢، وقد تعلم فيها اللغات العربية والفرنسية والانكليزية وشيئاً من التركية والعبرية إضافة الى العلوم والرياضيات والجغرافية والتاريخ. وألم بعد ذلك باللغة السريانية، ودرس العربية على الأب انستاس ماري الكرملي. وافتتح سنة ١٩٠٦ محلاً تجارياً وحصل على وكالات لاستيراد المضخّات والمحرّكات الخ. ، وأسس فندقاً عصرياً بعد الاحتلال البريطاني. وأنشأ سنة ١٩٠٩ بالاشتراك مع المعلم داود صليوا جريدة «صدى بابل».

انتخب عضواً في مجلس إدارة لواء بغداد (شباط ١٩٢٢)، وتولى تدريس تاريخ المدن العراقية في مدرسة المعلمين العالية المؤسسة في كانون الأول ١٩٢٣. وانتخب نائباً في المجلس التأسيسي (١٩٢٤) وكان مقرراً للجنة تدقيق لائحة القانون الأساسي. وأصدر جريدة «السياسة» اليومية في ٣ آذار ١٩٢٥، الى ٣ تموز ١٩٢٥، وانتخب نائباً عن لواء بغداد (حزيران ١٩٢٥) ثم أوقف صدور جريدته.

أصبح وزيراً للمالية (١٩٢٨ ــ ٢٩) و ١٩٢٩ و ١٩٣٤ ــ ٣٥ و١٩٣٥، ووزير التموين (١٩٤٤ ـ ٤٦) ووزير المالية (١٩٤٦) مع وكالة وزارة التموين، ووزير المالية (١٩٤٧ـ ٤٨).

غادر العراق بإجازة مرضية في تموز ١٩٢٩ قاصداً الاستشفاء فزار سورية ولبنان وفلسطين ومصر وإيطالية وفرنسة وانكلترة وعاد عن طريق فرنسة وايطالية وتركية وسورية ولبنان في تشرين الأول ١٩٢٩.

أعاد إصدار جريدة السياسة بعد تعطيل جريدة نداء الشعب لتكون لسان حال حزب الأخاء الوطني (٣٠ كانون ثاني ١٩٣١) ثم عطلتها الحكومة في ٢٤ آذار ١٩٣١. ثم عين مديراً عاماً للواردات (٢٤ كانون أول ١٩٣٢) فمديراً عاماً للمالية (١٦ حزيران ١٩٣٤) فوزير المالية (٢٧ آب ١٩٣٤) نائب بغداد (كانون أول ١٩٣٤) الى نيسان ١٩٣٥. وزير المالية (٤ آذار ١٩٣٥) الى ١٦ منه. عين مديراً عاماً للمالية للمرة الثانية (٢٧ حزيران ١٩٣٥). تولى مديرية الأملاك والأراضي الأميرية العامة أيضاً بالوكالة (تموز ١٩٣٥) ثم عين مديراً عاماً للمصرف الزراعي الصناعي بالوكالة (آذار ١٩٣٦). ثم نقل من مدير المالية العامة مديراً عاماً للمصرف أصالة (١٢ كانون أول ١٩٣٦). الى ١٩ تشرين ثاني ١٩٤١ حين نقل مديراً عاماً للآثار مع بقائه مديراً عاماً للمصرف بالوكالة الى ١٧ آذار ١٩٤٢. ثم تولى مديرية المصرف بالوكالة أيضاً من ٢٧ تشرين أول ١٩٤٣ الى ١٨ تشرين ثاني ١٩٤٤ بالإضافة الى مديرية الآثار وبعد ذلك مديرية

التموين العامة. وقد قام المصرف بإمداد الزراع بالسلف والتدخل في الأسواق لرفع أسعار المحاصيل كالقطن وبذر الكتان والمساهمة في المشاريع الصناعية كشركة السمنت العراقية وشركة استخراج الزيوت النباتية وشركة تجارة وطحن الحبوب ومشاريع أخرى تتعلق بنسج القطن وأهراء الحبوب ودباغة الجلود وصيد الأسماك.

عين مديراً عاماً للآثار القديمة (٢٠ تشرين ثاني ١٩٤١) وكان نائب رئيس لجنة التموين الاستشارية أيضاً (نيسان ١٩٤٢). ونقل مديراً عاماً للتموين (٢٥ حزيران ١٩٤٤) وأصبح وزير التموين (١٨ تشرين ثاني ١٩٤٤ الى ٢٣ شباط ١٩٤٦. وعين عضواً بمجلس الأعيان خلفاً للبطريرك يوسف عمانوئيل الثاني المستقيل (١٤ أيار ١٩٤٥). ودخل في وزارة أرشد العمري وزيراً للمالية ووزير التموين بالوكالة (١ حزيران ١٩٤٦). وقد استقال من وكالة التموين في ٣١ تموز ١٩٤٦. واستمر في المالية الى استقالة الوزارة في ٢٠ تشرين ثاني ١٩٤٦. وتقلد وزارة المالية أيضاً في وزارة صالح جبر (٢٩ آذار ١٩٤٧)، وتم في عهده تأسيس البنك المركزي الذي عرف باسم المصرف الوطني العراقي (تشرين الثاني ١٩٤٧). واستقال من الوزارة بعد أحداث الوثبة المعارضة لمعاهدة بورتسموث في ٢٧ كانون الثاني ١٩٤٨.

تكلمت عن أدبه ومؤلفاته في كتابي «أعلام اليقظة الفكرية». وقد ذكرت مقالاته التي نشرها سنة ١٩٢٩/ ٣٠ عن «حقوق الفلاح والعامل في العراق». وقد قال هاشم جواد عنه إنه سبق الصحفيين والتقدميين في ميدان المطالبة بحقوق الفلاح والعامل وأشار بكل قوة وحماس الى ضرورة العناية بالطبقة العاملة في المعامل والمزارع. وذكر ما كتبه يوسف غنيمة سنة ١٩٢٩ إن من واجب العدل ومقتضيات النظام الاجتماعي الراقي أن تضمن راحة كل أفراد الأمة وتكفل طمأنينتهم مدى الحياة، فضلاً عن وجوب الاهتمام بإعالة ذويهم بعد موتهم، وذلك بتحديد ساعات العمل وتوفير شروط الصحة في محلات سكناهم وأعمالهم وأمان ومستقبل كل فلاح وعامل وغيرهما ويفكر في وسائل معيشتهم عند العجز والهرم وحلول العاهات، ويقام بإعالة أيتامهم وأراملهم بعد موتهم.

وتساءل هاشم جواد هل قال لورد بيفيريج أكثر مما قاله هذا الرجل العراقي قبله بستة عشر عاماً؟

وقال يوسف غنيمة إن مطالب الفلاح يجب أن تشمل بقاء الحكومة مالكة لرقبة الأرض، وتفويض الأراضي للفلاح والعامل بيده وترجيحه على من سواه، وتشجيع الملكية الصغيرة والحدّ من مساحة الأراضي التي يملكها الشخص الواحد، وتأليف مصرف زراعي ونقابات زراعية، وحماية الإنتاج الزراعي وإيجاد الأسواق له، الخ.

أما مطالب العمال فلخصها في تحديد سنّ العمل وساعات العمل والأجرة الصغرى، وضمان العمال في حالة المرض وعند وقوع الحوادث المهنية وعند الشيخوخة

والعجز، ومعاونة العمال في أيام العطل، ومكافحة البطالة، والمساعدة في إيجاد مساكن صحية ورخيصة، ورفع مستوى التهذيب، الخ.

طـه الـراوي

الكاتب المحقق اللغوي «معلم الجيل» طه الراوي ولد في بلدة عانة المقابلة لراوة على الفـرات (كما أعلمني بذلك ولـده حارث) سنـة ١٨٩٠ وتوفي في بغـداد في ٢١ تشرين الأول ١٩٤٦. كـان أستاذاً في جـامعـة آل البيت ودار المعلمين العـالية ومـديـراً عامـاً للمعارف وعضو المجمع العلمي العربي في الشام ورئيس لجنة التأليف والترجمة والنشر. نشرت ترجمته في «أعلام اليقظة الفكرية».

كتب الشاعر المصري علي الجارم إلى طه الراوي يقول:

«هذه والله، يا طه، صلة الـروح التي لا تنفصم وإن بعد المكان وتعاقبت الأزمان. ماذا أكبر فيك؟ والله لا أدري. أهو علمك؟ أهو أدبـك؟ أهو كريم خلقك، أم هؤلاء جميعاً؟ أم هناك أخوة بعيدة المدى منذ خلقت الأرواح لا أعرفها. رأيت كثيراً من العلماء وعاشرت عديـداً من الأدباء وخالطت جمهرة من ذوي الخلق الكريم. فما كـانوا لك ندّاً ولا لشخصك العظيم في نفسي ظلاً...»

وقال توفيق السويدي:

«وقد أحببت صديقي الفقيد لميزة زادته في نظـري إعجاباً، وهو أن تفكيره كان بعيداً عن تفكير بعض المعمّمين. وأريد بهذا أن الراوي لم يكن يتسّم بالجمود بل كان يريد أن يساير الزمن ويواكب تطوراته، ولكن تقدّميته هذه كانت تقف عند حدود معيّنة بحكم النشأة والتربية التي نشأ وتربّى عليها.

«وفي رأينا أن المرحوم الراوي كان يعتقد برسالة روحية سامية دأب على التغنّي بها منذ حداثته الى اليوم الذي ودّع فيه الحياة، رحمه الله».

وقال عباس العزاوي:

«... ولا أخـالني مبـالغـاً إذا قلت أن الفقيـد استكمل أدب النفس، وهـو أصل التهذيب الحقّ وأداة العلم الـوافر. ولم يكتفِ بما ذكر، بل خدم بما عنـده مدارك الأمة في تعليمها وتلقينها، ولا زال على ذلك الى أن لفظ نفسه الأخير. فهو أستاذ معروف، وفاق أكثر في تـوجيه اللغة العـربية، وكان وافـر الاطلاع فيها، عـارفاً بحقائقهـا، مشبعاً في حبها...».

وقال الدكتور مصطفى جواد في رثائه:

أرى الموت لم يترك لـذي اللّبّ مفـزعـاً غـداة رمى طـه فأصمى وروّعـا . . .
فقـدنـا عميـد الألمعيّين ذا النّهى وذا الـرأي، محمـود المفـارس مـونعـا
هـوى كهـويّ العبقـرّيين لم يكن لقلبهـم صبر على حمل مـا وعـى
قضى عمـره في نصرة العلم سـالكـاً سبيل خـلال الخير مـا حـاد إصبعـا
أبـا هـاشم، أضحى مصـابك شـامـلاً، فكيف التـأسي والأسى قـد تـوزعـا؟
لقـد كنت لـلآداب والعلم مـوئلاً فـلا غـرو أن أضحى ممـاتك مفـزعـا
وقـد كنت قـوّالاً بحـقّ وآمـراً بعـرف ومـدعـاة الى الخير مقنعـا
تسـاميت عن جهل التعصّب مبغضـاً لأربـابـه، عن خبثهـم مترفّعـا
طـوتك يـد الأقـدار سفـراً مكـرّمـاً ستقـرأه الأجيـال أجلى وأنصعـا

وقال الدكتور زكي مبارك :

فجعت بـألطـف العلماء روحـاً وأفصحهـم إذا اشتجـر الجدال
أديـب لا يسـاميـه أديب لـه في كل معضلـة مقـال . . .

***

كتب أحمد حسن الزيات الى طه الراوي سنة ١٩٣٨ رسالة جاء فيها :

«لا أحب أن أتحدث في هـذه الرسـالة عما أحمل لك في قلبي من جميل الأثـر، وأكنّ لك في نفسي من عظيم التجلّة، فإنّ معرض ذلك في خطاب يشبـه أن يكون رسمياً فيه معنى لا أرتضيه لنفسي. فلأترك ذلك إذن الآن . . .».

قال طه الراوي :

أميـل مع الحقيقـة حيث مـالـت وأجعـل ظـلّ رايتهـا شعـاري
وأدمغ بـالـدليل هـراء خصمي فـإن مـارى فـإني لا أمـاري

وكتب معروف الرصافي الى طه الراوي يقول :

أبلغ أبـا هـاشم عنّي مغلغلـةً يعجّ فيهـا القـريـض الغضّ شكـرانـا
إنّي عهـدتك حـرّ النفس متخـذاً لك العـلا مـأربـاً والصـدق ديـدانـا
نماك جـدّ كـريـم للعلى، فلـذا زكـوتَ نفسـاً كما قـد فقت تبيـانـا
ظننتني قـد هجـرتُ الشعـر مُـذْ زمنٍ، وهل أطيـق لحبّ النفس هجـرانـا؟

***

طه الـراوي كاتب مشرق البيان، جميل الأسلوب. وقـد كتب في المواضيع الاجتماعية

فدعـا الأغنياء الى التنبّه لموجة السخط من الطبقـة الكادحة الفقيرة وترك البـذخ وإنفاق جـزء من ثرواتهم في التخفيف مما يعـانيـه إخوانهم في البشريـة وبنـاء المشاريع المفيـدة كالمستشفيات والمدارس والملاجىء. وقال :

«تنبّه البشر اليـوم الى ما لم يكن يحلم بـه البشر القديم. وتكتسح العـالم اليوم مـوجة سخط من هذا التفاوت الهائل بين الإنسان والإنسـان : فألوف من الناس لا يصلون الى قوتهم اليـومي وإلى ما يستر أبـدانهم من الكساء والى مـا يأوون إليه من المسكـن إلا بعد الكدح المضني والكدّ المجهد. .

وقد قـام أولئك الألوف يطالبـون بالمساواة الاجتماعية ويقـولون لأصحاب التكـاثر: نحن وأنتم في البشريـة شرع ، ولــولا جهـودنـا لما أصبتم هـذه الكنـوز. فنحـن نـريـد المساواة ، نريد العدل الاجتماعي . . . » .

وارتأى لـذلك وجـوب النزول على حكم الـواقع ورفع مستـوى العيش بين الفئـات الكادحة وتخفيف الضنك عن تلك الطبقات البئيسة لتهدئة سورة الغضب التي كادت تـوقد حـرباً شعـواء بين الفقـراء والأغنياء. فإذا أراد الأغنيـاء أن يخففـوا من حدة هـذا الغضب الـذي أخـذ يتطاير شرره حـولهم فما عليهم إلا أن يعالجوا ذلـك بالأفعـال لا بالأقوال.

هـذا ولقد قلت في تـرجمة الراوي أن تـلامذتـه خير آثاره. وقـد سئل المؤرخ المصري الأستاذ محمد شفيق غربال عن أهم مؤلفاتـه فأشار الى تلامذته المتحلّقين حوله في مجال الجواب على ذلك السؤال.

طه الراوي

عتب طه الراوي على معروف الرصافي في كـانون الثاني ١٩٤٢ هجره للشعر بقصيدة أرسلها الى راويته مصطفى علي مطلعها :

أمصطفى بـن عليّ ، يـــا أخـــا ثقتي ،   إنّي عهـــدتك لـــلإخـــوان معـــوانـــا
أبلغ مليـك القـــوافي كلّ خـــالصـــة   من التحـــايـــا تمجّ العطـــر ألـــوانـــا
مـــا بـــالـه ، حـــرس الـــرّحمن مهجتـــه ،   قـــد أوسـع الشعـر إعـــراضـاً وهجـــرانـاً؟

فأجابه الرصافي بقصيدة منها :

أبلغ أبـــا هـــاشـم عني مُغَلْغَلَـــةً   يعجّ فيهـــا القـــريض الغضّ شكـــرانـــا :
أحسنـت ظنّـك بي إذ جئـت تمدحنـي   بما بـــه زدت حسن الظنّ إحســـانـــا
ظننتي قـــد هجـرت الشعـــر مـــذ زمن   وهل أطيـق لحبّ النفس هجـــرانـــا؟
ذاك الحبيب الـــذي أوسعتـــه مِقَـــةً   منّي ، وصيّرتـــه للمجـد عنـــوانـــا . .

ومضى الرصافي يقول أن حبّ الشعر قد شفّه حتى هجر له طيب المنام، يصحو بصحوته وينتشي بنشوته، يسلّيه إذا اعتلجت همومه، ويشدو به في المحافل مفتخراً. وختم قصيدته في لهجة حزينة مشفقاً أن يبوح بشعره في معشر الطغاة الذين لا يقيمون وزناً لحرية الفكر.

منير القاضي

العالم الفقيه الحقوقي منير القاضي ولد في بغداد سنة ١٨٩٥ وتوفي بها في ٩ شباط ١٩٦٩. كان رئيس المجمع العلمي العراقي وعضو مجمع دمشق وعميد كلية الحقوق ورئيس ديوان مجلس الوزراء ووزير المعارف. ترجمت له في كتابي «أعلام اليقظة الفكرية».

كان منير القاضي لطيفاً حسن الدعابة على وقاره. ذكر جعفر الخليلي في الجزء الخامس من كتابه «هكذا عرفتهم» أنه جرى في الندوة الأدبية لصبيحة الشيخ داود بحث الطلاق وهل يجوز للمرأة أن تمنح حق الطلاق. وكانت المناقشة عنيفة، وارتأت صاحبة الندوة وجوب تعديل قانون الأحوال الشخصية لمنح المرأة هذا الحق. وكان منير القاضي يخالف هذا الرأي ويرى فيه خروجاً على الشريعة الإسلامية.

وقال الخليلي إن المذهب الجعفري يجيز منح المرأة حق تطليق زوجها إذا نص عقد الزواج على هذا الحق. وأراد منير القاضي أن يمزح فقال: لو أردنا أن نجعل الطلاق بيد المرأة لما غبن أحد غيري في عالم الرجال، لأنني سأكون أول من تطلقه زوجه لإنعدام المزايا التي تتطلبها الزوجة في زوجها في شخصي.

وضجّ المجلس بالضحك.

عباس العزاوي

مؤرخ العراق عباس العزاوي ولد في أنحاء ديالى سنة ١٨٩١ وتوفي في بغداد في ١٧ تموز ١٩٧١. كان محامياً معروفاً وعضواً في المجمع العلمي العراقي ومجمع دمشق وعضواً مراسلاً في مجمع القاهرة وعضواً في جمعية الدراسات التاريخية المصرية ومجمع اللغة التركية في أنقرة. إشتهر بمؤلفاته عن تاريخ العراق وفي مقدمتها «تاريخ العراق بين احتلالين في ثمانية أجزاء». نشرت ترجمة وافية له في «أعلام اليقظة الفكرية».

عين العزاوي معلماً في بعض المدارس الابتدائية في بغداد سنة ١٩٠٨، لكنه واظب على الدراسة. ونقل بعد ذلك معلماً أول في كربلاء، وكان جندياً كاتباً خلال الحرب العامة. وعيّن سنة ١٩١٧ كاتباً في المحكمة الشرعية، لكنه استقال من الوظيفة حين تخرجه في مدرسة الحقوق (١٩٢١) وانصرف الى المحاماة. وتولى التدريس أمداً غير

طويـل في المـدارس الأهليـة .

جمع عباس العزاوي مكتبة ضخمـة تعدّ عشرات الآلاف من الكتب والمخطوطات . وقد رأيتـه يومـاً يستعير كتاباً من مكتبـة المتحف العراقي لمراجعتـه . فقلت : أليس هذا الكتاب في خزانتـك؟ قال : بلى ، لديّ عدة نسخ منـه مخطوطة ومطبوعـة ، لكنها كلها ليست في متناول اليد ، وأيسر عليّ أن أراجع الكتاب في مكتبة المتحف! .

حين ابتنى عبـاس العـزاوي داره الجديـدة على شـاطىء نهر دجلـة خصّص الـدور الأسفل جميعه لمكتبته العظيمة . لكن الكتـب بقيت تتوارد وتتراكم وتملأ الغرف الأخرى حتى وصلت الى غرفة النوم . فقالت له زوجته : «آن لك أن تختار بيني وبين كتبك!» .

وقد روي عن الشاعر الانكليزي جون درايدين (١٦٣١ ـ ١٧٠٠) John Dryden أنه كان مكباً على كتبه حتى ضاقت زوجته بالأمر ذرعاً وقالت له : «ليتني كنت كتاباً فأجد في رفقتك وقتاً أكثر» . فقال لها الشاعر الشيخ : «يا عزيزتي ، إذا أصبحت كتاباً فلتكوني تقويماً لأستطيع استبداله كلّ عام» .

حاولت جـامعة بغـداد شراء مكتبة عبـاس العزاوي وفـاوضته على السعـر ، وكانت مستعـدّة لدفع مـائة ألف دينار أو دون ذلـك لجميع المطبوعـات والمخطوطـات . لكن العزاوي رفض العرض وقال : لا أقبل بيعها بأقلّ من ٢٥٠ ألف دينار .

وزاره ذات يـوم وفـد أدبي مصري بصحبتـه سفير مصر وبعض الأدبـاء العـراقيين . وتناول الكلام بيع مكتبته الى الجامعة أو الحكومة فقال إنه ليس على استعداد لبيعها مهما دفع لـه من ثمن . وقال السفير المصري : ألا تخشى أن تـؤممها الـدولة وتأخـذها قسراً؟ فقال العزاوي مشيراً الى نهر دجلـة الذي يطلّ عليه من شرفة داره : إننـي أرميها كلها في النهر قبل أن يستولي عليها أحد!

وتوفي مؤرخ العراق . وكنت سائراً ذات يوم على شاطىء دجلة فرأيت موظفي مكتبة المتحف ينقلـون الكتب والمخطوطـات الثمنية من دار العـزاوي ويضعونها في سيـارات الحمل بلا عناية ولا اهتمام . أما الثمن الـذي قدّر لها فلم يتجاوز ، على ما أذكر ، ١٧ أو ١٨ ألف دينار .

طريقة العزاوي في تدوين التاريخ :

طريقة عباس العزاوي في تدوين التاريخ هي كتابة تسلسل الوقائع حسب السنين ، بعد الـرجوع الى المصادر المتيسرة . وكانت أكثر مصادره للحقبة التي بدأت بـالاحتلال المغولي مخطوطـة ومكتوبة بالتركية القـديمة أو الفارسية . وكثيراً ما شكـا من قلة المصادر لفترات معيّنـة . لكنــه استعمل مصـادره الى أبعـد مـا استطـاع ، وسرد الحوادث التي سجّلتها دون تمحيـص في معظم الأوقات ، نـاقلاً أخبـاراً متضادّة أو متنـافرة حينـاً بعد حين .

ومما يروى أن أحمد حامد الصرّاف قال عنـد صدور بعض أجزاء «تاريخ العراق بين

احتلالين» وفيها نقل عن كتاب «كُلْشَنَ خلفا»: «وهل يعرف العزاوي اللغة التركية القديمة العويصة لنعتمد على ترجمته لما جاء في «كلشن خلفا؟»».

فقال العزاوي حين نقل إليه ذلك الكلام: «وهل رأى الصرّاف مخطوطة «كلشن خلفا» ليستطيع الحكم على ما جاء فيها ونقل عنها؟»».

ثم لما بلغ العزاوي النصف الثاني من القرن التاسع عشر فتيسّرت له مصادر كثيرة عربية وتركية، مخطوطة ومطبوعة، وصحف منشورة تذكر الأخبار والأحداث على علاّتها. فقال:

تكاثرت الظباء على خراشٍ فما يدري خراش ما يصيد!

وخراش كلب صيد كان لا يجد ما يصيده، ثم تكاثرت عليه الظباء فحار أيّها يصيد.

قال العزاوي في مقدمة الجزء الثامن من «تاريخ العراق» بين احتلالين: «تزايدت المراجع وتكاثرت بسبب تكاثر المطبوعات. وتأسست خزائن الكتب فوصلت الى درجة الإشباع. وصرتُ في حالة تردّد أو حيرة في الاختيار...»

ثم يقول: «وعهدنا هذا أدركنا الكثير من أيامه وذقنا حلوه ومرّه. شاهدنا أيام الاستبداد وزمن الدستور وأوقات الحرب بما فيها من غوائل وآلام ومحن وما فيها من أفراح وأتراح. وصفحات هذه الحقبة تدعو الى تنقّل الكاتب تنقلاً غير مطّرد، بل تضطره الى تحوّل مضطرب. يرى المرء نفسه في حاجة ماسّة الى تدوين صفحات قد يكون شاهد عيانها أو من المطلعين على كثير من أوضاعها. ولكن المرء تعوزه المعرفة التاريخية المتقنة الصحيحة أو الى ما يذكّر بالحالة المشهودة والتبصّر بما لم يكن من شهوده...».

لقد اكتفى العزاوي بتدوين الوقائع خطِيرها وتافهها، صارفاً النظر عن المحاكمة والغربلة والتحليل، تاركاً مهمة المؤرخ لمن يأتي بعده فيستعمل المادة التي جمعها له بجهد كبير وعناية فائقة خلال عمر كامل.

قال الشاعر كمال عثمان:

رأيت الرجال بآثارهم وتاريخ «عبّاس» آثاره...
فمن كأبي فاضل في الرجال وأصل التواريخ أسفاره

نشر عباس العزاوي سنة ١٩٥٣ «سمط الحقائق في عقائد الاسماعيلية»، وهو منظومة لداعي الدعاة علي بن حنظلة أصدرها له المعهد الفرنسي للدراسات العربية بدمشق. وعلى أثر ذلك تلقى كتاباً من أحد المستشرقين المقيمين في حيدر آباد بالهند ـ وأظنه فريتز (سالم) كرينكو ـ يدعوه الى الانتماء الى الجمعية الاسماعيلية، وهي جمعية علمية تضم المؤرخين والعلماء المهتمين بتاريخ الاسماعيلية وعقائدهم، ولا ينتمي هؤلاء

بطبيعة الحال الى فرقة الغلاة.

قرأت الكتاب للعزاوي ـ وكان باللغة الإنكليزية ـ فقال العزاوي: يريدني أن أصبح إسماعيلياً؟

قلت: إنها جمعية علمية لا شأن لها بالعقيدة. ولما نشرت سمط الحقائق أصبحت أهلاً للانخراط في سلك أعضائها.

فهزّ رأسه وقال: كلا. من ذا يصدّق أن العزاوي قد أصبح من أعضاء الجمعية الاسماعيلية، وهو لا يؤمن بالفكرة؟

وزار المستشرق الفرنسي الشهير لويس ماسّينيون بغداد في أعقاب الحرب العالمية الثانية. وأتى يوم الجمعة الى دير الأب أنستاس الكرملي، وكان هناك فريق كبير من رجال العلم والأدب والفضل. ولم يكد يستقر به المقام حتى أخذ كعادته يتكلم عن الحلاج ويشرح مأساته ويسأل هل عثر على آثار أو مخطوطات جديدة له؟ فقال عباس العزاوي: «ما قيمة الحلاج وأية مأساة حلت به؟ لقد كان كافراً زنديقاً فكفّره علماء المسلمين واستحلّوا دمه. وأنا، كفقيه إسلامي معاصر، لو جيء به اليّ الآن بعد ألف عام، لأفتيت بتكفيره وقتله عوداً على بدء!».

وكان هذا الكلام مثار دهشة الحاضرين وإشفاق ماسّينيون.

نوادر العزاوي:

كان عباس العزاوي يطبع الجزء الثاني من كتابه «تاريخ الأدب العربي في العراق». وكان على عادته يجلس في غرفة المحامين أو المقهى أو إحدى المكتبات ويسأل أوّل قادم أن يساعده في تصحيح مسوّدات الطبع.

وجلس ذلك اليوم في المكتبة العصرية، فجاءه ولده فاضل بآخر مسودات الكتاب، وقد تناولت مبحث الشعر في العهد العثماني الأخير. وألقى بعض الجالسين نظرة عليها فقال للعزاوي: إنك لم تفِ الحبوبي حقه ولم تذكر شعراء لهم مكانتهم كحيدر الحلي وجعفر الحلي...

فغضب العزاوي وصاح بابنه فاضل: إحذف هذا الفصل برمته، أخرج هؤلاء الشعراء من الكتاب، أخرجهم!.

فضحكت وقلت: يا أبا فاضل، هل أنت رضوان خازن الجنان وهل كتابك فردوس الأدب لتدخل من تشاء وتخرج من تشاء؟

وضحك المؤرخ واحتفظ بذلك الفصل من كتابه وأشار في آخره الى الشعراء الذين أغفل ذكرهم من أصحاب الدواوين.

كنت ذات يوم في زيارة لمنير القاضي رئيس ديوان مجلس الوزراء في دائرته، فجاء

عباس العزاوي، وقد طبع كتاباً جديداً له، فأهدى نسخة منه الى السيد منير. ثم دفع اليه نسخة ثانية ورجاه تقديمها هدية الى رئيس الوزراء، فاستدعى رئيس الديوان أحد موظفيه وقال: هذا كتاب الأستاذ العزاوي يهديه الى رئيس الوزراء فقدّمه الى فخامته.

وخرج عباس العزاوي، فلم تمض هنيهة حتى عاد الموظف يحمل الكتاب وسأل رئيسه: كم أعطي للعزاوي، ديناراً أو دينارين؟ فقال منير القاضي: إنك على ما يظهر لا تعرف أقدار الناس، وعباس العزاوي محام ومؤرخ جليل، وهو يهدي كتابه تفضلاً منه لا طلباً لمبلغ زهيد أو كبير. . .

وخرج الموظف الجاهل وهو يجرّ أذيال الخيبة.

***

كثرت المداعبات مع عباس العزاوي في المقهى الذي اتخذه منتدى له أعواماً طويلة على شاطىء دجلة وفي نادي القلم وغرفة المحامين.

وقد قال له بعض الأدباء: إنّك لا تحسن الأدب ولا تعرف كتابة التاريخ، ولكن لديك مصادر من المخطوطات والمطبوعات النادرة، مناجم زاخرة بالمعلومات الثمينة والعوائد والفوائد، فأعرنا طائفة من هذه المراجع لنفيد منها وندوّن جوانب من تاريخ العراق وأدبه في عصور الانحطاط.

فغضب العزاوي وقال: إنني حصلت على هذه المخطوطات والمطبوعات بالجهد الجهيد، وبذلت في سبيلها النفس والنفيس، وسعيت أجمعها آناء الليل وأطراف النهار، ولم تأتني عفواً ولا هيّأتها لي الدولة أو أية مؤسسة عامة. فلماذا أنتم قاعدون متقاعسون، تعضّون على الفلس والدّانق بالنواجذ وتريدون الشيء بلا بذل ولا جهد؟ والله لأحفظنّ هذه النوادر في الخزائن المغلقة وأنفس عليها النور والهواء، لأرجع إليها في مباحثي دونكم وأجيئكم كلّ يوم بالأخبار الغريبة والآثار التي يجهلها عالمكم وجاهلكم.

وقد مضى العزاوي الى الرفيق الأعلى وآلت مكتبته الى خزانة دار الآثار، فأين الذين حلموا بتقليب صفحاتها والنهل من ينابيعها الصافية؟ لقد مات أكثرهم ولاذت بقيّتهم بالعزلة والخمول.

وأخبرني عباس العزاوي أنّ في الاجتماع الذي عقده نادي القلم لتأبين جميل صدقي الزهاوي عند وفاته، قال محمد رضا الشبيبي: رحم الله الزهاوي، هل كان شاعراً، أو أنه لم يكن شاعراً؟ ولعلّ الشبيبي قصد الإشارة بذلك إلى ما قاله النقّاد الأقدمون من أنّ أبا تمّام والمتنبّي حكيمان والشاعر البحتري.

وكان عباس العزاوي وأخوه علي غالب كثيراً ما يمرّون بدارنا عند عودتهما من المقهى الذي اعتادا الجلوس فيه مساء، فأقول لهما: تفضّلا واشربا القهوة، فيعتذران بتأخر

الوقت. وأجيبهما مداعباً ببيت الشاعر القديم:

تمرّون الــديــار ولا تعــوجـوا، كـــلامكمُ عـــليَّ إذن حـــرامُ!

والبيت من شواهد النحو على حذف الخافض لاقتضاء الضرورة، فقال الشاعر «تمرون الديار» بدلاً من «تمرّون بالديار».

وكان العزاوي يقسو أحياناً في مداعبته لأصدقائه وزملائه فيردّون عليه بالمثل. وقد سألوه بعد يوم تسجيل النفوس: كم سجّلت عمرك؟ فقال: دون التسعين! وقالوا له: إنك قد شخت وهرمت وبلغت من العمر عتيّاً، فأجاب متمثلاً بقول الشاعر البدوي:

شـــايب وعـــايب والهوى مـــا نسينـــاه!

وذلك أن فتيات الحيّ رأين شاعر القبيلة الشيخ وهنّ يجلبن الماء، فقلن له: قد كبرت! فقال: أجل، قد شخت ونحلت، لكنني لم أنسَ الحب.

وقد قال جميل صدقي الزهاوي:

ليس الحـديث عـن الهـوى مـن شـاعـر شيخٍ جـريـرة

وروى عبّود الشالجي في كتابه «الكنايات العاميّة البغدادية» أن المحامين في غرفتهم كانوا يقسون في مداعبة عباس العزاوي ويعيرونه بأنفه وقسمات وجهه. وفي ذات يوم دخل الشالجي فوجد المحامي محمد جواد الخطيب جالساً بين عباس العزاوي وعباس عبد اللطيف البلداوي فدسّ في يده رقعة كتب فيها:

إنّي رأيتك جـــالســـاً في مجلس حلـــو ظـــريف

مـــا بين عبـــاس اللطيف وبين عبـــاس «الكسيف»

يريد بالكسيف الكثيف أو الثقيل أو الغليظ المعاشرة.

انتخب عباس العزاوي عضواً بالمجمع العلمي العربي، فقال صديقنا إبراهيم الواعظ: إذا لم يكرّمه الأدباء فنكرمه نحن المحامين. وسعى لدى نجيب الراوي نقيب المحامين فأقام للعزاوي حفلة تكريم شائقة.

تأخر افتتاح الحفل حتى جاء فاضل العزاوي بمعروف الرصافي وأجلسه في الصفّ الأمامي، وكان يلبس الكوفية والعقال والعباءة وتبدو عليه آثار الشيخوخة.

وتكلم الواعظ فداعب المحتفى به دعابة ثقيلة لم يكن مناسباً، ويا للأسف، ورودها في خطاب تكريم.

ثم تكلمت ووفيّت مؤرخ العراق حقّه على ما أعتقد. وأشرفت، وأنا أستهلّ كلامي، على الحفل فوجدت النادي يغصّ بالرجال وليس بينهم سوى سيّدة واحدة، فقلت: سيّدتي وسادتي، وكان ذلك مثار بهجة الحاضرين وضحكهم.

كان عباس العـزاوي يكثر من التنادر بأخبار عشيرتـه، فيقول إن العزاوي يخرج على فرسه ويدور بين مضارب العشائر وقرى الريف سنة واحدة، ويقضي في كل مكان مدة الضيافة المألوفة، وهي ثلاثة أيام. فإذا ما عاد الى ديار قبيلته واستشرف خيامهم، قال: واأسفاه، عدنا الى مهجّيات أهلنا!.

وكان عباس العزاوي يتوكل في الدعاوى في كربلاء والنجف وكركوك وبعقوبا وسائر أنحاء العراق ويذهـب للمرافعة أمام محاكمها. فيقول لـه موكّله: ماذا تحب أن نحضر لك في الغداء؟ فيعدّد العزاوي أصنافاً مختلفة مـن الطعام، ثم يقول: هذه بالإضافة الى ما تعدّونه عادة للضيف!.

وقال إن عزاويـاً تطوّع في الجيش التركي وخدم فيه عدة سنين. وعاد إلى أهلـه فقالوا له: هل تعلّمت التركيـة؟ قال: نعم، لقـد أتقنتها. فقالـوا: إذن، يا مسيعد، تفيـدنا حين يأتي موظفوا الكودة (ضريبة الأغنام) فتتفاهم معهم وتخفّف عنّا عبء الضريبة.

وفي ذات ليلـة جاءت الخيل تحمل مـوظفي الكودة، فصـاح رجال القـرية: اليـوم يومـك، يا مسيعد، فتعـال وكلّم الجماعة. لكن مسيعـد هرب واختبأ في بعـض الخيام قائلاً: إنني أحسن التركية في النهار، فكيف تريدونني أن أعرفها في الليل؟

قرر مجلس أمانة العاصمة تسمية شوارع بغداد، فاختار لها أسماءً بعضها لأشخاص مغمورين ذكرتهم الكتب الصفر القديمة وعثر عليها عبد اللطيف ثنيّان.

قال عباس العزاوي: أقترح أن تسموا شارعاً باسم هولاكو، فإنه على طغيانه، أشهر في الأقل من النكرات التي أطلقت أسماؤهم على بعض الشوارع.

عاد عباس العزاوي من فينّا سنة ١٩٦٢ وقد أجرى جراحة لعينيه فقال:

وجـدت في مستشفى العيـون بعـاصمـــة النمسـا رجلين عـراقيين أعميين من أهل الكاظمية، وقد جاءا لمعالجة بصرهما. وقاما بناءً على إشارة الطبيب بابتياع قرنيتين لترقيع باصرتيهما من عجوزين فقيرين مشرفين على الموت.

وكان الـرجلان يقيمان في المستشفى وينتظران مـوت صاحبيهما لكي يتمكن الطبيب من قلع قرنية المتوفى فوراً وتركيبهـا خلال ساعات معدودة على شبكة عين الأعمى فيتاح له أن يبصر النور.

لم يكن للـرجلين من حـديث سـوى التمنّي على الله أن يعجّل بقبض روح الشيخين اللذين اضطرتهما الفاقة على بيع عينيهما بيعاً آجلاً. وبعد أيام توفي أحد البائعين، فهرع صاحبه إلى غرفة الجراحة وغـرزت قرنية عين الميّت في عينه، فلم تمض أسابيع حتى تمّت المعجزة.

أما الثاني فانتظر طويلاً، ولم يمت صاحبه، بل انتعش وعادت قواه وحسنت حاله. وكان يقول كل يوم: ربّاه! أليس لهذا الليل من آخر؟ كم أنتظر وقد عددت لهذا الرجل قيمة عينيه نقداً، وهو يرفض أن يموت! ربّاه، أنقذني من هذه الحال التي لا تطاق وعجّل بخلاصي! . . .

وعاد العزاوي إلى بغداد، والأعمى لا يزال يبتهل إلى الله أن يميت صاحب عينه ليستردّ البصر.

ذكّرتني هذه القصة بما كتبه الأديب الفرنسي دنيس ديدرو (١٧١٣ ـ ١٧٨٤) عن طبيب كان بحاجة إلى جثّة لتشريحها. فسأل الممرّض الذي قال: لقد جئت في الوقت المناسب حقاً، فلدينا رجل محتضر لن يعيش ساعتين.

قال الطبيب: ساعتين؟ لا، إنّ هذا لا يفيدني، فأنا ذاهب هذا المساء في رحلة قصيرة لن أعود منها قبل مساء الغد.

ـ لا بأس امض لطيّتك. وسنحاول إطالة عمر المريض قليلاً في انتظار أوبتك.

وذهب الطبيب، أما الممرّض فمرّ بالصيدلية وجلب دواءً منعشاً ناوله إلى مريضه فنام نوماً هنيئاً طوال الليل. وجاء الممرض صباحاً فوجد صاحبه جالساً يسعل ويبصق، وقد خفّت وطأة الحمّى وسكن الألم. وشكره المريض قائلاً: لا أدري أي دواء أعطيتني، ولكن يحقّ لك أن تفخر بأنك أعدتني إلى الحياة.

قال الممرض: حسناً، حسناً، ولكن ماذا سيقول الطبيب؟

ـ ماذا سيقول الطبيب؟

ـ لا شيء، لا شيء.

واستمرّت حال المريض على التحسّن. وعاد الطبيب في المساء فبادر الممرّض قائلاً: أين الجثة؟

ـ ليس هناك جثة.

ـ كيف، ألم يمت المريض؟

قال الممرض: إنها غلطتك، فقد كان مشرفاً على الهلاك، غير أنك ذهبت وتركته يبدّل رأيه ويتمسّك بأهداب الحياة.

فقال الطبيب: لا بأس، اترك الأمر إلى فرصة ثانية.

ومن قبيل ذلك ما حدّثني به أحد الاصدقاء قال: كان في الكوت حفّار قبور شيخ فقير مختلّ الشعور يعيش من تكفين الأموات ودفنهم ولا يكاد يصيب كفافاً من القوت. وكان، إذا شحّ الرزق، يجيء إلى مقهى التجار فيرفع يديه ضارعاً إلى الله تعالى وصائحاً

بأعلى صوته: يا ربّ، ألا يموت أحد من الناس؟ هل أموت جوعاً لأن عبادك في خير وعافية؟ اللهم، افتح علينا ووسع لنا . . .

فما يكاد يمضي في استغاثته وشكواه حتى يبادر التجار إلى نفحه بالدراهم واسكاته وصرفه.

العزاوي في أيامه الأخيرة:

لقي عباس العزاوي في أعوامه الأخيرة معارضة واضطهاداً. لقد أصبح النشر والطبع يكاد يكون محصوراً في أيدي وزارة الاعلام، فقدم كتاباً له عنوانه «برج الأولياء» إلى الوزارة لنشره، فقيل له إنه يجب أن يعرض على لجنة للنظر فيه وإقراره. فغضب وسحب مخطوطته وقال: وأية لجنة تنظر في مصنّف لرجل وضع ونشر عشرات الكتب؟

وقد سلق موظفي وزارة الاعلام بألسنة حداد، فامتنعوا عن نشر مقالاته في مجلات الوزارة وحالوا دون إعادة انتخابه عضواً بالمجمع العلمي العراقي. واضطرّ على نشر بحوثه في المجلات السعودية ومجلة المجمع العلمي الكردي في بغداد. وظل متألماً إلى أن أدركه الحمام، لكن ولده فاضل واصل شنّ الحرب الكلامية على المؤسسات الثقافية الرسمية وشهد الاستيلاء على مكتبة أبيه الفريدة ونقلها إلى المتحف العراقي. ورفض تسلّم حصته من المبلغ الضئيل الذي قدّر ثمناً للمكتبة التي أنفق والده سنين طويلة من حياته وأموالاً وفيرة حصّلها بعرق جبينه لانشائها وتوسيعها.

وكان عباس العزاوي يضيق ذرعاً بالنقد الذي يوجّه إليه، فيقول: الانتقاد سهل والتأليف شاقّ عسير. ثم يقول: لا بأس، من ألّف فقد استهدف.

الدكتور مصطفى جواد

العلامة اللغوي المحقق المؤرخ مصطفى جواد ولد في بغداد سنة ١٩٠٤ وأدركته الوفاة فيها في ١٧ كانون الاول ١٩٦٩. كان استاذاً في دار المعلمين العالية وكلية التربية وعميداً لمعهد الدراسات الاسلامية العليا وعضواً بالمجمع العلمي العربي في دمشق ونائب رئيس المجمع العراقي وعضواً مراسلاً لمجمع القاهرة. ترجمت له في «أعلام اليقظة الفكرية».

ألف الدكتور مصطفى رسالة في «جاوان القبيلة الكردية المنسية» نشرت في مجلة المجمع العلمي العراقي، ثم نشرها المجمع العلمي الكردي سنة ١٩٧٣. وترجمت إلى اللغة الكردية.

أخبرني مصطفى علي أنّ مصطفى جواد كان في أثناء دراسته في دار المعلمين الابتدائية ينشر نظماً ونثراً في مجلة «التلميذ العراقي» التي أصدرها سعيد فهيم في تشرين

الاول ١٩٢٢ ، وكان توقيعه «مصطفى جواد الدلتاوي».

وقال مصطفى علي ايضاً : كنت كاتباً عدلاً في بغداد سنة ١٩٣٤ ، فجاءني مصطفى جواد لتصديق كفالته حينما أوفدته وزارة المعارف للدراسة في باريس . ومن غريب الاتفاق أن المكفول كان مصطفى (جواد) والكفيل السيد مصطفى (من أهل الكاظمية) والكاتب العدل مصطفى (علي)، وكذلك كان اسم الكاتب في دائرة الكاتب العدل الذي أنجز المعاملة مصطفى ايضاً!.

كان مصطفى جواد، وهو طالب في باريس، يقضي معظم أوقات فراغه في المكتبة الوطنية . وقد نقل بخطه اللطيف عشرات الدفاتر من المخطوطات القديمة النادرة والمجهولة وأطلق عليها عنوان «أصول التاريخ والأدب». وصار بعد ذلك يرجع إليها في كتاباته ويشير إليها في الهامش، فيذكر «الأصول» ج (كذا) ص (كذا) دون أن يصرّح بالمصدر الأصلي . وقد سألته يوماً لماذا لا يذكر المرجع المخطوط عنه مع الإشارة إلى رقمه في المكتبة الوطنية ، فقال : لقد أجهدت نفسي وأفنيت أيام شبابي في البحث عن مصادر لم يلتفت إليها أحد، ونقلتها بخطّ يدي حرفاً حرفاً، ومحصّت معروفها من مجهولها وصحيحها من مغلوطها ، ثم أصرّح بعنوانها ورقم تسلسلها ومحلّ وجودها ، ليطلبها كل طالب ويفحصها كل راغب؟ ذلك ما يأباه العقل وينكره الفضل ولا ترضى به المروءة! وليذهب من شاء وليبحث ويحقق ويدقّق، وليهنأ بما يعثر عليه بكدّه وتعبه، ولا يكون كلاً على السابقين ولا عائلاً على العاملين.

قال ذلك مصطفى جواد، لكنه لم يكن بخيلاً على السائلين والطلاب، بل كان يدلّهم راضياً مسروراً على المراجع التي يرجعون إليها والمصادر التي تيسّر لهم مواد بحوثهم وكتاباتهم . وكان عبد الرحمن بن عيسى بن حماد الهمذاني الكاتب قد صنّف «الألفاظ الكتابية»، فقال الصاحب ابن عباد : «لو أدركته لأمرت بقطع يده! فقد جمع شذور العربية الجزلة في أوراق يسيرة فأضاعها في أفواه صبيان المكاتب ورفع عن المتأدّبين تعب الدرس والحفظ الكثير».

عرفت مصطفى جواد في باريس سنة ١٩٣٧ مع حقي الشبلي ونفر من الطلاب العراقيين الذين كانوا يدرسون فيها . لكن صلتي به لم تتوثق الا بعد عودته إلى بغداد عند نشوب الحرب العالمية سنة ١٩٣٩ ، وكان صلة التعارف بيننا أحمد حامد الصراف .

وقرّر سنة ١٩٣٨ إنهاء بعثة مصطفى جواد، فجاء إلى بغداد وراجع وزير المعارف الشيخ محمد رضا الشبيبي وكلّمه في استئناف دراسته . ونصحه الشيخ بمراجعة رئيس الوزراء جميل المدفعي، فنظم مصطفى قصيدة في مدح المدفعي نشرها في جريدة الزمان، يتوسّل فيها بالحصول على عطفه . وأثمر مسعاه، فأوعز الرئيس إلى وزارة المعارف بإعادة ايفاده للحصول على شهادة الدكتوراه .

وكان مصطفى جواد قد تزوج في بغداد قبل ايفاده إلى القاهرة وباريس، لكنه ترك

قرينته وأولاده في بلد الرشيد. وتعرّف في باريس بفتاة فرنسية ساعدته في كتابة أطروحته عن الناصر لدين الله العباسي باللغة الفرنسية ـ على ما رواه لي ـ فصاحبها طوال إقامته في ربوع السّين وأنجبت له ولداً. ولما عاد إلى بغداد ترك لديها كتبه، وكثيراً ما كان يشكو لنا في أثناء الحرب أنها باعت كتبه وتصرّفت في الاشياء التي أودعها لديها. فقال له الصرّاف: وهل أرسلت لها ولابنها بشيء من المال تستعين به على العيش؟ فصمت ولم يجب.

وعلمنا منه بعد ذلك أنها توفيت هي وولدها بداء السلّ خلال سني الحرب العجاف.

وحريّ بالذكر أنّ مصطفى جواد أنهى دراسته الجامعية ووضع أطروحته وقدّمها إلى «السوربون». ونشبت الحرب العالمية قبل أن يهيّأ له مناقشتها وقبولها وتسلّم شهادة الدكتوراه، فترك فرنسة عجلاً خوف انقطاع الطرق مع طلاب آخرين كانوا يدرسون في باريس.

ولمّا جاء إلى بغداد، لم تعترف وزارة المعارف بشهادته. وظلّ يراجع أشهراً محتجاً بالظروف الاستثنائية التي حالت دون مناقشة أطروحته وحرمته إعلان حصوله على الدكتوراه رسمياً، فقبل الوزير صالح جبر عذره أخيراً وأوعز بتعيينه للتدريس في دار المعلمين العالية في الدرجة التي تؤهله لها الشهادة.

ودعي مصطفى جواد على أثر عودته من باريس إلى الالتحاق بدورة ضبّاط الاحتياط (١٩٣٩) مع احمد حامد الصراف وغيره من خريجي الكليات والمدارس العالية. وقد داوم أياماً، وكان ينتقد العريف الموكل بالتدريب على الأخطاء اللغوية في ايعازاته العسكرية. وظهر بعد ذلك في الفحص الطبيّ أن قدمه رحّاء (أي منبسطة لا أخمص لها) فأعفي من الخدمة.

مصطفى جواد وشكيب أرسلان

حدثني الدكتور مصطفى جواد أنه، حينما كان يدرس في باريس، نشر نقداً لمقال كتبه الامير شكيب أرسلان الذي كان يقيم آنذاك في جنيف من أعمال سويسرة. وردّ الامير على منتقده ساخراً من الطالب العراقي المغمور الذي يتطاول على أمير البيان ويتصدى لدحض آرائه.

ولم يكن من مصطفى جواد الاّ أن كتب رسالة شخصية إلى شكيب أرسلان، يؤيد انتقاداته ويسندها إلى مصادر لا يرقى اليها الشك. ثم قال ما معناه: انكم، أيها الأمير المجاهد الجليل، ترفعون نسبكم إلى التنوخيين ملوك الحيرة وإلى النعمان بن المنذر اللخمي ابن ماء السماء، وليس لديكم سند تاريخي يؤيد هذا النسب. ثم ذكر له

المراجع الكثيرة التي تفسد هذا الادعاء وتخرجه عن إطاره التاريخي الصحيح وتجعله بعيد الاحتمال غير معزز بالأسانيد المعتبرة.

وقرأ الارسلاني رسالة مصطفى جواد، فكتب إليه معتذراً، مقراً بفضل الطالب العراقي، معترفاً بعلمه وطول باعه. ثم سأله أن لا ينشر رأيه في نسب آل أرسلان ولا يطعن فيه، وقال: لقد اضطربت حين قراءة رسالتكم اضطراباً شديداً، وكنت مزمعاً السفر فأسقط في يدي وفاتني موعد القطار! . . .

كان مصطفى جواد آية من سعة المعرفة وقوة الحافظة وشمول الاطلاع. وقد أفاد من دراسته في باريس وألمّ بأساليب البحث المنهجية الحديثة وطرق التأليف والتصنيف. لكنه، وقد كتب مئات بل آلافاً، من المقالات والمباحث في التاريخ واللغة والأدب والخطط والتراجم، وأضاع أوقاتاً ثمينة في الردّ على المؤلفين والكتّاب وتغليطهم وتعرية جهل جاهليهم وخبط عالميهم، لم يتفرّغ لتأليف كتاب مستقلّ جامع في بعض تلك المواضيع يدلّ على نبوغه وتتبعه ويبقى أثراً للأجيال الآتية وشاهداً على فضله ومبرراً للشهرة التي حازها في حياته.

لقد وضع عباس العزاوي تاريخه وعشائره وسائر مصنفاته التي أصبحت مراجع في بابها بالرغم من ضعف أسلوبها وجمعها للغثّ والسمين. وهيّأ عبد الرزاق الحسني مصادر ووثائق لا تقدّر بثمن للباحثين في تاريخ العراق الحديث. ووضع انستاس ماري الكرملي معجمه «المساعد» فكان خلاصة وافية لجهود حياة كاملة. . .

أما مصطفى جواد وأكثر الباحثين والمؤرخين المعاصرين له فبعثروا جهودهم وشتتوا أبحاثهم، وقلما نسّقوا ثمار علمهم في مؤلف جامع في موضوعه تحتفظ به الاجيال الآتية وترجع اليه. ومع ذلك يجد الكتاب والباحثون في كتابات مصطفى جواد وبحوثه المبعثرة في الكتب والمجلات والصحف وفي الأصول والمراجع التي نقل عنها ونوّه بها موادّ دسمة تغذّي المواضيع التي وقف عليها حياته.

أوفد مصطفى جواد إلى انكلترة في حاشية الملك فيصل الثاني حين أرسل للدراسة سنة ١٩٤٧، وكان معه ايضاً الأميرة عبديّة بنت الملك علي واللواء عبد المطلب الامين الهاشمي مدرّس التاريخ والجغرافية وبعض رجال الحاشية.

حدّثني مصطفى جواد أنّ المدرسة كانت بجوار بلدة سالسبوري، فاشترت العائلة المالكة داراً نزل فيها الملك، أمّا مصطفى فاستؤجرت له غرفة في بعض الفنادق. وكان يذهب مرتين في الاسبوع إلى دار الملك لتدريسه اللغة العربية. كان أول الأمر يذهب بسيارة أجرة، ثم طلب منه أن يتعلم السياقة فتمرن عليها في دروس قليلة وأعطي سيارة يتنقل بها ويسوقها بنفسه.

وذهب الملك وحاشيته في السنة التالية الى سويسرة للتزلّج في جبالها، فحاول مصطفى ممارسة تلك الرياضة وسقط وأصيب برضوض وكسور بسيطة.

بين مصطفى جواد
ومحمد رضا الشبيبي

أولع مصطفى جواد منذ عهد شبابه بالمؤرخ البغدادي كمال الدين عبد الرزاق ابن الفُوَطي المتوفى سنة ١٣٢٣م. وقد حقق كتاباً في التاريخ ناقص الأول مغفل العنوان ظنه ـ كما ظنه غيره ـ كتاب «الحوادث الجامعة» لابن الفوطي وأصدره سنة ١٩٣٢. واهتم الشيخ محمد رضا الشبيبي ايضاً بالمؤرخ نفسه ووضع مقدمة للكتاب المنسوب اليه.

ولابن الفوطي كتاب آخر اسمه «تلخيص مجمع الألقاب» وجدت نسخة مخطوطة من المجلد الرابع منه في الخزانة الظاهرية بدمشق، لكنها نسخة مشوّهة. فصفحاتها على شكل جداول ذكر اسم الشخص في الصفحة اليمنى وجاءت ترجمة موجزة له في اليسرى، لكن الصفحات تفرقت وتداخلت، ثم أعيد جمعها وتصحيفها بغير ترتيب لعدم ترقيمها، فظهرت التراجم على وجه مضحك. فربّ شاعر نشرت أمام اسمه ترجمة قائد أو فقيه، وربّ رجل عاش في المائة الثالثة نقل إلى المائة الخامسة أو السادسة، وهلم جراً.

عاني مصطفى جواد جهداً كبيراً في إعادة ترتيب التراجم وإلحاق كل ترجمة بصاحبها مستدلاً بمعلوماته الواسعة في التاريخ ومستعيناً بكتب التراجم والرجال لحلّ الألغاز والمعميّات في هذه المخطوطة الغريبة. ولما فرغ من عمله وأيقن أنه صحّح النسخة وأعطى كلّ ذي حق حقه، تقدم إلى المجمع العلمي العراقي ملتمساً نشر كتابه المحقق. لكنه فوجىء بأن الشيخ الشبيبي يقوم بنفس العمل ويرغب أن لا يسبقه أحد في نشر الكتاب. وكظم مصطفى جواد غيظه، لكنه كان يقول لأخصّائه أنه لا يحق للاستاذ الشبيبي أن يحول دون نشر كتابه وأنه يعتقد أن الشبيبي على سعة علمه وفضله لا يستطيع أن يعيد المخطوطة المشوّهة إلى أصلها الصحيح.

وأخيراً نشر الشبيبي الجزء الأول من كتابه «مؤرخ العراق ابن الفوطي» سنة ١٩٥٤، وقد باشر طبعه قبل أربع سنوات وتلكأ في إكماله وإصداره خوفاً من مصطفى جواد. ثم أصدر الجزء الثاني بعد خمس سنوات. فجرّد مصطفى قلمه وكتب في نقد الشبيبي مئات الصفحات نشرها في مجلة المجمع العلمي العراقي خطّأه تخطئة فاضحة وأحصى عليه أغلاطه التاريخية وجهّله تجهيلاً ولكن بأسلوب أدبي جميل واحترام غير قليل.

وقد سكت الشبيبي على مضض ولم يردّ على النقد بكلمة، ـ عالماً أنه، ولا ريب، شاعر كبير وأديب قدير، لكنه لا يداني مصطفى جواد في التاريخ ولا يلحق به.

رثاء سعد زغلول :

رثى سعد زغلول عند وفاته سنة ١٩٢٧ بقصيدة مطلعها :

ناشدتك الله قُل ما حلّ في مصرا ... من المصائب إذ لم استطع صبرا

قال منها :

أمات سعد حبيب الشعب عن عُمرٍ ... منزّه عاش فيه مخلصاً حرا؟
أمات سعد رئيس الوفد؟ واحَرَبي ... على الذي كان في مصرٍ لها ذخرا . . .
عليك، يا سعدُ، أبناء العراق غَدَوا ... حمّال حزن يزيل الصبر والفكرا
أودعت حبّك في كل القلوب، وما ... أبقيت قلباً يكمن الحقد والنكرا
إن العراق ليبكي آسفاً كَدِراً ... حزناً عليك، وقد ساءت به البشرى

كان مصطفى جواد يقيم في محلة شعبية، وقد وضع على باب داره لوحاً كتب عليه «الدكتور مصطفى جواد». وفي ذات ليلة طرق الباب عليه طرقاً عنيفاً في منتصف الليل، فقام إلى الباب وفتحه، فإذا بامرأة عجوز تقول له : إن ابنتي مريضة وفي حالة شديدة من الألم. ونحن جيرانك، يا دكتور، فتعال افحصها لعل الله يمنّ عليها بالشفاء على يدك المباركة.

فقال مصطفى : لست طبيباً، يا خالة، وإنما أنا استاذ ودكتور في التاريخ.

وعبثاً حاول اقناع المرأة انه ليس طبيباً. وأخيراً قالت له بغيظ : إذا لم تكن طبيباً، فلماذا تغرّ الناس وتضع على دارك لافتة باسم دكتور؟

وفي الصباح بدّل مصطفى جواد اللافتة ورفع عنها كلمة الدكتور.

ومما يروى من قبيل ذلك أن ممثلي الدول العربية في الجامعة بالقاهرة كانوا في حين من الأحيان الدكتور فاضل الجمالي (العراق) وفارس الخوري (سورية) والدكتور فوزي الملقي (الاردن). وكانوا يحترمون الخوري لكبر سنّه ويدعونه بـ «العمّ». وكان الدكتور الملقي بيطاراً، لكن الجمالي كان يظنه طبيباً.

وفي ذات يوم شعر فارس الخوري بوعكة ألزمته الفراش، فعاده الجمالي وقال له : لماذا لا نستدعي الدكتور فوزي الملقي لفحصك؟ فردّ عليه الخوري من فوره : وهل عمّك حمار؟

كنت سائراً مع الدكتور مصطفى جواد في شارع الرشيد فقرأنا على باب أحد الدكاكين عبارة مكتوبة بخطّ قبيح غير متناسق : «هنا تنباع البوال»، فلم يكن من الدكتور إلا أن دخل وخاطب صاحب الدكان العامي قائلاً :

ـ هل تبيع الطوابع؟

ـ أجل، ولديّ منها أنواع نادرة شرقية وغربية. . . ماذا ترغب أن أريك؟ هل تريد «البوم»؟ . . .

ـ لا ، يا عزيزي، لا أريد شيئاً منها، ولكن. . .

ـ ولكن لدينا كل ما تريد. . . إصدارات خاصة لا يوجد مثلها. . .

ـ يا سيدي، أنا لا أريد الشراء، ولكن يحسن بك أن تكتب على باب الدكان قطعة بعربية صحيحة: «هنا تباع الطوابع».

واغتاظ البائع وقال:

ـ إذا كنت لا تريد الشراء فلماذا تدخل وتعترض على الناس؟ وماذا يهمّك أن نكتب بعربية صحيحة أو غير صحيحة. . .

وأسرعنا بالخروج إلى الشارع. وقد ذكرتني هذه الحادثة بقصة الشاعر الفرنسي Malherbe ماليرب (المتوفى سنة ١٦٢٨). كان محتضراً يعالج سكرات الموت، والراهب إلى جنب سريره يلقّنه التعاليم الأخيرة. وفتح عينيه بعد غفوة قصيرة، فسمع ربّة الدار تكلمه بكلمات لم تكن آية في الفصاحة، فقال: «يجدر بك، يا سيدتي، أن تراعي قواعد اللغة. . .».

فقال الراهب: «الأولى أن تهتم بآخرتك». وأجابه الشاعر على الفور: «انني لا أستطيع، ولو في مقام الموت، أن أغضّ النظر عن فصاحة اللغة الفرنسية!».

وروي عن اللغوي الفرنسي دومنيك بوهور (١٦٢٨ ـ ١٧٠٢) Dominique Bouhours إنه قال وهو يلفظ أنفاسه الأخيرة: «إنني مشرف على الموت، أو أنا أموت، يصحّ استعمال كلا العبارتين»:

وقال نحويّ عربيّ قديم: أموت وفي نفسي شيء من «حتّى».

كان لنا صديق أديب لا يحسن النظم ولا يكاد يفرق بين الشعر والنثر. وأعلن الملحق الصحفي للسفارة البريطانية في بغداد خلال الحرب العالمية الثانية، وأمّته تخوض غمار حرب ضارية يتوقف عليه بقاؤها، عن مسابقة شعرية تتعلق بمواضيع لها صلة بانتصار الحلفاء وعدالة قضيتهم، وخصّص لها الجوائز، واختار لجنة التحكيم من شعراء وأدباء معروفين في طليعتهم الدكتور مصطفى جواد.

وجاء صديقنا الأديب إلى مصطفى جواد وقال: رغبت في الاشتراك في هذه المسابقة، وقد نظمت قصيدة أرجو أن تنظر فيها قبل الارسال بها. فتناول الدكتور القصيدة ونظر فيها فقال: اسمح لي أن أصارحك، يا عزيزي. فهذه ليست شعراً ولا يستقيم لها وزن ولا قافية ولا معنى. قال صاحبنا: فهل تصلحها؟.

قال: لا سبيل إلى إصلاحها، ولكنني أنظم لك قصيدة تقدمها إن شئت إلى لجنة التحكيم.

ووافق الصديق شاكراً، فنظم الدكتور مصطفى قصيدة على لسانه في الموضوع المقرّر وقدمها الأديب المتشاعر إلى لجنة المباراة باسمه، فنال بها الجائزة الثانية أو الثالثة!.

حين توفي الشيخ محمد رضا الشبيبي عضو مجمع اللغة العربية بمصر رشح مصطفى جواد وعبد الرزاق محيي الدين لملء الكرسيّ الشاغر في المجمع. وقد اختار الأعضاء مصطفى جواد، لكن عبد الرزاق محيي الدين، وهو آنذاك وزير الوحدة، أسرع إلى مقابلة جمال عبد الناصر ورجاه أن يؤيد ترشيحه، ففرضه الرئيس المصري على المجمع وصدر الأمر باعتماده.

وقد بلغ ذلك مصطفى جواد وهو في بغداد فآلمه الخبر ألماً شديداً.

كان مصطفى جواد يدّعي معرفة علم الفراسة، فإذا نظر إلى رجل في الطريق يقول: هذا فارسيّ وهذا كردي وهلم جراً. فإذا سألناه: كيف علمت؟ يقول: سيماؤهم في وجوههم... وقال إنه كان، وهو طالب في باريس، يدخل إلى بعض المخازن لشراء حاجة له، فينظر إلى وجه البائع فيعرف انه يهودي أو أرمني، فيحدثه بحديث قريب من نفسه يحصل منه على سماح أو مهاودة في الأسعار.

وذهب مصطفى جواد إلى طهران مع جعفر الخليلي بدعوة من الحكومة الايرانية ونزلا في بعض الفنادق الراقية. وكانت موظفة الاستقبال في الفندق لطيفة لم تنِ جهداً في خدمة الأديبين ورعايتهما، فانتحى مصطفى جواد ناحية بصاحبه وقال له: أترى هذه الفتاة الجميلة، إنها يهودية.

قال الخليلي: كيف عرفت؟

- إن ذلك ظاهر في سيمائها!

ومضى الخليلي إلى مدير الفندق وكلمه بالفارسية قائلاً: إن موظفة الاستقبال بذلت جهدها في خدمتنا، فهل لك أن تدعوها لنشكرها؟ فصاح المدير: علوية فاطمة، تعالي إلى هنا فالسيد يريد أن يشكرك.

وضحك الخليلي وقال لمصطفى جواد: أين فراستك؟ إنها علويّة وفاطمة!

ظل مصطفى جواد يتحدث أعواماً طويلة في الاذاعة والتلفزيون. وكانت برامجه الاسبوعية في التلفزيون تجتذب الناس عامّتهم وخاصتهم، إذ كان له أسلوب محبّب يبسّط به أحداث التاريخ وقصص الخلفاء والوزراء والشعراء ومواقع الآثار والبلدان. وإذا كان لي أن أشبّهه بأحد في هذا المجال فأنا أشبهه بأديب مصر الكبير الشيخ عبد

العزيز البشري (١٨٨٦ ــ ١٩٤٣)، فقد كان له مريدوه الكثيرون في نـدواته الاذاعية. قال الدكتور ابراهيم علي أبو الخشب في كتابه «تاريخ الأدب العربي في العصر الحاضر»:

«وأنا أذكـر أن أول عهد الناس بـالاذاعة، هنـا بمصر، اختار القائمـون على الاذاعة رجلين اثنين توسموا فيهما أن يربطا الاذهـان والقلوب بها. وكان الرجلان هما الصحفي الظريـف فكري أباظـة والأديب الكبير البشري. وكان تـرقب الناس لكـل واحد منهما يفـوق الحدّ ويتجـاوز المعقول، إلا أن جمهـور البشري كـان أضعـافاً مضـاعفـة. . .» ويضيف قائلاً إنك لا تسأل أحـداً إلاّ أخبرك أن الشيخ البشري إنسان جـذاب إلى أبعد الحدود، وقد أكبرته في عيـون الناس خفة الروح والألمعية والـذوق وحضور البديهة. . . ولعلّ كل تلك الصفـات تنطبق على مصطفى جـواد في ندواتـه التلفـزيـونية، يضـاف إليها، شخصـه الماثل على الشاشة الصغيرة ببسـاطته وهدوئه ومسبحتـه التي لا تفارق أصابعـه، وعينيه اللتين كثيراً ما يغمضهما للتركيـز على حديثه المتسلسل الـذي يلقيه في أناة وصوت لطيف راتب، مما يضفي على المواضيع الأدبية والتاريخية الجامدة لذة وحلاوة ويقربها إلى أفهام عامّة الناس.

وقد سألته مرة لماذا يغمض عينيه في أكثر الأحيان وهو يتكلم في التلفزيون؟ قال: لو رأيت الاضـوية وآلات التصـويـر الموجهـة إليك وأنت تتكلم لشرد ذهنك واختلّ رأيك وعيّ لسانك!.

المطران سليمان الصائغ

ولد سليمان بن داود الصائغ في الموصل في ١٨ أيلول ١٨٨٦، وانتمى الى مدرسة مار بطرس البطريـركية في مسقط رأسه سنة ١٩٠١، فأتم دروسه الاعداديـة والفلسفية فيها في تموز ١٩٠٨ ورسم كاهناً.

وعمل في سلك التعليـم وإدارة المدارس الابتـدائيـة، وعيّن سنـة ١٩١٤ مـديـراً للمدرسـة الاعدادية الكلدانيـة، وكان عضوا في لجنة المدارس الابتـدائية في الموصل على العهد العثماني.

عهد إليه على أثر احتلال الموصل تحرير جـريدة «الموصل» التي أصدرتها الحكومة في ١٤ تشرين الثـاني ١٩١٨، فتولى العمل بها أكثـر من سنـة. ولمّا نظر في قضيـة الموصل وألفت لجنة الدفاع الوطني لضمّها الى العـراق، كلف بكتابة القسم التاريخي من تقرير اللجنة في سنة ١٩٢٥.

وأصدر في ٢٥ كـانون الأول ١٩٢٨ في الموصل مجلـة «النجم»، وهي مجلـة علميـة أدبيـة بقيت تظهـر الى سنة ١٩٤٠. واختير سليمان الصـائغ عضـواً مراسـلاً بـالمجمع

العلمي العراقي في أيار ١٩٤٩ . وقد رسم مطراناً في حزيران ١٩٥٤ وعيّن نائباً بطريركياً للكلدان في الموصل.

وتوفي في تلك المدينة في ١٨ أيلول ١٩٦١ ، وهو يوم عيد ميلاده الخامس والسبعين.

وللمطران صائغ مؤلفات تاريخية، منها: تاريخ الموصل (الجزء الأول ١٩٢٣ ، الثاني ١٩٢٨ . الثالث ١٩٥٦)، كتاب يزدان دوخت (صفحة من تاريخ العراق في العهد الساساني، ١٩٣٤)، تاريخ الكنيسة الكلدانية (١٩٣٩). وقد سعى لتنشيط التمثيل في المدارس وألف مسرحيات، منها: الزبّاء (١٩٣٣) مشاهد الفضيلة (١٩٣١) الأمير الحمداني (١٩٢٨)، وترجم مسرحية هوراس لبيير كورناي (١٩٥٢).

شكري الفضلي

شكري بن محمود بن أحمد آغا؛ من رؤساء عشيرة الكروية، ولد في بغداد سنة ١٨٨٢ ، وقضى في السليمانية أربع عشرة سنة برفقة خاله صالح أفندي إسماعيل الذي كان رئيس كتاب الحامية العسكرية، ودرس فيها دروسه الإبتدائية. وعاد الى بغداد سنة ١٩٠١ ، فانتمى الى المدرسة الرشدية العسكرية ودرس اللغات العربية والكردية والفارسية. وعيّن بعد ذلك معلماً في مدرسته الرشدية ومدرسة القديس يوسف.

شدّ الرحال الى الأستانة سنة ١٩٠٨ فأمضى فيها عامين، ثم عاد الى بغداد، وحضر دروس الشيخ عبد الوهاب النائب، وألمّ بشيء من الانكليزية والفرنسية. واطلع على الثقافة التركية الحديثة، ومن طريقها على الأدب العصري الغربيّ، فتأثر بمبادىء الحرية والتقدم الاجتماعي، ولقي في سبيل ذلك عنتاً وإرهاقاً. فقد سجنه الفريق رفيق باشا في كركوك، ثم ألقي القبض عليه مع فريق من رجال العراق المناوئين لحزب الاتحاد والترقي، وطلب إرساله الى الأستانة لمحاكمته أمام ديوان الحرب العرفي بأمر من طلعت باشا وزير الداخلية التركية، لكن أطلق سراحه مع رفاقه بشفاعة الفريق محمد فاضل باشا الداغستاني.

ولما احتلّ الإنكليز بغداد وجلا عنها الأتراك، عيّن سنة ١٩١٧ رئيساً لكتاب محكمة الصلح، ثم اختير عضواً بلجنة ترجمة القوانين العثمانية على عهد ناظر العدلية بونهام كارتر. وحرّر في الوقت نفسه في صحيفة «العرب» وبعض الصحف الفارسية والكردية التي أصدرتها سلطات الاحتلال. وكتب في الجرائد الصادرة في بغداد كجريدة الشرق والعراق والاستقلال. ونقل في سنة ١٩٢١ رئيساً لكتاب ديوان مجلس الوزراء. وأصيب بالسلّ، فتوفيّ ببغداد في أول حزيران ١٩٢٦ . ورثاه جميل صدقي الزهاوي قائلاً:

حـــال بيني وبين شكـــري التراب | إذ قضى نحبـــه، فجـلّ المصـــاب...
قـــد بكتـــه الأقـــلام منكسرات | وبكتـــــه الأخـــــلاق والآداب

وكان شكري الفضلي نفسه قد حيّا الزهاوي بقصيدة قال فيها:

لقــد قلـت شعــراً، بل نظمـت شعــوراً | نـــذيـــراً لقـــوم تـــارة وبشيرا
يغيّر منهـــاج الحيـــاة بسرعـــة | ويحدث من بعـــد الأمـــور أمـــورا
يكلم جهـــراً في الجبـــان شجـــاعـــة | ويجعـــــــل همس الخائفين زئيرا
يـــريك شحيح القـــوم يبسط كفّـــه | ويشرك في مـــــال الغنـــيّ فقيرا
يثقف أحـــلام الـــرجـــال ليتّقـــوا | بها الـــدهـــر خطبـــاً منكـــراً ونكيرا
يـــوحّـــد غـــايـــات الهداة ليـــدركـــوا | نعيماً وملكـــــاً لا يـــــزال كبيرا
فـــدونـك شعـــراً للـــزهـــاويّ خـــالـــداً | تـــريك قـــوافيـــه الشعـــور بحـــورا

مؤلفاته وشعره:

نشر شكـري الفضلي بحوثـاً في مجلة «لغـة العـرب» وغيرها من المجـلات والجرائد. ووضع كتباً في تـاريخ العراق قديماً وحديثاً، وذيل جغرافية العراق التـاريخية، وفلسفة الخيام، ونظرات سياسية واجتماعيـة. وله ديوان شعـر ومؤلف بـاسم «مكتبة الفضلي» يبحث في العلـوم المختلفـة كـالحكمـة الطبيعيـة والكيميـاء والفلك وطبقـات الأرض الخ. وقد بقيت آثاره متفرقة في الصحف والمجـلات وأوراقه المخطوطة لم يقدر لها الجمع والطبع.

وأدب شكري الفضلي كثقـافته مـزيج من القديم والحديث، وقـد أطل على الآداب العصريـة من نـافذة الأدب التركي الجديـد. وأفقـه واسع شأن الأدبـاء المخضرمين من أقرانه، فهو ينظم وينثر ويبحث في التاريخ والجغرافية والاجتماع وهلم جراً.

ومن شعره في «المستنصرية»:

نهضنـا، وكـــان الـدهـر تترى كتـائبـه، | يحاربنـــا طـــوراً وطـــوراً نحـــاربـــه
فكم قـــد قتلنـــا الـــدهـــر خُبْراً فـــزادنـــا | ببلـــواه علماً حينما نـــاح نـــادبـــه
وكم قـــد حلبنـا أشطـــر الـــدهـــر دربـــة | وفـــزنـــا بَـــدرّ الحقّ، لله حـــالبـــه!
وكم قـــد علـــونـــا هـــام أسـود يـــومـــه | بأبيض عـــزم فـــاستنـــارت غيـــاهبـــه..
فهـــذي هـــي المستنصريـــة تشتكـي | بـــلاهـــا وبـــالصمت البليغ تخاطبـــه
ألا دولـــة المستنصر اليـــوم قـــد علت | بـــدولتكم واعتـــزّ بـــالعلم طـــالبـــه
إذا مـــا اتخذت العلم للشعب ســـاعـــداً | ضربت بسيـف لم تخنك مضـــاربـــه..
الى العلم، يـــا أهل العـــراق، فـــإنـــه | لموردُ عـــذبٍ لم تعكّـــر مشـــاربـــه

صدّيق الدملوجي

البحّاثة الإداري صدّيق بن سعيد الدملوجي ولد بالموصل سنة ١٨٧٧ ، وكان موظفاً إدارياً في العهد التركي . وعلى أثر تأليف الحكومة العراقية ، عيّن في أيلول ١٩٢٣ قائمقاماً للشطرة فالقرنة (تموز ١٩٢٥)، وكان أيضاً قائمقاماً للأقضية الشمالية العمادية والشيخان وسنجار وتلعّفر.

إنصرف الى البحث والتأليف بعد اعتزالة الخدمة الرسمية . وأدركته الوفاة في مسقط رأسه الموصل في ١٥ نيسان ١٩٥٨ . من مؤلّفاته التاريخية : الأنقاض ، الموصل (١٩٤٩) اليزيدية (١٩٤٩) إمارة بهدينان الكردية أو إمارة العمادية (١٩٥٢) مدحت باشا (١٩٥٣).

وهو أخو الدكتور عبد الله الدملوجي وفاروق الدملوجي .

رزّوق عيسى

ولد رزوق بن عيسى بن زكريّا الموصلي ، في بغداد في ٦ حزيران ١٨٨٥ ، ودرس في المدرسة الانكليزية الثانوية ونال شهادتها سنة ١٩٠٠ . وعمل موظفاً في بعض الشركات التجارية في البصرة ، لكنه لم يلبث أن عاد الى بغداد وقام بالتدريس في المدرسة الانكليزية (١٩٠١ ـ ١٤).

وأصدر مجلة العلوم في أول تشرين الثاني ١٩١٠ فلم يظهر منها سوى عددين . وأعلن النفير العام في أواخر سنة ١٩١٤ فجنّد ، ثم اعتقل في آذار ١٩١٥ بتهمة الخيانة وحكم عليه بالسجن ستة أشهر . وعيّن على أثر الاحتلال الانكليزي سنة ١٩١٧ مترجماً ومعاوناً للحاكم السياسي في العزيزية والنعمانية . لكنه استقال من منصبه بعد أمد وعاد الى التعليم في المدارس الأهلية عدة أعوام . وأصدر مجلة المؤرخ في كانون الثاني ١٩٣٢ ، فاستمرت سنة واحدة .

وقد وضع مؤلفات متعددة منها المطبوع والمخطوط ، منها : بغية الأنام في لغة دار السلام ، تاريخ العراق قديماً وحديثاً ، تاريخ التمدّن العراقي ، حضارة بابل وآشور ، تاريخ مدن العراق القديمة والحديثة ، حضارة العرب في الجاهلية والإسلام ، تاريخ الصحافة في العراق ، جغرافية العراق الخ . وألف روايات وكتباً مدرسية ، ونشر مقالات وبحوثاً كثيرة في الصحف والمجلات .

ومن رأيه أنه لا يصلح العالم إلا المذهب الإشتراكي المعتدل الذي بشّر به الأنبياء ، وقال به الفلاسفة ، وأقرّه الساسة والمشترعون في كل العصور . ومن رأيه أيضاً أن الدكتاتورية لا يطول عهدها لأنها عدوّة حرية جماهير الناس . وقد قال : «أليس من

الظلم أن تكون حياة الأمة تتوقف على كلمة ينطق بها فرد من أفرادها؟ أليس من الظلم أن يكون الضعيف سنداناً لمطرقة القويّ؟».

وقد توفي في ٢٣ أيلول ١٩٤٠ في بغداد.

محمّد جواد البلاغي

من رجال العلم والتأليف الشيخ محمد جواد بن حسن بن طالب البلاغي، ينتمي الى أسرة معروفة تنسب الى قبيلة ربيعة، وقد ولد بالنجف سنة ١٨٦٤، ودرس على محمد طٰه نجف ورضا الهمذاني وغيرهما. ثم انتقل الى سامرّاء ولبث فيها عشر سنين درس فيها علي محمد تقي الحائري الشيرازي الذي اشتهر في إبان الثورة العراقية. وغادر سامراء حين احتلتها الجيوش البريطانية سنة ١٩١٧، فأقام في الكاظمية سنتين، ثم عاد الى النجف.

أكبّ على التأليف والتدريس واشترك في الثورة العراقية سنة ١٩٢٠. وكان يعرف الفارسية وشيئاً من اللغة الانكليزية. قال جعفر محبوبة في كتابه «ماضي النجف وحاضرها» (الجزء الثاني) إنه كان لجواد البلاغي اليد الطولى في الدعوة الى إنقاذ الدار التي اتخذها البهائيون محفلاً لهم في جانب الكرخ من بغداد، وقد اشتدّ النزاع على هذه الدار ورفعت الشكاوى بشأنها الى عصبة الأمم سنة ١٩٣١.

توفيّ بمسقط رأسه النجف في ١١ كانون الأول ١٩٣٣.

كان عالماً شاعراً أديباً وضع مؤلفات عديدة، أهمّها: آلاء الرحمٰن في تفسير القرآن (طبع منه ٣ أجزاء ١٩٣٣ ـ ٣٤) أنوار الهدى، أعاجيب الأكاذيب (١٩٢٧) البلاغ المبين (في الإلهيات)، التوحيد والتثليث، الرحلة المدرسية (١٩٢٤) العقود المفصّلة (في الفقه) نسمات الهدى، مسألة في البداء (١٩٥٥) الهدى الى دين المصطفى (في جزءين، ١٩٦٥) الخ.

ردّ على الماديين والطبيعيّين والدهريّين ورمى بسهامه أرباب الالحاد ودافع عن أركان الدين. ونظم الشعر، فمن نظمه رثاء محمد سعيد الحبّوبي، ومطلع قصيدته:

شـاقك البرق فأسـرعت سِباقـا   وتـركت الصبّ يلتـاع اشتياقـا

ومعارضة قصيدة ابن سينا الشهيرة في النفس، قال:

نعمت بـأن جـاءت بخلـق المبـدع   ثمّ السعـادة أن يقـول لها: ارجعي

محمد صادق الأعرجي

الصحفي الكاتب المدرس محمد صادق الأعرجي، ولد سنة ١٨٨٣ ودرس علوم العربية والدين في المعاهد القديمة. ومال الى الكتابة في شبابه، فأصدر في بغداد جريدة الرصافة (١٧ حزيران ١٩١٠). وعطلتها الحكومة بعد سنة واحدة، فاعتاض عنها بجريدة الصاعقة التي أنشأها عبد الكريم الشيخلي في ٨ حزيران ١٩١١. وأدّت به جرأته في الكتابة الى السجن، ولم يفرج عنه إلا بأمر من استانبول بعد مراجعة برقية من بعض الوجهاء. وأصدر في نيسان ١٩١٣ مجلة الرصافة، لكن لم يبرز منها سوى عدد واحد. واختير الأعرجي بعد ذلك عضواً في مجلس ولاية بغداد (١٩١٤) على عهد الوالي جاويد بك.

وامتهن التعليم على أثر الاحتلال الانكليزي فعيّن مدرساً (أول تشرين الأول ١٩١٧)، وزاول هذه المهنة في المدارس الثانوية الرسمية للبنين والبنات أكثر من ثلاثين سنة.

وتوفي ببغداد في أوائل شهر آب ١٩٦٠.

كان الأعرجي شاعراً، قال من قصيدة له في الثورة العراقية سنة ١٩٢٠:

أسد العراق، بلغتم شأو عزكمُ ... ونلتم بعلاكم أرفع الرتب
في باب روض علاكم آية كتبت: ... حمالة المجد لا حمّالة الحطب
هذا العراق حماكم، وهو خير حمى، ... فعالجوه لكي يشفى من الوصب
عار عليكم، بنيه، أن تمدّ يد ... إليه مالم تعالجها يد العطب
إن لم تذبّوا حفاظاً عن حريمكمُ ... فمن يذبّ وينجيه من الرهب؟

***

أرض العراق بأهليها محصّنة ... محمّية بهمُ من سالف الحقب
كم قام فيها مليك جيشه لجب ... وحلّها خير جيش باسم خير نبي
شبانها لحماها خير مدّخر ... أنتم فجدّوا فليس الوقت للّعب
ألقوا على الشعب ضوءاً من بسالتكم ... كي ينجلي عنه ليل الشكّ والريب...

حتى يقول:

لا تخضعوا لعداكم في مساومة ... عار على الرأس أن ينقاد للذنب
صبّوا عليهم جحيماً من مدافعكم ... وأحرقوهم بنيران من الغضب
روّوا صعيد حماكم من دمائكُمُ ... كيما يجيد ثمار العزّ والنشب
واسقوه ماءً نميراً من مكارمكم ... كيما يجيد ثمار العلم والأدب

علي ظريف الأعظمي

الصحفيّ المؤرخ علي ظريف الأعظمي ولد بضاحية الأعظمية من بغداد سنة ١٨٨٣ وتوفي سنة ١٩٥٨ . عمل في التدريس. وأصدر مجلة الأقلام (شباط ١٩٢٨)، فاحتجبت قبل أن تكمل عامها الأول. وقد عين رئيساً لبلديةالأعظمية سنة ١٩٢١.

وضع كتباً منها: دروس التجويد (١٩١٣) الدرّ والياقوت في محاسن السكوت (١٩١٣) دروس الصحّة، تاريخ ملوك الحيرة (١٩٢٠) تاريخ الدولة اليونانية في العراق (١٩٢٣) مختصر تاريخ بغداد (١٩٢٦) مختصر تاريخ البصرة (١٩٢٧) تاريخ الدولة الفارسية في العراق (١٩٢٧).

ولده: الشاعر حسين الظريفي، ولد بالأعظمية سنة ١٩٠٩. وعيّن مدرساً في البصرة (١٩٢٨)، لكنه انتمى في السنة التالية الى كلية الحقوق في بغداد وتخرّج فيها سنة ١٩٣٣. وعيّن حاكماً في المحاكم المدنية (١٩٣٥)، ثم انصرف الى مزاولة المحاماة.

من مؤلفاته: حاكم التحقيق (١٩٣٦) البيّنات العامة (١٩٤٥) في سبيل الوطن (مسرحية شعرية، ١٩٤٨) جميل صدقي الزهاوي في بعض مجالسه (شعر روائي). وله أيضاً: أناشيد (١٩٢٢)، ظرائف الأعظمي (١٩٢٥).

قال الظريفي من قصيدة له بعنوان «من وحي الفنّ».

للنفس في فنّ الغناء إذا وعت ... ما تشتهي من طاعم أو كاس

وإذا أمضّ الحزن في قلب امرىء ... واساه من حسن الغناء مواسي

ولطالما أحيا به ميت الهوى ... من كان قد واراه بالأرماس

وبه لدى الجُلّى يذبّ عن الحمى ... كالماء من حجر تفجّر قاس...

قلم الأديب كنغمة الشادي به ... ينجاب ما يضنيه من إيلاس

ويبثّ من مرّ الهوى حرّ الجوى ... وصنوف ما قاسى به ويقاسي

ولقد يبيت به الفتى وكأنه ... يحيا على عرس من الأعراس

كم لذة لي في الحياة غنمتها ... ويراعتي بيدي على قرطاسي

أملي عليها من بنات خواطري ... ما هنّ كالريحان أو كالآس

إنّي لأغفل عن حياتي ساعة ... فيها أعبّر عن مدى إحساسي

لي من بياني صورة ليست على ... شيء من الإغماض والإلباس

عبد الحميد عبادة

من الكتاب الباحثين، ولد في خانقين سنة ١٨٩١، واستقرّ في بغداد حيث توفي سنة ١٩٣٠. مال الى البحوث التاريخية والتحقيقات العمرانية شاباً وكتب مقالات في مجلة لغة العرب وغيرها من المجلات والصحف.

وألف كتاب منداييي أو الصابئة الأقدمين (١٩٢٧)، وترك مصنفات مخطوطة منها «العقد اللامع في ذكر الآثار والمساجد والجوامع»، و «شجرة الزيتون في نسبة آل السعدون».

قال عبد القادر البرّاك: «من يستعرض أمّهات المجلات العلمية والأدبية والتاريخية التي صدرت في العراق وبعض الأقطار العربية في أوائل القرن العشرين، يجدها حافلة بالعديد من المقالات والبحوث التاريخية القيّمة التي تحدّد مواقع بعض معالم الحضارة وتعرّف بالعديد من الملل والنحل والمعتقدات والآراء، للمؤرخ البغدادي المرحوم عبد الحميد عبادة، صاحب أهم مصدر عن تاريخ «الصابئة» ومعتقداتهم، لكونه قد كتبه بعد أن سكن في قراهم وعايش أقطابهم . . . » وقال البرّاك أن الدكتور مصطفى جواد كان يعتمد على آرائه فيما كان يكتبه عن خطط بغداد القديمة وغير ذلك من المواضيع.

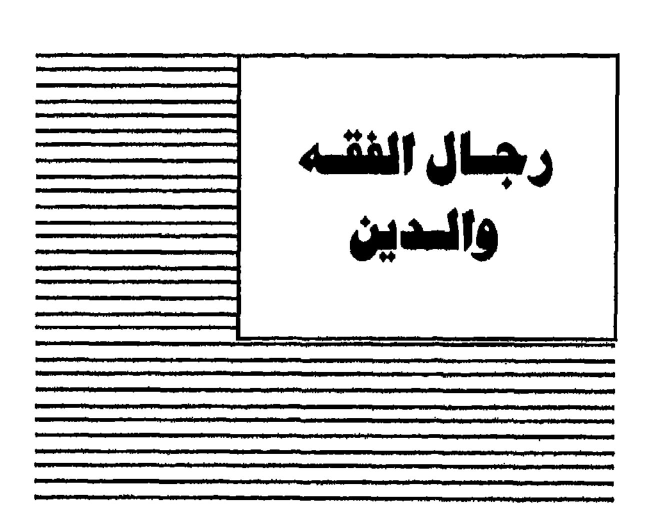
مير بصري

أعلام الأدب في العراق الحديث

الجُزءُ الثّاني

تقديم
د. جليل العطيّة

دار الحكمة


رجال الفقه
والدين

حسين الخليلي

من كبار مجتهدي الشيعة الإمامية، كان أبوه خليل بن علي بن إبراهيم بن محمد علي الطهراني يمارس الطب القديم، هاجر الى النجف في نحو سنة ١٨٠٠ وأسّس أسرة اشتهر أكثر أبنائها بالتطبيب، كما نبغ منها علماء دين منهم المولى علي بن خليل المومأ اليه (١٨١١ ـ ١٨٨٠) وأخوه المترجم.

ولد المرزا حسين الخليلي في النجف في نحو سنة ١٨٢١، ودرس على الشيخ محمد حسن صاحب الجواهر والشيخ مرتضى الأنصاري المتوفى سنة ١٨٦٤ وغيرهما. وبرّز في الفقه، وتصدّى للتدريس فاشتغل فيه عهداً طويلاً، وكان من تلامذته السيد حسن الصدر ومحمد تقي الحائري الشيرازي وأحمد ومحمد حسين آل كاشف الغطاء الخ. ووضع كتباً في الغصب والإجارة وبعض الشروح والتقريرات.

انتهت إليه زعامةالإمامية بعد وفاة المرزا محمد حسن الشيرازي سنة ١٨٩٥. وقد سعى في تشييد قناة تجلب الماء الى النجف ظلت تسقي البلد حتى طمست بعد عدة سنين. ومن آثاره أيضاً مدرستان دينيّتان في النجف وخان للمسافرين في الهندية. وقد توفي في الكوفة في ٥ تشرين الثاني ١٩٠٨.

كان حسين الخليلي من أركان النهضة الإيرانية مع المرزا الشيرازي وغيره من العلماء. وكان، كما وصفه بعض عارفيه، حلو الشمائل، عذب الكلام، أريحيّ الطبع، شديد الورع، معظماً للعلماء وأهل الدين. رثاه الشعراء فقال محمد حسن سميسم:

حديث الدهر أصدقه الفناء وأكذب ما ينمّقه البقاء

وقال عبد الحسين الحويزي:

عليك بناء الدين مارت جوانبه وبحر الندى والعلم غارت غواربه

وقال رضا الهندي:

حاولت نظم الرثّا فاستعصت الكلمُ، وهل لأهل النّهى بعد الحسين فم؟

محمّد حسن المامقاني

الفقيه الإمامي محمد حسن بن عبد الله المامَقَاني، ولد في مامقان المجاورة لمدينة تبريز الإيرانية سنة ١٨٢٢ . وشدّ الرحال الى كربلاء والنجف فدرس فيهما. وتنقل في أقطار كثيرة، ثم قضى نحبه في النجف في آذار ١٩٠٥ . وقد ألف كتباً، منها: ذرائع الأحلام في شرح شرائع الإسلام (في مجلدين)، غاية الآمال (في الفقه)، بشرى الوصول الى أسرار علم الأصول (في ثمانية أجزاء)، الخ.

عرف أيضاً باسم المغمغاني وكان معاصراً وصديقاً للشيخ محمد الشربياني، وكانت تصلهما الأموال الضخمة من أنحاء إيران والقفقاس فيوزعانها على طلبة العلم وذوي الحاجة ولا يستأثران بشيء منها سوى النزر اليسير.

محمّد طٰه نجف

الفقيه الإمامي محمّد طٰه بن مهدي بن محمد رضا التبريزي المعروف بمحمد طٰه نجف، من شيوخ المدرّسين، ولد ببلدة النجف سنة ١٨٢٥ ، ودرس على أئمة رجال عصره كعلي الخليلي ومحسن خنفر وغيرهما. كان طويل الباع في الفقه والأصول والحديث، تتلمذ عليه وأفاد منه الكثيرون.

وقد ألف كتباً في الفقه والتراجم، منها: حاشية على المعالم، الدعائم في الأصول، غناء المحصّلين، إحياء الموات في أحوال الرواة، الفوائد السنيّة والدرر النجفية (١٨٩٦) الإنصاف في مسائل الخلاف (١٨٩٧) نعم الزاد (١٨٩٧) كشف الحجاب (١٩٠٢) كشف الأستار (١٩٠٦) إتقان المقال في أحوال الرجال (١٩٢٢)، الخ.

كفّ بصره في أواخر عمره، وأدركه الحمام في ١٠ كانون الأول ١٩٠٥ .

توثّقت صلته بأدباء زمانه، فعزّاه الشاعر جعفر الحلّي بولد له احتسب به، وقال:

أرائد قومه اغتنم الرجوعا،	فريح الموت صوّحت الرّبيعا؟

وهي قصيدة طويلة تعدّ ٦٨ بيتاً يقول منها:

أبا المهديّ، كيف أقول صبراً	ولست أراك من قَدَرٍ جزوعا؟
لسان هُداك قد عزّاك عنّا	وكفّ تقاك كفكفت الدموعا
أصول الدَّوْح حالاها سواء	وإن جذّ الردى منها الفروعا
وليس يضير نور الشمس نجم	هوى من برج مطلعه وقوعا...

وتوفّي الشيخ محمد طه نجف فرثاه عبد المطّلب الحلّي ومحمد حسن أبو المحاسن

ومحمد رضا الشبيبي وسائر الشعراء. وقال الشيخ جواد الشبيبي:

محجّة الملّة البَيْضَا مطالعها ... لفقد شارعها سُدَّت شوارعها
هدّت مصانعها من بعد رافعها ... بهمّة تملأ الدّنيا صنائعها
وحوزة الدين لم تمنع جوانبها ... وقد أبيح لخطب الدهر مانعها

وقال الشيخ إبراهيم بن مهدي آل أطيمش (١٨٧٣ ـ ١٩٤١):

فهو الذي كانت مواهب فضله ... للناس كالأطواق في الأجياد
لمعت بأفق الفضل غرّ صفاته ... شهباً له الجَوْزَا من الحسّاد
فيه تزيّنت المنابر واغتدت ... من قبله مخضرّة الأعواد
وتدفقا، من علمه ونواله، ... بحران للطلاّب والوفّاد...

رضا الهمذاني

من فقهاء الإمامية الشيخ رضا بن محمد هادي الهمذاني، ولد في همذان سنة ١٨٢٥. وهاجر الى النجف فدرس على مشايخها كمرتضى الأنصاري ومحمد حسن الشيرازي.

أدركته الوفاة في سامّراء سنة ١٩٠٤.

وقد وضع مؤلفات، منها: مصباح الفقيه، حاشية على رسائل أستاذه الأنصاري (١٩٠٠)، كتاب الصلاة (١٩٢٩) العوائد الرضوية، الخ.

محمّد الشربياني

الشيخ محمد بن فضل بن عبد الرحمٰن الشربياني الفقيه الإمامي ولد سنة ١٨٣٢، وأقام في تبريز ثم انتقل الى النجف (١٨٥٧)، واتخذها له سكناً.

درس على السيد حسين الترك وأصبح من أئمة المدّرسين والمجتهدين. وقد ألف كتاباً في «أصول الفقه» وكتاب «المتاجر» في الفقه أيضاً الخ. وتوفي سنة ١٩٠٤.

وكان الشربياني الذي ينتسب الى قرية من نواحي تبريز يعرف بالفاضل. جرت له مطارحات أدبية مع الشاعر جعفر الحلّي الذي مدحه قائلاً:

محمّد الفاضل الميمون طالعه ... قد خصّص الله فيه العلم والعملا
الله قيّضه للناس يرشدهم ... حاشا الإله بأن يبقى الورى هملا

وداعبه بقوله:

للشربيـــــاني أصحـــــاب وتلمــــذة تجمّعــوا فــرقــاً مـن هــاهنــا وهنــا
مــا فيهمُ من لــه بــالعلم معــرفــة يكفيـك أفضل كـلّ الحاضريـن أنـــا!

وقد شـاد الشربياني مـدرسة في النجف عـرفت بـاسمه. وكان مـن أشهر تـلاميذه الشاعر جعفر الحلي الحسيني من آل كمال الدين (١٨٦١ ـ ١٨٩٧).

حرم الشيخ محمد الشربياني على الحجاج سلوك الطريق البري النجف ـ حائل لتكرر اعتـداء البدو على الحجيج، فـانقطع سلوك الطـريق ثـلاث سنوات، حتى تعهـد ابن الرشيد أمير حـائل بالمحافظة على أرواح الحجاج وأموالهم، فأفتى الشربيـاني باستئناف سلوك الطريق البري.

حسين النوري

الفقيه الإمامي الجعفري حسين بن محمّد تقي النوري ولد في قرية «يالو» من قرى نور في طبرستان سنـة ١٨٣٨. وقدم النجف فتصـدّى فيها للتأليف والتـدريس، وتوفيّ بها سنة ١٩٠٢.

من مصنفـاتـه: دار السلام فيما يتعلق بـالـرؤيـا والمنام (في جـزءين ١٨٨٨)، جنـة المأوى، كشف الأستـار، فصل الخطــاب في تحريف كتـاب ربّ الأربـاب (١٨٨١)، اللؤلؤ والمرجان في نقـد قراءة التعازي، مستدرك الوسائل في الفقـه (في ٣ أجزاء)، معالم العِبَر، النجم الثاقب، المولودية (شعر فارسي) الخ.

كان النوري مشغـوفاً بجمع الكتب واستنساخها، ذكـر علي الشرقي أنه أعياه طلب بعض الكتب، فعثر عليه اتفـاقاً في السوق وقد عرضته امـرأة للبيع. ولم يكن لديه المال لدفع الثمن، فخلع عبـاءته وسلّمها للمنـادي لبيعها في المزاد حتى تمكن من أداء ثمن الكتاب. وعاد به مسروراً الى داره وهو بدون عباءة!

وقـد روي عن جيمس لاكنجتن James Lackington (١٧٤٦ ــ ١٨١٥) الكتبي الانكليزي أنه ذهب الى السوق عشيّة عيد الميلاد، وفي جيبه بضعة دراهم، لشراء طعام العيد. لكنه وجـد كتاباً كان يريـد الحصول عليه معروضـاً للبيع، فنسي الطعام والعيد واشترى الكتاب بالمبلغ الزهيد الذي في يده وعاد به الى منزله فرحاً. وسألته زوجته: أين الطعام؟ فقـال: إن الطعام نأكله الليلة فيـذهب. وأنا اشتريت كتاباً نتمتع بلـذّته على مدى السنين.

وقال الامبراطور الروماني الفيلسوف مرقس اوريليوس (١٢١ ـ ١٨٠م) في خواطره: إنّ الرجل قـد لا يملك عباءة، والآخر قـد لا يملك كتابـاً في العالم، ولا يمنع ذلك أن يكون كلاهما فيلسوفاً.

وقد قال الشاعـر جابر الكاظمي، وهو الشيخ جابـر بن عبد الحسين من ربيعة نزار

(١٨٠٧ ـ ١٨٩٥) في الشيخ النوري :

ندب لديه الفضل ألقى رحله   وعنه طول الدهر لم يرتحلِ
آراؤه في العلم أنجم بها   للعلم يجلي كل ليل أليل

غلام رسول

العالم الشهير غلام رسول المولوي الهندي الأنصاري نزح الى بغداد وتولّى التدريس في جوامعها فطار صيته وتقاطر عليه طلاب العلم. تخرّج عليه عدد عديد من العلماء ورجال الدين، وفي مقدمتهم عبد الوهاب النائب وعباس حلمي القصاب ومحمد سعيد النقشبندي ويوسف العطاء وعبد الملك الشواف ونجم الدين الواعظ وقاسم القيسي.

ولمّا اختارت الحكومة العثمانية مدّرسين للألوية والأقضية سنة ١٨٩٢ لنشر لواءالدين وتثقيف الأهلين، اختير الشيخ غلام رسول مدرساً لقضاء مندلي لكنه استقال بعد أشهر قليلة، قائلاً: القرى تضيع العلم.

وعاد الى بغداد يواصل رسالته العلمية حتى قضى نحبه فيها في أول تموز ١٩١٢. وقد درّس ردحاً من الزمن في مسجد نعمان الباجه جي بجانب الرصافة.

ذكره ابراهيم الدروبي في كتابه «البغداديون: أخبارهم ومجالسهم» فأثنى عليه وقال إنه كان بارعاً في العلوم العقليّة على وجه التخصيص. وكانت حلقات دروسه في جانبي الرصافة والكرخ عامرة تقصدها نخبة ممتازة من طلبة العلم ولا سيّما مجلسه في جامع حبيب العجمي. وكان تلاميذه يتناوبون في خدمته لأنه كان غريباً لا أهل له.

وروى الدروبي أن الشيخ غلام رسول كان شديداً في محاربة البدع والخرافات: فقد علم أن بعض تلامذته يكتب الأدعية والرقى ويتعاطى الرمل والجفر وتفسير الرؤى والأحلام والكشف عن الغيب، فلم يكن منه إلاّ أن ثارت ثائرته فعنّف التلميذ المشعوذ وزجره وطرده من درسه.

وقد اشتهر الشيخ غلام رسول بتدريس الفلسفة الإسلامية. ذكر عبد الله عبد السلام، عضو محكمة التمييز العراقية الذي تتلمذ عليه في شبابه، أن شهرته قد طارت حتى بلغت مسامع الإمام محمد عبده مفتي الديار المصرية، فكلفه عن طريق أحد المصريين الذي اجتمع به في الاستانة، أن يشخص الى مصر لتدريس الفلسفة. لكن غلام رسول رفض الطلب لأسباب عائلية.

***

بهاء الحق

ومن علماء الهند الذين هاجروا الى بغداد وكان لهم شأن فيها الشيخ بهاء الحقّ ابن

الشيخ قادر بخش بن غلام محمد الأسدي نسباً. ولد سنة ١٨٤٠، و كان والده وجدّه من علماء الدين في الهند وسالكي الطريقة النقشبندية. وقد اتخذ بهاء الحق مقامه في بغداد وتولّى التدريس في المدرسة القادرية والمدرسة الأعظمية. وكان أستاذاً في علم الأصول والحديث والتفسير والكلام، على ما ذكره محمود شكري الألوسي في «المسك الأذفر».

وقد تخرّج عليه علماء كثيرون، وتوفي ببغداد في نحو سنة ١٨٨٣.

قال عبد الرحمن البناء يرثي الشيخ غلام رسول الهندي:

علم الكلام تنحى بعد مولاه ... وظل يلطم بالأيدي محياه
وهيئة الدين أضحت وهي باكية ... لما غدت لغة القرآن تنعاه
وأصبحت أربع التدريس مقفرة ... لما تلامذة الهندي قد تاهوا
العالم العامل الحبر التقي ومن ... بزهده شهد الاملاك والله

ورثاه إبراهيم منيب الباجه جي فقال:

أيها الموت، قد فجعت البرايا ... بهمام علومه لا تجارى
أيها الموت، قد فجعت البرايا ... بالتقيّ البرّ العفيف ازارا
كان بحراً من العلوم خضمّاً ... لا يرى العائمون فيه قرارا
يا غلام الرسول، ما أنت ميت، ... ليس ميتاً من خلّد الآثارا

أسعد الدوري

من علماء بغداد المشهورين في عصرهم أسعد الدوري، وهو السيد محمد أسعد بن جواد بن عبد الرحمن. أصل أسرته من الحجاز، وكانت تعرف بآل البعّاج، انتقلت إلى دير الزور، ثم نزح جدّه إلى بلدة الدور القريبة من سامراء.

ولد في الدور سنة ١٨٢٦ وتلقى فيها مبادىء دروسه. ثم جاء إلى بغداد ولازم الشيخ داود النقشبندي والمفتي محمد فيضي الزهاوي فأخذ عنهما.

وقد عيّن أميناً للفتوى وخطيباً في الحضرة الكيلانية سنة ١٨٧٠، وكان بعد ذلك مدرساً لمدينة تكريت. ونقل مدرساً لمدرسة نائلة خاتون في بغداد سنة ١٨٧٤.

وحج سنة ١٨٩٣ واجتمع بعلماء الحجاز، ومرّ بالشام، ثم قصد الحج مرة ثانية بعد سنتين. وواظب على التدريس، فتخرّج عليه كثير من أرباب العلم. وعمّر طويلاً حتى أدركه الحمام ببغداد في ٨ شباط ١٩٢٣.

ذكره محمد صالح السهروردي في «لبّ الألباب» فنعته بالورع والزهد، وقال إنه كان متضلّعاً من الفقه والأصول والحديث حتى لقّب بفقيه العراق، وله شعر رائق ومؤلفاته ذهبت بذهابه.

قاسم البياتي

الشيخ قاسم خير الدين ابن الشيخ محمد الحنفي البغدادي البياتي، من علماء بغداد ومتصوّفتها. درس على الشيخ عبد المحسن السهروردي الذي أجازه إجازة عامة في نحو سنة ١٨٦٤، وعلى الشيخ عيسى البندنيجي الذي أجازه سنة ١٨٥٩. ومن أساتذته الآخرين السيد شهاب الدين محمود الألوسي (أجازه بقراءة دلائل الخيرات سنة ١٨٤٨).

تولّى التدريس في جامع النعمانية وإقامة حلقات الذكر الصوفية في داره. ووضع مؤلفات في التصوف والوعظ وعلم الكلام. وأدركته الوفاة في بغداد سنة ١٩٠٧، فرثاه معروف الرصافي بقصيدة مطلعها:

على قاسمٍ شيخ الطريقة قد بكت — جواهر فضل ما لها الدَّهْرَ قاسمُ

بكاه التقى والعلم والحلم والنّهى — وحسن السجايا والعلى والمكارم...

وقال جميل صدقي الزهاوي:

كبير موت كبّار الأعاظِمْ — فإنّ بهم عماد الدين قائم

قضى، والهفتا، من كان يحيا — لتزكية النفوس من المآثم...

درس عليه الكثيرون منهم عبد الوهاب النائب ومحمد سعيد النقشبندي ويحيى الوتري وعلي الخوجة الخ.

محمد آل بحر العلوم الطباطبائي

الفقيه الإمامي محمّد بن محمد تقي بن رضا آل بحر العلوم الطباطبائي ينتهي نسبه الى جدّ الأسرة الحسنية العلوية السيد محمد مهدي (١٧٤٢ ـ ١٧٩٧) الشهير ببحر العلوم صاحب «المصابيح».

ولد محمد الطباطبائي سنة ١٨٤٥ بالنجف، وتتلمذ على علمائها وبلغ منزلة رفيعة في الزعامة الدينية. وقد ألف «الوجيزة» (١٩٠٦) و «بلغة الفقيه» (طبع سنة ١٩٦٨). وتوفي في النجف في ١٥ حزيران ١٩١٣.

كانت له مطارحات أدبية مع رجال عصره. وقد داعبه وصاحبه محمد بن مهدي

القزويني (المتوفّى سنة ١٩١٦)، داعبهما الشاعر جعفر الحلّي قائلاً:

شتّـــان بين محمّـــد ومحمّـــد: ذا طبطبـــائيّ وذا قـــزويني
أنـــا أعـــرف الـــرجل المهـــذّب منهما بـــالله لا تسأل عـــن التعيين

وكان للسيد محمد بحر العلوم خزانة كتب عامرة بالمطبوعات ونادر المخطوطات.

وقال جعفر الحلي أيضاً يهنىء محمد الطباطبائي حين قدومه من الحجّ:

حيّيت، يـــا ابـن العمّ، مـن قـــادم عَـــوْدك عيـــد لبني هـــاشم
أضحى بك العـــالم ذا بهجـــة، يـــا حجّـــة الله على العـــالم
قمت بأعبـــاء العلى نـــاهضـــاً ونبت في الأمـــر عن القـــائم..

وقال فيه أيضاً:

عـــاد الى قبيلـــه محمّـــد بل عـــادت الـــروح الى الأشبـــاح
حيّيت، يـــا من كفّـــه عن الحَيَـــا نـــائبـــة في الأعصر الشِّحـــاح
بـــاهى بك العـــراق إذ وطـأتـــه حيث أبـــوك سيّـــد البطـــاح...

ومدحه الشاعر أحمد بن راضي القزويني (١٨٤٤ ـ ١٨٩٧) فقال:

محمّـــد مـن ينمى لـــه كـلّ ســـؤدد إذا مـــا احتبى في مجلس النهي والأمـــر
قـــرنت العلى بـــالعلم والحلم والنـــدى وشتّـــتّ شمل المال والنعـم الـــوفـــر
وبـذّهت مـا أضحى مـن الـرمس عـافيـاً وقـرّبت مـا أمسى بعيـداً عن الفكـــر
أرى آل بحـر العلم فـــاقـــوا الـــورى كما تفـوق الليـــالي كلها ليلـــةُ القـــدر...

وقال فيه أيضاً:

يـــا ربيـب العلى وربّ الأيـــادي وعميـــد الـــورى على الإطـــلاق
كـم بأفـق العلى فضـــائل ســـارت لـك مسرى النجـــوم في الآفـــاق
علـم مفـــرد بجمـع علـــوم قصرت عنـــه ألسـن الحذّاق
رافل في غـلائل الحسب الـوضّـاح (م) أو في مكـــارم الأخـــلاق

حسّون البُراقي

وهو حسين بن أحمد بن الحسين الحسني المعروف بحسّون البراقي نسبة الى محلّة البُرَاق في النجف، ولد بها سنة ١٨٤٥. كان قويّ الحافظة، كثير التتبّع، خلّف كتباً تاريخية في لغة عامية، منها: تاريخ الكـوفة (١٩٣٨) بهجة المؤمنين في أحوال الأولين والآخرين (تـاريخ عـام في أربعـة مجلـدات ضخمـة)، تـاريخ الحيرة، تـاريخ النجف، فضل

كربلاء، مشاهير الرجال، الخ.
وقد توفي في بعض قرى الحيرة سنة ١٩١٤.

مصطفى نور الدين الواعظ

مصطفى نور الدين بن محمد أمين الشهير بالواعظ ابن محمد بن جعفر الأدهمي، ولد لأسرة دينية معروفة ببغداد في ٢٦ شباط ١٨٤٧، فأرخ ولادته الشاعر عبد الباقي العمري قائلاً:

وشرّف الزورا فقلت: أرّخوا شرف أحياء العراق المصطفى

توفي والده وهو في العاشرة من عمره، فكفله عمّه محمد سعيد. ودرس علوم العربية والدين على علماء عصره كالشيخ عبد السلام مدرس الحضرة القادرية والشيخ بهاء الحق الهندي والشيخ داود النقشبندي، فنصب مدرساً في المدرسة الخاتونية (١٨٦٨). ثم عيّن مدرساً وواعظاً بالبصرة سنة ١٨٧٢ وعضواً بمحكمة التمييز فيها (١٨٧٤)، وكان بعد ذلك رئيساً لمحكمة جزاء البصرة (١٨٨٠ ــ ٨٢). وعيّن مفتياً للحلة في أيلول ١٨٨٣، فقضى في هذا المنصب ربع قرن وكان في أوقات مختلفة خلال تلك المدة أيضاً مديراً للأوقاف ومديراً للمعارف ووكيل القاضي ووكيل قائمقام السماوة ووكيل متصرف لواء الديوانية (١٩٠٣) الخ.

ولما أعلن الدستور العثماني انتخب نائباً عن الديوانية في مجلس المبعوثين (تشرين الثاني ١٩٠٨) حتى حلّ الدورة النيابية في أوائل سنة ١٩١٢.

وضع مصطفى الواعظ مصنفات دينية منها: عنوان الهداية في ردع أرباب الغواية، البرهان الجليّ في الفرق ين الرسول والنبيّ والوليّ، الدرّ النضيد في أحكام الاجتهاد والتقليد، كشف الدستور عن مطالع البدور الخ. وله أيضاً: الروض الأزهر (وقد أكمله ونشره ولده إبراهيم الواعظ سنة ١٩٤٨).

وتوفي في بغداد في ٣ حزيران ١٩١٣.

وقد كتب ولده إسماعيل الواعظ في كتاب (الروض الأزهر) يقول إنّ السيد مصطفى الواعظ كان متمسّكاً بالشريعة الغراء ذاباً عنها محامياً لها. وقد وقف من جميل صدقي الزهاوي حين نشر مقالته عن المرأة في جريدة المؤيد القاهرية سنة ١٩١٠ موقفاً شديداً، فذهب الى الوالي ناظم باشا وطلب عزله من وظيفته.

رثاه الشعراء، منهم رشيد الهاشمي الذي قال:

كل امرىء بأماني الدهر مشغول لا بدّ، لا بدّ أن يغتاله غول...
يا راحلاً طالما أبكى العباد دماً بكتك والله آيات وتنزيل
بكاك، يا مصطفى، الدين الحنيف كما بكاك علمك معقول ومنقول

ولده: إسماعيل حقي بن مصطفى الواعظ (١٨٧٩ ـ ١٩٤٤) كان مفتياً للديوانية (١٩٠٩ ـ ١٧) ومدير أيتام بغداد (١٩٢٢).

علي كاشف الغطاء

الشيخ علي بن محمّد رضا بن موسى بن جعفر كاشف الغطاء (المتوفّى سنة ١٨١٣) من رجال الدين والفضل، ولد بالنجف سنة ١٨٥٠. وقد رحل الى إيران فأقام سبع سنين متنقلاً بين أصفهان وشيراز وخراسان وطهران. وعاد الى العراق واتّصل بالوالي سرّي باشا (١٨٩٠) فقدّر فضله وعرف منزلته. وسافر الشيخ علي بعد ذلك الى استانبول ولبث فيها زهاء أربعة أعوام، وزار الحجاز وسورية والهند.

ألّف كتباً منها «الحصون المنيعة في طبقات الشيعة» في عشرة أجزاء و «سمير الحاضر» في خمسة أجزاء. وصنّف مجموعة بعنوان «النوافح العنبريّة» قرّظها الشاعر جعفر الحلّي قائلاً:

هـٰذي النوافح فانشق طيبها العَطِرا ... واستَجْلِها سترى ألفاظها زُهُرا
من كلّ نظم يُرَى كالعقد منتظماً ... فيها ونثر يرى كالدرّ منتثرا...

وكتب إليه جعفر الحلّي أيضاً الى استانبول:

سلام حبته الطيب منك الشمائلُ ... ومدح عليه من علاك دلائل
أسائل عنك البرق إن لاح ومضه ... فتسبقه منّي الدموع الهوامل
وأنتشق الأرواح مهما تنسّمت ... فتذهب في روحي الصَّبَا والأصائل
عليك سلام الله ما هبّت الصَّبَا ... وما سجعت فوق الغصون العنادل...

وجمع خزانة تضمّ كتباً ومخطوطات نادرة. أدركه الحمام في النجف في ١٩ أيار ١٩٣١. وعرف من أبنائه أحمد ومحمد حسين آل كاشف الغطاء.

أما ابنه الشيخ أحمد بن علي فولد بالنجف سنة ١٨٧٦ ودرس في سامرّاء وفي مسقط رأسه، وأخذ الفقه عن الشيخ الشيرازي ورضا الهمداني ومحمد كاظم الطباطبائي وغيرهم. وعرف عالماً فقيهاً تقدّم في مراحل الزعامة الدينية ومراتب الاجتهاد، لولا أن المنيّة اختارته سنة ١٩٢٦، وهو في بغداد. ألف: «سفينة النجاة» في الفقه و «قلائد الدّرر» و «أحسن الحديث في الوصايا والمواريث».

وعرف من آل كاشف الغطاء أيضاً الشيخ هادي بن عبّاس بن علي (١٨٧٢ ـ ١٩٤٢)، وكان فاضلاً شاعراً. ولد بالنجف وألف: «أوجز الأنباء في مقتل سيّد الشهداء»، مستدرك نهج البلاغة (١٩٣٦) المقبولة الحسينيّة (١٩٢٤)، مناسك الحج (١٩٢٤) الخ.

وكان للشيخ هـادي مطارحات شعريـة مع أدباء عصره كالسيد جعفـر الحلي ورضا الأصفهاني وجواد الشبيبي .

وقد كـان لآل كاشف الغطاء مكانـة مرموقـة مند عهد الشيخ جعفر، وتـوسّط ولده الشيخ موسى في الصلح بين الوالي داود باشا والشـاهزادة محمّد علي ميرزا القاجاري وليّ العهد الإيراني سنة ١٨٢١ ، فأثمر مسعاه ثمراً طيباً ، ولقّب بمصلح الدولتين .

محمد سعيد الزهاوي

ابن مفتي بغداد محمد أمين فيضي الزهاوي . وقـد ولد أبوه محمد فيضي في بلدة زهاو سنـة ١٧٩٧ . وجـاء الى بغـداد فعيّن مفتياً سنـة ١٨٥٤ ، وقـال في ذلك عبـد البـاقي العمري :

قـد قيل لي، إذ رحـت أنشـد عنـدمـا ... شـاهـدت دين محمّـد يتجـدّد ،

في مـذهب النعمان في الـزوراء قـد ... أفتى الإمـام الشـافعيّ محمّـد

وتوفي في ١٥ كانون الأول ١٨٩٠ . وقد اشتهـر الكثير من أبنائه ، منهم الشاعر جميل صدقي .

ولـد محمد سعيـد الزهـاوي في بغداد سنـة ١٨٥٢ ودرس على أبيه . ثم عيّن عضـواً بمحكمـة الاستئناف سنـة ١٨٧٦ ، وأصبح نائبـاً لرئيسهـا (١٨٨٣) . ولما توفي والـده اختير مفتياً لبغداد في محله (شبـاط ١٨٩١) فشغل هذا المنصب الى أيار ١٩١٦ . وتولّى خـلال تلك المدة، علاوة على منصبه، وكـالة القـاضي ومديـريـة الأوقاف ومـديرية المعارف، وقام بالتدريس في مدرسة السليمانية .

وعيّن بعـد الاحتـلال الانكليزي رئيسـاً لمجلس التمييـز الشرعي (١٩١٨). وتـوفي ببغداد في ١٣ أيار ١٩٢١ .

وضع مؤلفـات في علم الكلام . قال محمد صـالح السهروردي إنه كان عـالماً فاضلاً ديّناً تقياً صالحاً محبوباً لدى الأمة ، كثير الصلاة وقراءة القرآن .

محمد سعيد النقشبندي

الشيخ محمـد سعيد بن عبـد القادر بن عبـد الغني العبيدي ، ولـد في بغداد في ٢٩ كـانون الثـاني ١٨٦١ ودرس على علمائهـا كالمفتي محمـد فيضي الـزهاوي والشيخ عبـد الوهـاب النائب أخيه الكبير وعثمان الـرضواني والشيخ داود النقشبندي ومحمـد الهندي المولوي . ومال الى التصوف فاعتنق الطريقة النقشبندية وعرف بها .

سافر الى الحجاز حاجاً سنة ١٨٩٠، ثم قصد الاستانة سنة ١٨٩٤ فاجتمع بالسلطان عبد الحميد الثاني وحصل منه على أمر ببناء مدرسة دينية في سامراء. وقد قام بتعمير تلك المدرسة ودرّس فيها، ثم نقل مدرساً وواعظاً بجامع الإمام الأعظم (١٨٩٨). وعيّن شيخاً للإرشاد في التكية الخالدية سنة ١٩١٨. وكانت له مساع وطنية حميدة في عهد الترك أدّت الى توقيفه سنة ١٩١٣، وبعد ذلك في زمن الاحتلال البريطاني ولا سيّما في ثورة ١٩٢٠.

وتوفي ببغداد في ١٧ أيلول ١٩٢٠، فرثاه الشعراء جميل صدقي الزهاوي ونعمان الأعظمي وعبد الرحمن البناء وغيرهم.

قال الزهاوي:

أصبح الشيخ سعيد	راحلاً ليس يعود
سار ينأى عن ذويه	رجل الفضل الوحيد
فبكاه العلم والإرشاد	والرأي السديد...

وقال البناء:

لمّا توفي في العراق سعيد	كادت له أرض العراق تميد
وجرت دموع المسلمين لفقده	من حيث بات العلم وهو فقيد

وله تصانيف عديدة منها: النفحات القدسية في تبرئة الصوفية، والعارف في أسرار اللطائف، ونخبة الفكر فيما جرى في السفر، وغيرها من الكتب الدينية والصوفية والشروح والردود.

ومن شعره الصوفي:

أرى حبكم ديني وقوتي وقوّتي	فإن تهجروني فالصدود هو الوصل
فهجركُمُ والوصل عندي واحد	علمت يقيناً أن حكمكمُ الفصل
وإني وحق الحب فيكم معذب	وتعذيبكم عذب إذا كان لي نهل
إذا ظهرت شمس الوجود بأفقنا	تفانت لها الأضواء وانمحق الكلّ

ولده: الشيخ الأنيق بهاء الدين سعيد النقشبندي، ولد في بغداد سنة ١٨٩٦ وتوفي بها في ٩ شباط ١٩٤٩. كان عالماً فاضلاً، تولّى نيابة رئاسة جمعية الهداية الإسلامية ووضع بحوثاً ومقالات دينية واجتماعية.

درس على والده وعمّه عبد الوهاب النائب وعيّن مدرساً لجامع الفضل سنة ١٩١٩، . وكان له نشاط في الحركة الوطنية. ثم خلف أباه في التدريس بجامع الإمام الأعظم. وعيّن وكيلاً لعميد دار العلوم في الأعظمية (حزيران ١٩٤٠). وانتخب نائباً عن لواء ديالى (١٩٣٠) فنائباً عن الديوانية (كانون الثاني ١٩٣٤). وأعيد انتخابه نائباً

عن ديالى (كانـون الأول ١٩٣٤) وآب ١٩٣٥ وحزيران ١٩٣٩ وتشرين الأول ١٩٤٣ . وانتخب نائباً عن بغداد في آذار ١٩٤٧ الى شباط ١٩٤٨ .

وصفه خالد الدرّة في مجلة «الوادي» فقال: «عطور فوّاحة تنبعث من جبّته المكوّاة لا يستغني عنها المجلس، وابتسامات عذاب يوزعها على بعض النواب . . . ونبرات حلوة يطلقهـا لا كخطيب كما يأمل الناس ذلك منـه، بل إشـاعات يـروّجها بين النـواب في داخل المجلس وفي خـارجه . . . إنـه لا يفـرّق بين أن يكون في صـالون الجمعـة في دار الدفتري أو في ندوة مجلس النواب . وهو ظريف على كل حال . . .».

وكان بهاء الدين في الثلاثينات ركناً من الثـلاثيّ المؤيّد لنوري السعيد مع الدكتورين فائق شاكر وسامي شوكت .

الشيخ محمد سعيد النقشبندي

ألف بعد أشهـر من قيام الدستـور التركي سنة ١٩٠٨ حزب المشور لإعـادة أحكام الشريعة الإسـلامية ومناهضة الاتحاديين . وقـد تولى رئاسته، وكان من أعضـائه الفريق كاظم باشا ومحمـد فاضل باشا الداغستاني والسيد عبـد الرحمن النقيب والسيد عبد الله والسيـد محمـود من آل النقيب، ومن آل الجميل عيسى وفخـري وعبد الـرحمن، وعبـد الرحمن باشا الحيدري وجميل الخطيب أمين الإدارة وعطاء الخطيب وغيرهم .

لكن الحزب انحلّ في السنة التالية بعد فشل الثورة الرجعية .

وشكل النقشبندي سنة ١٩١٤ حـزباً سرياً لبثّ الفكرة العربيـة، وكان هذا الحزب وليد فكرة نوري السعيد حينما فرّ من استانبول .

حسـن الصـدر

السيد حسن الصدر من أئمّة رجال الـدين في عصره، وهو ابن هادي بن محمد علي بن صالح بن محمـد الحسيني النسب العامليّ الأصل . ولـد في الكاظمية في ٣ حـزيران ١٨٥٦، ودرس على أبيه وشيـوخ بلده . ثم شـدّ الرحال الى سـامراء وتتلمـذ على الامام محمد حسن الشيرازي (١٨١٥ ـ ١٨٩٤).

وعاد الى الكـاظمية منصرفاً الى التأليف والتـدريس . وكان لـه مقام رفيع، زاره أمين الريحاني في شيخوختـه فوصفه في كتابـه «ملوك العرب»، قال: «قـد زرت السيد حسن صـدر الدين في بيتـه بـالكـاظمية، فألفيتـه رجـلاً عظيم الخَلْق والخُلُق، ذا جبين رفيع وضّاح، ولحية كثّة بيضاء، وكلمة نبويـة . له عينان هما جمرتان فوق خدين هما وردتان . عريض الكتف، طويل القـامة، مفتول الساعد . وهـو يعتم بعمّة سوداء كبيرة ويلبس

قميصاً مكشوف الصدر رحب الأردان، فيظهر ساعده عند الإشارة في الحديث. ما رأيت في رحلتي العربية كلها من أعاد إليّ ذكر الأنبياء كما يصورهم التاريخ ويمثلهم الشعراء والفنانون مثل هذا الرجل الشيعي العامليّ الكبير، وما أجمل ما يعيش فيه من البساطة والتقشّف . . . وعندما رأيته جالساً على حصير في غرفة ليس فيها غير الحصير وبضعة مساند، وقد كنت علمت أن لفتواه أكثر من مليوني سميع مطيع، وإن ملايين من الروبيّات تجيئه من المؤمنين في الهند وإيران ليصرفها في سبيل البرّ والإحسان، وأنه مع ذلك يعيش زاهداً متقشّفاً أكبرت الرجل أيّما إكبار. . . ».

وقد وضع السيد حسن الصدر مؤلفات عديدة بقي معظمها مخطوطاً، منها: تأسيس الشيعة الكرام لعلوم الإسلام (طبع ١٩٥١) الشيعة وفنون الإسلام (١٩١٣) تكملة أمل الآمل في علماء جبل عامل (٣ أجزاء)، نزهة أهل الحرمين (١٩٣٥) مجالس المؤمنين، تعريف الجنان في حقوق الإخوان، البراهين الجليّة في تصديق علماء الأشعرية، الدرر الموسوية، وفيات الأعلام من الشيعة الكرام، سبيل الصالحين، رسالة في الردّ على الوهابية، عيون الرجال، نهاية الدراية (١٩٠٥) الخ.

وقد توفي بالكاظمية في ١٢ حزيران ١٩٣٥.

الشيخ إبراهيم الراوي

العالم الزاهد الشيخ إبراهيم بن محمّد بن عبد الله بن أحمد بن رجب الرفاعي الراوي ولد في بلدة راوة سنة ١٨٦٠، وكان أبوه الشيخ محمّد مفتياً في عنة. ودرس علوم العربية والدين، ثم شدّ الرحال الى بغداد سنة ١٨٧٥، ولازم شيوخ العلم فيها كالشيخ داود النقشبندي وعلي الخوجة.

وقصد الموصل فأخذ عن عبد الله الفيضي ويحيى خضر وغيرهما وعاد الى بغداد. ومضى سنة ١٨٨١ الى الشام وقرأ الحديث على الشيخ بدر الدين الحسني (١٨٥١ ـ ١٩٣٥)، ثم عاد الى بغداد وأتم دراسته على الشيخ عبد الوهاب النائب.

وسافر الى الاستانة لأول مرة في أيلول ١٨٨٧ فلقي الترحيب والاكرام من الشيخ محمد أبي الهدى الصيادي الرفاعي (١٨٥٠ ـ ١٩٠٩).

عيّن مدرساً في جامع السيد سلطان علي ببغداد، ونال أوسمة ورتباً من الحكومة العثمانية. ووضع مؤلفات، منها: الطريقة الرفاعية، الأجوبة العقليّة (١٩٢٨) بلوغ الأرب في ترجمة الشيخ رجب الراوي الرفاعي (١٩١٢) النفحة المسكيّة، سور الشريعة، الأوراق البغدادية في الحوادث النجدية (١٩٢٧)، اللمعات الفريدة في المسائل المفيدة، داعي الرشاد الى سبيل الاتحاد (١٩٣١) الفلسفة الاسلامية في إثبات الحقانية (١٩٣٢) الخ.

توفي الشيخ إبراهيم الراوي ببغداد في ٢ كانون الأول ١٩٤٥ . وقد كان صاحب السّجادة الرفاعية، عالماً متصوّفاً جليل القدر متسامحاً واسع الأفق. وصفه محمد صالح السهروردي فقال إنه كان متخلّقاً بأخلاق السّلف الصالح، كثير العبادة والصيام، حليماً واسع الصدر، مجبولاً على الكرم، يجلس مع الناس كأحدهم، يدعو الناس الى الصلاح والمحبة والولاء. . . كان أحمر الوجه أبيضه، أشهل العينين، خفيف الشفتين، لا هو بالقصير ولا الطويل، وليس بملتحم بل وسطاً في ذلك، ذا بشاشة وطلاقة وجه، ليّن العريكة، سالم السرّ والسريرة.

وله شعر، منه قوله في الشعر والشعراء:

مقال صحيح: إنّ في الشعر حكمة، ... وما كل شعر في الحقيقة محكم
وإن قيل في التنزيل قد جاء ذمّه، ... فقد جاء فيه مدحه فتوسّموا. . .

وقال فيه معروف الرصافي:

للسيد الراويّ إبراهيما ... فضل أظلّ الخافقين عميما
ومناقب لهج الرواة بذكرها ... وبها استحقّ من الورى تكريما
شيخ إذا جالسته في مجلس ... جالست منه مرشداً وحكيما
وإذا نظرت لشخصه متأمّلاً ... أحسست فيك لشخصه تعظيما
داوى قلوب ملازميه بهديه ... فأصحّ منها ما رآه سقيما. . .

وقال رفائيل بطّي:

عاش الشيخ الجليل لنشر دين الله وخدمة الشعب وإعلاء منار الحق والدعوة الى الصراط المستقيم وإرشاد الأمة في ما يقوّي إيمانها وينفعها في دنياها ويزيد في المجتمع الألفة والاخاء والتضامن. . .

من شعر الشيخ ابراهيم الراوي

قال في مدح سلاطين آل عثمان:

ملوك بني عثمان ألوية الحمد ... لهم فوق هامات العلى طالع السّعد
لقد عظموا في صولة الحقّ واعتلوا ... منار فخار دونه رتب المجد
وقاموا بأعباء الخلافة مثلما ... أقاموا شراع الدين بالحزم والجدّ

وقال:

ربِّ، إني قد امتلأتُ كروبا ... لذنوب ملأت منها جيوبا
قيّدتني حبائل الوهم حتّى ... تركتني عن النّهى محجوبا

حسنـــاتي أخـــالها سيّئـــات لقصـوري وحسن حـالي عيـوبـا
فـإل الله أشتكـي ســوء حـــالي والى بـــابـــه أتيتُ منيبـا
وعلى فضلــه عقــدت رجـائي والتجـائي، حـاشـا لـه أن أخيبـا

وقال:

خلِّ المطيّ يشـوقهـا صـوت الحِدا ويسـوقهـا ويقـودهـا رجع الصدى
ودعِ الجيـاد تقـدّ أفـلاذ الحصى وتمدّ للجـوزا، إذا تعـدو، يـدا
وإذا بـدت أعـلام أمّ عبيـدة فـارفق بها فلقـد بلغت المقصـدا
وانـزل، هـديت، وقل لها: هـذا الذي أضحى بأم عبيـدة متـوسّـدا
هـذا مقـام الغـوث أحمد قـد بـدا ومنـاره العـالي الـذي قـد شيّـدا
وقبـابـه الشمّ التي قـد أشرقت يحكي الـلآلىء حسنهـا والعَسْجَـدا

وقال:

حبّـي لشيخـي حبّـي لم يحوه غير قلبـي
وإنني عبـد رقٍّ لـلأمـر منـه ألبّي
لا أستفيـق غـرامـاً في حبّـه طـول دأبي
ومـا سرى منـه سرّ إلاّ أهيـم بجـذب. . .

الشيخ محسن الراوي

ذكر السر جـون غلوب، المعروف باسم غلـوب باشا، في كتابه «مغامرات عـربية» الشيخ محسن الراوي أخا الشيخ إبراهيم.

كان غلوب ضابطاً سياسياً في لواء الدليم سنة ١٩٢٣، فزار عنة وراوة. قال إن راوة تقع على شـاطىء الفرات الشرقي مقـابل عنة، وهي معـزولة عن العالم وعـن التجارة، وأهلها يعيشون من المتاجرة مع شمّر وقبائل الجزيرة الجفاة. وقال انه زار كبير علماء راوة الشيخ محسن في دار ضيافتـه القائمة في درب ضيق والمفتوحة أبـوابها ليل نهار لكل غاد ورائح. وقد فرش صحن الـدار بالسجّاد الخشن وغلت أباريق القهـوة على النار. زهد الشيخ في الدنيا، فهو لا يملك شيئاً من متاعهـا، لكن الورعين من أتباعه يأتون بهدايا الدقيق والقهوة. . .

وجاء الشيخ فجلس أمداً قصيراً، لكنه لم يكـد يتكلم. ويدلّ مظهره على شيخوخة متقدمة ضعيف البنية، أبيض الإهاب كالرق الجاف. وهو يسبح في ماء الفرات في فجر كل يوم حتى في أيـام الشتاء القارسـة. وقال: لعلّ هـذا القدّيس المسلم يشبه الـرهبان

المسيحيين القدماء الذين كانوا يعتزلون العالم ليعيشوا في الصحراء، منصرفين إلى الله تعالى.

وقال غلوب إنه علم ان فرقة من رعاة الغنم الرحالين قد نزلت في الصحراء على مسافة أميال غربيّ عنة، فركب مع تابعه علي البونس لزيارتها وقضاء الليل في مضاربها. ووجد جماعة من الدراويش أيضاً حلّوا ضيوفاً على الفرقة، وهم سوريون من الخابور يعرفون باسم «أولاد الشيخ عيسى».

ولما فرغ الجمع من تناول العشاء، أحيى الدراويش حفلة ذكر، وأخذوا يرتلون الأذكار ويضربون على الطبول. بدأوا بهدوء، ثم اشتدت الحماسة وارتفعت الأصوات. وقام أحد الدراويش حاملاً بيده سفّوداً من الحديد المصقول، فتح قميصه وتحسّس المكان الملائم في صدره وأدخل فيه رأس السفّود بدقة حتى خرج من ظهره. وفي خلال ذلك حمي وطيس الضرب والترتيل واستولى على الجمع هيجان شديد، وجاء بعد ذلك درويش آخر فسحب السفّود بلطف قليلاً قليلاً حتى أخرجه من صدر الرجل الذي جلس يستعيد أنفاسه ويحتسي القهوة.

الشيخ شكر أحمد

الشيخ شكر الله الشيخ أحمد قاضي بغداد الجعفري ولد في بغداد سنة ١٨٦٨.

وقصد النجف فدرس الفقه والعلوم العربية على الشيخ محمد طه نجف ومحمد حسين الكاظمي وغيرهما. ثم عاد إلى مسقط رأسه وانقطع إلى الإرشاد والتعليم بجانب الكرخ. وذاع صيته وكثر طلابه، فانتقل إلى جامع المصلوب في جانب الرصافة يواصل رسالته الثقافية. وكان أحد الساعين لتأسيس المدرسة الجعفرية الأهلية سنة ١٩٠٨، فاختير مديراً لها.

وعيّن قاضياً جعفرياً لبغداد في شباط ١٩١٨، ثم نقل عضواً بمجلس التمييز الشرعي في آب ١٩٢٣. وتوفي في ١٥ نيسان ١٩٣٨.

قال خيري العمري: «وقد احتّل الشيخ شكر بمتانة خلقه وهدوء طبعه منزلة في قلوب الناس، وظفر بتجّرده ووقاره باحترامهم، فكان يتميّز بوجه صبوح أقرب إلى الحمرة وقامة معتدلة في الطول ولحية خفيفة شقراء وصوت هادىء النبرات تتخلّله خنّة واضحة».

الشيخ عبد الكريم الجزائري

المجتهد العالم الأديب الشيخ عبد الكريم الجزائري من زعماء الدين في النجف الأشرف حيث ولد سنة ١٨٧٢. وهو ابن الشيخ علي المتوفى سنة ١٨٨٥ ابن كاظم بن

جعفر بن حسين بن محمد بن الشيخ أحمد الأسدي (المتوفى سنة ١٧٣٨) صاحب كتاب آيات الأحكام ورأس الأسرة .

درس عبدالكريم الجزائري على فضلاء عصره كالشيخ حسن الجواهري والشيخ محمد طه نجف وشيخ الشريعة الاصفهاني والسيد محمد كاظم صاحب العروة الوثقى . ثم تصدّى للتدريس ونال مكانة سامية في العلم والاجتهاد . وقد ساهم في الجهاد خلال الحرب العظمى الاولى وحارب مع الجيش التركي في الحدود الإيرانية وجبهة الحويزة ، ثم اشترك في الثورة العراقية وكان له فيها شأن مرموق .

دعي إلى تقلّد وزارة المعارف في الوزارة النقيبية الثانية (١٠ ايلول ١٩٢١)، لكنه اعتذر عن قبولها فأسندت مهامّها إلى محمد علي هبة الدين الشهرستاني .

وله مصنفات منها : تعليق على مكاسب الأنصاري ، وتعليق على كتاب الرياض للسيد المجاهد ، وشرح على مباحث الظنّ والقطع من رسائل الشيخ الأنصاري ، وشرح على العروة الوثقى ، الخ .

قرض الشعر في شبابه ، فقال يرثي الميرزا حسن الشيرازي المتوفى سنة ١٨٩٤ :

مصابك طبقّ الدنيا مصابا ورزؤك هوّن النُّوب الصعابا

ونظم في أغراض اخرى كالمدح والغزل والتهنئة .

وقال جعفر الخليلي ان الشيخ عبد الكريم الجزائري كان في شبابه من اعضاء حلقة أدبية ضمّت جواد الشبيبي وجعفر الحلي وباقر الهندي وغيرهم ، فكانوا يقرضون الشعر ويتطارحون النكت والفكاهات .

وتوفي في النجف في ٨ تموز ١٩٦٢ .

قال محمد رضا الشبيبي إن الشيخ عبد الكريم الجزائري كان من الأقطاب الذين دارت عليهم رحى الثورة العراقية سنة ١٩٢٠ ، وكان عضداً اعتضد به الثوار ، وعوناً لكبار العلماء الذين صدرت عنهم الأحكام المعروفة في وجوب الدفاع عن حوزة البلاد وكرامتها وتحقيق حريتها وسيادتها .

محمد جواد الجزائري

العالم النجفي محمد جواد بن الشيخ علي الجزائري ، وهو أخو الشيخ عبد الكريم ، ولد بالنجف في ١٦ شباط ١٨٨١ وتخرج على علمائها . وكان من زعماء ثورة النجف سنة ١٩١٨ ، قبض عليه عند خمود الثورة في نيسان ١٩١٨ وحكم عليه بالإعدام . لكن سمح له ولزميله محمد علي بحر العلوم بالشخوص إلى المحمّرة بوساطة الشيخ خزعل خان أمير عربستان .

وأذن له بالعودة بعد سنة وعشرة أشهر (آذار ١٩٢٠).

كان شاعراً، قال من قصيدة له وهو معتقل في سجن بغداد:

مددنا بصائرنا لا العيونا وفزنا غداة عشقنا المنونا
عشقنا المنون وهمنا بها وعفنا أباطحنا والحجونا

ونظم «حلّ الطلاسم» (١٩٤٦) معارضاً طلاسم إيليا أبي ماضي.

أدركته الوفاة في النجف في ٢٣ نيسان ١٩٥٩.

عارض محمد جواد الجزائري «طلاسم» ايليا أبي ماضي الشهيرة التي يشكّك فيها بالوجود ويقول:

كيف جئتُ، كيف أبصرت طريقي؟
لست أدري

فردّ عليه الجزائري بقصيدته «حلّ الطلاسم» مجيباً على «لا أدرية» أبي ماضي بـ «أنا أدري، أنا أدري».

ولم يكن من علي الشرقي الاّ أن نظم أبياتاً يسخر فيها من الجزائري ختمها بقوله:

أنت مجنون ولكن لست تدري،
أنا أدري!

وله أيضاً من المؤلفات: الآراء والحكم، وفلسفة الإمام الصادق (١٩٥٢).

قال جعفر باقر آل محبوبة إن الشيخ محمد جواد الجزائري ضليع بالعلوم العربية والفلسفة الإسلامية، وقد كان رجلاً صريحاً في القول والعمل، ذا شمم عربي وروح إسلامي، ساءه أن يرى وطنه يئن تحت وطأة الأجنبي فعمد إلى تأليف جمعية سرية (١٩١٨) لإنهاض الأمة وتحرير البلاد. فكانت الحرب النجفية التي لم يكتب لها النجاح، واعتقل محمد جواد وقضى في السجن سنة وعشرة أشهر.

عبد الحسين شرف الدين

عبد الحسين بن يوسف بن جواد شرف الدين الموسوي ينتمي إلى أسرة علوية معروفة بالزعامة العلمية، ولد في الكاظمية سنة ١٨٧٣ ودرس علوم اللغة والفقه في سامراء والنجف وأخذ عن محمد كاظم اليزدي ومحمد كاظم الخراساني وشيخ الشريعة الاصفهاني ومحمد طه نجف وغيرهم.

ثم مضى إلى جبل عامل موطن أسرته سنة ١٩٠٤ وصارت له منزلة دينية سامية. وشدّ الرحال إلى مصر (١٩١١) واجتمع بعلمائها وألف كتابه «المراجعات» الذي طبع في صيدا بعد أعوام طويلة (١٩٣٦) وأعيد طبعه في بيروت والنجف وترجم إلى بعض اللغات الأجنبية.

وناضل ضدّ الاحتلال الفرنسي لسوريـة ولبنان فاضطّر على التخفي حيناً والتنقل في البلـدان العربيـة مشرداً وقد أحـرقت داره في صور وذهبـت كتبه وطـائفة من مـؤلفاتـه المخطوطة طعمة النار. ولم يعد إلى وطنه الا بعد صدور العفو عن المجاهدين .

وكان من دعاة الإصـلاح ، أقدم على تأسيس مدارس للأولاد والبنـات وشيد الكلية الجعفرية في بلدة صور، وتوفي ببيروت في ٣٠ كانون الاول ١٩٥٧ .

من مؤلفاته : الفصول المهمة في تأليف الأمة (١٩١٢) أجوبة مسائل موسى جار الله (١٩٣٦) ثبت الإثبات في سلسلـة الرواة ، الكلمـة الغراء في تفضيل الـزهراء (١٩٢٩) مؤلفـو الشيعة في صـدر الإسلام ، مسائل خـلافية (١٩٥١) مسـائل فقهية (١٩٦٤) النصّ والاجتهاد (١٩٥٦) أبـو هريـرة (١٩٤٧) فلسفة الميثـاق والولايـة (١٩٤١) زكاة الأخلاق ، الخ .

وقد عـرف ولده صدر الـدين شرف الدين صحفياً وكـاتباً أنيق العبارة . ولـد صدر الدين في النجف سنة ١٩١٢ وأصدر جريدة ««الساعة» في بغداد آب (١٩٤٤) ثم أقام في لبنـان وأصـدر مجلة «الألـواح» فمجـلة «النهج» في صـور وتـوفي في كانـون الثـاني ١٩٧٠ .

من مؤلفـاته : محنة العراق (١٩٤١) في قطـار الزمان (١٩٤٩) سحابـة بورتسموث (١٩٤٨) حليف مخزوم ، هاشم وأمية في الجاهلية الخ .

جواد الجواهري

الشيخ جـواد بن علي بن محمـد ابن الشيخ محمـد حسن صاحب الجواهـر كـان من رجال النجف الـذين يشار اليهم بالبنـان ، قال فيه جعفـر آل محبوبة صـاحـب «ماضي النجف وحـاضرها» إنـه «زعيم الأسرة في عصره وعمادهـا ، بل مـوئل النجف وسنادهـا كانت تلجأ إليه في الملمّات وتستظل بظلّه عند المهمات . . .»

اشترك في الثورة العـراقية سنـة ١٩٢٠ ، فلما استسلمت النجف في تشرين الاول من تلك السنة ، قبضت عليه السلطات البريطانية واعتقلته ثم أفرج عنه .

وقد توفي في النجـف في ١٦ ايار ١٩٣٦ . وممّن رثاه محمد مهـدي الجواهري بقصيدة مطلعها :

هتفـــوا فـأسنـــدت اليـــدان ضلـــوعي وشرقـت بـــالحسرات قبـــل دمـــوعي

وعرف من آل الجواهري أيضاً والد الشاعـر محمد مهدي ، وهو الشيخ عبد الحسين ابن عبـد علي بن محمـد حسن صـاحب الجواهـر . وقد كـان عبـد الحسين الجواهـــري (١٨٦٦ ـ ١٩١٧) شاعراً ناثراً فقيهاً ، لـه قصائد في رثاء الإمام الحسين وغيرها في الرثاء والمدح والتهنئة والاخوانيات .

عبد الملك الشواف

من علماء بغداد المرموقين ، الشيخ عبد الملك ابن الشيخ طه ابن الشيخ عبد الرزاق البغدادي المعروف بالشوّاف . كان الشيخ عبد الرزاق عالماً معروفاً توفي سنة ١٨٥٢ ، أما ابنه الشيخ طه فكان عالماً شاعراً ولد سنة ١٨٣٦ ، وعيّن مفتياً لسامراء . ثم وجّه إليه افتاء البصرة سنة ١٨٩٩ وتوفي بها في شباط ١٩١٠ .

ولد عبد الملك الشواف في بغداد سنة ١٨٧٣ ، ودرس على علماء عصره كعمّه الشيخ أحمد الشواف وعباس حلمي القصاب وغلام رسول المولوي الهندي وعبد الرحمن القره داغي ويوسف العطاء . وعيّن مدرساً للمدرسة القادرية ، فكثر طلابه ولا سيّما في علوم العربيةمن بلاغة وبيان .

ولما توفي والده خلفه في افتاء البصرة سنة ١٩١٠ ، وقام بالتدريس في المدرسة الرحمانية . وسجن بعد الاحتلال الانكليزي أمداً وجيزاً لدواعٍ سياسية .

وعاد إلى بغداد فعيّن عضواً بمجلس التمييز الشرعي (آب ١٩١٨) فقاضياً لبغداد (١٩٢٢) فرئيساً لمجلس التمييز الشرعي السنّي (تشرين الاول ١٩٢٢) واعتزل منصبه في ايلول ١٩٣٣ . وتوفي ببغداد في ٣ شباط ١٩٥٣ .

وقد كان أخوه علي الشوّاف من رجال القضاء الموصوفين بالعلم والنزاهة ، ولد سنة ١٨٨٤ وعيّن قاضياً لبلدة الحيّ سنة ١٩٢٢ . وتولّى القضاء الشرعي بعد ذلك في البصرة والموصل ، وتوفي في المدينة الأخيرة في تشرين الاول ١٩٣٠ .

وممّا رواه ابراهيم الواعظ عن الشيخ طه الشوّاف أنه ذهب وهو طالب علم إلى دائرة الأوقاف لحاجة له فلم يؤبه به . وحاول أن يصرف ليرة عثمانية وكانت سوقها كاسدة ، فهاله بخس قيمتها وقال :

قـل لأمير المؤمنين الـــــذي ... قـد عمّنا بالجود واللطف

درهمه أضحى ودينـــــاره ... في سوق بغداد لدى الصّرْفِ

أذلَّ من طالب علم أتى ... لحاجة دائرة الـوقـف

السيد أبو الحسن الموسوي الاصفهاني

من كبار مجتهدي الشيعة الإمامية والمرجع الديني الكبير في عصره ، ولد سنة ١٨٦٧ في اصفهان ، وتتلمذ على الشيخ محمد كاظم الخراساني في النجف ونشأ محباً للتقدم والإصلاح ، فشدّ أزر استاذه في الدعوة إلى الحرية والدستور . عرف بعد ذلك مناوئاً للبدع السقيمة والعادات المضّرة . شنّ على دعاة التزمت والتعصب حرباً لا هوادة فيها ولا لين .

ولما نشبت الثورة العراقية سنة ١٩٢٠ كان من رجالها المرموقين بعد الإمامين محمد تقي الشيرازي وشيخ الشريعة الأصبهاني. وكان من الداعين إلى عقد مؤتمر كربلاء في نيسان ١٩٢٢ لمناقشة هجوم الاخوان النجديين على القبائل العراقية. ثم عارض انتخاب المجلس التأسيسي وأفتى بمقاطعته مع زملائه العلماء حسين النائيني ومهدي الخالصي وغيرهما، فخرج من العراق في حزيران ١٩٢٣ ومضى إلى قم في إيران، ولم يعد الا في نيسان ١٩٢٤ بعد أن تعهّد للحكومة العراقية بمجانبة العمل السياسي.

وتألق نجمه بعد ذلك فلم يلبث أن انفرد بالزعامة الروحية للشيعة الإمامية في العراق وإيران وسائر الأقطار، وظلّ المرجع الاكبر نحواً من عشرين سنة لا يكاد ينافسه في منزلته منافس حتى أدركته الوفاة.

كان زاهداً متقشّفاً جمّ التواضع، موصوفاً بالتسامح وسعة الفكر، إلى جانب حزمه واعتداده بنفسه وإيلائه مركز الزعامة حقّه وسخائه في توزيع الاموال الجسيمة التي كانت تصله على المعوزين وطلبة العلم.

وتوفي في الكاظمية في ٤ تشرين الثاني ١٩٤٦. وله مؤلفات أشهرها: أنيس المقلّدين (١٩٢٦) حاشية العروة الوثقى (١٩٢٨) مناسك الحجّ (١٩٢٩) ذخيرة العباد (بالفارسية ١٩٢٣) صراط النجاة (بالتركية ١٩٥٦) وسيلة النجاة (١٩٥٦).

قال جعفر الخليلي في كتابه «هكذا عرفتهم» (الجزء الاول) يصف تقدم السيد أبي الحسن إلى الزعامة بعد وفاة شيخ الشريعة الاصبهاني: «.. وحين عاد العلماء من ايران وعاد هو إلى العراق، كان هو السابق إلى المرجعية الكبرى والزعامة الشيعية، خصوصاً وأن شيخ الشريعة كان قد توفي قبل ذلك، وقد فرغ الميدان الا من بعض أقران السيد أبي الحسن، وإذا بالطلاب الذين يحوطون منبره يغصّ بهم مجلس الدرس أو «البحث» كما يسمّى، حتى لم يبق متّسع لأحد، وإذا بهذه الجهة الخاصة من الصحن الشريف تضيق بالمصلّين خلفه، ثم تحفّ به جماهير الطلاب والمراجعين في أثناء الخروج من بيته وعند العودة، قبل الصلوة وبعدها، فتحدث ضجّة كبيرة، وكثيراً ما تقدمتها موجات من التكبير والتهليل. ومع ذلك كله فقد كان السيد أبو الحسن لا يملك داراً ولا يحمل أمامه فنر وسراج إن مشى ليلاً، وليس لديه من المستخدمين الخاصين أحد بالرغم من تلك الأبهّة والعظمة التي تحيط به عند خروجه من البيت للصلاة والدرس وعودته إليه...»

وقال الخليلي بعد ذلك: «وفي السنوات العشر الأخيرة ثقل كاهله بالعمل أكثر واكثر وصار عليه أن يقابل عدداً كبيراً من الزائرين من ارباب الحاجات ويقرأ كثيراً من الكتب والاستفتاءات التي كانت ترد من مختلف الأقطار وبمختلف اللغات ويجيب عليها بخطه، ولا يسمح لأحد أن ينوب عنه في استعمال خاتمه كائناً من كان. ولقد كان ختمه معه إلى آخر ساعة من حياته. وكان طبيعياً أن يكلّ وطبيعياً أن يمرض ولو كانت

أعصابه من حديد. ولقد كان بميسوره أن يرتاح لو كان يريد الراحة، . ولكنه أخذ على نفسه أن يضرب الرقم القياسي للعمل، فعمل الكثير مما لا طاقة لغيره أن يعمله وهو في مقتبل العمر، فكيف وهو في آخر مراحل الحياة. . »

ورثاه الشعراء فقال عبّاس الملاّ علي:

عيـد تحوّل مأتماً ومصابا ... أرأيت شهداً قد تحول صابا؟ . .
يا راحلاً ملأ الزمان مآثراً ... أعيى تواتر وصفها الكتابا
أدّيت للعلياء واجب حقها ... ومضيت يحزن فقدك المحرابا
بكت المحابر والمنابر، وانثنى ... ينعى اليراع مليكه الوهّابا

وقال محمد علي اليعقوبي:

هدّ سمك الهدى وطاح عماده ... واستحالت مآتماً أعياده
أيّ خطب قد حلّ في الشرق، لكن ... جلّل المغرب القصّي حداده
أيّ ظلّ للدين قلّصه الدّهر (م) ... وقد طاول السّحاب امتداده
كهف أمن يأوي المخوف إليه ... وعليه بعد الإله اعتماده
آية الله بل وحجّته الكبرى (م) ... التي تلتجي اليها عباده
سنّ للمصلحين نهجاً قويماً ... سنّه قبلُ للورى أجداده

وقال عبد الرسول الجشّي:

العيد وافى، قم فصلّ العيدا ... وأعد لنا عهد الرسول جديدا
هذي الصفوف وقد تحشّد جمعها ... فانظر اليها ركّعاً وسجودا
يا قائد الإسلام، رافع بنده، ... كيف انثنيت عن الصفوف بعيدا؟

حدثني ثقة من رجال النيابة وهو جواد جعفر، قال: طلب السفير الأميركي ذات يوم زيارة النجف، وكنت برفقته. واتصلت بكبار رجال الدين وأخبرتهم برغبة السفير في زيارتهم، فاستقبلوه في دورهم في الحال. ورآهم على هيئتهم الطبيعية في صحن الدار المفروش بالبسط العادية، وكانوا مثال الزهد والتقشف، جالسين على أفرشة قديمة، ولا يقوم بخدمتهم سوى واحد أو اثنين من تلاميذهم، كلّ ذلك على جلالة شأنهم وعظيم منزلتهم.

ولما اتصلت بالسيد أبي الحسن، اعتذر وأجّل استقبال السفير إلى صباح اليوم الثاني. وحضرنا إلى دار المجتهد في الموعد المضروب، فإذا الشارع المؤدّي إليها يزخر بالمشايخ والمريدين، استقبلوا السفير وحيّوه وأدخلوه على السيد. وكانت الدار مفروشة بالسجّاد الثمين وقد صفّت فيها الأرائك بترتيب جميل وازدحم الناس وقوفاً في أروقتها

برسم الخدمة. ورأى السفير عجباً في مجلس حجّة الإسلام، وشاهد الفرق واضحاً بينه وبين سائر مجالس العلماء التي حضرها في اليوم السّالف. ولم تكن تلك عادة السيد أبي الحسن الزاهد، لكنه أجّل الاستقبال إلى الغداة ليطلع الممثل الاميركي على مكانته وهيبته ومنزلته في العالم الإسلامي.

روى جعفر الخليلي إنّ الشاعر محمد علي اليعقوبي كان يسير مع السيد أبي الحسن وهو يتعثر، فسأله العالم الكبير: أين عصاك؟ فقال اليعقوبي: لقد كسرت أمس. وناوله السيد عصاه الثمينة، فتقبّلها الشاعر شاكراً وارتجل قائلاً:

أبا حسنٍ، لا غرو أن ألقت العصا ... يدٌ منك أبصرنا مواهبها فيضا

كأنّك موسى، والعصا عندك العصا، ... وأن اليد البيضاء منك اليد البيضا

السيد أبو الحسن الموسوي الأصفهاني

قتل السيد حسن نجل أبي الحسن سنة ١٩٣٠ وهو يصلي في الصحن بالنجف إذ هجم عليه المدعو علي القمي وذبحه بسكين. وقد ظهر أن الجاني مختّل الشعور وحكم عليه بالسجن المؤبد. ونقل بعد ذلك إلى مستشفى المجانين.

قال جعفر الخليلي إن السيد أبا الحسن انتهى من صلاته فعلم بمقتل ابنه فلم يقل شيئاً سوى الترجيع «إنّا لله وإنّا إليه راجعون». وطلب العفو عن المجرم.

يوسف العطا

مفتي بغداد العالم الفقيه السيد يوسف العطا، وهو صلاح الدين يوسف بن محمد نجيب بن أحمد بن خليل، ينتهي نسبه إلى السيد عطاء الحسني الذي عرفت به الأسرة، وهي من أسر بغداد القديمة المشهورة بالفضل والثراء. ذكرها ابراهيم فصيح الحيدري في كتابه «عنوان المجد» ووصفها بأنها «بيت تجارة وخير». وقال الشيخ محمد صالح السهروردي في كتابه «لبّ الألباب» إنّ جد المفتي يوسف العطا كان، في بعض سني القحط والمجاعة، يمتلك مخازن واسعة مشحونة بأنواع الأطعمة والحبوب وقد دفع له التجار أثماناً باهظة لشرائها، لكنه قال: لقد بعتها للذي يربي الصدقات، وفرّقها على الفقراء والجياع.

ولد يوسف العطا في بغداد سنة ١٨٦٩ ونشأ في نعمة ورفاهة عيش. ودرس على أجلّة علماء عصره كعبد السلام الشّواف وغلام رسول الهندي وعبد الوهاب النائب. وظهر نبوغه وهو شابّ طريّ العود، فأسند إليه التدريس والوعظ في جامع القبلانية وجامع الشيخ عبد القادر الكيلاني (١٨٩٢). وعيّن عضواً بمجلس المعارف على عهد

الوالي ناظم باشـا ، وعهد إليه بالتدريس في مدرسـة الحقوق على العهد العثماني واستمّر على ذلك في العهد الوطني أعواماً طويلة .

وقـد عيّن مفتياً لبغـداد في تشرين الثـاني ١٩٢٣ ، وواظب على التدريس والارشـاد حتى توفي ببغداد في ٤ ايلول ١٩٥١ .

كانت لـه منزلة إجتماعية مـرموقة لعلمه وفضلـه وسعة صدره وكرم نفسـه وسعيه في مصالح الناس وحدبه على ذوي الحاجة والمعوزين .

وكـان مجلسه في جـامع الشيخ عبد القـادر الكيـلاني ملتقى طبقات رجـال الدولـة والادب والفضل والوجـاهة . وكان هو نفسه يحضر مجالـس بغداد ودواوينها ، ولا سيّما مجلس الملك علي عاهل الحجاز السابق . ذكر أحمد حسن الزيّات الأديب المصريّ الذي درّس أمداً في بغداد إنه كان يلقـاه في مجلس الملك علي وكان يوسف العطا لا ينقطع عن حضوره فكان يقول في كلّ شـيء ويجيب في كلّ شيء ، ولا ينطق الا ببيت من الشعر أو أثـر من الحديث أو آيـة من القـرآن . . .

وقال جمال الدين الألوسي إن المفتي قد أصيب في أيـامه الأخيرة بمرض عقل لسانه ، فكـان يجلس إلى الشيخ ابراهيم الـراوي كلّ أمسية يقـرأ له على مـاء فيبلّ به فمـه . فإذا حضر الألوسي سأله أن يقرأ له في كتاب أو مجلة أو ديوان شعر .

وذكر المفتي أيضاً ابراهيم الدروبي في كتابـه : «البغداديون أخبارهم ومجالسهـم» فقال إنه ورث عن أبيه ثـروة طائلة فعاش في بلهنيـة ونعمة ، لكنه لكرمه وانبسـاط يده أضاع معظم أمـواله . وقـال إن مجلسه يختلف إليـه الملوك والأمـراء والوزراء والعلماء والسـاسة والقادة والأشراف والتجار . . . وقد وقف كتبه على الحضرة القادرية .

وقد حـدثني مصطفى علي إن يوسف العطا كـان رفيع المنزلة ، واسع المعرفـة ، لكنه عرف بالتعصّب . وقد كفّـر معروف الرصافي فهجاه هجاءً مقـذعاً . وكان ذلك على أثر إعلان الدستور العثماني سنة ١٩٠٨ ، إذ جـاء بغداد وفد من حزب الاتحاد والترقي وزار محمود شكـري الألوسي وكلفـه بقراءة منشـور على الناس بعـد صلاة الجمعـة في بعض المساجـد . واعتـذر الألـوسي ، لكنه قال : إن تلميذي الرصافي يقـرأ المنشور على جمهور المصلين .

وفي يـوم الجمعة المعيّن نبّـه على الناس بأن لا ينصرفـوا عنـد انتهاء الصـلاة ، ووقف الرصافي فقرأ منشـور الحزب بحضور الوفد ورهط من أعيان بغداد ، وقـد افتتحه بقوله : أيها الوطنيون !

وشاع بعـد ذلك ان الـرصافي قـال : أيها الطبيعيون ! وأذاع خطبـة تدعـو إلى المادية اللادينية ، فهاج العوام وقضى يوسف العطا وغيره من العلماء بتكفير الشاعر .

واتخذ العطا وسـائر العلماء موقفاً مناوئاً لـدعاة السفـور في سنوات العشريـن . قال

مصطفى علي: كان العطا يـدرّسنا في مدرسة الحقـوق. وعلم أنني وحسين الرحال من السفوريين فكان يعنفنا في أثناء الدراسة.

أقول: عـرفت يـوسف العطا يـوم كنت موظفـاً في وزارة الخارجية، فكـان يزورني في ديـوان الوزارة ويصّر عليّ بأن أحضر مجلسـه ظهـر الجمعة في الطـابق الاعلى من جـامع الشيخ عبد القـادر الكيلاني، (وقـد اتخذت غرفـه بعد سنـوات من وفاتـه مكتبة عـامة جمعت فيها آلاف الكتب والمخطـوطات). وكان مجلسـه يلتئم بعد صلاة الظهر فيـؤمه الوزراء ورجـال الدين والـدنيا وممثلـو الدول العربيـة، يتناولـون طعام الغـداء ويظلون يتحدثون ويتسامرون إلى العصر.

وأذكر ان يـوسف العطا زارني في وزارة الخارجية صبـاح أحد أيام رمضـان، وكان إلى جانبي عبد الحميد الباجه جي مدير التشريفات جالساً وهو يدخن. وفجأة دفع المفتي باب الغرفة ودخل بدون استئذان، على عادته، فاضطرب الباجه جي وأسرع ففتح دُرْج مكتبي ووضع السيكـارة فيه دون أن يطفئهـا، ثم أغلقه. وقمت أرحب بـالمفتي وأسلم عليه، ثم عدت وفتحت الدرج بسكون وأطفـأت السيكارة التي كادت تحدث حريقاً. ومرّ الأمر بسلام.

وقد نقل الباجه جي بعد أشهر مديراً لأوقاف بغداد.

الرصافي والعطاء:

كفّر معروف الرصافي فهجاه بقصيدة لاذعة منها:

إن كنت قـــد كفـــرتني بجهـــالـــة	فبـــالبُهـت كم كفّــرت مـن مسلم قبلي
إنك في تكفيرك النــــاس كـــافـــر	تهاونٌ بـــــالله الـــــذي جل عـن مثلي
وأنت مـن الإســـلام في كل حـــالـــة	بمنـــزلـة الظّلـم الصّريح من العـــدل

وقال:

لئـن كنت تنمـى للعطـــــاء فـإنـــــه	عطـاء الـذي تـزكـو الـورى فيـه بـالبخل

وقال فيه أيضاً:

يـــــــا أيها المفتي بتكفيرنـــــــا،	مهـــــلاً فقـــد جئت بـأمـــــر نكير
بـــأي جهـــل فيـــك مستـــأصـــلٍ	علمت، يـا جاهل، مـا في الضمير؟...

نعمان الأعظمي

الـــواعظ الخطيب المفـــوّه الحاج نعمان بن أحمد بـن اسماعيل بن أحمد العبيـــدي الأعظمي، ولد في ناحيـة الأعظمية بظاهر بغداد سنـة ١٨٧٦، وانخرط في سلك طلبة مدرسة الإمام الأعظم ونال الإجازة العلمية (١٩٠٦). وقد عيّن معلماً بمدرسة الاعظمية

الرسمية (١٨٩٩) ثم نقل إلى مدرسة الكرخ (١٩٠٨). وعرف بطلاقة لسانه وقوة بداهته وارتجاله. وأصدر في آب ١٩١٠ مجلة شهرية دينية باسم «تنوير الأفكار» فدامت سنة واحدة.

ولما نشبت الحرب العامة انتدبته الحكومة التركية في وفد مع محمود شكري الألوسي وعلي علاء الدين الألوسي والرئيس الاول الحاج بكر افندي إلى أمير نجد عبد العزيز آل سعود لحمله على شدّ أزر الأتراك، لكن البعثة أخفقت في مهمّتها. وعيّن سنة ١٩١٥ واعظاً عاماً وألحق بقائد الجيش نور الدين بك في ساحة الكوت. واحتل الجيش الانكليزي بغداد فاعتقل نعمان الأعظمي في آخر ايار ١٩١٧ وأبعد إلى الهند، حتى أطلق سراحه سنة ١٩١٩.

وقد عاد إلى التدريس في كلية الإمام الأعظم، وأصبح مديراً لها سنة ١٩٢٤ فمديراً لدار العلوم العربية والدينية كما أصبح اسم الكلية المذكورة في تشرين الأول ١٩٣١. وتوفي ببغداد في ٢ ايلول ١٩٣٦.

وله مؤلفات منها: التاريخ العام، ارشاد الناشئين (١٩١٤) وخطب ومقالات كثيرة.

الشيخ قاسم القيسي

قاسم بن أحمد الفرضي القيسي ولد في بغداد سنة ١٨٧٦، ودرس علوم العربية والدين واللغتين التركية والفارسية، وكان من شيوخه عبد المحسن الطائي وعبد الوهاب النائب وغلام رسول. عيّن مدرساً لقضاء خانقين (١٩٠٠) فالجزيرة (الصويرة) (١٩٠١). وعمل بعد ذلك عضواً في مجلس المعارف ببغداد (١٩٠٩) وعضواً بالمجلس العلمي للاوقاف (١٩١٧) ومدرساً بولاية بغداد ومدرساً في دار المعلمين ومدرساً لمدرسة نائلة خاتون.

عيّن عضواً بمجلس التمييز الشرعي في كانون الاول ١٩٢٢ وظلّ في ذلك المنصب سنين طويلة حتى اعتزل الخدمة سنة ١٩٣٧ وقد درّس في كلية الشريعة وخلف السيد يوسف العطا مفتياً لبغداد اثر وفاته سنة ١٩٥١. وتوفي الشيخ قاسم القيسي ببغداد في ١١ ايلول ١٩٥٥.

له مؤلفات في اللغة والفقه والمنطق، منها: رسالة في مصطلح الحديث (١٩٣٨) الزهر اللطيف في مسلك التأليف (١٩٤٠) الحديقة الندية (١٩٤٠) النزهة البهيّة (١٩٥٤) تاريخ التفسير (١٩٦٦).

كان الشيخ قاسم القيسي عالماً وقوراً مهيباً تخرّج عليه عدد عديد من العلماء ورجال الأدب والفضل. وقد قال فيه تلميذه معروف الرصافي:

إذا قــاسم القيسي مــرّ بخــاطــري تـذكــرت عهـداً في الصِّبـا مـرّ كـالحلم

تــذكــرتــه إذ كنت للعلم طـالبـاً بفكــري وسعيي مجهـد النفس والجسم

فقــد كنت أحيــانــاً أزور فنــاءه وأنتــابــه للــمرشف من منهـل العلم

هــو العــالم الحَبر الــذي من يلُــذ بـه يكـن فــائزاً بــالعلـم والأدب الجم

بقيّــة أعــلام مضــوا، وكفى بــه من العلـم طـوْداً فـوق أطـواده الشُّمّ

لــه نظـر في غــامض العلـم نـافـذ ورأي ســديــد لا يحوم على الــوهم

إذا مــا نحـا في العلم قتـل عـويصـة رمــاهــا بسهم من فطــانتــه مُصِمي

أمجد الزهاوي

الفقيه العالم الشيخ أمجد بن محمـد سعيد بن محمد فيضي الزهـاوي. كان أبوه الشيخ محمد سعيد مفتياً لبغداد، خلف في ذلك المنصب أباه محمد فيضي سنة ١٨٩١ .

ولـد أمجد الـزهـاوي ببغداد في سنـة ١٨٨٢ ، ودرس على أبيـه وعلى عبـاس حلمي القصاب وغلام رسول الهندي وسائر علماء عصره. ثم شـدّ الرحال إلى استانبول وانتمى إلى مدرسة القضاة فتخرّج فيها سنة ١٩٠٩ . وعاد إلى بغداد فأسندت إليه رئاسة محكمة الاستئناف على العهد العثماني.

زاول المحـاماة، ثم عيّن مشـاوراً حقـوقياً لـدائرة الأوقـاف (أول حزيـران ١٩٢٠)، وخلف أباه في التدريس بالمدرسة السليمانية. وقام بالتدريس أيضاً في مدرسة الحقوق، وألقى فيهـا محاضرات في المجلّـة والفـرائض جمعت في كتـاب الـوصـايـا والفـرائض (١٩٢٥). وعيّن في ١٨ أيلـول ١٩٣٣ رئيساً لمجلس التمييـز الشرعيّ السنّي، فقضى في منصبه نحواً من ١٣ عاماً واعتزل الخدمة في صيف ١٩٤٦ .

كان معجباً بالإمام الغـزالي مفضّلاً له. وجاور في المدينـة المنوّرة أمداً بعـد ثورة تموز ١٩٥٨ ، ثم عاد إلى بغداد وتوفّي بها في ١٧ تشرين الثاني ١٩٦٧ .

قال إبراهيم الـدروبي في كتابه «البغداديون: أخبـارهم ومجالسهم» إن أمجد الزهاوي قد نال مكانة سامية في العالم الإسلامي وانتخب رئيساً للمؤتمر الإسلامي العام. وجاب الأقطـار العربيـة وغيرها داعيـاً إلى الإصـلاح والتضامن الـدينيّين ومنـافحاً عن قضيـة فلسطين والجزائر. وقـد عاش عيشـة الزهـد والتقشّف والورع، وعـرف بسعة الاطـلاع والتبحّر في العلوم العقلية والنقلية.

وكـان أمجد الزهـاوي متشدّداً، قـال عبـود الشالجي إنـه كان يحرّم التبغ والتـدخين لاعتقاده بأنه تبذير مخلّ بصاحبه.

حمدي الأعظمي

العالم الفقيه الحقوقيّ الحاج حمدي الأعظمي، وهو ابن الملا عبد الله بن محمد بن عبد الله بن يوسف بن خضر العبيدي. ولد في الأعظمية من ضواحي بغداد في أيلول ١٨٨٢، ودرس في المدرسة الرشدية، ثم حضر دروس نعمان الألوسي وعبد الرزاق الأعظمي ومحمد سعيد النقشبندي ومعروف البشدري وغيرهم من علماء عصره. وانتمى بعد ذلك إلى مدرسة الحقوق فنال شهادتها سنة ١٩١٢.

عمل في التعليم منذ آذار ١٨٩٨ في مدارس الأعظمية وبعقوبا. وبعد زيارة للأستانة سنة ١٩٠٧، عاد معلماً في العمارة وبغداد. وعيّن سنة ١٩١٢ مديراً للمدرسة الأنموذجية، فمدرساً بالمدرسة السلطانية (١٩١٤) إلى احتلال بغداد سنة ١٩١٧. وكان علاوة على ذلك عضواً في مجلس المعارف.

عيّن على أثر احتلال بغداد مدرساً بمدرسة الإمام الأعظم (١٧ نيسان ١٩١٧) ومدرساً بدار المعلمين (آب ١٩١٧) ومدرسة الهندسة (شباط ١٩١٨). ثم نقل مفتشاً للأوقاف (أيلول ١٩١٨) فمديراً لأوقاف بغداد (١٩١٩) حتى استقال في نيسان ١٩٢٣، وزاول المحاماة.

وعاد إلى دائرة الأوقاف سنة ١٩٢٤ مديراً للأملاك فمديراً للواردات. وأوفد في أيلول ١٩٢٦ إلى تركيا لاستنساخ القيود الوقفية، وكان معه عبد الحميد الباجه جي. ثم عيّن مدوناً قانونياً في وزارة العدلية في آذار ١٩٢٨، فظلّ في وظيفته إلى سنة ١٩٤٣ حين اعتزل الخدمة. وعهدت له في تشرين الثاني ١٩٣٨ إدارة دار العلوم العربية والدينية بالوكالة خلفاً لفهمي المدرّس. ثمّ عيّن عميداً لكلية الشريعة (١٩٤٦ ـ ١٩٥٣). واختير عضواً بالمجمع العلمي العراقي في آب ١٩٦٣.

وقد درّس الأحوال الشخصية في كلية الحقوق أعواماً طويلة، ووضع مؤلفات عديدة، منها: الدرّ المنتقى (١٩٠٧) مرقاة العقائد (١٩٠٧) خلاصة الهندسة (١٩١١) زبدة الحساب (١٩١١) علم الكلام (١٩١١) المحاضرات في الأحوال الشخصية (١٩٣٥) مذكرات في أصول الفقه (١٩٣٨) خلاصة المحاضرات في علم الكلام (١٩٤١) علم العقائد (١٩٤١) غاية المرام في عقائد أهل الإسلام (١٩٤٨) تاريخ الفقه الإسلامي (١٩٤٩) المرشد إلى أصول الفقه (١٩٥٤) أصول الفقه (١٩٥٤) إلخ. وله عدا ذلك فهارس للقوانين ومحاضرات ومقالات في شتى الصحف والمجلات. وقد وقف خزانة كتبه وجعلها مكتبة عامة في قصبة الأعظمية (١٩٦٢).

وقد توفّي حمدي الأعظمي ببغداد في ١٤ آذار ١٩٧١ بعد مرض طويل.

محمد سعيد الراوي

محمد سعيد بن عبد الغني بن محمد بن حسين بن عبد اللطيف الراوي ولد في عانة سنة ١٨٨٣ في بيت علم وورع. ودرس على والده. ثم جاء إلى بغداد وأخذ العلم عن شيوخها كيوسف العطا ومحمد سعيد التكريتي وعباس حلمي القصاب وعبد الوهاب النائب ومحمود شكري الألوسي وغيرهم.

وتوفي والده سنة ١٩٠٦ فخلفه مدرساً في جامع خضر الياس، ثم عيّن خطيباً بالتكية الخالدية وإماماً في جامع الشيخ معروف الكرخي. وانتخب عضواً بالمجلس العمومي لولاية بغداد، فلما احتلها الإنكليز اعتقلوه وأرسلوه أسيراً إلى الهند.

وعيّن بعد إطلاق سراحه مدرساً في دار المعلمين الابتدائية (١٩٢١) فأستاذاً بجامعة آل البيت (١٩٢٤)، وتولى تحرير المجلة التي أصدرتها باسم «الجامعة» (آذار ١٩٢٦). ثم نقل مدرساً في المدرسة الثانوية المركزية. وعيّن بعد ذلك نائب عضو ورئيساً لكتاب مجلس التمييز الشرعي السنّي في بغداد (كانون الأول ١٩٢٨)، فظلّ في منصبه إلى وفاته في بغداد في ١٥ شباط ١٩٣٦.

من مؤلفاته: شرح مجلة الأحكام العدلية (١٩٢٤) وكتاب معلّم الفرائض (١٩٢٥) والمعلومات الدينية للمدارس الابتدائية. وله أيضاً خطب ومواعظ وشعر، وبحوث ومقالات في تاريخ العراق ومعاهده ومساجده ومساجلات مع مؤرخي عصره في هذا الباب.

قال في أسره:

لعمرك ما حال الفتى بعد سجنه ... وتقييده في الأسر يمسي ويصبح؟

حنانيك لو أبصرتنا لرأيتنا، ... ونحن سكوت، حالنا لك يفصح

نطأطىء رأساً ما رأى غير رفعة ... ونخضع للأدنى وما ثمّ مفلح

بقفر بأرض الهند بين وحوشها ... أصاغر في ذلّ الأسارة نسرح

عبد الكريم الزنجاني

الشيخ عبد الكريم الزنجاني من علماء النجف وفقهائها المعروفين، ولد في النجف سنة ١٨٨٧. ودرس على مشايخها وعلى الشيخ كاظم اليزدي وأجيز بالاجتهاد (١٩١٤). وانصرف إلى التدريس والتأليف، حتى توفي في ١٠ أيلول ١٩٦٨.

وضع مؤلفات كثيرة منها: جامع المسائل في الفقه، دروس الفلسفة (في جزءين ١٩٤٠ ـ ٦٢)، طريق النجاة، برهان إمامة ووحي وإلهام (بالأوردية ١٩٣٥) مسائل

شرعية (بالفارسية ١٩٥٧) ابن سينا خالد بآثاره وخصاله (١٩٥٢) ذخيرة الصالحين، الفقه الأرقى في شرح العروة الوثقى (١٩١٤)، محاضرات (١٩٤٦) المثل العليا (١٩٤٦)، صفحة من رحلة الإمام الزنجاني وخطبه في الأقطار العربية والعواصم الإسلامية (جزآن ١٩٥٦ ـ ٥٧) الوحدة الإسلامية (١٩٦١) الكندي خالد بفلسفته (١٩٦٢) الإعداد الروحي للجهاد الإسلامي في فلسطين (١٩٦٧) إلخ.

عرف الزنجاني بروحه الإصلاحية وسعيه في سبيل توحيد كلمة الإسلام. وقد رحل إلى الأقطار الإسلامية وطوّف بها يخطب ويكتب للدعوة إلى آرائه سنة ١٩٣٦، ثم عاد إلى مسقط رأسه منقطعاً للتدريس والتأليف.

محمد جعفر الحسيني

ولد محمد جعفر الحسيني الحائري في كربلاء سنة ١٨٨٣ ودرس الفقه وعلوم الدين. عيّن قاضياً جعفرياً في البصرة في شباط ١٩١٩، وظلّ في منصبه حتى انتخب نائباً عن لواء البصرة في أيار ١٩٢٨ إلى تموز ١٩٣٠. ومارس المحاماة بعد ذلك في البصرة.

وقد توفي سنة ١٩٥٧.

من مؤلفاته: الزلال المرشوف في وضع الأسماء والحروف (١٩٣٠) قلائد اللآلىء (١٩٢٩) مرآة الفقاهة (١٩٢٩).

الكردينال أغناطيوس جبرائيل تبوني

من أمراء الكنيسة الكاثوليكية، ولد أغناطيوس جبرائيل تبوني في الموصل في ٣ تشرين الثاني ١٨٧٩ وانتمى إلى السلك الكهنوتي، فرسم راهباً سنة ١٩٠٢. وقد أقيم نائباً بطريركياً عاماً في ماردين في كانون الثاني ١٩١٣، وأصبح رئيساً لأساقفة حلب في شباط ١٩٢١.

انتخب بطريركاً على أنطاكية للطائفة السريانية في ٢٤ حزيران ١٩٢٩، ورفّعه البابا إلى مرتبة الكردينال في ١٦ كانون الأول ١٩٣٥، وكان أول شرقي ينال هذه المنزلة.

وقد توفي في ٢٩ كانون الثاني ١٩٦٨. وضع رسائل ومصنفات دينية باللغتين العربية والسريانية.

وهو ليون بن داود بن بطرس تبّوني، ووالدته أمينة بنت سليمان زبوني من أسرة السيد أقليميس يوسف داود (١٨٢٩ ــ ١٨٩٠) مطران دمشق والباحث المؤلف باللغات العربية والفرنسية والآرامية.

أغناطيوس افرام برصوم

من علماء التاريخ والمباحث الشرقية مار اغناطيوس افرام الأول بطريرك أنطاكية وسائر المشرق، وهو ابن اسطيفان برصوم. ولد في الموصل في ٥ حزيران ١٨٨٧ وانتمى سنة ١٩٠٥ إلى المدرسة البطريركية بماردين فتخرّج فيها واتّشح بثوب الرهبنة (١٩٠٧). وقام بسفرة إلى الأقطار الأوروبية سنة ١٩١٣ فزار خزائن الكتب.

انتخب مطراناً للأبرشية السورية سنة ١٩١٨. وأوفد في السنة التالية إلى أوروبا قاصداً بطريركياً بعد أحداث الحرب العامة، ثم أرسل قاصداً بطريركياً إلى أميركا سنة ١٩٢٧ لتفقد الجاليات السريانية فيها. وقد انتخب بطريركاً للسريان الأرثوذكس في حمص وتم تنصيبه في ١٢ شباط ١٩٣٣.

كان يحسن اللغات العربية والسريانية والفرنسية وشيئاً من التركية والإنكليزية. وانتخب عضواً بالمجمع العلمي العربي بالشام سنة ١٩٣٣. ووضع مؤلفات وبحوثاً كثيرة منها: الألفاظ السريانية في المعاجم العربية (١٩٤٨ ـ ٥١)، تاريخ دير الزعفران (١٩١٧)، تاريخ الكنيسة (١٩٤٠)، تاريخ الآداب السريانية (١٩٤٣)، قيثار القلوب (١٩٥٤)، مار أنطون التكريتي (١٩٣١)، مزارع الجزيرة (١٩٥٥)، نوابغ السريان في اللغة العربية الفصحى (١٩٣١) إلخ.

وقد توفي في ٢٣ حزيران ١٩٥٧.

قال الأب يوسف سعيد: «... فكان البطريرك مؤرخاً قديراً ومحاضراً طويل النفس، وشاعراً يتحسّس المرء في كل بيت من قصائده أنفاس الشرق، وبحاثة ذو جلد عجيب».

وذكره رفائيل بطي فقال إنه بطريرك عراقي يكتب بلغة قسّ بن ساعدة.

محسن الطباطبائي الحكيم

مرجع الشيعة الإمامية الأكبر في عصره، السيد محسن بن مهدي الطباطبائي الحكيم. كان أبوه مهدي بن صالح بن أحمد بن محمود الطباطبائي الحكيم النجفي من الفقهاء المعروفين، ألّف «تحفة العابدين» و «معارف الأحكام»، وتوفي بجبل عامل في نحو سنة ١٨٩٤.

ولد محسن الحكيم في بلدة بنت جبيل في لبنان سنة ١٨٨٩ ونشأ في النجف ودرس في معاهدها وكان من أساتذته محمد كاظم الخراساني وضياء الدين العراقي ومحمد حسين النائيني وعلي باقر الجواهري. وانضمّ إلى المجاهدين في جنوبيّ العراق سنة ١٩١٥ بزعامة محمد سعيد الحبوبي وهادي مكوطر.

واصل التدريس والتأليف وبرزت شهرته الروحية حتى انفرد بزعامة الشيعة في العراق وإيران وسائر الأقطار بعد وفاة السيد أبي الحسن الموسوي الأصفهاني سنة ١٩٤٦. وعرف بسعة علمه وزهده وتواضعه وبعده عن التعصّب.

وقد وضع مؤلفات، منها: مستمسك العروة الوثقى (في الفقه، ١٢ مجلداً)، منهاج الصالحين (في جزءين ١٩٤٨)، شرح كتاب المراح (في الصرف) توضيح المسائل (١٩٦٢)، حقائق الأصول (في جزءين ١٩٥٤)، دليل الحاج، دليل المناسك (١٩٥٩)، شرح الكفاية (في جزءين)، الصلاة، المسائل الدينية، منتخب الرسائل (بالفارسية)، منهاج الناسكين (١٩٤٨) نهج الفقاهة (١٩٥٣)، إلخ.

توفّي ببغداد في أول حزيران ١٩٧٠.

أصدر السيد محسن الحكيم في شباط ١٩٦٠ فتوى ندّد فيها بالشيوعية وعدّها مخالفة لروح الإسلام.

لكنه على أثر تولي حزب البعث مقاليد الحكم في العراق سنة ١٩٦٨ واضطهاده لبعض العناصر الشيعية، سئل أن يدعو أبناء الشيعة إلى الإضراب أو أن يتخذ إجراءات أخرى ملائمة، فرفض قائلاً إنه رجل دين لا رجل سياسة.

قال حسن العلوي في كتابه «الشيعة والدولة القومية في العراق» (١٩٩٠) إنه يمكن اعتبار عهد الحكيم واحداً من أصعب عهود المرجعية الشيعية.

شهد الثورة المصرية سنة ١٩٥٢ فأفتى بدعم نضالها في أثناء العدوان على بور سعيد.

وشهد ثورة العراق سنة ١٩٥٨ فأفتى بنصرتها. وقامت الثورة الكردية فأفتى بتحريم قتال الأكراد المسلمين.

ظهر قانون الإصلاح الزراعي والقطاع الاشتراكي فأفتى بحرمة الصلاة في الأراضي المغتصبة وحرمة التعامل مع بضائع المصانع المغتصبة أيضاً. وطلب من رئيس الوزراء طاهر يحيى أن تنظر الحكومة إلى مختلف أبناء الشعب نظرة واحدة دون تمييز أو تفريق بين قومياتهم أو مذاهبهم. وطالب بتأكيد حقيقة العراق الإسلامية وروحه العربية وتراثه الرفيع.

وقد أصدر السيد محسن في ١٢ شباط ١٩٦٠ فتوى بعدم جواز الانتماء إلى الحزب الشيوعي فإنّ ذلك كفر وإلحاد وترويج للكفر والإلحاد.

نجم الدين الواعظ

نجم الـدين بن السيد عبـد الله الواعظ، ولـد في بغداد سنـة ١٨٨١، ودرس علوم العـربية والـدين على عبـاس حلمي القصـاب وغلام رسـول الهنـدي الأنصاري وعبـد الوهاب النائب. وعيّن مدرساً لجامع العادلية سنة ١٩٠٤، فلبث أعواماً طويلة يدرّس فيه وفي مدرسة نائلة خاتون وجامع حنان وجامع القبلانية.

وقد عيّن مدرسـاً في دار العلوم الدينية والعربيـة سنة ١٩٣٤، وخلف الشيخ قاسم القيسي مفتياً لبغداد عند وفاته سنة ١٩٥٥.

لـه مؤلفـات منها: غـاية التقـريب (في الأصـول) وبغية السـائل في شرح منظومـة العوامل للشيخ عبد الوهاب النائب، الدين الحنيف (١٩٥٤) إلخ.

ونجم الدين الواعـظ من رجال الدين الذين يقرنـون العلم الغزير بالأخـلاق الرفيعة والدعوة إلى الإصلاح والتسـامح بالرغم من موقفه الشديد سنـة ١٩٢٥ ضد دعاة تحرير المرأة.

وقد توفي ببغداد (الأعظمية) في ٧ شباط ١٩٧٦.

أبو عبد الله الزّنجاني

العالم الإسلامي المصلح أبو عبد الله بن عبد الرحيم بن نصر الله ولد في زنجان شمالي إيران في ١٥ كـانون الأول ١٨٩١. وارتحل إلى النجف فدرس على كـاظم اليزدي وشيخ الشريعة الأصفهاني وحسين النائيني. ثم درس الفلسفة في طهران.

دعا إلى الإصلاح الديني وتوحيد الكلمة وعقد الصلة بين المذاهب الإسلامية، فقام برحلات إلى الشام والأردن وفلسطين ومصر والحجاز، ثم قفل عائداً إلى زنجان. ورحل ثـانيـة إلى مصر سنـة ١٩٣٤، وعرّج على دمشق. وانتخـب عضواً مـراسـلاً بـالمجمع العلمي العربي في الشام.

وقد توفّي في ٢٣ تموز ١٩٤١.

من مـؤلفاتـه: تاريخ القـرآن (١٩٣٥) بقاء النفس بعـد فساد الجسـد، الفيلسوف الفارسي صدر الـدين الشيرازي، طهارة أهل الكتاب (١٩٢٧) عظمـة الحسين (باللغة الفـارسيـة)، أصـول القـرآن الاجـتماعية، فلسفـة الحجـاب (١٩٢٤) رسـالـة في التصوّف.

الشيخ كمال الدين الطائي

محمد كمال الـدين بن الشيخ عبد المحسـن آل بكتاش الطائي، من علماء الـدين. كان أبوه مدرس جامع المصرف وخطيب جـامع علي أفندي، ولد في بغداد سنة ١٨٥٧ وتوفي سنة ١٩٤٥. وقد وضع تآليف في المنطق وعلم الكلام والتصوف.

ولد كمال الدين في بغداد سنـة ١٩٠٣ ودرس في المدارس الرسمية التركية، ثم سلك مسلك التحصيل الديني على كبار العلماء. عيّن إمامـاً في جامع منوّرة خاتون، واختير محاضراً في دار العلـوم العربيـة والدينيـة سنـة ١٩٣٢. وكان واعظـاً في عدة جـوامع، واشترك في تأسيس جمعيات خيريـة ودينية، منها جمعية الشبـان المسلمين وجمعية الهداية الإسلامية ونادي الإرشاد.

تولى تحرير المجـلات التي أصدرتها جمعية الهداية الإسلاميـة: الهداية (أيار ١٩٣٠) وصـدى الإسلام (كـانـون الأول ١٩٣٠) والصراط المستقيم (١٩٣١) وتنـوير الأفكـار (١٩٣٢) والاعتصام (١٩٣٢) والكفـاح (١٩٣٤) ولسان الهدايـة (١٩٣٥). وأصدر مجلة دينيـة بإسم الـذكرى (١٩٣٥) ورئس تحريـر مجلة الـراية لصـاحبها نهاد الـزهاوي (١٩٣٦).

اعتقل في تشرين الثاني ١٩٤١ وأبعد إلى العمارة والفاو. وفي أيلول ١٩٤٧ تولى رئاسة تحرير مجلة الكفاح لجمعية الآداب الإسلامية، وقـد عادت هذه المجلة إلى الصدور سنة ١٩٥٨ ـ ١٩٥٩. ووضع مـؤلفات شرعيـة وأدبية، منها الـذكرى المحمـدية (في عشرة أجزاء، ١٩٣٢ ـ ١٩٤١)، الفقر في الإسلام، إلخ.

توفي في بغداد في ١٢ آب ١٩٧٧.

محمد باقر الصدر

المجتهد الإمـامي ذو النظرة العصريـة والنزعة الإصـلاحية السيد محمـد باقـر حيدر الصدر ينتمي إلى الأسرة المعـروفة في الكاظمية التـي شهدت مولده سنـة ١٩٣٥. توفي والده وعمره لا يتجاوز الأربع سنوات. وقد درس العلـوم العربية والدينية في الكاظمية والنجف، وكـان من أسـاتـذتـه السيـد محسن الحكيم ومـرتضى آل يـاسين وإسماعيل الصـدر. ونال درجـة الاجتهاد، فأكبّ على التـأليف والإرشاد. وأنشأ حـزب الدعـوة الإسـلاميـة في النجف سنـة ١٩٥٧. واعتقل في النجف لمعـارضتـه لحكم البعث في ٥ نيسان ١٩٨٠ ونقل إلى بغداد واغتيل شهيداً بعد ثلاثة أيام (٨ نيسان ١٩٨٠).

حدّد في أواخر أيام حياته المهام العاجلة للمعارضة العراقية ولخّصها بأربع مهامّ:

١ ـ إسقاط نظام صدّام حسين والنضال في سبيل ذلك داخل العراق وخارجه.

٢ ـ إعادة السلطة للشعب ومنحه الفرصة الكاملة للتعبير عن رأيه .

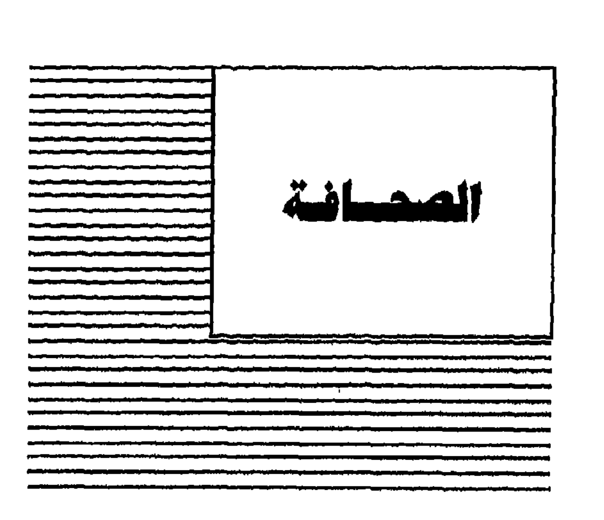
٣ ـ تحقيق وحدة الكفاح بين قوى المعارضة والشعب وتوحيد الكلمة .

٤ ـ إقامة نظام يعبّر عن إرادة الشعب ويحقق له الكرامة .

وضع محمد باقر الصدر مؤلفات كثيرة طبعت في النجف وبيروت والكويت ، منها : غاية الفكر في الأصول (١٩٥٥) فدك في التاريخ (١٩٥٥) فلسفتنا (١٩٥٩) اقتصادنا (جزآن ، ١٩٦١ ــ ١٩٦٨) ماذا تعرف عن الاقتصاد الإسلامي ، المعالم الجديدة للأصول (١٩٦٥) المدرسة الإسلامية (جزآن ، ١٩٦٥) الإنسان المعاصر والمشكلة الاجتماعية (١٩٦٥) البنك اللاربوي في الإسلام (١٩٦٩) الأسس المنطقية للاستقراء ، إلخ .

قال لي عبد الهادي الجلبي : لو طال به الزمان لاجتهد اجتهادات كثيرة تتفق مع روح العصر .

وقال الدكتور محمد بحر العلوم إنّ محمد باقر الصدر «قاد الثورة الإسلامية في العراق في السبعينات وأعطى من نفسه لها كأي قائد رسالي الغالي والنفيس ، وكان آخرها حياته الغالية وحياة أخته الطاهرة المجاهدة بنت الهدى» . وقال إنه كان رائداً فذاً للحركة العلمية الدينية في النجف وكربلاء وقم وخراسان وغيرها من مراكز المرجعية الإمامية . ورأى أن الطليعة من أبناء الأمة في العراق بحاجة إلى توعية إسلامية ثورية وبناء جيل يتحمل مسؤوليته الدينية والتاريخية في رسم خط إسلامي فكري هادف ينقذ الأمة من التذبذب وعدم الرسوخ في المعتقد والالتزام في العطاء العلمي بما يتناسب وحاجة الظرف المُعاش . ولذلك كان لعطائه المتجسّد في مؤلفاته من تفسير وفقه وأصول وفلسفة واجتماع واقتصاد الأثر الكبير في خلق طبقة علمية رائدة . . .



الصحافة

داود صليـوا

من قدمـاء رجال التعليم والصحافـة ، المعلم داود صليوا ابن الشمّاس يوحنّـا صليوا ولد في الموصل في ٧ تشرين الثاني ١٨٥٢ ، وفقد حنـان الأمومة طفلاً . درس في المدرسة الكلدانية ، ثم تلقى اللغـة العربية وآدابها على المطران ميخائيل نعمو ويـوسف باشعالم والبطريـرك عبد يشـوع خياط . وعيّن وهـو بعد صبيّ معلماً في مـدرسته ، ثم عهـد إليه بإدارتها فأمضى في تلك المهمة أربع سنوات .

وانتقل إلى بغـداد سنة ١٨٧٤ وزاول التعليم في المدارس الأهليـة ثـلاثين عامـاً . ثم أعلن الدستـور في البلاد العثمانية وأطلقت حـرية الصحافـة ، فأصدر جريـدة «صدى بابل» في ١٣ آب ١٩٠٩ ، وقد اشترك في إصدارها معـه في باديء الأمر يوسف رزق الله غنيمة . وأصدر بعـد ذلك مجلة فكاهية روائيـة نصف شهرية باسـم «الغرائب» (شباط ١٩١٣) نشر منها ١٢ عدداً .

نشبت الحرب العامـة وخاضت تركيـة غمارها ، فنفي داود صليـوا مع الأب أنستاس الكرملي وعبد الحسين الأزري وغيرهما إلى قيصرية الأناضول ، حيث قضى قرابة السنتين (١٩١٤ـ١٩١٦) .

وقد فقد بصره في أعوامه الأخيرة ، وقضى نحبه ببغداد في ٤ تشرين الثاني ١٩٢١ .

وضع رسـالـة في ترجمة الـوالي نـاظم بـاشا (١٩١٣) وألف كتبـاً في الصرف والنحـو والمنطق واللغـة العربيـة . ودعا في جـريدتـه إلى استعمال العربيـة في العراق في الشـؤون الرسمية بدلاً من التركية ، ونادى بأهمية الصحافة في تثقيف أبناء الشعب وإصلاح أمور البلاد ونشر العلم والأدب وشدّ وثاق الروابط الإنسانية . ونظم شعراً في التهنئة والمديح ، كقوله :

غـرست لكم في المدح مـا اخضرّ روضـه ... وألقت إليـه الـزُّهْـر عقـداً من الـزهـر

وسطّـرت في خـدّ الـزمـان حقيقـة ... ملخّصهـا فخـر يـدوم على فخـر

لقـد جمع الله المحـاسن فيكـم ... كما جمع الأضـواء في مطلع الفجـر

سليمان الدخيل

الكاتب الصحفي المؤرخ سليمان الدخيل وهو ابن صالح بن دخيل بن جار الله النجدي، ولد في القصيم من أعمال نجد سنة ١٨٧٣ . وقدم إلى بغداد فتتلمذ على محمود شكري الألوسي. وقد طاف في بلاد العرب والهند، وكان واسع الاطلاع على أحوال الجزيرة العربية والخليج وعادات العرب وأخبارهم.

أصدر في بغداد جريدة أسبوعية باسم «الرياض» (٧ كانون الثاني ١٩١٠)، أعانه على إصدارها عمه الشيخ جار الله الدخيل، وكان وكيل الأمير ابن رشيد وصاحب تجارة واسعة مع نجد وجزيرة العرب. وكان إبراهيم حلمي العمر محرراً لهذه الجريدة. ثم أصدر سليمان الدخيل وإبراهيم حلمي مجلة باسم «الحياة» (كانون الثاني ١٩١٢) احتجبت بعد صدور أربعة أعداد.

نشبت الحرب العامة وخاضت الدولة العثمانية غمارها فشرّدت رجال الفكر وأصحاب الأقلام، وفرّ سليمان الدخيل إلى نجد. وعاد بعد الحرب إلى بغداد فعين قائمقاماً لقضاء عانة في نيسان ١٩٢١ . ثم عيّن مديراً لناحية بلد في كانون الثاني ١٩٢٣، ونقل إلى المحمودية فالكوفة (حزيران ١٩٢٥) وكان وكيل قائممقام الجبايش في كانون الأول من تلك السنة. ثم عاد إلى الصحافة في كانون الأول ١٩٣١ رئيساً لتحرير جريدة «جزيرة العرب» الأسبوعية لصاحبها داود العجيل، ولم تستقم سوى ثلاثة أشهر.

ورجع إلى الوظيفة بعد ذلك فكان مديراً للتحرير في لواء كربلاء (١٩٣٤) فالناصرية (آب ١٩٣٨). وتوفي ببغداد سنة ١٩٤٥ .

كتب سليمان الدخيل مقالات عن الجزيرة العربية في مجلة لغة العرب وغيرها. وألف: القول السديد في أخبار إمارة آل رشيد (١٩٦٦) الوهابية (١٩١٤) العقد المتلألىء في حساب اللآلىء، تحفة الألباء في تاريخ الاحساء (١٩١٣). ومن الكتب التي قام بنشرها: عنوان المجد في تاريخ نجد (١٩١٠) الفوز بالمراد في تاريخ بغداد (١٩١١)، نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب (١٩١٤).

وكان أبوه الشيخ صالح بن دخيل بن جار الله النجدي من رجال العلم كتب بحوثاً في مجلة المقتطف المصرية في الدفاع عن المذهب الوهابي وذلك في السنوات الأولى من القرن العشرين.

محمد كامل الطبقجلي

ينتمي إلى الأسرة البغدادية المعروفة. أصدر في ٦ كانون الأول ١٩٠٩ جريدة عربية

تركية باسم «بين النهرين». كان ائتلافياً مناوئاً للاتحاديين، فلما اغتيل الصدر الأعظم محمود شوكت باشا في استانبول سنة ١٩١٣، أقام الأفراح في داره ثلاثة أيام ابتهاجاً بمقتله ـ على ما حدّثني به سامي خوندة. واعتقل على أثر ذلك في حزيران من تلك السنة. ثم رأى استفحال سلطة رجال الاتحاد والترقي فغادر بغداد ناجياً بنفسه إلى الهند، وأقام في بمبي.

قال سامي خوندة إنه كان يصدر جريدة «الرافدين» سنة ١٩٢١ فإذا برجل يدخل عليه في الإدارة، وكان معتمراً الطربوش ولابساً السّراويل الهندية والجلباب، وعرّف نفسه بأنه محمد كامل الطبقجلي. رحّب به سامي، فقال الرجل: لقد قمنا بواجبنا تجاه الترك، فعليكم، يا أولادي، أن تواصلوا جهادكم ضد الإنكليز وتستخلصوا حقوق الشعب منهم.

وعاد محمد كامل إلى الهند ثانيةً وأدركه الحمام فيها.

وهو والد الزعيم ناظم الطبقجلي الذي اشترك في حركة العقيد عبد الوهاب الشوّاف في الموصل سنة ١٩٥٩ وأعدم معه على عهد الزعيم عبد الكريم قاسم.

داود نيازي

من رجال الصحافة القدماء، مارس داود نيازي المحاماة في البصرة وأصدر فيها، على أثر إعلان الدستور العثماني، جريدة عربية تركية باسم «الفيض» (أيار ١٩١٠). وقد ظلّ يصدر جريدته حتى انتحر في نيسان ١٩١١.

قاسم جلميران

من قدامى رجال الصحافة، موصليّ المنبت، كان من ذوي الأملاك في البصرة. أصدر فيها جريدة «إظهار الحق» باللغتين العربية والتركية في أول حزيران ١٩٠٩، وعهد بتحرير القسم العربي إلى الشاعر عبد القادر العبادي.

وقد اغتاله فلاحوه في نيسان ١٩١٠.

فتح الله سرسم

فتح الله بن جرجيس سَرْسَم ولد في الموصل سنة ١٨٧٥ وتعلم اللغات العربية والتركية والفرنسية. عيّن عضواً بمحكمة البداءة سنة ١٩٠٥، فعضواً بمجلس إدارة الولاية ومحكمة الاستئناف.

ولما أعلن الـدستور العثماني أصـدر جريـدة أسبـوعية في الموصل بـاللغتين العربيـة والتركية بـاسم نينوى (١٥ تموز ١٩٠٩)، وكان مـديرها المسؤول محمـد أمين الفخري. وعاد بعـد ذلك عضواً بمجلس الإدارة (١٩١٢) فعضو مجلس الولايـة العام (١٩١٤ ـ ١٩١٨).

واحتلّ البريطانيـون الموصل سنة ١٩١٨ فعينوه عضواً بـالمجلس البلدي (١٩٢٠) فعضواً بمجلس الإدارة ونائب متصرف لواء الموصل (١٩٢١). وانتخب نائباً عن اللواء المذكور في المجلس التأسيسي العراقي سنة ١٩٢٤. وقد توفي في سورية في تشرين الثاني ١٩٢٧.

كانت له عناية بالمخطوطات ولا سيّما ما يتعلق منها بالموصل وتاريخها.

ولـده: متّى فتح الله سرسم أصـدر في الموصل جـريـدة «فتى العـراق» (١٩٢٩) و «الإخلاص» (١٩٣٠) فجريدة «البلاغ» (١٩٣٠) وانتخب نائباً عن الموصل في حزيران ١٩٣٩، وأعيد انتخابه في آذار ١٩٤٧ وظلّ نائباً إلى ثورة تموز ١٩٥٨.

عبد الوهاب الطباطبائي

ينتمي إلى أسرة بصريّة قديمة حسنيّة النسب، وهو عبد الوهاب بن عبد الله بن أحمد بن عبد الجليل الطباطبائي. كان جدّه عبـد الجليل شاعراً فقيهاً معروفاً في عصره ولد في البصرة سنة ١٧٧٦ وارتحل إلى البحرين فالكويت حيث أدركه الحمام سنة ١٨٥٤.

وقـد ولد عبـد الـوهاب في الكـويت سنـة ١٨٧٥ ودرس على علمائها. ثم جـاء إلى البصرة فأتم دراسة الأدب واللغـة وعلوم الـدين. ولازم السيد طـالب النقيب وزار معه مصر والأستانة، والتحق بالجمعية الإصلاحية التي أسّسها قبيل الحرب العامة. وراسل جريدة المؤيد المصريّة لصاحبها الشيخ علي يوسف.

وحرّر جريـدة «الدستور» التي أصدرهـا في الثغر عبد الله الزهير في ٢٢ كـانون الثاني ١٩١٢. وأصدر بعـد ذلك جريدة «صدى الـدستور» باللغتين العربيـة والتركية في ٢٥ أيلول ١٩١٣، فظلت تصدر إلى احتلال البصرة في كانون الأول ١٩١٤.

وعيّن على أثر تأليف الحكومة العراقية مديراً لناحية الزبير (كانون الثاني ١٩٢٣)، ثم أصبح رئيساً لكتـاب بلدية البصرة في سنـة ١٩٢٩. واعتزل الخدمة سنـة ١٩٤٩. وله مقالات كثيرة في الصحف.

وقد توفي في البصرة في تموز ١٩٥٧.

أخوه عبد المحسن بن عبد الله الطباطبـائي (١٨٨١ ـ ١٩٢١) ولد في الكويت ونشأ

في البصرة واشترك مع أخيه عبد الوهاب في تحرير جريدة الدستور. وكان كاتباً أديباً وشاعراً ينظم بالفصحى والعامية، ويعمل في التجارة.

علي الجميل

الصحفي الأديب علي الجميل ولد في الموصل سنة ١٨٩٠، ودرس في المدارس الدينية. ووظف كاتباً في المحكمة الشرعية بمسقط رأسه (١٩١٠)، ثم انتقل إلى دائرة الأوقاف. وظهر ميله إلى الكتابة، وهو في عنفوان الشباب، فنشر مقالاته في جريدة «النجاح» الموصلية لصاحبها خير الدين العمري وراسل جريدة «المصباح» التي أصدرها عبد الحسين الأزري في بغداد قبيل الحرب العظمى. وتولى تحرير القسم العربي في جريدة «الموصل» الرسمية والترجمة في مطبعة الولاية. وألف: التحفة السنية في المشايخ السنوسية (١٩١٣).

مضى إلى حلب طلباً للاستشفاء من مرض ألمّ به، فلما عاد إلى الموصل، زاول أعمال والده التجارية، ثم عيّن رئيساً لكتّاب غرفة تجارة الموصل. وأنشأ جريدة «صدى الجمهور» سنة ١٩٢٧ نصف أسبوعية واستمرّ على إصدارها إلى وفاته. وقد توفّي في حلب في أول تشرين الأول ١٩٢٨ ونقل جثمانه إلى الموصل ودفن بها.

كان شاعراً أديباً رقيق الحاشية، حاضر النكتة، سريع البديهة، عرفه إبراهيم الواعظ في أثناء إقامته بالموصل سنة ١٩١٧/ ١٩١٨ وتوثقت صلته به وحصلت بينهما مطارحات شعرية ونثرية. فمما قاله علي الجميل يهنىء الواعظ بعيد الأضحى:

يميناً بربّ البيت والليل إذ يسري،	بك ابتزّ قدّ العيد في حلل الفخر
تكامل حسناً من معانيك سعده	فأضحت به الأيام باسمة الثغر
وأبدى من الإقبال ما أنت أهله	وقد جاء للتبريك، يا طلعة البدر
فدم رافلاً بالعزّ والسّعد والبقا	حبيباً لكلّ العالمين مدى الدّهر

وقال أيضاً:

لك منّي بين الجوانح قلب	صادق الودّ معجب بولائك
وكأنّي به إليك اشتياقاً	خافق لا يقرّ دون لقائك

رزّوق غنّـام

شيخ الصحـافة العـراقية في عصره ولـد في بغداد سنـة ١٨٨٢ وتوفي بها في ٢٤ آذار ١٩٦٥ . أصـدر جريـدة «العـراق» سنين عديـدة . وقد تـرجمت لـه في «أعلام اليقظـة الفكرية» .

كـان رزّوق غنـام، مثل أمين الـريحاني (١٨٧٦ ـ ١٩٤٠) ومـارون عبّـود (١٨٨٦ ـ ١٩٦٢) في لبنان، مؤمناً بكل جوارحه بالقومية العربية والوحدة العراقية . وكان كثيراً ما يقول إنّ على المسيحيين وسائر الأقليات في العراق أن يؤمنوا بالإسلام أو، في الأقلّ، أن يتقاربوا مع الأكثرية المسلمة ويتركوا ضيق أفكارهم الطائفية ليندمجوا ويذوبوا في الوحدة الوطنية الجامعة . وكـان مخلصاً للمبادىء العربية منذ شبابـه حين كان موظفاً في بعض الشركات الإنكليزية العاملة في العراق في العهد التركي . فلما احتلّ الإنكليز العراق كان سهلاً عليه أن يصدر جريدته ويصبح داعية من دعاة القومية العربية، منضوياً إلى لواء نوري السعيد ورفاقه من رجال الثورة العربية .

وقد قال سلامة موسى : إنّ الإسلام دين بلادي ومن واجبي أن أدافع عنه . وفي سنة ١٩٣٦ قال مكـرم عبيد بـاشا وزيـر المالية المصريـة : أنا مسيحي دينـاً، ولكنني مسلم بالنظر إلى بلادي المسلمـة . وكان مارون عبّود الأديب الناقد الشهير يـدعو إلى إسلامية مسيحيّي الشرق .

كان رزوق غنام يرى أن الدولة العثمانية التي استعمرت البلاد العربية قروناً طويلة قد وقفت سداً منيعاً في وجهها وحالت دون تقدمها وأخذها بأسباب النهضة الحديثة ودون إبراز شخصيتهـا الأصيلة في مجال الآداب والعلوم . وكـان يضرب مثلاً على ذلك بمصر التي، حالما انفصلت فعلاً عن جسم الدولة وتولّى أمورها محمد علي باشا سنة ١٨٠٥، اتجهت وجهة جديدة نحو النهضة جعلت منها الرائدة في ميدان التقدم بين العرب .

قال إبراهيم صالح شكر يذكـر رزوق غنام (تشرين الثاني ١٩٢٣) إنه أقدر صحافي عرفنـاه في هذه الـديار يعمل على جعل جريـدته في مقدمـة الجرائد العراقيـة . وقال إن ثمـرات جريـدة العراق تنطق لـه بالجهـاد، وهـذه خدمـة «العراق» لـلآداب العربيـة بإصدارها الأعداد السنوية الممتازة المحتوية على «الجليل والبليد» من آثار أدبائنا . وقال إن سياسة رزوق عربية منذ كان المتبجّحون بالعروبة في صفوف أعدائها الاتحاديين . . .

إبراهيم حلمي العمر

الكاتب الصحفي البارع إبراهيم حلمي العمر ولد في بغداد سنة ١٨٩٠ وتوفي بها في ١٢ كانون الثاني ١٩٤٢ . فصّلت ترجمته في «أعلام اليقظة الفكرية» .

لقيته في دمشق الآنسة جرترود بيلّ التي زارت سورية في تشرين الأول ١٩١٩ في أثناء

حكم الأمير فيصل وقـدّمت إلى الحكـومة البريطـانيـة تقريـراً سريـاً عن الوضع هنـاك والـرجال الـذين يضطلعـون بالحكم، وجلّهـم من الضبـاط العـراقيين كنوري السعيـد وياسين الهاشمي وجعفر العسكري ومولود مخلص وناجي السويدي إلخ.

قالت إن الصحفي إبـراهيم حلمي العمر زارها مـراراً، وهو يصدر صحيفـة اسمها «لسان العـرب». وقالت إن معرفتـه للّغة العـربية ممتازة حتى أن الأب أنستـاس ماري الكـرملي، وهو خير حكـم في هذا الموضـوع، حـاول استدراجـه إلى المجيء إلى بغـداد ليعاونه في تحرير الصحيفة العربية التي تصدرها الإدارة البريطانية.

وقالت إن إبراهيم حلمي ميّـال إلى بريطانية، وقد نشر في «لسـان العرب» عدداً من المقالات المحبّذة للإدارة البريطانية. وتفـاوض مع المس بيلّ عن إمكان انتشار جريدته لديها، وقـال إن دعوته الصـادرة من سورية تكـون أكثر نفـوذاً مما لو كـانت تصدر من مطبعة الحكومة في بغداد. وهو يأمـل أن تعضد السلطات صحيفته، وأشار إلى إمكان موافقته على العمل في بغداد «إذا منحناه شروطاً سخيّـة». . وختمت كلامها قائلة إنه، ولا ريب، شابٌ قدير.

عاد إبراهيم حلمي إلى بغداد فأصدر فيها جريدته «لسان العرب» ثم استعاض عنها بجريدة أسماها «المفيد». وقد غيّر لهجته وصار ينتقد سياسة الانتداب البريطاني وظاهر الحركة الوطنية وتحدث عن المعاهدات والعهود بأنها «قصاصات ورق». . . وقد عطلت جريدته في آب ١٩٢٢ وفرّ إلى إيران.

رجع إلى بغـداد سنة ١٩٢٣. ولما لم يمنح امتيـازاً لإصـدار جريـدة، قـام صديقـه معروف الرصافي باستحصال امتياز جريـدة باسم «الأمل» وعهد بتحريرها إليه. أخبرني مصطفى علي أن الرصـافي قال لإبـراهيم بعد ذلك: إنك تحسن جيـداً تعليق الطبل في عنق البعض، ثم تدقّ عليه دقاً عنيفاً!

وأخبرني صبحي البصـام أن الشاعر إبـراهيم أدهـم الزهـاوي سئل أن يرثي إبـراهيم حلمي العمر عند وفاته، فقال ارتجالاً:

قـــالــــوا: ألا تبكـي على مثلـــــه؟	فقلت: صـــونـــوا الـــدمع عـن طيشـــه
وإنّـــا لفي دهـــــر وجـــدنـــا بـــه	مــــوت الفتى أفضـل من عيشــــــه!

كان إبـراهيم حلمي كاتباً قـديراً يحمل على الحكومـة باسم المعارضـة حملات شعواء ناشراً مقالاتـه غفلاً من التوقيع، ثم يصبح في الغداة فإذا به ينبري للردّ بـاسم الحكومة على مقاله بالأمس، وهو في كلا المقالين قويّ الحجة ناصع البيان. وقيل إن السيد جمال الدين الأفغاني كان ذا موهبة خـاصة في قوة الإقناع، فكان يستطيع أن يأتي بما يدلّ على استحســان الشيء واستهجـانـــه في آن واحـد. وسئل في ذلك فقـــال: إن لكل شيء وجهين، ولكل إنسان صفات طيبة وقبيحـة. وإن الحكم على الأشخاص والأشياء إنما

يختلف باختلاف الظروف واختلاف رغبة الناظر وموقفه. فإذا نظرنا إلى الشخص من جهة المحاسن مدحناه، وإذا نظرنا إليه من جهة المساوىء ذممناه.

قاسم العلوي

قاسم السيد خضر العلوي من رجال الصحافة الوطنية في العراق ولد في جانب الكرخ من بغداد سنة ١٨٩٦، ودرس في المدرسة الرشدية العسكرية. ثم قصد الأستانة سنة ١٩١٢ وانتمى إلى المدرسة العسكرية، لكنه تركها عند نشوب الحرب العظمى بعد سنتين والتحق بمدرسة الهندسة.

عاد إلى بغداد في أوائل سنة ١٩١٧. وأنشئت دار المعلمين في حزيران من تلك السنة فعيّن مدرساً بها. ثم عمل مهندساً في دائرة الريّ بمنطقة الفرات الأوسط، وتولّى التدريس في مدرسة الهندسة ببغداد حيناً.

وأصدر عبد الغفور البدري جريدة الاستقلال في أيلول ١٩٢٠ فعهد بتحريرها إلى قاسم العلوي. قال رفائيل بطي في محاضراته عن الصحافة في العراق: «تولّى تحرير (الاستقلال) قاسم العلوي... وأعظم ما صرفت إليه الجريدة جهدها المقال الافتتاحي - وكان العهد عهد مقالات - فكان في الغالب يعالج القضية العراقية ويطالب بفسح مجال الحرية ويبرهن على استعداد الشعب للاستقلال. وقد عنيت الجريدة بمشروع الحكومة العراقية المؤقتة التي كوّنتها سلطة الاحتلال البريطانية تخلّصاً من أزمة الثورة وتمهيداً لتأسيس دولة العراق...» وقد عطلت الجريدة بسبب مقالاتها التي تلهب الشعور الوطني وسجن صاحبها وقاسم العلوي وفريق من كتابها كمحمد مهدي البصير وعلي محمود الشيخ علي (شباط ١٩٢١)، وأفرج عنهم بعد ستة أشهر.

قام بعد ذلك بالتدريس في مدرسة التفيّض والمدرسة الثانوية المركزية، وكان يدرّس الرياضيات وعلم الطبيعة. وفي سنة ١٩٣١ انتمى إلى كلية الحقوق، وتخرّج فيها سنة ١٩٣٤. وزاول المحاماة ثلاثين عاماً حتى سنة ١٩٦٤ حين اعتزل مهنته لمرضه. وأدركه الحمام ببغداد في أول آب ١٩٦٧.

كان كاتباً سياسياً ألمعياً، ضليعاً بالعربية والفقه والأدب، يحسن من اللغات التركية والفارسية وشيئاً من الفرنسية والألمانية.

حسن غصيبة

من رجال الصحافة والإدارة والمحاماة، ينتمي إلى شيوخ قبيلة العزّة. وهو حسن بن محمود الخلف الغصيبة الفارس. ولد سنة ١٨٨٩، وتخرّج في مدرسة العشائر في استانبول، وعيّن مديراً للمدرسة الرشدية في بعقوبا سنة ١٩١٢. ثم كان ضابطاً في الجيش العربي في أثناء ثورة الحجاز.

عاد إلى بغداد بعـد الحرب العظمى، فاشتغل في الأحزاب الوطنية. وأصـدر جريدة «العاصمـة» في ٥ تشرين الثاني ١٩٢٢ لتنطق بـاسم الحزب الحرّ العراقي. قـال رفائيل بطّي في محاضراته عن الصحافة في العراق: «عـرفت مقالات حسن غصيبة رئيس تحرير «العاصمـة» الافتتاحيـة بأنّها من أحسن المقالات الصحفيّـة في يومهـا، بل من أحسن المقالات في الصحـافة العراقيـة، مكتوبة بأسلوب فصيح، معتـدلة اللهجة، نـاضجة التفكير. . .» وسجلت هذه الجريـدة موقفاً مشرّفاً في الـدفاع عن الحرية الفكـرية وعن كرامة الصحافة والصحفيّين. وعطّلت في ٢٤ آب ١٩٢٣.

درس حسن غصيبة في الـوقت نفسه في مدرسـة الحقوق فتخرّج فيهـا سنة ١٩٢٣. وعيّن في آذار ١٩٢٤ رئيس ديـوان الإنشـاء في المجلس التـأسيسي. ونقل إلى السلك الإداري فكان قـائممقاماً لقضاء شط العـرب (تشرين الأول ١٩٣١) فعلي الغربي (آب ١٩٣٣) فتلّعفر. ونقل مدعياً عاماً في بغداد (تشرين الثاني ١٩٣٤)، ثم اعتزل الخدمة وزاول المحاماة في أوائل سنة ١٩٣٨.

وقد توفّي ببغداد في ١٢ آذار ١٩٦٠.

وعرف أخوه محمد شـاكر غصيبة من الكتاب والمحامين البارزيـن، وقد ولد في نحو سنة ١٨٨١. وهو ظريف، راوية للشعر الجيـد والأخبار اللطيفة، قال إبراهيم الواعظ في أسبوعياته (١٩٤٤): وقد قرأ لي الأستاذ شاكر غصيبة المحامي هذين البيتين:

وأصحـاب عهـدتهم دروعـاً ... فكـانـوهـا ولكن للأعـادي
وخلتهم نصـالاً صـائبـات ... فكـانـوهـا ولكن في فـؤادي

ولا يزال شاكر غصيبة حياً (١٩٧٤).

سليم حسّون

الصحفي الكاتب المعلّم سليم حسّون، وهو سليم بن سمعان بن إبراهيم حسّون، ولـد في الموصل سنة ١٨٧١ ودرس في مـدرسة الآبـاء الـدومنيكيّين، ثم أصبح مدرسـاً بتلك المدرسـة سنين طـويلـة، ووضع كتبـاً مـدرسيـة منهـا: تعليم الطـلاب أصـول التصريف والإعراب (١٨٩٩) الأجوبة الشافية في فنّي الصرف والنحو (١٩٠٦) مختصر مفيد في أصـول الصرف والنحو (جزآن ١٩٠٦) خلاصـة الجغرافيـة، كتاب الـذهب لتهـذيب أحـداث العـرب (في جـزءيـن، ١٩١١). وتـرجم مسرحيـة استشهـاد مـار نرسيسيوس (١٩٠٢) وألف مسرحية شعّو (١٩٠٥)، وقد مثّل كلاهما في الموصل.

ولما أعلنت الحرب العظمى انصرف عن التعليم واشتغل بالرسوم الفنّية، حتى إذا ما احتلّ الإنكليز الموصل وأصدروا جريـدة «الموصل» الرسميـة في تشرين الثاني ١٩١٨،

عمل محرراً بها أمداً، ثم عيّن مفتشاً للمعارف في مسقط رأسه. ونقل إلى البصرة فلم يلبث طويلاً حتى استقال وزار أوروبة وأسس دار الطباعة الحديثة في بغداد. وأصدر جريدة «العالم العربي» اليومية في آذار ١٩٢٤، فظلت تصدر إلى ما بعد سنة ١٩٤٧، وإن كان سليم حسون قد ترك الإشراف عليها في سنواتها الأخيرة لمرضه وعجزه. وكانت هذه الجريدة من الصحف الشعبية تعنى بشؤون الناس ومعيشتهم اليومية وتنتهج الاعتدال في أسلوبها وسياستها.

انتخب سليم حسون نائباً عن الموصل سنة ١٩٣٣ ـ ١٩٣٤ و ١٩٣٤ ـ ١٩٣٥، ثم انتخب نائباً عن البصرة خلفاً لرفائيل بطي (أيار ١٩٣٧). وناب عن بغداد بعد ذلك في مجلس ١٩٣٧ ـ ١٩٣٩.

وتوفي ببغداد في ٤ تشرين الأول ١٩٤٧.

كان سليم حسّون كاتباً ميسّر الأسلوب، قريب المعاني إلى أذهان الجمهور، كتب «نقدات الحسّون» وسواها من الأبواب الصحفية. وقد عني بقضية فلسطين والدفاع عن عروبتها، واهتمّ بالبحوث والكتب التي تناولت شؤون العراق فعهد بترجمتها وتولى نشرها في جريدته بصورة متسلسلة.

قال جلال بابان: إنّ الأستاذ سليم حسّون يعتبر في نظري مثالاً طيّباً للخلق الصحيح لوفائه وأمانته وتحلّيه بالصفات الحميدة العالية، هذا إلى مواهبه الكثيرة وقابلياته الفذّة التي استثمرها في سبيل المصلحة العامة . . .

وقال صبيح نجيب: إن (سليم حسّون) يعتبر من أوائل المناضلين في سبيل القضية العربية وخاصة القضية الفلسطينيّة . . . وثمة ناحية ينبغي الإشارة إليها، وهي صراحته في القول والعمل . . .

وقال نور الدين داود: كان (سليم حسون) إلى جانب كونه من الصحافيّين البارعين مربّياً صالحاً تخرّج على يديه عدد غير قليل من الطلاّب النابهين . . . وأذكر أن صحيفته «العالم العربي» قد صدرت في يوم افتتاح المجلس التأسيسي سنة ١٩٢٤ واعتبرت فتحاً جديداً في عالم الصحافة لأنها جاءت بنوع جديد من النقد الهادىء الرزين والموجع في نفس الوقت. ولم يكن في بغداد آنذاك سوى صحيفتين سياسيتين: العراق والاستقلال، وكانت الأخيرة صحيفة الوطنية الملتهبة، والعراق صحيفة الاعتدال المتطرّف، فكانت العالم العربي بين الاثنتين تعتدل وتتطرف كما يقضي الزمن وتقضي المصلحة العامة . . .

بولينا حسّون

وهي ابنة عمّ سليم حسّون، ولدت في الأردن في نحو سنة ١٨٩٥. وقدمت بغداد مع أسرتها سنة ١٩٢٢ فأصدرت مجلة «ليلى» وهي أول مجلة نسائية عراقية في تشرين

الثاني ١٩٢٣ واستمر صدورها سنتين. وعملت بولينا حسون في الوقت نفسه مديرة لإحدى مدارس البنات، ثم عادت إلى الأردن. وتوفّيت هناك سنة ١٩٦٩.

وخال بولينا حسون: الشاعر الباحث إبراهيم الحوراني (١٨٤٤ ـ ١٩١٦)، وهو حمصيّ الأصل حلبيّ المولد بيروتيّ الوفاة، كان معلماً في الكلية الأميركية ببيروت ومحرراً للنشرة الأسبوعية، وفي شعره جزالة ورقّة.

رفائيل بطّي

دعاه أمين الريحاني ابن خلّكان العراق، وسار ذكره في الآفاق، وكان واسطة عقد الأدباء ودائرة معارفهم ولم تتجاوز سنّه الثانية والعشرين.

ولد رفائيل بن بطرس بن عيسى بن بطّي في الموصل سنة ١٩٠٠، ودرس في مدرسة الآباء الدومنيكيّين بها، ثمّ أصبح معلّماً. وأقبل على المطالعة بنهم شديد وأخذ بالكتابة والتحبير. وتوفّي أبوه، وكان حائكاً رقيق الحال، وجاء إلى بغداد سنة ١٩١٩، وانتسب إلى دار المعلمين الابتدائية وتخرّج فيها سنة ١٩٢١. وعيّن معلماً، لكنه ترك مهنة التعليم وعمل محرراً في جريدة «العراق» (١٩٢١ ــ ١٩٢٩). ونهض في الوقت نفسه بأعمال جمّة، فكاتب الصحف والمجلات في سورية ومصر. وأصدر مع عبد الجليل رزق الله اوفي بجلة «الحرية» (تموز ١٩٢٤)، فدامت سنتين وكانت من المجلات العربية الراقية. وخدم في دوائر الحكومة، فكان مديراً للتحرير في مديرية الزراعة العامة (أيار ١٩٢٤) فمعاون سكرتير وزارة الداخلية (كانون الثاني ١٩٢٦). ودرس في مدرسة الحقوق فنال شهادتها سنة ١٩٢٩.

وأصدر في ذلك العهد كتباً، منها: الأدب العصري في العراق العربي (جزآن ١٩٢٣) سحر الشعر (١٩٢٢) أمين الريحاني في العراق (١٩٢٣) الربيعيّات (١٩٢٤). وترجم رواية «يوم زلزلت الأرض زلزالها» نشرت تباعاً في جريدة العراق.

كانت سنة ١٩٢٩ عام تحوّل في حياة رفائيل بطّي، إذ أصدر جريدة «البلاد» في ٢٥ تشرين الأول ١٩٢٩، وابتكر فنوناً وأبواباً صحفية لم تعهد من قبل في الصحافة العراقية. وعطّلت البلاد في ٨ أيار ١٩٣٠، فأصدر بدلاً منها جريدة صوت العراق (١٠ أيار) فالجهاد (٢٧ تموز) فالشعب (٢٧ آب) فالزمان (آخر آب). وسيق إلى المحاكمة بعد تعطيل هذه الجريدة في ٢٧ تشرين الأول ١٩٣٠ بتهمة الطعن في الذات الملكية.

ثم استأنف إصدار جريدة البلاد في ٢٧ آذار ١٩٣١، فعطّلت بعد ٥ أيام. وأصدر جريدة الأخبار (١٨ حزيران ١٩٣١) فالاخاء الوطني (٢ آب ١٩٣١). وأعاد إصدار الأخبار في ٢ تشرين الثاني، فظلت تصدر وتغيب، حتى صدرت البلاد مرة أخرى في

١١ كانون الأول ١٩٣٤ ، وعطلت في ٣٠ آب ١٩٣٥ . وعادت إلى الصدور حتى أوقفها في أول حزيران ١٩٤١ .

كانت هذه الحقبة من الجهاد الصحفي حافلة، أوقف في أثنائها (١٩٣١) وأقصي إلى أربيل وكركوك وكويسنجق مع فهمي المدرّس في آذار ١٩٣٢ فأمضيا في المنفى نحواً من ستة أشهر. وانتخب نائباً عن البصرة (كانون الأول ١٩٣٤) وعن الموصل (آب ١٩٣٥) وعن البصرة والموصل في شباط ١٩٣٧ فاحتفظ بنيابة الموصل . وناب بعد ذلك عن البصرة (١٩٣٩ ـ ١٩٤٣). واعتقل خلال الحرب العالمية الثانية في العمارة من تموز ١٩٤٢ إلى تموز ١٩٤٣ .

أعاد إصدار جريدة البلاد سنة ١٩٤٥ . وسافر إلى مصر في منتصف سنة ١٩٤٦ ، لكن الجريدة استمرّت على الصدور إلى أواخر تلك السنة . وأقام في القاهرة نحواً من سنتين، عمل خلالها محرراً في جريدة الأهرام وجريدة الأسبوع، وألقى محاضرات عن الصحافة العربية في الجامعة الأميركية .

وانتخب نائباً عن بغداد في حزيران ١٩٤٨ ، وقد عاد من القاهرة . واستقال من النيابة في آذار ١٩٥٠ ، ثم عيّن مديراً عاماً بوزارة الخارجية (كانون الأول ١٩٥٠) وعهدت إليه شؤون الدعاية . ونقل بعد شهرين مستشاراً صحفياً في سفارة القاهرة، وأعيد إلى العمل في ديوان الوزارة بعد ذلك . وترك الوظيفة في كانون الأول ١٩٥٢ حين انتخب نائباً عن بغداد، وأصبح وزيراً للدولة في وزارة فاضل الجمالي الأولى (١٧ أيلول ١٩٥٣) والثانية (٨ آذار ١٩٥٤) إلى ٢٩ نيسان ١٩٥٤ .

وأعاد إصدار جريدة البلاد في تموز ١٩٥٣ ، ثم أوقفها حين استوزر، واستأنف إصدارها في ٢١ نيسان ١٩٥٥ . ودعي في تلك السنة لإلقاء محاضرات عن الصحافة العراقية بمعهد الدراسات العليا في القاهرة، فجمعت في كتاب «الصحافة في العراق» (١٩٥٥) . وألف أيضاً : فيصل بن الحسين في خطبه وأقواله (١٩٤٥) .

وثابر على عمله الصحفي حتى أدركته الوفاة في بغداد في ١٠ نيسان ١٩٥٦ .

وقد شغلته أعماله الكثيرة في الصحافة والنيابة عن طبع آثاره وجمع مقالاته العديدة في الصحف والمجلات العربية، منها : كتاب «في قفص الأسلاك الشوائك» (عن اعتقاله سنة ١٩٤٢)، وتراجم لرجالات العراق والعرب، وتاريخ شامل للصحافة، إلخ .

رثاه الشاعر مهدي مقلّد فقال :

أ أبا بديع، قد نجوت فما	في داركم فند ولا كند
لكنّما غرّ الحقائق في	مثواك تنطق بالّذي تجد
لا معتدٍ غرّ هناك ولا	أحد يشيع بقلبه الحسد

واسلم، ظفــــرت بعــــالم شرفت　　أخـــلاقـــه والأهـل والـــولـــد

قـــد زالت الأحقـــــاد وارتفعت　　بعـــد الــردى وقـــد انطـــوى اللّـــدد

لا يظلم التـــاريخ مـن خـــدمـــوا　　أوطـــانهم، وسيـــذهب الـــزبـــد

قـــد كنت سيفـــاً للحِمَـى، وإذا　　بـــالسيف من فـــوق الحمـى قعـــد

تكفيك، روفـــائيـل، مفخـــرة　　يـــوم النعيّ مشى لـك البلـــد

وقال طالب الحيدري:

يــا صــاحب الأدب العـــالي يصـوّره　　يـــراع متّـــزن التفكير، نسّـــاجِ

ويـــا أبـــا النشـر تمليـــه مهـــذّبـــة　　ألفـــاظـــه ومعـــانيـــه كـــديبـــاج،

-حتى ولجت مضيقـــاً مـن مـــذاهبـــه،　　خـــرجـتَ أكـــرم ولاّج وخـــرّاج

تمثل «الـــدور» مطبـــوعـــاً، وأكثـــرهم　　يمثلـون وهم في ثـــوب «مكيـــاج» . . .

يـــا غـــارس الـــورد يسقيـــه بأدمعـــه،　　الأرض غـــابـــة أشـــواك وأحـــراج

هي الحيـــاة، كما فـــارقتهـــا، نكـــد　　ومنـــزل ليس فيـــه غير إزعـــاج

شبّهت أوضـــاعهـــا في كل مـــرحلـــةٍ　　بـــزئبـق قلق الأوضـــاع رجـــراج

تجفـــو الحيـــاة عليـــاً في عـــدالتـــه　　وطـــالما ترضّى ظلـم حجّـــاج!

وقد كتبتُ عند وفاته الكلمة الآتية:

في سنـة ١٩١٩ قـدم بغـداد من الموصل فتى نحيل الجسم، أقنى الانف، مـرفـوع الرأس، حـادّ النظرات، لم يبلغ العشريـن من عمره ليجرب حظه في خضّم العـاصمة الزاخرة.

كان ذلك في اعقـاب الحرب العالميـة الاولى. وكانت تلك الأيـام عجيبة حقـاً مثقلة بالأحداث المرتقبة، متألقة كالفجر الطـالع على نهار يعد بالضوء والدفء وضروب الهناء والنشاط. لقد انتهـت الحرب بويلاتها وكوارثها، وانقشع ظـل الاحتلال العثماني الذي دام مئات الاعوام وأعلنت الدول العظمى حق الشعوب المستعبدة في الاستقلال وتقرير المصير، وبدت تباشير عهد العلم والمعرفة والرخاء. ولئن كانت البلاد لا تزال تئن تحت نير الاحتلال، ونيـل الحرية والرفـاهية والسيـادة لم يزل رهين الغيـوب، ولم يتضح حتى الطريق الـذي يؤدي إلى تحقيق الاماني الوطنيـة والشخصية، لقد كانت النفـوس عامرة بالأمل والإيمان، متطلعة إلى أيام مقبلة حافلة بمشاق الجهاد ولذاته على السواء. كانت تلك الأيـام شبيهة بعهـد الشباب الفـوار بما يتسم من رجاء وارتقـاب وتلهف واندفـاع وتطلب للمعالي واستهانة بالمتاعب والمصاعـب، فوفدت على مدينة السلام التي عادت تحلم بمجد الملك ولذة السلطان جموع الشبـان المتحضرين الطامحين، جاؤوا من البصرة والموصل ومن الحلـة والنجف ومن سائر الحواضر والقصبات ليشاركـوا في حياة البـلاد الجديدة.

لكن الشاب الموصلي لم يكن يماثل الشبان الوافدين، بل يفوق معظمهم ثقافة والمعية وذكاء. نشأ في الموصل حيث درس في بعض مدارسها المتواضعة اللغة العربية وشيئاً من الفرنسية والسريانية. وكان ولوعاً بالمطالعة يقرأ كل ما يقع في يده ويعي كل ما يقرأ ولا يني جهداً في سبيل الحصول على الكتب في عهد كانت عسيرة المنال، وقد أتيح له إلى ذلك أن يزاول التعليم آنا قصيراً وأن يحاول الكتابة والنشر. فلما وصل بغداد انتمى إلى دار المعلمين التي كانت آنذاك ملاذ الشبان الراغبين في التعلّم وسرعان ما تعرف إلى الحلقات الادبية والصحفية وأصبح من روادها ومحاور حركاتها.

لم يكن ذلك الشاب الموصلي الطموح الذي نتحدث عنه سوى رفائيل بطي الذي عرفه العراق والعالم العربي فيما بعد من أساطين الصحافة ومن رجال السياسة والقلم. احتضنته بغداد فجعلت منه كاتباً ونائباً ووزيراً، وردّ الجميل لها فرفع لواء صحافتها وترجم اعلامها وزان ندواتها ومجالسها بأدبه وفضله.

كانت السنون العشر الاولى التي قضاها الشاب رفائيل في العاصمة سني عمل ونشاط جمّ: فقد درس في دار لمعلمين ومدرسة الحقوق، وعمل في الصحافة ووظائف الدولة، وكتب وألف وترجم ونشر، ووجد الوقت إلى جانب ذلك كله ليكون اللولب النابض للحركة الأدبية وليتزوج ويكون اسرة. أي طموح كان يحفز تلك الشعلة الملتهبة من العزم والنشاط، فيرضيها بالقليل من المتعة والراحة والنوم، ويحملها على الكثير من العمل والدرس والاستطلاع! لقد كان هذا الشاب المغترب في بعض تلك السنين العجاف ينهض صباحاً فيقبل على مكتبه في دائرة الزراعة أو وزارة الداخلية، ولا يكاد يفرغ من عمله الرسمي حتى يكتب المقالات ويباشر اعمال التحرير في صحيفته، حتى إذا ما حل المساء وجدته مكباً على الدرس شأن الطالب المجتهد.

ولم يكن يفوته على كثرة مشاغله ومطالب معيشته المساهمة في تكريم الريحاني وغير الريحاني، والاشتراك في مجالس الثقافة والادب المنعقدة بلا انقطاع في دير انستاس والمعهد العلمي وفي ندوة جريدة العراق ومجالس الزهاوي والرصافي وفهمي المدرس وأضرابهم.

أخرج رفائيل بطي في هذه الحقبة «الأدب العصري في العراق العربي» بجزئيه «وسحر الشعر» و «أمين الريحاني في العراق» و «الربيعيات». وكان «الأدب العصري» الذي لم تتم اجزاؤه أول محاولة لتسجيل الأدب العراقي الناهض وتعريف اركانه ومقوماته. وأصدر مجلة «الحرية» فكانت من المجلات العربية الراقية التي لم يهيأ للعراق ـ بعد ربع قرن من الزمن ـ أن يشهد مثيلها ومثيل زميلتها «لغة العرب» الانستاسية الكرملية.

في سنة ١٩٢٩ تخرج رفائيل بطي في مدرسة الحقوق، فأصدر جريدة «البلاد» مع جبران ملكون وانصرف إلى تحريرها. وكان ذلك بدء عهد جديد في حياته.

حقق تقدماً لامعاً للصحافة اليومية العراقية وأساليبها، وخاض غمار المعامع السياسية والحزبية، فلم يلبث أن أغلقت صحيفته المرة تلو المرة، وأن قاسى مرارة الابعاد والسجن والتشريد. وفي هذه الحقبة انتخب نائباً مرات فسمعت الأمة صوته من منبر المجلس بعد أن قرأت مقالاته ووعت آراءه ونزعاته الإصلاحية.

ونشبت الحرب العالمية الثانية تنذر بالويل والثبور، ففتحت في حياة صحفينا صفحة جديدة لعلها كانت أزخر ايامه بالتقلبات والمفاجآت. قضى عهداً في معسكر الاعتقال، ثم خرج ليستأنف جهاده الصحفي. وضاقت به سبل العيش في بلده، فشدّ الرحال إلى مصر حيث عرفت مكانته وقدر فضله في المحافل العربية والأدبية. وعاد إلى بغداد فكان نائباً حينا وموظفاً حيناً آخر. ولم يلبث أن أعيد إلى مصر مشاوراً صحفياً للسفارة العراقية. ثم آب إلى بغداد ليقضي عهداً قصيراً في وزارة الخارجية، ثم يستأنف إصادر «بلاده». وحظي بالوزارة شهوراً معدودات ثم عاد إلى جهاده الصحفي، فأخذه الموت على حين غرّة وقلمه في يده، وفي نفسه آمال بعيدة لم يسمح الدهر بتحقيقها.

كان رفائيل بطي في هذا العهد من حياته كثير التلهف على عهد من الراحة والطمأنينة المادية والذهنية ينصرف فيه إلى تدوين المؤلفات التي عزم على وضعها وهيّأ لها المادة النادرة الغزيرة. لقد جمع خلال نحو من اربعين سنة معلومات شاملة تتناول سير الآلاف من رجالات العراق والعروبة خلال المائة سنة الاخيرة، ودونها على الجذاذات والبطاقات، وحقق لها المصادر والمراجع. وقد عزم ان يدوّن سير الرجال فيسهب في ترجمة العباقرة والنابغين في حقول السياسة والإدارة والعلم والادب، ولا يبخل على التابعين بإيجاز يبل الغليل. ونشر نماذج مقتضبة من هذه التراجم في جريدته في عهدها الاخير، لكن الدهر لم يمنحه ما تاق إليه من سعة وفراغ لاخراج مشروعه الضخم الذي أعد له العدة وهيأ له الاسباب.

كنت وثيق الصلة برفائيل بطي في سنواته الاخيرة، فكثيراً ماكنا نجتمع هنا أو هناك لنتكلم في الأدب والتاريخ وسير الرجال ولنتبادل الرأي في المواضيع الكثيرة التي عنينا بها كلانا. كان يحدثني عن آماله ومشاريعه الأدبية الضخمة، وعن التراجم التي شغف بها والتي كان يود ان يتفرغ يوماً ما لكتابتها بشكل يرضي نزعته الأدبية والتاريخية. وكان واسع الإطلاع على تواريخ الرجال الذين نبغوا في العراق وسائر الاقطار العربية منذ عهد النهضة الحديثة، يحفظ سيرهم وآثارهم ولا تفوته من أمرهم شاردة ولا واردة. ولعله كان أعرف أهل زمانه بالمظان التي تضم أخبارهم خطيرها وصغيرها، وكان يفرح بالعثور على خبر جديد لشخص مشهور أو مغمور أو الوقوف على مصدر أنفٍ لتراجم الرجال الذين نذر نفسه لتحقيق سيرهم.

لم يشك رفائيل بطي على ما أعلم من مرض أو هزال، فجاءت وفاته المفجعة المفاجئة

ضربة قاصمة صمّت لها الآذان وجزعت النفوس. قضى وهو أكثر ما يكون قوة ونشاطاً وأوسع ما يكون أملا ورجاء. ولقد وقف في بيروت قبل شهر واحد من وفاته يرثي زميله اللبناني كميل يوسف شمعون، فقال: «وعند اجتماعكم لتمجيد أحد أجناد الصحافة بعد ان غيّبه الثرى، أعرب عن أمنيتي بأن يلتفت رجال البلد الشقيق ـ ونساؤه طبعاً ـ إلى من سبقوا صاحب الاحرار إلى دار البقاء، فيعترفوا بأياديهم على النهضة بل على الكيان الاستقلالي للبنان العزيز. فإن الوعي المتغلغل في العالم العربي قد بثه هؤلاء الرواد الذين جازوا العقبات واقتحموا المخاطر. وبينهم شهداء ضحّوا بأرواحهم في سبيل الحرية والاستقلال والمجد القومي. فمن واجبنا أن نلتفت إلى الرعيل الأول من صحافييهم، فنخلدهم بتدوين سيرهم والمباهاة بأعمالهم رعاية للوفاء، ولخلق معالم تحفز الشباب ليندفعوا في ساحة العمل والجهاد وهم واثقون بما ينعمون به من راحة الضمير وسعادة الخلود..»

ان هذه الكلمات التي نطق بها رفائيل بطي قبل أن يصرعه الموت وهو في حلبة الجهاد جديرة أن تلقى أسماعاً صاغية وقلوباً واعية من أبناء الجيل الجديد، فيخلدوا سيرته وسيرة اخوانه من أبطال الصحافة ويتخذوهم قدوة حسنة ونبراساً مضيئاً في السعي والجهاد.

***

عرفت رفائيل بطي أعواماً طويلة، وكتبت في جريدته وربطتنا بعد ذلك أواصر صداقة وثيقة لم تنقطع إلى يوم وفاته. وقد زارني في مكتبي على عادته كلما مرّ به صباحاً قبل أن يذهب إلى ادارة جريدته. وفي اليوم الثاني رنّ جرس التلفون قبيل الظهر، فإذا بالناعي ينعاه فجأة، ولم يكن مريضاً بل ربما كان مجهداً مرهق الأعصاب.

كان كثير الطموح، ولا يعتني بصحته وراحته، ويريد أن يستفيد من وقته أكثر مما يتاح لكهل في سنّه. كان يريد أن يكون كاتباً أديباً وصحفياً وسياسياً وطنياً ورجلاً اجتماعياً ويريد لو استطاع أن يحضر في مكانين في آن واحد وأن يكون موضع ثقة الحكومة والمعارضة معاً. وحاول مراراً أن ينشىء مشاريع صحافة ونشر مشتركة بين العراق ومصر وبين رجال المال والسياسة والأدب. أذكر على سبيل المثال أنه جمعنا في داره مراراً لانشاء شركة نشر يساهم فيها المصريون والعراقيون، فلم يخرج المشروع إلى حيّز الوجود لأن أكثر الذين دعاهم إلى بحث الأمر لم يكونوا من رجال الأعمال بل من رجال السياسة ومنتهزي الفرص.

وقد أصدر جريدته «البلاد» لأول مرة في خريف سنة ١٩٢٩ بالإشتراك مع جبران ملكون الذي كان يعمل إلى ذلك الحين محاسباً في جريدة العراق. وكان جبران رجلاً عملياً يعرف من أين تؤكل الكتف ويعلم أن المال قوام الجريدة الناجحة، فيهتم بالاعلانات والاشتراكات. أما رفائيل بطي فكان يريد الجريدة للتعبير عن آرائه ولخلق

صحافة متفنّنة تكون فتحاً جديداً في عالم الصحافة العراقية. ولذلك سعى إلى اجتذاب أقلام الكتاب اللامعين، وفتح أبواباً في صحيفته للشؤون السياسية والاقتصادية والاجتماعية والأدبية ولم يغفل عن الرياضة والهزل. وأراد في الوقت نفسه أن يتصل بالأحزاب الوطنية ويعرب عن أفكارها وأهدافها، وأراد أن يتخذ من جريدته وسيلة للوصول إلى النيابة والوزارة والمشاركة في الحياة العامة (وقد حقق ذلك، ولكن بعد جهاد مرير طويل).

ولم يلبث الخلاف أن دبّ بينه وبين شريكه جبران ملكون فانفرد كل منهما باصدار جريدته. ومن اللطائف التي تروى في عهد عملهما معاً في جريدة البلاد، ان جبران كان يأتي مساء إلى المطبعة فيجد حقول الجريدة مليئة بالأخبار والمقالات وليس فيها متّسع كافٍ للاعلانات التجارية، فيأمر في غفلة من صاحبه أن ترفع أخبار وبحوث وتوضع الاعلانات في محلها.

ثم يأتي رفائيل بطي في منتصف الليل حاملاً خبراً مهماً أو مقالاً طريفاً، فيوعز برفع اعلانات معينة ووضع المادة التي جلبها معتزاً بها في محلها.

وقد تكرّر هذا الأمر وسبب عتاباً ونزاعاً بين الشريكين حتى انتهيا إلى الفراق.

توفيق السمعاني

الكاتب الصحفّي الأديب، توفيق بن بهنام بن يونان بن سمعان، عرف في بادىء أمره باسم الشماس اسطيفان، ثم اتخذ اسم توفيق السمعاني، ولد في الموصل سنة ١٩٠٢ ونشأ في قرية بعشيقة المجاورة ودرس في احدى المدارس الاكليركيّة. وقصد بغداد سنة ١٩٢٢ فدرّس في مدارسها الأهلية، وحرّر في جرائد مختلفة، وكتب المقالات الأدبية والاجتماعية مشاركاً في المساجلات الفكرية والثقافية التي احتدمت في العاصمة العراقية في تلك الحقبة.

ساهم في إصدار مجلة الزنبقة سنة ١٩٢٢، والتحق بمدرسة الحقوق ثم تركها بعد مضيّ سنتين. وعمل محرراً في جريدة العراق فالبلاد، ثم تولّى تحرير جريدة «صدى العهد» سنة ١٩٣٠. وأصدر بعد ذلك جريدة «الطريق» (٦ آذار ١٩٣٣) فجريدة «النداء» (٢١ ايار ١٩٣٦) فجريدة «الزمان» (أول أيار ١٩٣٧). وقد أصبحت هذه الجريدة الأخيرة من كبريات الصحف السياسية اليومية في بغداد، وكانت منبراً للأدباء والكتّاب أكثر من ربع قرن، حتى قدّر لها التعطيل في شباط ١٩٦٣.

انتخب السمعاني نائباً عن البصرة في مجلس النواب (كانون الاول ١٩٣٧ ـ شباط ١٩٣٩)، ثم ناب عن الموصل في المجالس النيابية المتعاقبة في كانون الثاني ١٩٥٣ وحزيران ١٩٥٤ وايلول ١٩٥٤ وأيار ١٩٥٨. واختير بعد ذلك نائباً لرئيس

نقابة الصحفّيين (حزيران ١٩٦١).

وهو صحفي بارع وأديب سلس العبارة، جميل الأسلوب، سئل عن مساهمته في بناء النهضة الأدبية، فأجاب بتواضع قائلاً (جريدة الزمان، ٣ آذار ١٩٥٨):

«ليس من المستحسن أن يفاخر الإنسان بنفسه وأعماله. فإني صحافي قديم، وقد قضيت القسم الاكبر من عمري في الصحافة بين المحابر والكتب والاوراق والدفاتر والكتابة. وكلها عمل يتصل بجوهر الأدب وحياته وتطوره. وقد كانت صحيفتي، ولا تزال، ميداناً للكتاب والادباء ومدعاة لتشجيعهم وإظهار فضلهم ومواهبهم، وهذا أيضاً مساهمة في النهضة الأدبية».

وضع توفيق السمعاني في صدر شبابه قصصاً نشرت في الجرائد والمجلات كمرآة العراق والحاصد والبلاد. وقد زار الولايات المتحدة الاميركية سنة ١٩٥٧ فكتب مشاهداته في مقالات متسلسلة نشرت في جريدة «الزمان» توفي في بغداد في ١١ نيسان ١٩٨٢.

سلمان الشيخ داود

من رجال الصحافة والنيابة والمحاماة سلمان الشيخ داود، ولد ببغداد سنة ١٨٩٧ ونشأ في كنف والده الشيخ أحمد الشيخ داود وتخرج في المدرسة السلطانية سنة ١٩١٦، وانتمى إلى دورة المعلمين الابتدائية في حزيران ١٩١٧ وعيّن مديراً لمدرسة الفضل. ولم يلبث أن نقل كاتباً في محكمة البداءة (١٩١٨) فسكرتيراً لأمانة العاصمة (١٩٢٢).

ودرس في الوقت نفسه في مدرسة الحقوق فنال إجازتها سنة ١٩٢٣. وكان في السنة نفسها سكرتيراً للوفد العراقي إلى مؤتمر الكويت الذي عقد لحسم النزاع بين العراق ونجد والحجاز وشرقي الأردن.

بدأ بالكتابة في جريدة الإستقلال وغيرها من الصحف سنة ١٩٢٠. ولمّا تخرّج في مدرسة الحقوق، طلّق الوظيفة وانصرف إلى المحاماة والصحافة. وكان مديراً لجريدة المداعب التي أصدرها حسين يحيى في كانون الثاني ١٩٢٦، ثم تولّى تحرير جريدة التقدم لسان حال حزب التقدّم (١٦ تشرين الثاني ١٩٢٨). وأصدر بعد ذلك جريدة النّاقد (١٣ حزيران ١٩٢٩) وبريد الجمعة (نيسان ١٩٤٧).

وانتخب نائباً عن الديوانية (شباط ١٩٣٧) فنائباً عن بغداد (شباط ١٩٤٢) وتشرين الاول ١٩٤٣، فنائباً عن ديالي (آذار ١٩٤٧). وانتخب نائباً عن العمارة في آذار ١٩٤٩ وثم في حزيران ١٩٥٥. واعتقل في ثورة ١٤ تموز ١٩٥٨ وأطلق سراحه بعد أمد وجيز.

توفي سلمان الشيخ داود ببغداد في صيف سنة ١٩٧٧. وكان قد اعتقلته سلطات

الأمن أياماً بوشـاية مغـرضة، فاشتـد عليه المرض وأسرع بإخـلاء سبيله ولم يلبث أن قضى نحبه.

وهو كاتب سياسيّ واجتماعي لمع اسمه في أوائل سني العشرين. قاله فيه خالد الدّرة في مجلة الـوادي (١٥ آذار ١٩٤٧): «صريح ومشاغب وبغـدادي، وخطيب لبق رغم لثغته لمزاولته مهنة المحاماة أعواماً طوالاً. وإذا قلت بأن ابن الشيخ خطيب فأنا أعني ما أقـول. . . لأنـه لا يتوغل إلى هـذه المقـدمـات المهلكة ولا يلجأ إلى المواقف الخطـابيـة الرعنـاء، كما لا يعبأ بأن تكون جميع عباراته بـالفصحى وهو القادر على الخطابـة فيها، ولكنه يدخل إلى الموضوع رأساً ويعلن فكـرته فوراً ويجلس بأسرع ممّا نهض. . وسلمان إن لم يكن بارد الطبع فهو سكسونّي الدم».

كتب سلمان الشيخ داود في صـدر شبـابه نثـراً عاطفياً جميـلاً منه أقصـوصة لطيفة بعنوان «العاطفة الـذابلة» روى فيها حكاية فتاة «في الـربيع الخامس عشر من عمرها لا يغمر قلبهـا سوى أنوار السرور ولا تعـرف من الحياة غير الضحك والابتسـام». كانت الـزهـرة الوحيـدة لـوالـديها الموسرين فـرمقتهـا أعين الشبـاب حباً بجمـالها وطمعـاً بثروتها، لكن راحت هي تبحث عـن الحبّ الصحيح حتى وجدته. واقتـرنت بحبيبها وأنجبت طفـلاً ثـم مرض زوجهـا وقضى نحبه وداهمتهـا الاحزان وهي لم تتجـاوز العقد الثاني من حياتها.

وتنازعت الأرملـة الشابـة عاطفتان: عـاطفة الفتوة العـارمة التي تـدفعها إلى التمتع بلذائذ الحيـاة، وعاطفـة الوفـاء لذكرى قـرينها الـراحل. ويختتم الكاتب هـذه القصة فيقول:

«فإذا مـا هجعت تمّر أمـام ذاكرتها أشبـاح كثير من الشبـان الذيـن خطبوا ودّهـا، فيبتسمـون لها ويسجدون أمـام جمالـها الفتان. وعنـدمـا تحـاول أن تجزي الابتسامـة بمثلها، يمّر من أمـامها شبح زوجها فتمدّ ذراعها لتضمه إلى صـدرها. لكنها لا تلبث حتى تنتبه مذعورة، فلا ترى في القرب منهـا سوى ولدها الصغير، فتأخذه صبيحة كل يـوم إلى قبر والده حيث تنثـر عليـه الدمـوع والازهـار. وقـد ظلت محافظـة على ذكـرى زوجها عشرين عاماً.

ورغم أن ولدها قد بلغ مبلغ الرجال وتزوج وولد له ولد، لم تحفظ في مخيّلتها له سوى صورة الطفولة التي كان بها عندما لفظ والده النفس الأخير.

«وعندمـا بلغ حفيدهـا الشهر الثـالث من عمره، انتـابتها حمّى شـديدة أفضت إلى موتها. وقبل أن تودّع أنفـاسها الأخيرة مدّت يدها وقبضت على مهد حفيـدها حاسبة انه مهد طفلهـا الـذي خلّفه زوجها الـراحل، لأنه لم تنطبع في مخيّلتهـا ذكـرى جديدة منذ فقدت زوجها قبل عشرين عامـاً. ولم تبتسم منذ ذلك التاريخ، لكن الذين وقفوا

حول جسدها الهامد في موقفها الأخير رأوها باسمة، على محياها علائم السرور، لأن أرواح المحبين لا يهدأ لها روع الاّ أن تتعانق في العالم الخالد، مقرّ النفوس الأبدي».

وكذلك ختم سلمان الشيخ داود أقصوصته الشجية خاتمة حزينة هادئة شأن شعراء الروما نتيكية وأدبائها في كل عصر ومصر.

سلمان الشيخ داود والرصافي:

كان موالياً للحلف والتعاون مع بريطانية العظمى، وقد ألقى في مجلس النواب في ١٩ نيسان ١٩٤٢ خطبة مسهبة مدح فيها بريطانية واستنكر حركة ايار ١٩٤١ ووصم القائمين بها بالخيانة والمروق. وقد حبّذ السياسة الموالية للأمم الحرة والاستفادة من خبرة الاستشارة الانكليزية. وقال إنه يرجح ادارة عالمة نظيفة متّزنة ولو يرأسها أجنبي على إدارة مذبذبة مترجرجة مفككة فاسدة يرأسها عراقي.

وقد ردّ عليه معروف الرصافي بقصيدة قال في مطلعها:

قل لسلمان، بعد ما كان حراً، كيف قد جاز رقّه والإسار؟
ان ماقلته من القول هُجر منكر لا تقوله الأحرار

حتى قال:

كيف نسعى إلى العلا في أمور ليس فيها رأي لنا واختيار؟
فبذا ركن عزّنا يتداعى وبذا صرح مجدنا ينهار
انّ للأجنبّي فينا لحكماً أسدلت دون جوره الأستار

محمد عبد الحسين

من رجال الصحافة العراقية الذين اشتهروا في فترة مابين الحربين العالميّتين، محمد بن عبد الحسين بن أحمد الحسني، ولد في الكاظمية في سنة ١٨٩٩ من أسرة لها خدمة في الحضرة الكاظمية، وكان عمّه باقر سركشك (١٨٩٣ ــ ١٩٥٨) معاوناً لرئيس التشريفات الملكية (١٩٢٤) فمدير البريد والبرق العام (١٩٤٥) فمدير النفوس العام ١٩٥٠). وقد انتخب نائبا عن الكاظمية في مجلس النواب ايار ١٩٥٥ وايار ١٩٥٨.

نشأ محمد عبد الحسين في الكاظمية وبها تثقّف، ثم مضى إلى النجف في ابان الثورة العراقية وأصدر جريدة «الاستقلال» (أول تشرين الاول ١٩٢٠)، وقد ظهر منها ثمانية أعداد. ولما اقتربت القوات الإنكليزية من النجف ذهب إلى البصرة وعمل في جريدة الأوقات البصرية.

وعـاد إلى بغداد، فأخـذ بـالتحريـر والكتـابة في صحفهـا، كـالعراق والاستقـلال والنهضة العراقية، وطارت له شهـرة، كاتباً سياسياً في رعيل الصحفيين الشبّان. وعيّن مفتشاً لمعارف منطقة الفرات في حزيران ١٩٢٢، لكنه لم يلبث أن عاد إلى الصحافة.

أنشأ جريـدة «الشعب» في ١٠ نيسان ١٩٢٤ فلم يطل عهدها أكثـر من اسبوعين. وقد وقّف جـريدتـه ـ كما قال رفـائيل بطي في محاضراته عن الصحـافة في العـراق ـ على مناقشـة المعاهدة العراقيـة البريطانية والـدفاع عن وجهة نظر المعـارضين لهـا، وكانت «الشعب» شديدة الوطأة في مقالاتها وبحوثها السياسية.

درس محمد عبـد الحسين الحقوق في الوقت نفسـه، ونال إجازتها ومارس المحـاماة. وألّف كتاب «المعـارف في العراق على عهد الاحتـلال» (١٩٢٢) و«ذكرى فيصل الأول» أو «العـراق في اثني عشر عـاماً» (١٩٣٣). وانتخب نـائبـاً عن الحلـة في كانـون الأول ١٩٣٤.

اعتقل في أثنـاء الحرب العـالمية في تشريـن الثاني ١٩٤١ وأُقصي إلى الفـاو. وأدركتـه الوفاة سنة ١٩٥٢.

له أيضاً: محنة العرب (١٩٣٦).

سلمان الصفواني

الصحفي الأديب سلمان آل ابـراهيم الصفـواني القطيفي، ولـد في قريـة صفـوة من أعمال نجـد سنة ١٩٠٠، وجـاء إلى العـراق فتلقى دروس العربيـة والـدين في معاهـد النجف وكربلاء.

اشترك مع الشيخ مهـدي الخالصي في منـاهضـة انتخـاب المجلس التأسيسي في الكـاظمية، فأبعـد عن العـراق في حزيـران ١٩٢٣. وعاد إلى بغـداد فأصـدر جريـدة «اليقظـة» (٥ ايلـول ١٩٢٤) فجريـدة «المنبر العـام» (كـانون الاول ١٩٢٥) فجـريـدة «المعارف» مع عبد الملك حافظ (ايلـول ١٩٢٦). وعيّن في سنة ١٩٢٧ سكرتيراً خاصاً لوزير المواصلات والاشغال، لكنه استقال بعد ذلك واستأنف إصدار جريدة «اليقظة» (تشرين الثاني ١٩٢٩) فجريدة «النهضة» (١٩٣٠).

وعاد إلى الوظيفة معـاوناً لسكرتير أمانة العاصمة، ونقل إلى وزارة الداخليـة فمديرية المحـاسبات العـامة. وكـان بعـد ذلك مدرسـاً للغـة العربيـة في دار المعلمين الريفيـة والمدرسة الثانوية المركزية للبنات ومدرسة التفيّض الأهلية.

ساهم في الحركة الـوطنية خلال الحرب العالميةالثانيـة فاعتقل في الفاو (تشرين الاول ١٩٤١)، إلى تموز ١٩٤٣، ثم أبعد إلى الهند وعدن.

وعـاد إلى بغـداد (آذار ١٩٤٦)، فـاستأنف إصـدار «اليقظـة» وكـانت من الجرائد العنيفـة في قوميّتهـا. ثم أصـدر جريـدة «صـدى اليقظـة» ايار ١٩٥٣). وقـد حطم مطبعتهـا الجمهور بعـد فشل حركـة العقيـد عبدالـوهاب الشـوّاف في الموصل في آذار ١٩٥٩.

وسكن في القاهرة من ١٩٥٩ إلى ايلول ١٩٦٥، ثم عاد إلى بغداد إذ عيّن وزيراً للدولة في وزارة عميد الجو عارف عبدا الرزاق (٦ ايلول ١٩٦٥) ووزارة عبد الرحمن البزاز التي تلتها في ٢١ ايلول ١٩٦٥ إلى ٩ آب ١٩٦٦. واعتقل بعد ثورة تموز ١٩٦٨ البعثية، وأفرج عنه في شباط ١٩٦٩.

وقد ألف: رواية الزرقاء (١٩٢٥) ذيول صِفّين (رواية) أذن وعين (١٩٤٧) محكوميتي (١٩٥٢) هذه الشعوبية. ونشر كتاب تاريخ الحروب العربية أو حرب البسوس لمحمد بن اسحق (١٩٢٨).

قالت مجلة «الأديب» البيروتية (ايلول ١٩٤٧) تذكر صدور كتابه «أذن وعين»: «.. قلم، سيّال لكاتب جريء يعبّر عمّا يخالجه من احساسات وآراء جلا فيها مكامن الداء... ولعلّ الشيء الذي يتميّز به الكاتب هو نزعته العربية القوية ودفاعه المجيد عن الوحدة العربية فكأنّ سني الاعتقال لم تزده الا مضيّاً في الكفاح وروسوخاً في العقيدة. فيدعو القائمين على أمور العرب في الخروج من ميدان النظريات إلى ميدان العمل والاسراع في توحيد الثقافة العربية، بعد أن يعالج قضية القومية العربية معالجة دقيقة بأسلوب خطابي قويّ النبرات، واضح الغاية، عذب المنال».

توفي سليمان الصفواني في بغداد في تشرين الثاني ١٩٨٨.

نوري ثابت

الكاتب العراقي الهزلي نوري ثابت المعروف باسمه المستعار «حبزبوز»، ولد في السليمانية في ٢٨ تشرين الثاني ١٨٩٧، وكان والده ثابت بك الكروي عقيداً في الجيش التركي، فانتقل معه إلى الأحساء حيث أتم دراسته الابتدائية. وكلف ثابت بك بتأديب أهالي السماوة لإخلالهم بالأمن على عهد والي بغداد جلال بك (١٩١٤). انتمى نوري إلى المدرسة الاعدادية ببغداد، ومضى إلى الاستانة فولج مدرستها العسكرية (آب ١٩١١) وتخرج فيها ملازماً ثانياً.

حارب في اثناء الحرب العظمى في الدردنيل والقفقاس، وجرح في المعارك فأعيد إلى الاستانة واستخدم ضابط استخبارات في مقر وزارة الحربية التركية حتى عقد الهدنة. وعاد إلى العراق سنة ١٩٢٣ فعيّن معاوناً لمدير المدرسة الجعفرية الأهلية (تشرين الأول ١٩٢٣) ثم انتقل إلى وزارة المعارف وكان مدرساً ومدير مدرسة ثانوية. وعين مفتشاً في ايلول ١٩٢٥ وأخذ يكتب نقداً اجتماعياً باسلوب طريف في الصحف المحلية، فلما أنشأ رفائيل بطّي جريدة «البلاد» سنة ١٩٢٩ كلفه بكتابة باب خاص بالهزل والتفكهة فيها.

فصل من الوظيفة في ٢٤ آب ١٩٣١، فأصدر جريدة فكاهية اسبوعية باسم «حبز بوز» (٢٩ ايلول ١٩٣١) ووالى اصدارها إلى وفاته ببغداد في ١٢ تشرين الاول سنة ١٩٣٨.

قال رفائيل بطي في وصف اسلوبه: «وحبزبوز كاتب خفيف الظل، أسلوبه محبّب إلى النفوس، تمازجه تعابير دارجة عند الدهماء، مطعمة بالأمثال السائرة على ألسنة الناس على اختلاف طبقاتهم وتحلّيها حكايات ونوادر مما يتناقله الجمهور من عهد العثمانيين، ويختزن الكاتب في ذاكرته منها محصولاً وافراً». ونقل بطّي عن ياسين الهاشمي قوله: «ان نوري ثابت خير من يصف أخلاق المجتمع وأهله وصفاً فيه الإجادة كلها والعبرة البالغة».

جبل نوري ثابت على روح فكاهية أصيلة، وتأثر بكتاب الأتراك الهزليين تأثراً بليغاً. وعني بالمأثورات والحكايات الشعبية العراقية فوعاها وحلّل ما تنطوي عليه من تهكم لاذع وحكمة فطرية.

ولقد أثر تأثيراً عميقاً في الجيل العراقي الذي كان يقرأ كتاباته بلهفة واشتياق. وإذا كان أكثر الكتاب يحاولون رفع القراء إلى مستواهم، فإنّ نوري ثابت وأمثاله من الكتاب الشعبيين يحاولون أن ينزلوا بأدبهم إلى مستوى العامّة ليؤدّوا رسالة التثقيف والتهذيب التي اضطلعوا بها. وكذلك وفّق «حبزبوز» للتغلغل في المحافل الشعبية وابلاغ آرائه الإصلاحية إلى مختلف الطبقات.

وقد قال جميل صدقي الزهاوي في تحية جريدة حبز بوز:

الهزل في الكلام	كالملح في الطعام
قليله كثير	ومرّه نمير
ربَّ عتاب حمد	وربّ هزل جدّ
طرائف الهزال	كالدرر الغوالي...

وروى عبد القادر المميّز الكاتب الهزّال صاحب جريدة «أبي حمد» وصديق نوري ثابت الأمين أنه أبلغ تلفونياً في ليلة من ليالي الشتاء القارسة نبأ وفاته، فهرع إلى داره ووجده جالساً يطالع في ديوان المتنبي. فحياه وقبّله وعاتبه عتاباً مراً على هذه الدعابة القاسية، فأجابه نوري ثابت:

كان رفيق خالد بك من كتاب الأتراك المعروفين، نال منصب الوزارة. ثم تقوّض عرش آل عثمان وهرب بقية الخلفاء والسلاطين وأرباب الدول، فلجأ صاحبنا إلى مدينة حلب وأنشأ فيها جريدة تركية. ورأى أن يداعب الجرائد التركية فأبرق إليها ينعى نفسه بتوقيع بعض أصحابه، فخرجت الصحف في الغداة تؤبّنه وتشيد بذكره وتطري مواهبه. ورأى في حياته كيف يكون منعاه بعد موته.

قال نوري ثابت لصاحبه المميّز: وأنا أيضاً دبّرت هذا النعي التلفوني لأقف على موقعي من نفسك!

ولقد أشاع المرجفون موت الشاعر الشعبي عبّود الكرخي فخاطبه معروف الرصافي قائلاً:

أشاعوا نعّيك من غيظهم ... يريدون للشعر ما لا يريد
ولما تبيّن إخفاقهم ... لدى لنّاس عادوا بغيظ جديد
فعش وادعاً رغم آنافهم ... بعمر جديد وعيش رغيد

قال مهدي مصطفى القزّاز ان نوري ثابت كان ضابطاً مقداماً في الجيش العثماني ينافح عن قوميته وبلاده ويعمل سراً وجهاراً على رفع شأن الأمة العربية وتعزيز مكانتها . . ويوم أن كان مدرساً في المدارس الأهلية والرسمية في العراق يهذب ناشئة البلاد ويسدّد خطواته نحو المجد والسؤدد باثاً في نفوسهم روح الاقدام والفضيلة . ولقد كانت له من تجاربه في الجيش خير عون على قيادة الطلاب نحو الاقبال على الدرس وارتشاف مناهل العلم . . . ولما كان بطبعه رياضياً فذاً فقد بثّ هذه الروح في نفوس طلابه ، فخلق منهم شباباً قوياً جريئاً مقداماً ممتلئاً فتوّة ونشاطاً . . . وقد سماه بعض زملائه المدرسين «معلم عقل وبدن» .

ثم أشار القزاز إلى حبزبوز الصحفي فقال انه اكتسب محبة الجماهير لأنه كان يكتب بلغة يفهمها الجمهور، باللغة الدارجة على الألسن وفي البيوت والمجتمعات ونوادي السّمر خالية من التكّلف وممزوجة بروح الدعابة والهزل والفكاهة ومطعّمة بالنقد اللاذع والتهكم المرّ، متناولة لما يجري من أوضاع في البلاد من سياسة واجتماع وأخلاق وأحداث كانت الدهماء من أبناء الشعب لا تعرف عنها شيئاً إلى أن صدرت جريدة «حبز بوز» فأخذت تنقلها اليهم بلغتهم الدارجة وأحاديثهم العادية مقدمة لها بمقدمة فكاهية تفهمها العامة وتعرف المقصود منها . . .

ميخائيل تيسي

ميخائيل نجاتي بن يوسف تيسي الكاتب الناقد الهزلي المعروف باسم «كنّاس الشوارع» ، ولد في بغداد في ١٢ آب ١٨٩٥ ، ودرس في مدرسة القديس يوسف ، وعمل في التجارة . ووظّف في تموز ١٩١٨ مترجماً بنظارة المالية ، ثم نقل إلى دائرة الاوقاف فوزارة الدفاع .

أخذ بكتابة نقدات اجتماعية في جريدة الرافدين ودجلة باسلوب فكاهي ، وسرعان ما ابتكر لنفسه أسلوباً هزلياً خاصاً مطعماً بالعبارات العامية والحكايات الشعبية لقي رواجاً من القراء ، فكان ميخائيل تيسي من روّاد الصحافة الهزلية في العراق . وأصدر سنة ١٩٢٢ كتاب «ماهيّة النفس وروابطها بالجسد» أحدث ضجة

في المحافل الدينية. وأصدر جريدة اسبوعية هزلية باسم «كناس الشوارع» في أول نيسان ١٩٢٥، ثم اغلقها بعد اطلاق النار عليه واصابته بجرح خفيف. وانشأ في تشرين الاول ١٩٢٦ سلسلة روايات باسم «مرآة الحال»، ثم أصدر في ١٧ كانون الاول ١٩٢٦ جريدة اسبوعية ادبية اجتماعية مع حسين الرحّال باسم «سينما الحياة»، فلم تدم طويلاً.

وعاد ميخائيل تيسي إلى الوظيفة مديراً لناحية تلكيف (١٩٣١) فقائممقاماً لقضاء الشيخان (حزيران ١٩٣٢) فمعاون رئيس تسوية حقوق الأراضي (شباط ١٩٣٤) حتى فصل من الخدمة في شباط ١٩٣٦. وعاوده الحنين إلى الصحافة فأصدر جريدة اسبوعية جديدة باسم (الناقد) (٦ ايار ١٩٣٦) وظلّ يصدرها إلى ٢٦ شباط ١٩٣٩، وكانت تجمع الجدّ إلى الهزل وتعنى بالإصلاح الاجتماعي والسينما والمسرح وغير ذلك من الشؤون.

ووظف بعد ذلك مميزاً في دائرة الإذاعة (آذار ١٩٤٢) ونقل إلى الديوان الملكي وأصبح مديراً فيه في تشرين الاول ١٩٤٩، واعتزل الخدمة سنة ١٩٥٧. وتوفي في كانون الأول ١٩٦٢ في بغداد. وقد جمعت طائفة من مقالاته الانتقادية في كتاب «نقدات كنّاس الشوارع» صدر منه ٥ أجزاء (١٩٢٢ ــ ٢٦). وألف رواية «ضحية العدالة» (١٩٢٩) الخ.

قال رفائيل بطي في محاضراته عن الصحافة في العراق: «سألته يوماً: لماذا اخترت «كناس الشوارع» اسماً قلمياً لك؟ فأجابني: أردت أن أختار شخصية آدمية كثيرة التجوال في شرايين المدينة وقلبها، دوّارة تقترب من الأبواب وتدخل البيوت، بيوت الفقراء وقصور الأغنياء، فلم أجد خيراً من كناس الشوارع. ثم وددت، واني أعتزم الانتقاد والحملة على العادات والنواقص في الناس والمجتمع، أن اختار اسماً يوافقه حمل سلاح للتهويش والضرب، ولسميّي مكنسة مشهرة دائماً يحملها على كتفه ويكنس بها وينظف، وقد يستخدمها للضرب والدفاع عن النفس عند الحاجة».

ثم يقول:

«وتدور أكثر ملاحظاته حول النظافة ووجوبها، والتشنيع بحركات الآخرين وأصواتهم المزعجة، وفضح جيل الباعة والدوارين، ثم تنبيه بعض الدوائر الحكومية ولا سيما البلديات إلى ما هو من واجباتها من تنظيف وانارة الطرق وتجفيف البرك في الشوارع. ويعمد كناس الشوارع أحياناً إلى النقد الأخلاقي والاجتماعي، فيعرِّض بالعادات السيئة والطبع اللئيم، ويصف أمراض الحياة والبيئة ومساخرها وحيل النسوان وبلادة الرجال ـ وبتعبير محكم ـ الأزواج.

«وكتابات هذا الكاتب الهزلي طراز لتفكير طبقة كبيرة ممّن أصابوا حظاً من التعليم. ومع أنه يجيد الفرنسية ويحسن الانكليزية فلم يعنَ أن يسلك طريقة أحد الكتاب الفرنسيين أو الانكليز الهزّالين، بل اهتم بأن يفكر ويستوحي من الجوّ المحلي. وهذا سرّ اقبال الجمهور على قراءته..»

خلف شوقي الداودي

ينتمي إلى قبيلة الداودة الكردية التي تقطن في لواء كركوك، وكان أبوه أمين ضابطاً في الجيش التركي، وقد ولد خلف شوقي في بلدة الديوانية سنة ١٨٩٨، وقضى سني صباه في الحلة. ثم جاء إلى بغداد وانتمى إلى دار المعلين، وجنّد ضابطاً احتياطياً في اثناء الحرب العظمى، فحارب في جبهة العراق. وأسره الانكليز فاعتقلوه في الهند، وهيّء له فيها تعلّم اللغتين الانكليزية والهندية، إلى جانب التركية والفارسية والكردية التي عرفها في بلاده.

عاد إلى العراق فانخرط في سلك الوظيفة في ايار ١٩١٩. وعمل بعد ذلك في الصحافة، فكان محرراً في جريدة الاوقات العراقية في البصرة. وأصدر في تلك المدينة مجلة باسم «شط العرب» (كانون الثاني ١٩٢٣)، فلم يصدر منها سوى عدد واحد. وحرّر بعد ذلك في جريدة الاوقات البغدادية، وأصدر جريدة «شط العرب» في بغداد في آذار ١٩٢٤، فدامت نحواً من ستة أشهر.

عيّن مترجماً في وزارة المالية فمفتشاً مالياً (تشرين الأول ١٩٢٦) فسكرتيراً مالياً لوزارة الاقتصاد والمواصلات (حزيران ١٩٣٥) فمعاون رئيس تسوية حقوق الأراضي (كانون الثاني ١٩٣٨). وتوفي ببغداد في ٢ شباط ١٩٣٩.

كان خلف شوقي ميالاً إلى الدعابة والفكاهة منذ صباه، فلا عجب أن أصبح كاتباً هزلياً فكهاً ينتقد المجتمع العراقي انتقاداً ساخراً لاذعاً. أما اسلوبه الكتابي فكان، كما قال جعفر الخليلي، اسلوباً صحافياً قليل الغور، لكنه مطبوع بطابع جذاب فيه الشيء الكثير من الحلاوة والمتعة على الرغم مما يعتوره من المآخذ اللغوية والنحوية. وكتب قصصاً جمعها في كتاب باسم «سفينة نوح» نشر بعضها في مجلة الهاتف النجفية وحال موت المؤلف دون طبعها.

وله مؤلفات أخرى، منها: قصص مختارة من الأدب التركي (١٩٣٦) الفلقة (١٩٣٨)، قضية فلسطين (مجموعة مقالات مترجمة، ١٩٢٤)، نقدات الملا نصر الدين (١٩٢٣) وساوس السلطان عبد الحميد (مترجم)، زاد المسافر (رسالة تاريخية للشيخ فتح الله الكعبي، حققها ونشرها سنة ١٩٢٤)، ذكرى سعد زغلول (١٩٢٧).

ومن مصنفاته المخطوطة: مائة فكاهة وفكاهة، حقيبة الداودي، الخ.

قال جعفر الخليلي مشيداً بأثر خلف شوقي في كتابه «القصة العراقية قديماً وحديثاً»:

«وبالاجمال فإنّ خلف شوقي من أوائل روّاد القصة العراقية الحديثة ومن الذين انفردوا بنوع خاص منها، لا من حيث امتزاجها بالفكاهة فحسب، وإنما من حيث جوهرها وسبكها وكونها قصصاً تحوم حول ذاته على الغالب». وأشار إلى النقص الفني، حسب رأيه، في هذه القصص فقال إنه الإطالة أو الإيجاز في غير مواقفهما، وعدم مراعاة الخبن الفني الذي تقتضيه قواعد القصة ووضع الحوار. وقال: إن الداودي قد وفّق في الكثير من قصصه توفيقاً غير قليل من الناحية الفنّية.

مريم نرمة

الصحفية مريم نرمة بنت رفائيل يوسف رومايا، ولدت ببغداد في ٣ نيسان ١٨٩٠ ودرست في مدراسها. وقد أخذت تكتب المقالات الاجتماعية في الصحف بعد الحرب العظمى الاولى ومارست التعليم. واقترنت بمنصور كلّوزي الموظف في دائرة الكمارك والمكوس، ولم تنجب ولداً.

أصدرت صحيفة «فتاة العرب» في ايار ١٩٣٧ وواظبت على إصدارها نحواً من ستة أشهر. وقد أخبرني يوسف يعقوب مسكوني أنه ساعدها في تحرير صحيفتها. وعاشت بعد ذلك في عزلة هادئة، لكن أقيم لها في ايار ١٩٤٥ احتفال في ذكرى اليوبيل الفضّي لمشاركتها في النشاط الأدبي. وكرّمتها وزارة الإعلام العراقية سنة ١٩٦٩ بأنها من رائدات الصحافة النسائية، وذلك في أثناء الاحتفال بمرور مائة سنةعلى الصحافة العراقية وصدور جريدة الزوراء.

توفيت مريم نرمة ببغداد في ١٥ آب ١٩٧٢. واسمها «نرمة» كلمة فارسية تعني «لطيفة».

كانت مريم نرمة في مقدمة الداعيات إلى نهضة المرأة العراقية وتعلمها. وقد كتبت سنة ١٩٢٤ مقالاً في مجلة المصباح البغدادية بعنوان «العيشة الزوجية». قسمتها هذه العيشة إلى قسمين: هنية وشقية. وقالت ان العيشة الهنية ترتكز على الحب والطاعة والعفة والصفات المحمودة والاخلاق الحسنة. وقالت ان سعادة الزواج تكون بالمحبة واتحاد الزوجين بقلب واحد ونفس واحدة. وصاحب الأخلاق الراقية يجب ان يكون معلماً حاذقاً ومدبراً نشيطاً لزوجته يجد ويجتهد لاعالة زوجته واولاده.

وارتأت أن تكون الزوجة تلميذة ذكية فطنة تسمع نصائح زوجها وتنفذ أوامره، وتقوم بجميع أعمال منزلها وتربي أولادها خير تربية وتمارس طرق الاقتصاد لتكون زوجة صالحة وأماً فاضلة.

ووصفت الشقاء الزوجي وما يلابسه من القسوة والشراسة والعجرفة، ولا سيما في العوائل التي قامت على الزواج طمعاً بالمهور العالية أو شغفاً بالجمال الزائل والمحبة الفاسدة. ولم تبخل الكاتبة في نهاية الأمر بنصائحها في الزواج وتكوين الأسرة الصالحة القائمة على الأخلاق والحب والفضيلة.

يوسف هرمز

من رجال الصحافة يوسف هرمز جمّو ولد في بلدة تلكيف سنة ١٨٩٢ وعمل في الزراعة والحياكة. وقدم إلى بغداد سنة ١٩١١، ثم رحل إلى البصرة ودرس في المدرسة الأميركية (١٩١٥). وفي سنة ١٩١٧ عيّن معلماً في نفس المدرسة فمارس التعليم ١٦ عاماً.

أصدر جريدة «صوت الشعب» في البصرة (١٩٣٥) ثم نقلها إلى بغداد وواظب على اصدارها أعواماً طويلة.

وقد توفي سنة ١٩٦٥ في بغداد بحادث سيارة. ألف كتباً منها: الضعفاء (١٩٢٧) آثار نينوى أو تاريخ تلكيف (١٩٣٧) ستة أشهر في أميركة (١٩٤٨). وترجم عن شكسبير «الضلالة» و«الكيل بالكيل».

عبد القادر المميّز

من كتّاب الصحافة الهزلية، لازم نوري ثابت (حبزبوز) أعواماً طويلة وسار على نهجه في كتاباته الفكاهية ونقداته الاجتماعية.

وهو عبد القادر بن عبد الوهاب بك بن عبد القادر المميّز بن محمد صالح بك. ينتمي إلى أسرة بغدادية معروفة تتولّى أوقاف عادلة خاتون بنت أحمد باشا والي بغداد وزوجة الوالي سليمان باشا المتوفّاة سنة ١٧٦٧. وكان جدّ الأسرة ابراهيم المميز من موظفي الدولة العثمانية.

ولد ببغداد في نحو سنة ١٩٠٠، ودرس في المدرسة السلطانية على العهد العثماني. وعمل في الحكومة العراقية موظّفاً مالياً، وتنقّل في الألوية، حتى اعتزل الخدمة سنة ١٩٣١. ثم أصدر جريدة فكاهية في بغداد باسم «أبو حمد» (١٩ تشرين الاول ١٩٣٣) وظلّ يصدرها أعواماً.

أدركته الوفاة في بغداد في ١٢ تشرين الاول ١٩٥٤.

يوسف رجيب

الصحفي الأديب يوسف بن حمود بن مهدي رجيب ولد في النجف سنة ١٩٠٠ من أسرة خفاجية متواضعة. وكان والده عطاراً، وقد توفي ويوسف طفل يحبو إلى الرابعة من عمره، فكفله عمه ناصر. مال إلى الدرس صغيراً، فأكبّ على تحصيل اللغة والأدب وواظب على المطالعة حتى كوّن لنفسه ملكة أدبية ومقدرة كتابية. وقد استهوته الآراء الإصلاحية والافكار الحديثة، فلما أسست مدرسة الغريّ سنة ١٩٢١، انتمى يوسف رجيب إلى قسمها المسائي ارواء لظمأ العلم في نفسه. وقد قال حسن الأسدي فيه: «وعاش ثورة النجف على الأتراك في عام ١٩١٥، وثورتها على الانكليز في عام ١٩١٨، وأحداث الثورة العراقية الكبرى على الانكليز في عام ١٩٢٠ والتي كانت النجف مركزها الرئيسي، عاش كل هذه الأحداث، وهو يجمع بين عمله المعاشي في دكان العطارة، وبين دراساته الأدبية وتتبّعاته الثقافية في الصحف والمجلات».

وأصدر في نيسان ١٩٢٥ جريدة اسبوعية باسم «النجف» فواصل إصدارها نحواً من سنتين، وكان في الوقت نفسه يقوم بالتدريس في مدرسة الغريّ.

وترك النجف إلى بغداد سنة ١٩٢٧، وعيّن مدرساً في المدرسة الحسينّية. وشارك في تحرير جريدة «الزمان» التي ربطته أواصر الصداقة بصاحبها ابراهيم صالح شكر. ثم عهد إليه برئاسة تحرير جريدة «النهضة العراقية» التي أصدرها حزب النهضة في آب ١٩٢٧.

واضطرته الحاجة بعد ذلك إلى قبول وظيفة مفتش استهلاك في الهندية والمسيّب (١٩٣٤) فمدقق ماليّ. وقد أوفد إلى سوق الشيوخ، فلما وقع التمّرد فيها سنة ١٩٣٥، اعتقل يوسف رجيب وأحيل على المجلس العرفي في الناصرّية. ثم أطلق سراحه وأعيد إلى الوظيفة منقولاً إلى الفلوجة، ونقل إلى بغداد سنة ١٩٣٨، وعيّن ملاحظاً للرسائل في ديوان وزارة المعارف. ثم عيّن ملاحظاً في المفوضية العراقية بدمشق سنة ١٩٤٥. وأصيب بالسّل فدخل مصح ظهر الباشق في لبنان، وقضى نحبه فيه في ٨ حزيران ١٩٤٧.

كان كاتباً سياسياً واجتماعياً لطيف الأسلوب وجندياً مجهولاً من جنود الصحافة العراقية في سنوات العشرين. وألف قصة «المهادي الشمري» (١٩٤٢).

رثاه الشاعر عبد الحسين الأزري فقال:

قـابلتُ نعيك من ربوع الشّام في مقلة عبرى وقلبٍ دام

أنكرتُ من جزعي عليك سماعه وظننته من مُرجفٍ نمّام

ولَبثْتُ بين مصدّق ومكذّب، والنفس تغري الشك في إيهامي..

حتى يقول:

نم هادئاً، إنّ المنية فُرجةٌ تُحمى الأباة بها من الإرغام

ما قيمة الدنيا إذا جبلت على أن لا يعيش الحرّ غير مُضام؟

ما العمر الاّ فترةٌ محدودة، يا ليتها لو تنقضي بسلام

محمد طه الفيّاض

محمد طه الفياض العاني ينتمي إلى قبيلة المشاهدة الحسينية، ولد في عنة سنة ١٨٩٨، ودرس على والده وفي المدارس الرسمية. وعيّن أميناً لصندوق البلدية، ثم جاء إلى بغداد سنة ١٩١٥ وولج دار المعلمين. وأخذ إلى الاستانة حيث أدخل دورة عسكرية منح على أثرها رتبة نائب ضابط.

اشترك في الحرب العظمى في صفوف الجيش التركي، فرفّع ملازماً ثانياً وشهد معارك الحجاز وفلسطين. وأسره الانكليز فاعتقلوه في مصر، حتى إذا ما عقدت الهدنة أخلي سبيله وعاد إلى مسقط رأسه عن طريق البصرة. وعمل كاتباً لناحية عنة، ثم شخص إلى البصرة حيث مارس التجارة وعني بالشؤون الوطنية والاسلامية، فاشترك في تأسيس جمعية الشبان المسلمين وجمعية الهداية الإسلامية وجمعية الدفاع عن فلسطين. وأبعد إلى اربيل في حوادث سنة ١٩٣١، ثم عاد إلى البصرة واستأنف نشاطه. واقتحم ميدان الصحافة، فأصدر مجلة الشبان المسلمين سنة ١٩٣٤، وشفعها عند اغلاقها بمجلة صدى الشبان المسلمين وصوت الشبان المسلمين. وأنشأ جريدة السجّل اليومية سنة ١٩٣٧، وكانت من الجرائد السياسية الإسلامية.

وجاء بعد ذلك إلى بغداد فأصدر جريدة اللواء، ثم اعاد اصدار جريدة السجل (تشرين الاول ١٩٤٦). وبعد نشوب ثورة تموز ١٩٥٨ أنشأ جريدة «الفجر الجديد» في كانون الثاني ١٩٥٩.

وفي آذار ١٩٥٩، بعد انهيار تمرّد العقيد عبد الوهاب الشوّاف في الموصل، هاجم الجمهور مكتب جريدته ومكاتب جريدة اليقظة وغيرها وحطمت مطابعها. ثم أعاد طه الفياض إصادر جريدة «الفجر الجديد» بعد انحسار المدّ الشيوعي في تموز من تلك السنة.

وانتخب نقيباً للصحفيين في حزيران ١٩٦١ خلفاً لمحمد مهدي الجواهري وأعيد انتخابه في نيسان ١٩٦٢ .

أدركته الوفاة في بغداد في أواخر تشرين الاول ١٩٦٤ بعد جهاد صحفي طويل .

من مؤلفاته : صولة الحق على جولة الباطل ، اللغة العربية رابطة الشعوب الإسلامية (١٩٣٥) الاعصار الشديد في تنفيذ سياسة السعيد (١٩٥٦) الظلم لا يدوم (١٩٥٩) عدوان الانكليز على واحة البريمي (١٩٥٥) كيف تحارب الشيوعية الخ .

عبد القادر السيّاب

من رجال الصحافة ، ينتمي عبدالقادر السيّاب إلى أسرة عربية من عشائر ربيعة نزحت إلى البصرة منذ عهد عهيد . وهو ابن الشيخ سيّاب المرزوق ، ولد في أبي الخصيب في نحو سنة ١٩٠٠ وأتم دراسته الثانوية في بغداد .

انتمى ، وهو شاب ، إلى الحزب الوطني العراقي وأصدر صحفاً أدبية مع أحمد جمال الدين كجريدة الحوادث (آذار ١٩٣٠) . ثم انفرد باصدار جريدة الناس اسبوعية مصورة (كانون الثاني ١٩٣١) . وأصبح في شباط ١٩٣٢ سكرتيراً لتحرير جريدة بهلول التي احتجبت سريعاً .

وعاد إلى البصرة فأسّس فرعاً للحزب الوطني في أبي الخصيب ، وبعد ذلك في مدينة البصرة ، ثم أسس فرعاً لحزب الاخاء الوطني فيها . وأعاد إصدار جريدته «الناس» سياسية يومية في البصرة (١٩٣٥) فعطّلت واعتقل صاحبها مراراً . وأبعد إلى كويسنجق في كانون الاول ١٩٣٨ مع فريق من رجال السياسة والشباب الوطني .

وقد انتخب نائباً عن البصرة في حزيران ١٩٣٩ إلى حزيران ١٩٤٣ . وأصدر جريدة «الجهاد» (نيسان ١٩٤١)، ثم اعتقل خلال الحرب العالمية الثانية وأبعد إلى الفاو والعمارة . وأعاد إصدار جريدة الناس أعواماً طويلة ، وتولّى بعد ذلك إصدار جريدة «الحياة» .

أدركته الوفاة بالبصرة في ٢٠ شباط ١٩٧٠ .

محيي الدين أبو الخطّاب

محيي الدين الشيخ شهاب المعروف بـ «أبي الخطّاب» ، الصحفي الحقوقي الأديب ، ولد بالموصل سنة ١٨٩٦ . وتخرّج في دار المعلمين سنة ١٩١٥ ، وألحق بمدرسة ضباط الاحتياط خلال الحرب العظمى فمنح رتبة ملازم ثانٍ في الجيش التركي .

ودرس بمدرسة الحقوق في بغداد فنال اجازتها سنة ١٩٢٦ ، وزاول المحاماة . ثم أصدر جريدة «الأديب» الاسبوعية في الموصل سنة ١٩٣٤ ، فثابر على إصدارها وجعل اسمها «الرقيب» (١٩٦٣).

توفي في مسقط رأسه سنة ١٩٧٠ . وكان أبو الخطاب ظريفاً حسن الدعابة . وله مطارحات أدبية مع شعراء عصره ولا سيّما محمود الملاح الذي نظم فيه شعراً كثيراً على سبيل التفكهة . وداعبه عبد الجبار الجومرد يوم أصدر جريدته «الأديب» فقال :

لم يكن كاتباً أبو الخطّاب بل طبيب الأرواح والألباب

الكسائي يستقي النحو منه والحريريّ واقف بالباب

قال الدكتور أكرم فاضل : سئل عن علة وقوف الحريري بالباب فأجاب : لقطع التذاكر.

حدثني الدكتور أكرم فاضل قال : كنت ، قبل أن أشدّ الرحال إلى باريس وأحصل على شهادة الدكتوراه في القانون ، كاتباً في محاكم الموصل ، فعرفت المحامي محيي الدين أبا الخطّاب الذي كثيراً ما كان يترافع أمامنا . وجاءني في يوم من أيام الربيع قبيل الظهر وقال لي : أتخرج معي في نزهة خلوية إلى ظاهر المدينة حيث العشب العطر والزهور والرياض؟قلت : ولكن كيف أصنع وأنا مقيّد بالدوام؟ فذهب إلى الحاكم واستأذن لي بالخروج .

وكانت سيارة فخمة في انتظارنا عند باب المحكمة ، وفيها شاب وسيم من أبناء العشائر يرتدي حلة أنيقة من ثوب وعباءة وكوفية وعقال . فامتطينا سيارته ، ومضى بنا بأمر من أبي الخطاب إلى السوق ، فاشترى أطيب المأكولات والفاكهة .

وقال الشاب : والآن هل نذهب إلى حيّ العرب لأداء مهمتنا؟ فأجاب أبو الخطاب : بل نمضي أولاً إلى ضفاف دجلة حيث الماء والخضراء لنتناول الطعام ونتمتع بأفياء الربيع ، ولدينا بعد ذلك متّسع من الوقت لانجاز العمل الذي أوكلته إليّ .

وكان الكلأ يمتّد بساطاً أخضر يصل الأفق بالنهر الرقراق . فجلسنا ، ساعة وبعض ساعة نأكل ونشرب ، وأبو الخطاب يقصّ علينا ما لذّ وطاب من نوادره وأخباره مرصّعاً قصصه بالأمثال والأشعار.

ثم ركبنا السيارة واتجّه الشاب إلى البّر حتى بلغنا بعد لأي حياً من البدو يخيمون في الأرض الملساء . ووقف بنا على مبعدة من الخيام ، ونزل أبو الخطاب يتبعه الشاب وسارا يقصدان مضارب الأعراب ، وصاحبنا المحامي يتلكأ في سيره ، ويقدم رجلاً ويؤخر أخرى ويتلفّت إلى الوراء ، والشاب يستحثّه ويستعجله . وسرعان ما نبحت الكلاب وخرجت نسوة من الحيّ لاستطلاع الخبر، ثم تبعها الرجال والاولاد، ورأوا أبا الخطاب

يأتي اليهم فتقـدموا نحوه، ولم يـروا صاحبـه الشاب وراءه حتى علمـوا مغزى الـزيارة، فصاحوا بالقادمين: ما لكم ولنا تجيئـون إلى بيوتنا وتقلقون راحتنا؟ وأمطروهما بوابل من الشتـائم وحصبوهما بـالحصى والحجـارة. وعـاد أبو الخطـاب أدراجـه يجري كالكتيبـة المهزومة، ولا تكاد تحمله رجلاه، والشاب يسير خلفه ويقول بأعلى صوته: انّ مقصدنا شريف، ولا غاية لي الا الزواج على سنة الله ورسوله!

بيد أنّ الكـلاب بادرت بـالهجوم وهي تنبح نبـاحاً مخيفاً، ووراءهـا الرجـال والنساء يقذفون الشتائم ممـزوجة بالحجارة. فجرى أبو الخطاب وصاحبـه، ولم يصدّقا أن دخلا السيارة التي انطلقت تسابق الريح.

ولما ارتاح أبو الخطاب وسكن جأشه وهدأت نبضات قلبه، قلت: يا أستاذ، ما هذا المشهد المثير بعد تلك النزهة اللطيفة والغداء اللذيذ؟

فقال ضـاحكاً: أنـا وكيل هذا الشاب المترف النبيل. لقـد رأى جاريـة حسناء من جواري ذلك الحيّ فشغف بها حبـاً، وخطبها الى أهلها فردّوا طلبه. وقـد وكلني، وأنا المحامي الـمِدْرَه والخطيب المفوّه، لأقنعهم بمصاهرته، فرأيت من أمرهم ما رأيت.

قال أكرم فاضل: وكان ذلك آخر عهدي بنزهات أبي الخطاب.

كان أبو الخطاب أكولاً، وكأنه ذلك النهـم الذي وصفه ابن الرومي في شعره الرائع. قال توفيق السمعاني:

جاء أبو الخطـاب يوماً الى بغداد، فلما قضى أشغاله وودّع أصحـابه، قال لي: إنني أزمع العودة مسـاء اليوم بالقطـار، فأحضر لي عشاء يشبعني وأتِ بـه عصراً الى الفندق لتأخـذني بسيـارتك الى المحطـة، وذلك أقلّ ما يقـوم بـه الصـديق. قلت: على العين والرأس.

أخذته الى المحطة قبل موعد قيام القطـار، وقد أحضرت زنبيلاً كبيراً فيه عدد من كبّة الموصل يكفي لعـدة أشخاص، مع الفـاكهـة وغيرها. ووصلنـا الى المحطة مبكّـرين، فاقترح أبـو الخطاب أن نجلس في المقهى ونلعب النـرد ريثما يحين موعد السفـر. وقال: أين زاد الطريق؟ فجلب السائق زنبيل الطعام ووضعه عند قدميه.

وأخذ أبو الخطاب يرمي الزهر ويتناول شيئاً من الزنبيل ويضعه في فمه، وهو يواصل اللعب. ولم نسمع صافرة القطـار حتى كان صاحبنا قـد أتى على كلّ ما في الزنبيل من كبّة وفاكهة. فدفع بالنرد جانبـاً وقال ضاحكاً: خذ زنبيلك، يا رجل. وسنمضي الليلة جائعين، سامحك الله وأغدق عليك!.

***

قلتُ: جـاءني أبـو الخطاب يشتري سيـارة من طـراز «شفـروليت»، فألحّ في طلب السماح وتخفيض السعـر. وقـال: ليست هـذه السيـارة لي، وإنما هي لمسـاكين الموصل

وأيتامها وأراملها! قلت: وكيف ذلك؟ قال: إنني سأقف في شوارع الموصل صباحاً ومساءً وأنقل بها الضعفاء وأبناء السبيل مجاناً لوجه الله تعالى.

وابتاع السيارة بسعر متهاود وشروط سمحة، فأنشأ في جريدته «الأديب» مقامة يصف فيها السيارة وشراءها على طريقة الحريري وبديع الزمان.

وقد قلت فيه مداعباً:

أبو الخطاب، يا نعم المحامي! ... أبو الأيتام والرهط الصِيَام
أديب كاتب فذ خطيب ... له في الصُّحْف مرموق المقام
رؤوف بالمساكين الأيامَى ... وخصم المعتدين من اللئام
قنوعاً زاهداً تلقاه حقاً ... وطمّاعاً لإسعاد الأنام
فباسم العطف قد «ضرب» الأراضي ... ليبذل ماله بذل الكرام
فإنّ المال أودع في يديه ... لكي يجبو الأرامل بالطعام
ويركب مركباً رهواً سريعاً ... فيحمل من يدبّ من الطَّغام
ويأكل ما كلاً دسماً وفيراً ... ليدمغ آكلي السُّحْت الحرام
يوافي الأصدقاء بغير وعد ... ويبدي الودّ رعياً للذمام
ويشكر نعمة الباري عليه ... فيلتهم الطعام مع الإدام
ويقضي بين أصحاب القضايا ... قضاء مقسّط سلس الكلام
يريد رضاءهم ليفوز منهم ... بأجر بزّ تهْطال الغمام
وتلك خصاله: كرم وبرّ ... وإفشاء المروءة والسلام

إبراهيم الجلبي

من رجال الصحافة إبراهيم بن محمود بن عبد الرحمن الجلبي، ولد بالموصل سنة ١٨٨٢، وبدأ عمله الصحفي سنة ١٩٣١ في جريدة «العمال» لصاحبها سعد الدين زيادة. وأصدر جريدة «فتى العراق» سنة ١٩٣٤ وحرّرها ثلاثين عاماً، ثم استعاض عنها بجريدة «فتى العرب» (١٩٦٤).

وأسّس مطبعة «أم الربيعين» واشترك في جمعيات البرّ والإحسان والثقافة في مسقط رأسه. وساهم في تحرير جريدة «الرقيب» التي صدرت سنة ١٩٣٧.

أدركته الوفاة بالموصل في ٢٥ تشرين الثاني ١٩٧٢.

شفيق نوري السعيدي

من رجال الصحافة والقانـون شفيق نوري السعيدي ينتسب الى أراضي السُّعَيْدة على نهر ديالى جنوبيّ بغـداد. ولد ببغداد سنة ١٨٩٥ ودرس في مدرسة الحقـوق فتخرج فيها سنـة ١٩٢٣ ، واتّهم سنة ١٩٣١ بـالاشتراك في قضيـة الرسـائل السريـة في عهد وزيـر الـداخلية مـزاحم الأمين البـاجة جي مع أخـويـه رفيق وجميـل وفاضـل قـاسم راجي وغيرهم.

وقبض عليه في كـانون الثاني ١٩٤٠ إثـر مقتل رستم حيدر وزير المالية مع إبراهيم كمال وعارف قفطان وصبيح نجيب الخ، ثم أطلق سراحه. وأصـدر جريدة «الشهاب» اليومية في تموز ١٩٤١ ، فظلّت تصـدر خلال الحرب العالمية الثانية، ثـم أعـاد إصدارها في تشرين الثاني ١٩٥٢ . وكان شعارها :

إنّ الشهـاب لنـور يستضـاء بـه حينـاً، وحينـاً رجـوم للشيـاطين

وانتخب نائباً عن لـواء بغداد في نيسان ١٩٤٢ خلفاً لعلي جـودت الأيوبي، ثـم أعيد انتخابه في تشرين الأول ١٩٤٣ الى تشرين الثاني ١٩٤٦ .

وقد توفي ببغداد في ٩ تشرين الأول ١٩٥٨ .

كان له مجلس حافل يحضره رجال السياسة والصحافة والأدب.

محمد علي البلاغي

من الصحفيين الألمعين، وهـو محمـد علي بن حسن بن مهـدي ينتسب الى أسرة البلاغـي الدينيـة النجفية المتحدّرة مـن جدّها الأعلى الفقيـه المتبحّر الشيـخ محمد علي البلاغي المتوفى سنة ١٥٩٢م.

ولد محمـد علي في النجف سنة ١٩١٣ ودرس في معاهـدها. وأصدر فيهـا في شباط ١٩٣٢ مجلته «الاعتـدال» الشهرية التي أصبحت مـن مجلات العراق الراقيـة واجتذبت أقـلام أشهـر الكتّاب والشعـراء. واحتجبت المجلـة سنـة ١٩٤١ حين اشتـدّت وطأة الحرب، ثم عادت الى الصدور سنة ١٩٤٦ سنة واحدة.

ترك البـلاغي مجلته بعـد ذلك، ثم لجأ الى ميدان الوظيفـة فعيّن مديـراً لفرع مصرف الرافدين في النجف (تشرين الثاني ١٩٤٩) وأقام في منصبه أعواماً طويلة.

توفي في ٢٢ كانون الثاني ١٩٧٦ .

نور الدين داود

من رجال الصحافة نور الدين داود سليم، ولد سنة ١٨٩٨ ودرس في مدارس بغداد، ووظّف في دائرة البرق في تشرين الثاني ١٩١٩ . وأصدر بعد ذلك مجلّة «الحديث» (تشرين الثاني ١٩٢٧)، فدامت سنة واحدة .

وعاد موظفاً في مديرية الواردات العامة، ونقل معاوناً لمدير كمرك بغداد (حزيران ١٩٣٦) . وعيّن مديراً عاماً للدعاية في حزيران ١٩٤١ فنهض بأعباء منصبه أشهراً، ثم أعيد في أواخر تلك السنة معاون مدير كمرك ومكوس . وأصبح معاوناً لمدير التموين العام (آذار ١٩٤٢) وعهدت إليه وكالة مديرية وسائل النقل العامة (آب ١٩٤٢) . وكان بعد ذلك مفتشاً مالياً (شباط ١٩٤٣) فمعاون مدير انحصار التبغ العام (تموز ١٩٤٣) .

واعتزل خدمة الحكومة فأصدر جريدة «النداء» اليوميّة (آب ١٩٤٤)، فجريدة «الرائد» (كانون ثاني ١٩٤٧) . وانتخب رئيساً لجمعية الصحفييّن (١٩٤٧) .

ألّف كتباً منها : حقوق الإنسان (١٩٤٩) محنة في الفردوس : بلاد كشمير (١٩٥٠) ضحيّة المكائد (١٩٥٠) .

توفي ببغداد سنة ١٩٥٥ .

إبنته : الشاعرة أميرة نور الدين داود، ولدت ببغداد في تموز ١٩٢٥ وتخرّجت في كلية الآداب بجامعة القاهرة (١٩٤٧) . وزاولت التعليم في المدارس الثانوية، ثم عادت الى القاهرة ونالت درجة «الماجستير» في شباط ١٩٥٧ ، وكان موضوع رسالتها «الشعر الشعبي في منطقة الفرات الأوسط» . وعيّنت مدرسة في دار المعلمات الابتدائية في بغداد .

نظمت الشعر منذ حداثتها ودرست العروض على صديق والدها الشاعر جميل أحمد الكاظمي (١٩٠٧ ـ ١٩٧٠) . ونقلت الى العربية نظماً «درراً من شعر إقبال شاعر الإسلام وفيلسوفه» (١٩٥١) . قالت الشعر في المناسبات الوطنية والقومية، وطرقت أبواب الوصف والرثاء، وتمسّكت ـ كما ذكرت صبيحة الشيخ داود ـ بأهداب المدرسة الكلاسيكية القديمة .

قالت أميرة نور الدين في الربيع :

ربيع ولكن الفؤاد ملوع ... وفي العين في إثر الدموع دموع
ربيع ونار الحزن تحرق مهجتي ... كما احترقت للسّامرين شموع
ربيع وقد عزّ التصبر مطلباً ... وغادر منّي القلب وهو جزوع . . .
ربيع ألا ليت الربيع بما مضى ... يعود ففي قلبي اليه نزوع

وصرّحت أميرة نور الدين أنها تأثرت بطه حسين وأحمد أمين والدكتورة سهير القلماوي التي أشرفت على رسالة «الماجستير». وقالت، وهي من الشاعرات الملتزمات بالشعر العمودي، إن النتاج الأدبي الحديث فيه الغثّ والسمين، وإن التجديد في الشعر قسمان: مستساغ جيد ورديء ممسوخ. ونصحت من لا تتوافر له الموهبة الشعرية أن ينصرف الى كتابة النثر، ودعت الجيل الصاعد الى قراءة التراث القديم والإفادة منه. وقالت إنها لم تتأثر بالأدب العالمي إلا في نطاق محدود، لا يتجاوز ترجمة طائفة من القصائد من اللغتين الفارسية والانكليزية.

هذا وقد نظمت أميرة قصيدة في رثاء والدها مطلعها:

أبي، صدفت عن الدنيا على عجل   أبي، حنانيك قد حطّمت لي أملي . . .

سعد الدين زيادة

من رجال الصحافة والمحاماة والقضاء، أحمد سعد الدين زيادة ابن الشاعر الأديب داود سليمان الملاح المتوفى سنة ١٩١١.

ولد بالموصل سنة ١٩٠١ ودرس الحقوق وزاول المحاماة. وأصدر في مسقط رأسه جريدة «العمال» (أيلول ١٩٣١)، ثم تولى تحرير جريدة «فتى العراق».

وبعد أعوام طويلة قضاها في الصحافة والمحاماة، انتمى الى سلك القضاء وعيّن مدوّناً قانونياً (حزيران ١٩٤٥). ونقل حاكماً بمحكمة استئناف حقوق الأراضي ببغداد (نيسان ١٩٤٩) فرئيس المنطقة العدلية في لواء ديالى (حزيران ١٩٥٤) فحاكم استئناف التسوية بالموصل (حزيران ١٩٥٦). واعتزل الخدمة بعد ذلك.

يونس بحري

يونس بحري الجبوري المعروف في شبابه بـ «السائح العراقي» كاتب وصحافي ومذيع كثير المغامرات والأسفار، ولد في الموصل سنة ١٩٠٤ لأسرة كادحة رقيقة الحال. وانتمى الى دار المعلمين الابتدائية في بغداد سنة ١٩٢١، لكنه لم يكمل دراسته والتحق بوظيفة كتابية في وزارة المالية.

وترك وظيفته سنة ١٩٢٣ ومضى الى خارج العراق في سياحة معتمداً على نفسه وسائراً في معظم الأحيان على قدميه، فجاب أنحاء أوروبة وآسية واشتغل في مختلف المهن. وعاد الى بغداد بعد سنتين، لكنه لم يلبث أن عاود السفر في السنة التالية في البلدان المختلفة فسجن في باريس وزار تونس وليبيا وحضرموت وجاوة والهند

والأفغـان وإيـران ورجع سنـة ١٩٣٣ ، نـاسجاً حـول أسفـاره قصصـاً تمزج الحقيقـة بالخيـال. وأصدر في أثناء سياحتـه، على ما رواه، صحفاً منها «الكـويت والعراق » و «الحق والإسلام» .

أصدر في بغـداد جريـدة العُقاب في تشرين الثـاني ١٩٣٣ ، و «الميثاق» (١٩٣٤)، ففرض الأتاوة على التجار والموظفين. ثم سافر الى المغرب العربي سنة ١٩٣٧ ومضى الى باريس فكلفـه السيد قـدّور بن غبريط بتعهد شـؤون الجامع الذي أنشأه فيهـا سلطان مراكش سيدي محمد بن يوسف والمقهى والحمّام الملحقين به .

ولما بـدت سحب الحرب العـالمية ذهب الى بـرلين في نيسـان ١٩٣٩ وأصبح مـذيع محطتها العـربية الـداعية لهتلـر والنازيـة ، واشتهر بحماستـه المثيرة ونداثه اللاهـب «هنا برلين، حيّ العـرب!» لكنّه أخذ بالدسّ لمفتي فلسطين الحاج محمـد أمين الحسيني تارة ولرشيد عالي الكيلاني الزعيم العراقي أخرى، فأبعد الى بريسلاو مراراً. واندحرت ألمانية النازيـة فاستطاع أن يجد طـريقه الى عمّان بعـد أهوال شديـدة. إلتجأ الى الأمير عبد الله عاهل الأردنّ الـذي طالما نـدّد به وشتمـه من إذاعة بـرلين، لكن الأمير عفا عنـه وأكرم وفادته بما عرف عنه من سماحة وطيبة نفس .

وأقام بعـد ذلك في بيروت وأصدر كتبـاً مختلفة. ثم جـاء الى بغداد في تموز ١٩٥٨ ، فاعتقل عند قيـام الثورة. وأطلق سراحه فعمل طبّاخاً في بعض المطـاعم، ومنها الذي أنشأه عادل عوني عبد الله صاحب جريدة «الحوادث» المغلقة .

وعاد الى لبنان في آخـر سنة ١٩٥٩ وتنقل بينه وبين إمارات الخليـج العربي. وأدركه الحمام في بغداد في شهر نيسان ١٩٧٩ .

تزوج يونس بحري زيجات عديدة في مختلـف البلدان التي أقام فيها ، لكنه كان يترك زوجاته وأولاده ويمضي ميمّماً شطر بلد آخر لمغامرة جديدة وزواج جديد .

من مؤلفـاته : العراق اليوم (بيروت ١٩٣٦) تـاريخ السودان (القاهـرة ١٩٣٧) هنا بغداد (١٩٣٨) الجامعـة الإسلاميـة (باريس ١٩٤٨) تـونس (بيروت ١٩٥٥) الجزائر (بيروت ١٩٥٦) الحرب مع إسرائيل وحليفاتها (بيروت ١٩٥٦) دمـاء في المغرب العربي (بيروت ١٩٥٥) ليبيا (بيروت ١٩٥٦) المغرب (بيروت ١٩٥٦) هنا برلين، حيّ العرب (٨ أجـزاء، بيروت ١٩٥٦) سبعـة أشهـر في سجـون بغـداد (بيروت ١٩٦٠) محاكمـة المهداوي (بيروت ١٩٦١) موريتانيا الإسلامية (بيروت ١٩٦١) ثورة ١٤ رمضان المبارك (بيروت ١٩٦٣) ليالي باريس (باريس ١٩٦٥) أسرار ٢ مايس ١٩٤١ (بغداد ١٩٦٨) الخ .

عـرفتُ يونس بحـري شخصيـاً لأول مرة سنـة ١٩٣٥ حين شرعنـا بإصدار الـدليل العراقي، فأخـذ يكتب عنه في جريدتـه «العقاب» وصار يهدّد بانتقـاد المشروع والتنديد

بـه . فـاستـدعينـاه ونفحنـاه بالمال وأعطينـاه إعـلانـات عن الـدليل فـانقلب يـؤيـده ويستحسنه .

ثم رأيته في المفـوضية العـراقية في باريـس سنة ١٩٣٧ ، وقد جـاء يفاخـر بأعماله في المشرق والمغرب ويطلب التوسط له في الحصول على وسـام جوقة الشرف الفرنسي . وقال إنه ذهب الى جاوة في الشرق الأقصـى ، (وكانت آنذاك مستعمرة هولنـدية ثم أصبحت بعد الحرب العالمية الثانية جمهوريـة أندونيسية المستقلة) وشدّ أزر بعض الأحزاب المحلية بالمطالبة بالاستقلال وأصدر جرائد عربية تنطق بلسان الشباب الأحرار. وقال إنه ذهب الى الربـاط وأسدى الخدمات لسلطـان مرّاكش محمد بن يـوسف (الملك محمد الخامس عاهل المغرب فيما بعد) فمنحه وساماً . . . ورأينـاه بعد ذلك في جامع باريس وشاهدناه يضرب على الطبلة وينقر على الدفّ في المقهى ليلاً ويقف في باب الحمام الملحق بالجامع نهاراً . . .

وسمعناه خـلال الحرب يرغي ويزبد ويصرخ ويتـوعد من إذاعة برلين العـربية . ثم رأيناه في بغـداد سنة ١٩٥٩ لابسـاً المئزر في مطبخ مطعم «بـوران» الذي أنشأه صـديقنا الصحفي عادل عوني عبد الله . وكان يونس بحري الـذي عرفناه فيما مضى بديناً موفور الصحة قد رقّ بدنه واستدقّ وأصبح صورة كـاريكاتورية لشخصه السابق . وكان ذلك آخر العهد به حتى قرأنا نبأ وفاته في بغداد أخيراً .

عبد الرزاق الناصري

من رجال الصحـافة والتعليم عبد الـرزاق الناصري ولد بـالبصرة سنة ١٩٠٤ لأسرة تكريتيّـة الأصل نزحت الى جنوب العراق قبـل عهد بعيد . وقد عني والـده الشيخ عبد العـزيز النـاصري بتربيتـه ، ثم مضى الى بغـداد وانتمى الى دار المعلمين العاليـة وتخرّج فيها .

عيّن مدرساً في المدرسة الثانويـة المركزية . ثم أصدر مجلة «النشء الجديد» في البصرة في شبـاط ١٩٢٧ ونقلها الى بغـداد في تموز ١٩٢٨ . وتـولّى بعـد ذلك إصـدار جريـدة سياسية بـاسـم «الأيام» ظهرت في البصرة في كانون الثـاني ١٩٣٠ ودامت نحواً من ثمانية أشهر.

وعاد بعد ذلك الى التدريس وكان مديراً للتحـرير بوزارة المعارف فمدرساً في المدرسة الثانوية في مسقـط رأسه . وطلّق التدريس مرة أخرى فاستقـرّ في البصرة وأصدر جريدة «الأنباء» في شهر تموز ١٩٣٦ . وتوفي في البصرة قبل سنة ١٩٤٩ .

كان عبد الرزاق الناصري صديق الشبـاب للشاعر محمد مهدي الجواهري ، ذكره في قصيدته «ليلة من ليالي الشباب» (١٩٢٩) ، فقال :

ومعي صـــاحـب تفـــرّست فيـــه كـلّ خير فلم تخّني الفَــــرَاســـــة
أريحيّ مـلء الطبيعـــــة منـــــه عـــزّة وانتبــاهـــة وسَـــلاســــه
خـدن لهو. . إني أحبّ من الشــاعـر (م) في هـــذه الحيـــاة انغماســـه . . .

فاضل قاسم راجي

من رجال الصحافة فـاضل قاسم راجي، ولد سنة ١٩٠٤ . ومال إلى الكتـابة شاباً فكـان مخابـراً ومحرراً في جريـدة الاستقـلال وصـدى العهـد والـزمان . وحـرّر أيضـاً في الصحف الأدبية والهزليـة كالمداعب لصاحبهـا حسين يحيى (١٩٢٦) والصراحة لهاشم الرفاعي (١٩٢٨) والصرخة إلخ .

واعتقل سنة ١٩٣٢ بتهمـة التعرّض للحكم الملكي في قضيـة الرسـائل السريّة التي اتهم فيها مزاحم الأمين الباجه جي . ثم رئس تحرير مجلة المرأة الحديثة لصاحبتها حمدية الأعرجي (حزيـران ١٩٣٦)، صدر منها ٨ أعداد، ثم أصـدر بعد ذلك في تلك السنة مجلة فتاة العراق لصاحبتها حسيبة راجي، وظلت تصدر نحو ٤ سنوات، ثم عادت إلى الصدور أمداً قصيراً بعد الحرب العالمية الثانية .

وأصـدر سنة ١٩٤٧ صحيفتـه الهزلية «قـزموز» على نسق جـريدة حبـزبوز وكنـاس الشوارع وأبـو حمد، فكانت من الصحف التي تستهـدف الفكاهـة والنقد الاجتماعي، ودامت إلى ١٩٥٢ . وأصدر أيضاً جريدة الصراع في تموز ١٩٤٨ .

توفي ببغداد في ٢٣ كانون الأول ١٩٥٤ .

قـال هـاشم النعيمي : «لقـد كان رجـلاً طيب القلب هـادئاً لطيف المعشر، وكـان صحفياً مطبوعاً وكاتباً هزلياً قـديراً . وقد ترك بعض الكتب، من بينها : ولدي أسامة، ومذكرات بائس . . . ودنيا الكمال في مملكة الخيال» .

وكان بائساً صارع الحياة وذاق شظف العيش وسقط في معركة الداء والحاجة .

خالد الدرّة

من الكتاب الصحفيّين البـارزين، ولد خالد الـدُّرّة ببغداد سنة ١٩٠٨، ودرس في معهد الحقـوق بدمشق، وتخرّج في كليـة الحقوق ببغـداد (١٩٣٨) . وقد زاول المحـاماة وعمل في الصحافة أعواماً طويلة، وأصدر جريدة «الشعلة» سنة ١٩٣٠ .

أنشأ مجلـة «الوادي» سنة ١٩٣٦، وقـد صدرت سنين كثيرة وكـانت من الصحف الهادفة النـاقدة التـي عرفت بنـزعتها الحرة وخطّتها الجريئـة . ثم حـرّر الدرة في مجلات

وجرائد مختلفة منها «العهد الجديد» و «الفلقة» بعد ثورة تموز ١٩٥٨ .

وخالد الدرة من الكتاب الذين ترسّموا خطى إبراهيم صالح شكر في نقداته اللاذعة، ولا سيّما في تحليله للأحداث السياسية والصور القلمية البارعة التي رسمها لرجال السياسة والمجتمع. وهو إلى ذلك كاتب قصصيّ يدعو إلى الإصلاح ويحمل بعنف على الفساد والتقهقر الاجتماعي. قال الدكتور صفاء خلوصي في فصل «أدب القصة في العراق» (دليل الجمهورية العراقية لسنة ١٩٦٠): «. . . ولكن يجب أن لا ننسى أن الدرّة متأثر بالطريقة العربية القديمة في كتابة القصص، فطريقته ليست قصصية وإنما روائية على نحو ما نجده في ألف ليلة وليلة. ولذلك لم يعالج الأقصوصة لأنها تحتاج إلى قدرة فنية خاصة تختلف عن القدرة على كتابة الروايات. وكان أكثر ما كتب القصة الطويلة . . . وأبطال روايات الدرة في بعض الأحيان ـ كأكثر شخوص القصص العراقية ـ ليسوا أكثر من دمى تتحرك، ولكنها تفعل الأفاعيل».

من مؤلفاته: لقتل الضجر (١٩٣٥) المشعوذ (١٩٣٧) حول المنهج القومي العربي (١٩٤١) في قفص الاتهام (١٩٤٦) أفول وشروق رواية (١٩٥٣) طبيعة الأشياء (١٩٥٥).

توفي ببغداد سنة ١٩٨٠ (؟).

لطفي بكر صدقي

من رجال الصحافة لطفي بكر صدقي، وأبوه بكر صدقي أخو المؤرخ الصحافي علي ظريف الأعظمي. ولد ببغداد في ١٩ تشرين الثاني ١٩١٢ وأنجز دراسته الثانوية في مسقط رأسه. واشترك وهو طالب في المظاهرات الوطنية. ومال إلى الأدب والصحافة يافعاً، فكتب في جريدة الاستقلال والبلاد والزمان والأهالي.

وأصدر صحيفة «الوميض» في تشرين الثاني ١٩٣٠، فلم يطل عهدها. ثم اشترك في الحركة الوطنية في أيار ١٩٤١، وفرّ إلى طهران، فقبض عليه وأبعد إلى روديسية الجنوبية. وأعيد إلى بغداد في أوائل سنة ١٩٤٤ فاعتقل في العمارة.

وعاد إلى ميدان الصحافة بعد نهاية الحرب العالمية، ثم التحق بتحرير جريدة صوت الأحرار (١٩٤٦). وأصبح مالكاً لهذه الجريدة سنة ١٩٤٩، وأصدر عند تعطيلها جريدة العالم العربي والاخاء. وطلّق الصحافة بعد ذلك ليمضي إلى أوروبة ويقضي فيها سنوات.

عاد إلى بغدادبعد ثورة تموز ١٩٥٨ واستأنف إصدار جريدة صوت الأحرار أمداً، ثم اعتزل الحياة الصحفية.

نشر قصصاً في مجلة الوميض وجريدة البلاد والاخاء الوطني والأخبار وغيرها (١٩٣٠ ـ ١٩٣٤).

أخوه: عوني بكر صدقي من رجال التعليم والأدب ولد ببغداد سنة ١٩٠١ وتوفي سنة ١٩٦٨. وقد تخرّج في دار المعلمين (١٩٢٥) وزاول التدريس أعواماً طويلة، ثم نقل مديراً لمعارف لواء الدليم (١٩٤٥) فمديراً للمناهج والكتب بوزارة المعارف (١٩٤٦)، فمدير التدريس الابتدائي (١٩٥٠)، فمدرساً في مدرسة الصناعة (١٩٥٣). وكان من رواد الحركة الكشفية في العراق، أصدر كتاب «الكشاف العراقي» (١٩٢٢) واشترك مع محمود أحمد السيّد في كتابة «السّهام المتقابلة» (١٩٢٢).

عادل عوني

عادل عوني عبد الله، من رجال الصحافة، ولد بالموصل سنة ١٩٠٦، وترك الدراسة بعد أن وصل إلى الصفّ الثاني الثانوي. وقد أولع بالصحافة، فقدم إلى بغداد وعمل محرراً ومراسلاً في جريدة العراق والعقاب والبلاد. ورئس تحرير مجلة الميثاق (كانون الأول ١٩٣٣)، ثم أصدر مجلة الحديث وجريدة البعث (تشرين الأول ١٩٣٤) فجريدة الوحدة (١٩٣٥).

وأصدر جريدة الحوادث اليومية المسائية في أيلول ١٩٤١، فظلّت تصدر إلى ثورة تموز ١٩٥٨. واعتقل على أثر الثورة، ولما أطلق سراحه افتتح مطعماً في بغداد فلم يصب نجاحاً. وعاش بعد ذلك متنقلاً بين بغداد وبيروت.

وهو كاتب لطيف الأسلوب، ظريف الطبع، خفيف الظلّ، جعل جريدته أداة لتأييد نوري السعيد والحكم الملكي والحملة على المعارضة بشدة وقساوة.

توفي في بيروت سنة ١٩٧٩.

عبد المجيد الونداوي

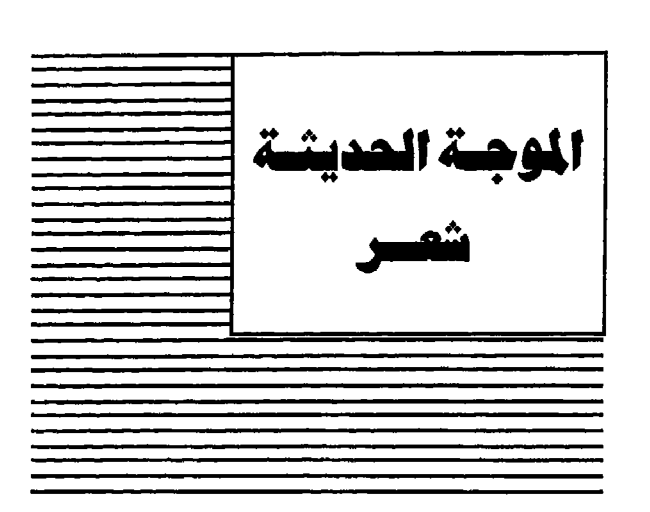
من رجال الصحافة والأدب، عبد المجيد عبد العزيز الونداوي، ولد في بلدة الكوت سنة ١٩٢٤ وتخرّج في كلية الحقوق ببغداد. ومارس المحاماة، لكنه انصرف إلى الصحافة فحرّر في جريدة الأهالي لصاحبها كامل الجادرجي. ثم تولّى التحرير في صحف متعددة أمداً يربو على ربع القرن، وكان في أعوامه الأخيرة محرراً في جريدة الثورة.

وقد أدركته الوفاة في بغداد في ٨ آب ١٩٧٤.

كتب عبد المجيد الونداوي مقالات سياسية وأدبية عديدة. وألف: محاكمة كامل الجادرجي (١٩٤٩) الحلف التركي الباكستاني والمشاريع الاستعمارية في الشرق الأوسط (١٩٥٤) من يوم إلى يوم (١٩٥٤) المانية أخطر المشاكل العالمية القائمة (١٩٥٥). وترجم مختارات من همنغواي (١٩٥٧).

كان عبد المجيد الونداوي من الكتّاب الأحرار المؤمنين بالديمقراطية والمناضلين في سبيل مبادئها. قال عبد القادر البرّاك أن الونداوي تعرّض للاضطهاد والاعتقال والمطاردة خلال عمله الصحفيّ في العهد الملكي دون أن يصرفه ذلك عن المضيّ في خطه الوطني الديمقراطي الذي آمن به.

ثم قال: «فلقد كان في أحلك الظروف يكتب المقالة والخاطرة ويترجم الرأي والخبر، ويعدّ ما تتطلّبه منه طبيعة عمله كرئيس لتحرير عدد من الصحف، وهو مشرق الأسارير ساكن الجوارح، يشارك أصدقاءه وخلطاءه فيما هم فيه من أحاديث بعيدة عن هموم العاملين في حقول صحافة الكفاح الوطني، طاوياً ضلوعه على كثير من الشجون والآلام التي كان يأنف من إظهار جزعه منها... إن صحف الكفاح الوطني التي صدرت قبل اندلاع ثورة ١٤ تموز وبعدها طافحة بآثار الفقيد... وهي تسلكه في مقدمة رجال القلم والرأي الجديرين بالاعتزاز والتقدير...».


الموجة الحديثة
شعر

حافظ جميل

شاعـر الغزل والخمرة حـافظ بن عبد الجليل بن أحمد بن عبد الـرزاق بن خليـل بن عبـد الجليـل آل جميـل . كان أبـوه الشيـخ عبد الجليـل جميـل (١٨٧٠ ــ ١٩٥٧) مدرس جامع العـدلية الكبير والآصفية ومفتي الكاظمية وأستـاذاً في جامعة آل البيت . وقد نفاه الإنكليـز إلى الهند بعد احتلال بغداد (١٩١٧ ــ ١٩١٩)، ثم أصدر صحيفة الإرشـاد في تشريـن الثـاني ١٩٢٦ . ووضع مـؤلفــات منهـا : إرشــاد العبــاد في علم الاعتقـاد، تنويـر الأذهـان (في المنطق، ١٩٠٣) العجـالـة في النحو، المحـاضرات في الأصول، إلخ .

ولـد حـافـظ جميل في بغـداد سنـة ١٩٠٨ والتحق بـالجامعـة الأميركيـة في بيروت (١٩٢٥) فنال شهادة بكلوريوس علوم سنـة ١٩٢٩ . وتتلمذ في الوقت نفسه على أبيه وعلى منير القاضي فأخـذ عنهما اللغة والأدب والشعر. وأصدر، وهو طـالب لا يتجاوز عمـره السـادسة عشرة، مجمـوعـة شعـريـة باسـم «الجميليات» قـدّم لها الأستـاذ منير القاضي .

عاد إلى بغداد فعيّن مـدرساً في المدرسة الثانوية المركـزية (تشرين الأول ١٩٢٩) فدار المعلمين الابتـدائية (١٩٣٠) . واستقـال من التدريس في شبـاط ١٩٣٢ . ثم وظف في السنة التـالية في وزارة المالية فكـان مخمناً لضريبة الـدخل فمميزاً بمديـرية الريّ العـامة (تموز ١٩٤٠) ونقلت خـدماتـه إلى مديـرية البريـد والبرق العامـة (آب ١٩٤١) فكان مـدير التلفـونات (آذار ١٩٤٩) فمـدير دائرة البرق المركـزية (نيسـان ١٩٥٠) فمديـر الحسابـات فمعاون مـدير البريـد والبرق العام (نيسـان ١٩٥٢) فمفتش البريد والبرق العام (شبـاط ١٩٦٢) حتى اعتـزل الخدمة في حـزيران ١٩٦٣ . وقـد منحته الحكـومة اللبنانية وسام الأرز (١٩٧٤) . وتوفي في بغداد في ٤ أيار ١٩٨٤ .

شعره وأدبه :

نشأ حافظ جميل في جوّ ديني متزمّت ودرس اللغة والأدب وقـرض الشعر صبياً وهو لا يزال على مقاعد الدراسة الثانوية . لكنه لم يكد يبلغ السابعة عشرة من عمره حتى شدّ الـرحال إلى بيروت وانتمى إلى الجامعـة الأميركيـة وانصرف إلى دراسة العلـوم، فتفتحت لعينيه، وهو الشاب الغضّ كالطين في يد الخزّاف، آفـاق رحيبة وعوالم جديدة لم يألفها في بغداد ولم يشهـد مثيلها في بيئته الـوقورة المحافظـة . رأى الفتيات يزاملنـه في الجامعة

ويلتقين به في الأندية والمجتمعات، ورأى معالم الحضارة طيّبها وخبيثها تغشاه وتحيط به وتسدّ عليه المنافذ. ورأى كؤوس الخمرة تترع وتكرع، وحلقات الرقص تنتظم وتندفع وتتقدم وتتراجع بنظام وغير نظام، فانطلق بحافز من روح الشباب ونظم الشعر في المرأة وبنت الحان، وتنفس ملء رئتيه الهواء الطلق الذي غمر روحه وفاض على لسانه.

عاد حافظ بعد ذلك إلى بغداد وانتظم في سلك التدريس والوظيفة، واختلف إلى مجالس صباه ومراتع شبابه، فظلّ حياته تتجاذبه عوامل متباينة متناقضة تقرن القديم بالجديد وتجمع روح التزمّت والجمود إلى الوثبة والتفتح والانطلاق. وظهرت آثار ذلك في شعره فطبعته بطابع خاص وشرّقت به وغرّبت، لكن شيئاً واضحاً بقي في هذا الشعر على ما عصفت به من عواصف المحافظة والتجديد، ذلك هو تقيّده بالطابع العربي الأصيل في مبانيه ومعانيه وترسّمه خطى السابقين من شعراء العربية الأقدمين وشعراء النهضة الحديثة. والغريب أن حافظ جميل الذي أتقن اللغة الانكليزية واطلع على آدابها وفنونها لم يتأثر بالأدب الانكليزي بصورة مباشرة ولم يحاول أن يصطنع أساليبه ومناهجه.

أصدر حافظ أربعة دواوين: الجميليات (١٩٢٤) نبض الوجدان (١٩٥٧) اللهب المقفى (١٩٦٦) أحلام الدّوالي (١٩٧٢). وله أيضاً: كتاب «عرفت ثلاثة آلاف مجنون» (١٩٤٤) نقله عن الانكليزية بالاشتراك مع الدكتور فائق شاكر، رسالة في القرآن (محاضرات ألقاها على طلبة دار المعلمين الابتدائية سنة ١٩٣١).

وشاعرنا غمر البديهة، طويل النفس، ينقد القصيدة التي ينظمها نقداً قاسياً ويزن كلماتها وأبياتها بميزان الدرّ والذهب، كما كان يفعل من قبله زهير بن أبي سلمى في حولياته ومروان بن أبي حفصة في أماديحه، وكما كان يفعل الأديب الفرنسي غستاف فلوبير صاحب «التربية العاطفية». وقد تأثر، على ما قال، بالشعراء أبي نواس وابن الرومي والمتنبي وشوقي والأدباء أحمد حسن الزيّات وطه حسين والمنفلوطي والعقاد.

يبرز حافظ جميل أكثر ما يكون تبريزاً في غزلياته وخمرياته التي يصدر فيها عن قلب فتيّ لا يؤمن بالهرم وعاطفة مرهفة مشبوبة.

لقد بلغ الشاعر سنّ الكهولة، لكنه لم يزل يعيش بـ(الآمال) ويترقب (بريد القبل) ويستذكر (ليالي لبنان) ويأنس إلى (كأسه). فلنستمع إليه يقول:

حيّي بما يحلو لديك وسلّمي ... بالعين إن أحببت أو بالمبسم
حسب الحبيبة لحظها إن سلّمت ... وشفاهها إن أومأت لمسلّم
أعيا بصمتك ناظراك فأفصحا ... عمّا بقلبك من جوى متضرّم
وتبلّجت شفتاك عنه، فما عسى ... تبغين من كتمان ما لم يكتم؟...

وهو يكتئب للوعة الحبيبة فيهتف قائلاً :

مـــاذا أردّ عـــلى اكتـــئابـــك إن كـــان مـــا بي فـــوق مـــا بك؟

وهو يسخط لجفاء الحبيبة فيخاطبها قائلاً :

ودّعـت عهـــــدك وانتهـــــيت وخـــــرجت منـــــه بيا اكتفيت

وهو يناجي الراح ويرتضي الخمرة دواءً لكلوم نفسه، فينشد قائلاً :

ألا مـــا كـــان أعظمني شقـــاءً وأكثـــرني بـــلا سكـــر عنـــاءً

وأنـــزلني على أحكـــام دهـــر قضـى أن لا أرد لـــــه قضـــاءً

وهل كـــالـــراح من محمـــود عقبى لمن ســـاءت عـــواقبـــه وســـاءَ؟

وشعـر حـافظ جميل بعـد ذلك في لبنان وفي بغـداد سـائر على الألسنـة، محبّب إلى القلوب . فبغـداد مسقط الرأس وملعب الطفولـة ومدرج الصبا فـلا عجب أن يخاطبها الشاعر فيقول :

لغيرك، يـــا بغـــداد، لم يهف جـــانحي ولا شـــاقني في غير ظلـك أن أشـــدو

ولا طـــاب لي في غير دجلـــة مـــرتع ولا لـــذّ لي في غير شـــاطئهـــا الـــورد

وكيف اصطبـــاري عن حنـــان ربيبـــة سريـــراي في أحضـــانها القبر والمهـــد!

أما لبنان فهـو كهف الشاعر الروحيّ لا يفتأ يردد ذكره ويشيد بمحـاسنه ومحامده، فهو تارة يقول :

ذر الـــدمع الملحّ يـــزيـــد وكفـــا فما لـك غير لبنـــــان وتشفـى . . .

أظلّك في الشبـــاب فكـــان وكنـــاً وحـــاطك في المشيب فكـــان كهفـــا

ومـن لـــك في النـــــوازل إن ألمت بـأرعـى ذمّـــــة منـــــه وأوفى

ويقول طوراً في ليالي لبنان :

ليـــــــال بعثـت فيـك من النشــــوة أقصـــاهـــا

وزانـت لـك دنيـــــــاك وأنستـك رزايـــــاهـــا

ليـــــــال غسـل الطـلّ حـــواشيهـــا فنـــدّاهـــا

وجـــال الـــزهـــر في خضر روابيهـــا فـــوشّـــاهـــا . . .

أو يقول :

أيـن من أرضهـــا أديم سماهـــا أين وضّـــاح صبحهـا مـن دجـاهـــا؟

ربـــوة من جنـــان لبنـــان حلّت من أعـــالي الشـــويـر عـــالي ذراهـــا

أو يقول :

يقولون : ما شأني ولبنان كلّها	تغنّيت فيه جنّ في الشعر شيطاني
فقلت : هبوني فخر بغداد محتدا	فمن غير لبنان رعاني وربّاني
ومن غير لبنان شكوت فرقّ لي	ومن غير لبنان بكيت فواساني
ومن غير لبنان، إذا ما وهبته	حياتي، أحال الأرز قبراً فواراني؟

وقد تقدم الشاعر في العمر، واعتزل الوظيفة، وزادت أوصابه وآلامه، ونزفت جراحات جسمه وروحه، فداواها بمودّة وثيقة ربطته بأخ مواس أديب هو الأستاذ يوسف يعقوب مسكوني الرجل الطيب الباحث المحقق. وتوفي هذا الأخ فثارت لواعج الشاعر وأرسلها نفثة جسّمت الحزن واللوعة والشكوى والإشفاق والمرارة والألم. حزن داود النبي قبل عصور طويلة لمقتل شقيق روحه يوناثان فرثاه بكلمات مؤثرة وقال : «أسفاً عليك، يا أخي، لقد طابت مودتك لي فكانت أعجب من حبّ النساء». وفقد الشريف الرضيّ صديقه الصابىء فقال : أرأيت كيف خبا ضياء النادي؟ وقديماً مزق كلكامش ثيابه وحثا التراب على رأسه حين مات صاحبه انكيدو وقال : «من أجل انكيدو خلّي وصاحبي أبكي وأنوح نواح الثكلى، فقد كان الفأس التي في جنبي وقوس يدي والخنجر الذي في حزامي والمجنّ الذي يدرأ عني، وفرحتي وبهجتي وكسوة عيدي. . .».

وروى صاحب الألياذة حزن البطل آخيل على خدينه بطروكلس الذي سقط صريعاً في القتال على أسوار طروادة ورثاءه له متمنياً لنفسه الموت لأنه تخاذل في نصرة صديقة وإنقاذه.

أما حافظ جميل فبكى في يوسف مسكوني طبيب نفسه وصديق روحه وموضع سرّه وشكواه، بكى الذي كان يشفي كلومه بلقائه ويؤاسيه في البلوى ويصرفه عن تشهّي طعم المنون. ثم قال :

غب حيث شئت فما كانت مودّتنا	لتنتهي عند هذا الحدّ أو ذاكا
ولح خيالاً فإني رافع بصري	وسامع من وراء القبر نجواكا
لا تشكُ في الموت أحباباً فجعتهم	وعشرة وألوفاً من يتاماكا
لا أوحش الله قبراً أنت نازله	لو أستطيع جعلت القلب مثواكا

إن رثاء حافظ جميل ليوسف مسكوني صلاة على فم شاعر مرهف الحس حلّق على أجنحة المودة والوفاء، وطاف في عوالم هيولية من الطيبة والصفاء.

***

ولا بدّ لنا بعد ذلك أن نقول كلمة في خمريات حافظ جميل. برع الأقدمون والمتأخرون في وصف الخمر. وجاء ابو نواس فكان مجدداً في عصره، مبتكراً للمعاني، متسرفاً في

أساليب البيان. وإذ وقف الشعراء قبله على الطلول وبكوا على المنازل والديار وحنّوا إلى ساكنيها الـذين فرّق شملهم الدهر، وقف ابو نواس على مـربع القصف واللهو، وذكر مجالس الشرب والندامى والأخلاء فقال:

ودار نـــدامى عطلّـــوهـــا وأدلجوا بها أثـــر منهم جـــديـــد ودارس

وابتدع أرباب التصّوف الخمرة الروحية فقال ابن الفارض سلطان المحبّين:

شربنـــا على ذكـــر الحبيـــب مُـــدامـــة سكـــرنـــا بها من قبل أن يخلق الكـــرم

وجاء حافظ جميل فجـدّد في بغداد عهد النواسيّ. وشعر حـافظ في هذا الباب رائق لطيف تستسيغـه النفس ويطرب لـه اللبّ لكنه لا يكـاد يأتي بمعنى جديـد أو وصف مبتكر كما فعل أبو نواس في عصره.

فحافظ يشرب قبل كل شيء لمداواة كلوم قلبه ونسيان همومه وأوصابه، وهو يردّد هذا المعنى فيقول:

عـــركت الليـــالي ســـاهـــراً وعـــركتني فما راعني منهـــا ســـوى مطلع الفجـــر
إذا دهمتني رعشـــة الصحـــو بغتـــة فـــزعـت لكأسي أدفـع الشرّ بـــالشرّ
كأني، ومـــا غير الكـــؤوس عصـــابتي، أشـــاغـل دهـــراً من نكـــال ومـن غـــدر
يـــزايلني غمّـي بجـــرعـــة خمرة وأصحـو ومـا غمّي سوى جرعـة الخمر
وأبـــدو كمعلـــول بـــه ألف علّـــة ومـــا بي من داء ســـوى تعب الفكـــر
ومن كـــان مثلي فكـــره الـــدهـــر متعب فأخلـق بـــه أن لا يفيـق من السّكـــر

وجد الشاعر في الراح مسلّياً ومسعفاً ومعيناً فتعاطاها، وكانت دواءه وداءه، وقال:

ألا مـــا كـــان أعظمني شقـــاء وأكثـــرلي بـــلا سكـــر عنـــاءا
وهل كـــالـــراح من تلقـــاه عـــونـــاً على البلـــوى ودرعـــاً واتّقـــاءا؟
وهل كـــالـــراح من محمـــود عقبى لمن ســـاءت عـــواقبـــه وســـاءا؟
لئن عـــانيت صرعتهـــا طـــويـــلاً كفـــاني أن وجـــدت بها العـــزاءا
وكـــم في زحمة الآلام صـــاح رأى في سكـــرة الموت انتشـــاءا
نظـــرت فلم أجـــد كـــالـــراح طبّـــاً لمن فقـــد الطبـــابـــة والـــدواءا
ولا كجـــوارهـــا للنفس أنســـاً إذا بـــرمت من الـــدنيـــا استيـــاءا
ولا كـــدبيبهـــا في الجسم لطفـــاً وقـــد خـــدرت مفـــاصلـــه ارتخاءا
ولا كـــأريجهـــا في الطيب نفحـــاً إذا راح النسيم بـــه وجـــاءا
ولا كـــرضيعهـــا نهماً وجـــوعـــاً إن أتخمتـــه لقـــد زاد اشتهـــاءا

ولا كطــــريحهــا إن نــــام دهـــــراً   شكـــا من طــول صحـــوتــه العيـــاءا

وهل كـــالصحـــو من كـــابـــوس همّ   لعـــانٍ لان بـــالسّكـــر احتماءا؟ . . .

وهذه الابيات، ولا ريب، جميلة أخاذة : كلماتها حلوة الرنين، متّسقة واضحة تتدفق كالجدول الـرقراق . والغرض الـذي تفصح عنه وتـرمي اليه واضح أيضاً . فهـو اعتذار ضمنيّ عن شرب الخمرة، لولا أنها دواء لا مفّـر من الاستعانة به والخضـوع له . ولننظر بعد ذلك إلى ذكر محاسن الخمرة، فهي طبّ لمن بـرّح به الداء واستعصى علاجه، وهي سلوى النفس التي ضاقت بالدنيا ذرعاً، وهي مخدّر يسكّن الآلام ويولّد الأحلام . وكّلنا نعلم أن معاقرها يزيد ظمأ كلما زاد شربـاً، وقد رأينا طريحها لا يعبأ أين يسقط ليغفو في حلم هنيء .

ويهيب حافظ بكأسه أن ترعى له الودّ والذمّة فلا تهجره ولا تغدر به، فيقول :

دومـي دوام العمــــر، يــــا كــأسي،   يـــا كـــوثـري العـــذب وفـــردوسي

لـــولاك غـــام الكــــون في نــــاظـــري   وعشـــــت في داجٍ مــــن اليــــأس

وظلّ صـــــدري جـــدثـــاً حـــالكـــاً   لم يَـــــرَ لـــــولاك سنى الشمس

وهكذا نـرى شاعرنا يـردّد هذا المعنى ويلبسه في كل قصيدة ثـوباً جديداً وينحـو به منحىً فـريداً : فـالخمـرة بيضـاء تحبّب حتى بياض الشيـب، وهي تدور في الـرؤوس فتمنح الرعديد بأساً وشجاعـة، وهي تميّز الشهم عمّن لا خلاق له ولا خير فيه، وهي بلسم الجراحات والأسقام . . .

ويخاطب المدام بعد ذلك فيقول :

وفيتِ، يــــا راح، فــــلا تغـــدري   مــــــا دمتُ في حبّـك لم أكفـــــر

أفنيـت عمـــــــــري فيـكِ لم أفترق   عنك ولم أســأم ولم أضجـــــــــر

حتى يقول :

شهـــــدتِ فـــرعـــون وأهـــرامـــه   وعـــرش بلقيـــس فلم تكبـــري

وهذا المعنى افتتن به القدماء، فطالما ذكروا قدم الخمرة وشهودها عصوراً خلت ودولاً دالت واحتفاظهـا بشبابها ورونقها برغم مـرور الأجيال والأزمان . ثم يتطـرق حافظ إلى وفـاء الخمرة لأحبـابها، فهي ليست ممن يغـريه شرخ الصبـا ولا ممن يطوي كشحـاً عن الشيوخ الذين ذهب رواؤهم وذبلت أجسامهم . وهي لم تكن سلعة في سوق الغرام تباع وتشرى .

وأعرب حـافظ، ومن قبله أبو نواس، عـن عدم اكتراثه بالـلاحين والناصحين . ثم أغـرق في خمرياتـه فحسب النهار الـذي يخلو مـن الشرب يومـاً ضائعـاً من أيام العمـر

وصفحة بيضاء من صفحات الحياة. ثم يقول:

أَفَحَتْمٌ عليّ أن أهجع الليل | وتأبى أن تهجع الأوطار
ولِمَ النوم ما وجدت حبيباً | همّه الليلَ شاعر وعقار؟
ولِمَ الصحو، والحياة شراب | ونديم وقبلة وحوار
ولِمَ الصبح إن تجهّم يومي | واكفهرّت بوجهي الأنوار؟

كلاّ، أيها الشاعر، إنّ الليل حبيب الشعراء فتمتع به ما شئت وارشف من قبلات الحبيبة والكأس ما وجدت إلى شفاهها سبيلاً. ولتكن الحبيبة كما تشتهي وتتمنى، جنّة في عينيك وجحيماً في أحداق سواك من النظّار. ولتكبح الشوق الجامح في فؤادك، ولتتعرف إلى شعورك من وراء أبيات الشعر التي توحيها إليك.

أجل، أيها الشاعر، أنشد أغانيك وتمتع بالحب والحياة، وردّد قولك:

ربّ حسناء من بنات الشقيق | يزدري حسن لونها بالعقيق
مزجت رطب لؤلؤ برحيق | وتحسّته من فم الإبريق

والحشا بعد ظامىء حرّان

وصحا نائم القرنفل فجرا | فانبرى للزّقاق حلباً وعصرا
كلما رقّصت به الراح سكرا | خنق الزّق وهو يقطر خمرا

فتندّت شفاهه والبنان...

وهكذا ينعت حافظ الخمرة ويثني عليها كما أثنى من قبله أبو نواس وغير أبي نواس. ومثلما قال أبو نواس:

يا ربّ، إن عظمت ذنوبي كثرة | فلقد علمت بأن عفوك أعظم

ومثلما قال أبو نواس في التوبة والندم، قال حافظ جميل:

غفرانَكَ، اللّهم ربي | لكبير معصيتي وذنبي
تابعت غيّي سادراً | بين الغواة فجلّ خطبي
وأمرتني بالصالحات | فأعمت الشهوات قلبي
وتركتني، وأنا الضعيف، | حليف أسقامي وكربي
ومنحتني الصبر الجميل | فكنت تعزيتي وطبّي
وجعلت من فزعي لديك | مزيد أشواقي وحبيّ...

ومهما يكن في شعر شاعرنا وخمرياته من تجديد وتقليد فإنه شاعر غمر البديهة، صادق اللهجة، عذب الجرس، ناصع البيان، وحسبه ذلك مرتبة بين شعراء العصر.

علي الخطيب

الشاعر المبدع علي بن محمد جميل بن عبد القادر الخطيب، وهو أخو المفتي عطا الخطيب. كان أبوه رئيس بلدية بغداد أمداً قصيراً، وقد ولد شاعرنا في بغداد سنة ١٩٠١ ودعي «شوكت علي». درس في دار المعلمين الابتدائية (١٩١٩ ـ ٢١) ثم تخرج في مدرسة الحقوق سنة ١٩٢٧. وظف في وزارة العدلية ومحكمة التمييز، وعيّن ملاحظاً للمطبوعات في وزارة الداخلية سنة ١٩٣٠. ونقل في السنة التالية ملاحظاً في ديوان مجلس الوزراء، لكنه ابتلي بمرض عصبي اضطره على ترك الوظيفة (١٩٣٣) وأقعده عن العمل وألزمه العزلة. وعين بعد ذلك موظفاً في مديرية الشرطة العامة (١٩٣٨) ودعي في ايلول ١٩٣٩ إلى الالتحاق بدورة ضباط الاحتياط. ثم انطلق من قيد الوظيفة فكان مديراً مسؤولاً لجريدة العراق وجريدة الاخبار.

وعاد إلى الوظيفة سنة ١٩٦٣ ملاحظاً للحقوق في مديرية السياحة والاصطياف العامة إلى ١٩٦٦. وانزوى في عقر داره في أعوامه الأخيرة حتى وافاه الأجل في بغداد في أواسط شهر ايار ١٩٧٧.

نظم علي الخطيب شعراً رائقاً في الاجتماع والوطنية والوصف والغزل. وكم ألقى من قصيدة صارخة عرضته لسخط الحكومة ونقمتها وهو موظف في دوائرها العدلية.

علي الخطيب شاعر الغزل، من المرأة التي يصفها ويتغزّل بها؟ ـ انها ليست الفتاة الغامضة، الحيّية الجريئة، القابعة في خدرها والتي، على الرغم من ذلك، لا تخشى الحب والمغامرة، تلك التي يقول فيها عمر بن أبي ربيعة:

أشارت لأختيها: أعينا على فتى أتى زائراً، والأمر للأمر يُقْدَرُ

انها ليست القينة العابثة اللّعوب التي يقول فيها أبو نواس:

نضت عنها القميص لصبّ ماء فورّد وجهها فرط الحياء

ويقول:

يطمعني لحظها ويؤيسني باللفظ منها فؤادها القاسي

وهي ليست الفتاة الرمزية التي يردّد ذكرها الزهاوي، ولا الخطيبة أو الزوجة التي يومىء إليها الهنداوي في قصصه الشعريّ، ولا المرأة التي يدافع عنها الرصافي ويحكي مأساتها فيقول:

تبَسّمُ حيناً ثم تجهش بالبكا فمن لؤلؤ تبدي ومن لؤلؤ تذري

كأنّ تلاميح الأسى في جبينها بقايا ظلام الليل في غرّة الفجر

وهي بعد ذلك ليست الكاعب الفاتنة المتحررة التي يهيم بها نزار قبّاني أو تهيم به في التعبير الأصحّ. فمن المرأة التي يتغزّل بها علي الخطيب؟

انها الفتاة العراقية النافرة الخفِرة ـ فتاة سنة ١٩٣٠ التي لم تكد تسفر عن جبينها وتظهر أمام الرجال، فهي تخفي جمالها ودلالها تحت نقاب من الوقار شفّاف، وهي تدير وجهها لتبتسم خوفاً من النظرات والأقاويل. هي واحدة من سرب يخرجن معاً إلى النزهة ليزددن جسارة ومنعة.

يقول علي الخطيب في موشحه «عند اللقاء»:

أقبل الغيد على الجسر مساءً سافرات

بقدود مائسات

وخطى متزّنات،

مشرقات القسمات،

فرحات، مرحات،

فانثنى الصحب وحيّوا الصاحبات القادمات

بوقار وأناة

ووجوه ضاحكات

وعيون خاشعات

وقلوب خافقات

فتلقّين تحايانا بأحلى الحركات

من رؤوس مومئات

وثغور باسمات

ناظرات، مغضيات،

فتهامسن ببعض الكلمات...

ثم تابعن الخطى في خفر محتشمات

لكنّ شاعرنا يلقى الحسناء التي تعبث به وتُدِلّ عليه، وتأخذه بالجذب والدفع، وتطالعه بالإعراض والرّضا، وتبعده ثم تدنيه، وتكلمه وتزورّ عنه، فيصفها قائلاً في «وصل وهجر»:

تكايدني الحسناء في شغفي بها	فلا تتحاماني ولا هي تسلس
تحاورني حتى إذا ما طلبتها	تناءت صدوفاً وهي بي تتفرّس
فأبهت، لا أعدو مكاني، وتنثني	إليّ، فأستبقي أناتي، فتأنس
أقاربها مستبشراً في تهيّب،	أمدّ يدي من عطفها أتلمّس

وعيني بعينيهـــا تلـــوذ، ومهجتي خفـــــوق، وفي نفسي التظنّن يهجس
أتأبى، أتـــرضى؟ لست أدري، وإنما أنطت يـــدي الأخـــرى بها أتحسّس
فــآنست من طلق المحيّا بشـــاشـــة فما عـــدت منهـــا خيفـــة أتـــوجّس
فأدنيتهـــا حتى ضممت قـــوامهـــا فـــلان، وكـــانت عنـد ذلك تهمس:
أخـــاف إذا واصلت منك قطيعـــة تهدّم مـــــا يبني الهوى المتحمّس
نظـــرت إليهـــا في عتـــاب فـأعتبت وجـادت بما أخفى الـرضـا المتحـرّس
فكـــان عنـاق وارتشــاف، ولم نـزل على ظمـأ، والشـــوق أحلى وأنفس
وظلّ هـــوانـــا بين لقيـا وفـرقـة، فـلا الـوصل مـوصـول ولا الهجـر مـؤيس

ان في هذه الأبيات لنفس من أنفاس ابن أبي ربيعة، لكنه نفس معطّر بشذا حضارة العصر. ولئن كان شوقي قد أوجز رواية الحب في بيت واحد:

نظـــرة فـــابتســـامـــة فســـلام فكـــلام فمـــوعـــد فلـــــقاء

انّ الخطيب قـد فصّلهـا في اثنى عشر بيتـاً مـن الشعـر الـرقيق الطـريف، المتماوج المتوهج.

وقد قرأ علي الخطيب روايـة الزنبقة الحمراء لأنـاتول فرانس، وقرأ «أنـاتول فرانس في مباذله» في ترجمة شكيب أرسلان، فظل معجباً بالروائي الفرنسي العظيم وببطلات حبّه وقصصه، لا يفتأ يردّد ذكرهن ويكبر هيامهن ويشيد بمآثرهن ومحامدهن. ولست أعلم مقـدار أثـر ذلك في شعره، لكنني أعلم أن أثـر ذلك في نفسه بليغ كبير: فهـو يعظّم الحبّ ويتهيبّه ويشفق على نفسه منه. ألا يقول في «تساؤلات»:

مـــا للفـــؤاد، إذا لاقيتني، يجبُ ومـــا لنفسي، إذا مـــا غبـت، تكتئب؟
ومـــا لجسمي إذا صـــافحتني بيـــد سرت بـــه هـــزة عجلى فأضطـــرب؟
إن ضمّنـــا مجلس فـــالصمت يشملني مشتّت الفكـــر مشـدوهـاً، فما السبب؟
إني أحسّ التيـــاعـــاً نـــاره اتقـــدت مـــا بين جنبيَّ أخفيهـــا فتلتهـب
هـــذا هـــو الحبّ أو هٰـــذي بـــوادره ولست تـــدرين مـــا ألقـى وأصطحب!

وهو ينصح قلبه أن يجتنب الحبّ فيقول:

هـــو الحبّ لا يبقـي على المرء قلبـــه فـــانّي أراه اليـــوم للقلب قـــاتـــلا
فيـا قلـب، لا تحمل من الحبّ لـــوعـة مخافـــة أن تفنى بها كنت حـــامـــلا
أراك كفـــرخ بين فـــرعـــاءَ والهوى كـــريحٍ إذا هبّت تطـــوّحت عـــاجـــلا

وهو يرى الشاعر أسير الحبّ وضحيّته فيقول:

ومــا الشــاعــر المفــؤود الآ متيّم	لـــه شقـــوة في حبّـــه وحيـــاة
فبينـا يـرى والـدمع ملء جفـونـه،	إذا الثغـــر منـــه تلمع البسمات
وبينـا يـرى بـالبشر يطفح وجهـه،	إذا الصـدر منـه تصعـد الـزفـرات
وكم نـوبـةٍ تنتـابـه عصبيّـة	يلطّـف منهـا الشعـر والعبرات
وكم تعتريـه حـدّة من صغيرة	مصـادرهـا نـاسٌ هُم النكـرات
إذا هَـم في خبـث تلكأ وافيـاً	وتمنعـه من نفسـه زجـرات
مـلامحه تبـدي كـواتم صـدره	إذا حـاول التمـويـه، والنّظـراتُ
فيـالـك من طفـل كبير يعـوزه	دهـاء بـه تستحضر الـرغبـات
لـه عـالم مـن نفسـه متحـدّر	تحفّ بـه الأحـلام والـذكـرات
خيـالاتـه شتّى إذا مـا عـددتها	وحسبك منهـا أنها نـزعـات

الرقّص:

نظم علي الخطيب قصيدة لطيفة «في ردهة الرقّص» طبعت في كرّاس خاص سنة ١٩٥٠. والرقص فنّ قديم عرف في الشرق والغرب، وقال الشاعر الفرنسي ألفرد دي موسيه (١٨١٠ ـ ١٨٥٧) Alfred de Musset:

«إنّ شهر آذار يشهد تفتّح الزهور، وحينئذٍ تزيد المراقص حبوراً وتطيل معازفها. فترتمي الراقصة بين يدي مراقصها في استرخاء أكثر، وتشتّد العيون جرأةً، وتقلّ الشفاه بخلاً، ويثمل الراقصون تعباً، ويطفح القلب هياماً».

ثم يقول: «أيتّها الجنّية الألمانية ذات الحذاء الذهبي، يا قينة الرقص، يا زهرة الشعر، من ذا الذي يستطيع أن يتغنّى بقدميك الماهرتين في إيقاعهما وأسرارك الإلهية التي يجهلها السذّج؟ وأين في زماننا شاربو رحيق الآلهة الجديرون بنسيان أنفسهم بين ذراعيك المعبودتين؟ . .»

وقال معروف الرصافي في قصيدته «ليلة في ملهى» يصف راقصة:

وتجلّت في مسرح الـرّقص حتى	أرقصت بـالغـرام منّـا القلـوبـا
أقبلـت تنثني بقـدّ رشيـق	ألبستـه البُرد القصير قشيبـا
قصّرت منـه كُمَّـه عن يـديها	وأطـالـت إلى النهـود الجيـوبـا
حبس الخصر حيث ضـاق ولكن	أطلق النحـر بـاديـاً والتريبـا
خطـرت والجمال يخطـر منهـا	في حشـا القـوم جيئـةً وذهـوبـا

وعلى أرؤس الأصـــابـع قـــامـت   تتخطّى تبختراً ووثـــوبـــا . . .

وقال خليل مردم بك شاعر الشام (١٨٩٥ ـ ١٩٥٩) من موشّح في الرقص :

نفـخ الصّـــور فهبّـــوا مسرعين   مثلما نفّـــرت طيراً بـــالصفير

وعلى الصهبـــاء كـــانـــوا عـــاكفين   من رأى سرب قهـــاً حـــول غـــديـــر؟

***

كـم فتـــاة فتنـــةٍ بـــالمقلتين   واعتـــدال القـــد والجيـــد التّليع

جمّت الشّعـــر إلى الســـالفتين   فـــاستبـــدّت بـــابـن هـــاني والصريع

أخـــذت مـن ذيلهـــا للـــرّكبتين   ومـن الطـــوق إلى أقصـى الضلـــوع

ومـــن الكمين حتـــى المنكبين   فبـــدت في درعهـــا غير المنيع

مـن عـــراء واكتســـاء بين بين   بـل من الحسن بجلبـــاب بـــديـع

وفتـى من حسنـــه ملءُ العيـــون   حسن اللفتـــة كـــالظبي الغـــريـــر

هـــو لـــو لم يتخـــذ زيّ «الّـــذين»   عُـــدَّ من حـــزب «اللـــواتي» في الأثير

***

كـلّ إلفين انضـــــوى شملهما   أقبـــلا فـــاعتنقـــا أيّ اعتنـــاق

لـــــو صبيت الماء مـــا بينهما   لم يكـــد يخلصُ مـن فـــرط اعتـــلاق

علقـــت كـــفّ بكـــف منهما   شركـــاً واختلفت ســـاق وســـاق

ودنـــــا الخدّان مـن بعضهما   حينها الجيـــدان همّا بـــالتـــلاق

وعلى الأنغـــام كـــانت لهما   خطـــوات بـــاتـــزان واتّســـاق

رقصـــا شتّى ضروب وفنـــون   مـن دبيب خـــافـت أو ذي صريـــر

بينما عـــومهما عـــوْم السّفين   إذ هما بـــالحجـل كـــالطير الكسير

ثم يصف سكـرهما بـالمدام والغـرام والشبـاب وامتزاج الأنفـاس واعتـلاج تبـاريح الغرام.

أما ا لشاعر عدنان مردم ابن خليل مردم فيصف راقصة (الباليه) فيقول :

سطعت في عبقـــريّ مـن صبـــاهـــا   أين منـــه الشمس في رأد ضحـــاهـــا؟

فتـــنٌ في كـــل قلـــب أيقظـــت   فتنـــاً للشرق مـــا أومت يـــداهـــا

حـــركـــات الموج في أشكـــالـــه   حققت أشكـــالـــه نسجـــاً خطـــاهـــا . . .

ضربـت كـــالنسر في أجنحـــة   للهـــوى وانطلقت دون هـــواهـــا

وانبرت تفتــل في حلبتهـــــــــا	كـــريـــاح عصفت مــلء ربـــاهـــا . . .
عمــــــــدت تجري على ابهامهـــــا	لمدىً يقصر شــأواً عن مـــــــداهـــــا
وانثنـت عــــــاصفـــــــــة في قطب	عــــاصف يلهـب من حمّى لظـــاهـــا
كل عضـــــو شعّ مـن أعضـــائهـــا	كشعـــــاع وانثنى طـــوع منـــاهـــا
لطفـت أعضـــــاؤهـــــا واتّسقـت	كـــدرارٍ يسحـــر العين سنـــاهـــا
تلتــــوي منســـابـــة في شـــاسع	مثل أفعـى تتلـــوّى في سراهـــا . . .
حسبهـــا مـــا حققـت من صـــور	كست الفـنّ فتـــونـــاً وكســـاهـــا
ليس رقصـــاً مـــا جـرت تـرسمـــه	بخطـــاهـــا ، إنـــه وحي صبـــاهـــا

وقال الشاعر الضابط المصريّ محمد توفيق علي (١٨٨٧ ـ ١٩٣٧) من قصيدته في «مصيف الرمل» :

ربّ مشغــــوف بغـــــانيـــــة	بـــارك الـــــرقـص لها سببــــا
ضمهّـــــا شــــوقـــــاً مخاصرة	ثـم دارا دورة خببّـــــــــــــــا
كفّهـــــا في كفّـــــة سكنـت	انما قلبـــــــاهما ضربـــــــا
كلما هـــــاجـت لـــــواعجـــه	وهي في أحضـــانـــه جـــذبـــا
صـــدره في صــــدرهـــا نشبـــا	ثغـــره من ثغـــرهـــا قـــربـــا
واختـــــلاســــات حــــديثهما	في خفـــوت يبعث الـــريبـــا
مـــا الـــذي قـــالـت وقـــال لها؟	ليـس الاّ مـــوعـــداً ضربـــا
ربّما قــــالـت تنـــاظـــره :	أنـــا أهـــواك ، وقـــد كـــذبـــا
هـــــويهوى كـلّ راقصـــــة	وهـي تهوى المال والنّشبـــــا . . .

وقلت في وصف راقصة :

«فهي اذا ما اعتلت خشبة المسرح وانسابت في حلقـة الضوء المسلّط عليها في الظلام الخافت ، تجرّدت من ذاتها البشرية وأصبحت طيفاً نـورانياً متموجاً أبلغ في تعبيره وأدائه من الموسيقى التي تـرافق حركاتـه . وكان المشـاهدون يؤخـذون بسحر رقصهـا فينسون الـزمان والمكـان ويذهلـون عن سماع الأنغام الموسيقيـة ، ويشخصون بأبصـارهـم وكل جارحـة من جوارحهم إلى ذلك الجسم اللّدن الذي يتمـدد ويتقلص ، ويتلوى ويتثنّى وينعطف ويعتـدل ، ويتقلب ويتراخى ، ويتـدافـع ويتماسك ، ويتهـافت ويتمايل ويتخـايل ويدور ، وإلى الـرأس المتعالي والمتهـاوي ، والجيد المشرئبّ والمتلّفت ، والنهـد النـافـر والضـامـر ، واليديـن المتموّجتين والسـاقين المترجـرجتين والـرجلين المتقـاربتين

والمتباعدتين، والأقدام المتطاولة والمتقوّسة والمنبسطة في ايقاع رائع أخاذ. لم يكن ذلك رقصاً بل تعبيراً فنياً ينطق تارة بالحزن، فإذا النظارة تنفطر قلوبهم كمداً وأسى، وطوراً بالفرح، فإذا هم لا يملكون نفوسهم بهجة وسروراً. ولقد ينطق أحياناً بسكرة الحبّ ولوعة الشوق وحرقة الوجد وعذاب الشك وسعادة الثقة والإيمان ومرارة الوحدة والحرمان وغباوة الذهول والنسيان وعبث الطفولة وغرور الشباب ووقار المشيب ولذة الحياة ووحشة الموت وفتنة الجمال وذلّة البؤس والشقاء وعذوبة الأحلام الجميلة وقسوة القوة الجامدة وحياة الفتاة البريئة وصلف الغانية المتغنجة . . .»

وقال الشاعر الفرنسي ألفرد دي فنيي (١٧٩٧ ـ ١٨٦٣) Alfred de Vigny :

«ارتجف القيثار وأرسل المزمار أنينه، فقد انطلق الرقص في مملكته الدائرية .

وبهرت العيون الأزواج العابرة، وطاروا متشابكين في دوائر رشيقة .

وقفوا وقفات ينتظمها الإيقاع، وازدهوا بزينتهم إذ عكستها المرآة، ثم اندفعوا ثانية، وتعثروا بأذيال جمعهم الضاحك، فكانت حركاتهم أقلّ مهارة، وكان تزاحم وصخب وضجيج .

وثملت الراقصة بحماسة المهرجان، فبعثرت في مرورها الأزهار التي تكلل رأسها وسحقتها بالأقدام، واستسلمت إلى الذراع الذي يسندها، ودارت وقد شحب لونها، وخفضت أنظارها إلى صدرها الخافق . . .»

وقال الشاعر الألماني هنريك هيني Heinrich Heine (١٧٩٧ ـ ١٨٥٦) :

«يا ملاكي النبيل، لا تكفّي عن الرقص، فرقصك القادم من عالم الأحلام بلسم حاني لجراح نفسي وخير دواء لسقم جسدي الذي أنهكته الأعوام» .

وقال أحمد شوقي يصف حفلة راقصة في قصر الخديو عباس حلمي الثاني (١٨٩٦) :

يا ليلة (البال) ما خالوك راقصة	الاّ وأنت جمال الدهر والحقب . . .
أهاجها هائج الألحان فانعطفت	مثل النسيم سرى سارية في القصب
ودارت الراح بالأجياد مثقلة	بالحلي فاستسلمت من شدة الوصب
وبالخصور فمن واهٍ ومن قلقٍ	ومن سقيم ومن فانٍ ومن تعبِ

ولكن لنعد إلى قصيدة علي الخطيب . ويصحّ القول ان هذه القصيدة تمثل فنّ شاعرنا، فهي شريط سينمائي بطيء الحركة يسجّل كل خطوة وسكنة ونأمة في حلبة الرقص . يدخل الشاعر إلى ندوة القصف واللهو فيرى الحسان يخطرن فاتنات ويعطّرن الجو بالبهجة والصّبا والجمال . شفاههنّ الحمر كالورود، وأعناقهن فوق الأكتاف العارية مشرئبة إلى المرح والاستمتاع :

تهادي حســـان الحيّ في ردهـــة القصر ... منضرّة المرأى، مصفّفـــة الشَّعـــــر

يفضن شبـــابـــاً في فتـــونٍ وبهجـــة ... لـــدى أعين نجـل، لـــدى أوجـــه غــرّ

كـأنّ الشفـــاه الجون بين صفيحهـــا ... أزاهير حمر في أضــــاميم مـن نَـــوْر

نـــواهـــد أبـــدين الترائب والطّلى ... وكشّفـن عن أعلى المتـــون إلى الخصر

وأبـــرزن أكتـــافـــاً وعـــرّين أيـــديـــاً ... وكـنّ بها أظهـــرن في رونـق مُغْـــر

على البشَرِ البـــضّ الغضير تـــألقّـــت ... أســـاور مـن مـــاسٍ، قـــلائد من درٍّ

جـــوارحهّن الكـــاسيـــات مـــواثل ... كما شـــاءت الأزيـــاء من بـــدع العصر

محاسن أعضـــاء تنـــاهـى انسجـــامهـــا ... نسبن القـــدود الفـــارعـــات إلى السّمـــر

تـأنقن في زينـــاتهن عـــرائســـاً ... بنـــات خيـــال مـــاخطـرن على فكـــر

فـأشرقن والأنـــوار في كـلّ جـــانـب ... فـولّى ظـــلام الليل من طلعـــة الفجـر

وظلّت عيـــون القـــوم فيهـن رُتّعـــاً ... تَنَقَّلُ بين البيـض والسّمـــر والشّقـــر

وقـد جلس حول الموائد الغيـد والفتيان، وتـلامست الاقداح، وتمايل النـدامى بين الصحو والسكر، وتبودلت الأحاديث العذبة كقطرات الطلّ المتساقط، وتردّدت الألحان وتماوجت في رقة وانسجـام تدعـو السّامـرين إلى الرقص على نغم الموسيقى الـذي يعلو ويهبط، ويشتـد ويلين، ويئن ويهدر. . . وانتظمت الحلقـات، وسلّمت كـل غـادة قامتها إلى صنوها في نشوة من الفرح والحبور.

ومـــا اتّحد الصّنـــوان حتـى تـدافعـــا، ... فطـــوراً بها يجري وطـــوراً بـــه تجري

يمـور بها، والصـدر بـالصـدر لائذ، ... وكـفّ إلى كـفّ، وكـفّ إلى الظهـــــر

ويقبل حينـــاً ثم يـــدبـــر تـــارة ... تســـايـــره الهيفـاء بـــالكـــرّ والفـــرّ

يـــرى الحفل فـــوضى بين غـــادٍ ورائح ... فهـــذا على طـــور وهـــذا على طـــور

عجبت لفـــوضـى يستتبّ خـــلالها ... نظـــام يســـود الـــراقصين بـــلا أمـــر

يـــدورون مثنـى والخطـى تتبع الخطـى ... تشـــايع ايقـــاع المعـــازف والنقـــر

يجولـــون جـــولاً يبتـــدي حيث ينتهي ... يـــروح مع الأنغـــام كـــرّاً على كـــرّ

فمـن دوران يستقيـم ويلتـــــــوي ... إلى جـــولان يستـــديـــرعلى حـــذر

ثم يرى الشاعر بين جمع الراقصين زوجين يسترعيان نظره فيصفهما قائلاً :

وصنـــوين جـــدّا فـــاستقـــلاّ بحيّـــز ... تـــوقف منـــه الـــراقصـــون عن السّير

وشيكـــاً ومهـــلاً يمضيـــان، سراهما ... طليـق على قيـــــــد، يسير على عسر

وبينـــا بها يـــرتـــدّ عجـــلان ينثني ... بها ذاهبـــاً نحـــو الأيـــامن واليسر

ويفصلهـــا عنـــه فتنأى وتـــدّني، فنشر إلى ضــــمّ وضـــــمّ إلى نشر
تـــدور حـــواليـــه فيرعـى مـــدارهـــا فكيف اغتــدت يغــدو وأنّى سرى تسري
يعلّـق احـــدى راحتيهـــا بكفّـــه ويطلقهـــا تفتنّ في رقصـــة بكـــر
ومـــا انفلتـت الا استــدارت حبـــائكـــاً شراشر ذيل مـن حـــرائرهـــا الخضر
تلفّ بســـاقيهـــا الـــذلاذل ان ونت عن الفتـل حتى تسحـب الـــذيل في كبر
إلى صنــوهـــا السّــاعـي اليهـا مـــراقصـــاً فكـــانـــا كبيت الشعـر شطـــراً إلى شطـــر

ويلحظ الشاعر حركات الراقصين ونجواهم فلا يفوته تسجيلها :

تـــرى حــــركـــــات الــــراقصين كثيرة فمنهــــا على سّر ومنهــــا على جهـــر
فمـن همســــات لست تبلـغ كنههـــا ومـن بسمات ينطـــــوين على سرّ
أبقيـــا على ودّ؟ أوعـــــداً، أدعــــوة؟ أم أن ابتســـام الخود لـــون مـن المكـــر؟
ومن لفتــــات تستبيـك رشــــاقـــة ومـن نظـــــرات لا لجّد ولا هـــــزر
ســــواحـــر تبـــدي المبهمات مـن المنى وتـأبـى عليـك المفضيـــــات إلى الحزر
غمـــــوض كأطـــــوار الملاح محيّر فأنـت بتيـــهِ من غـــوامضهـــا الكثـــر
إذا لم تحد عّما أسرّت وأبهمــــــــــت بليت بحـــال من مكـــايـــدهـــا وعـــر

ولا ريب ان هذه القصيـدة من القصائد الفـريدة في موضـوعها وسلسـالها ووصفها الطلّي الدقيق لا في الأدب العربي وحده ولكن في الآداب العالميّة قاطبة.

في الطريق :

ان شعر علي الخطيب لا يمثل مرحلة من مراحل تطور الشعر العراقي فحسب، بل يمثل ايضاً مرحلة من مراحل التطور الاجتماعي : فقد لقي ثلاثة شعراء ـ كل في عصره ـ فتاة في الطريق، وهو يسير الهوينا في بغـداد، تلك المدينة التي فيها للمشاة دروب، كما قال جميل صدقي الزهاوي. قال أولهم، معروف الرصافي :

لقيتهـــا في الطـــريق عـــابـــرة يبهِرُ مـن قـــدّهـــا تبختُرهـــا
أعجبهـــــا منظـــــري وأعجبني بـــالحسن عنـــد اللقـــاء منظـــرهـــا
فصـــار قلبـي بـــالحّب يـأمـــرني وقلبهـــا بـــالغـــرام يأمـــرهـــا
وحين مـــرتّ والشـــوق يسكـــرني بخمـــرة تـــارة ويُسكـــرهـــا
لَفَتُّ جيـــــدي أرى أتنظـــرني والتفتت لي تـــرى أأنظـــرهـــا
فقلتُ، والشــــــوق فيَّ ملتهـب : إن عـــذرتني فســـوف أعـــذرهـــا

وقال الثاني، علي الخطيب:

لعيني لاحت غـــادة، فتلكّأت خطـــاي أراعي مـــا لها من روائع
على النظـر العجلان هـزّت مشاعـري مـــلامح وجـه للمفـــاتن جـــامع
أرى الشَّعـرَ المركـوم فـوق جبينهـا تـــراوح لـونـاً بين قـانٍ وفـاقع
تجاعيـده كـالتـاج مـن فـوق بعضهـا تـــراكبـن في حسن من الصنع بـارع
لها الأعين النجّـل اللـواتي، إذا رنت، أثـــار فـؤادي ضجـة في أضـالعي
على شفتيهـــا رفّ روحي محوّمــاً كـأن لم يجرب جـــانحات المطـالـع
لقـد خطـرت تحت العبـاء فعبّرت عبـــاءتها عمّا لها من بـــدائع
تجلّي المحيـا في دجـاهـا، فـزانـه كما زان عـرض الليل إيماض طـالع
تلفّعتِ صـونـاً أم تلفّعتِ فتنـة؟ ومـا أنت لـو غـادرت سـود الملافع؟

وكان الثالث مير بصري (مؤلف هذا الكتاب) فقال:

بسمت لي مـــدلـــةٌ في الطـريـق فكـــوت مهجتي بنـــار حـريق
ومضت تحمـل الفـــؤاد أسيراً بلحـــاظ العيـــون ذات البريـق
انّ قلبـاً يهتـاجـه اللحظ وجـداً لهو قلب في الحبّ غير عـريق الخ . . .

وقال أيضاً:

لبست سراويـل الـرجـال تأنقـاً ومشـت كما يسري النسيم رخـــاءا
هيفـاء أولتهـا الأنـوثـة رقـة والحسـن يقطـــر فتنـــة ورواءا
خشع الطـريـق، كأنما هـو أعين تـرنـو وأفئـدة تـرف رجـاءا
أجميلتي، رفقـاً بفتنـة كـاعـب أن تـرتـدي حُلل الـرجـال ريـاءا
فأجـابت الحسنـاء، وهي مـدلّـة، والثغـر يبسم خيلـة وحيـاءا:
إنّي رأيت مـن الـزمـان خشـونـة فطلبست في خشن اللبــاس وقـاءا

وقد طرق هذا المعنى شاعر الحماسة القديم، رأى الحبيبة الحسناء تعرض عنه وتمضي في سبيلها، ثم تلتفت إلى الوراء لتنظر اليه، فقال:

وممّـا شجـاني أنّها يـوم أعـرضت تـولّت، ومـاء العين في الجفن حـائر
فلما أعـادت من بعيـد بنظـرة إليّ التفـاتـاً أسلمتـه المحـاجـر

وروى شاعر الغزل الرقيق عبد الله بن الدمينة، المتوفّى في نحو سنة ٧٤٧م، أنه لحق بالحبيبة ودونها صاحبها الجبار الغيور، فلما دنامنـه وسلم عليه ردّ السلام مغتاظاً كارهاً.

ثم يقول :

فسايرته مقدار ميلٍ، وليتني	بكرهي له ما دام حياً أرافقه
فلما رأت أن لا وصال وأنّه	مَدَى الصُّرم مضروب علينا سُرادقه
رمتني بطرف لو كمياً رمت به	لبُلّ نجيعاً نحره وبنائقه
ولمحٍ بعينيها كأنّ وميضه	وميض الحيا تُهدى لنجد شقائقه

ويا لها نظرةً تفتك كالسّهم القاتل وتحيي كالغيث الهاطل .

أطلال بابل :

أكثر الشعراء العصريون في العراق ومصر وسائر الأقطار العربية من وصف الآثار القديمة والاشادة بذكرها والتغنّي بالأهرام وأبي الهول وبابل ومدائن كسرى . وقد ثار علي الخطيب على هذا الشعر كما ثار أبو نواس على الوقوف في الأطلال الدوارس والبكاء عليها . قال أبو نواس :

ودار ندامى عطّلوها وأدلجوا	بها أثر منهم جديد ودارس
مساحب من جرّ الزقاق على الثرى	وأضغاث ريحان جنيّ ويابس

لقد سخر أبو نواس من الباكين على الطلول وسفّه أحلامهم وذكر مغاني الانس وملاعب البهجة والسرور ودور الخمر التي جمعت الندماء والظرفاء، ثم خلت من أصحابها وتفّرق شملهم، فحنّ إليها وردّد ذكرياتها ورسم صورها وأخبارها .

واستعار الخطيب الوزن والقافية وكسر الرويّ المضموم فقال :

أممنا ديار الغابرين ببابل	فلم نَرَ فيها غير خاوٍ وطامس
ولم توحِ لي ما كنت أرجو وإنما	عرائس أحلامي انطوت بالدّوارس
ركام من الأحجار فوضى شتيتة	عرضت لها ما بين ضحل ويابس
وقفت أراعي ما استقرّ وما عفا	وبالنفس قامت موحشات الهواجس
كأنّ نجاد الأرض دون وهادها	غضون بوجه الحادثات العوابس
كأنّ ركود الماء أصفر آسناً	صديد بجسم الأرض قنْد الملامس
ولم أر من صرح أقيم ممرّداً	ولا من ميادين ولا من مجالس
وما لنتت ذهني إليها عجيبة	ولا راقني فيها بديع النفائس
هنالك أنقاض ترامت على الثرى	وحيطان قامت مثل سور المحابس
وذو أربع من تحته نام ذو ثُنىً	وما لهما من سحنة وتجانس
تعاودنا الريح السّموم خلالها	وقد عفّرت حتّى خبيء الملابس

فـأسماعنــــا مخدوشـــــة بصفيرهــــا ... ولم تتعّـــود غير همســـة هـــامس
طلــول وإعصـــار وشمس ووحشـــة ... ونحـن بها مـــــــابين لاءٍ ودارس
لقــد أقفــرت حتى خلت من أنـاسهـا ... فليس بها من مـــونق أو مـــؤانس
ومــا هلك السكّـــان لكن تــرحّلـوا ... إلى غيرهـــا مـن طيبّـــات المغـــارس
فظلّت خـــلاءً في تقـــادم عهـدهــا ... إلى أن عفت مطمــورة في البســـابس
ولـــولا فضــول بــــالطّبـــاع مــركّب ... لما نُبِشَتْ آثـــار مـــاضٍ ودارس

وكذلك خـالف علي الخطيب شعراء عصره، فلم ير في اطـلال بابل عظة نـافعة ولا ذكـرى جاذبـة، لم توح إليـه بعظمـة الماضين ولا تطلع الحاضرين. وقد استغـرب كيف تُنبش آثار الماضي المندرس وتخرج إلى النور بقايا الـدول المنقرضة ، فكأنه فكّر، كما فكّر من قبله معروف الرصافي، ان الدهـر جدّد للموتى مناقب لم تكن لديهم، فعظّم الناس القبور وتناولوا سكانها بالمدح والاطراء. قال الرصافي:

سقى الـدهـر لـلأموات غـرس مناقب ... يِمَيْنِ فظـل الغـــرس ينمـــو فيبسُـق
أرى كلّ ميت مـــا تقـــادم عهـــده ... تقـــام لــــه ســـوق الثنـــاء فتنفُق
فأقـــربهم عهـــداً أقـلّ غضـــاضـــة ... وأقــــدمهم عهـــداً أغضّ وأسمـق
إذا شطّ جيـل خطّ مـن جـــاء بعـــده ... أكـــاذيب عنـــه بـــالثنـــاء تُـــزَوّقُ

من غزليات علي الخطيب:

إلى الحبيبة

أحبّك حبّـــاً ليس ينسى ويجحـــد ... ومهما يكن فـــالحبّ عنـــدي مخلـــد
أحبك حبـــا في فنـــــون كثيرة ... وأزيـــاء في ألـــوانها تتعـــدّد:
أحبك لــــو أقبلـت خُـــوداً رشيقـــة ... لها مثل مـــا للـــورد طيب ومشهـــد
محيّـــاك ميمـــون المطـــالـع مشرق ... تحوم حــــواليـــه عيـــون وأكبـــد
ولحظـك فتّـــــــان وأنفـك أسنـع ... وثغــــرك مفتر وجيــــدك أغيـــد
وشعـــرك مصفــوف الأفــانين مــرسل ... غـــدائر سبط بعضــــه وجعّـــد
أحبك لـــو لـفّ القـــوام غـــلالـــة ... تـــريني مـن الأعضـــاء مـــا يتجسّـــد
أحبك غضبى في فنــــون ورقّـــــة ... فأسعـى إلى استرضـــائهـــا أتـــودّد
أحبّك لـــو وليـت وجهك جـــانبـــاً ... كـأن لم يكن بيني وبينك مـــوعـــد

أحبـك حبـــاً زاده البين لـــوعـــة ... فكـــان عنيفـــاً ثـــائراً يتجـــدّد
كأني وهـــذا الحبّ يشتـــدّ صـارخـاً، ... خضم بـه هـوج الـريـاح تعـربـد
أحبّـك حبـــاً تخوفـت أن يُـــرى ... فيغمـــزه الـــواشي الـــذي يترصّـد
فكنـت حـــريصـــاً في التكتّـم، انما ... ينم على المكنـــون مـــا ليس يجحـــد:
نحـــول بجسمي واصفـــرار بسحنتي ... وآهـــات أشـــواقـي تصـوب وتصعـد
أحبك حبـــاً مـــا ارتشفت رحيقـــه ... على أنـــه زادي الـــذي أتـــزوّد
أحبـك حبـــاً سلسبيل فـــراتـــه ... يثـــرّ واني الظّـــامىء المتـــوجّـد
أحبك حبـــاً دانيـــات قطـــوفـــه ... على قـــربها منّي تنـــاءى وتبعـــد
وقفت على حبّيـك مـــا ملكت يـــدي ... ومـــا يحتـــوي أمسي ويـــومي والغـد
أحبك حبـــاً جـلّ شأنـــاً عـن الهوى ... بـــه النفس مـن أدرانها تتجـــرّد
أحبك حبـــاً عبقـــريـــاً مـــؤاتيـــاً ... بـــوضع من الأوضـــاع لا يتقيّـــد
وحبـــاً وديعـــاً هـــادئاً مترفّقـــاً ... وحبـــاً جنـــونيـــاً يغـــار ويحقـد
تـــريـــدينني أن ألـــزم الصبر وادعـــاً ... ومـــا أنـــا ممّن للسّكينـــة يخلـــد
لئن تصرمـي حبلي ففي الـــذكـر مـــوئل ... يخفّف مـن حـــزني الـــذي يتجـــدّد

حـال ومـآل

جـلّ خطبي ومـــــا إليك سبيـل ... فلمـن أشتكي ومـــــاذا أقـــــول؟
كـــم مشير إليّ يســـأل عنّـــي: ... أفهـــــذا متيّـم متبـــــول؟
لست أدري مـــــا راعـــــه غير أني ... ســاهـم الـوجـه قـد بـراني النحـول
أتهادى في مشيتـي كــالسّكـــارى ... يعتريني كـــآبـــة وذهـــول
لي مـن طيفـك الحبيـب مـــــلاذ ... من شجـــون على فـــؤادي تصـــول
انّ يـــومـــاً لقيـــاك تسنح فيـــه ... غـــرر الـــدهـــر دونـــه والحجـــول..

قـضـي الأمـر

قضي الأمـــــر وانتهت أيـــــامي ... وتـــلاشى مـــا كـــان من أحـــلام...
أنـــا مـن ظلّ في الحيـــاة شقيـــاً ... يتـأسّى بـــالـــوحي والإلهام
أنـــا مـن ظلّ عـــاشقـــا يتفـــانى ... بـــالهوى الجهـم والهوى البسّـــام
أنـــا مـن أنشـد الحبيبـــة شعـــراً ... رائع النّسج، عبقـــري الغـــرام

ثم صــــار الــــزمــــان غير زمــــاني ومقـــــامي لــــديك غير مقــــام

وتـــــوالـت عليّ ســــود الليــــالي أنـــــا منهـــــا أشفى عليّ حمامـي

ثم ســـاءت مع الــــزمـــان شـــؤوني وابتـــــلاني بـــالفقـــر والأسقـــام

ثم لان الـــــزمـــــان شيئـــاً فشيئـــاً واشتـــــداد الخطــــوب في إيـــلامي

فتنفّســت في صبـــــاح الأمــــــاني وتبيّنـت مــــــوطـىء الأقـــــــدام

وتماسكـت في مجال المنــــــايــــــا وتــــــرفعـت عـن لجاج الخصـــــام

وتـــــدافعت في زحـــــام المعــــــالي وطـــريقـــاً شققت وسط الـــزحـــام

وإذا بي مضيـع ، لا المســــــــاعي نـــاجحــــات ولا بلغت مــــرامي

غير أني أقـــــــــول ، والقلـب دام لـك منّـي تحيتي وســــــــــلامي

كيـف الحـال؟

حـــال . . . كما شـــاء اللئــام بليــدة لا تعـــرف الأفـــراح والأحـــزانـــا

مـــا ميّـــزت شرّ الـــورى وخيـــارهم تستقبـل الأحـــرار والعبـــدانـــا

بلهـــــاء ســــائرة بغير رويّـــــة تستصحب الجبنـــاء والشجعـــانـــا

سحقــاً لها مـا استحسنت مـا استقبحت تتقّبل الأضـــداد أيّـــاً كـــانـــا

من حــولها الأحـداث في ضـوضـائهـا تترى فما مسّـت لها آذانــــــــــــا

كـــالطّـــود راسخــة فقـــرّ قـــرارهـــا لم تلتفـت يسراً ولا ايمانــــــــــــا

العيش عيش ليس تبلــــو طعمـــــه سيّــان إن هـــو قـــد قســـا أو لانـــا

مغمـــورة فيــــه على عـــلاتـــــه مـــا إن تبـالي عـــزّ أو إن هـــانـــا

وإذا تجمعّـت الشكـــــوك حيـــــالها لا تطلب الإيضـــاح والبرهـــانـــا

قــــد تستقيـم صريحة لا تلتــــوي والـــوضع يستــدعي لها البهتــانـــا

مغــــــرورة لا تتّقي مــــا يُتقى فبقيت منهـــا مشفقـــاً خشيـــانـــا . . .

شمطـــاء عـــاطلـــة وكنـت أريـــدهـــا حسنـــاء حـــاليـــة حليّ أفنـــانـــا

بخـــــلالها ومقــــالها وفعــــالها ووصــالها وصـــدودهـــا أحيـــانـــا

بـــرواحهـــا وغـــدوّهـــا وقــرارهـــا تتعـــرّف الأحـــوال والأزمـــانـــا . . .

مـــا كنت أحسبُنـي أنـــاضل حــــالـــةً قـــد أتعبتني فكـــرة ولســـانـــا

فلكم رأيـت المخـــزيـــات وأهلهـــا فظللـت منهـــا واجماً حيرانـــــا

لـــو لم تكن لي في النضـــال بقيّـــة ... للـــزمت حـــالاً فـــاتت الحسبـــانـــا

ظلـــم

تخبّطـت في ليل مـن الظلـم حـــالـك ... فلـم أتبين مسلكـــاً في المســـالـكِ
إذا ســـدّدت لي ضربـــة واتّقيتهـــا ... فقـــد دفعتني غيرهـــا للمهـــالك
فإن أنـــأ عن ســـوح الخصـام مسـالماً ... ففي أثـــري شر الخصـــوم الفـــواتك
إذا نـــافسـوني في طـــريقي تـــركتـــه ... دعـــوت لمن يحويـــه : ربي بـــارك
لعلّي أغـــــدو من أذاهـم بنجـــوة ... وأصبح مـن أفعـــالهم غير هـــالك. . .
كبحـت جماح النفس حتـى ملكتهـــا ... ولما ابتغـــــاني الهون لم أتمالـك
فأرسلتهـــا هـــوجـــاء غضبـة حـــانق ... إذا قـــال: مـــا بـــالي، ولم يتـــدارك
أرى النـاس مـا عـاشـوا نفـوساً ضعيفـة ... إذا رغبـت هـــــانـت ولم تتماسـك
أرى النـاس مـا عـاشـوا نفـوساً ضعيفـة ... إذا رغبـت عفّـت ولم تتهـــــالـك
تلمّست في دنيـــاي سلماً فلم أجـــد ... ســـوى ســـافك يمشي على إثـــر ســـافك
أخـوض غمار النـــاس لـو كنـت مثلهم ... على أننـي لا حـــول لي في المعـــارك
وحيـــد غـــريب لا صحـــاب ولا حمى ... طـــريـــد شـــديـــد بين شتّـى المهالك
وأعجـب شيء في بـــلادي رأيتـــه ... عمار الأراضي في خـــراب المدارك

وزن وقافيـة

لم يبق عنـــدي مـن حـــول أذود بـــه ... إلا كـــلامـــاً مقفّى وهـــو مـــوزونُ
مـــا يصنع المرء في وزن وقـــافيـــة، ... والظلم مـن حـولـه والكيـد والهون؟
ولا قـــرار لـــه في ظـل مـــوطنـــه ... وليس تـــؤويـــه دور أو ميـــاديـن
يسعـــى ولا أمـــل يحدوه في عمـــل ... مصيره بيـــد الأقـــدار مـــرهـــون
مـــا شـــاء من عمل الاّ وضعضعـــه ... مـن المصـــاعـب تحريـك وتسكين
فـــالعيش مضطـــرب والكسـب ممتنع ... والعقـل في حيرة والجسم مـــوهـــون
بلـــواه بـــالغـة شكـــواه صـارخـة ... لم يلفـــه النـــاس الا وهـــو محزون
حـــرّ ينـــاضل دون العـــزّ مضطهـــداً ... ولا قـــوانين تحميـــه ولا ديـن
خـــابت مطـــامحه، ســـاءت عـــواقبـــه، ... صفـــر اليـــدين وفي دنيـــاه مغبـــون
فما انتفـــاعيَ مـن وزن وقـــافيـــة؟ ... حتى المقـــاييس ضـــاعـت والموازين
أين المفـــرّ، ومـــالي من يعـــاضـــدني ... لي الملائك خصـم والشيـــاطين

لا ينفع المرء أموال وموهبة ... ولا المجالس تجدي والدواوين
أعيذكم، أهل ودّي، من مشاطرتي ... حالاً تحيط بها الأخطار والدون
حسبي وحسبكم ما كان من خبري ... إن كان تعوزكم بعدُ البراهين

أسائل نفسي

إلامَ خطوبي تستفزّ شعوري ... ويكبت حلمي ما يجنّ ضميري
ترددت بين الصمت والنطق حقبة ... أقول لعلّي تستقيم أموري
وضاعفت صبري في سراها تعلّة ... ولكنها ساءت فساء مصيري
ولست ألوم الدهر أكبر شأنه ... بلومي على ما كان غير جدير
ولكن ألوم الحلم عندي وحكمتي ... وطول أناتي وانعدام شروري
فإني رأيت القوم يخشون بعضهم ... إذا ما استووا في شرّة وغرور
وجاروا وما عفّوا وكادوا وزوّروا ... إلى أن تراءى الزور ليس بزور
وقد عظّموا من لم يكن بمعظّم ... وقد صغّروا من لم يكن بصغير
وليس صغير دائماً بصغير ... وليس كبير دائماً بكبير
ولكن هي الأهواء تعمي صحابها ... تعيد بصير القوم غير بصير
كم استمرأوا حلواً ومراً ولم أكن ... لأحسبهم يستسهلون وَعور
إذا ما ادلهمّ الخطب عانيت موضعي ... فألفيتني وحدي بغير ظهير
تلفتُّ حولي لا أرى لي مخرجاً ... كأني موكول بكلّ عسير
أكابد عيشاً مثل حظي سواده ... شغلت به عن بهجتي وسروري
وأدمت يميني شائكات زهوره ... تعودت منها أن أعاف زهوري
وأمسكت عن هزل الكلام وجدّه ... أسائل نفسي: ما يكون مسيري
وبعد اللّتيا والتي سرت مطرقاً ... أتمتم ألفاظ الأسى بزفير:
سأبقى وحيدا ما حييت محاولاً ... تناسي آمالي وكبت شعوري

الشعر الذي أريد

أحاول قرض الشعر، وهو جموح ... وبالنفس تغدو حاجة وتروح
أجاذبه حبل القوافي أروضه ... فينصاع منه بارع وفصيح
يفيض على عضب اللسان بلاغة ... يرفّ عليها من كيانيَ روح
إذا كان آمالاً تفتح باسماً ... كما افترّ زهر بالعبير يفوح

يمسّ شغـــاف البائسين بلطفــه فيجلــو همومــاً مــا لهنّ مــزيح
وإن يـك آلامــاً سكبت عــواطفي أكــاد بها أبكي أسىً وأنــوح
وان يكُ عشقــاً فـالفـؤاد خـلالـه صريع هـوى قـد أثخنتـه جـروح
يشير ويــومي لا يبين، وتــارة يهّم بمكتــوم الغــرام يبــوح
ويعــرب عما يعتريـــه فإنّــه حليف ضنى ممّــا أصيب طــريح
وان يك إيقــاظــاً هببت أصوغــه وفي كــل بيــت وازع ونصيــح
إذا استنهض الـــوانين قمنــا جميعنــا خفــافــاً ومــا بــالنــاهضين طليح
وفي معــرض الشــورى حكيم أخــو نهىً يســود لـــه رأي أغـــرّ رجيح
وينقــد أغــراض الـزمــان وصرفــه متــون لــه مــا تنقضي وشروح
يـروعـك كـالبحـر الخضم مهـابـة وليس بـــه الاّ الضّليع سَبــوح
شــديــد على الأخصـام يكبـت بأسهم وعنهـم إذا زال الخصــام صفــوح
ولــوع بتبيــان الحقــائق نصَّعــاً ولـــو كــان من جــرّائهن ذبيح
ألحت لــه صـدق الشعــور، وفــاتني بــدنيــاي من صــدق الحظــوظ متيح
ومــا همني فــوت المنى، وقــريحتي بكـل مجالٍ في القــــريض تشيح
فللّــه شعــر لم يسعــه زمــانــه وبعض دنــاه للــزمــان فسيح . . .
عجبت لــه في السعـد والنحس عـامـلاً على جــانبيــه ســانح وبــريح
بعيــد عن النقصــان فيما يــرومــه نـــزوع إلى المجــد الأثيل طمــوح
رفيع، عــزيــز مــا أسفّ ومــا وهى عليـــه كمال النّــابغين يلــوح
ونـــزهتــه عـن أن يكــون بضــاعــة مــداه هجــاء أو مــداه مــديح

السيــاســة

من قصيدة :

تسلمت السيــاســة مــا ملكنــا فما أحيت لنــا أرضــاً مــواتــا
ولا شـــادت لنـــا مجداً رفيعــاً ولا عـن حــوضنــا ذبّت عــداةً
وكـــافحت المواهـب واستمـــرت تحطّم أهلهــا ذاتــاً فـــذاتـــا
إليـك القـــوم عــاينهم تجدهـم عيـــونــاً أو سعــاةً أو جبــاةً
فما نبغ النــــوابغ في ذراهـــا ولا ضمّت عبــاقــرة هــداة
وكـل مفـــوّه أمسى عيّيــاً تضــايقــه ومــا يبــدي شكــاة

عجبت لأمــرهـــا قبـــلاً وغبـــاً | تخال المرجفين لها دعــــــــــــــاة
ومـــا اختطّت تصــاميم المعـــالي | وعن أهــدافهـــا الإصــلاح فــاتـــا
وأفســـدت الخلائق، وهـي غـــرّ، | وصـــار العقل ميـــلاً أو بـــداة
قضـت ظلماً على جـلّ الأمـــــاني | وعـــاشـت في تنطّعهـــا افتئـــاتـــا
وضـــاهـت في تبرجهـــا الغـــواني | وبـــزّت في بهارجهـــا الغـــواة
فما اجتــذبت ســوى نـاس أتـوهـــا | عبيــداً يــرفعــون لها الصـلاة
وصـــــارت للضعيف سبيـل رزق | وفي دنيـــــا التحكم مشتهـــــاة
فضلّـت في تخبطهـــــا سبيــــلاً | وطـــاشـت في تقلبّهـــا حصـــاة
ومـــا غــرست بحقـل العلم غــرسـاً | وفي الآداب مـــا بـــذرت نـــواة
ومــــــا اتخذت لــ ـــذي داءٍ دواءً | ولا جعلـت لمرضـــانـــا أســـاة
إذا مـــا الجدّ جـــدّ مضـى خفـــافـاً | مـريـــدوهـا يـرومـون النجـاة...
ألا ويـح المواطـن مـن بنيهـــــــا | إذا أضحـى الجنـــــــــاة لها حماة
ويـــا ويل السيـــاســـة مـن رقيب | يـــريها الموت أحيـــانـــاً حيـــاة
يسيّرهـــــا على نهج قـــــويـم | يثقفهـــا ويمنعهـــا التفـــاتـــا
والاّ فـــــالمواطـن في ظـــــلام | يعيث المفســـــدون بها عُتـــــاة

وقال في انتماء العراق إلى عصبة الأمم (١٩٣٢):

أأعـــلام نصر مـــا أرى في الشـــوارع | ولا نصر الاّ للهـــــوى والمطـــامع
يقـولـون: نلنـا لامع الفـوز عـاجـلاً | ومـــا لامعـــاً شمنـــا ولا غير لامع
ولكـن رأينــــا كـلّ مبكٍ ومضحـك | فـدلّـت على العقبى شكـول الطـلائع

وله:

وكـم هنـــا وطنّي في مظـــاهـــره | بـــالمكـــر ملتفع، بـــالـــدسّ مقتبع
يقـــدم البعض رجـــلاً ثـم يـــرجعهـــا | فكـــان أول مـن لبّـــوا ومـن رجعـــوا
وتلـك شعـــوذة جـــازت على وطـن | أحـــوالـــه فتن، أبنـــاؤه شيـع
يـــا ليت أذنـــاً إلى الأحـــرار مصغيـــة | أو ليـت عينـــاً على الظّـــلام تطّلـع

أنــور شــاؤل

الشاعر الأديب القـاصّ المحامي أنور شاؤل ولد في الحلـة سنة ١٩٠٤ وتوفي في ١٤ كانون الأول ١٩٨٤ . أصدر مجلة الحاصد الأسبـوعية أكثر من ست سنوات . قال أحمد حسن الزيـات في مجلة الرسـالة المصريـة أن أنور شاؤل ثـاني اثنين مهّدا لكتابـة القصة الحديثة في العـراق (أما الأول فكـان محمود أحمد السيـد) . وأثنى عليـه جعفر الخليلي في كتابه «القصة العراقية قديماً وحديثاً» فقال إنه من أوائل ممارسي أدب القصة الحديثة وأن مجلته الحاصد كان لها أبلغ الأثر في تشجيع كتابة القصة والفنون الأدبية الأخرى .

ترجمت لأنور شـاؤل ترجمة وافية في كتابي «اعلام اليهـود في العراق الحديث» الصادر سنة ١٩٨٣ . وقـد نشر مجموعـات قصصية ، منهـا : الحصاد الأول (١٩٣٠) في زحـام المدينة (١٩٥٥) أربع قصص صحية (١٩٣٥) قصص من الغرب (١٩٣٧) .

كان شاعراً مطبـوعاً نشر من الدواوين : همسات الزمن (١٩٥٦) وبـزغ فجر جديد (١٩٨٣) . ولـه أيضاً : قصـة حياتي في وادي الـرافدين (١٩٨٠) عليـا وعصام (قصـة سينمائيـة ، ١٩٤٨) وليم تل (مسرحيـة مترجمة ، ١٩٣٢) الطبـاعـة العـامـة : فنـونها وصناعاتها (١٩٦٧) إلخ .

شارك في الحياة الأدبية العـامة بشعره ونثره أعواماً طويلة ، فحيّـا في قصيدته «عذراء أثيوبيـا» جهاد الأحبـاش ضد الغازي الإيطـالي سنة ١٩٣٥ وجلجلت قصـائده خلال الحرب العالمية الثانية تشجب النظام النازي :

نظـــام أقــامـــوه على النــــار والـــدم وفيـــه استبــاحـــوا كل فعــــل محرّم

وحيّا انتصـارات الحلفاء ودعـوتهم إلى الحرية واستقـلال الشعوب وسيـادة القانـون والنظام . وقد قال :

إن كنت مـن مـــوسى قبست عقيـــدتي فـأنـــــا المقيم بظـل ديـن محمّـــــد
وسماحـــة الإســـلام كـــانـت مـــوئلي وبـــلاغـــة القـــرآن كـــانت مـــوردي
مــــا نـــــال من حبـي لأمــــة أحمد كـــــوني على ديـن الكليـم تعبّـــــدي
سأظـل ذيــــاك السمــــوأل في الـــوفـــا أسعـــــدت في بغـــــداد أم لم أسعـــــد!

أكـرم أحمـد

شـاعر الشبـاب الذي ظـلّ شابـاً بالـروح بـالرغم من كهـولتـه وتمرّسه بـالوظـائف والأعمال .

وهو أكرم بن أحمد أفندي محاسب لواء المنتفق ابن توفيق من عشيرة الكرخية . ولد في البصرة سنة ١٩٠٦ ونقل رضيعـاً إلى بغداد فنشأ بها وتـرعرع في كنف خـاله فـؤاد أفندي

الموظف بالدائرة السنّية . وقد أتم دراسته الثـانوية واضطرّ إلى الانصراف إلى العمل لوفاة والده . ولازم عبـد الوهـاب النائب فأخذ عنـه طرفاً من علـوم اللغة العـربية ، واتصل بجميل صدقي الزهاوي وكان من أشياعه ومريديه .

انتظم في سلك الـوظيفـة كاتبـاً في مـديريـة السجـون العـامة في ١٠ تشرين الثـاني ١٩٢٦ ، ثـم نقل معاون مـدير التحرير في متصرفيـة لواء البصرة فمدير تحريـر لواء ديالى (أيلول ١٩٣١) فالحلة فالبصرة (١٩٣٥) . وعيّن بعد ذلك مـدير ناحية فتنقل في أنحاء العراق حتى أصبح مدير ناحية الأعظمية ، ثم رفّع قائممقاماً لقضاء عفك (كانون الأول ١٩٤٢) فأبي صخير (تموز ١٩٤٣) فـالصـويـرة (آذار ١٩٤٤) فـالحيّ (أيـار ١٩٤٦) فخانقين (١٩٤٦) فعنة (كانون الأول ١٩٤٧) فالحيّ ثانية (نيسان ١٩٤٨) فالمحمودية (نيسان ١٩٥٠) فالصويرة أيضـاً (شباط ١٩٥١) فالكاظمية (تشرين الأول ١٩٥١) . ورفّع مفتشـاً إداريـاً (أيلـول ١٩٥٢) فمتصرفـاً للـواء المنتفك (آذار ١٩٥٣) فمتصرف الـدليم (كانـون الأول ١٩٥٣) حتى أحيل على التقاعـد في تشرين الثاني ١٩٥٦ ، بعـد خدمة ثلاثين سنة تدرج خلالها من كاتب صغير إلى موظف إداري كبير.

وقد توفي ببيروت في ٢٨ تشرين الثاني ١٩٦٨ أثر نوبة قلبية لم تمهله سوى أيام .

شعره وأدبه :

بدأ أكـرم أحمد ينظم الشعر شابـاً ، وكان شعره في أول الأمـر تقليدياً جـامداً ، فمن ذلك رثاؤه لأستاذه عبد الوهاب النائب المتوفى سنة ١٩٢٧ :

جفـا الحيـاة وجـدّ السّير مضطعنـا ... عن معشر حـالفـوا الأحقـاد والإحَنـا
رأى غمار المنـايـا وهـي ثـائرة ... فخـاضهـا غير هيّـاب ومـا جبنـا
لم يـدفنـوا ذكـره بـل ظلّ منتشراً ... وإن هُـم دفنـوا في قبره البـدنـا

ثـم قـرأ عيون الشعـر العربي القـديم والحديث واتصل بـالزهـاوي وشعراء المدرسة الحديثة ، فصار يقـرض الشعر الرقيق ويتصرّف في فنـونه وأغراضه ، وبـرّز في الغزليّات حتى لقّب بشاعر الشباب ، ولازمه اللقب سائر حياته .

زاره خيال الحبيبة بعد هجر وفراق ، فسرّ به واحتفى وقال :

رسـول مـن خيـالـك زار وهنـاً ... ومـا غير النجـوم لـه رقيب
فقلت ، وقـد هتفت بـه حفيّـاً ... أعـانقـه : تـذكـرني الحبيب
أبحت لك الفـؤاد فَحُلّ فيـه ... ففـي جفني مقـامـك لا يطيب
أخـاف عليك مـن جفـن قـريح ... تـؤرقـه الطـوارق والخطـوب
نعمت بقـربـه أشكـو إليـه ... صـوادع في الفـؤاد لها نـدوب
وخلت الليـل مثل الـروض ينـدى ... بـه مـن نشرك الفـوّاح طيـب . . .

وحنّ إلى ليالي السعادة والصفاء فتأوّه وتلهف وقال:

حننت إلى الليـــــالي البيض ولّت | وطــاف بخــاطــري منهــا خيــال
وأنت بجــــانبي فـــردوس حبّ | تبسّم كـــالـــربيع بـــه الجمال
تضــــوّع من مُقَبَّلَكِ الغـــوالي | ويغمـــــر عينك السّحــــر الحلال
ومجلسنـــا حيـــال الشـــام تحنـــو | علينـــا من خمائلهــــا الظــــلال
تنـــاولنـــا الـــوشـــاة بها أحبّــوا | فتمّ لهم لما قصـــــدوا منـــــال
دعينـــا نغنـم اللـــذات هــوجــاً | وخلّيهم ومـــا زعمــــوا وقـــالـــوا
ألفــت الحبّ تيهـــــــاً أو دلالاً | فهل أغنــاك تيهـك والـــدلال؟...

هام أكرم أحمد بالجمال فقال:

الهوى نعمــــة الطبيعـــــة فـــاضت | في قلـــوب تحسّ معنى الـــوجـــود
هتفت بـــاسمـــه الليـــالي وغنّت | بـأنـــاشيــــده حيـــاة البيـــد
أيّ سر قـــد طلسم الحسن فيـــه | ففتنّـــا بمقلـــــة أو بجيــــد؟
أي سحــــر يبـــدو لعينيك حتى | تنثني والهاً بقلـب عميــــــد؟
رسـم النـــاس للجمال كما شـــاؤوا | حــدوداً ومــا لـــه من حــدود

وفكّر في مصير الجمال، وهو العاشق المغرم بالجمال، فقال:

سـألتنـي ودمـــــــوع العين | بـــالشكــــوى تبـــوح
عــــــانـس رقّ لها لفـظ | كما قـــــــد رقّ روح
نـــاطق بـــالشجـن الخافي | بعينيهــــا وضـــــوح
في محيّـــاهـــا بقـــايـــا | مـن مـــلاحـــات تلـــوح
أتـــرى الحسن نـــزيـل | مثلما جـــاء يـــروح؟
قلـت: لا يغــــررك وجـــه | لـك كـــالصبـح مليـح
وشعـــــاع مـن جمال | كسنــــى البرق لموح
وعيـــون فـــاتـــرات اللحـظ | بـــالسحــــر تليـح
وأريـــج الطيـــب مـــن مبسمـــك | العــــذب يفـــوح
وكقطـــــر الطـلّ دمـع | فـــوق خـــدّيـك سفـــوح
عنـــدمـــا يعتلج السهـم | وتهتـــاج الجروح
إنّ هــــذا الحسن مثـل الـــروض | ينـــدى ويصـــوح
وغـــداً إذ يهجـم الشيـب | ويعتـــلّ الصحيـــح

وتعـــــــــــرّي غصنـك المورق | للعـــــــــــاصـف ريـح
يتســــــاوى في حَشـــا الأرض | مليـــــــــح وقبيـــــــح
حيـث لا يغنـي جميـــــــــلاً | كبريـــــــــاء وجموح

لقد عبّر أكرم أحمد في هذه المقطوعة عن معنـى عزيز على الشعراء تفنّنوا في الإفصاح عنه وبـالغوا في ذكـره على مرّ الـزمان، معنىً مآلـه أن الشعر خـالد والجمال زائل. ألم يخاطب رونسار الشاعر الفرنسي فتاته الحسناء المدلّة قائلاً:

«حينما تبلغين من العمـر عتيّـاً، وأنت جـالسـة تصطلين بـالنـار مسـاءً، تنسجين وتحوكين على ضوء الشموع، ستقولين إذ تنشدين شعري في زهو وخيلاء: إن رونسار قد أشاد بـذكري يوم كنت رائعـة الجمال... سوف أكـون آنذاك راقداً تحت الثـرى، طيفاً تائهاً في الظلال الهيوليّة. أما أنتِ فسوف تكـونين عجوزاً شمطاء قابعة في الدار، نادمة على حبّي وما أسلفتِ من صدّ وكبرياء...».

ويردّد رونسار نفس هذه الفكرة في مقطوعة أخرى من شعره فيقول: «أيتها المليحة، لنذهب ولنـرَ الوردة التي نشرت في الصباح غـلالتها الأرجوانيـة في ضياء الشمس، هل فقدت في المسـاء أفواف ثوبها الـزاهي وبَشَرَتها المضاهية لحسن طلعتك؟... فيـا أيتها المليحـة، اقطفي شبابك الغـضّ، وأنت في ميعة الصبـا وغضـارة البهاء قبل أن يـذبل جمالك كهذه الوردة في ظلّ المشيب!».

وقديماً قال المتنبّي شاعر العرب:

زوّدينـــا من حسـن وجهك مـــا دا | م، فحسن الـــوجـــوه حـــال تحول
وصلينـــا نصلـك في هـــذه الـــدّنيـــا | فـإنّ المقـــام فيهــــا قليل

وقـال بيير كورنـاي (١٦٠٦ ـ ١٦٨٤) يخاطب ممثلـة شابّـة: «لئن كان وجهي قـد شابت خطوطه، اذكري أنك حين تبلغين عمري لن تكوني خيراً مني.

فالزمان الذي يسرّه إهانة الأشياء الجميلة كفيل بأن يذبل زهورك كما غضّن جبيني.

ولكن لي مـزايا بـاهـرة تقيني صروف الـدهر. ولك مـزايـا يعبـدها النـاس. غير أن سجاياي التي تستهينين بها سوف تدوم بعدما تبلى محاسنك...».

***

لقد تألم شـاعرنـا لتأخّر أمتـه وجهلها والأخطار الملمّـة بها وتغافل المسـؤولين عنها، فقال:

نحـن في معـــــــــرض الأمـم | كقطيــــــع مـــــن الغنـــــم
نـــام عنــــه الـــرعـــاة والـــذئب | يقظــــــــــان لم ينــم
شغلتهـــــم عــــن الحمـــى | متــــع العيـــش والنعـــم
مـــدهقـــــات كـــؤوسهم | قـــد حســـوهــا على نغم

لا يحسّــــون صرخــــة الشعب — مــن لــــــذعـــــــة الألم
ولأمــــــر تصـــــامــــوا — مـــــا بـــــآذانهم صمـم
مـــــا عليهـم وقــــد خبت — فيهـم جـــــــــذوة الهمـم
أن أبيحــت ديـــــــــــارهــم — واستبيحــــــــت بها الحرم...

حتى يقول :

إن للظلــم ســــــاعــــــة — تتــــــــــوارى بمــن ظلـم
ســـــوف تشقـى حيــــاتها — أمـــــــة تعبـــــد الصّنـم

وأكرم أحمد يوالي تحذير رجال الحكم ويدعوهم إلى العدل والبرّ بالشعب، فيقول :

قل لـلألى استهتروا بـالشعب حكّـامـا — لا تسرفـوا، إن لـلأقـدار أحكـامـا
غيظ الشعـــوب إذا مـا ثـار ثـائره — كـالسّيل يجتـاح جبّـاراً وظـلاّمـا
مغبّــة الظلم بـالبـاغين عـاصفـة — وإن تطـاول عمـر الظلـم أعـوامـا

ووقف على قبر معروف الرصافي مؤبّناً، وقد أودع لحده، فقال :

أبعـد الـروح تـرسـل منـه شعـراً — تكـــون لـك الحفيرة مستقـــرّا؟
عجبت لحفــرة في الأرض ضــاقـت — مجالاً كيـف تحوي منـك بحـــرا...
هـمُ خطّــوا ضريحك في تــرابٍ — ولكنّـي جعلـت حشـــــاي قبرا
بـــررت بمـوطـن سبعين عـــامـاً — فســامـك بغضــة وأذى وغــدرا
وحسبـك فيــه أنك عشـت حــرّاً — على رغـم الخطــوب ومُـتَّ حــرّا

ومن شعره في الهجاء :

بليـت بثعلـب يبــــــدي ولاءً — ويخفي في مطــاوي النفـس ضغنــا
جبـــان يحسـب الأشبــاح ليــلاً — إذا بصرت بها عينـــاه جنّــــا
وإن سمـع الــرعـــود لها هــزيـم — نهاراً ريـع مـن فـــزع وجُنّــا
كحـــربـــاء يبــدّل كـلّ آن — مخادعـــة من الألــوان لــونـا

وشعره متفـرق في الصحف والمجلات لم يجمع في ديوان. وقد وضع أكـرم أحمد رواية غرامية سماها «ذكريات المدرسة»، وكتب مقالات أدبية أكثرها في الدفاع عن الزهاوي.

من شعر أكرم أحمد:

رويــــدك قلبي أطلت الــــولــــوع إلامَ اضطـــــرابك بين الضلــــوع؟
حملت من الــوجــد مــا لا يطــاق ومن لــذعــات النــوى مــا يــروع
تنـــــــاءوا وشطّت بهم دارهــم وأقفـــرن ممّـن تحبّ الــــربـــوع
تسيـل دمـــــوعـك في إثـــرهــم، فهل تــرجـع الظــاعنين الــدمـوع؟

وقال:

يــا صحـوة الفجــر، هل عـود فأغنمهـا والكــفّ تعصر لي خمراً فــأرتشــف؟
أروي من الحبّ عينـــاً ملـــؤهـــا نهم وخـــافقـــاً من تبـــاريح الجوى يجف
أضمّهـــا وهـي مثل النـــار لاهبـــة وأضلعي بعصـــوف الشـــوق تــرتجف
تفتح الحسـن بسّـــامـــاً بطلعتهـــا، أهــــذه طلعـــة أم روضـــة أُنُـفُ؟
أمعنت في وردهـــا نشـــوان أقطفـــه: ورد الجمال بلحـــظ العين يقتطـــف
يـا فتنـة الشـاعـر الحسّاس قـد لمست فيك العــواطف شيئاً فــوق مـا وصفــوا
عينــاك خمري والنهـــدان خـــابيـــة وهـل لمثلي عـن هــــذيـن منصرف؟
يـا ســاقي الخمـر عَـدِّ الكأس صـافيـة عن الـــذين على خمر اللّمـى عكفـــوا

نعمان ثابت عبد اللطيف

الشاعـر الضابط الرئيس الركـن نعمان ثابت عبد اللطيف ولد ببغـداد سنة ١٩٠٥، وانتمى إلى المدرسة العسكرية (١٩٢٤) فتخرج فيهـا ملازماً ثانياً سنة ١٩٢٧. واشترك في دورة الأركان سنة ١٩٣٦ فرفع إلى رتبة رئيس (نقيب) في الجيش. وساهم في الحركات العسكرية في أنحاء بارزان والفرات.

مال إلى قـرض الشعر فتتلمـذ على منير القاضي وأمضـى أوقات فـراغه في الـدراسة والتتبّع. وقد وضع كتباً ورسائل عديـدة، وقام صديقـاه إبراهيم أدهم الزهـاوي وعبد الستار القراغـولي بعد وفاته بنشر ديـوانه «شقائق النعمان» (١٩٣٨) وكتابـه «الجندية في الدولة العبّاسية» (١٩٣٩). ومن مصنفاته المخطـوطة: الألغاز العربية، الجاسوسية، جـواسيس الميـدان، وسائط الاستخبـارات في الحرب، قضـايا التجسّـس الفاصلـة في التاريخ، ورسائل في الحمام الزاجل والحبر السرّي والشطرنج إلخ. وألّف روايات منها: مصرع المتوكل، مأساة القائد السجين، آخر بني سراج.

قتل برصـاصة طـائشة، في أثنـاء حوادث السماوة، في ١٢ حـزيران ١٩٣٧، فـرثاه إبراهيم أدهم الزهاوي قائلاً:

مـــــا عــــــزائي الجميـل عنـك جميل وقصير عليـك حــــــزني الطـــــويـل

وقال أيضاً :

يـــا دولـــة السيـف عــــزّي دولـــة القلم كلتـــاكما فجعـــت بـــالمفـــرد العلم

وقال عبد الستار القراغولي :

لا تقـل لي : بــــالله أجمــــل عــــزاءا إنّ رزئـــــي قـــد جـــاوز الأرزاءا

وممّن رثـاه أيضاً عبـد الـرحمٰن البنـاء وحسين الظريفي وكمال نصرت وخضر الطـائي وجميل أحمد الكاظمي وغيرهم .

شعره :

كان نعمان ثابت من شعراء الجيش كمحمود سـامي البارودي وحافظ إبراهيم وعبد الحليم حلمي المصري ، لكنـه امتاز بحسّـه المرهف وعـاطفته المتقـدة ، فكـان الشاعـر الوجداني الأصيل . قال متغزلاً :

ليست النــــار كـــآلام يـــؤججن ضلـــوعي

تهطل الأمطـــار مـــدراراً وليست كـدمـــوعي

وولــــوع البلبل الصـــدّاح لا يحكي ولـــوعي

فـــاذكـــريني عنـدمـــا أسقى بكـاســات الفنــاء

كلّما النيران شبّـــت

كلما الأمطـــار صبّت

وقال :

لست أخشى رمـــاحك السمهـــريـــة ورصـــاصـــاً تصبّـــه البنـــدقيّـــة

بـل خـــــدوداً ورديّـــــة ولحاظـــــاً مصلتـــات على رقـــاب البريّـــة

غلبت على شعـره مسحة من الحزن ، فهـو إذا ذكر الحبّ والهيام راودته فكـرة الموت فقال :

حنــــــــانيــك إذا مــتّ فبـــــــــالأوراد غطّينـــي

فـــــزهـــــر النــــرجس الغـضّ يحيّيـنـــــي فيحيينـــــــي

وغنّينـــي بـــأشعـــــاري فـــأشعـــــاري تعـــــزّينـي

فـإنّي شـــــاعــــــر يهوى عيـــــون الخُرّد العِين

وغمرت نفسه اللوعة والكآبة فقال :

بـذمّـة بـاريها الـذي تتجـرّع — فكـم تلتظي شـوقـاً وكم تتفجّـع
كـأنّ بجنبيهـا الكـآبـة تصطلي — ومعتلـج الآلام فيهـا مـودّع
وتأرق لا تـدري المنـام جفـونها — إذا مـا نجـوم الليل في الليـل تطلع
وتسجع كـالـورقـاء غـادرت الحمى — إذا سمعـت ورقـاً على الأيك تسجـع
وإن نهل الأمـواج مـن وابـل الحيـا — تسحّ على وجنـاتها الصفـر أدمـع
كـأن أوار الحبّ يحيـي مـواتها — إذا التهبـت فيـه قلـوب وأضلـع
وقـد تعتريها هـزّة تلـو هـزّة — لـذكـرى أويقـات مضت ليس تـرجع
زمـان بـه تسقـى السّـلافـة، والهوى — يجلّلهـا، والعيش فينـان ممـرع
ألا هي نفسي، يـا أحبّـاي، فـارفقـوا — بنفسي التي آمـاقهـا الـدمع تهمع

وذكر وطنه وأحبّاءه فقال:

أمـا للنـوى نـأي يـرفّـه خـاطـري — فنـوحي على الـزوراء أدمى محاجـري
سـلامـي على مثـوى أمـانيّ عنـدمـا — تميل الصَّبـا بـاليـانعـات النّـواضر
سـلامي عليهـا مـا تهادى نسيمهـا — على بسـط حيكت بتبر الأزاهـر...
أحبّـاي في الـزوراء مهما ديـاركم — تنـاءت فأنتم ملء سمعـي ونـاظـري

وعشق آله وقومه فقال:

عـربيّ يعشـق العـربـا — لا تلـومـوه إذا انتحبـا
أسـد كلّـت مخالبـه — وجـواد في السبـاق كبـا
نـادراً تلقـاه مبتسماً — ولكـم تلقـاه مكتئبـا

ومن جميل شعره قصيدة مترجمة عن الإنكليزية في رثاء طفل:

الكـوخ رغم بسـاطـة الأريـاف — جلّت محاسنـه عـن الأوصـاف

إلى أن يقول:

والطفل أنحلـه السّقـام وهـدّه — همّ يـدكّ رواسيـاً وبحـارا
قـد أظلمت عينـاه، أمّـا خـدّه — فـذوى، وأمـا حسنـه فتـوارى
والأم قـد ركعـت بجنب سريـره — تبكي بهمس في الظـلام الـدامس
كي لا يحسّ وحيـدهـا ببكـائهـا — يـا ويح من يـؤذيـه صـوت الهامس
صلّت بخـاطـرهـا وأعـرب دمعهـا — عن حـرقـة في نفسهـا ومـرارة
ومن المصيبـة أن تفيض دمـوعهـا — عنـد الصـلاة بلهفـة وحـرارة...

قال محمود الدرّة في كتابه «الحرب العراقية البريطانية ١٩٤١» إن النقيب نعمان ثابت الأعظمي من ضباط الاستخبارات الأكفاء، وكان قومياً عنيفاً يعمل في مقر قيادة الفريق بكر صدقي خلال الحركات العسكرية في الفرات (١٩٣٦). وقتل برصاصة من الوراء، ونسب قتله إلى مؤامرة دبرت بأمر بكر ونفذها ضابط من قوة الشرطة السيارة.

نديم الأطرقجي

ثلاثة وعشرون ربيعاً وأحلام وشعر قليل: تلك حصيلة نديم الأطرقجي من الحياة. أما المرض والألم والحرمان فذلك حظّ النفس الحسّاسة المرهفة والشباب الفوّار.

وماذا نعلم عن نديم محمّد الأطرقجي؟ لقد ولد ببغداد سنة ١٩١٤ لأسرة موصلية النجار، ودرس اللغة الإنكليزية التي ترجم عنها شيئاً من الشعر والنثر. وهام بالتمثيل، فانتمى إلى جمعية أنصار التمثيل التي كانت تضمّ أقرانه من الشبّان الهواة برئاسة عبد الله العزّاوي. وارتقى خشبة المسرح في بغداد وبعض الألوية. قرض الشعر يافعاً فأفرغ نفسه في كؤوسه رضاباً نديّاً، وابتلي بالفقر والسلّ فتوفّي في مستشفى العزل ببغداد في نيسان ١٩٣٧.

ذلك ما نعلمه عن حياة نديم، ونعلم أنّه كان شاعراً وجدانياً مترسّماً خطى شعراء المهجر الذين اتخذوا من آلامهم ومشاعرهم قيثارة يعزفون عليها أناشيد الوجود والعدم. كان نديم مثال الفراشة التي تمنحها الطبيعة أيام الربيع القلائل لتزور الرياض وتسامر الزهور وتسكر بالعطور. وكان نديم مثال الشعراء الذين قضوا في ميعة الشباب، مثل طرفة بن العبد والشاب الظريف التلمساني وشاترتن وشيلي وكيتس وهيجيسيب مورو، ومثل محمّد تيمور الذي ضاق ذرعاً بثروته وجاه آله ودراسته العالية، فانصرف إلى التمثيل وأنس برفقة المحرومين والبائسين، وشعر بأجله القريب فقال:

هيّئوا لي في باطن الأرض قبراً ... ودعوني أنام تحت التراب
في ظلام القبور راحة نفسي ... ومن النور شقوتي وعذابي

وإنّنا نحسّ لذكرى نديم بمودّة عاطفية، كتلك المودة العاطفية التي نحسّ بها ـ كما قال الأديب الفرنسيّ جول ساندو ـ لذكرى الأصدقاء الشبّان الذين حصدهم الدهر قبل الأوان، وإنّ ذلك الحسّ لينمو في الحشاشة كما تنمو الزهرة الغريبة الغامضة...

كانت حياة نديم كالقطار الذي ركبه ووصفه قائلاً:

صفر القطار فأسرعت عجلاته ... تطوي السّهول وعالي الأنجاد

فوجمتُ أنظر باسماً بمرارة ... لمدينة فيها قبرت فؤادي

لا الطبّ بعد اليوم يشفي علّتي ... ويزيل عنّي لوعتي وسهادي

فالجسم لا يرجى الشفاء لدائه ... إنْ قلبُه أضحى صريع عوادي

أجل، لقد اشتدّ عليه الداء وزايله الأمل ورأى شبح الموت ينظر إليه كما ينظر الوحش إلى فريسته، فقال:

أقضي الليالي بين أحضان مضجعي ... أنادي، وما من راحم يتقرّب

مريض أذاب الداء قلبي، ولم أهن ... وما كنت أدري في كفاحي سأُغْلَبُ

فبؤت كسير النفس أحمل خيبتي ... وقلباً غدا فيه دمي يتصبّب

وأصبحت وحدي في ابتعادٍ وعزلة ... أناضل كالمسجون حين يعذّب

وليس سميري في الدجى غير شمعة ... تذوب اشتعالاً مثل قلبي وتنضب

فأشعر أن الليل طال ظلامه ... فأبقى لنور الفجر أسعى وأرقب

وأسمع في طيّ الظلام هواتفاً ... وأنظر أشباحاً تلوح وتغرب

فأفزع من تلك المشاهد خائفاً ... وتسرع دقّات الفؤاد وتضرب

رأى نديم شبح الموت، وكان في وسعه أن يخاطبه كما خاطبه من قبله الشاعر الفرنسيّ أندره شنييه (١٧٦٢ ـ ١٧٩٤) فيقول:

«أيها الموت، إنك تستطيع أن تنتظر، فابتعد، ألا ابتعد.

اذهب واذرف بلسم العزاء في القلوب التي يأكلها العار والفزع واليأس الشاحب.

أمّا أنا فالطبيعة تمدّ لي بسطها السندسيّة، والحبّ يحفظ لي قُبَلَه، وربّة الشعر معازفها.

إنني لا أريد الموت بعد...».

لقد كان في وسعه أن يقول، كما قال أندره شنييه أيضاً:

«ليمضى الفيلسوف الرواقي ذو العينين الجامدتين وليسع إلى معانقة الموت.

أما أنا فأبكي وأتشبّث بأذيال الرجاء.

وإذا هبت رياح الشمال القاتمة، أحني هامتي ثم أرفعها.

ولئن كانت الأيام مرّة، إنّ ثمة أياماً حلوة بهيجة.

آه! فأيّ عسل لم يترك قطّ طعماً مريراً، وأيّ بحر لم تزعزعه قطّ العواصف؟...»

لكنّ شاعرنا الشاب لم يجد بداً من الاستسلام والارتماء في حضن الموت، فرثته مجلة الحاصد التي طالما نشرت شعره على صفحاتها قائلة: «توفّي... بعد صراع عنيف بين جسمه الواهن وبين مرض السلّ الوبيل، فقضى نحبه وحيداً في مستشفى العزل... بكاه الشعر الفيّاض الحيّ، بكته النجوم اللوامع التي طالما حاكى شعره عقودها الزاهية».

إننا لا نعرف شيئاً عن طفولة نديم الأطرقجي وصباه، لكننا نسمعه يقول في قصيدته «ابن الشقاء»:

قد حرمت العطف من أهل قسوا ... وأنا طفل رضيع وسط حضنِ
فرضعت البؤس من مهد الشّقا ... وذوى من قلّة الإرواء غصني
ليس لي ثوب يقيني في الشّتا ... زمهرير البرد أو يدفع عنّي
أرتدي سملاً إذا هبّت به ... نسمة طار، فتذري الدمع عيني
ولثقل الفلس جيبي لم يزن، ... ورنين الفلس لم تسمعه أذني
يضحك الناس ولا يرثون لي ... وأرى أطفالهم تسخر منّي

ولقد اختار الفتى البائس الشعر وهفا إلى الحبّ، فهل حظي بهما ووجد فيهما السّلوة والعزاء؟ قال:

يشكو الحياة ويشدو ... مثل الحمامة شاعر
يبكي فؤاداً خليّاً ... قد بات في الحبّ عاثر

للغاب سار بناي ... ألحانه ذات روعه
فأصبح الغاب يبكي ... وأكسب الدّوح لوعه
وحمرة الورد غاضت ... والغصن أرسل دمعه
وقام يبكي عليه ... فوق الأريكة (؟) طائر
وحلّ بالغاب صمت ... يحكي سكون المقابر

ولاحت للشاعر عروس الغاب فعاهدته أن ترعى مودّته. لكنّها غدرت ولم تعرف الوفاء ومنحت حبّها سواه، فطوى صدره على الحزن والأسى، وأطلق نغماته الشجيّة تردّدها الرياح وينشدها المحبّون المتيّمون.

وعلّل الشاعر نفسه بالطيوف والأوهام، وتراءت لعينيه أخيلة الهناء كالسراب الخادع، فقال:

ألهو وأعبث في الحيـــــــاة لعلّني أسلـــو همومـــاً في الفـــؤاد خفيّـــه
فـأضـمّ ليلى أو أزور عفيفـــــــة أو أشتكـي ضرّ الهوى لنجيّــــــــه
لكـنّ همّي لم يــــــــزل متحكّماً في القلب يـــذكي لـــوعـة منسيّـــه
قـالـوا: الخمـور تـزيل عنك شـواغـلاً فشربتهـــا بـــالأكـــؤس الخزفيّـــه
فأذاب كـأس الخمـــر حبّـــة مهجتي وكـأنّ شربي كـــان كـأس منيّـــه
فسكبت فـــوق الأرض خمر زجـــاجتي وتـــركـت كأسي في الثـــرى مـــرميّــه
مـــا زلت أبحـث في الحيـــاة مفتّشـــاً عـن نشــــوة تنسي الحزيـن بليّـــه
فضللـت في طـــرق الحيـــاة مشرّداً وتخذت أخيلـــة الهنـــاء مطيّـــة. . .

ورأى فتـاة أحلامـه تطلّ من الشبّاك. هـل كان أوّل شـاعر يـرى الحبّ في النافـذة البعيدة؟

إنّ روبرت برنز شاعر اسكوتلاندة الوطني (١٧٥٩ - ١٧٩٦) قد دعا حبيبته أن تطلّ من نافذتها، فقال:

«يا ماري، اجلسي إلى نـافذتك، فقد أزفت الساعـة الموعودة المؤكّدة، وأريني تلك البسمات وهاته النظرات التي تجعل من كنوز البخيل عنوان الفقر. . .

إنّ حبي ليشبه وردة حمراء قانية قد تفتحت براعمها في حزيران.

إنّ حبي كاللحن الذي تصدح أنغامه في لطف واتّساق. . .».

وجيرار دي نرفال (١٨٠٨ ــ ١٨٥٥) الشاعر الفرنسيّ المجـذوب قد تخيّل في شعره قصراً من قصور الإقطـاع في القرون القديمة، طلي زجـاج نوافذه باللـون الأحمر الصارخ وأحاطت به الـرياض الزاهرة، وغسل قدميه النهـر الجاري بين الورود. وأطلّت السيّدة من نافذتها العـالية شقراء ذات عينين سوداوين، متّشحة بثياب العصـور الخالية. لقد تذكّرها الشاعر، فقد رآها من قبل في حياة سالفة!

أما شاعرنا الأطرقجي فلم ير صاحبته من قبل، فقال:

هيفـــــاء قـــد ملكت نهاي بحسنهــــا مـن غير معـــــرفــــة وغير لقـــــاء
بـــانـت من الشبّـــاك تنظـر فـــاكتـوى قلبي بحـبّ زاد في إيــــــــــذائي
فـــــوقفـت مبهـــوتـــاً أمـــام جمالها مـن روعــــة كــــالصّخـــرة الصمّاء
فتعجّبـــــت مـــــن وقفتــــي وتحيّرت وبقيت مصعـــــوقـــاً بـــلا إبـــداء
غمـــزت بعينيهـــا تســـائل: يـــا فتى، مـــاذا دهـــاك، فهل أُصِبْتَ بـــداء؟
لم أستطع قـــــولاً، وبعـــد هنيهـــة كلّمتهـــــا بـــــالغمـــــز والإيماء:
إنّي قتيلـك، فـــــارحميني وانظـــــري حـــــالي فقـــد أصبحـت في بلـــواء

فجمال وجهك قد أضاع مشاعري وغدوت، يا حسناء، في بيداء
فاحمرّ من خجل لقولي وجهها، غضبت لذاك وأطرقت بحياء
وبلا جواب أغلقت شبّاكها في قسوة كالنّافر المستاء
فوقفت أنظر ما جرى من غادتي والتعتُ من صدّ وكثر جفاء
كم مرّة حاولت في طرق الهوى صيداً فبؤت بخيبة وعناء

وظلّ شاعرنا باحثاً عن جنّة الحبّ، فقال:

هيّا معي للروض، وابتسمي فهناك ننسى ما نعانيه
نصغي لشدو الطير في فرح وبشدونا السّامي نناجيه
والماء يجري فوق أرجلنا كالتبر يبدو في مجاريه
والزهر تخفينا خمائله عن كلّ واشٍ لا نصافيه
نجني الهوى غضاً ونهصره، يا هند، من بعد الملمّات

***

إنّ الهوى سرّ سنعرفه، يا هند، من ضمّ وتقبيل
فالحبّ لم يفقه حلاوته من تاه في أقوال تضليل
ولينقل الواشون ما عرفوا عنّا، ولو شاؤوا بتهويل
لسنا نخاف اليوم كيدهم فليذهبوا في كلّ تأويل
ولنقطف اللذّات دانيةً، يا هند، من غصن المسرّات

لقد ابتلي، كما ابتلي شعراء الغزل من قبله، بالواشي ينغص عليه سروره والرقيب يقضّ مضجعه، فيا له من محبّ بائس.

ولازم الشقاء شاعرنا وحفّت به الأحزان، فدعا نفسه الأسيّة إلى انتهاب ملذّات الحياة الفانية وعدم المبالاة بما كان وما سيكون. وعصفت الأشجان قبله بالشاعر الإنكليزي برسي شيلّي (١٧٩٢ ـ ١٨٢٢)، فطلب الراحة في الموت وقال:

«إنّ الشمس دافئة والسماء صافية، والأمواج تتراقص سريعة متألقة. والجزر اللازورديّة والجبال المكسوّة بالجليد تأتزر ببأس الظهيرة الأرجوانيّ الشفّاف.

ونسمة الأرض النديّة خفيفة حول أكمامها التي لم تتفتّح. وقد توحّدت في نداء واحد من البهجة والسرور، أصوات الرياح والأطيار وأمواج البحر الخضمّ...

وا أسفاه! ليس لي من أمل ولا عافية ولا راحة في قرارة نفسي ولا هدوء حواليّ، ولا الرضا، تلك الثروة الزاخرة التي يجدها الحكيم في التأمّل والتفكير...

وحتّى اليأس نفسه قد أصبح الآن لطيفاً كالرياح والمياه الهادئة الوديعة. وإنّ في وسعي أن أرقد كالصبيّ الذي أنهكه التعب فأبكي على حياة الشجون التي حملت أعباءها، ولا أزال، إلى أن يأتيني الموت خلسة كالنعاس، فأشعر في الجوّ الدافىء بصفحة خدّي تصبح باردة هامدة وأسمع البحر ينفخ في فكري المائت نغماته الراتبة الأخيرة».

ذلك ما فعلته الهموم بالشاعر الإنكليزي ودفعت به إلى هوّة الفناء. أما شاعرنا الفتى المنذور للموت فقد حاول، على نقيضه، أن يتمسّك بأذيال الحياة ويفوز بمباهجها، فقال:

لا تبتئس عندما تبلى بأحزان ... واهنأ بلذّات عمر زائل فان

دعهم يقولون: بعد الموت وقفتنا، ... وخلّني في ضلالي شبه سكران

أنظر: قصيدي من اللذات أنفقه ... لأنّ يوم غدٍ في طيّ نسيان

فكم لثمن شفاه الغانيات، وكم ... بالقرب منهنّ قد واريت أشجاني

وكم رميت بقلبي بينهنّ، وما ... خفت العيون التي تصمي باتقان

فما ارتويت وكأس الحبّ ما فرغت ... فلذّ لي في الهوى إنفاق أزماني

لا أستقرّ على غصن ولا سرر ... مثل الفراشة تلهو لهو نشوان

هذي الحياة جنان الخلد، كوثرها ... شهد اللّمى في كؤوس صنع رضوان

والحور هذي الغواني، إن عقلت، فلا ... تضيّع العمر في زهد وخسران

واشتدّ على شاعرنا الداء فلم يغن عنه الشعر ولا أجداه اهتبال الملاذّ. وحار في أمره الطبيب:

قال الطبيب: دع القريض ونظمه ... فالشعر يجهد قوّة الأعصاب

هذا نحولك لا يفيد له الدّوا، ... إنّ الكتابة مبعث الأوصاب

ماذا استفدت من القريض ونشره ... في كلّ مطبوع وكلّ كتاب؟

إنّي أراك بلا رداء لائق ... وبلا فراش ناعم وثياب

تضني دماغك هاصراً أفكاره ... فتذوب ملتهباً كعود ثقاب

إنّ السّقام، إذا بقيت معانداً، ... يرديك أو يرميك دون صواب

فأجبته: بالشعر أسلو بلوتي ... وبه أسطّر شقوتي وعذابي

إنّي سأسكب مهجتي ومدامعي ... لقصائدي وأصبّ ذوب شبابي

وكانت حشرجة المحتضر فقال:

قلبي من الأمراض بات ممزّقا	وأمضّني مرضي وجسمي أُزهِقا
فعرفت أنّي سوف أرحل تاركاً	دار الضيافة، قاصداً دار البقا
ففزعت من هول النذير ووقعه	لضياع قصد رمت أن يتحقّقا
قد كنت أرجو أن أعيش لِفَيْنة	حتى أحقّق ما أردت من البَقا
لكنّما حلمي الجميل قد اختفى	لما رأى شبح المهات محلّقا
فذويت في روض الحياة كزهرة	ماتت جفافاً قبل أن تتشقّقا
هذي هي الدنيا فلا تأمن بها،	فرحيقها سمّ وخمرتها الشَّقَا
أرثيك، يا نفسي، فقد أزف النّوى	ودنا البعاد وبان يوم الملتقى

وكذلك قضى شاعرنا كما قضى من قبله الشاعر الفرنسي جوزيف جلبرت Joseph Gilbert (١٧٥١ ـ ١٧٨٠)، ذلك الذي قال:

«لقد جئت يوماً إلى مأدبة الحياة ضيفاً شقياً، ثم علقت بي حبال الموت.

إنني أموت، وعلى قبري الذي أمضي إليه وشيكاً، لن يأتي أحد ليذرف الدموع.

فسلام عليك، أيتها الحقول التي أحببت، وأنت، أيتها السهول السندسية الجميلة، أيتها الغابات الضاحكة في عزلتها.

أيتها السماء، مظلّة الإنسان، أيتها الطبيعة الزاهرة.

عليك سلام الوداع الأخير!

آه، وليتمتع بمرأى جمالك المقدّس طويلاً كلّ أولئك الأصدقاء الذين لا يصل وداعي إلى أسماعهم. ولينامـوا في أحضان الموت بعد حياة حافلة، ولتهطل الدموع في مماتهم، وليقم بعض الأصدقاء بإغماض جفونهم!».

ذلك نديم الأطرقجي الشاعر، أما الناشر فكتب قصصاً قصيرة منها: اللقاء بعد الموت، عشيق الجنّيّة، العناق الأخير. ووضع مسرحية الثورة العربية التي مثّلت ببغداد في تموز ١٩٣٦ وقام هو نفسه بتشخيص بعض أدوارها.

ونظم في تلك السنة مسرحية شعرية بعنوان «مصرع السّلام» متأثراً بالأحداث العالمية آنذاك، من تغلّب الدكتاتورين هتلر وموسوليني وتعكيرهما لصفو السلم والاستيلاء على الحبشة وتفجير الحرب الأهلية في إسبانيا. جمع الأطرقجي في مسرحيته الخير والشرّ وإله الحرب وربّة السلام، فتبجّح الشر بفرض سلطانه على العالم ودحره لجيوش الخير والإحسان. ويبرز له الخير واهناً مرذولاً، لكنه قويّ الإيمان بنفسه وخلوده. ولاحت في الأفق المدافع والدبابات والرشّاشات والجنود تسير إلى القتال. ثم ظهر الطاغية الجبّار

تعنو له الملوك والشعوب، فرفع عقيرته مفتخراً بصولته ومجده، وكان له الفوز على ربّة السلام.

ووضع نديم الأطرقجي مسرحيّتين أخيرتين هما: الاعتراف وابن الدلال، مثّلتا في حياته وبعد مماته ـ على ما قال الممثل القديم علي الأنصاري.

إن شعراء كثيرين اخترمهم الدهر كالزهرة اليانعة قبل أن يتيح لهم، مثل نديم الأطرقجي، إبراز مواهبهم الكامنة. وكان ذلك حظ الشاعر الفرنسيّ جاك دي لا تاي Jacques de la Taille الذي ألف مسرحية ديدون (١٥٦٠) وشفعها بعد سنتين بمسرحية دارا والإسكندر، ثم لم يلبث أن توفّي في العشرين من عمره. لقد هوى التمثيل ومارسه مع أخيه جون، ثم طوى الزمان صفحتهما وعفّى على أثرهما، كما قال أبو ذؤيب الهذلي:

هل الدهر إلاّ ليلةٌ ونهارها وإلا طلوعُ الشمس ثم غيارها؟

أو كما قال الجرهمي القديم:

كأنْ لم يكن بين الحجون إلى الصفا أنيس ولم يسمر بمكّة سامر

عبد القادر رشيد الناصري

الشاعر عبد القادر بن رشيد بن إسماعيل، ولد في السليمانية سنة ١٩٢٠ من أبوين كرديين. ونزح والده إلى الناصرية فاستوطنها ولقّب بالناصري. وأتم عبد القادر دراسته الثانوية في بغداد، وأخذ ينظم الشعر، واتصل بمحمد مهدي الجواهري وغيره من أساطين الأدب. ودرس البلاغة والمنطق على الشيخ عبد القادر عبد الرزاق الخطيب (خطيب جامع الإمام الأعظم توفي في أيلول ١٩٦٩).

عمل محرراً في الصحف كجريدة الرائد والنداء والأوقات البغدادية، ووظف في دار الإذاعة العراقية سنة ١٩٤٨. وأوفد سنة ١٩٤٩ لإكمال دراسته في باريس، لكنه عاد بعد سنة واحدة لأسباب اضطرارية.

ووظف في أمانة العاصمة في وظيفة لا تكاد تسدّ رمقه. وقد أدركته حرفة الأدب، واستبدّت به الآلام النفسية، وطلب في الخمرة عزاءً فملكت لبّه وأوهنت أعصابه وأهانت عزة نفسه. وتوفي ببغداد في ١٥ أيار ١٩٦٢.

مؤلفاته وشعره:

كان الناصري شاعراً مطبوعاً، كثير الحياء، جمّ الأدب. أصدر ديوان «ألحان الألم» سنة ١٩٣٩، ومسرحية ضحايا المجتمع (١٩٣٧)، وديوان صوت فلسطين (١٩٤٨). و «الأسفار» (١٩٤٩). وأصدر كامل خميس «ديوان عبد القادر رشيد الناصري» سنة

١٩٦٥ ـ ٦٦ في جزءين. وترك دواوين مخطوطة لم يتيسّر له طبعها، منها: «الآثام» و «الأفعى» و «غزل» و «أغاني السندباد» و «عرائس ومآتم» و «الأعماق» و «زينب» (ملحمة شعرية) و «قصة حبّي» (ملحمة شعرية) و «شموع تحترق» و «خمريّات الناصري» و «الفاكهة المحرّمة» (مسرحية منظومة). وله مقالات نشرها في الصحف العراقية والعربية.

وقد تفوّق عبد القادر رشيد الناصري في الغزل فنظم فيه فنوناً وألواناً، ولهج بذكر المرأة والخمرة، وتنقل في الحبّ كالفراشة تنتقل بين زهور الرياض. خفضته أرزاء الحياة وأعباؤها، ورفعه الشعر إلى المحلّ السّامق، وخلّده خلود المحبّ الوامق.

إنّ حظّ شاعرنا الناصري ليذكرنا بالشاعر الإنكليزي المحبّ جون كيتس (١٧٩٥ ـ ١٨٢١) الذي أصيب بداء السلّ وقضى نحبه في ريعان الشباب قبل أن يروّي ظمأه من الحياة والحبّ والشعر. كان الناصريّ حالماً كشقيقه الروحيّ الإنكليزي الذي قال: «إنّ الحالم وحده يسمّم كلّ أيامه ويحمل من العذاب أكثر مما تستحقه كل آثامه». ورفع الناصريّ المرأة إلى مرتبة الآلهة، ثم وصمها بالغدر والخيانة وشبّهها بالأفعى. أما كيتس فقد روى في شعره قصة «لاميا» أو «لامعة» المرأة الأفعى التي ذابت أمام عيني محبّها، وحديث «السيدة الجميلة التي لا ترحم» تلك الحسناء التي رآها الفارس الصنديد وسحره جمالها، فعمل لرأسها إكليلاً ولمعصمها أساور، وأظهرت له الحبّ ثم تركته وانياً مضنى سليب الفؤاد.

وقد غبط كيتس في آخر شعر له النجم المتألق في الرقيع وتمنّى لو كان ثابتاً مثله، لا منفرداً في عزلته السامية تحت جناح الليل، ولكن ناعماً بحب الحبيبة الجميل، نشوان بأنفاسها العذبة، فيحيا كذلك إلى الأبد أو يغشى عليه في سكرات الموت.

وغرّد الناصريّ بقلب كليم فقال:

أحبّكِ، والهوى وتر صدوح، وأنسام معطّرة وروح
ومجمرة دم العشاق فيها بخور كلما احترقت تفوح
وفردوس من المتع الغوالي على شطآنه يحلو الصّبوح
أحبّكِ، هل علمت، سلي دموعي على كفّيك لو سئلت تبوح
أحبّكِ، هل علمت بأن روحي على شفتيك ذائبة تنوح
وإني قد عصرت دمي غراماً فأزهر من دمي طلح وشيح
وإني لو أبوح بسرّ حبّي لناح على فمي الوتر الذبيح
وهل تدري الشقائق في الروابي بأن دمي بمبسمها يلوح؟
أحبكِ، يا سهيل، فكل عرق من الأشواق ملتاع جريح

تنـــــاهـى في هــــــواك، فكـل آهٍ
يضيق بنـــــارهــــا الصـــــدر الفسيح

إذا عـــــانقت طيفـك في خيـــــالي،
وطيفـك بـــــاللّقـــــا أبـــــداً شحيح

فإني قـــــد نـــــذرت إليك عمـــــري
وعمـــــــري في هـــــواك سنـيّ لَموح

ومـــــا رتّلت أشعـــــاري غنـــــاءً
ولكـن غـــــــــــرّدت فيكِ الجروح

وقال في أشواقه الحائرة:

سكـرنـــــا، يــا سهيلـة، من هـــوانــا
فخلّي الكأس يـرشفهـــا ســـوانـــا

دعيهـــا للنّـــدامـى يحتسـوهــــا
كفـــانـــا خمر صبـوتنـا كفـــانـــا

ألسنـــــــا بلبلين بكـلّ دوح
لنـــا عـشّ مـــلأنـــاه حنـــانـــا؟

زرعنـــا الحبّ في الـــدنيـــا دمـوعـــاً
فأزهـــر واحـــةً وزهـــا جِنـــانـــا

فـإن نبخل على العشّـــــاق فيـــه
فما قطفـت أزاهـــره يـــدانـــا . . .

شـــدونـــا ، والهوى وتـــر حنـــون،
وخمر عتّقـت فصفـت دنـــــانـــــا

وعـــرس كـــالـــربيع يفيض حسنـــاً
ويسخـــو بـــالشـــذا آنـــاً فـآنـــا

وعيـــــد للمنـى مــــا لاح إلاّ
أجـدّ لنـــا مبـــاهجنـــا الحســـانـــا

فمـــن عينيـــك في عينـــيّ نبـــع
تـــدفّق بـــالحنين ومـــا سقـــانـــا

ومـن ذاتي وذاتـك بيـت شعـــــر
رقيق كـــالهوى يـــزهـــو افتتـــانـــا

وقال في كرمة الهوى:

أيـا كـرمـة للحـبّ يـزهـو بها الصّبـا،
تبـــاركت عنقـــوداً وظـــلاًّ وملعبـــا

سألتـك بـالحرمـــان يأكـل خـاطـــري
وبـــالجوع يستلقـي بعينـيّ مُتْعَبَـــا

وبـالجرح ظمآنـــاً وبـــالسهم غـــائراً
وبـالـــدمع مسفـوحـاً وبـالعمـــر مجدبا

أمـا هـزّك الشـوق الـذي هـزّ خـافقي
فبـــــاح بأسرار الجمال وشبّبـــــا؟

ونضّر لي حقلي فـأينع غـــــرســـــه
ومسّ ثـــرى عمـري الجديب فـأخصبـا

وطـــار بأحـــلامـي وجنّح خـــاطـــري
وأطلع في آفـــاقيَ السّـــود كـــوكبـــا

وجـــدّد أعـــراس الشبـــاب وسحـــره
ومـــا العمـــر إلا الحبّ واللهـــو والصّبـا

وفني الناصريّ في الحبّ وذاب في شخص محبـوبته فقـال في مقطوعته «أنت» نـاعتاً إياهـا بأكـوابه ودنّـه ونـدامـاه وفنّه وقيثارتـه ولحنه وقمره وضميره. ثم قال إنه يتملاّها في ثغـر الصبـاح البـاسم وخـرير الجدول الحالم ونسمـة الـروض وبلبل الـدوح، حتى يقول:

أنـــــتِ في قلبـــــي حنين ودمـــــوع مـلء عينـــــي

أنـتِ في روحـي ابتهـــــال وصـــــلاة مـــــلء أذني

فكأني أنـــــا جـــــزء منك أو جـــــزءتِ منـــــيّ[1]

بـل أنـــــا أنـتِ التـي أبصرهـــــا أو أنـت أنّي

وهكـذا تغنّى النّـاصريّ بـالحبّ واللهـو والصبـا، ومضى لم يمتّع بـالحبّ واللهـو والصبا، ذلك الشاعر الذي قال:

جـف نبعـي وشـف روحـي الغليـل وتمشى على حطـامي الـذبـول

وغـدا قلبي النـدي يبـابـاً مـا بـه واحـة ولا سلسبيل

وارتضت نفسي الجريحة بـالـوهـم وللـوهم يـركن المخـذول

فـزع صـارخ يلـف حيـاتي فحيـاتي تلفـت وذهـول

وفـراغ كـوحشـة القبر ازجيـه فـلا فـرحـة ولا تـرتيل...

من قصيدة:

إلى الخالـدة

غـدائرك السّـود، يـا فتنتي، عنـاقيـد لم تحْوِهـا داليـة

أفـاعٍ تـدلّـت على منكبيـك فَجُنَّت بها المقل الـرانيـة

غـديـر من العطـر هـذا الحريـر تنفّس عن ليلـة سـاجيـة

إذا قبّلتـه شفـاه النّسيم سرى الطيب في النّسمـة السـاريـة

فـدى نـاظـريك جـراح الهوى تفجّـرت شـوقـاً بـأعـراقيـة

فسهمـك إن غـار في مهجتي حنـوتُ على السّهـم، يـا قـاسيـة

وإن عـربـدت حـول روحـي الجحيم تلمّست جنّتك الغـاويـة

أحـواء، لمّا يـزل آدم يفتّش عن جنّـة ثـانيـة

سألتكِ، كيـف أعـرتِ الـدّجى سـواد غـدائرك الـداجيـة؟

فكم غـاب في ظلّهـا عـاشق تخدّره الفتنـة الطّـاغيـة

أخـالـدة الحسن، لـولا الجمال لمـا غـرّدت بـالهـوى قـافيـة

فمن سحـر عينيك سحـر الغنـاء وأصـداء قيثـارتي الشّـاديـة

(١) تِ مخفّف أنت لضرورة الشعر.

كمال نصرت

شاعـر البؤس والأسى، كمال نصرت وهـو كمال الدين نصرت بن توفيـق بن طـه بن ياسين بن طـاهر بن السيـد عثمان، ولد في كربـلاء سنة ١٩٠٧، وتعلم في مـدارسها. وانتمى الى كلية الإمام الأعظم، لكن انصرف عن الدراسة بعد أمد.

وأصدر مجلة الرصافة الأسبوعية في كـانون الثاني ١٩٣٠، وأعاد إصدارها في حزيران من السنة نفسهـا، فلم تعمّر طـويلاً. وكـان محرراً في صحف مختلفة كجـريدة الـزمان والفرات والرائد وحبزبوز. وعيّن موظفاً في أمانة العاصمة.

نشر شعـره في الصحف والمجـلات، ثم جمعه في ديـوان طبع سنـة ١٩٦٨. ووضع مسرحية شعرية بعنوان «وفاء العرب» (١٩٦٩).

سجل ترجمة حياته بقلمه في تموز ١٩٣٥، فقال:

«ونشأت يتيماً محروماً من حنـان الأم وعطف الوالد. توفيت والـدتي وأنا ابن سنتين، واتّبعها أبي ـــ وهو في ريعـان الشباب ـــ وأنا لم أتجاوز إذ ذاك الربيع الثـالث، فكفلتني جدّتي والـدة أبي. فنشأت في حجرها، وقـد عكفت على تربيتي، فقرأت عليهـا القرآن الكريم ومبادىء العلوم الأولية والكتابة باللغتين العربية والتركيّة. ثم انتقلت جدّتي الى جوار ربّها، فكفلني عمي المرحوم عزت بك القـائمقام المتقاعد، إلا أنني عشت مهملاً في هـذه البيئـة الجديـدة لا يسأل عني ولا يعتنـي بي أحـد. وقـد قـاسيت من ضروب العذاب والشقاء مالم تحتمله نفسي الكبيرة وجسدي الواهن الصغير. وكم كنت أتألم كلما رأيت الأولاد الصغـار غـادين رائحين الى المدرسـة، فـرحين مستبشرين، ولا أستطيع مشاركتهم بالجلوس معهم على رحلة التدريس، لأني كنت مهملاً كما ذكرت، ولم يعتنِ أحـد بتربيتي وتهذيبي التهذيب الصحيح. غير أني وجـدت من نفسي حافـزاً لدخـول المدرسـة، فـذهبت الى أحـد كتاتيـب البلدة، فسرعـان مـا قبلني بعـد محاورة قصيرة. فدرست مبادىء الحساب والفقه وشيئاً من التاريخ والجغرافية.

«وفي رأس السنة الدراسية دخلت المدرسة الابتدائيـة، وكان التدريس باللغة التركية طبعاً، وكنت أتقنها إتقاناً جيداً لأنها كانت لغة العائلة التي نشأت بين ظهرانيها. ولهذا تقـدمت جميع رفـاقي في الـدروس وظهـرت عليهم في الامتحانـات وأحـرزت الشهـادة الابتدائيـة. وبعد الاحتـلال قبلت في الصفّ الأخير من المدرسة البـارودية، ثم تـركتها وانتقلت الى كليـة الامام الأعظم. فـدرست فيهـا العلوم العـربية أربع سنـوات. ولكن بعض الظروف القاسيـة حالت بيني وبين أخذ الشهادة، فتركتهـا مضطراً ودرست على بعض العلماء.

«ومنذ هـذا العهد صـار لي ولع شديد بقـرض الشعر، فعكفت على مطـالعة بعض

الدواوين لمشاهير شعراء العرب كالمتنبيّ وابن الرومي والبحتري وأبي تمام وبشّار وأبي نؤاس، كما عكفت على قراءة كتب الأدب القديمة منها والحديثة، وحفظت قسماً كبيراً من شعر المتنبّي والشريف الرضي، إلا أنني الى شعر الرضي أميل منه الى المتنبي لسهولة لفظ الأوّل وتعقد ألفاظ الثاني. وإني ميّال بطبيعتي الى فخامة اللفظ في الشعر ومتانة التركيب فيه، وقد نظمت الشعر في شتى المواضيع، وجلّ ما نظمت في الشكوى والوصف والغزل. ونشر قسم كبير من قصائدي في مختلف الجرائد والمجلات. وأما اليوم فإني في شاغل عن قرض الشعر بأمور العيش في هذه الحياة التي لا تفتأ تناوىء كل أديب حرّ، فهو منها في جحيم لا يخمد أواره».

من شعره، قال في رثاء سعد زغلول:

أنظر الى المجد كيف اليوم ينهدم ... وعروة الملك كيف اليوم تنفصم
وكيف غال الردى طوداً سما شرفاً ... في المكرمات وكيف الموت يخترم
وكيف أودع قلب الشرق نار أسىً ... فقد الزعيم الذي باهت به الأمم...
إنّا سنذكر سعداً، والفؤاد به ... نار تشبّ وفي الأحشاء تضطرم
إنّا سنذكر سعداً كلما طلعت ... شمس النهار ووافت بعدها الظّلم
قد كان في مصر خير الناس كلهم ... وكان أحسن من تسعى به قدم
وكان سيفاً على الأعداء منصلتاً ... وكان بحراً به الأمواج تلتطم
وكان للعرب عوناً في مصائبهم ... وكان ذخراً وفيه الشمل ملتئم...
يا سعد، شعبك آلى أن يقيم على ... عهد الولاء ويبقى وهو يلتئم
وسوف يظفر بالآمال أجمعها ... وسوف يخفق في عليائه العلم
وسوف يبقى على الأيام متّحداً ... والإتّحاد به الأقوام تعتصم
وسوف يقتحم الأخطار مزدرياً ... وسوف عن ساحتيه الضيم ينهزم

وله في الغزل:

أيحول فيما بيننا أن نلتقي، ... في الله والحبّ الطّهور، عذول؟
مالي وما للعاذلين، فليتهم ... بُكْمٌ فلا دجل ولا تضليل
أهواك لا عن مطمح أو مطمع: ... إنّي امرؤ عفّ الضمير نبيل...

وقال في سنة ١٩٢٨:

أرى كلّ يوم في العراق وزارة ... تقوم وأخرى بعدها في تثبّت
فلا هذه ترجى لدفع ملمّة ... ولا هذه تسعى لتحرير أمّتي

وقال :

ألا مـا لهذا الغـرب يستعبـد الشرقـا فبعـداً لـه بعـداً وسحقـاً لـه سحقـا
لـه الـويـل من مستعبـد قـدّ قلبـه من الصمّ لم يعـرف بأحكـامـه الرفقـا
تعـاني شعـوب الشرق من جـور حكمـه مكـائد سـدّت دون غـايـاتها الطـرقـا
تـروم انطـلاقـاً مـن قيـود اعتسـافـه ويأبـى سـوى أن تستضـام وأن تشقى
أقـام عليهـا حـاجـزاً من عيـونـه فلم تستطـع فعـلاً ولم تستطع نطقـا
وسخّـرهـا تسخير عبـد مـذلّل يحاول عتقـاً وهـو لا يجد العتقـا
وسـام بنيهـا الخسف في جبروتـه وبـاغتهم قتـلاً وبـادرهم محقـا
وجـرّعهم كـأسـاً من الـذل علقماً تكـاد بـه تنشق أحشـاؤهم شقّـا

وقـد أصيب كمال نصرت بمـرض عضـال أقعده في داره أعـوامـاً حتى قضى نحبـه ببغداد في ٣٠ كانون الثاني ١٩٧٤ .

محمود الحبّوبي

ورث الشعر عن عمّه الشاعر المجتهد المجاهد محمد سعيد الحبوبي . وقد ولد محمود بن حسين الحبـوبي في النجف سنـة ١٩٠٤ ، ورضع لبـان معـارفهـا ونشأ وتـرتـرع في معاهدها . وكان أحد مؤسسّي الرابطة الأدبية سنة ١٩٣٢ ، وأصبح أميناً لسرّها .

ثم انتقل الى بغداد سنة ١٩٤٨ وأقام فيها حتى أدركته الوفاة بها في أول أيّار ١٩٦٩ . كـان رضيّ الخلق ، أبيّ النفس ، إنسـانيّ النزعـة ، حلـو الحديث ، مشرق الابتسامـة ، لم يعمل في تجارة ولا وظيفة ، بل عـاش عيشة تقشّف وقناعة على إيراد عقـار له في مسقط رأسه .

وقد عني بجمع ديوان محمد رضا الشبيبي (المطبـوع في القاهرة سنة ١٩٤٠) وديوان محمد جواد الشبيبي وديوان محمد سعيد الحبـوبي . وأصدر الجزء الأول من ديوانه (ديوان محمـود الحبـوبي) سنـة ١٩٤٨ ، وربـاعيات محمـود الحبـوبي (١٩٥١) شـاعـر الحيـاة (موشح ، ١٩٦٩) .

شعره

محمود الحبوبي شاعر عربي وطني علقت روحه بالعراق وتوزعت بين فلسطين ومصر ولبنان وسورية وسائر أقطار العروبة ، فشعره يـزخر بذكرها ويتألم لألمها ويفرح لفرحها . وكانت آخـر قصيدة نظمها قبيل وفـاته في فلسطين ، أعـدها لتلقى في مهرجـان الشعر المقام في بغداد آنئذٍ .

إن وطن الحبوبي حبيبه ومعشوقه، فهو يقول:

ليت الألى فتنتهم الأحداق باتوا وهم لبلادهم عشّاق
ما خير حسنٍ لا يدوم وصبوة تفنى وهجرٍ ما يكاد يطاق؟
أنا إن فتنت ففيك، يا وطني، وكم هزّت لذكرك قلبيَ الأشواق
غذّيت حبّك والتمائم في يدي، وألفته وبجيديَ الأطواق
يجري هواك محبّباً مجرى دمي مني إذا ذكر الهوى مشتاق
إن كان خمرته الشفاه فإنّما خمري الشهيّة ماؤك الرقراق
أو راقه الخدّ الأسيل فلم يرق عينيَّ إلاّ الحقل والأوراق
وإذا هناه شذاً يضوع فقد هنا هذا الفؤاد نسيمك العبّاق
أو بات يطربه الغناء ففيك لي من كلّ ورقاء شدت إسحاق
وإذا ابتغى الخلق الجميل فبغيتي أن تزهر الآداب والأخلاق

وهو إذ يحبّ وطنه يريد نهضته وتقدّمه ورخاء أهليه من عامل وفلاح. فهو يندب حال الريف المهجور:

خلت المنازل والمرابع فاكفكف فليس بهنّ سامع
ماذا وقوفك وهي قفرى من أماجدها بلاقع
لم يبق منهم نهشل بين البيوت ولا مجاشع

وهو يأسى للكادح المحروم:

أيّها الكادح المرزّأ عيشاً، خلِّ هذي البلاد وَأْوِ القفارا
خلّها هازئاً بها وبمن فيها عبيداً تستخدم الأحرارا
خلّها وانتزع هوىً لك فيها من قديم وأسدل عليه الستارا
خلّها فالكهوف أرحب صدراً لك منها والوحش أوفى ذمارا...
لست حراً إن ترضَ أن تلبس القوم حريراً وتلبس الأطمارا
لست حراً إن ترضَ أن تجني الشوك ويجنوا ممّا غرست الثمارا

وهو يخاطب الأغنياء ويدعوهم الى العطف على المعوزين وإطعام الجياع وتجفيف دموع اليتامى، فيقول:

أيّها المثقل الخِوان طعاما راق للعين منظراً ونظاما
حوله صفّت الفواكه أنواعاً وقد فاضت الكؤوس مداما

كـل هنيئـاً واشرب هنيئـاً ولا تعبأ بمن قـال: قـد فعلت حـرامـا
أيطيب الطعـام أكـلاً وتهنـا الخمـر شربـاً على أنين الأيـامى؟
أم يلـذّ الإفطـار من قـوت قـوم قـد طـووا يـومهم اليك صيـامـا؟
لا تُصِخْ مسمعـاً لنصحٍ كهـذا واهْنَ واتـرك للبـائسين الـرغـامـا

وهو يهيم بالحرية ويناشدها الرفق بالناس:

أكثيرة العشّـاق في الأمـم قـد طـال هجـرك فـارفقي بِهِمِ
الـوضع أظلم فـابـزغي قمـراً وتجهّم القـانـون فـابتسمي...

ومحمود الحبوبي بعد ذلك شاعر عاطفي يتألم للإنسان والحيوان، بل يتألم حتى للنملة تدبّ على الأرض. وله رثاء يفيض باللوعة والدموع، منه رثاؤه لأبيه إذ يقول:

لا شعّ منبلجـاً لعين الـرائي صبحٌ بـدا وطـلائعَ الأرزاء
أأبي، وعـزّ عليّ أنك لم تجب صـوتي ولم تسمع لـديك نـدائي
سرعـانّ مـا سـاء النـوائب جمعنـا فمشت ببينٍ بيننـا وتنـائي
لـو كنتُ أُعْطَى مـا أودّ وأشتهي لـوددتُ بعـدك أن يـزول بقـائي...

لقد أدركته حرفة الأدب، فلم يعجب للأمر ولم يستغربه، وهو الذي عرف حال الأديب في وطنه وقال:

بلـد يعيش بـه الأديب غـريبـا أشقى الـورى من عـاش فيـه أديبـا
يجلـو الكـروب عن الأنـام، ولم يـزل من كـربـه أوفى الأنـام نصيبـا
ويـذوب قلبـاً كي يـرى شركـاءه في الشعب أهنأ أنفسـاً وقلـوبـا
ولـع بإنماء الحيـاة لقـومـه. حتى تجفّ حيـاتـه وتـذوبـا

قال محمود الحبّوبي من قصيدة بعنوان «عاصفة»:

يـا نفسُ، حسبك مـا لقيت فـودّعي عهـد الهوى وإلى رشـادك فـارجعي
عـودي الى مـا كنتِ فيـه سعيـدة ـ أعني السّلـوّ ـ وبـالحيـاة تمتّعي
وخـذي نصيبك من هنـاتك، فـالهوى لا يستقـرّ مع المنـا في مـوضع
شرط المحبّين الشقـاء، ومن خـلا، يـا نفس، منـه فإنّما هـو مـدّعي
فـدعي التصـابي لـلأُلَى لم يحسبـوا خلقـوا لغير صبـابـة وتـولّع
وتيقّظي، يـا نفس، سكـرى واغسلي درن الأنـام بطـاهـرات الأدمع
صونـي مواهبـك الثمينـة واحـرصي أن تغـرسي الأوراد في مستنقع
وعلى شعـاع العلم والأدب اسلكي نحـو الحقيقـة في طـريـق مهيع...

خضر الطائي

شاعر سمّاه غازي عبد الحميد الكنين «الجنديّ المجهول في سماء الأدب العراقي الحديث». ولد خضر عباس الطائي في بغداد سنة ١٩١٠، وأصل أسرته من سنبس القبيلة الطائية النازلة في أراضي شهامك بقضاء مخمور بين الزابين. وقد أتمّ دراسته الابتدائية، ثم لازم الشيوخ قاسم القيسي وعبد الوهاب النائب ونجم الدين الواعظ وغيرهم ودرس عليهم علوم العربية والدين. وانتمى الى جامعة آل البيت (١٩٢٦) فتخرّج فيها سنة ١٩٢٩ وعيّن مدرساً في البصرة. وعمل بعد ذلك في سلك التعليم في المدارس الابتدائية والثانوية في عنة وبغداد والحلة حتى اعتزل الخدمة في حزيران ١٩٦١.

وقد أدركته الوفاةفي بغداد في ٢ تشرين الثاني ١٩٦٩.

مؤلفاته وشعره:

كان الشاعر خضر الطائي هادئاً منزوياً لم يسع الى الشهرة حتى انطبق عليه قول عبد الله بن عمر العَرْجي (المتوفى في نحو سنة ٧٣٨م) الذي تولّى تحقيق ديوانه مع رشيد العبيدي:

أضاعوني، وأيّ فتى أضاعوا ليوم كريهة وسداد ثغر

نظم الطائي الشعر يافعاً، واختلف الى مجلس جميل صدقي الزهاوي وندوات الأدب، واقتفى آثار أحمد شوقي في مسرحياته المنظومة. قال عبد القادر البرّاك (جريدة الجمهورية البغدادية، ٧/ ١١/ ١٩٦٩):

«ولقد كان اعتزاز الطائي بانتسابه لطيء مصدر إعجابه وتخليده للشاعر العربيّ الكبير حبيب بن أوس الطائي المعروف بأبي تمّام، فكان يترسّم خطاه في كل ما نظم من شعر في مناسبات عديدة. وبلغ من وفائه لهذا الشاعر أن تقصّى كل ما كتب عنه، فخرج على الناس بكتاب فنّد فيه الكثير من آراء الدكتورين طه حسين وعمر فرّوخ في هذا الشاعر، وقد أحسنت وزارة الثقافة في طبع هذا الكتاب. . .

«لقد نظم خضر الطائي قصائد رائعة في مناسبات وطنية وقومية ودينية عبّر فيها عما يدور في نفوس الأمة من الانفعالات والدوافع والآمال والمطامح في شعر محكّك أفقده التحكيك والمعاودة ما كان يجب أن يكون فيه من تدفق وانسياب، فهو من بقايا مدرسة العمود الشعري في مبانيه ومعانيه. وكان التزامه الجامد بآراء هذه المدرسة حائلاً دون تحليقه فيما نظم من مسرحيات شعرية استحق أن يكون لها رائداً للمسرحية الشعرية في العراق. ذلك أن مسرحية قيس لبنى وأهل الكهف الشعريّتين كانتا أسبق المسرحيات

الشعرية التي أنتجها الشعراء العراقيون بعد أن نالت مسرحيات أمير الشعر شوقي إعجاب كافة أدباء وشعراء العرب».

حقق الطائي بالاشتراك مع رشيد العبيدي ديوان العرجي وطبعاه سنة ١٩٥٦، وألفّا معاً «دليل النحو الواضح»، وهو كتاب مدرسي.

وللطائي عدا ذلك: مسرحية قيس لبنى (١٩٣٤) مسرحية أصحاب الكهف والرقيم (١٩٦١) أبو تمّام الطائي (١٩٦٦)، الخ. ومن آثاره المخطوطة ديوان شعره ومسرحيته سيف بن ذي يزن ودراسة عن الحطيئة ونقد لديوان محمد بن عبد الملك الزيات وديوان الشيخ صالح التميمي.

قال في روعة الشعر:

ابتغِ النجم للخلود مكانا — واجعل الفنّ سلّماً والبيانا
وتأمل زهر الطبيعة في ربوتها — تلقَ روعة وافتتانا
كوّنته يد الربيع من الفنّ — ومن سحره البديع فكانا
كلما طافت العيون عليه — شاهدت فيه منظراً فتّانا
يتهادى على الزمان ويزهو — في نواحي الحياة آناً فآنا
هبة من مواهب الله جاءت — لتغذّي العقول والوجدانا
ملأت ساحة البسيطة تبراً — ولجيناً ولؤلؤاً وجمانا
فربت مثل جنّة الخلد في الزهو — وأحيت بروحها الأذهانا
نسج الفنّ جانبيها ووشّاها — فرفّت خمائلاً وجنانا
طاف فيها براحتيه ابتداعاً — فأقامت لشكره مهرجانا
فالتمس في نسيمها روعة الشعر — وحسن الخيال والألحانا
وكن البلبل الذي إن تغنّى — سحر الكون صوته والزمانا
وتلقّ المعانيَ الغرّ منها — تلقَ أبكارهن فيها حسانا

وقال في التمثيل:

كلّلوا هامة الممثل غارا — وانثروا في طريقه الأزهارا
وأقيموا من الفنون صروحاً — خالدات تغالب الأقدارا
أظلم العيش في الحياة فلّما — سطع الفنّ في الحياة استنارا
وهدى القلب للجمال فغنّى — بالقوافي وحرّك الأوتارا
نغمات تسري بهنّ الأماني — صبوة وانبساطة وادّكارا
ما على القلب أن يخفّ بسحر — يستخفّ العقول والأفكارا

حتى يقول :

ايــــه يــــا أيها الممثل هـــذا ... مسرح الـــدهـــر فـــارفع الأستــــارا
قم ومثل فيـــه الحيـــاة كما تبـــدو ... بشتى شــــؤونها أطــــوارا
قم ومثّل فيـــه الحيـــاة ابتســـامـــاً ... أو دمـــوعـــاً تسيلهـــا مـــدرارا
قـم ومثّل فيــــه الحيـــاة جـــلالاً ... قـم ومثّل فيـــه الحيـــاة صغـــارا
قـم ومثّـل فيـــــه الحيـــــاة نعيماً ... أو جحيماً تـــؤجّج الأرض نــــارا
قم ومثّل فيـــه الحيـــاة ومــا فيهــا ... لكـي ننظـــر الحيـــاة جهـــارا
قــم ومثّـل لنـــا الحيـــاة الى أن ... يســـدل الموت دونها الأستـــارا

وقال يرثي أباه :

عــزاؤك، يــا قلبي، وكيف عــزائيــا ... وقــد غــاب عني مــوئلي ورجــائيــا
نقمت الـرضـا عـن بهجـة العيش بعـده ... فلم أُلـفَ إلا عن دمـــوعيَ راضيـــا؟
هــل البرّ إلاّ أن أردّد ذكــــــره ... خـــواطـــر يتركن المنـــايـــا أمـــانيـــا؟
يحبّبـن للقلـب الحنين الى الـــــرّدى ... حنينـاً الى من بـات في اللحـد ثـاويـا
فــديت بنفسي نــائماً في تــرابـــه ... وقـد كـان في المحـراب يطـوي اللّيـاليـا
لــه الله مجهــوداً مـن السّقم مــا رأى ... ســوى الصبر ممّــا قـد ألمّ مـداويـا
شفتــه من الــداء المنيّــة بعــد مــا ... تحدّى بــه حكم القضــاء النّطــاسيــا
سأبكيـــه لا أبقي من الـــدمع بعـــده ... لعينيَ حتّى ألفـظ النفس بـــاقيـــا
بقيّـــــة مـن يحنـــــو عليّ فــــؤاده ... وأكـــرم من يهفـــو إليـــه فـــؤاديـــا
ثـــلاثين عـــامـــاً عشتهـنّ بظلّـــه ... فلم أرهـــا في العمــــر إلاّ ليـــاليـــا
ومن لــذّة الــذكـرى أردّد عهـدهـــا ... دقــائق أحصي حسنهـــا وثـــوانيـــا . . .
أيـــا ســـاكنـــاً تحت التراب، تحيّـــة ... تعـــوّدت فيهـــا أن تـــردّ جـــوابيـــا
ستبقى لك الــذكـرى وإن أبعـدت بنـا ... وهيهـــات لا نـــرضى عليهـــا التّنـــاسيـــا

وقال من قصيدة نظمها في رثاء زعيم مصر سعد زغلول :

لا الحزن ينفعــــــه ولا الصبر ... شعب مضى بسعـــوده الــدهـــر
آمــــالــــه أمست مضيّعـــة ... وطـــريق نيـل مـــرامــه وعـــر
قـــد كــان ينصره أخـــو ظفـــر ... واليـــوم لا ظفـــر ولا نصر

ليت الـــزمـــان يـــدور منقلبـــاً فيعـــود مثل قـــديمـــه الأمـــر
مـــاذا على الأيـــام لـــو تـــركت سعـــداً تنـــال بـــه المنى مصر؟
بـــالأمس ضـــمّ اليـــه نجـــدتها واليـــوم ضـمّ عظـــامـــه القبر

وقد سار في هذه القصيدة على نهج جميل صدقي الزهاوي فوحّـد الوزن ونوّع الرويّ طلباً للتجديد.

***

نظم خضر الطـائي قصصاً من التاريـخ العربي كقصيدة «معن بـن زائدة الشيباني» التي يقول منها:

مـن كمعن في حلمـــــه، من كمعـن في نـــداه، مـن مثلـــه في الطعـــان؟
عـــربيّ كأنّ أخـــلاقـــه الغـــرّ نجـــوم السماء في اللّمعـــــان
قـــدّمتـــه خـــلائف من بني الــــ (م) عبّـــاس حتّى سما بـأعلى مكـــان
وحبتـــه ولايـــة البصرة الفيحـــاء (م) لمّا رأتـــه طـــوع البنـــان
فمشـى العـــــدل والأمـــان بها في ظلّـــــه وازدهـت على البلـــدان

***

مـــرّ يـومـــاً بـــه رجـــال أحـاطـــوا بفتـى مـن ســـــلائل الأعيـــان
وضعـــوا القيـــد في يـــديـــه ورجليـــه (م) فـأمسى في ذلّـــــة وهـــــوان
زعمـــوا أنّـــه أديـن بـــذنـب فـــوشـــوا بـــالفتـى الى السلطـــان
والـــوشـــايـــات طـــرق كلّ كـــذوب عـــاجـــز أو ســـلاح كـلّ جبـــان

استنجد الفتى الأسير بمعن فأجـاره وأمّنه. وسخط الخليفة حين بلغه الأمـر، فدعا معناً وأنّبه على فعله وتحدّيه لأعوان السلطان، فاعتذر معن.

قـال: عفـواً، يـا سيّـدي، أنـا عبـد لم أكـن بـــالمخـــــالـف الخوّان
إنّ عـــذري، يـــا سيّـــدي، إن عـــذري أن ألبـيّ نـــداء من قـــد رجـــاني
كيف ألـــوي عمّن ينـــادي: أجـــرني، وهـــو دون الـــرجـــال طـــراً دعـــاني؟
عـــوّدتني على الجميل كما كـــانت (م) حماة الضعيـف مـن شيبـــــان
إننـي ذلـك الحســـــام، فصُلْ بي تـــــرني ذائداً عن الأوطـــــان
كـم عـــدوّ قتلتـــه بحســـامـي، كـم خصيم طعنتـــه بسنـــاني؟
أولم أستحقّ في خـــــدمـــــاتي أن تـــراني أهـــلاً لفخـــر أتـــاني؟
يـــا كثير الهبـــات، هب لي فـــرداً واحـــداً عـن جميع صرعي طعـــاني

ورضي الخليفة عنه فقرّبه وأدنى مكانه وعفا عن جاره وأكرمه .

حسين علي الأعظمي

من رجال الأدب والفقه والقانون ، ولد حسين علي الأعظمي بضاحية الأعظمية شماليّ بغداد سنة ١٩٠٧ ودرس في كلية الإمام الأعظم وجامعة آل البيت . وتخرّج سنة ١٩٢٨ فعيّن مدرساً في كلية الإمام الأعظم نفسها .

وانتمى الى كليّة الحقوق (١٩٣٢)، فلما تخرج فيها مارس المحاماة أمداً وجيزاً، ثم عيّن مدرساً معيداً في تلك الكلية (آذار ١٩٣٦) . وظل يدرس في كلية الحقوق ببغداد حتى أصبح أستاذاً (كانون الثاني ١٩٤٧) ورئيساً لقسم الشريعة وعميداً للكلية .

وقد توفي ببغداد في ٥ أيلول ١٩٥٥ . وضع مصنّفات كثيرة في الحقوق ، منها : علم الميراث (١٩٣٨) والوصايا (١٩٣٩) الوجيز في أصول الفقه وتاريخ التشريع (١٩٤٢) أحكام الزواج (١٩٤٦) أحكام الأوقاف (١٩٤٧) الأحوال الشخصية (١٩٤٧) أصول الفقه (١٩٤٨) الوصايا والمواريث (١٩٤٨) .

كان حسين علي الأعظمي شاعراً أديباً تفرقت قصائده في الصحف والمجلات . وقد نشر: أناشيد وأدبيات الفتاة (١٩٢٦) مع ابن سينا (١٩٥٢) .

أهدته صبيحة الشيخ داود مسبحة فقال فيها قصيدة ، منها :

جاءت إليّ بسبحة من أدمع	أو سبحة من أكبد وقلوب
من جيد راهبة تسبّح ربّها	في الدير باسم مسيحها المحبوب
خلعت بها ثوب الذنوب بزحلة	وخلعتُ في بغداد ثوب ذنوبي
وعكفتُ في محراب قلبي خاشعاً	لأنال في محرابه مطلوبي
متعلقاً بالله جلّ جلاله	متشفّعاً بحبيبه وحبيبي
متوسلاً متأملاً متضرّعاً	متطلعاً في لوحه المكتوب
مترقّباً عند الغروب شروقه	لتدور بي شمس بدون غروب ،
وتسير في بحر الوجود سفينتي	بشراع روحي أو بخار لهيبي
وتطوف حول حبيبها هيمانةً	بجماله من غير عين رقيب
فهو القريب لهائم في قربه	ولمن جفا ونأى فغير قريب
وهو المجيب لعاشقيه سُؤلهم	ولمن طغى في الأرض غير مجيب
. . . .	. . . . الخ

محمّد هادي الدفتر

الشاعر الصحفي محمد هادي بن علي الدفتر. ولد بالبصرة سنة ١٩٠٤ ونشأ بها. وتعلّم في مدارسها. نزع منذ فجر صباه الى الأدب، فقرض الشعر وكتب المقالات وعمل في القضايا الوطنية.

وجاء الى بغداد فحرّر في صحفها. ، ثم أصدر جريدة «الدفتر» (١٩٤١) واشترك بعد ذلك في إصدار جريدة «النهار». ومضى في سنيه الأخيرة الى الكويت، فأدركه الحِمام فيها في ٨ أيلول ١٩٦٦.

عرف شاعراً أجاد في وصف الطبيعة ونظم ديوان شعر بعنوان «من وحي المصايف» (١٩٤٥). وألف أيضاً: نظرة اليقين (١٩٢٩) أمرؤ القيس وأشعاره، صفحة من رحلة الإمام الزنجاني وخطبه في الأقطار العربية والعواصم الإسلامية (في جزءين ١٩٤٧) الخ.

من شعره في قرية بنجوين:

قضى الله أن يرمي برحلي لقرية ... توهمتها خلداً فماثلها الخلد

بصوّرها فكري لعيني جنّة ... بها الحور والولدان والراح والشّهد

وقال في شلاّل:

مررت بشلال فقلت بنعته ... وقد كان مرفضّ الأفاويق ينبع

تغذّيه أثداء الجبال بدَرّها ... وترفده الوديان فيها وتترع

فتحسبه، والماء ينساب جارياً، ... تعاريج برق في سحاب يلعلع

يلجلج ما بين الجلاميد هازجاً ... بلجّته والموج للموج يقرع

فتسمع منه تارة صرخاته ... وآونة جرس الغناء يرجّع

يمدّ به نهر تلاطم ماؤه ... وينصبّ في نهر به العين تولع

وقد ثجّ من بين الشمام عبابه ... فصبّ على نهر من البرق أسرع

وغيّب أعلاه عن العين بعده ... وأظهر أدناه لدى القرب منبع

جرى مثل فجر سال من جوف ليله ... على جدول كالصّبح بالماء يلمع

يمرّ به تيّاره متدفق ... على الصخر لا يعيا ولا يتكعكع

نعمان ماهر الكنعاني

الشاعر الضابط نعمان ماهر الكنعاني ينتمي الى أسرة حسينية، ولد في بلدة سامراء في نيسان ١٩١٧. وأتم دراسته الثانوية في بغداد، فالتحق بالكلية العسكرية وتخرج فيها

ملازماً ثانياً (١٩٣٩). وساهم في حرب فلسطين سنة ١٩٤٨.

تدرّج في مراتب الجيش حتى أصبح مقدماً وأحيل على التقاعد في نيسان ١٩٥٧، ثم أعيد الى الخدمة بعد ثورة ١٤ تموز ١٩٥٨ برتبة عقيد. وأخرج من الجيش ثانية في نيسان ١٩٥٩ بعد ثورة عبد الوهاب الشواف في الموصل، فلجأ الى سورية وانتقل منها الى القاهرة. وحكم عليه بالإعدام غيابياً بتهمة التآمر على الجمهورية (أيار ١٩٦٠).

عاد الى بغداد بعد الإطاحة بحكم عبد الكريم قاسم، فعيّن مديراً عاماً بوزارة الثقافة والإرشاد (١٩٦٤) فوكيلاً لنفس الوزارة (١٩٦٧) حتى استقالته في ٢١ تموز ١٩٦٨. وقد انتخب نائباً للأمين العام لاتحاد الأدباء والكتاب العراقيين (للشؤون العامة) سنة ١٩٨٦.

مال الى الشعر والأدب منذ صباه. وقال إنه تأثر أكثر ما تأثر بأبي تمام والبحتري والمتنبّي وأبي فراس الحمداني، ومن الشعراء المعاصرين أحمد الصافي النجفي ومحمد رضا الشبيبي. ولازم معروف الرصافي في أواخر أيامه فوضع عنه رسالة «الرصافي في أعوامه الأخيرة» (١٩٥٠) بالاشتراك مع سعيد البدري.

من مؤلفاته الأخرى: شعراء الواحدة (١٩٤٥) في يقظة الوجدان (١٩٤٣) شاعرية أبي فراس (١٩٤٧) الشعر في ركاب الحرب (١٩٤٩) المعازف (١٩٥٠) لهب في دجلة (١٩٦٠) ضوء على شمال العراق (١٩٦٥) من شعري (١٩٦٦) مختارات الكنعاني (١٩٦٦) مدخل في الاعلام (١٩٦٨) من القصص الانكليزي (١٩٥٤)، الخ.

من شعره:

أطياف

سكر الليل بالسّنى والعبير ... فاستثارت ذكراك همس الضمير

وأطلت من عهدنا حائرات ... ذكريات عصيّة التعبير

يا حبيبي، أراك في رافل البدر ... سنيّ فاتناً فيشرق نوري

ويضوع الشذا فأستاف نجواك ... عبيراً من أمسنا المهجور

فرّقتنا ما فرّقت أنجم الليل ... شؤونٌ وأوغلت في المسير

عاودتني من ذكرياتك أطياف ... فحنّ الظما لذاك النمير

وتمنّت، والشوق يهتف بالحبّ، ... لياليك في شذاها الغمير. . .

يا فؤادي، ولم تعد ذِكَرُ الماضي ... سوى آهة الحنان الكسير

هل أثار الليل المضمّخ شوقاً ... لليالي عهد الصبا المغرور

وشعره في الغالب عموديّ قوميّ النزعة، وله شعر غزلي جميل. وهو معارض للشعر الحرّ الجديد، وقد قال: «إن الاستهانة باللغة تعني فقدان الأداة، والجنوح نحوالطلسمة يعني الضياع، ورسم الصورة بغير ما تحتمله من الألوان نوع من العبث المرفوض. والتجديد والخلق صفة الأصالة الشعرية».

ناجى بغداد فقال:

بغداد، يا نجوى الخيال غنّتك أحلام الليالي
يا طلعة اللألاء مُشر قةً على أفق المعالي
يا كبرياء المجد يرفل بالفتوّة والصّيال
أقسمتُ بالعزمات ما ترتدّ في الشوط الطُّوال
بسماحة الكفّ الخصيب بنشوة العفّ المغالي
تدري الحضارة أنها بكِ قد علت عرش الجمال
وروت عن المنصور لألا جيال ملحمة الجلال...

رباب الكاظمي

الشاعرة رباب الكاظمي ابنة شاعر العرب عبد المحسن الكاظمي، ولدت في القاهرة في ٢٢ آب ١٩١٧ فكانت عزاء أبيها في كبره وسلوته في شقائه، قال فيها:

رباب لنفسي زهرة طاب غرسها فلا ذبلت نفسي ولا ذبل الزهر

وقال:

فداء رباب داء قلبي ومهجتي وإنّ شفاها، لو علمت، شفائي
رجوت بقاها في الأنام، وإنما بقاء رباب في الأنام بقائي

وقال:

إذا سألوني: من رباب؟ أجبتهم هي الروح والعقل المدبّر والشعر

إن شعر الكاظمي في ابنته رباب لا يضارعه سوى شعر فكتور هوغو الذي قال يذكر ابنته مخاطباً الله:

ألا ترى، يا مولاي، إنّ أبناءنا ضروريون لنا، فحينما نرى في حياتنا، ذات صباح، وسط المتاعب والرزايا والشقاء وفي الظلّ الذي تنشره علينا يد القدر،

حين نرى ظهور طفل، رأس عزيز مقدّس، مخلوق صغير بهيج، قد بلغ من الجمال أننا نتوهم حين يأتي أن باباً قد فتح من أبواب السّماء . . . » .

نشأت رباب الكاظمي في كنف أبيها ورتعت في بحبوحة أدبه وفضله . ولم تكد تبلغ العاشرة من عمرها الرطيب حتى فقدت أمّها ، فـذاقت مرارة اليتم . وكان أبوها يرعاها بحنانه ويعلّمهـا شدو الشعر، لكنه لم يلبث أن قضى نحبـه وهي في الثامنة عشرة . وفي حزيران ١٩٣٥ دعيت الى بغداد لحضور حفلة تأبين أبيها ، فزارت لأول مرة موطن آبائها واكتحلت عيناها بمرأى شطآن الرافدين ومنائر الأئمة الذهبية ، وكانت موضع العطف والرعاية .

وعادت الى القاهرة فأكملت دراستها الثانـوية في حزيران ١٩٣٧ . وعقد قرانها سنة ١٩٣٦ على حكمت أحمد الجادرجي (المولود سنـة ١٩١٢) ، وكان مـوظفاً في المفـوضية العراقية بمصر.

والتحقت بكليـة طبّ الأسنـان في القـاهـرة سنة ١٩٤٦ ، وواصلت دراستهـا في الاسكندرية وباريس ، حيث انتقلت مع قرينها في وظائفه الدبلوماسية ، وحصلت على إجازة طب الأسنـان في العاصمة الفرنسيـة سنة ١٩٥٠ . ثم نالت شهـادة الاختصاص بأمراض أسنان الأطفـال من جامعة جورج تاون في واشنطن عاصمـة الولايات المتحدة (١٩٥٣).

وعادت أخيراً الى بغداد في آب ١٩٥٤ بـرفقة زوجها الذي أصبح مديراً عـاماً للدائرة العربيـة في ديوان وزارة الخارجية . وعينت طبيبة أسنـان في مستشفى الطلاب ، ورفعت سنة ١٩٥٥ رئيسـة لقسم طبـابة الأسنان في صحـة المعارف . ثم نقـل قرينهـا مستشاراً للسفارة العـراقية في تـونس في تموز ١٩٥٦ ، فصحبته إليهـا . وعادت معـه الى بغداد في شباط ١٩٦٢ عند نقله وزيـراً مفوضاً في ديوان الوزارة وتعيينه على الأثـر مفتشاً عاماً في السلك الخارجي .

وقد أحيل حكمت الجادرجي على التقاعـد في تشرين الأول ١٩٦٢ ، وتوفي في لندن في تموز ١٩٧٠ . وعيّنت الـدكتورة ربـاب طبيبـة للأسنـان في مستشفى الطفل العـربي ببغداد في تشرين الأول ١٩٦٤ .

شعرها :

نظمت رباب الكاظمي شعـراً منذ صباها ، ونشرت قصـائدها في المجلات والجرائد المصرية والعراقية . وقد أثبتت نماذج طيبة منـه في كتاب أدب المرأة العراقية لبدوي طبانة (١٩٤٨) وشاعـرات العراق المعاصرات لسلمان هادي الطعمـة (١٩٥٥) . ووضع عبد الرحيم محمّد علي كتاباً فيها باسم «رباب الكاظمي : دراسة وشعر» (النجف ١٩٦٩) .

إنّ شعر رباب صلة متأخرة لأدب عـائشة تيمور (١٨٤٠ ـ ١٩٠٢) ووردة اليازجي

(١٨٣٨ ـ ١٩٢٤) وملك حفني ناصف (باحثة البادية ١٨٨٦ ـ ١٩١٨) وأخواتهن من الشاعرات القديات اللواتي حملن لواء النهضة الأدبية النسائية قبل الحرب العظمى الأولى. ويكاد شعر الكاظمية يقتصر موضوعه على مطالب قومية ومصرية وشخصية مما عالجه والدها وشعراء عصره.

قالت عائشة تيمور:

بيد العفاف أصون عزّ حجابي ... وبعصمتي أسمو على أترابي
وبفكرة وقّادة وقريحة ... نقادة قد كُمِّلَتْ آدابي
ما ضرّني أدبي وحسن تعلّمي ... إلا بكوني زهرة الألباب...

وقالت رباب:

أنا الرباب في الورى ... لقولِيَ انسجام
جواد فكري مطلق ... ليس له لجام
قريحتي سيّالة ... وفكرتي سجام...

وقالت أيضاً:

أنا رباب الشاطرة ... الى الامام سائرة
بالعلم أدرك المنى ... والجدّ والمثابرة
أجدّ لا أخشى العثار ... يوم غيري العاثرة
أذود عن كرامتي ... وعن بلادي الطاهرة
من دونها لي أذن ... تصغي وعين ساهرة...
بغداد لي إذ أنتمي ... مجدي ومصر القاهرة
إن نسبوا أخلاقنا ... فهي الرياض الزاهرة
أو ذكروا أنسابنا ... فهي الشموس السافرة
إذا مشينا وقفت ... لعزّنا القياصرة
وإن بدينا سجدت ... لنورنا الأكاسرة...

وقالت باحثة البادية:

أعملتُ أقلامي وحيناً منطقي ... في النصح، والمأمول لم يتحقّق
أيسوؤكم أن تسمعوا لبناتكم ... صوتاً يهزّ صداه عطف المشرق؟
أيسرّكم أن تستمرّ بناتكم ... رهن الإسار ورهن جهل مطبق؟...

وقالت الكاظمية:

يـــــا أيّها النفـــــــر الألى فتنـــوا بـــداعيـــة الفتــــون
إنّي أســـــــــائلكـم، ومـن حـــولي البـــــلاد لها أنين:
مـــــا يصنع الجهّـــــال إن جهـل الهداة العــــــالمون؟
أجهلتـــمُ آلامنــــــــــا أم أنتُــــمُ لا تعبــــأون؟
هـــل أنتـــمُ في مــــأمـــن ممـــا لــه تستهــدفــون
هـــــلاّ أخـــذتـم أهبـــة لمطـــــــامـع المتـأهّبين
إن بعتـم استقــــــلالكـم يـــــومـــــاً فماذا تشترون؟..

وقالت:

أدبي لــــدى الأيــــام جــرمي وجــريــــرتي في الـــدهـــر علمي
أظما ولا أحظـــــــــــى بغير مـــوارد في النــــــاس تظمي
أصغـــــي الى زمنـــي وطيـــب كـــلامـــه خَـــرَقـــات كلـم
غـــــودرت بين حقيقــــــة حيرانــــــــــة أمشي ووهمي
وبقيـت مــــا بقيـت يـــد بقيـت بها آثــــــــــار وشـم
أغـــــدو على حـــــرّ الجوى وأروح في غيظـــــي وكظمـــي
يهني المجــــاهـــد غنمــــه وغنيمتـي في الجهـــد غُـــرمي
أكــــذا المصـــائر كلّهـــا إمّـــا لغـــــرم أو لغُنْـم؟

ثم قالت:

أنــــا مـن أنـــــاس كلّهـم بــــدر ولكـن عنــــد تـمّ
كـــرمـــوا ولمّا يلبســـوا لعــــداتهم جلبـــاب لـــؤم
لأبي وأمــــي أنتمـــــي والأطيبــــــــان أبي وأمّــي
أمـــــا أبي فلقــــد أبى عنـــد القـــوافي غير حكمـي
لم يـألُ جهــــداً سعيــــه فمــن المهّـــم الى الأهــمّ
ويظـــلّ في حــلّ الأخــصّ مـن المشـــــــاكـل والأعـمّ
يبكـي على أوطــــانــــه وينـــــوح في نثـــــر ونظـم
في أضلـع تـــذكـــو جـــوىً أو أدمـع في الــــوجـــد سجـم
يقضي الليــــالي حـــائراً مـــا بين إفـــــلاس وسقـم
يلقـى حـــوادثهـــا بخيـل مـن عـــــزائمـــه وبجـم
إن أثقـــل الخطـــب الملـــمّ يخفّ بــــــالخطـب الملـمّ

وكـأنّــــه في يــــومــــه　　في جنـح ليـلٍ مـــدلهمّ
فـإذا فــــررت الى حمـــاه　　فــــررت مـن همي لهمّــي . .

وربـاب الكاظمي بعـد ذلك شاعـرة وطنية مصريـة تعلقت بأهداب الـوفد وسعـد زغلول وزوجه أمّ المصريين وخليفته مصطفى النحاس وقالت فيهم خير شعرها وأصدقه عاطفة وحماسة ومودّة. قالت في ذكرى سعد:

مــا بـال لــون الشرق حــائل　　وجــوانب الــدنيــا زلازل؟
مــا للعيــون الــداميــات　　كـأنها ديـم هــــواطـل؟
مـــا للقلــــوب كـأنها،　　والــوجـد يــذكيهــا، مشــاعل؟
مــا للكنـــانـــة والخطـــوب　　طـــوارق فيهـــا نـــوازل
مـــا للقـــوافـل ذاهبـــات　　للبلى تلـــو القـــوافـل
لم أنـسَ يــــوم البين إذ　　جـــدّ النعيّ فقلـت: هــازل
حتــــى إذا الشـــكّ انجلى　　أيقنـت أن الأمـــر هـــائل
وعلمـت مـن طـــول النـــوى　　أنّ المســـافـــر غير قـــافـل

ثم قالت:

لا قـــــرّب الله الأُلى　　هضمـــوا الحقـــوق بكلّ بـــاطـل
وسطــــوا على أوطـــاننـــا　　سطــو اللصـــوص على المنـــازل
إنّ المهــــــازل جمّة　　وحيـــادهـم إحـــدى المهـــازل
خلـف الحيـــــاد تستّروا　　والقصـــد لا يخفى لعـــاقـل
ليـس الحيـــاد كما ادّعــوا　　إنّ الحيـــاد لـــه دلائل
ودليلهـم فـــرســـانهم　　في كـل ميـــدان جـــوائل
يـــا أيّها الــــرامي، أرح　　رنّـت سهـــامك في المقـــاتـل
واستبـق قـــومـك للـــزمـــان　　فهـم حصـــونك والمعـــاقـل
وهـم وقـــاك مـن البـــلاء　　وهـم فـــوارسـك البـــواسـل
النيـل يظمـأ أهلـــــه　　والعـــابثــون بــه نــواهـل
غفـل الـــزمـــان فـأدركـــوا　　حكماً ولكـن غير فـــاصـل

وقالت:

يــا بنـي مصر، رفعتـم شـأنها　　يـا بنـات النيل، زنتنّ العصـورا
هــذه الأهــرام، فليفخــر بها　　كلّ مـن كـان على الـدهـر فخـورا

جـاهـدوا أو تـدركـوا غـايـاتكم	أو تـروا العـزّ الى النيـل مشيرا
وسلـوهـم كيف كـانـوا ومتـى	كـانـت الأعجـاز في النّـاس صـدورا
سجّلـوا المجـد وأشتـات العلى	كلمات طيّبـات وسطـورا
كلمات نسّقـت أحـرفهـا	فتلـونـاهـا وروداً وزهـورا

ولقد ذهب بعض النقاد الى أن شعر رباب من نظم والدها أو من تنقيح قلمه، فقال كمال إبراهيم متحدثاً عن عبد المحسن الكاظمي أنه كان يتلو القصائد الطوال من شعر ابنته رباب وارتأى أن شعره والشعر الذي رواه لابنته كان نمطاً واحداً وروحاً واحدة ولغة واحدة لا تكاد تحّس بينهما اختلافاً. والمعتقد أن شعره ينسبه اليها، إذ كان ينشر باسمها القصائد الطويلة في الصحف المصرية، وهي لمّا تـزل في دور الطفولة. ودفع هذه الريبة نقّاد آخرون، منهم عبد الرحيم محمد علي مؤلف كتاب «رباب الكاظمي» والدكتور بدوي طبانة وغيرهما. وقال الشاعر المصريّ صالح جودت: «تأثرت بروح أبيها، لولا تلك الأنوثة الرقيقة التي تبدو في شعرها. ولكن ديباجتها العربية هي من النماذج العالية للشعراء لا للشاعرات فحسب. . . ».

إنّ عصر الشاعرة رباب الكاظمي. قد انتهى ليهلّ عصر أدبي نسائي جديد لمعت في سمائه نجوم نازك الملائكة وعاتكة وهبي الخزرجي وأميرة نور الدين داود وصواحبهنّ.

الدكتورة عاتكة وهبي الخزرجي

شاعرة الحزن والنجوى والتأمل والتقوى عـاتكة وهبي الخزرجي، ولدت في بغداد في ١٤ تشرين الثاني سنـة ١٩٢٦، وكان والدها وهبي الأمين الخزرجي ضـابطاً في الجيش التركي بـرتبة قـائممقام (عقيد) وأصبـح متصرفاً للموصـل سنة ١٩٢١ فمتصرفاً للواء ديالي. وتوفي بعد ذلك وعمر ابنته لا يتجاوز ستة أشهر.

ذاقت عاتكـة مرارة اليتم طفلـة فنشأت ميّالـة إلى الشجو والأسى. وانتمت إلى دار المعلمين العـالية فتخـرّجت فيها سنـة ١٩٤٥ وعيّنت مـدرسة للغـة العربيـة في بعض مدارس البنـات الثانـوية. وأرسلت بعـد ذلك لإتمام دراستها في جـامعة السـوربون في باريس (١٩٥٠) فحصلت على شهـادة الدكتوراه في الآداب (١٩٥٦)، وكان مـوضوع أطروحتها العبّاس بن الأحنف الشـاعر الغزلّي الرقيق، وكانت عاتكـة قد حققت ديوانه ونشرته في القاهرة سنة ١٩٥٤.

وعادت إلى بغداد فعيّنت مـدرسة بدار المعلمين العاليـة التي أصبحت فيها بعد كلية التربية، وواصلت الدكتـورة عاتكة التدريس في كلية الآداب بجامعـة بغداد. وسافرت إلى باريس في صيف سنة ١٩٧٠ للقيام ببحوث أدبية وعادت إلى بغداد بعد أمد قصير.

قال الدكتـور صفاء خلوصي في كلمته عن هـذه الشاعرة في مجلة الجمعيـة الأسيوية

الملكية الصادرة في لندن (١٩٥٠) ما ترجمته: «ان عاتكة بدأت حياتها فتاة حييّة لم تكن لتتغلب على خجلها الا حين كانت تلقي خطاباً أو تتلو بعض أشعارها. وكانت تضع الحجاب حتى في ساعات الدرس، لكنها سرعان ما تبدلت حالها ورأى العراق فيها امرأة حرة ثائرة».

نظمت عاتكة وهبي الشعر صبيّة، وكانت باكورة شعرها صرخة مدوّية تترجم عن اليتم والذّل والشقاء فقالت:

وألقت عليّ الأم نظرة أيّم	قرأت بها يتمي وتاريخ حسرتي
وكم كنت آسى إذ أشاهد طفلة	تصيح: أبي أذ يبتديها بطفلتي
فأسرع في ذلّ ويأس ولهفة	أسائل أمي إذ أغالب دمعتي:
حنانيك يا أمي، أمالي من أبٍ؟	أمالي من كفّ تكفكف عبرتي؟

وشعرها قويّ رصين التزمت فيه الطريقة العمودية الأصيلة وغلب عليه الحزن والتفجّع والألم. ونزعت إلى التصوّف فنظمت في الزهد والعشق الإلهي قصائد من عيون الشعر. وقد أشبهت الشاعرة الصحابية عاتكة بنت زيد العدوية التي رثت قرينها عبد الله بن أبي بكر الصدّيق قائلة:

فآليتُ لا تنفكّ عيني حزينة	عليك ولا ينفك خدّي أغبرا

وأعادت على طريقة العصر سيرة رابعة العدوية الشاعرة الناسكة الصالحة التي سكرت بخمرة الهيام الالهية وزهدت في الحياة الدنيا وقالت: «اكتموا حسناتكم كما تكتمون سيّئاتكم».

نشرت عاتكة مسرحية شعرية بعنوان «مجنون ليلى» (١٩٦٣) ودواوين: أنفاس السّحر (١٩٦٣)أفواف الزهر (١٩٧٦) لألاء القمر (١٩٦٥).

ان شعر الخزرجية الحزين الرقيق ليشبه في أمواجه المتضارية ونغماته الساجية شعر مارسلين ديبورد فالمور Marceline Desbordes Valmore

(١٧٨٥ ــ ١٨٥٩) التي رتلّت أناشيد الأسى والحبّ الصوفي ولواعج النفس على قيثارة الشعر الفرنسي. ولدت هذه الشاعرة في أحضان أسرة مرفّهة، لكنّ الثورة الفرنسية التي نشبت، وهي طفلة، حملت إلى آلها البؤس والشقاء. وأرسلت الفتاة إلى جزيرة الغادلوب النائية في بحار أميركة الوسطى لاستيفاء إرث عائلي، بيد أنها عادت من رحلتها المضنية أشدّ فقراً. وتوفيّت والدتها، فقست عليها الحياة، وشرّدتها، وقسا عليها الحبّ فأورثها السقم والعناء. ثم لقيت شريك حياتها في بروكسيل، فكانت مثال الزوج الصالحة والأم الحنون، وهدهدت أطفالها وأطفال فرنسة عامة بألحان شجيّة تفيض رقّة وعذوبة. ان مارسلين ديبورد التي عرفت بشقيقة الشعراء الروحية قد بلغت ـ

كما قيل ـ قمّة الشعر الوجداني بـلا تكلفّ، وكانت وسيلتها نفسها المرسلة على سجيّتها وعواطفها المرهفة. وقد ودّعها الشاعر تيودور دي بانفيل قائلاً :

«ايتها الميتّة العزيزة، التي جاعت روحها وظمأت إلى سماء اللازورد،

يا مارسلين، هل ترقدين في تربة التلّ الباردة؟

هل وجدت الهدوء أخيراً؟»

قرأت الشـاعرة الفرنسيـة قصيدة الشاعـر الفارسي عبـد الرحمن جامي الـذي سبقها بثلاثة قرون، تلك القصيـدة التي يتغزّل فيها بحبيبة مجهولة لم ترهـا عيناه واشتاقت إليها روحه عبر الأثير، فأجابته بقصيدة تقطر لوعة وتلهفاً وتشوقاً. قالت :

«حينما تتعذّر عليّ رؤياك، يرهقني الزمان وتثقل الساعة كاهلي بعبـء أنوء بحمله.

وأشعر بقلبي يذوب وكأنه يـزمع مغادرة ضلوعي، وينحني رأسي، فأشقى وانخرط في البكاء.

وحين يهتف صـوتك المدوي في قرارة ذاكـرتي، أرتجف وأصغي بلا حـراك، ويمتلك الرجاء قيادي.

وكأنّ الله يمسّ قصبة واهية، وأنا بكل حواسّي أجيب قائلة : اللّهم، فليأت!!..»

وقالت عاتكة وهبي :

أهـــــــــــواه، هـل يبغـي على	صـــــدق المحبّـــــة من شهـــــود؟
إيماض ألحاظـي واطـــــــــراقـي	وصمتـــــــــــــــــي أو جمودي
ووجيـب مــــــا بين الضلـــــوع	وحيرتي بين الشهـــــــــــــــود
مـــــولاي، رفقـك قـــــد قسـوت	ومـــــا قســـــوت على جليـــــد
زحماك هـــــــذي مهجـــــــة	وأضـــــالع لا من حـــــديـــــد
ولئـن غـــــــدوت وبيننـــــا	بحـــــر تـــــرامى إثـــــر بيـــــد
فـلأنـــت أدنـى ـ رغـــم ذاك ـ	إليّ مـن حبـل الـــــوريـــــد

وقالت :

كـن مـن تشــــاء فــــانني	لــك مـــــا حييـت ولا لغيرك
أحيـــــــــا لعليّ أن أراك	وأجتلي لألاء فجـــــــــــــــرك
يـــــا سيـــــدي، كيف السبيل	إلى سلـــــــوك أو لهجـــــرك؟
قلبـي بحبّـك مــــــــــؤمـن	وانــــــا بحبّك لست أشرك

ووصفت حبيب الخيال فقالت :

فسمـــرتـــه من سهـــوم الـــرمـــال	وطلعتـــــــه الفجـــــــر أو أنبـل
كـأن بعينيــــــــه سرّ النجـــــــوم	إذا مــــــا دجى ليلهـــــا الأليـل
وفي قــــدّه من شمــــوخ السيـــوف	معــــــانٍ بها كلّ مــــا يــــذهـل

انّ تأمّلات الشاعرة الخزرجية وشطحاتها الصوفية فيها كثير من الألم والحبّ والنزوع وسائر ما يطفح به شعر مارسلين ديبورد من الاشواق الروحية . قالت الخزرجية :

بلــــوت مـن الأيــــام كـل عظيمـــة ،	وحسبـي أنّي قــــد ولــــدت بمأتـم !
وكــــانت أغــاني المهــد لي رنّــة الأسى	ووقـع نحيب قــــد بــــرى قلب أيّـم
ولقنـت في مهـــــدي سجـل مــــآتمي	وكم هــــالني فصل الشقـــاء المجسمّ

وردّت عليهـا الشـاعرة الفـرنسيـة من وراء حُجب السنين ، بقصيـدتها «إلى اللـواتي ينتحبن» ، قائلة :

«أنتن اللواتي يتعـذّبن ، لقد اخترتكن لي أخوات ، واليكن تتـوجه أحلامي السـاجية والحلاوة المرة لدموعي المغنّاة .

ففي هـذا الكتـاب روح تكمن أسيرة . افتحن واقـرأن ، واحسبن الأيـام التي حملت لنفسي الألم .

ايتها الباكيات في هذا العالم الذي مررت به مجهولة ، احلمن على هذا الرماد واغمسن فيه قيودكنّ .

أطلقن اصواتكن في الغناء ، فألحان المرأة تشجي العذاب .

أحببن ، فالبغض يؤلم أكثر من الحبّ .

وامددن أيديكن بالعطاء ، فالصدقة تحيي الأمل ،

فمن يستطيع العطاء لا يريد الموت ! . . »

والدكتـورة عاتكـة وهبي بعد ذلك شـاعرة قـومية تكنُّ الحبّ لأمتهـا وتعتزّ بقـومها فتقول :

علمّـــــوا الأيـــــام أنّـــــا أمـــــة	تنقـل الخطـــــو على هــــذي نبـي
تستمـــــد الـــــوحي من قـــرآنـــه	ســـوراً مكتـــوبـــة بـــالـــذهب
وتــــرى الموت لــــذيــــذ المجتنى	إن دعــــا داعي القنــــا والقضُـب
وتخطّ العــــزّ في تـــــاريخهــــا	بـــــدمــــاء الشهـــداء النُجُـبِ

وتتغنّى بحبّ وطنها فتقول :

ففي أنشـــديني من لحونك مـــا يصبي ... فأنت ابنـــة الآلام والشعـــــر والحبّ
حنـــانيك، يـــا ورقـــاء، كفّي عن البكـــا ... وغنّي لحون البشر في غصنك الـــرطب
حنـــانيك، مـــا يشجيك إذ أنت حـــرّة ... تطير بك الأنســـام في العـــالم الـــرحب؟
ألا ليت لي جُنحـــاً فـأهجـــر بقعـــة ... فشا اللـــؤم فيها في الأقـــارب والصّحب
وأصعب مـــا يلقـى الفـــؤاد إذا قضت ... صروف الهوى سلـــوان حبّ إلى حبّ
وكيـف بقلب قـــــد تملّكـــــه الهوى ... فأضحى ومـــا يصغي للـــوم ولا عتب
هـــوى بقع فيهـــا زُفـــات أحبّتي ... وفيهـــا أحبّ الـــذكـــريـــات إلى قلبي
هـــوى بقع فيهـن مهـــدي ونشأتي ... ومسرح جـــدّي في الشبيبـــة أو لعبي
هـــوى بقـع فيهن قلـت قصـــائداً ... أحبّ إلى روحي مـن البـارد العـذب . . .

وتحنّ إلى بلادها فتذكر نخلها وشطآنها :

تبـــاركتِ، يـــا نخلـــة الشـــاطئين، ... ويـــا آيـــة الأعصر الخاليـــه
نهلـت الخلـــود من الـــرافـــدين ... فبـــوركت مسقيـــة ســـاقيـــة
تـــرفين في أفقك الشـــاعـــريّ ... رفيف الـــزهـــور على الـــرابيـــة
وتضفين مـن لـــونك السنـــدسيّ ... شفـــوفـــاً مفـــوّفـــة الحاشيـــة
وتسقين مـــــن خمرك المشتهـــى ... حـــلالاً من الأكـــؤس الصـــافيـــة
وفي طلعـــك النّضر كـــم تنشريـــن ... على الكـــون أنفـــاسك الـــزاكيـــة
وفي ظلّـك الـــرحب عنـــد الحرور ... وأكنـــافـــه العيشـــة الـــراضيـــة
تبـــاركت في أرضنـــا جنّـــة ... قطـــوف عنـــاقيـــدهـــا دانيـــة

وقالت من قصيدة لها تشكو الدهر:

ضللتُ، فهـل في غيهب العيش شمعـــة ... وهـل في دجى الأيـــام لمح بـــريـق؟
أنحن بعصر النـــور أم عصر ظلمـــة ... وظلم وإجـــرام وهـــدر حقـــوق؟
أدنيـــاي هـــذي خـــدعـــة إثـــر خـــدعـــة ... يُضلّ فـــريقـــا مـــن وراء فـــريق؟
أبحـــــر من الأسرار خضت غماره ... وحـــالي فيـــه اليـــوم حـــال غـــريق
إلى أين، يـــا دنيـــاي، أسري وأنثني ... أمـــا مـــال نجـم السّعـد نحـو شروق؟
ألا مـــا أغلّ الـــدهـــر، مـــا أضيع المنى، ... ومـــا أخيب المسعى بجـــوف مضيق!
أكـــاد من الأشجـــان أخفـى عن الـــورى ... وأشرق من فـــرط السّقـــام بـــريقي

من شعر عاتكة الصوفي الرقيق مقطوعة عنوانها «الطيف العاتب» قالت فيها :

الطيف يطـــرقني إذا جنّ الـــدجى   متحـــــذراً مـن رقبـــــة السمار
يختــال في بـــرد الشبـــاب كـأنّـــه   غصن يميـل بـــه النسيم السّـــاري
متـأزراً بـــالليـل ، يسري ســـادراً   بكـــؤوس تيـــه لا كـــؤوس عقـــار
والجيـــد تضنيـــه العقـــود فينثني ،   والكـفّ يلـــويها رقيـق ســـوار
فتشعبـت سبـل الحديـث ، ولا تسـل   عـن رقـــة في العتب والأعـــذار
وبلـــوعـــة مكتـــومـــة تصف الجوى   نـــاشـــدتـــه بترفّـع ووقـــار:
أتـــزورنـــا عنـــد الظـــلام هنيهـــةً   وبـــذاك فقـت كـواكـب الأسحـــار؟
ويـــروعنـــا بـــالعتب ، وهـــو جنـــايـة   أخـــرى ، وتـــرفـض أفصح الأعـــذار؟
أتجود بـــالطيـف الملمّ بنـــا دجـى   وتـــريـــد زورتنـــا بـــرأد نهار؟
والليـل يكتم كـل سرّ ســـافـــر   والصبـح يفضـح كـلّ ذات ستـــار؟
فأجـــابني والسّحـــر ملء جـــوابـــه :   إنّ الحيـــاة مطيّـــة الأقـــدار
ومضى وخلّفنـي أطـــارد في الـــدجى   قلبـــاً تشرّد في رحـــاب قفـــار

وقد حيّا الاديب الشاعر المصريّ محمّد عبد الغني حسن شاعرتنا الخزرجية فقال :

أيتهـــا الشـــاعـــرة الـــوفيـــة   في أمّـــة نبيلـــة سريـــة
عـــاشقـــة للمجـــد والحريـــة   ليـس عجيبـــاً هـــذه الحميـــة
والعـــزّة الغـــاليـــة الفتيّـــة   وهـــذه الخلائق الـــرضيـــة
فـأنـت في أشعـــارك الطليّـــة   وأنـت في ألحانـك السحـــريـــة

عـــاتكـــة ، وأنت خـــزرجيـــة !

وقال أحمد حسن الزيات : «ان الينابيع الصافية الثرة التي ارتوى على فيضها واغتدى على جناها شعر الدكتورة عاتكة هي : الله والطبيعة والنفس . والينبوع القدسي هو أندى على كبدهـا وأروى لشعـورهـا من الينبـوع النفسي والينبـوع الطبيعي لأنها حين تصف النفس أو تصور الطبيعة يتمثل فيهـا بـديع السموات والأرض الـذي أحسن كل شيء خلقه ومنح كل جميل جماله . . .

«ان الشبابـة من قصب ، ولكن اللحن من نار، فكلما نفخت فيهـا من روحها ذاب قلبها في حبّهـا ، فتئن أو تحنّ أو تشكو أو ترجو أو تثـور بألفاظ منسّقة كالنغم ، مـونقة كالزهر، منمقة كالوشي ، تسري فيها المعاني الشاعرة سريان النشوة في الرحيق أو الفوحة في الطيب . فأسلـوبها نسق مطّرد من الفكـر والخيال والعـاطفة ، يصقلـه طبع وذوق ،

ويقوّمـه درس واطــلاع . . . »

تحدّثت عـاتكـة وهبي الخزرجي فقـالـت انها تستمـد موارد أدبها من الشعـر العـربي الأصيل قـديمه وحـديثه، وان اساتـذتها فيها كثـر أولهم البحتري. وهي معجبـة أشدّ الاعجاب بالشريـف الرضيّ وأحمد شوقي. وقد مارسـت النقد الأدبي والقصة القصيرة. وعلى الرغم من اطلاعها الواسع على الآداب الغربية، لم تخرج على نظام القصيدة العربي القديم.

قال عنها خالد القشطيني إنها شاعرة محافظة فكـراً واسلوباً، وقد التزمت بالأشكال الكلاسيكيـة للشعر العربي، ودعت إلى التمسّك بالقيم الإسـلامية والتقاليد العـربية. وقال: «ومما يذكر انها حين تمضي إلى القاهـرة، وكثيراً ما تزورها، تقيم في دير وتمتنع عن النزول في محلّ أكثر ترفاً».

وقال انها بـالرغم عن حبهـا العميق لبلادها وشعبهـا ودينها وثقافتهـا وتقاليـدها لم تستطع عـاتكة إلاّ أن تشعـر بشعـور الخيبة، شـأن سائر المثقّفين المعـاصرين للضعف والنقص اللـذين يتسـم بهما المجتمع الجديـد. وقـد عبرت عن هــذا الشعـور مـراراً في قصائدها.

كمال عثمان

الشاعر الضابط كمال عثمان ولد في بغـداد سنة ١٩٠٧ لأسرة كردية أربيلية الأصل. وقد انتمى إلى المدرسـة العسكريـة فتخرج فيها مـلازماً ثانيـاً (١٩٢٧). وكان ضـابطاً خيـالاً، فدخل في دورة طيران لأجل الانتقـال إلى القوة الجويـة، لكن طيارتـه الصغيرة سقطت به وهو يقودها في أثناء التدريب، فأصيب بعطل في رجله وأحيل بعد ذلك على التقاعد برتبة مقدم سنة ١٩٤٧.

له شعر رائق وخطّ جميل، (لا يزال حياً، ١٩٨٨)

لازم المقدم كمال عثمان الاب أنستاس مـاري الكرملي سنوات طويلة ورثاه عنـد موته بقصيدة مطلعها:

شقّ «اللســـان» عليـك جيب بيـــانــه ‏ ‏ ‏ ونعــــاك فـــانصـــدع العلى بكيـــانـــه
والـــرافـــدان تـــوجّـــدا وتشـــاكيــا ‏ ‏ ‏ هـــذا بحـــرقتـــه وذا بحنـــانـــه . . .

كان قومياً في نزعته صوفياً في مشربه.

أخبرني كمال عثمان انه، عند تخرجّه من المدرسة العسكرية ضابطاً صغيراً، أرسل إلى

الموصل. وكان شهر رمضان فكلف بالإشراف على اطلاق مدفعي السحور والفطور.

سهر ليلتين أو ثلاثاً لإطلاق مدفع السحور في وقته المعين. وقال له العريف:

يا سيدي، لماذا ترهق نفسك بالسهر؟ ألا تعتمد عليّ، وقد خدمت في الجيش أعواماً، للقيام بهذه المهمة على وجهها الصحيح؟ واقتنع الملازم الشاب بكلامه، فأوصاه بالاهتمام وتدقيق الوقت ومضى إلى فراشه. وفيما هو مستغرق في نومه شعر بدوي المدفع فاستيقظ مذعوراً وفرك عينيه. ماذا؟ كانت الشمس ترسل أشعتها وقد طلع الصباح منذ ساعات. فاستدعى العريف وأنبّه وقال له: كيف تطلق المدفع في هذا الوقت؟ فأجابه: انني غفلت عن اطلاقه في وقت السحور، وخفت أن تبقى لدينا قذيفة زائدة فتداركت الأمر!

وهبّ أهل الموصل مستنكرين اطلاق المدفع في غير أوانه، فأحيل كمال على لجنة تأديبية قضت بتغريمه راتب عدة أيام والإيعاز بنقله إلى وظيفة أخرى.

أخبرني كمال عثمان ان اباه عثمان بك كان ضابطاً في الجيش التركي من أقران صبيح نشأت. ولما أنشئت الحكومة الوطنية في العراق عرضت عليه مناصب مختلفة، لكنه رفضها اعتقاداً منه بأن الأتراك سيعودون.

وقد أنفق كلّ ما يدّخره من مال وقاسى شظف العيش حتى قضى نحبه وهو لايزال يأمل عودة الحكم التركي.

وأخبرني كمال عثمان انه، حين تقدم لأداء الامتحان النهائي في المدرسة العسكرية تعطل فكره فجأة وصار يدرس يومه وليله فلا يعي شيئاً من درسه. ودلّه بعض أصحابه على شيخ ذي كرامات، فذهب إليه وحدثه بما كان من شأنه، فكتب له ورقة فيها اسم الله وقال له: اشتر كعكاً واغمس قطعة منه في الماء مع هذه الورقة وكله فينتعش فكرك. وفعل كما أوصاه الشيخ وأقبل على الدرس، فإذا به يفهم الموضوع بسهولة. وأدى الامتحان فكان النجاح حليفه.

فؤاد عبّاس

من رجال التربية والأدب، وهو محمد فؤاد بن عباس حبّابة بن محمد حسن ولد في دلتاوة التي تعرف الآن باسم الخالص سنة ١٩١١ ودرس في دار المعلمين الابتدائية في بغداد. وعيّن معلماً في بعض المدارس الابتدائية في تشرين الأول ١٩٣١ فتنقل في مدارس بغداد والبصرة والناصرية. ثم أوفد في بعثة حكومية لإكمال دراسته في الجامعة الأميركية في بيروت (١٩٣٣) فنال شهادة البكالوريوس في التربية سنة ١٩٣٨.

عاد الى بغداد فتنقل في الوظائف التعليمية مدرساً ومديراً في المدارس المتوسطة والثانوية حتى عيّن سنة ١٩٦٠ مفتشاً للّغة العربية في وزارة المعارف. وأحيل على التقاعد سنة ١٩٧٣ . وقد نظم شعراً رقيقاً منذ أيام دراسته في بيروت، لكنه اشتهر محدّثاً لبقاً في الإذاعة والتلفزيون وعرف بأدبه وسعة إطلاعه وحلو فكاهته. قال الدكتور صفاء خلوصي: «كان فؤاد أميل الى الحديث والخطابة الارتجالية البليغة منه الى الكتابة والتأليف . . . ولعلّ لسحر صوته الذي لا يمكن أن يدوّن على قرطاس أثراً في هذا المنحى الذي انتحاه».

توفي ببغداد في ١٠ أيار ١٩٧٦ .

من شعره: من قصيدة «رأس بيروت»:

تهادين من كل الجوانب كالقفر[1] ... على رأس بيروت الى ساحل البحر

كواعب أتراب كأنّ وجوهها ... يفيض بها ماء الملاحة والبشر. . .

خرجن ليستروحن طيب نسائم ... ويشخصن بالأبصار في مسرح الفكر

وفي جانب منهن شيدت مساكن: ... قصور وأكواخ لمثرٍ وذي فقر

فثمّة قصر قائم شامخ الذرى ... وثمة كوخ جاثم واطىء الجدر

وبالقرب منه دوحة قام فوقها ... حمام بوكر كم شجى النّاس بالهزر

وقد طرزت أيدي الربيع ونمّقت ... بساطاً من الريحان والعشب والزهر

وفي جانب منهنّ بحر وشاطىء ... عليه من العشاق طير بلا وكر. . .

وله:

وفتاة لا أقصد الشمس، لا بل ... فضلتها بقامة وبجيد

أرأيت الغزال يبدي نفوراً، ... أرأيت انعطافة الأملود؟

ما ائتلاق الياقوت من شفتيها، ... ما الثنايا بلؤلؤ منضود

تلك أحياء، هذه جامدات، ... أفحيّ كميّت ملحود؟

لبست مثل طهرها حلّة بيضاء ... تزري بناصع من جليد

وبدت والدلال يعبث فيها ... كجناح الملاك عند الصعود

يثب النهد تحتها، أسجين ... باذل جهده لكسر القيود؟

أم كقلبي لما دنت وتدلّت ... بعد حرّ الجوى ومرّ الصدود. . .

---

(١) لم أعرف ماذا يقصد بـ القفر ولعله يريد قفير النحل أي خليته (وهي عامية).

ورثى جعفر الخليلي فؤاد عباس فقال:

نم، يـا فـؤاد، فقـد والله عـزّ على نفسي منامك، لكن ما الـذي بيـدي؟
إن ضـاق صـدري ولم تسكـن لـواعجـه لأنّ كـلّ صـديـق راح لم يَعُـد

وقال الخليلي إن لفـؤاد عباس في مكتبـة تسجيلات الإذاعـة والتلفزيـون وفي أشرطة الأندية ما يؤلف خمسين مجلداً أو أكثر لو أردنا أن ننقله على الورق.

حسين مردان

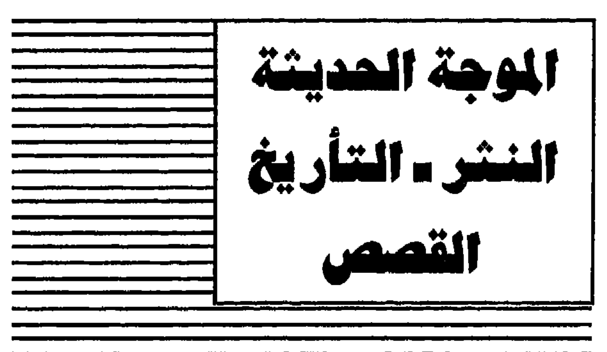
شاعر البـؤس والحرمان ورائد الأدب المكشوف، ولد حسين مـردان في بعقوبا لأسرة كردية الأصل سنة ١٩٢٧. وانقطع عن الدراسة صبياً، فجاء الى بغداد وعمل في حقل الصحافة سنة ١٩٤٧. طبع أول مجموعة شعرية له سنة ١٩٤٩ بعنوان «قصائد عارية» فجاءت تعبّر عن نفسه القلقة المحـرومة التي تضطرم فيهـا الشهوة وتعتلج بـالعواطف الهائجة. وعقبهـا بمجموعات نرى فيهـا لفحات تذكـرنا بأزاهر الشرّ للشاعـر الفرنسي شارل بودلير. وقد حوكم حسين مردان سنـة ١٩٥٢ بسبب ما سمي بالبذاءة في قصائده العـارية كما حـوكم بـودلير في بـاريس في منتصف القرن التـاسع عشر بسبب أشعـاره المتحررة. وقضى شاعرنا أمداً في السجن ضريبة أدبية فرضت عليه.

عاش شاعرنا بائساً يتبلّغ براتب ضئيل يدرّه عليه عمله في الصحف مخبراً ومحرراً حتى أدركه الحمام في بغداد في تشرين الأول ١٩٧٢.

قال الدكتـور داود سلّوم «إن مادة «قصائد عارية» و «اللحن الأسـود».. قد أثارت بعض النقاد من ذوي المقـاييس الخلقية وبعض المحافظين من رجال الـدين والحلقات الاجتماعيـة. وإن مقاسـاة حسين مردان في حقلـه ومقـاساة الآخـرين في حقول أخـرى مختلفة يظهر فيه تحديد الحرية في التفكير والتأليف للذين يريدون أن يقولوا ما يرغبون أو يعتقدون أنه الحقيقة».

وقال الدكتور سلوم أن حسين مردان بالـرغم من جرأته في الموضوعات الشعرية التي عالجها لم يتحرر من الوزن القديم والقافية المتكررة إلا في مواضع قليلة.

مؤلفاته: قصـائد عارية (١٩٤٩) عزيزتي فلانـة (١٩٥٢) نشيد الأنشاد (١٩٥٥) هلاهل نحو الشمس (١٩٥٥) الربيع والجوع، مقالات في النقد الأدبي (١٩٥٥) رسالة من شاعر الى رسّام (١٩٥٦) الأرجوجة هادئة الحبال، طراز خاصّ، العالم تنّور.


الموجة الحديثة
النثر - التأريخ
القصص

عبد المسيح وزير

عبد المسيح جبر وزير ولد في ماردين سنة ١٨٨٩ ، ودرس في مدارسها ، ثم تخرج في كلية عينتاب الأميركيـة وأتقن اللغتين العربية والانكليزية . وقد عمل مـدرساً في ماردين ولبنان ، وكان محرراً لمجلة مدرسة التهذيب في الشويفات (١٩١٣) . ثم رحل الى مصر عند نشوب الحرب واشتغل مترجماً فيها .

وجاء الى العـراق فعيّن مترجماً في وزارة الدفاع (شباط ١٩٢١) ، وسميّ مـديراً لقسم الترجمة بها في آب ١٩٣٣ . وقـد خدم في هـذه المهمة أكثـر من ٢٢ عامـاً ، ووضع آلاف المصطلحات العسكـرية بـاللغة العـربية ، وألف قـاموسـاً عسكريـاً باللغتين العـربية والانكليزية أصبح مرجعاً في بابه .

وتوفي ببغداد في ٢٠ أيلول ١٩٤٣ .

كـان عبد المسيح وزيـر أديباً عـربيـاً لطيف الأسلوب ألف روايـات ، مثل «الصنم المحطّم» ، وأنشأ بحـوثـاً ومقالات كثيرة . وتـرجم الى اللغـة العـربيـة طرفـاً من الشعـر الانكليزي والعالمي ، كـ «ريفيّات» فرجيل شاعـر اللاتين وأشعار طاغور ، وكتاب عبد الرحمن الناصر (١٩٣٩) ، وخواطر طاونزند أو محاربتي في العراق (١٩٢٣) .

ومن مترجماته أيضاً شريعة حمورابي ، ورواية القيصرة في مقصورتها لوليم ليكيو نشرتها جريـدة العراق البغداديـة تباعـاً (١٩٢٣) ، وكتاب الثورة العـربية من تـأليف ت . أ . لورنس (طبعت منه كرّاستان فقط) .

وكتب في مـوضـوعـات متنـوعـة بحـوثـاً نشرتها المجـلات والصحف العـراقيـة كمجلة الحرية ، منها مقالاته عن نظرية اينشتين والذرّة الخ .

وطبعت قصّتـاه «الصنم المحطّم» و «عجـوز تتصـابى» في مجلّـد صـدر سنـة ١٩٧٢ . ونقل مع مسـاعديه في وزارة الـدفاع عـدداً عديداً مـن الكتب الفنيّة ، ونهض بعبء سبك المصطلحات العربية التي تناظر المصطلحات الغربية في الفنون الحربية .

وكان في طليعة المترجمين الذين رافقوا فجر النهضة العراقية في المائة العشرين ، فأحيوا

في بغـداد بعـد ألف ونيّف من الأعـوام عهـد يـوحنا بن مـاسـويـه وحنين بن إسحـٰق وأضرابهما من مترجمي عصر الـرشيد والمأمـون. و «صنـاعة المترجـم» ليست بالهيّنـة ولا اليسيرة»، وقـد عرّفهـا وزيـر نفسه في محاضرة ألقـاهـا في نادي القلـم العراقي، قـال: «فالترجمة والمترجمون كانوا ـ ومـا يزالون ـ عماد كل نهضة علمية ثقافيـة قائمة على ناموس تفشّي الثقافات باقتباس كل أمة ممّـا عندها من عناصر العلم والفنّ والحكمة والأدب، فضلاً عن عناصر السلوك والعادات وغيرها . . .»

ثم قال: «وأقـول في الترجمة: لا يعرف انسـان حلو الترجمة ومرّها إلا من يعـانيها، فهي صنـاعـة وفنّ في غايـة الـدقّـة. والمترجم كـالشاعـر والأديب والمصـوّر والموسيقيّ والفيلسوف والرياضيّ والمهندس مخلوقة قابليته معه لا مختلقة، هذا فضلاً عما تقتضيه له صناعتـه من الاطلاع الـواسع مع العلم الغزير بلغتـه واللغة التي ينقل منهـا أو إليها. والمترجم الحقيقي فيـه ذوق الفنّان ودقـة الـرياضي واطـلاع المؤلف. وليس كلّ من نقل نبذة أو كتاباً من لغة الى أخرى عدّ مترجماً، بل المترجم هو الراز الفرد والمهندس النابغة ـ راز اللغة التي ينقل اليها ومهندس صرح الأفكار التي يصبّها في قوالب الكلام . . .».

وقد كان عبد المسيح وزيـرا معروفاً بالذهول وشرود الـذهن. فمن النوادر التي تروى عنه في هـذا السبيل أنه وقف صباح أحد أيـام الجمعة على باب داره، وهو في مبـاذله، فـرأى عـربـة تمرّ في الشـارع، فما كـان منـه إلا أن استـوقفهـا وركب مشيراً الى الحوذيّ بالذهاب الى وزارة الـدفاع. ونظر الحوذي اليه ملياً، ثم قال ضـاحكاً: «وماذا تفعل في وزارة الدفاع، يا أستاذ، واليوم جمعة، وأنت لم ترتدِ ملابسك؟ . . .».

وانفضّ إجتماع نـادي القلم ذات مساء، وكـان يعقد في دار بعض أعضـائه، فقام عبد المسيح وزير يهمّ بالخروج ورأى كتباً على الأريكـة، فقال ضاحكاً: من نسي كتبه، يا سادة؟ وظهر بعد التحقيق أنها كتبه، ولم يفطن أنها له.

وروى خيري العمري أنه دخل ذات مرة الى وزارة الدفـاع قاصداً مكتبه، لكنه دخل الى الغرفة المجاورة، وكـانت غرفة مدير الأمور الطبيـة، فجلس الى المنضدة. واستغرب وجود الآلات الطبيـة والأدوية، فـاستدعى الحاجب وصرخ في وجهـه يسأله عـن كتبه وقواميسه.

وليس من ريب أن عبـد المسيح وزيـر لـو أدرك عهـد الكـاتب الفـرنسي لا بـرويير (١٦٤٥ ـ ١٦٩٦) صاحب كتـاب «الطبائع» لسلكه في عداد أبطاله: فقـد حدّثنا هذا الكـاتب الشهير عن «مينـالك» عنوان الـذهـول الذي يهبط سلالم داره ويفتح البـاب ليخـرج الى الشـارع فيجـد نفسـه في مـلابس النـوم وقـد حلق نصف لحيتـه فقط . . . ويبحث عن قفـازه وهـو يحمله في يده. ويـدخل الى إحـدى المقـاصير فيتعلّق شعـره المستعار بـالثريا التي يمـرّ تحتها، فيضحك مع الضاحكين ويبحث عن الـرجل الذي يكشف عن صلعه ولا يفطن أنه هو نفسه ذلك الرجل، وهلم جراً.

* * *

دبّت المنافسة والتنابز بين عبد المسيح وزير والأب أنستاس ماري الكرملي، فكانت موضوع حديث المحافل الأدبية سنين طوالاً. وقال الأب إن عبد المسيح وزير لا يحسن الترجمة وهجاه هجاءً مقذعاً مراً حتى في بعض الفهارس السنوية لمجلة لغة العرب في عهدها الأخير. أما وزير فقد عرّض بالأب في محاضرة له ألقاها في نادي القلم العراقي فقال:

«وقبل سنوات نشرت مجلة في بغداد اشتهر صاحبها ومنشئها في العالم العربي بكونه علماً من أعلام اللغة العربية واشتقاق مفرداتها مقالاً طويلاً يبحث في ضرورة الألعاب الرياضية للأمة. وفي معرض البحث استشهد الكاتب بولع الانكليز بالرياضة البدنية، فقال إنّ شغف الأمة الانكليزية بالألعاب الرياضية حملها على تخصيص يوم جعلته عيداً قومياً سمّته «يوم الملاكمة». ونشر الكاتب الأصل الانكليزي مع هذه العبارة وهو Boxing day! ولكن المسكين فاته أن المراد بهذا اليوم ليس «يوم الملاكمة» بل «يوم الهدايا»، وهو عند الانكليز أوّل يوم في الأسبوع بعد عيد الميلاد يقدم فيه أصحاب البيوت الهدايا الى مستخدميهم وسعاة البريد وغيرهم. فنبّهت حينئذٍ صاحب تلك المجلة على غلطته الفاحشة، فأصلحها معتذراً في العدد التالي من مجلّته».

ذكر رفائيل بطي أن عبد المسيح وزير نشأ في جوّ مشبع بتعاليم الكتاب المقدّس فكان ذلك مردّ خلقه الوادع اللطيف. إلاّ أن إدمانه قراءة أصحاب العقول الثائرة والمتشككّة من الفلاسفة وسّع آفاق ذهنه وأنشأ في رأسه هذا الصراع المشبوب بين الشكّ واليقين.

ثم قال: «وقد غنمت الثقافة العسكرية العربية من مساعيه وكفايته وعلمه وانكبابه آناء الليل وأطراف النهار على التنقيب والتحقيق والبحث في المعاجم ودواوين اللغة والأسفار العربية والانكليزية هذا «المعجم العسكريّ» البكر في اللغتين. . . » وقال عن أسلوبه الكتابيّ: «ونهجه أن يكون الأدب أرستقراطياً يصون فنونه عن الاسفاف والابتذال. . . ». وقال: «أما طريقة عبد المسيح في الترجمة فدقة في النقل ومتابعة الأصل بما يقرب من الترجمة الحرفية، مع مراعاة الفروق في التعابير بين اللغتين وعناية بالغة بفصاحة المفردات وإفراغ العبارة في ديباجة مشرقة وتركيب محكم».

كان عبد المسيح وزير ينفق راتبه بسخاء وقد أثر عنه أنه لا يدّخر شيئاً من المال. وجرت المناقشة ذات يوم في نادي القلم بشأن بناء عمارة للنادي، فشكا الأعضاء أن الحكومة لا تمنح أية إعانة لهذا الغرض.

فقال عباس العزّاوي؛ أقترح أن نستلف المبلغ اللازم للبناء من عبد المسيح وزير.

فردّ عليه وزير قائلاً: إن جميع ثروتي تحت تصرّف النادي. وأضاف ضاحكاً: يحقّ لنادينا أن يعتزّ بكنزين: ثروة عبد المسيح وزير وجمال عباس العزاوي!

وقد سمّى عبد المسيح وزير ابنته إيَنس باسم قدّيسة إسبانيّة معروفة. وكانت تربطه صداقة وثيقة بمعروف الرصافي، فقال في الفتاة إينس أو ـ كما سمّاها ـ إيناس:

إخـــــــال بيتــي، لمّا جئـتِ زائرةً،	كـأنّ وجهك فيـــــه نـــــور نبراس
كـم أوحشتني الليـــــالي في تصرّفهـــا	فـــزال إيحاشهـــا عنّي بـإينـــاس
أدامك الله، يـــا إينــــاس، تــذكــرة	لــوالــد فــات فضــلاً كلّ مقيــاس
قــد كــان يأســو جـروحـاً فيَّ داميــةً،	واليـــوم عنـــدي جـــروح مــا لها آس

عرفت عبد المسيح وزير، وأنا في مطلع الشباب، وأفدت منه فوائد جمّة. وقد أطلعته على ترجمة لي عن الانكليزية، فنبّهني إلى أمـور تتعلق بصميم نقل أسماء الأعلام ومعاني الجمل الخاصة بكـل لغة. من ذلك أنني كتبت اسم حـاكم فلسطين الرومـاني في عهد السيّد المسيح «بـونطيوس بيلاطس» كما جـاء في اللغة الانكليزية، فقـال لي: اسمه في العربية: بيلاطس البُنْطي نسبةً الى بُنْط بالضمّ (أو بونط) وهو الجسر.

وحدث بعد عدة أعوام، قبيل وفاته، أنني وجدت منه شيئاً من الجفوة، فاستغربت الأمـر لأنني لم أعلم بصدور أي تفـريط في حقّه من جـانبي. ثم عرفت السبب: كـان مديـر الأنواء الجوية الانكليـزي قد رغب في ترجمة كتـاب في هذا الموضوع الى العـربية، فكلّم الأب أنستـاس ماري الكـرملي الذي قـال له: إنّ خير من يقـوم بهذه الترجمة مير بصري، أما عبد المسيح وزير فلا يفقه شيئاً لا من العربية ولا الانكليزية. وقد راجعني هـذا الانكليزي في غـرفة تجارة بغـداد، فاعتـذرت عن ترجمة الكتـاب لكثرة مشـاغلي، وقلت له: إن عبد المسيح وزيـر شيخ المترجمين، فإذا وافق على تولّي الترجمة فقد ربحتم ربحاً عظيماً.

وأفهمت عبـد المسيح وزير بما جـرى، فسرّ بما كان وعـادت صلاتنـا الى الصفاء لا يعروها كدر.

قال الدكتور طه حسين:

«. . . إن الناقل ملزم حينئـذٍ أن يكون من القدرة والكفايـة بحيث يستطيع أن يقوم مقام المؤلف الأول، فيشعر بقلبه ويحس بحسّه، ويرى الأشياء بتلك العين التي رأى بها المؤلف، ويصفها بهذا اللسان الـذي وصفها. فإنّ الترجمة في الفن والأدب ليست وضع لفظ عربي موضع لفظ أجنبي، إذ الألفاظ شديدة القصور عن وصف الشعور في اللغة الطبيعية، فكيف بها من لغة أخرى؟ إنما الترجمة الفنية والأدبية عبارة عن عملين مختلفين كـلاهما صعب عسير: الأول أن يشعـر المترجم بما شعـر به المؤلف وأن تـأخذ حـواسّـه

وملكاته من التأثر والانفعال نفس الصورة التي أخذتها حواسّ المؤلف وملكاته إن صحّ هذا التعبير. والثاني أن يحاول المترجم الإعراب عن هـذه الصورة والإفصاح عن دقائقها وخفاياها بأشدّ الألفاظ تمثيلاً لها وأوضحها دلالة عليها .

وخـلاصة القـول إن المترجم يجب أن يجتهد مـا استطاع، لا في أن ينقل إلينـا معنى الألفاظ التي خطتها يد المؤلف، بل في أن ينقـل إلينا نفس المؤلف جليّة واضحة، نتبيّن فيها من غير مشقة ولا عناء ما أثر فيها من ضروب الإحساس والشعور» .

جواد الدجيلي

المحـامي الكاتب الأديب الشيخ جـواد بن حسين الـدجيلي، أخو الشـاعر كـاظم الدجيلي، ولد بجانب الكرخ من بغداد سنة ١٨٨٨ . درس علوم العربية والفقه، حتى إذا مـا نشبت الحرب العظمى سنـة ١٩١٤ ، لجأ الى البصرة وعمل معلماً في مـدارس أبي الخصيب والناصرية . وعـاد الى بغداد فزاول التعليم حيناً في عهـد الاحتلال البريطاني . ثـم سافـر الى الهند فتنقل في أنحائها زهـاء ثلاث سنوات، وكتب في أثنـاء ذلك مقالات عن شؤونها ومللها ونحلها في مجلة المقتطف المصرية (١٩٢٠) . وذهب الى مصر فحضر الدروس في جامعتهـا، ثم عاد بعد سنة الى بغـداد ووظّف في وزارة العدلية . وانتمى الى مدرسة الحقوق سنة ١٩٢٤ وتخرّج فيها (١٩٢٧) ومارس المحاماة .

كتب مقالات كثيرة في الصحف العراقية في الأدب والاجتماع، أهمها سلسلة مقالاته في جـريدة «الاستقـلال» بعنوان «الانسـان همجيّ الطبع : لا تـوجد أخـلاق وإنما هي حـاجات» (١٩٢٧) .

وقد كان في مبدأ أمره متديّناً متـزمّتاً، ثم وقعت في يده مؤلفات الدكتور شبلي شميّل وفرح أنطون وغيرهما من رجال النهضة الحديثة في مصر ولبنان، فمال الى حرية الفكر.

أدركته الوفاة ببغداد في ٢١ آذار ١٩٥٩ .

كان غريب الأطوار، مسالماً صريحاً بعيداً عن المجاملة، متقشّفاً في معيشته، متهاوناً في شأن نفسـه، سمحاً حلو الفكـاهة يتقبّل دعـابة أصـدقائه القـاسية بـرحابـة صدر وسلامة طويّة . وكان الى ذلك دؤوباً على المطالعة، وقد اعتاد السير على قدميه ساعات طويلة كلّ يوم للرياضة والتفكير، ولم ينقطع عن تلك العادة الى سني شيخوخته .

رثاه أخوه الشيخ كاظم الدجيلي بقصيدة، قال منها :

قضـى نحبـــاً وآل الى الخمـــود وســـــاوى الميّتين مـن الجدود
ونـــام بقبره نـــومـــاً عميقـــاً وأضحـى لا يفيق مـن الـــرقـــود
وشيّعنـــاه بـــالعبرات حـــرّى وقـــد تهمي الـــدمـــوع على فقيـــد

وعـــدنـــا منــــه نـــذكـــره بخير وشرّ مـن قـــــريـب أو بعيــــــد
وكـــــان أسير جيلـــــه في هـــــواه وفي رأيٍ لعـــــالمه جـــــديـــــد
يــــرى في جيلـــــه مكــــراً وختـــــلاً وبهتـــــانـــــاً ونقضــــاً للعهــــود
وديـنـــاً ليـس فيــــه ســــوى ريــــاءٍ وجهـل بــــالعبـــــادة والحدود
يـــــرى بــــالموت للعـــــاني نجـــاة إذا مـــا ظلّ يـــرسـف في القيــــود
كثير الظـــنّ سيّئـــــــــه يباري بما عنــــــد المقلّــــــد مـن جمود
قضـى الأيّـــــام في دنيـــــاه يسعـى لمعـــرفـــة الحقيقـــة في الـــوجـــود
وأسعـــــــده التبتّـل في حيـــــاة خلت منهـــا السّعـــادة للـــوحيـــد
ففــــارقهـــا ولم يحسب حســـابــاً لأخـــراه ولا يــــوم الـــوعيـــد
ولم يـأسف على الـــــدنيـــا بشيء ولم يـــؤمن بفلسفـــة الخلـــود. . .

وهو رثاء أخ لأخيه نادر المثيل، خالٍ من العاطفة، فلسفيّ النزعة، واقعيّ السّمات.

روى جعفر الخليلي في كتابه «هكذا عرفتهم» (الجزء الثالث) عن الشيخ جواد الدجيلي أنه كان معروفاً برحابة الصدر والسذاجة وحرية الفكر، قليل الإيمان بالأديان وفلسفة الوجود. واستغلّ زملاؤه المحامون وأصدقاؤه المقرّبون طيبته وبساطته فراحوا يداعبونه وينسبون إليه على سبيل الفكاهة مالم يقله ولم يفعله. وزعموا أنه وقف يوماً أمام المحكمة يدافع عن متّهم بالقتل. وعرضت البندقية التي أطلق منها الرصاص، فقال الدجيلي: إن هذه البندقية التي يقدّمها الإدعاء العام أداة إثبات للجريمة ليست إلا حديدة لا ينطلق منها الرصاص.

وظلّ الدجيلي يؤكد ويكرّر البندقية عاطلة، فقرّر الحاكم تجربتها على الفور في ساحة المحكمة ووضع فيها الرصاص، وضغط على الزناد، فانطلقت الرصاصة وأصابت السقف.

قال الحاكم: والآن ماذا تقول؟

فاعتذر الدجيلي وقال: كنت أحسب البندقية عاطلة!

هـذا وقد رأيت الشيخ جواد الدجيلي في بعض الأماسي يسير متمهلاً في شارع أبي نواس على شاطىء دجلة وهو يأكل خبز شعير. فسلّمت عليه وقلت له مداعباً: كيف تأكل في الطرق، أيّها الشيخ؟ إن شهادتك لن تقبل إذا رآك الناس. فقال: أرجو أن لاتقول لأحد. . . أرجوك. . . ثم شاهد كلباً يجري فناداه: يا أخي، يا أخي! وأعطاه كسرة من الخبز.

كان جواد الدجيلي حرّ الفكر كما تدل عليه كتاباته وأحاديثه . قال له عباس العزاوي ذات يوم :

إنك لا تدين بدين أو مذهب فلماذا تتمسك بطائفتك الشيعية وتتعصب لها؟

قال الدجيلي : إن المجتمع العراقي لم ينصهر في بوتقة وطنية ولا تزال طبقاته منتمية الى الأديان والمذاهب . فإذا تركت طائفتي نبذتني ولم تقبل بي الطوائف والمذاهب الأخرى ، ففقدت قاعدتي الاجتماعية .

عبد الرزّاق الحصّان

الكاتب العربي القومي عبد الرزاق بن مجيد بن حميد الحصّان الكرخي ، ولد في بغداد سنة ١٨٩٥ ، ودرس في المعاهد القديمة ثم أقبل يطالع أمّهات الكتب وينهل من موارد الثقافة العربية حتى أصاب حظاً وافراً من اللغة والتاريخ . ومارس تجارة الخيول في الهند ، وهي ـ كما قال سليم طه التكريتي ـ حرفته التي اشتقّ منها لقبه ، فتعلّم شيئاً من اللغة الانكليزية .

وأضاف التكريتي قائلاً : «ولقد دفعه حبّه لعروبته الى أن يساهم في الحركة العربية في مطلع القرن الحالي وأن يوثق علاقاته مع روّاد تلك الحركة سواء في الاستانة عاصمة الخلافة العثمانية أم في العراق» .

مال الى الصحافة بعد الحرب العظمى وإقامة الحكم الوطني في العراق فكان من كتّاب المعارضة في جريدة الاستقلال . ثم رئس تحرير جريدة صدى العهد الصادرة في ٧ آب ١٩٣٠ ، ولم يلبث أن تخلّى عنها . وعمد الى إصدار كتب ورسائل شديدة اللهجة أثارت المشاعر فحوكم سنة ١٩٣٣ إثر صدور كتابه «العروبة في الميزان» وأودع السجن أشهراً .

وواصل إصدار كتبه ونشر مقالاته ، داعياً الى التربية القومية والأخلاق الإسلامية ، ومنادياً بالوحدة العربية ، ضارباً الأمثال بخالد بن الوليد وسواه من أبطال العروبة والإسلام ، منـدّداً بالشعوبية التي تنتقص من مآثر العرب ومواهبهم ، مستخرجاً من التاريخ العربيّ القديم نماذج للتنظيم العسكري والدعاية وبعث الروح الحربية وتوحيد الكلمة .

من مؤلفاته التي صدرت في تلك الحقبة : ما العلاج؟ (١٩٣١) العروبة في الميزان (١٩٣٣) نحن (١٩٣٥) بين الأمس والغد (١٩٣٥) عربيّ المستقبل (في ثلاثة أقسام ، صدر القسم الثالث سنة ١٩٣٨) ، ربيعة العراق (في قسمين ١٩٣٦ ـ ٣٩) نظرة عابرة

في شماليّ العراق (١٩٤٠) المهدي والمهدويّة (١٩٥٧) الخ. وحقّق كتاب «الحسبة» (١٩٤٦).

وقد عيّن بعد الحرب العالمية الثانية مديراً لمكتبة الأوقاف (١٩٤٨) فتولّى هذا العمل أعواماً الى صيف سنة ١٩٥٨، وهجر بغداد بعد ذلك فأقام في الزبير، ثم مضى الى الكويت حيث أدركه الحمام في أواخر نيسان ١٩٦٤.

قال سليم طه التكريتي: «لقد أزاح الاستاذ الحصان عن تاريخنا العربي كلّ ما علق به من أدران، فأخرجه صافياً رائقاً يبهر الدنيا بعظمته ويثير الإعجاب بروائعه ويحظى من تقدير المنصفين من المؤرخين مالم ينله تاريخ آخر في الدنيا». ثم قال: «كانت عقيدة الحصان الراسخة وعفة نفسه ترفعه عن الدنيا والتزامه الصدق في القول والعمل من أسباب نكبته في رزقه... وكان إباؤه قد جعله يرتضي العيش الخشن ويعاني الحاجة والجوع دون أن يقبل منّة أو يسأل صديقاً».

أحمد عبد الغني الراوي

السيد أحمد بن عبد الغني بن محمّد بن حسين بن عبد اللطيف الراوي، ولد في عنة في حزيران ١٨٩٠، وكان والده مدرساً بها. وقدم الى بغداد فدرس في المدرسة الرشدية، ثم تركها وأخذ يدرس علوم العربية والدين، فتتلمذ على أخيه الشيخ محمد سعيد وعبد الوهاب النائب ومحمود شكري الألوسيّ وعباس حلمي القصاب ومحمد سعيد النقشبندي وغيرهم.

وعيّن سنة ١٩٠٩ مفتياً ومدرساً في قضاء الهندية، ونقل الى قضاء بدرة (١٩١٥) فظلّ يدرّس فيه الى احتلال بغداد سنة ١٩١٧. وأسند إليه بعد ذلك التدريس في جامع حسين باشا ودار المعلمين، ثم عهد اليه تدريس البلاغة في جامعة آل البيت (كانون الأول ١٩٢٤). ودرس الحقوق في هذه الأثناء فنال شهادتها سنة ١٩٢٥. وانتخب نائباً عن الحلة في أيار ١٩٢٨.

وعيّن عضواً بمجلس التمييز الشرعي في تموز ١٩٣٦ ثم نقل قاضياً شرعياً في كركوك (آب ١٩٣٧)، لكنه استقال بعد أمد وجيز. وعيّن مدوناً قانونياً (أيار ١٩٤٦ ـ كانون الأول ١٩٤٧).

وقد توفي ببغداد في أول آذار ١٩٦٢. كان عالماً فاضلاً صلب الرأي شديداً في المساجلة والنقاش وكاتباً له مقالات كثيرة نشرت في الصحف.

ومن شعره، وقد ظهرت براءته مما نسب إليه من التخابر مع السيد طالب النقيب بغية إنشاء حكومة عربية في عهد الوالي سليمان نظيف بك:

أرقت وساورت قلبي همومي	عشيّة قيل هيّا بالظّلوم
يقلّبني الأسى ظهرا لبطن	كفعل السمّ في جسم السليم
فما عثرت على فكري هنات	بها أدعى، وربّك، بالأثيم...

وقال في نفي يوسف السويدي من بغداد خلال الحرب العظمى :

نأيت عن المنازل والربوع	وبنت فبان قلبي عن ضلوعي
منازل قد عهدت بها قديماً	حبيباً لا يزال به ولوعي
لها أصبو إذا ما لاح برقاً،	وكم أصبو الى البرق اللّموع
ذوى روض الشباب، وكان غضاً	و وخط الشيب تخضبه دموعي...

وذكر عباس العزاوي أن الشيخ حسين بن عمر الراوي، وهو أخو الشيخ عثمان الجدّ الأعلى لأحمد الراوي، كان امام الجيش في عهد والي بغداد أحمد باشا سنة ١٧٢٤ .

إبراهيم الدروبي

ابراهيم بن عبد الغني الدروبي ولد ببغداد سنة ١٨٩٤، ودرس في معاهدها الدينية، وأتقن الخطّ فنسخ بيده مصنّفات عديدة. وظف كاتباً بالمحكمة الشرعية، وألف : الباز الأشهب الشيخ عبد القادر الكيلاني (١٩٥٥) البغداديون أخبارهم ومجالسهم (١٩٥٨).

توفي في مسقط رأسه في ٢ تشرين الثاني ١٩٥٩ .

كانت له صلة بآل الكيلاني نقباء الأشراف ووقوف على أخبار بغداد وأسرها وعلمائها ومعاهدها، كما كان ضليعاً بالعلوم الشرعية.

وقد ألّف كتاباً في «قضاة بغداد» (من أبي يوسف قاضي المهدي والهادي والرشيد الى محمّد نافع المصرف)، وآخر عن نقباء بغداد، ولم يطبعا.

قال عبّاس العزاوي : وخطّه تحفة نادرة. والدروبي خال الأديب الوزير مصطفى علي.

محمّد رؤوف الغلامي

من رجال التعليم والتأليف، ينتمى الى أسرة علمية معروفة في الموصل اشتهر منها الأديب الشاعر محمد بن مصطفى الغلامي صاحب «شمّامة العنبر» (المتوفى سنة ١٧٧٢)، وعلي الغلامي مفتي الشافعية، وكان أحد المفاوضين الذين أوفدهم الوالي حسين باشا الجليلي سنة ١٧٤٣ الى نادر شاه لفك الحصار عن الموصل. ولد بالموصل سنة ١٨٩٠ . تخرج محمد رؤوف الغلامي في دار المعلمين بمسقط رأسه سنة ١٩١٢

وزاول التعليم أعواماً طويلة . وواصل دراسته على علماء بلده، فنال الإجازة العلمية سنة ١٩٣٤ .

سعى في العهد التركي لنشر العلم في الموصل والدعوة للحركة العربية، وثابر على نشاطه الوطني خلال الحرب العظمى الأولى وإبّان الاحتلال البريطاني وكان معتمد حزب العهد السري سنة ١٩٢٠ في الموصل . وشارك في تأسيس مدرسة دار النجاح والنادي الأدبي في سنة ١٩٢١ ــ ٢٥ . وأصدر جريدة صدى الأحرار في الموصل (١٩٤٩) فواصل نشرها حتى سنة ١٩٥٤ .

وقد توفي سنة ١٩٦٨ .

ألف : العلم السامي في ترجمة الشيخ محمد الغلامي (١٩٤٢) التحفة البهيّة (١٩٤٤) المردّد من الأمثال العامية الموصلية (١٩٦٤) .

ومن الكتب التي حقّقها ونشرها : الجهان المفنّد (١٩٤٠) وتخميس همزية البوصيري (١٩٤٠)، وكلاهما للشيخ محمد الغلامي، المعتقد الإيماني لأبي البقاءالأحمدي (١٩٦٢) أصحاب بدر للشيخ حسين الغلامي (١٩٦٦) الخ .

* * *

أخوه عبد المنعم الغلامي ولد في الموصل سنة ١٨٩٩ وتوفي عام ١٩٦٧ . كان مدرّساً وألف كتباً كثيرة منها : السوانح (١٩٣٢) خروج العرب من الأندلس (١٩٤٠) مآثر العرب والإسلام في القرون الوسطى (١٩٤٠) بقايا فرق الباطنية في لواء الموصل (١٩٥٠) الضحايا الثلاث (١٩٥٥) أسرار الكفاح الوطني في الموصل ١٩٦٢) جغرافية جزيرة العرب (١٩٦٢) الأنساب والأسر (١٩٦٥) ثورتنا في شمال العراق (١٩٦٦) .

محمد صالح السّهروردي

من رجال الدين وأصحاب البحوث التاريخية محمد صالح بن محمد سليم بن عبد الرحمن السهروردي، وأسرته عباسية النسب سهروردية الطريقة أنجبت علماء دين وكان جدّها الشيخ محيي الدين قاضي تكريت والدور وسامراء .

ولد محمد صالح ببغداد سنة ١٨٩١ ودرس على عبد الوهاب النائب وقاسم القيسي وأسعد الدوري وغيرهم من مشايخ العصر وعيّن مدرساً في المدرسة الطبقجلية في محلة العاقولية من بغداد . وقد تولّى تدريس اللغة العربية في مدرسة الأليانس سنة ١٩٢٣ . وأصدر في ٢٩ تموز ١٩٢٤ جريدة «الضاد» الاسبوعية فظهرت أمداً . وانخرط في سلك موظفي دائرة الأوقاف في تشرين الأول ١٩٢٥ فكان مفتشاً للمساجد ومديراً لأوقاف الحلة الخ . وعيّن مفتشاً للمعابد والمعاهد الدينية (ايلول ١٩٤٧) ونقل في حزيران ١٩٤٩ مديراً لأوقاف ديالى . واعتزل العمل بعد ذلك وتوفي ببغداد في كانون الثاني سنة ١٩٥٧ .

وقد نشر بحوثاً تاريخية كثيرة في الصحف والمجلات، وألف: الأجوبة السهروردية (١٩٢٧) لبّ الألباب (في جزءين ١٩٣٣).

وعرف أخوه المقدم محيي الدين بن محمد سليم السهروردي ضابطاً ونائباً. ولد ببغداد سنة ١٨٧٩ وتخرج ملازماً ثانياً في المدرسة الحربية بالاستانة (١٩٠٤)، وخدم في الجيش التركي في العراق ونجد وحارب في اثناء الحرب العظمى في ساحة الفلوجة والرمادي. إشترك في الحركة الوطنية سنة ١٩١٩ ـ ٢٠ واعتقل أمداً يسيراً. ثم ألحق بالجيش العراقي أوّل تأسيسه، وعيّن مديراً لشرطة لواء ديالى (نيسان ١٩٢٢). وعاد إلى خدمة الجيش ضابط ركن في الناصرية وآمراً للانضباط العسكري، وأحيل على التقاعد سنة ١٩٣١. وانتخب نائباً عن بغداد في ايار ١٩٣١ إلى ١٩٣٢، ثم نائباً عن لواء ديالى (١٩٣٩ ـ ٤٣). وكان مديراً مسؤولاً لجريدة الطريق سنة ١٩٣٣.

عمّر محيي الدين السهروردي طويلاً فتوفّي ببغداد في ٨ تشرين الثاني ١٩٧٠.

ابراهيم الواعظ

ينتمي إلى أسرة دينية حسينية النسب تعرف بآل الأدهمي، واشتهر جده محمد أمين (١٨٠٨ ـ ١٨٥٧) ابن محمد بن جعفر بن حسين بن محمود الأدهمي بالواعظ.

وكان والد ابراهيم: مصطفى نور الدين (١٨٤٧ ـ ١٩١٣) من رجال الدين المعروفين في عصره، تقلد رئاسة محكمة الجزاء في البصرة (١٨٨٠ ـ ٨٢)، ثم كان مفتياً للحلة من ايلول ١٨٨٣ إلى تشرين الثاني ١٩٠٨ حين انتخب نائباً عن الحلة في مجلس المبعوثين العثماني (١٩٠٨ ـ ١٢). وقد توفي في ٣ حزيران ١٩١٣.

ولد ابراهيم أدهم بن مصطفى نور الدين الواعظ في الحلة في ١٩ كانون الثاني ١٨٩٣، ودرس في المدارس الدينية والرسمية. ورافق والده إلى استانبول (١٩٠٨) ثم عاد إلى بغداد سنة ١٩١٢ وانتمى إلى مدرسة الحقوق. ونشبت الحرب العظمى في أواخر سنة ١٩١٤ فأخذ جندياً كاتباً وعمل في ساحة الكوت، ثم انسحب مع الجيش التركي إلى الموصل عند احتلال بغداد ومكث فيها إلى الهدنة سنة ١٩١٨.

تابع دراسة الحقوق بعد ايابه إلى بغداد، فتخرج فيه سنة ١٩٢١، ومارس المحاماة. وانتخب نائباً عن الحلة في تشرين الثاني ١٩٣٠، ثم ناب عن اللواء المذكور للمرة الثانية من كانون الأول ١٩٣٧ إلى شباط ١٩٣٩.

وانخرط في سلك القضاء فعيّن رئيساً لمحكمة بداءة الموصل (ايلول ١٩٤٤) فرئيساً لمحكمة الاستئناف بها (حزيران ١٩٤٥). ونقل مدوناً قانونياً في ايلول ١٩٤٦، ثم أعيد رئيساً لمحكمة استئناف الموصل في كانون الاول ١٩٤٧. وعيّن مدوناً قانونياً في تشرين الثاني ١٩٥٠ وانتدب مديراً للادارة القانونية في جامعة الدول العربية بالقاهرة.

وعاد إلى بغداد في ايار ١٩٥٢ وتولى رئاسة التفتيش العدلي حتى اعتزل الخدمة في آخر حزيران ١٩٥٨ . وقد توفي بعد أيام قلائل في بغداد في ٨ تموز ١٩٥٨ .

مؤلفاته وأدبه

لابراهيم الواعظ شعر كثير وخطب ومقالات . ومن مؤلفاته : خرّيجو مدرسة محمد (الجزء الأول، ١٩٣٧ ، الجزء لثاني ١٩٣٩) الروض الازهر في تراجم آل السيد جعفر (١٩٤٨) اسبوعياتي (١٩٥٠) الزّباء (مسرحية شعرية) فتح مصر (مسرحية) عبد الرحمن بن عوف، العباس بن الأحنف، ديوان شعر (مخطوط) المعّري كما هو لا كما عرفه الناس ، الخ .

من شعره :

أتحنو عليك قلوب الورى — إذا حلّ رزء وخطب عرا
فكن يابس العود صلب القناة — بعيد المنال شديد القرا
وكن رابط الجأش ثبت الجنان — قويّ المراس متين العرى
ولا ترتجي من لئيم وفاء — وكن كاسراً قبل أن تكسرا
ونفس الأباة تدكّ الجبال — وشقّ على العاجز أن يفخرا

لعلّ شعر ابراهيم الواعظ ونثره يتسمان بالركاكة والخطأ اللغوي شأن الكثيرين ممّن درسوا في المدارس الدينية القديمة، ولكن هذا النثر وذلك الشعر لا تعوزهما الأصالة والاخلاص . وقد كتب فصولاً في سيرة صحابة الرسول الكريم ضرب فيها مثلاً أعلى لأسمى صفات البطولة والتضحية والمودّة والكرم والعدالة والجرأة والدهاء، وهي في حماستها وصدق عاطفتها تصحّ أن تكون دروساً للنشء الناهض . ولم يفته أن يصوّر الهزل والدعابة في موقعهما، كما فعل عند الكلام على نعيمان بن عمرو الذي كان نسيج وحده بين رجال الجدّ والديانة والحرب، حتى أضفى عنصراً من الفكاهة البريئة المحبّبة على ذلك العهد الصارم الشديد .

ومن شعره :

وطني، بكيت شجى عليك، ولم أزل — أبكيك من نفسي ومن أعلاقي
وطني، فذا قلبي يذوب وأدمعي — تجري بحرقتها من الآماق . .
انّي إلى مصر العزيزة شيّق — فابعث لها ولنيلها أشواقي
ولقد هويت الفضل في أرجائها — حباً يفوق على هوى العشّاق
اني، وحقك، في الهوى متمصّر — هل أنت مثلي في هواك عراقي؟

وله في ذكر الوثبة الوطنية سنة ١٩٤٨ :

هـذا العـراق، وهـذه وثباتـه،
ودفـاعـه عن حقّـه وثباتـه

ان كنت تجهل صبره ونضالـه
تأتيك بـالخبر الصحيح رواتـه

فتيـانـه لا يصبرون على الأذى
والضيم لا يحملنـه فتيـاتـه

يـا هـازلاً بـالشعب، لا تهزل فقـد
أعطـاك درسـاً في الحيـاة أبـاتـه

وقال في وفاء الكلاب :

الكلب أوفى من الإنسـان في خلق
وهـو الصّبـور على الآلام والمحن

والكلب يشكـر إذ أعطيتـه منحـاً
وان منعت فثنّـاء على المنن

والكلب يمنع مـولاه وسيّـده
وذاك يعـدو على الأعـراض في السّكن

عرفت ابـراهيم الواعظ وصحبتـه أعواماً طـويلة، فوجـدت لديه، مجسّمـة إلى أبعد حدود التجسم، تلك الروح الغيورة الودودة التي تعتزّ بالأدب وتحبّ الأدباء وتأخذ بيد الناشئين والمتأدبين. لقـد نشر كتاب «الـروض الازهر» وفاءً لأجـداداه وأسرته، ولا سيما لأبيـه وأخيـه إسماعيل، فجعل منه صـورة رائعـة للحيـاة الاجتماعية والأدبيـة في الأيّام السالفة. وانتخب عباس العزاوي عضواً مراسلاً بالمجمع العلمي العربي بدمشق، فلما رأى رجال الأدب والتاريخ متقاعسين عن الاحتفاء بـالرجل الذي سجّل عصور العراق وأحداثـه في سلسلة كتب تعجـز عن اخراجهـا المجامع بَلْـهَ الأفراد، نشط إلى تكـريمه باسم نقـابة المحامين. وأمضى في الموصل سنـوات، فأوجد ندوة أدبية وشعـرية وخلق حركـة جميلة بالرغم من ضحـل أدبها ودورانها في حلقةمفرغة. وكـان كثيراً ما يكتب إليّ ويكتب إلى غيري في بغـداد يسأل معـارضة «يـا ليل الصبّ» أو تشطير أبيـات أو نظم شعـر في موضـوع يقترحه، لتـلاوته في النـدوة العمـرية ووصل تيّـار الفكر بين الـزوراء والحدباء.

وسافر إلى القاهـرة للعمل في ادارة الجامعة العربية، فاتصل بـالشعراء والادباء وكان همزة الوصل بينهم وبين زملائهم في العراق. ثم اشترى عشرات النسخ من ديوان محمد الأسمـر وغيره، فأهـداهـا إلى أصـدقـائه في بغـداد ودعـاهم إلى مـراسلـة أصحـابـه المصرّيين. . .

أما تشجيعه للناشئة وشداة الأدب فـالكثير من الشباب يذكرون يده البيضاء عليهم ويحمدون لـه وساطته لتوظيفهم وتـرفيعهم أو طبع آثارهم أو ارسالهم في بعثـة دراسية. وكان مجلسـه في داره ومكتبه على السّواء منتـدى ترى فيـه رجال الأدب والفضل وتسمع أحاديث الشعـر المحبّبة إلى النفوس. لقد كـان فوّار الحماسة، دائم الابتسامـة، شديد الاخلاص، فمهما تأزمـت الأمور وتعقدت، كنت مـوقناً أن تحظى لـديه بما تـريده من بشاشة ومشورة ومعونة وتفهّم.

كان المرض يترصّده ويتربّص به الدوائر، فلم يكد يعتزل العمل الحكومي ويتطلع إلى حياة الدعة والهدوء، حتى اغتاله الموت بلا مهلة ولا انذار، وطوى سيرته خبراً من الأخبار. وماذا أقول فيه الا أن أردّد أبيات عبدة بن الطبيب التميمي:

عليك سلام الله، قيس بن عاصمٍ، ورحمته ما شاء أن يترحّما
تحيّة من غادرته غرض الرّدى إذا زار عن شحطٍ بلادك سلّما
فما كان قيس هلكُه هُلك واحد ولكنّه بُنيان قومٍ تهدما

وقد رثاه خاشع الراوي، قال:

أفراق إلى أمد أم رحيل إلى الأبد؟
أفل الكوكب الذي شعّ بالأمس واتقّد
وخبا ذلك السّنا والمنى أصبحت بدد

محمد سعيد الجليلي

ينتمي إلى الأسرة الجليلية المعروفة وهو محمد سعيد بن حسين آغا آل عبيد آغا الجليلي، ولد بالموصل سنة ١٨٩٦، ودرس في معاهدها وشغل وظائف حكومية مختلفة، وكان كاتباً في مجلس النواب. وقد برز بين كتّاب الشباب بعد الحرب العظمى الاولى، ووضع كتباً منها: الأناشيد الموصلية للمدراس العربية (١٩١٤) كيف نجد السعادة (١٩٢٤)كيف يرقى العراق (١٩٢٤) خواطر ويوميات في مشاريع مجلس الاعمار (١٩٥٤) من صميم الواقع (١٩٥٦).

أدركته الوفاة سنة ١٩٦٣.

محمد بهجت الأثري

الأديب العالم الشاعرمحمد بهجت الأثري، وهو ابن التاجر محمود بن عبد القادر بن أحمد بن محمود، وأصل أسرته من عرب ديار بكر، هاجر جدّه الثاني أحمد إلى أربيل ثم استوطن ببغداد وزاول التجارة فيها.

ولد في بغداد في تشرين الأول سنة ١٩٠٢، ودرس في المدارس الرسمية ومدرسة الأليانس الأهلية، ثم عيّن كاتباً في ديوان محكمة الاستئناف وهو دون سنّ التوظيف. ومال إلى دراسة الثقافة الإسلامية والادب العربي فلازم علي علاء الدين الألوسي ومحمود

شكـري الألـوسي وتخرج عليهما في علوم اللغـة والتـاريخ والتفسير والحديث والأصـول والمنطق والحكمة الأهلية .

بدأ بـالكتابـة في الصحف البغدادية ثم تـولى تحرير مجلة «البـدائع» الاسبوعيـة سنة ١٩٢٥ ، وعين في الوقت نفسه مدرساً في مـدرسة التفيّض الأهلية . وانتـدب في السنة التالية مدرسـاً في المدرسة الثانوية المركزية ببغداد فثـابر على التدريس فيها عشر سنين . وقام بسياحة في البـلاد العربية وتركية واليونان سنـة ١٩٢٨ , ثم عاد وساهـم في تأسيس جمعية الشبان المسلمين وتولى بعد ذلك رئاسة تحرير مجلتها «العالم الإسلامي» .

وانتخب عضـواً في المجمع العلمي العـربي بدمشق سنـة ١٩٣١ . واشترك في المؤتمر الإسـلامي العام المعقـود في القدس الشريف في كـانون الاول ١٩٣١ ، فألقى في حفلـة الافتتاح قصيدة مطلعها :

لمن الـــوفـــود تفيـض فيض الـــوادي	ملء الحمى منهـــا وغـصّ النـــادي
ألقت بثـــالثـــة العـــواصم رحلهـــا	لجلاد غـــائرة ورمّ فســـاد

وعيّن في تموز ١٩٣٦ مـديـراً لأوقاف بغـداد فمفتشـاً في وزارة المعـارف (١٩٣٧) إلى تشرين الأول ١٩٤١ حين فصل من وظيفته واعتقل في الفـاو والعمارة وسامراء ولم يطلق سراحه إلا في آب ١٩٤٤ . وقد أعيد تعيينه مفتشـاً بوزارة المعارف (نيسان ١٩٤٨)، ثم أصبح استاذاً في دار المعلمين العاليـة (تشرين الأول ١٩٥٦) فمديراً عامـاً للاوقاف من تموز ١٩٥٨ إلى شباط ١٩٦٣ .

وانتخب عضـواً في لجنة الترجمة والتأليف والنشر العـراقيـة سنة ١٩٤٧ ، فعضـواً في المجمع العلمي العراقي عند تأسيسه (كانون الثـاني ١٩٤٨) . وانتخب نائباً ثانياً لرئيس المجمع (نيسان ١٩٤٩)، فنائبـاً أول للرئيس (تشرين الأول ١٩٥٣) إلى حلّ المجمع في حزيران ١٩٦٣ . واختاره مجمع اللغـة العربية بالقاهرة عضواً مـراسلاً له (ايار ١٩٤٨) فعضواً عاملاً في آذار ١٩٦١ .

مؤلفاتـه :

لمحمـد بهجت الأثري مـؤلفات عـديدة منهـا : أعلام العـراق (١٩٢٧) المجمل في تاريخ الأدب العربي (١٩٢٩) تهذيب تاريخ مساجد بغداد (١٩٢٧) المدخل في تاريخ الأدب العربي (١٩٣١) مجموعة رسائل عبـد المحسن الكاظمي (١٩٤٦) وضّاح مأساة الشـاعـر متبادلـة مع أحمد حسن الـزيّـات، ١٩٣٥) الاتجاهات الحديثـة في الإسـلام (١٩٥١) . وله مقالات وبحـوث عديدة نشرت في مجلة المجمع العلمي العـراقي وسائر المجلات والصحف العربية .

وله : محمـود شكري الألـوسي وآراؤه اللغويـة (١٩٥٨)، وهي محاضرات ألقيت في معهد الدراسات العربية العليا بالقاهرة، الآلة والأداة (١٩٦٢) ملامح وأزهار (شعر، ١٩٧٤).

نشر وحقق معظم مؤلفات شكري الألوسي ووقف على طبعها، منها: كتاب بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب (١٩٢٤) تاريخ نجد (١٩٢٥) الضرائر وما يسوغ للشاعر دون الناثر (١٩٢٣) عقوبات العرب في الجاهلية، رسالة المسواك.

وحقق كتباً كثيرة من التراث العربي، منها: مناقب بغداد لابن الجوزي (١٩٢٤) كتاب الكتّاب للصولي (١٩٢٣) ولوح الحفظ في حساب عقد الاصابع (لعبد القادر ابن شعبان)، وكتاب النغم لابن المنجم (١٩٥٠) وبعض أقسام خريدة القصر وجريدة العصر. واشترك في ترجمة كتاب الخطاط البغدادي ابن البّواب (عن التركية) (١٩٥٨) كما اشترك في وضع كتب مدرسية منها: الأساس في تاريخ الأدب العربي (في جزءين)، ديوان الأدب (في ستة أجزاء)، المطالعة العربية (في ثلاثة أجزاء)، القراءة العربية (في أربعة أجزاء) الخ.

وله ديوان شعر طبع في القاهرة سنة ١٩٧٤، ومن مصنفاته المهيأة للطبع: شيخ الإسلام عارف حكمت، عماد الدين القرشي الاصبهاني الكاتب، شرح مقامات ابن ماري الطبيب المصري، أشهر مشاهير العراق، الردّ على الشعوبية ونقض كتاب المثالب لابن الكلبّي، ديوان ظلال الأيام، ديوان وراء الأسلاك الشائكة، الأدب المعاصر في العراق الخ.

شعره:

الأثري الشاعر ذو ديباجة مؤنقة جزل العبارة نقيّ الأسلوب، وقد نظم في المواضيع الوطنية والإسلامية والوجدانية.

قال يتلهف على وفاء الأصفياء:

صبوت، وهل في الناس مثلك من يصبو، ... وهل منزل اللذات يعمره الحبّ؟

مضت بالذي تهوى المقادير فاختفى ... فلا كرم يبدو لعين ولا صحب

وقد فاتك الحظ الذي أنت طامح ... اليه، وأقصتك المودة والقرب

فواعجباً كيف السبيل إلى العلى ... إذا كان حظّ الناصح المنع والحجبُ؟

وكيف يرجّى أن ينال مغامر ... متى عقدت بالنجم أوضاحها الشّهب

كأن مسير الحظ عكس مسيره ... فوجهة ذا شرقٌ ووجهة ذا غرب

وقال يصف الطبيعة في الريف العراقي:

تملَّ من الحسن في الضاحية ... وحيّ بها العيشة الهانية

متاع الحياة وريحانها ... ومبدى مباهجها الزاهية

هدوء كما يبتغي المتعبون ... سجو على اليقظة البادية

يــد الله قـــد بـــاركت أرضهـــا ... ووشّـت خمائلهـــا الحاليـــة
وألقـت من السحـــر في حسنهـــا ... أرقّ مـن السحـــر في الجازيـــة
أصيـل الملامـح لا لـــونــــه ... الـدهـــان ولا طيبــه الغـــاليـــة
ولكنـــــه وشي خـــــلاقـــــه ... وروح ريـــاحينـــه الـــزاكيـــة

وقال في فيضان دجلة:

يــا نـــوح، قم دارت بنـــا الأزمـــان ... عبـــد الهوى وتجدّد الطـــوفـــان
قـــد غبت عنـــه فـأين منك سفينـــة ... يــا نــوح، يفـزع نحـوهـا الإنسـان؟
كـــانت مــلاذ الــلاجئين، ومــالنـــا ... يـا نــوح، مــا ينجـو بـه الجيران. . .
من عـــاصـم للخلق من متــوعّـــد ... جـــاشت غـــواربـــه وهنّ رعـــان
البّر عـــاد بـــه عبـــابـــاً ثـــائراً ... كـــالشعب حـــرّق غيظـــه الطغيـــان
غطّـى الأديـم فليـس إلا مـــــاؤه، ... أرأيت بحـــراً مـــا لـــه شطـــآن؟
فإذا سجـــا خـرق القلـــوب تفـزعـــاً ... وإذا تحرّك زاغــت الأذهـــــــــــان
غــرثـــان وهـــو يكـــاد يبتلع الــدّنى ... وكـأنها أمـــــواجــــه الحيتـــــان
هــــــو والسماء كـــــلاهما متغضّـب ... متفجّـــــــر وكـــــــلاهما هتّــــــان
بـــاتـــا على وعــــد، فليس بمنقضٍ ... يـــوم إذا مـــا لم يكـن حـــدثـــان
والنّــــوء يأتي بـــالصـــواعق منــذراً ... ومن العـــواصف مــارج ودخـــان
وكـأنها بغـــــداد في أثبـــاجــــه ... فلـك ولكن مـــا لـــه ربّـــان

ومن رقيق شعره في الفراشة:

أفــراشـة الــروض المنّــور، شــاقني ... ثــوب كنــور الـــروض زانك منظـــرا
نفضت عليـــه الشمس مــذهـب لـونها ... ووشـى الــــــــربيع رداءه المتخيّرا
حسـن يمــــوج على الفضـــاء منشّراً ... أنّـى يمــــور بـك الجنـــاح تموّرا
كأخي الصبـــابــة، وهـــويتبع قلبــه، ... من بـــات رهـن غــرامـــه أنّى جـــرى
مـــا أنتِ؟ هل طير يـرفـرف في السّنـا، ... أم وردة سكـــــرى تـــرفّ تفتّرا؟
أم من جنـــان الخلـــد روح نـــاسم ... شـــاقتـــه أطيـــاف الحبيب فأبكـــرا؟
روحي، كـــروحك، بـــالصبـــابـة هـــائم ... يصـل الأحبّـــة رائحـــاً ومبكّـــرا
ولهان يبعثـــه الهوى متـــذكـــراً ... أبـــداً، ويطلقـــه الخيـــال مشمّـــرا
يسري أرقّ مـن النسيم بسحـــــرة ... ويـــرفّ أنظـــر مـن نبـــاتٍ نـــوّرا
طـــربـــاً إلى وجـــه الحبيب، وإنما ... يشتـــاق من صـــدق الصبـــابـــة مخبرا

وقال في رثاء سعد زغلول زعيم مصر المتوفى سنة ١٩٢٧ :

جلّ الأسى فلكلّ نفس مجزع ... وكأنها في كل بيت مصرع
شمل المصاب فما القريب بداره ... أبكى من النائي الديار وأجزع
الأرض دانيها وقاصي ربعها ... لبست ثياب مآتم لا تخلع
فمن الليالي الحالكات سوادها ... ومن الثكالى الموجعات الأدمع
ومن النوادب شجوها وأنينها ... ومن الصوادي قلبها المتقطّع
ما كان سعد غير سعد بلاده ... ورجاء أمّته التي تتطلّع
أفيوحش الأوطان وهو أنيسها ... ويضيّع الخلّان وهو مجمّع؟
أسفي على سعد، وكم من ميّت ... يمضي ولست لموته أتوجّع
ما إن رأيت كمثله من مخلص ... لبلاده ومجاهد لا يهجع
بطل له في كل يوم حادث ... يعلي إلى العلياء مصر ويرفع

ثم يقول :

يا مصر، إنّك للعروبة موئل ... وعلى يديك نجاحنا متوقع
سيري على النهج القويم وجدّدي ... صرح العروبة إنه متضعضع
وتجنّبي التقليد في تشييده ... انّ المقلّد مفسد لا يبدع
من رام حكم الذات وهو مقلّد ... للغاصبين فإنه لمضيّع . . .
بؤساً لأوطان يسود بها الألى ... أوطانهم صارت بهم تتهوّع
انّ الدخيل إذا أقام ببلدة ... ثارت بها فتن وهبّت زعزع
فتبصّري فالشرق خلفك سائر ... وإذا عثرت فعاثر هو أجمع

وقال محمد بهجت الأثري من قصيدة في رثاء إمام اللغة أحمد تيمور باشا :

يا ناعياً من مصر خير سراتها، ... أعلمت أنك قد نعيت النيّلا؟
الخطب مضّاض، فهلاّ كنت ذا ... رفق بنقل الفاجعات بخيلا؟
فلقد سرى نبأ المصاب كما سرى ... سمّ يدبّ إلى القلوب فعولا . .
إنّ المصاب بمثل «أحمد» إنّما ... يذر النفوس تسيل منه مسيلا
علم رعى الفصحى وأحيا مجدها ... وأحلّها فوق اللّغات مقيلا
نشراً وتحقيقاً وكشف غوامض ... وبيان أسرار يرعن عقولا
براً بها وبأمّة مغلوبة ... فقدت سواها الثغر والأسطولا

أعيد تعيينه عضواً بالمجمع العلمي العراقي على أثر اعادة تأليفه في مايس ١٩٧٩ .

وانتخب سنة ١٩٨٠ عضواً بـأكاديمية المملكة المغربيـة . ومنح جائزة الملك فيصل السعودي لـلأدب العربي سنـة ١٩٨٦ . ثم منح في كـانون الأول ١٩٨٩ جـائزة صدّام (حسين) للانتاج الأدبي الموسوعي .

أحمد حامد الصراف

لو كان للصداقة مساوىء ـ والصداقة كلها فضائل ومحاسن ـ لكان من مساوئها أنها تمنع الصـديق من إيفاء حق صـديقه والإشـادة بذكـر محامده وشمائلـه ومزايـاه . وماذا عساي أقـول في الصديق الكريم الأديب الألمعي والمحـدث الساحر والـراوية اللبق ذي الذوق الأنيق والطبع الـرقيق الأستاذ أحمد حامـد الصراف وكيف أصف عذوبة حـديثه وإشراق ديباجته وصفاء جهيرته وسريرته؟

أحمد حـامـد الصراف شخصيـة ذات جوانب متعـددة : فهـو حقـوقي بـارع شغل وظائف إدا رية وقضـائية كثيرة وجاب معظم ألويـة العراق رسولاً للعدالـة ، وهو أديب يصول قلمـه ويجول ، ضليع بآداب العربية والفـارسية والتركية ولـه حافظة قويـة تختزن بدائع المنظوم وروائع المنثور، وهو باحث محقق أولع بأخبار المتصوفة والدراويش وأرباب الطرق واستقصى سيرهم وآثـارهم ، وهو بعد كـل ذلك رجل إنساني ذو عاطفـة ملتهبة تتوقد وتتمرد وتثور، وله قلب شديد الخفقان يفيض باللوعة والحنان ودمع سريع الهميان يرثي لحال الانس والجان .

أول ظاهرة تجذبـك إلى الصراف أناقة ملبسه فهو يعتنـي بهندامه أشد العنـاية ويشدّ رباط رقبتـه شداً خاصـاً ويهيم بالمسابح والفصـوص والعطور. عرّف الظـرف في العهد العبـاسي المتأخـر فقيل «من تختّم بـالعقيـق وقـرأ لأبي عمـرو وحفظ قصيـدة ابن زريق (لاتعذليـه فإن العذل يولعه . . .)» فقـد استكمل الظرف . ولا ريب أن الصراف يعتبر ظـريفاً في عـرف هـذا القياس . وقـد خلّـد لنا التـاريخ أديبين كـانا يتأنقـان بملبسهما وإنشائهما على السواء أولهما بوفون الفرنسي قـائل الكلمة المأثورة «الأسلوب هو الرجل» ، والآخر الكـاتب المصري مصطفى لطفي المنفلوطي «صـاحب النظرات والعبرات» . ولا يقل الصراف عنهما أناقة في ملبسه وكتابته .

وصديقنـا الصراف كما قلنا رجل عاطفي إن تـذكر له حادثـة مشجية أو أمراً مـؤسياً لتستثير كوامن لواعجه وتمس من قلبه وتراً حساساً . وقد بلي قبل ربع قرن بوفاة أمه التي يكنّ لها أسمى معاني الحب والحرمة وبلي قبل سنوات بوفـاة خالته وأخيه محمود فسكب عليهم الـدمع الغزيـر ولا يزال كلما ذكـرهم يـردد الحسرات والزفـرات . أما أبـوه الحاج

موسى فقد فجع به وهو غلام يافع فظل في ذهنه مثالاً للرجولة والمروءة وسموّ النفس.

إن توقد عاطفة الصراف وإرهاف حسّه قد دفعه ـ على ما أعتقد ـ الى حبّ التصوف وأصحابه فدرس الخيام والحلاج وأضرابهما وتتبع أخبار الدراويش والغلاة وشدّ الرحال الى إيران بحثاً عن شؤونهم وآثارهم. وكتب اليّ ذات مرة من كركوك ـ وهو آنذاك حاكم بداءتها ـ يقول أنه عثر على ديوان مولانا خالد النقشبندي (شيخ الطريقة المبجّل في شمالي العراق المتوفى في دمشق سنة ١٨٢٧) فهو منصرف إليه مكبّ عليه منشغل به عن كل ما عداه.

فكتبت إليه من أبيات:

وجد الاستاذ شعر النقشبندي	فتناسى حافظاً جامي وسعدي
وارتضاه دون أهل الودّ خلاً	واصطفاه إلف إغراق ووجد...

والصراف يحب شخصيات تاريخية كثيرة في مقدمتها الامام علي والسيد المسيح. فهو يحب في علي البطل الصنديد والرجل العادل النبيل فيفيض في ذكر محامده ويتمثل بالأبيات الشهيرة:

حب علي بن أبي طالب	أحلى من الشهد الى الشارب
لو فتشوا قلبي لألفوا به	حرفين قد خطّا بلا كاتب
العدل والايمان في جانب	وحب آل البيت في جانب

ويحب في يسوع اللطف والطيبة والوداعة ويرى في خطبة الجبل أسمى تعبير عن المحبة الإنسانية والأخوة البشرية. إن الصراف يدين بدين الحبّ فهو يكاد ينطق بلسان محيي الدين ابن عربي هاتفاً:

لقد كنت قبل اليوم أنكر صاحبي	إذا لم يكن ديني الى دينه داني
وقد صار قلبي قابلاً كل صورة	فمسرح أظباء ومرعى لغزلان
وبيت لأوثان وكعبة طائف	وألواح توراة ومصحف قرآن
أدين بدين الحبّ أنىّ توجهت	ركائبه فالحب ديني وإيماني

والصراف ذكي الى حدّ الإفراط وهو يعلم ذلك ولا يصطنع التواضع في الإشارة الى ذكائه. وقد قال ذات يوم: سبحان الله فاطر السموات والأرضين، خلق أخوين لأب وأم فخصّ أحدهما بالذكاء الفارط وجعل الثاني في الحضيض الأوهد من البلادة والغباء... وقيل إن عمر بن الخطاب كان إذا رأى الرجل يتلجلج في كلامه قال: خالق هذا وخالق عمرو بن العاص واحد!

ويمكن القول إن ذكاء الصراف قد جنى عليه فدعا الى فصله من الوظيفة مرتين: ففي المرة الأولى عيّن أديبنا سكرتيراً لإحدى القنصليات العراقية في ايران، وبدلاً من أن

يشخص الى بلد الفردوسي وسعدي طلب إجازة وسافر الى ربوع الشام. وفي ذلك الصيف نفسه مضى الى الاصطياف نفس القنصل الذي عيّن الصراف سكرتيراً له فالتقى هناك الرئيس والمرؤوس. وكان القنصل رجلاً عظامياً كبير المقام قليل الكلام، وكان السكرتير الأديب ينتقل في سورية ولبنان من ناد الى ناد ومن مجلس الى مجلس فيلقي المحاضرات ويأسر الألباب بأحاديثه ولطائفه ومحفوظاته ولا ينسى في أثناء ذلك أن يقدم رئيسه الصامت بعبارات التفخيم والتبجيل، حتى إذا ما انتهى موسم الصيف وعاد القنصل وسكرتيره الى العراق ذهب الأول الى مقرّ منصبه في إيران وآب صاحبنا بالفصل والحرمان.

وفي المرة الثانية ـ وبعد زهاء عشر سنين ـ جمح بالصراف حصان اللسان فقال في نشوة الحديث «ثلاثة في العراق لا يعرفون كتابة سطرين متصلين، وصرّح بالأسماء فإذا ثالث الثلاثة الوزير الذي يعمل صاحبنا في وزارته. وسرعان ما نمي الخبر الى الوزير الخطير فلم يغمض له جفن حتى أطلق المتكلم من قيد الوظيفة.

وأحمد حامد الصراف محدث لبق تسعفه ذاكرته بمئات الشواهد والقصص والروايات والأشعار. وله منطق عذب وخيال خصب يوسع لحديثه الآفاق ويسبغ عليه صفات الامتاع والإشراق. ولعله من النفر القليل الذي يحفظ النثر فيروي المقدمات والفصول بطريقة فذة. أما روايته للشعر فتختلف باختلاف مزاجه: فإذا رغب في مدح الشاعر ورفع شأنه روى شعره بأسلوب ساحر خلاب يضفي عليه معاني اللطف والرواء، وإذا شاء غير ذلك روى الشعر بأسلوب هازل لاذع يحط من قيمته وينزل به الى دركات الابتذال والاسفاف.

والصراف يلمع في المجالس والدواوين فيأخذ بمجامع الحديث ويستهوي النفوس والألباب. وقد حدث مرة أن اجتمع نادي القلم في إبّان عزّه لسماع محاضرة للصراف في الدراويش. وكان الاجتماع حافلاً برجال الفضل والقلم، وقد حضره بدعوة خاصة سرب من المعلمات اللبنانيات. لم يكد الصراف يمضي في إلقاء محاضرته حتى نسي أنه في مجلس علم وأدب وخال نفسه متصدراً نادياً من أندية مدام ريكامييه الجميلة أو مدام دي ستال الذكية الفطنة فترك النصّ المكتوب جانباً. وأخذ يفيض في حديث الدراويش ويروي نوادرهم وأخبارهم وينشد أشعارهم وأذكارهم والعيون متطلعة إليه والاسماع مصغية والاعناق مشرئبة. . وإذا بصوت يشق السكون الشامل، ذلك صوت الصديق الاستاذ عباس العزاوي يقول: «يا أبا شهاب، ليست هذه محاضرة بل هي «تكويكات» . فما كان من أبي شهاب إلا أن مد يده الى جيبه وأخرج ورقة نقدية قدمها الى أبي فاضل وقال: «هاك ديناراً و «كوّك مثلها»، وضجّ المجلس بالضحك.

كان الصراف في صدر شبابه يحضر مجالس الأدب والفضل في بغداد ويصيخ بسمعه الى أحاديث الشيوخ وأرباب الكمال. وقدم بغداد الشيخ عبد العزيز الثعالبي

فأصبحت داره ندوة يقصدها الناس كبيرهم وصغيرهم يحفون بالزعيم الوطني التونسي ويلتقطون نفثات علمه الزاخر وقريحته الوقادة.

قال الصراف: كان الشيخ رحمه الله يعلم جميع العلوم حديثها وقديمها ويتصرف في فنون القول، غمر البديهة حلو البيان مطواع اللسان ثابت الجنان لا يردّ سائلاً ولا يعفي من التعقيب قائلاً. قال الصراف: فعجبنا لأمره كيف لا تعجزه مسألة ولا يعييه موضوع وقلنا: لنمتحننّه امتحاناً عسيراً. وأزمعنا أمرنا أنا وبعض رفاقي من أدباء الشباب فمضينا الى منتداه الحافل وجلسنا نصغي بأدب ووقار حتى إذا ما سنحت الفرصة تنحنحت وقلت: «يا أستاذ، سمعنا بكتاب نفيس مخطوط اسمه «قلائد النحور في بدائع وشي المنظوم والمنثور» لابن بيكال النباري (أو ما جرى مجرى ذلك من الاسماء التي اتفقنا على تلفيقها) فهل وقفتم عليه في سياحاتكم وتحقيقاتكم؟ ولم تطرف للشيخ عين بل أجاب على البداهة: أجل. إن هذا مخطوط جليل القدر وقد وجدت نسخة منه في مكتبة الاسكوريال في مدريد وأخرى في مكتبة الفاتيكان ومؤلفه أندلسي فاضل من أبناء القرن السابع الهجري...) وأفاض في ذكر سيرة المؤلف وفحوى المؤلف حتى حسبنا أنه يقرأ في كتاب مفتوح. وقمنا وقد أيقنا أن للشيخ على جلالة قدره وجزالة فضله قريحة تسعفه حيث يعجز العلم وقلنا لعله خلط مخطوطنا بآخر مما وقف عليه ونظر فيه من وفير المصنفّات. والله أعلم.

وقد لازم الصراف جميل صدقي الزهاوي أعواماً طويلة وروى أخباره وأشعاره وكتب عنه صفحات ممتعة. ورافقه سنة ١٩٣٤ الى طهران لحضور مهرجان الفردوسي. لقد أقامت الحكومة الايرانية احتفالاً عظيماً بالذكرى الألفية للشاعر الفردوسي. وفي الحفلة الكبرى التي شهدها رضا شاه بهلوي وأركان دولته والعلماء القادمون من مختلف بقاع المعمورة ألقى شاعر العراق قصيدة باللغة الفارسية أشاد فيها بذكر شاعر الأمة الايرانية ورفع منزلة الملك البهلوي الذي عرف قدر الفردوسي أكثر من معاصره الملك محمود الغزني. وكان لهذه القصيدة وقع عظيم حتى أن رئيس وزراء ايران لم يتمالك نفسه عندما فرغ الزهاوي من الإنشاد أن سحب يده وقبلها على ملأ من الحفل. قال الصراف «كان ذلك يوم الزهاوي المشهود هنأه الشاه واحتفى به الناس. فلما عدنا الى الفندق دعاني الشاعر الشيخ وقال «يا ولدي أحمد، هل رأيت رئيس الوزراء يقبل يدي؟ قلت «نعم يا استاذ، وقد رأى ذلك كل من حضر الاحتفال. فقال الزهاوي «احفظ ذلك جيداً يا ولدي أحمد لترويه في بغداد، فأنت شاهدي الوحيد هناك فلتؤد الأمانة ولتوف بالعهد».

واتصلت أسباب المودة بين الصراف والشاعر التركي الفيلسوف الدكتور رضا توفيق. فلما جاء الدكتور رضا الى بغداد في أوائل سنة ١٩٤٠ بدعوة من صديقه الاستاذ الجليل محمود صبحي الدفتري وزير العدلية آنذاك وحلّ ضيفاً على الحكومة العراقية حفل مجلسه في فندق زيا بالزوار من مختلف المشارب والطبقات. كان الدكتور رضا توفيق

يتحدث بلغات متعددة شرقية وغربية ويخوض في مواضيع شتّى من الفلسفة والطب والتاريخ الى الموسيقى والشعر والأدب والتصوف . وكان يحب أن يستأثر بالحديث دون جلاّسه ـ ولعله لم ينفرد بهذه الصفة بل شاركه فيها أحمد حامد الصراف نفسه ـ فإذا جرى بحث موضوع من المواضيع ، تسلّمه الدكتور رضا فتكلم عنه ووفاه حقه باللغة التركية مثلاً ثم أعاد الحديث نفسه باللغة الانكليزية أو الفرنسية أو العربية الفصحى لفائدة من يعرف إحدى هذه اللغات من الحاضرين . وكنّا نحضر مجلس الدكتور رضا توفيق مع الصراف والصديق الدكتور مصطفى جواد وسرعان ما صار الصراف يتهرب من حضور هذا المجلس الذي قطع عليه صاحبه سبل الكلام . ثم سافر الدكتور رضا توفيق وسمح له بالعودة الى تركية التي زايلها عشرين سنة أو أكثر وأدركته منيته فيها ، فكتب الصراف صفحات مشرقة عن الأديب التركي الكبير نشرتها صحيفة «الزمان» البغدادية في شهر آذار ١٩٥٧ . وكان قد كتب عنه فصولاً حيّة قبل نحو من ربع قرن في ملحق «البلاد» الاسبوعي .

وارتبط الصراف بوشائج المودّة وصلات الأدب بشعراء البلاد العربية وأدبائها ، وفي طليعتهم بشارة عبد الله الخوري المعروف بالأخطل الصغير الذي حيّاه قائلاً :

بـدأ الكـأس وثنّـى	وسقـى الشعـر فغنّـى
طـائر مـن دجلـة	الخلـد الى لبنـان حنّـا
كـم لسحـر الشرق في عينيـه	مـن معنـىً ومعنـى
كلّما أنشـد قلنـا	عمـر الخيّـام معنـا
ينثـر الأنس على المجلـس	مـن هنّـا وهنـا
يـا رسـول الأدب العـالي ،	سـلام الشعـر عنّـا
قـل لبغـداد ، متـى	عـدت الى بغـداد ، إنّـا . . .

إن الصرّاف شجاع مقدام وقد روى عن نفسه أنه استدرج أحد أصدقائه من الأدباء الى بعض البساتين النائية وأوسعه لكماً وضربا لتناوله بالنقد اللاذع المرّ كتاب «عمر الخيام» عند صدور طبعته الأولى . ومن ذكريات الصبا التي حدثنا عنها أنه اتفق مع نفر من رفاقه التلاميذ على التغرير بأصحاب الحمير الذين كانون يقومون في بغداد القديمة بدور أرباب سيارات الأجرة .

كانت بغداد في ذلك العهد البعيد تنتهي عند باب «المعظم» . فإذا أراد امرؤ أن يذهب الى الأعظمية وقف عند الطاق في آخر محلة الميدان واستكرى حماراً يركبه ليقطع به الطريق الضيقة الممتدة بين البساتين الى جامع الإمام الأعظم . وجاء الفتى أحمد واصدقاؤه فاستأجروا الحمير ، ولم يكن أصحابها يرسلون أحداً مع دوابهم لأن الطريق واحدة لا تنحرف يميناً ولا شمالاً بل تنتهي حيث يكون رفاقهم الذين يتسلمون الحمير

من الراكبين في ساحة الأعظمية ويؤجرونها ثانية الى المسافرين الى بغداد. لكن فتياننا المكارين الأبرياء أوقفوا الحمير في منتصف الطريق وسحبوها سحباً في داخل البساتين الى ساحل دجلة وعبروا بها في «قفة» الى الجانب الغربي حيث تركوها ترعى في الحقول حرة طليقة . . . وظلّ الحمّارون أياماً طويلة يبحثون عن دوابهم التي لم تصل الأعظمية ويتساءلون أين ضلّت سبيلها.

لكن الصراف يخشى ركوب الطيارة ولم يستطع أصدقاؤه أن يحملوه على السفر جواً واستنفدوا في ذلك وسائل الإغراء والإقناع فكأنه يقول بلسان أحمد شوقي:

أركب الليث ولا أركبها ... وأرى ليث الشّرى أوفى ذماما

وقد استطاع الدكتور مصطفى جواد مرة أن يزين له السفر بالطيارة مسافة قصيرة من بيروت الى دمشق. فلما ارتفعت بهما سفينة الفضاء أخذ الصراف يبسمل ويحوقل ويتعوذ ويخاطب نفسه قائلاً: «يا أبا شهاب، ما حملك على ركوب هذا المركب وترك الأرض الثابتة وكيف تأمن على نفسك فوق الغمام؟ . . . فلما وصلت الطيارة الى الشام وهبط الأستاذ في المطار بسلام جسّ الأرض الثابتة تحت قدميه وحمد الله مقسماً ألا يعود الى التصعيد في الفضاء. وكذلك حرم رواد الفضاء الكوني من أمثال غاغارين وشبرد سلفاً زميلاً لهم لن يغريه مغر بالانطلاق في الصواريخ وارتياد مجاهل الكواكب والأقمار.

ولقد حدّثنا الجاحظ عن أعرابيّ شيخ أركب فيلاً، فلما علاه صاح: الأرض، الأرض. . . وأنزل فقال منشداً:

وما كان تحتي يوم ذلك بغلة ... ولكنّ تحتي من رفيع السّحائب

ودعي الصراف قبل سنين عديدة الى دورة ضباط الاحتياط وهو آنذاك مفتش عدلي فكتب اليّ من مقره في وزارة العدلية في ١٦ أيلول ١٩٣٩ يقول: «أنا يا أخي في كرب عظيم ومحنة ما بعدها محنة. إن الكاشحين الحاقدين غمزوا قضية إعفائي من دورة الاحتياط، فتجدد الخطب وما زلت أعانيه، ولست أدري ماذا ألاقي في هذه الأيام التي شوّه جمالها هتلر ألف لعنة عليه . . .

«سأزوركم يوم الخميس إما مودعاً إياكم وذاهباً الى دورة الاحتياط وإما ناجياً من هذه المحنة. لئيم ونذل من يقصّر في خدمة بلاده. لكن أين أنا من القراع والصراع والكفاح وحمل السلاح؟ لقد أصابني الأرق منذ ليال وفي استطاعتي الآن أن أرسم خريطة السماء. . . ».

ولم يكن من الأمر بدّ فمضى أحمد حامد الصراف الى الدورة وكان معه في التدريب الدكتور مصطفى جواد وفريق آخر من الأدباء والمحامين. وأوكل بهم عريف شديد صارم فكان يوقظهم قبيل الفجر ويتولى تعليمهم الرياضة والهرولة والجري والرمي،

ذلك العريف الذي ابتلى به معهما مصطفى علي فقال :

ودّعت عقــــلي وآرائـــي وتفـــكيــري وسرت طــوع عــريف الجيش عــاشـــور

وضاق أصحابنا بالأمر ذرعاً فلم تمض أيام قليلة حتى أعفي الصراف لتصحيح سنّه وأعفي مصطفى جـواد لإصـابتـه بـالتهـاب في العصب فـانصرف الأديبـان الى البحث والدرس والتحقيق والتنميق .

الصرّاف : حياته

ولد أحمد حامد في كربلاء سنـة ١٩٠٠ ، وكان أبوه الحاج موسى بن أحمد من ضباط الدرك العثماني وأصله بكتـاشي ، أما أمه فامرأة كـريمة من أهل المسيّب . ونشأ أحمد في الحلة وبغداد حيث تنقل والده بحكم وظيفته ، ثم تـوفي عنه وهو صبّي في نحو العاشرة فكفلتـه أمه وكـانـت من فضليـات السيـدات الحافظات المتكلّمات . ولـج أحمد حامـد المدارس الرسميـة ، وعلى أثر الاحتـلال الانكليزي ، إلتحق بـدورة للمعلمين وعيّن بعد نجاحه فيهـا معلماً في مدرسة الباروديـة في بغداد (شباط ١٩١٨) . ولم يلبث أن نقل في السنة نفسها معلماً في مدرسـة الحلة فمديراً لمدرسة علي الغربي (١٩١٩) فمـدير مدرسة الحلة (١٩١٩) فمدير مدرسة كربلاء (١٩١٩ ـ ١٩٢١) . ونقل في سنة ١٩٢٢ مدرساً في المدرسة الثـانويـة في بغداد فكاتبـاً في دائرة نائب مديـر المحاسبـات العام (١٩٢٢) فكاتبـاً في دائرة خزينـة بغداد (١٩٢٣) . وانتمى في الـوقت نفسـه الى مدرسـة الحقوق (١٩٢٢) وتخرّج فيها سنة ١٩٢٦ .

نقلت خـدماتـه سنة ١٩٢٣ الى وزارة العـدلية فعيّن كاتبـاً فيها فمـلاحظ التحـرير (١٩٢٦) فمـدير المطبـوعات في وزارة الـداخلية (أيلـول ١٩٢٨ ـ ١٩٣٠) فمـلاحظ مكتب المطبـوعات حين خفضّت درجـة المديـريـة نفسها (١٩٣٠) . وصحب تـوفيق السويدي في تموز ١٩٢٨ الى مؤتمر جدّة المعقود مع الملـك عبد العزيز آل سعود سكرتيراً للوفـد العراقـي . ونقل بعد ذلك سكـرتيراً لقنصلية العـراق في كرمنشـاه (١٩٣٠) لكنه استقال وامتهن المحاماة .

وأعيد تعيينه مدعياً عامـاً للواء البصرة (ك أول ١٩٣٣) فمعاون رئيس تسوية حقوق الأراضي (آذار ١٩٣٦) فنائب المدعي العام في الموصل (ك ثـاني ١٩٣٧) فمفتشاً عدلياً (آذار ١٩٣٩) حتى ألغيت وظيفته (تموز ١٩٤٠) . ثم عيّن حاكماً منفرداً للناصرية (آب ١٩٤٠) فحـاكم تحقيق الرصـافة (نيسـان ١٩٤١) فحاكم صلح الأعظميـة (حزيـران ١٩٤١) فحـاكم الكـوت المنفـرد (تموز ١٩٤١) فنـائب المدعي العـام في بغـداد (آذار ١٩٤٢) فحاكم بداءة كركـوك (حزيران ١٩٤٢) فحاكم الصلح الأول في الموصل (تموز ١٩٤٣) فنائب رئيس إجراء الموصل (ت ثاني ١٩٤٣) فحـاكم كربلاء المنفـرد (نيسان

١٩٤٤) فحاكم بداءة الحلة (حزيران ١٩٤٥) فالرمادي (أيلول ١٩٤٦). ونقل من ثمَّ عضواً في المحكمة الكبرى في بغداد (ت أول ١٩٤٧) ولم يداوم أياماً حتى نقل نائباً للمدعي العام للواء بغداد (ت أول ١٩٤٧) فحاكم بداءة الكاظمية (ت ثاني ١٩٤٧). وعيّن مديراً عاماً للدعاية (أيار ١٩٤٨) فرئيساً لتسوية العمارة (١ ت ثاني ١٩٤٨) فرئيساً لتسوية بغداد (آذار ١٩٥٠) فمدوناً قانونياً (أيلول ١٩٥٢) حتى أحيل على التقاعد برغبة منه في أيلول ١٩٥٤، فأخذ يزاول المحاماة.

وقد انتخب عضواً بالمجمع العلمي العربي في دمشق (ت ثاني ١٩٤٧)، وعضواً بالمجمع الايراني في طهران (فرهنكستان) (١٩٥١). وله مقالات وبحوث ومحاضرات كثيرة نشرت في الصحف والمجلات العربية. من مؤلفاته المطبوعة: عمر الخيّام (١٩٣١)، وقد أعيد طبعه مرتين موسّعاً، الشبك (١٩٥٤). أما مؤلفاته المخطوطة فكثيرة، منها: بين بغداد وطوس، الدراويش، رسالة في الحلاج، رسالة في ابن سينا وأدبه الفارسي، الزهاوي شاعر العراق، الخ.

توفي أحمد حامد الصرّاف في بغداد في ١٨ شباط سنة ١٩٨٥ بعد مرض طويل.

***

كان لأحمد حامد الصرّاف مساجلات ومداعبات مع أكثر أدباء عصره.

قال ذات يوم: أشهد على رؤوس الملأ أن الشبيبي (محمد رضا) شاعر كبير، أجل، شاعر كبير أشعر من البنّاء (عبد الرحمن)!

وغضب ذات يوم من عباس العزاوي فحفظ مقدمته للجزء الأول من «تاريخ العراق بين احتلالين» وصار يقرأها في الدواوين والمجالس الأدبية بأسلوب عابث مزرٍ. ثم يقول: أسمعتم مثل هذا الخلط والخبط؟ إنها مقدمة تاريخ العزاوي مؤرخ العراق!

ونقل العزاوي في تاريخه أخباراً كثيرة عن «دوحة الوزراء»، وهو كتاب مخطوط نادر باللغة التركية القديمة المشوبة بالفارسية. فقال الصراف: وهل يعرف العزاوي التركية ليترجم أخبار دوحة الوزراء؟

ونقل الحديث الى العزاوي فقال: وهل رأى الصرّاف بعينه نسخة من دوحة الوزراء ليستطيع الحكم في الموضوع؟

ولكم نشب الخلاف بين أحمد حامد الصرّاف ومصطفى جواد وعباس العزّاوي وغيرهم من الأدباء والشعراء واشتدّ الخصام والجفاء، فكنتُ أقيم لهم المآدب والحفلات إصلاحاً لذات البين وجمعاً للشمل ورتقاً للفتق. وفي ذات مرة عاد الخلاف الى الاستحكام بين الصرّاف والعزاوي وتراشقا بسهام الكلام، فقلت لهما مداعباً: إنكما تعملان هذا عمداً لتفوزا منّي بمأدبة الصلح، ولكن سأخلف ظنكما هذه المرة وأترككما تتنابذان وتتنابزان ما شئتما وشاء لكما الظرفاء من الحسّاد والشامتين!.

والتقى الصراف والعزاوي في المجمع العلمي العربي بالشام وكانا على جفاء لا يكلم أحدهما الآخر، فقال العزاوي: لا بأس من التحدث بيننا ما دمنا في سورية حفظاً للمظاهر على أن نعود الى القطيعة في بغداد!.

رشح الصرّاف مديراً للتشريفات فرفض قائلاً: إن مدير التشريفات خادم مؤدّب.

ذهب أحمد حامد الصرّاف في إحدى زياراته الى طهران لتفقّد مكتبة الفرهنكستان. قال: وجدت وأنا أقلب في المخطوطات مخطوطة قديمة في الطبّ فقرأت فيها ما يلي معناه: «فصل في خضاب اللحية: خذ المواد كذا وكذا (وقد عدّدها المؤلف وأكثرها من الأعشاب) ودقّها في الهاون، ثم اعجنها بماء الورد واخضب بها لحيتك فلا تتحكم بها النار». قال الصرّاف: ووجدت في الحاشية بخط وحبر مختلفين كلاماً يظهر أنه أحدث عهداً من المخطوطة الأصلية مآله: «كذبت ولعنت، أيها الملفّق ـ عملت بوصفتك فاحترقت لحيتي وشوّه ذقني. فحذار حذار من الأفّاق الجاهل النصّاب».

وقد عيّن الصرّاف حاكماً مدنياً في الكوت فجيء الى المحكمة بأحد أفراد رئاسة عشيرة الميّاح متهماً بقتل عبد له، وقيل له: أرفق به فالقتيل عبد لا قيمة له.

قال: لا عبد ولا حرّ أمام القانون! ودعي الى وليمة فخمة وبذلت له الأموال فلم يرتدع. وأخيراً هدّد بالقتل فلم يسعه إلا الهرب الى بغداد وطلب نقله الى لواء آخر فنقل.

حدثني أحمد حامد الصرّاف انه أصدر كتابه عن عمر الخيام فقال له الشيخ جواد الدجيلي: لقد جمعت كتابك من شتى المصادر فلفقته حتى خرج كالثوب المرقع. قال الصراف: موعدنا في المساء في مقهى الباب الشرقي لنتكلم في الموضوع.

وفي المساء التقيا، وكان الباب الشرقي آنذاك مجموعة من البساتين الملتفّة الأشجار لم يصلها العمران، فسارا والشيخ جواد يشرح وجوه الانتقاد والمآخذ على الكتاب. وفجأة وقف الصراف وأخذ بتلابيب الشيخ وقال له: أتنتقد كتابي الذي تعبت في تأليفه؟ وانهال عليه ضرباً ولكماً والشيخ يستغيث ولا مغيث. وتركه أخيراً على أسوأ حال وعاد أدراجه.

وفي صباح اليوم الثاني جاء الشيخ جواد يشكوالصراف الملاحظ في وزارة العدلية الى مديرها العام توفيق السويدي. فاستدعى السويدي الصراف وقال له: كيف تعتدي على الشيخ بالضرب؟ فأجاب: هل اعتديت عليه في الدائرة؟ قال الشيخ: لا. قال السويدي: إذن فارفع شكواك الى الشرطة.

مصطفى علي

الأديب الحقوقي الوزير، راوية الرصافي ومؤرخه، مصطفى علي محمد الكُرْوي القيسي، ولد في بغداد سنة ١٩٠٠ وانتمى الى دار المعلمين الابتدائية (١٩١٩) فتخرّج فيها وعيّن معلماً في أيلول ١٩٢١. ودرس بعد ذلك في مدرسة الحقوق

فنال شهادتها سنة ١٩٢٩ .

وقد ترك مهنة التعليم فعيّن كاتباً في ديوان مجلس الأعيان (١٩٢٥)، فرئيساً للكتاب، فكاتباً عدلاً (١٩٣٢)، فملاحظاً للأمور الذاتية بوزارة العدلية (١٩٣٤) وانتخب في شباط ١٩٣٧ نائباً عن بغداد في مجلس النواب .

أولع بالأدب منذ فجر شبابه، فكتب المقالات في الصحف والمجلات، ولازم الرصافي أعواماً طويلة حتى أصبح راوية شعره ومؤرخ حياته والملّم بأموره دقيقها وجليلها. واشترك مع حسين الرحال في تحرير مجلة «الصحيفة» في كانون الأول ١٩٢٤، وكانت من الصحف التقدمية التي تدعو الى تحرير الأفكار وسفور المرأة والأخذ بأسباب التقدم والنهضة، ولم تعمّر طويلاً. ثم أصدر مجلة «المعول» في أيلول ١٩٣٠ فحجز عددها الأول وصودرت نسخه. وكتب مصطفى علي في جريدة «الأيام» البغدادية (٣١ كانون الأول ١٩٦٢) فصلاً ممتعاً عن قصة هذه المجلة الموؤودة في مهدها، فقال إن معروف الرصافي، حين علم بعزمه على إصدار «المعول»، إرتجل بيتين كانا شعاراً للمجلة :

حـال جـدار من تقـاليـدنـا	دون الـذي نحن بـه نعتلي
فنحن نحتـاج الى هـدمـه،	والهدم يحتـاج الى المعـول .

***

إمتهن مصطفى علي المحاماة بضع سنوات، وتولّى التدريس في المدرسة الثانوية بالبصرة سنة ١٩٣٨/ ٣٩ . ثم عاد الى الوظيفة فعيّن مفتشاً للطابو (آذار ١٩٤٢) فمدوناً قانونياً (أيار ١٩٤٨) فمديراً للحقوق بوزارة المالية (كانون الثاني ١٩٥٠) فحاكماً بمحكمة استئناف البصرة (تشرين الثاني ١٩٥٠) فنائباً لرئيسها (أيلول ١٩٥٤). ونقل رئيساً للمنطقة العدلية في لواء ديالى (حزيران ١٩٥٥) فمفتشاً عدلياً (تشرين الثاني ١٩٥٦). وتفجّرت ثورة تموز فاختير وزيراً للعدل في الجمهورية العراقية (١٤ تموز ١٩٥٨)، وشغل هذا المنصب الى ١٤ أيار ١٩٦١ . واعتقل بعد ثورة رمضان (١٩٦٣)، ثم أطلق سراحه بعد أسابيع قلائل واعتزل الحياة العامة، منصرفاً الى الكتابة والأدب .

مؤلفاته وأدبه :

مصطفى علي في طليعة كتّاب النثر العرب في عصره، جريء القلم، مشرق الديباجة، ناصع البيان، يتحرّى في كتابته اللفظ الفصيح والقول الصريح. وقد كان منذ عهد الشباب الباكر داعياً الى التقدم وتحرير المرأة ومكافحة الآراء الرجعيّة، وتعرية الأدب الجامد والمتحذلق والمتحجّر. وأثبت في كتابه «جرائم مرّت أمامي»، وهي

قصص مستلهمة من عمله في محكمة الجزاء الكبرى بالبصرة، إنه يحسن سرد القصة وحبك عناصرها وسلسلة وقائعها بأسلوب جذاب يأخذ بمجامع القلوب.

ومن مؤلفاته المطبوعة: رسم الخطّ العربي (في تبسيط قواعد الإملاء ١٩٣٠)، في هامش السجل(١٩٣٧)، وهي مجموعة مقالات قصيرة نشرها في الصحف سنة١٩٢٧ ـ ٢٨ و ١٩٣٢ ـ ٣٤، أدب الرصافي (١٩٤٧)، كتاب «الرصافي»، وقد نشر منه الجزء الأول (١٩٤٨)، جرائم مرّت أمامي (١٩٥٨)، محاضرات عن معروف الرصافي (ألقاها على طلبة معهد الدراسات العربية العالية بجامعة الدول العربية، ١٩٥٣).

وقد وضع دراسة موسّعة عن الرصافي وسيرته ومؤلفاته وشعره وشرح قصائده وذكر مناسبات نظمها وغير ذلك من شؤون الشاعر الكبير تستوعب مجلدات عديدة، فكان من الرصافي مثل جيمس بوزويل (١٧٤٠ ـ ١٧٩٥) الذي سجل سيرة الأديب الانكليزي الكبير صموئيل جونسون (١٧٠٩ ـ ١٧٨٤) ودوّن حركاته وسكناته وذكر أقواله وأحاديثه وعظاته.

قابل بوزويل معبوده الأدبي لأول مرة في سنة ١٧٦٣، وكان محامياً ناشئاً قنّاصاً لأسود الشهرة. جاء الى لندن من مسقط رأسه في اسكوتلاندة وسعى للقاء جونسون الذي بلغ آنذاك قمّة مجده الأدبي إذ نشر معجمه اللغوي قبل ذلك وتنافست المحافل الأدبية والأندية الاجتماعية على دعوته والاحتفاء به. وتمّ لقاء الرجلين ـ كما رواه مترجم جونسون نفسه ـ في مكتبة تجارية فتحدّثا، ولم يحظ الشاب بكبير اهتمام من العلاّمة الكهل. ولم يخف بوزويل خيبة أمله بعد خروج الرجل العظيم، لكن الكتبيّ طمأنه وقال له: «لا تنزعج، لقد رأيت أنه مال إليك كثيراً». وكذلك كان، فلم يمض شهر واحد حتى كان الرجلان يتعشّيان جنباً الى جنب ويتساران في بعض المطاعم، فكان ذلك بداية صحبة العمر وحدثاً أدبياً له شأنه في التاريخ الانكليزي.

وروى لنا مصطفى علي في الجزء الأول من كتابه «الرصافي» أول عهده بالشاعر: سمع الفتى مصطفى باسم الرصافي، وقرأ شعراً له، واقتنى ديوانه، وتنسّم أخباره وتتبع سيرته وتعقب خطواته، فلما عاد الشاعر العراقي الى رصافته بعد الحرب العظمى فكر جمع من طلاب دار المعلمين، ومصطفى علي بينهم، أن يقصدوه زائرين مرحّبين. وهكذا اكتحلت عين الشاب لأول مرّة بمرأى الكهل الشهير الذي أعجب به وحفظ قصائده، فوجد فيه «رجلاً طويل القامة، أسمر اللون، وثيق التركيب، ذا لحية خفيفة سوداء وشاربين غير مهذبين، مهيب الطلعة، مرآه يوجب عليك احترامه، أنيقاً في ملبسه. وكان مرتدياً بذلة شتوية لازوردية، وعلى رأسه طربوش... وكان حين يتكلم يستعين بيده اليمنى فيشير بها إشارة هادئة، وبعينيه الصغيرتين البرّاقتين... فكانت عيناه الثاقبتان تنفذان الى أعماق النفوس من سامعيه كأنه يريد أن يتغلغل فيخاطب النفوس لا الشخوص، بل كأنه ينظر بعين الشعر التي يقول فيها:

وللشعـــر عين لـــو نظـــرت بنـــورهـــا الى الغيـب لاستشفقت مـــا في بطـــونـــه . .

وتحقق حلم الشباب، فأرهف الأذن لسماع إنشاد الشـاعـر، وأعدّ القلم لكتـابـة شعره، وهيّأ الصـدر لحفظه ووعيـه. وكانت تلك الجلسـة الهادئة فاتحة صـداقة دامت عشرات الأعوام وامتدّت الى ما بعد موت الشاعر، إذ أصبح طالب دار المعلمين امتداداً لحياة الرصافي وشعره ونهجه .

***

لخّص مصطفى علي أهـدافه حينما أصبـح أول وزير للعـدل في الجمهـورية فقـال: «أهـدافي، كأهداف زمـلائي، خدمـة الشعب والسير بـه في ركب الحضارة والتقـدم، واعـداده وتهيئته ليجـاري ركب الأمم الحيّة في هـذا العصر، وإنقاذه ممّـا كان يعـاني من مهلكات الشعب: الجهل والفقر والمرض» .

ومن أمثلة أسلـوبه الكتابي وآرائه الحرة نجتـزىء بنقل قسم من مقال كتبه في كـانون الأول ١٩٢٧ بعنوان «القبعة والطربوش» .

«القبعة لباس للـرأس كغيرها من الألبسة، اعتاد أن يلبسها قـوم ولم نعتد أن نلبسها نحن، فرميناها ظلماً بكل مـا يشين، وجعلناها رمزاً للكفر وعلامـة للمروق من الوطنية وشعاراً للهرب من الشرقية و. . . و. . .

عادة لو اعتادها أسلافنا لكفونا شرّ هذا النزاع والخلاف، ولو اعتدناها نحن لكفينا أبناءنا وأحفادنا مؤونة ذلك .

أقول ما تقدم، بعد ما قرأت في «الهلال» ما نشر حول القبعة والطربوش: فمصطفى صادق الـرافعي يدافع عن الطربوش ويـدلي بأسباب تمسّكه به، ويشرح محمـود عزمي سبب لبسه القبعة ويعزز قوله ببراهينه في فضلها على الطربوش .

فالرافعي يرى أن القبعة على رأس المصريّ في مصر تهتّك أخلاقي أو تهتك سياسي أو تهتك ديني أو من هـذه كلها معـاً. ثم هو يستمسك بـالطربـوش لأنه يـريد الـدقة في التعبير لتعبّر به نفسه حين تعلن عن نسبته وقوميّته .

وعزمي يرى أننا نأخـذ من حضارة اليوم كلّ مظاهرها مـا خلا القبعة. ثم يقارن بين خفّة قبعة الصيف التي ذاق حـلاوتها في فرنسة وبين كبس الطربوش على دمـاغه الذي ذاق مرارتـه في مصر. وقد لبسها بعـد أن أفتى جمع من الأطباء بفـائدتها وبتفضيلها على الطربوش .

يتكلـم الرافعي عن حرص شديد على ما ألفـه لأنه وجد نفسه مطربشاً بحكم العادة والمحاكاة ودون أن يجهـد نفسه ويختاره تفضيلاً منـه على سواه. ولكنه الآن يحاول أن يجد أسبابـاً يدّعي أنه يتمسّك بـالطربوش من أجلهـا، لا بل يحاول أن يخلق تلك الأسباب التي من أجلها يستمسك بالطربوش .

ومن حسن الإتفـاق أن مجلة الهلال نشرت صورة الـرافعي الى جنب صورة عـزمي في العدد الـذي نشر فيه مقالتيهما، فتأمّلـت في الصورتين، فلـم أجد الفـرق بينهما في الزيّ

سوى قبعة عزمي وطربوش الرافعي . ولو صادف أن صوّرا حاسري الرأس لما وجدنا بينهما فرقاً في الزيّ مطلقاً .

زيّ الرافعي ، كزيّ عزمي ، إفرنجي : بذلته إفرنجية ورباطه افرنجيّ ، حليق اللحية مهذّب الشاربين . وأنا أزعم أن آلاته وأدواته البيتيّة افرنجيّة كذلك . فهذه كلها لا تخرجه عن شرقيّته ولا عن ديانته ولا عن نسبته . . . ولكن القبعة . . . القبعة وحدها تخرجه عن تلك الصفات التي يحرص عليها .

لو كان الرافعي يوم بدأ القوم يلبسون الملابس الافرنجية لوقف تجاه الأزياء الحديثة وتجاه «الرباط» منها خاصة موقفه الآن تجاه القبعة ، ولكنه اليوم مطمئنّ راض بملابسه لأنه نشأ على ذلك ولأنه اعتاد أن يراها هكذا .

أجزم لو نشأ الرافعي ورأى القبعة تلبس في مصر، ثم حاول عزمي ومن على شاكلة عزمي إبدالها بالطربوش التركي «الشرقي» لوقف تجاهه موقفه الآن تجاه القبعة . . . ألا رحم الله المتنبّي إذ يقول :

راعتك رائعة البياض بمفرقي ، ولو أنها الأولى لراع الأسحم

فهل هذه إلا عادات قضت على الرافعي وعلى كثير من أمثال الرافعي من الكتاب أن يفكروا لأنفسهم؟ . . . » .

نظم مصطفى علي الشعر للتفكهة والدعابة . دعي الى دورة ضباط الاحتياط في آذار ١٩٣٩ ، فضاق ذرعاً بالمدرّب العريف عاشور، وكان قاسياً عنيفاً ، فقال فيه من أبيات :

ودّعت عقلي وآرائي وتفكيري ... وسرت طوع عريف الجيش عاشور

عاشور، لست بذي رأي فأتبعه ... لكن بذاك قضى لؤم المقادير

لولا السياسة ما أبصرت لي شبحاً ... ولا رأيتَ بزيّ الجند تصويري . . .

وهجا بعض أصدقائه فقال :

. . . إنني قد أكلته بالتجاريب (م) ... فلا تسمعوا الى من ذاقه

ما حوى قطّ من صفات بني آ ... دم إلاّ صلافة وصفاقه

إن أهين استكان ذلاً وإن (م) ... أكرم في محفل أهان رفاقه

تنكر الذوق والحجى والسّجايا ... حين تبلو سلوكه ومذاقه

هو لا يطمئنّ للمرء إلاّ ... حين يبدي خداعه ونفاقه

ثم قال يذكر البصرة :

صاحِ عرّج على حمى البصرة الفَيْحَا (م) وسائله : هل سلا مشتاقه؟
وتلطّف وحيّها باحترام فهي في المجد والعلى سبّاقه
أنا صبّ مدلّه بهواها فهواها استباح قلبي وشاقه
بلد حقّه الجمال وساد الـ (م) ـحسن والزهو والبها آفاقه
كلّ ما ضمّه حبيب لنفسي وبقلبي له أجلّ علاقه
قف بها وادّكر ليالي لهو لو سلا القلب هيجّت أشواقه
كم سهرنا نلهو بمجلس أنس والدجى فوقنا يمدّ رواقه
مجلس عمّه الصفاء وساد الـ (م) ـودّ فيه وجمّلته الطّلاقة
نسرق الأنس من عيون زمان شارد اللّبّ لا يرى سرّاقه
قد أمنّا الغوائل السّود طراً ونسينا من دهرنا إرهاقه
واجتلينا من مطلع الشمس نوراً فاق إشراق كأسنا إشراقه
عصبة قد تحرّرت ليس فيها غير من رام في الحياة انطلاقه
كلّ ذي رقّة وطبع سليم شاقه مجلس السرور وراقه
طاب نفساً فلا يرى العيش إلاّ أن يوالي اصطباحه واغتباقه

وبعد أن يسهب في وصف مجلس الأنس وصفاء المودّة يعود الى مهجوّه فيذكر اقتحامه لذلك المجلس وتعكيره لصفوه وهنائه .

مصطفى علي

استحضار الأرواح

مال مصطفى علي في الأعوام الأخيرة الى استحضار الأرواح : فقد قرأ مع رفاق له من المحامين والأدباء الفضلاء كتباً في الموضوع ، فجرّبوا طريقة مخاطبة الأرواح بالقدح . وذلك أنهم كتبوا الحروف الأبجدية والأرقام وطائفة من الكلمات الشائعة على رقعة ورق كبيرة وضعوها على المائدة ، ثم جلسوا بخشوع وطلبوا حضور الأرواح . ووضع اثنان منهم جلسا متقابلين يدهما على القدح الذي صارت الروح تحرّكه على وجه خارج عن إرادتهما ـ كما يشعران ـ فيقف عند أحد الحروف أو الكلمات . ويتولىّ بعض الحاضرين تسجيل الكلمات التي تمليها الروح عن طريق القدح ، فإذا توقفت عن البثّ ، قرئت الجملة وكانت واضحة مفهومة .

وظلّ الصحاب يعقدون مجالسهم في ليالي السبت ، وسجلوا أحاديث وأجوبة كثيرة

لأرواح متعـددة معـروفة ومجهولـة .

ولا عجب أن آمن مصطفى علي وصحبه بـاستحضار الأرواح ، وقـد آمن بذلك من قبل علماء أعلام وأدباء يشـار إليهم بالبنان ، كالسر أوليفر لودج العـالم الفيزيائي والسر آرثر كونان دويل الروائي الانكليزي الشهير. . . وادّعى الشاعر المتصوّف وليام بليك أنه كتب قصائد بإملاء مباشر من أصدقائه في عالم الخلود (كما قال) .

وقـــد حضرت أرواح عـــاش أصحـــابها قبل مئـــات السّنين وأملت سيرتها على الحاضرين . واستحضر الجماعـة أيضـاً أرواح فـريق من أصـدقـائهم المتـوفّين كجميل صدقي الزهاوي والدكتور عبد الجبار عبد الله رئيس جامعة بغداد الخ .

***

إشتركت في بعض تلك المجـالـس في شبـاط ۱۹۷۳ ونظمت في ذلك مقطـوعـات شعرية قدمتها الى الاخوان ، منها :

مناجاة الأرواح :

هفـتِ النفـس الى الغيـب المَصُـــــون — واعترتها هـــزّة الـــوجـــد المثير

عجبــاً قـــد بهر النــور العيــون — واجتلى الأشبـــــاح في مَسْرى الأثير

خثــر الإحســاس واعتـلّ الشعــور — وغــدا الجسم كشفّــاف الثيـــاب

ضمّ روحـــاً من هَيُــولَى ، والبخــور — يغمـــــر الجوّ بطيبٍ وضبـــــاب

وسرت مــن أُفُـقٍ نـــــاءٍ رفيـع — نغمات مثـل أنســـام الـــربيع

تحمـل الحبّ وأنفـــاس الخلـــود — فتنـــاجـت في سكــون وصفـــاء

أنفس قـــد ظهـــرت بعـد الخفـــاء — حـــرّة تختـال في سحـــر الـــوجـــود

لمصطفى علي ذكريـات طريفة كثيرة عن معـروف الرصافي، ومن الأسف أنـه لم يدوّن أكثرهـا . وقد حـدثني أن أم كلثوم قـدمت الى بغداد سنـة ۱۹۳۲ وأحيت حفلاتها على مسرح فندق الهلال . وقد غنّت ، فيما غنّته ، أغنية عراقية شهيرة :

«قلبك صخر جلمـود» ، أدّتها بتلطيف كلماتها وترقيقهـا خلاف اللهجة العـراقية . فقال الرصافي وكان حاضراً : ماذا نريد؟ أخذت لحم ثورنا فجعلته لحم غزال وقدّمته لنا هنيئاً مريئاً ! .

ولم ينظم الرصافي شيئاً في أم كلثوم ، لكنه نظم أبياتاً في المغنيّة الراقصة العراقية منيرة ، فقال :

هـل سمعتم منيرة مـــذ أفـاضـت — مـن بـــديع الغنـــاء في كلّ فـنّ

مـــذ أقـــرّت بـــرقصهـــا كلّ عين — واسترقّـت بصــــــوتها كـل أذن

رقصهـــا يـــرقص القلــوب على أنّ — غِنـــاهــــا عن المزامير يغني . . .

لكنّ شعراء عراقيين كثيرين حيّوا أم كلثوم، في مقدمتهم جميل الزهاوي الذي قال:

الفنّ روض أنيق غير مسؤوم ... وأنت بلبله، يا أمّ كلثوم

وقال الشيخ جواد الشبيبي:

قمريّة الدّوح، يا ذات الترانيم ... مع النسور على ورد الرّدى هومي

وهو تكليف المطربة ما فوق طاقتها!

وقال الرصافي أيضاً في المغنية منيرة:

هلمّ الى ذا الغناء الذي ... منيرة منه أتت بالعجب
أليست منيرة في عصرنا ... مليكة فنّ غناء العرب؟

***

مصطفى علي الأديب يؤمن بتفاهم البشر وتقاربهم ومحو الخلافات الطبقية والسياسية والنعرات الدينية والمذهبية. وقد كتب في رسالة خاصة الى المؤلف يقول:

«فالبشر، بعد تاريخه الدامي وبعد ما شاد مدنيّته هذه التي يفخر بها (!) وأقامها على أسس من الهمجية تكدست فيها جماجمه وتجمعت أشلاؤه، لا بدّ أن يثوب الى رشده ويرجع الى صوابه فيتدبّر ويتفكّر... ولا بدّ أن يعقل فيخلع عنه نير التقاليد ويتحرر من العادات فيتقارب ويتفاهم ويتّحد. ولا بدّ أن يدين بدين الإنسانية ويقدّس الأخوّة البشرية. وهو سائر نحو هدفه وإن كان سيراً وئيداً، وإذا ما سار فهو واصل لا محالة».

حدثني مصطفى علي أنه كان في شبابه مولعاً بالمقامات والغناء العراقي. كان يجلس مع رفاقه في مقهى محلّته «قنبر علي» الى ساعة متأخرة من الليل، فإذا عاد يوسف زعرور مغنّي المقام المشهور من الملهى الذي يغني فيه دعوه الى الجلوس معهم برهة من الزمن. فإذا ما احتسى القهوة وشرب الشاي، لم يجرؤ الشبان أن يطلبوا إليه إسماعهم شيئاً من المقام لعلمهم بأنه عاد متعباً، بل يأخذ أحدهم بالدندنة ويقول للفنان: أليس هذا المدخل الى مقام البهيرزاوي أو الدشت؟ فيردّ عليه القارىء الكهل: كلا، يا ولدي. ويأخذ بالقراءة وينتقل شيئاً فشيئاً من مقام الى آخر. وهكذا كان مصطفى علي ورفاقه الشبّان يستدرجون الفنّان الى تشنيف آذانهم بطرائف من فنّه المحبوب.

وقال لي مصطفى علي: أعتقد أنني أستطيع مصادقة جميع الناس على اختلاف طبقاتهم وأديانهم ومذاهبهم لأنني أحاول تفهّم آرائهم وعدم المسّ بمعتقداتهم. لكنّ الوحيدين الذين لا أستطيع مجالستهم والتفاهم معهم هم اليزيدية لتعصبهم الشديد. فقد توفيت زوجة حاكم محكمة الشيخان فعقد لها مجلس الفاتحة وكلّف كاتب المحكمة، وكان مقرئاً حسن الصوت، بتلاوة آيات من القرآن. ولما افتتح الكاتب ترتيله

بـ «أعوذ بالله من الشيطان الرجيم» ، هاج اليزيديون وماجوا وتجمعوا حول الدار يريدون قتل المقرىء . ولم تستطع الشرطة إنقاذه وتهريبه الى الموصل إلاّ بشقّ النفس .

كان ذلك منذ خمسين سنة . أما اليـوم فأقبل الجيل الجديد من اليزيديين على التعليم والثقافة واختلطوا بجيرانهم ونبذوا التعصب الذميم .

أصـدر مصطفى علي ديوان الـرصافي بشروح وتعليقـات موسعـة ، وقد نشرتـه وزارة الإعـلام في خمسة أجـزاءٍ (١٩٧٢ ـ ٧٧) . ونبهت مصطفى علي الى قصـائد للرصـافي لم تنشر في دواوينه (منهـا قصيدة في رثاء محمـد سامي بك مـدير معارف بغـداد في العهد العثماني) وسألتـه أن ينشرها في الـديوان الشامـل الذي أشرف على إصـداره ، فقال : إن الرصافي قد أسقطها في حياته فلا أنشرها بعد مماته .

أصيب مصطفى علي برمد في عينيه سنـة ١٩٧٣ فحرم البصر إلا بصيصاً ضئيلاً من النور يهتـدي به في طريقـه ، فصار يستكتب أولاده وأصـدقاءه ويستقرئهم في شـؤونه . ويقول إنه أصبح كأبي العلاء المعري «المستطيع بغيره» .

وقد أدركته الوفاة في بغداد في ٤ آذار ١٩٨٠ .

على أثر سفـري الى لندن سنة ١٩٧٤ ظللت أنـا ومصطفى علي نتبادل الـرسائل الى حين وفاتـه سنة ١٩٨٠ . وكـان بصره ضعيفاً فكـان يستعين بأولاده أو بعض أصحـابه يملي عليهم رسائله . وكان يردّد أنه «المستطيع بغيره» إقتداء بأبي العلاء شاعر المعرّة .

كتبت إليه عن تناقض آراء الـزهاوي والرصافي في شعـرهما ، فكتب إليّ في ٤ حزيران ١٩٧٨ يقول : «أمـا ذكرك تنـاقض الرصافي والـزهاوي في شعـرهما فليس ذلك ببدع في الشعـراء ، ونظرة خـاطفة الى شعـراء العرب تكفـي لأن تؤكـد لنا أنهم جميعهم من هـذا الطراز. وإذا كان بينهـم من شذّ عن هذه الطريقة فهو من النوادر.

«والـذي أراه هو أن ننظـر الى إجـادة الشاعـر أكثر من أن ننظـر الى ثبـاته على مبـدأ واحد . فـالشاعر دقيق الحسّ يتأثـر بالأحداث المختلفـة فينطق أو يضطّر الى النطق بما يجول في خاطـره . وقد أشار القرآن الى ذلك بقـوله : ﴿**والشعراء يتّبعهم الغـاوون . ألم تر أنهم في كل واد يهيمـون وأنهم يقولـون ما لا يفعلـون**﴾ . وإن كنتُ من الغاوين الذين اتبعتُ الرصافي وغيره من الشعراء» .

جعفر الخليلي

بقيت النجف قـروناً مـديدة معقـلاً من معاقل الـدين واللغة ، عـزلتها الطبيعـة في صحراء قـاحلة لا مـاء فيها ولا نبـات ، وحرمتها الـرياض الـزاهرة والحقـول الناضرة ، وأكسبت أهلها صرامة وجـداً وصلابة وجفاءً وزهداً في مباهج الـدنيا وملاهيها . دارت الحياة حول الـروضة الحيدرية المطهّرة ، وانتشرت المدارس يؤمهـا طلبة العلم من أقاصي

البقاع ودانيها ليجلسوا على البسط والحصران بين أيدي المؤدبين والمدرسين وليقضوا أعواماً طويلة في المطالعة والحفظ ومراجعة الكتب الصفر العتيقة التي طالعها وحفظها وراجعها أبناء الأجيال المتعاقبة. وقامت المقابر تمتّد من ظاهر البلدة وتلاصق مساكن الأحياء وتزاحمها وتدافعها. قال الصافي النجفي:

صدق الذي سمّاك في «وادي طوى» يا دار، بل وادي طوى وعراء

جلست على الأنهار بلدان الورى، فعلامَ أنت جلست في الصحراء؟

وقال

فصادرات بلدتي مشائخ وواردات بلدتي جنائز

وهبّت على المدينة الهرمة في مطلع القرن العشرين نسائم التبديل والتحويل، فنادى فريق من العلماء بالتجديد والإصلاح، ودعوا الى إنشاء الحكم الدستوري في إيران وتقييد السلطة المطلقة. وتبعتهم زمر الشباب المتحمّس الذي أخذ يطالع مجلات مصر ولبنان والشام وينظم الشعر في المطالب السياسية والاجتماعية. وأنشئت الى جانب المساجد ودور العلم القديمة، مدارس عصرية تعنى بتدريس بسائط العلوم الحديثة. واصطرعت الأفكار بين القديم والجديد اصطراعاً شديداً لا هوادة فيه ولا لين، ومهدت السبل للإنتقاض على السلطة التركية أولاً وعلى الإحتلال البريطاني بعد ذلك، وهيّئت النفوس للتمرّد على الجمود ونبذ البدع التي التفّت حول الدين وكلّست مظاهره.

في تلك النجف المتحفّزة المصطرعة المتطلعة ولد جعفر الخليلي سنة ١٩٠٤. وكان أبوه الشيخ أسد من رجال الفضل والأدب يتعاطى الطب القديم شأن الكثير من أفراد أسرته، تلك الأسرة التي أنجبت أيضاً على مر العصور رجال دين بلغوا قمّة الزعامة الروحية. ونشأ جعفر بين أسرة متفتّحة في بيئة متزمّتة، وانتمى الى المدرسة العلوية التي أنشئت قبل عهد قصير لتعليم الصبيان على أسس حديثة. وأقبل على مطالعة الكتب الأدبية والمجلات بنهم شديد، وقرض الشعر وهو يافع.

وحدثت في النجف في أواخر العهد العثماني وبداية الاحتلال الانكليزي حركات وطنية طاغية اشترك فيها أخوه الأكبر عبّاس ووالده، لكن جعفراً لم يبلغ السنّ التي تؤهّله للعمل فاكتفى بالتطلع إليها والمساهمة فيها بفكره وروحه. ومال الى الكتابة فوضع، ولم يكد يشرف على عامه الثامن عشر، قصة إنسانية بعنوان «التعساء».

وامتهن التعليم عشرة أعوام في الحلة والنجف وسوق الشيوخ والرميثة، وكان مدرساً للتاريخ والجغرافية في المدرسة الثانوية بالنجف ثلاث سنوات. وأصدر في تلك الأثناء جريدة «الفجر الصادق» الأسبوعية (٧ آذار ١٩٣٠)، وكانت حرة النزعة، تدعو الى النهضة والإصلاح، فاضطرّ على غلقها في تشرين الأول ١٩٣٠ بعد أن أنذرته السلطات المسؤولة بعدم الجمع بين التدريس والصحافة.

واستقـال من التـدريس سنـة ١٩٣٣، ثم أصـدر جريـدة «الـراعي» (١٣ تموز ١٩٣٤)، وقد عطّلت لأسباب سياسية في ١٩ نيسان ١٩٣٥. وأصـدر جريدته الثالثة «الهاتف» في ٣ أيار ١٩٣٥، فكانت مدرسة سيّارة عالجت فنون الأدب وعنيت بالقصة وأظهرت مواهب جيل كامل من الشعراء والقصاصين.

وانتقل الخليلي بهاتفه الى بغداد سنـة ١٩٤٨، ثم جعل جريدته سياسيـة يومية (٢٧ كانون الأول ١٩٤٩)، مع مواصلة العناية بـالقصة والأدب وإصدار أعداد ممتازة سنوية جـامعـة. وعـاد الهاتف أدبيـاً أسبـوعياً في تشرين الأول ١٩٥٢ حتى احتجب سنـة ١٩٥٤.

أنشأ الخليلي بعد ذلك دار التعـارف للإعلان وأخـرج «موسـوعة العتبات المقـدسة» وهـو مشروع ضخم نهض بأعبائه وتـولى بنفسه شـؤون الإدارة والتحريـر والطبع والنشر والتوزيع، وجنّد لمساعدته أقلام صفوة من الأدباء والبحاثين والكتاب.

أمـا جعفر الخليلي الـرجل فهـو ـ كما وصفـه روكس بن زائـد العزيـزي ـ «ربعـة في الرجال، تكمن وراء لطفه المهذب رجولة حازمة تنمّ عليها نظرات فاحصة نفاذة. أناقة متناسقـة تدل على ذوق رفيـع، ونكتة حـاضرة بارعة يـواكبها وفـاء للصديـق وإنصاف للخصم وهدوء نفسي ينمّ على حياة عائلية سعيدة».

مؤلفاته وأدبه

جعفر الخليلي أديب وصحفيّ وشـاعر، وهو من رواد القصـة العراقية، لـه أسلوب لطيف، سلس العبارة، قريب المتنـاول، يطعم كتاباته بالحكايـات واللطائف والأمثال الشعبيـة. كتب في السيـاسـة والاجتماع والتاريخ والقصـص والأدب عامـة، وبـرع في وصف الحياة الاجتماعية ومعـالجة المشاكل العامة وتصوير المجتمع والأفـراد والدعوة الى الاصلاح وحرية الفكر والتسامح وتوسيع آفاق المعرفة والثقافة.

وضع مـؤلفـات كثيرة، منهـا: يوميّـات (في جـزءين) ١٩٣٥، التعسـاء (١٩٢٣) الضـائع (١٩٣٨)، عندمـا كنت قاضيـاً (١٩٤١) في قرى الجنّ (١٩٣٩)، من فـوق الرابية (١٩٤٩) تسواهن (١٩٥٣) على هـامش الثورة العراقية الكبرى (١٩٥٢) مجمع المتنـاقضـات (١٩٥٣) إعترافـات (١٩٣٧) حـديث القـوة (١٩٤٢) أولاد الخليلي (١٩٥٥) مقدمـة في القصة العـراقية (١٩٥٧) هؤلاء النـاس (١٩٥٦) جغرافيـة البلاد العربيـة (١٩٣٤) حبوب الاستقـلال (١٩٣٦) خيال الظلّ (١٩٣٦) حـديث السّعلى (١٩٣٤) السجين المطلق (١٩٣٦) آل فتلـة كما عـرفتهم (١٩٣٦) نفحـات من خمائل الأدب الفـارسي (١٩٦٥) ما الـذي أخذ الشعـر الفـارسي من العربيـة (١٩٦٧) كنت معهم في السجن (١٩٥٦) التمور قديماً وحديثاً (١٩٥٦) القصة العراقية قديماً وحديثاً (١٩٦٢) هكـذا عرفتهم أربعـة أجزاء ١٩٦٣ ـ ١٩٧٢) موسـوعة العتبـات المقدسـة

(صدر منها ١٣ جزءاً ١٩٦٥ ـ ٧١) الخ .

وله عدا ذلك مصنّفات مخطوطة منها :

نصيب بغداد من قصة كليلة ودمنة ، صفحات من الجيل الماضي ، الخ .

***

أصدر جعفر الخليلي الجزء الخامس من «هكذا عرفتهم» (١٩٨٠) ثم الجزء السادس (١٩٨٢) .

تغلب على قصص الخليلي الصبغة المحلية ، لكنها مع ذلك إنسانية الشمول ، فالبشر هم هم مهما اختلفت عصورهم وأقطارهم . وإنّ النماذج البشرية التي رسمها الخليلي لتجتمع في مناخ كثيرة بشخوص بوكاتشيو الايطالي وموباسان الفرنسي وأو. هنري الاميركي على تبايُن الزمان والمكان : فمزعل الفحّام الذي يطلب البركة ليوسّع عليه الرزق ولترفه أسرته الكبيرة ، وأم حسن المطلقة التي أبعد عنها ابنها وحرمت نعمة مشاهدته ، وموسى الذي يعرف من أين تؤكل الكتف والذي يسخّر الجنّ توسّلاً الى الانتقال من دار آهلة الى دار مستقلة فرشت له بأحسن الرياش ، وأبو علي الرجل المرح الفكه الذي يبتدع طريقة شاذة فريدة لتهدئة نفسه السريعة الى الغيظ والخصام ، وعبد اللطيف الحلاق المصارع الذي يهرب من وجه العدالة ويتخفّى خمس عشرة سنة ليجد بعد ذلك أنه لم يكن مجرماً ولم تكن هناك جريمة ، والشيخ أحمد المزدوج الشخصية ، الشرس في داره ، الهادىء الحيّي في السوق والشارع ، والحاج حسين البقال الذي اشتهر بأمانته وتساهله وكرمه ثم ظهر ، بعد موته ، أنه كان يغشّ بضاعته ويسرق زبائنه بمهارة جازت على الناس ، والشيخ دبعون القرويّ الذي يتظاهر بالعظمة الفارغة ويتشامخ على الجهلاء والسذّج ليحصل على المال فيقع في الشرك الذي نصبه لسواه ، كل أولئك وغيرهم من أبطال قصص الخليلي لهم أقرانهم ونظراؤهم في الأزمنة الخالية والأمصار النائية .

إن القاصّ الاميركي وليام سدني بورتر (١٨٦٧ ـ ١٩١٠) الذي عرف باسمه المستعار «او. هنري» قد خلّد في قصصه صوراً وشخوصاً من الحياة الاميركية في عهد استعمار الولايات الغربية والجنوبية والتوغل في مجاهل الصحارى والسهول والجبال المترامية الأطراف ، فروى أحاديث المجازفات وبراعة النصب والاحتيال في البورصة المالية وعلى قارعة الطريق ، وسذاجة أهل القرى ، وبؤس الطبقات الفقيرة في المدن الغنيّة الصاخبة ، في تلك الحقبة التي مرت واندثرت ولم يبق لها في الغداة من أثر . ويمكن القول إن الخليلي قد عمل لعراق النصف الأول من المائة العشرين ما عمله أو. هنري ، في قصصه السّاحرة ، لأمريكا منتصف القرن التاسع عشر ، فرسم ، ببراعة فائقة ودقة واقعية وإخلاص فنّي جميل ، الصور والشخوص التي عرفها وسمع بها وتخيّلها في

عهد الانتقال والتطوّر الذي مضى الى غير رجعة. إنّ معالم الحياة في النجف وحواضر الفرات وأرياف الجنوب ـ وهي في مقدمة مسارح قصص الخليلي ـ قد تغيّرت وتبدلت تبدلاً أساسياً خلال جيل واحد من جراء انتشار الثقافة ووسائل المعيشة العصرية، وسوف تجد الأجيال القادمة صور تلك الحياة وغرائبها في «أولادالخليلي» و «الضائع» و «هؤلاء الناس» و «في قرى الجنّ» و «عندما كنت قاضياً» و «من فوق الرابية» و «مجمع المتناقضات»، وتطّلع عل نماذج إنسانية خاصة في بيئتها، عامة في المجتمع البشري طوال العصور، ذلك الى جانب المتعة الروحية التي تنبثق من الأدب الواقعيّ المخلص غير المصطنع ولا المفتعل.

وجعفر الخليلي بعد ذلك أديب ذوّاقة وشاعر مطبوع. وقد رأيناه في «نفحات من خمائل الأدب الفارسيّ» يسدي يداً جميلة للآداب العربية والفارسية على السواء، فكان ـ كما قلت عنه في مناسبة ظهور كتابه ـ أديب اللغتين وجامع الحسنيين والذوّاقة الذي يحسن الاختيار ويحسن النقل والنظم والأداء.

إن نفحات الخليلي باقة عطرة من الزهور، زاهية الألوان، مختلفة الأشكال، عبقة الأشذاء. وهي نافذة تطلّ على خمائل الأدب الفارسي وتهيّىء للقارىء العربي أن يلمّ بشيء من روائع سعدي والفردوسي وحافظ وعرفي الشيرازي وعبيد زاكاني وأقرانهم. وتجمع «النفحات» فنوناً شتى من الشعر، ففيها الغزل:

قلتُ إن جئتني بثثتك ما بي ... من أليم الجوى وفرط الشقاء
أيّ شيء أبثّه، وأنا إن ... جئتني زال في مجيئك دائي؟

وفيها الهيام:

سألوني عن دار هاجرتي ... قلت: قلبي المولّه الدّنِفُ

وفيها الحكمة:

هذي الحياة مراتع، وقطيعها ... هذا الأنام، وذئبها الآجال
تغتال منها كلّ آنٍ واحداً، ... فترى ولا يرتاع منها البال

وفيها الرحمة:

لا تؤذها نملةً تسعى بحبّتها ... فإنها ذات روح ملء إحساس

وفيها الشك:

كم سعينا لكي ننال من الدنيا ... مناها فما بلغنا مناها
كيف نحظى بعد الممات بأخرى ... ما سعينا لها وما رمناها؟

وفيها الأمل:

قد تركنا الرياء والمكر طراً　　وانتزعنا غلّ القلوب لتصفو

فاسقنيها سلافة، فكما أنّا　　عفونا فإنّ ربّك يعفو

وفيها غير ذلك كثير من الصور والمشاعر والأفكار.

ولئن كانت المقطوعات أغلبها قصيراً فهنالك قطع طويلة جميلة كـ «العشاء اللذيذ» لأبي القاسم حالت، وهي قصة آكل لحوم البشر الذي قصد باريس من أواسط الأدغال الكثيفة ليختال تيهاً ويصاحب الغيد الحسان، فلما سئل عن حسناء رئيت معه بالأمس، قال:

لم تكن من رأيتموني وإيّاها،　　كما قد ظننتم في المساء

إنما الكاعب الجميلة كانت　　إن أردتم أن تعرفوها — عشائي!

وكـ «عشق الفلاسفة» لحافظ الشيرازي:

شيمة العاشقين في الحبّ لطف　　وغلوّ في المدح والإطراء

وتفانٍ تسمو به الروح في الخلد　　سموّ الأبطال والشهداء

لا كلام تسوده غلظة القول　　ووعظ يليق بالأنبياء

والحسناء المتسائلة التي ناشدت الشاعر أن ينبئها عن الغادة التي تنفث السحر وتصمي الأفئدة وتبثّ الشّجى في النفوس:

فوضعت المرآة بين يديها　　قائلاً: من تَرَيْنَ في المرآة!

لكن أطول القطع وأبدعها، ولا ريب، هي أرجوزة القط والفيران لعبيد زاكاني (المتوفى سنة ١٣٧١م). وهي قصة رمزيّة تعبر عن الإنسان بالحيوان، ولا أملك أن أرويها هنا، وحسبي أن أحيل القارىء عليها ليأنس بقراءتها ويفكر في حكمتها ويخرج منها، كما يخرج من نفحات الخليلي جميعها، بمتعة روحية ولذّة فكرية وسكرة شعرية.

***

عرفت الخليلي وصحبته أعواماً طويلة، وقضيت معه في دار الهاتف والتعارف وغير دار الهاتف والتعارف أوقاتاً ممتعة وساعات هنيئة مغمورة بالمودّة والوفاء، معمورة بالأدب والشعر، عطرة بأنفاس اللذة الروحية والمتعة الذهنية. وكان، إذا سافر أو سافرت، اتصلت بيننا الرسائل، نتبادل الأفكار ونتنسّم الأخبار ونبثّ اللوعة والشكوى، نتأسّى بالأدب، ونفرح فرحة الأديب بالأديب، ونلتقي لقاء القريب للقريب. وحسبي أن أورد أبياتاً أرسلت بها إليه في بيروت في صيف سنة ١٩٦٦ رداً على خطاب منه:

لك منّي، أيا صديق حياتي،　　ألف شوق يضوع ملء الجَنَانِ

وسلام مثل النسيم رقيق　　وخطاب محمّل بالمعاني

أنــا في بهجــة وبسطــة عيش	ورخــاءٍ يفــوق حــدّ الأمــاني
حــامــداً للخليل فضل مــزايــا	وسجــايــا قطــوفهنّ دواني
بيــد أنّي ــ وليس ذلك بِــدْعــاً ــ	أرهـق الفكــر في اتّهام الــزمــان
أسهــر الليل في اقتنــاص الــدّراري	وأخــال المحــال طــوع البنــان
وأراني أردّد اليــوم شعــراً	لحكيـم أضرّه المحبســان :
«علّــلاني، فـإنّ بيض الأمــاني	فنيت والظــلام ليس بفــان!»

وجعفر الخليلي شعر رقيق منه رثاؤه لقرينته التي توفيت قبل عـدة سنوات من لحاقه بها. قال:

أنســاك، لا والله لا أنســاكِ	أنسى، وملء جــوانحي ذكــراك؟
البيت بعــدك مُغْــوِل لا صــوت في	أرجــائه إلاّ عــويل البــاكي
والبــاب بعــدك مقفل لا زائر	يـأتي ولا ضيف يــؤمّ حماك...

الشعر في النجف:

حدّثني جعفر الخليلي، قـال: كنت جالسـاً في صباح أحـد الأيام في إدارة جـريدة الهاتف بالنجف، فجاءني رجل يلبس الكوفية والعقال والزيّ البلدي، وقدّم نفسه أديباً من بغداد. فرحبت به أجمل ترحيب، وقال بعد هنيهة: إنني ماضٍ الى الرياض وأرغب في مدح الملك عبد العزيز ووليّ عهـده الأمير سعود طمعاً في صلتهما بعد أن كسد سوق الأدب في العـراق. فهل لـك أن تنظم لي قصيـدتين في المعنى المطلـوب، فقـد خمدت القريحة واشتدت الحاجة وأضنكت اللأواء.

قـال الخليلي: فقلت: إن مجلس الأدب يلتئم في «الهاتف» عصراً، فلعلّك إذا جئت حصلت على مأملك.

وجاء الرجل عصراً فوجد المجلس حافلاً بالشعراء والأدباء. ولما علموا بأمره هشّوا له وبشّوا، وأخذ كل منهم ينظم الشطر والبيت والبيتين حتى استقامت قصيدتان جيّدتان في مدح الملك والأمير. فكتبهما الرجل بخطّه وقرأهما مرة أو مرتين، وسلّم وخرج شاكراً.

ومضت أسابيع قليلـة فإذا بالرجل يعـود، وقد حسنت حالـه وظهرت عليه مظـاهر النعمة. وأخـرج من جيبه بضعة دنـانير وقال: جزاكم الله وجـزى الاخوان عنّي خيراً، فقد أنشدت القصيدتين وفزت بجوائز آل سعود. وهـا أنا ذا قد عدت غانماً، فأرجو أن تعطي هذه الدنانير الى الشعراء الذين تفضلوا عليّ بالنظم.

لكنّ الخليلي أعـاد اليـه النقـود وقـال: لا داعـي للشكـر ولا للمكـافأة، فـاحتفظ بـدنـانيرك. إن الشعـر يجري على ألسنـة أهل النجـف، وهي التي قـامت في الصحـراء

وحـرمت الماء، كما تجري دجلـة في بغـداد وكما يجري الفـرات في الحلـة. ومتى بيع الماء بالنقد؟

حدثني جعفـر الخليلي أنه حين أصدر جـرائده الفجر الصـادق والراعي والهاتف في النجف في مطلع سنوات الثـلاثين كـان يـدعـو الى حـريـة الفكـر ومكـافحـة البـدع والخرافات، فكان العوام والمشايخ الجهلة ومن لفّ لفهم يناوئونه ويكفرونه.

كانت إدارة جريـدته خارج مركز البلـدة يقابلها مقهى لحفّاري القبـور وقرّاء الفواتح وأمثالهم وتجاورهـا أرض عفاء. وفي ذات مسـاء كان في مكتبـه وليس معه سـوى عامل واحد شيـخ، فإذا به يـرى جماعة من العـوام والأوباش يحيطـون بدار الجريـدة وينادون بالـويل والثبور ويهددون «الكـافر» بـالقصاص العـاجل لكي يرتـدع عن غيـه. وكان الجمهور يتـزايد والأمـر يتفاقم، والخليلي محصـور في إدارته لا تلفـون لديـه ولا سبيل له لطلب المعونـة ولا طريق للخلاص. فأحكم غلق بـاب الدار وسلّم أمره لله منتظـراً ما يكون.

وفجأة قـدم قادم من المقهى وقـال إنّ جنازة «سمينـة» جيىء بها من الحلة، فصـاح القـوم وأكثـرهـم من مـرتـزقـة «وادي السـلام» مقبرة النجف: لنـذهـب الآن ولا يفلت «المارق» من يدنـا في فرصـة قريبـة! ولم تمرّ دقائق معـدودة حتى خلا الطـريق، فخرج الخليلي وصاحبه وهما لا يكادان يصدّقان بالنجاة ـ وأسرعا بالمضيّ الى البلدة.

كلمة أخيرة

أصيب الخليلي بـداء النقرس واشتـدّ عليه الألم. فقيل لـه: لا تحزن، فالنقـرس داء الملوك. قـال: الحمد لله الذي لا يحمـد على مكروه سواه. أيكـون كلّ حظي من الملوك داءهم؟

حين اشتدّ الجفـاء بين الحكومتين العراقيـة والإيرانيـة ونفي آلاف العراقيين من أصل إيراني الى إيران بعد خروج محمد رضا شـاه وتولي آية الله روح الله الخميني مقاليد الأمور، خشي جعفر الخليلي أن يبعـد الى إيران، فالتجأ مع أسرتـه في ربيع سنة ١٩٨٠ الى عمان وأقام فيها. وزار خلال هذه المدة لبنان والمانية الغربية وفرنسة.

وذهب الى دبيّ بالإمـارات العربية المتحدة لـزيارة ابنته ابتسام فتـوفي ودفن فيها في ٢ شباط ١٩٨٥.

وكتب أكـرم زعيتر على أثر وفـاة جعفر الخليلي يقـول إن لقـاء الخليلي متعة للـذهن وترويح للنفس وحـديثه ينم على حضور البـديهة وبراعة النكتـة وسعة الاطلاع ولطـافة الاستطراد وطرافة الاستشهاد بالشعر.

وقال إن الحديث دار معه حول ضعف الذاكرة ونسيان الأسماء فأنشد الخليلي:

أفـــرط نسيـــاني الى غـــايـــة | لم يـــدع النسيـــان لي حسّـــا
فصرت إمـــا عـــرضت حـــاجـــة | مهمـــة أودعتهـــا الطـــرســـا
فصرت أنســى الطـــــرس في راحتي | وصر ت أنســـى انني أنســـى

وقيل له: إن جميع صحفيي العراق يلقبونك «أبو الصحافة العراقية»، فأجاب: «أنا أبوها حين يريدون لعنها بقولهم: لعن الله أبا الصحافة!».

وقال زعيتر إنه علم أن الخليلي ألف في عمان كتاب «مما احتفظت بـه الذاكـرة من الخواطر» وكتاب «الشعر العربي والغناء» وقصة تمثيلية عنوانها «رهبان بلا دير».

جعفر الخليلي: وفاته

حين علمت بوفاة الصديق جعفر الخليلي بادرت إلى الكتابة إلى ابنته فريدة معرباً عن ألمي وحزني لهذا النبأ الفاجع. وقلت انه حيّ بآثاره الأدبية وحيّ ببناته، واستشهدت بأبيات من قصيدة أحمد شوقي في رثاء شيخ وزراء مصر مصطفى فهمي باشا:

انّ البنـــات ذخـــائر مـن رحمة | وكنـــوز حبّ صـــادق ووفـــاء
السّـــاهـــرات لعلّـــة أو كبرة | والصـــابـــرات لشـــدّة وبـــلاء
والبـــاكيـــاتك حين ينقطع البكـــا | والـــزائراتك في العـــراء النـــائي...

وقد جاءني جوابها يقول: «بكيت اليوم بكاء مراً. ولا يعني أنني نسيت البكاء، فهو يرافقني منذ رحيل أبي، لأنني فقدت صديقاً وانساناً وأباً ومؤنساً في الوحدة والغربة، وبكائي اليوم جاء حسرة على أبي الذي مات وهو يلهج بك، مات وهو لا ينساك قط. مات في قلبه حسرة على من عرفهم وأحبّهم. رسالتك أثارت شجوني، أثارت ذكريات تلك الأيام الحلوة في دارتكم العامرة ومأكولات السيدة اللذيذة والبنات الجميلات الحبيبات. كان عسيراً علينا أن ننساكم حتى في أوج محنتنا وغربتنا».

ثم قالت ان أباها كان يعاني الآم النقرس والضغط العالي والقلب واشتدت عليه الوحدة القاسية، وليس معه غير ابنته فريدة التي رافقته في كل مكان. وقد مضيا في السنوات الأخيرة إلى المانية وفرنسا وسويسرا. وقالت انه كان يزور أختها في دبي شتاء. وشاء القدر أن تذهب فريدة معه لأول مرة، فأصيب هناك بجلطة قوية ونقل إلى المستشفى حيث عاش أسبوعاً وهو يتمتع بالصحة والراحة والعناية الفائقة. ونظم الشعر الجميل في مدح الطبيبات والعاملين على راحته... لكنه توفي في ٢ شباط ١٩٨٥، وأقيمت الفواتح على روحه في سورية ولبنان ودبّي والشارقة. وجرى تأبين الأربعين في سورية والشارقة وفي مصر برعاية نادي الأدب الحديث...

وقد رثاه الدكتور صفاء خلوصي المقيم في اكسفورد، قال:

أو هكـــــــذا تمضي السنــــــون والــــدمع مـــــدرار هتـــــون؟
يـــا (جعفـــر) العلم الغـــزيـــر وكـــلّ أنماط الفنـــــــــون
كنـت المجلي في القـــــريـض وفـــارس النثـــــر المبين . .

الدكتور متّى عقراوي

من رجال التربيـة، ينتمي متّى يوسف عقـراوي إلى أسرة تجارية معـروفة، وقـد ولد بالموصل في ٩ كانون الأول ١٩٠١ ودرس في جامعة بيروت الأميركية.

وعيّن مـدرساً في دار المعلمين ببغداد في ايلـول ١٩٢٤ وألف «مـذكـرات التـاريخ القديم» (١٩٢٧).

ثم درس علم التربية في جامعة كولمبية في نيـويورك ونال فيها درجة الدكتوراه. وعيّن مديراً لدار المعلمين (ايلول ١٩٢٩)، ثم تقلب في منـاصب وزارة المعارف وأصبح مديراً لمعـارف كركـوك والحلـة. ونقل بعد ذلك استـاذاً في دار المعلمين العـالية، وأنيطت بـه عمادتها وكالةً (آب ١٩٣٧) فأصالة (آب ١٩٤٠).

وعيّن مـديراً عـامـاً للتعليم العـالي بوزارة المعـارف (تشرين الأول ١٩٤٥)، واختير عضواً بالمجمع العلمي العراقي عند تأليفه في كانون الثاني ١٩٤٨.

وأعيرت خدمـاته إلى منظمـة التربية والثقافـة والعلوم التـابعة لهيئـة الأمم المتحدة في باريس (اليونسكو) في شباط ١٩٤٩. . وعـاد إلى العراق فكان أول رئيس لجامعة بغداد (١٩٥٧). واعتـزل رئاسة الجامعـة بعد ثـورة تموز ١٩٥٨ وعـاد إلى العمل في مؤسسـة اليونسكو التي كلفته بمهام تربوية في أنحاء مختلفة من العالم.

ثم عيّن أستاذاً في جـامعة بيروت الأميركيـة حتى اعتزل العمل سنـة ١٩٧٤ وأقام في بيروت. وقد توفي بها في سنة ١٩٨٢.

وضع الدكتور عقراوي مؤلفات عديدة، منها:

مشروع التعليم الاجبـاري في العـراق (١٩٣٧) العـراق الحديث (ألفـه بـاللغـة الانكليزية ثم نقله إلى العربية بمسـاعدة الدكتور مجيد خدوري (١٩٣٦) اصلاح الخط العـربي (١٩٤٥) محاضرات في تطويـر البرامج (١٩٦٤). وقد اشترك في تأليف كتـاب «التربيـة في الشرق الاوسط العربي» (١٩٥٠) ووضـع «تقـرير عن التعليم في الكـويت» (١٩٥٥). واشترك في ترجمة كتاب الديمقراطية والتربية للاستاذ جون ديوي (١٩٤٦).

وقـد كان متى عقـراوي من المربّين ذوي الشأن في تـاريخ معـارف العراق بين سنـة ١٩٣٠ ـ ٥٨. عنـي في بادىء الأمر بشـؤون التعليم الاجبـاري والتربية الأساسيـة، ثم اهتم بنشر التعليم العالي وتطويره ورسم مناهجـه. وفي محاضرة له ألقاها في نادي القلم

العراقـي ونشرت في مجموعته الاولى (١٩٣٨) عـن التعليم الاجباري في العـراق، قال: «خير ضمان لحياة هـذه البلاد يقظـة الأمة بـرمّتها، وهـذا لا يتّم الاّ بالتعليـم الابتدائي الاجباري». ثم مضى إلى وضع منهاج لتعميم التعليم الابتدائي وانشاء المدارس الكافية وتهيئة المعلمين واحضار المال وسائر اللوازم لتنفيـذ المشروع ومعالجة المشاكل التي تعتور ذلك التنفيذ كتوزيع السكان وتنظيم الاحصاء وتعليـم البنات وتنويع المناهج الحضرية والريفية وهلم جراً.

وهيىء له أخيراً أن يخدم التربيـة والثقافة في البلاد العربيـة عامة عن طريـق مؤسسة اليونسكو الـدولية، سابقاً في هـذا المجال طائفة من المرّبين العـراقيين كخالد الهاشمي وعبد الحميـد كاظم وأقرانهما. وقال الـدكتور عقراوي: «من واجبات الجامعـة في العالم العربي أن تنمّي اللغة العـربية وتجد المفردات اللازمة ليصبح بـالإمكان استعمالها كعامل فعّال للتعليم وللتعبير عن الفكر العربي، سواء أكان هـذا الفكر علمياً أو تكنولوجياً أو انسانياً أو اجتماعياً».

حسين الرحّال

من أدباء العـراق المتحررين، ولـد حسين الرحال ببغـداد في ٢١ آب سنة ١٩٠٠، وأصل أسرته من بلدة راوة تعـرف بآل يحيى، اشتهرت بالتجارة بين نجـد والعراق والهند والحجاز وسوريـة ومصر، وقد انتقل جده عبد الـرحمن الرحّال إلى بغداد فـاتّخذها سكناً له.

سافـر حسين إلى أوروبة بعد نهاية الحرب العظمى ودرس في ألمانيـة. ثم قفل راجعاً إلى بغداد سنة ١٩٢٠ وانتمى إلى مدرسة الحقـوق ونال اجازتها (١٩٢٩). وأصدر مجلة الصحيفة (كـانون الأول ١٩٢٤) فكانت من الصحف المتحررة، ولم تـدم الاّ شهرين. ثم كان مديراً مسؤولاً لجريدة «سينما الحياة» التي أصدرها ميخائيل تيسي في كانون الاول ١٩٢٦.

ووظّف مترجماً في ديوان وزارة الخارجيـة (١٩٣١) فوزارة الـدفاع والـداخلية وأصبح بعد ذلك مميزاً للمطبـوعات الخارجية بمديريـة الدعاية العامة (نيسـان ١٩٣٧) فمدير الإدارة في أمانة العاصمة (شبـاط ١٩٤٥). ودعي إلى الالتحاق بدورة ضبّاط الاحتياط في ايلول ١٩٣٩.

وتولّى مديـرية الاذاعة في آذار ١٩٤٨. وعيّن مديـراً للإدارة المحلية بوزارة الـداخلية (ايار ١٩٥٠).

ثم نقلت خدمـاته إلى إدارة السكك الحديديـة فأصبح سكرتيراً لمجلس إدارتها (تموز ١٩٥٤).

واعتزل الخدمة، وتوفي ببغداد في ١٣ نيسان ١٩٧١ .

كان كـاتباً أديبـاً واسع الثقافـة بحث عن الاشتراكيـة والتطور الإقتصـادي ودعا إلى تحرير المرأة في أوائل العشرينات، ونقل جانباً من أشعار ناظم حكمت عن التركية. وقد أجاد اللغة الانكليزية واطّلع على آدابها .

وشارك في تأليف كتاب «الإدارة المركزية والإدارية المحلية في العراق» (١٩٥٣).

عباس فضلي خمّاس

من الكتّـاب المعـروفين عباس فضلي خمّاس أخـو اللـواء حسين مكي خماس، ولـد ببغداد سنة ١٨٩٩ . وانتمى إلى دار المعلمين بعد الاحتلال البريطاني فتخرج فيها وعيّن معلماً (شباط ١٩١٨)وكـان في سنة ١٩٢٠ ــ ٢١ يكتب في جريـدة الاستقلال بتـوقيع «الكسـائي الصغير». ودخل بعـد ذلك دار المعلمين وأوفـد لاكمال دراستـه في انكلترة، لكنه عاد قبل الحصول على الشهادة .

وعاد إلى سلك التعليم، ثم استقال وأصدر مجلة (الطلبـة» الاسبوعية (كانون الثاني ١٩٣٢)، فلم تدم طـويلاً . وعيّن في دائرة الحسابـات بوزارة الـدفاع (١٩٣٣) وأصبح رئيساً لـديوان وزارة الدفاع (ايـار ١٩٣٧) فمفتشاً للطابـو (تموز ١٩٣٩)، ونقل رئيساً لتسوية حقـوق الأراضي (تشرين الثاني ١٩٤٧). وعّين مديـراً عاماً للتسويـة في كانون الثاني ١٩٥٠ ، وأدركه الحمام سنة ١٩٥٢ .

كان عباس فضلي مـولعاً بالأدبين العربي والتركي، وقد ترجم عن الانكليـزية كتاب منازع الفكر الحديث (طبع ١٩٥٦) من تأليف كيرل ادوين ماتجنسن جود .

محيي الدين يوسف

من رجـال التربية والتعليم، ولـد محيي الـدين يوسف في الموصل سنـة ١٩٠٣ وأتم تحصيلـه في مـدارسها . ثم أوفـد ضمن البعثـة الـدراسية إلى جامعـة بيروت الأميركيـة (١٩٢٢) فنال شهـادة بكلوريـوس علوم سنـة ١٩٢٦ . وعيّن مدرسـاً للريـاضيات في المدرسة الثانـوية بالموصل، ثم نقل إلى بغداد . وعيّن مـديراً للمدرسة المتـوسطة الشرقية ببغداد فمـديراً لثانـوية الموصل فمديراً لمعـارف منطقة كركـوك (نيسان ١٩٣٣). ونقل مراقباً للتعليم الابتدائي بوزارة المعارف فمديراً للتعليم الثانوي (نيسان ١٩٣٧).

وعيّن استاذاً في دار المعلمين العالية (تشرين الثاني ١٩٤١) فمـديراً للتعليم الثانوي مرة ثانيـة (شباط ١٩٤٣) فمفتشاً عامـاً للمعارف (آب ١٩٤٦) فمديراً عـاماً للتعليم

العالي. وأعيد إلى التدريس في دار المعلمين العالية (كانون الأول ١٩٥٣) وظلّ يدرّس فيها حين أصبحت تعرف بكلية التربية.

واختير عضواً في المجمع العلمي العراقي (آذار ١٩٤٩). وأدركته الوفاة في بيروت في ايلول ١٩٥٩.

نشر محيي الدين يوسف بحوثاً في العلوم والرياضيات. وقد اشترك في ترجمة كتاب «نظرية الأعداد»، ونقل إلى العربية «مقدمة الرياضيات» من تأليف وايتهيد (١٩٥٢).

مكّي الجميل

الكاتب الصحفي ورجل الإدارة والقضاء مكي بن عبد المجيد الجميل، أخو حسين جميل وابن عمّ الشاعر حافظ جميل. وقد كان أبوه عبد المجيد بن أحمد جميل (١٨٨٠ ـ ١٩٧١) من رجال الفقه، تخرّج في مدرسة الحقوق ببغداد (١٩١٢) وكان حاكماً في المحاكم المدنية (١٩١٩ ـ ١٩٤٦).

ولد مكي الجميل ببغداد سنة ١٩٠١، ودرس في مدارسها، ووظّف في ايلول ١٩٢٠.

وأصدر في ١٧ تشرين الثاني ١٩٢٣ جريدة «الغربال» الاسبوعية، فدامت نحواً من ستة أشهر. وانتمى إلى مدرسة الحقوق فنال إجازتها سنة ١٩٢٧. وعيّن مديراً لتحرير لواء الموصل (ايلول ١٩٣١) فمدير ناحية المحاويل (١٩٣٣). ونقل مديراً لناحية شثاثة ثم استقال في حزيران ١٩٣٥ وزاول المحاماة. وانتخب نائباً عن لواء ديالى في شباط ١٩٣٧، وأصدر جريدة الحارس (تشرين الثاني ١٩٣٦) فجريدة «الانقلاب».

وانخرط في سلك القضاء فعين حاكماً لتحقيق البصرة (تموز ١٩٤٣) فحاكم صلح الحلة (آب ١٩٤٤). وكان بعد ذلك قائممقام لقضاء القرنة فمعاوناً لمتصرف البصرة (ايار ١٩٤٦) فقائممقام قضاء عنة (حزيران ١٩٤٦) فقضاء المحمودية (١٩٤٧). وعيّن متصرفاً للواء الدليم (١٩٤٨) فالحلة (١٩٤٩) فكربلاء (تشرين الثاني ١٩٥٠) فمديراً عاماً للتسوية (آب ١٩٥٢). ونقل بعد ثورة ١٩٥٨ مديراً عاماً للبلديات فوكيلاً لوزارة الشؤون الاجتماعية (١٩٥٩). وكان سفيراً للعراق في الأردنّ فالمملكة العربية السعودية سنة ١٩٦٥.

مؤلفاته: مباحث في الإصلاح (١٩٥٥) البدو والقبائل الرحالة في العراق (١٩٥٦).

تاريخ المسألة الشرقية (١٩٢٦) مباحث في نظام إدارة أموال الأيتام (١٩٣١) نظرات في قانون العقوبات العراقي الجديد (١٩٣٢) البداوة والبدو في البلاد العربية (١٩٦٢) التخطيط الموحد للتنمية الاجتماعية والاقتصادية (١٩٦٦) تعليقات على نظام دعاوى العشائر وتعديلاته (١٩٣٥) توطين البدو (١٩٦٦) نفحات اسلامية (١٩٦٦).

كان مكي الجميل من رجال الإدارة العاملين المفكرين، ودعا في كتاباته إلى الإصلاح وتوطين البدو وتعليمهم الزراعة وتوفير الماء لهم ورفع مستوى القرى والارياف.

توفي مكي الجميل ببغداد في ٨ ايار ١٩٧٣.

عبد الرزاق الحسني

مؤرخ العراق الحديث ومسجّل وقائعه وأحداثه، وهو عبد الرزاق بن السيد مهدي البغدادي الحسني آل السيد عيسى، وتعرف الأسرة بـ «آل العطار». ولد ببغداد سنة ١٩٠٣ ودرس في المدرسة الجعفرية ودار المعلمين الابتدائية. مال إلى الكتابة والصحافة شاباً، وساعد محمد عبد الحسين في إصدار جريدة الاستقلال النجفية في تشرين الأول ١٩٢٠.

وكان محرراً بجريدة المفيد البغدادية لصاحبها ابراهيم حلمي العمر. وأنشأ في أول أيلول ١٩٢٥ جريدة الفضيلة ووالى اصدارها، ثم انتقل إلى الحلة وأصدر فيها جريدة الفيحاء (٢٧ كانون الثاني ١٩٢٧).

عاد إلى بغداد فعيّن موظفاً في وزارة المالية (تشرين الأول ١٩٢٧) وخدم في الحلة وديالى وبغداد، ونقل بعد ذلك إلى دائرة الري فمديرية البريد والبرق العامة. وفصل من الخدمة بعد أحداث مايس ١٩٤١ واعتقل في الفاو والعمارة حيث قضى أربع سنوات. وأعيد إلى الوظيفة بعد الحرب العالمية، ورفع معاون مدير بريد مركزي في تشرين الأول ١٩٤٩، وانتدب للعمل في ديوان مجلس الوزراء وعهد إليه بتنظيم سجلات تاريخ الدولة حتى أحيل على التقاعد في أواخر سنة ١٩٦٤. وحضر مؤتمر المستشرقين الدولي في موسكو سنة ١٩٦٠.

صنف كتباً كثيرة تناولت تاريخ العراق وحوادثه منذ الاحتلال البريطاني فضلاً عن أديانه ونحله وبلدانه وصحافته، فأعيد طبعها مراراً وأصبحت مصادر لتاريخ هذه الحقبة.

من مؤلفاته: تاريخ الوزارات العراقية (١٠ أجزاء ١٩٣٣ ــ ٦١) تاريخ الثورة العراقية (١٩٣٥) أسرار الانقلاب (١٩٣٧) العراق في دوري الاحتلال والانتداب (في جزءين ١٩٣٧ ـ ٣٨) الأسرار الخفّية في حوادث السنة ١٩٤١ التحررية (١٩٥٨) تاريخ العراق السياسي الحديث (ثلاثة أجزاء ١٩٤٨) الثورة العراقية الكبرى (١٩٥٢) العراق في ظلّ المعاهدات (١٩٤٨) العراق قديماً وحديثاً (١٩٤٨) الأصول الرسمية لتاريخ الوزارات العراقية (١٩٦٤) تحت ظلّ المشانق (١٩٢٤) رحلة في العراق (١٩٢٥) موجز تاريخ البلدان العراقية (١٩٣٠) اليزيدية أو عبدة الشيطان (١٩٢٩) البابيون في التاريخ، تعريف الشيعة، الصابئة قديماً وحديثاً (١٩٣١) الأغاني الشعبية (١٩٢٩) البابيون والبهائيون في حاضرهم وماضيهم (١٩٥٧) تاريخ الصحافة العراقية

(١٩٣٥) الخوارج في الإسلام، الصابئون في حاضرهم وماضيهم (١٩٥٥) اليزيديون في حاضرهم وماضيهم (١٩٥١) ثورة النجف (١٩٧٢)الخ .

قال محمد رضا الشبيبي يقدّم الجزء الاول من تاريخ الوزارات العراقية :

« . . . وقد أطلعني الكاتب الأديب المعروف السيد عبد الرزاق الحسني على الكتاب الذي جرّده في هذا الباب ، فإذا به يتوخّى جمع الحوادث وسردها سرداً لا يقصد من ورائه الا عرض الوقائع كما هي بدون أن يستبطن أسرارها أو يذهب إلى التفكير في هذا ونحوه ، متخلصاً بذلك من كلفة التأويل وكثرة القال والقيل . وبالجملة فالكتاب سجّل خاص سجلت وجمعت فيه حوادث العراق السياسية على اختلافها ، وذلك من قيام الحكم الوطني إلى الآن . فللمؤلف في عمله هذا فضيلة التنقيب عن الوقائع وجمعها من مظانّها ، ثم تبويبها وترتيبها على وجه يجعلها قريبة التناول ، هذا مضافاً إلى بعض الشروح والتعاليق ونحو ذلك ، ممّا يدل على أن الغيرة الصالحة وحبّ المساهمة في خدمة البلاد من حيث نشر تاريخها بقدر الطاقة وضمن المقدور من جملة البواعث التي بعثت على تأليف الكتاب . . . » .

ولئن صحّ ما قاله الشبيبي في مؤلَّف عبد الرزاق الحسني عام ١٩٣٣ ، لقد عمد الحسني بعد ذلك إلى توسيع نطاق بحوثه واستقراء الحوادث وتعليل أسبابها ومآتيها واستجلاء حقائقها واستنطاق أبطالها ، حتى لقد ترك آثاراً تسترشد بها الأجيال الآتية في تدوين تاريخ العراق في هذه المرحلة الخطيرة من مراحله . ومع كثرة الصحف والمطبوعات والمذكرات التي سجّلت أحداث هذه الحقبة فانّ جمعها وتحقيقها في مؤلفات الحسني الكثيرة ليهيىء مورداً عذباً ميسوراً لمؤرخ المستقبل . يضاف إلى ذلك انّ إكباب الحسني على عمله واتصاله بمعظم المسؤولين المتصلين بالأحداث والناهضين بأعباء الحكم ووجوده في ديوان مجلس الوزراء أعواماً غير قليلة يرجع إلى وثائق الدولة في منبعها كلّ ذلك قد أتاح له فرصة الاستفادة والافادة على وجه قلّما أتيح لغيره .

ان المؤرخين العرب الذين سجلوا أحداث زمانهم على طريقة السنين أو غيرها لا يحصرهم العدّ ، وقد تركوا للأجيال المتعاقبة كنوزاً ثمينة من الأخبار والأنباء كانت لولاهم تضيع في مجاهل العصور . ولعلّ الحسني يمكن تشبيهه ــ مع فارق الزمن ــ بالمؤرخ الفرنسي الراهب فرواسّار Froissart (١٣٣٧ــ ١٤١٠) الذي سجّل في «أخباره التاريخية» حوادث عصره وحروب زمانه ، وعرف بدقّة تفاصيله وصحّة نقله . لقد تجشّم الرجل مشاق السفر إلى أنحاء أوروبة ، واتصل بأمرائها وكبرائها ، وسأل رجالها عن الأمور التي شهدوها والوقائع التي شاركوا فيها ، ودوّن كل بذلك بأمانة في تاريخه . ولم يكتف بذلك بل رسم صورة رائعة لذلك العهد من تاريخ فرنسة وحربها الطويلة مع انكلترة ، وأحيي تقاليد فروسيّة القرون الوسطى وحفلاتها ومآثرها وشهامتها . ولم يكن هو نفسه فارساً من أصحاب تلك الفروسية التي تتصل بصلة وثيقة بالفتوة العربية ،

لكنه شهد مبارياتها واستنطق رجالها فدون ما رآه وسمعه، كما دوّن المعارك والحوادث السياسية، حتى قال فيه بعض النقاد: «لقد صوّر زمانه تصويراً رائعاً، لكنه لم يفهمه الاّ قليلاً. فإنّ جعجعة التاريخ قد غطّت لديه على معناه».

وأقول أخيراً ان عبد الرزاق الحسني زار لندن مراراً للاصطياف والمعالجة الطبية. وكانت آخر زيارة له سنة ١٩٨٣، ثم عاد إلى بغداد وأصيب بالشلل ولا يزال قعيد الفراش (١٩٩٢).

محمد رضا المظفّر

ولد في النجف سنة ١٩٠٤ من أسرة علمية ودرس في معاهدها. ثم زاول التدريس، ومال إلى استصلاح طرق التعليم القديمة في بلده. وكان من مؤسسي جمعية منتدى النشر سنة ١٩٣٥ واختير سكرتيراً لها ثم معتمداً.

قال جعفر الخليلي في الجزء الثاني من كتابه «هكذا عرفتهم»: «والمتتبع لتاريخ الشيخ محمد رضا مظفّر يجد أن بين النصف الأول من عمره والنصف الثاني تبايناً كلياً في طريقة التفكير وفهم الحياة وأهداف الدين. فقد كانت الرجعية تتغلب عليه وتتملّك كل تصرّفاته في نصف عمره الأوّل، لكنه ما كاد يخطو إلى الثلاثين حتى ظهرت عليه بوادر التجديد والدعوة الصحيحة السليمة إلى الإصلاح الديني وتنزيهه من الشوائب التي علقت به، الأمر الذي حدا به إلى البحث في إيجاد الحلقة المفقودة وإلى تنظيم الدراسة الدينية وتثبيت مناهجها».

وقد سعى لتأسيس مدرسة حديثة تابعة لمنتدى النشر وفتح صفوف لخطباء المنابر الحسينية ووضع كتب تدريس عصرية لطلبة النجف. وأينعت جهوده في تأسيس كلية الفقه في النجف، أجازتها وزارة التربية في ٣٠ تشرين الثاني ١٩٥٨، وأصبح هو نفسه عميداً لها.

انتخب عضواً بالمجمع العلمي العراقي في آب ١٩٦٣. وتوفي بالنجف في ٣١ كانون الثاني ١٩٦٤.

من مؤلفاته: السقيفة (١٩٤٩) عقائد الإمامية (١٩٥٤) المنطق (٣ أجزاء ١٩٤٨) أصول الفقه (٣ أجزاء) (١٩٥٩ ـ ٦٢) ابن سينا، إلخ. وله شعر وبحوث لغوية وتاريخية وفلسفية.

وقد حقق ونشر كتباً مختلفة، ونشر الجزء الرابع من كتابه «أصول الفقه» بعد وفاته (١٩٧١).

قال في تأبينه الشيخ محمد رضا الشبيبي: «واقترن لديه العرفان بالإيمان وبالعاطفة

الـروحيـة، ولا يخفى أن المربي الصـالح والـراعـي الـرفيق هـو الـذي يجمع بين هـاتين الخصلتين».

وهو محمد رضا بن محمد بن عبـد الله بن محمد بن أحمد بن مظفر النجفي، كان أبوه فقهيـاً اماميـاً توفي في النجف سنـة ١٩٠٤ ووضع كتـاباً في «شرح شرائع الإسـلام» في مجلدين.

الدكتور جواد علي

المؤرخ البحاثـة الدكتـور جواد بن محمـد علي يمتّ بصلة نسب إلى السيـد محمد بن السيد أحمد الحسيني المعروف بالمنشىء البغدادي الـذي ترجم عباس العزاوي رحلته إلى ديار الكرد ونشرها سنة ١٩٤٨.

وردّ الدكتور حسين علي محفوظ أسرته إلى عكيل وقال انه ابن الحاج محمد علي المنشي بن محمد حسين بن قاسم.

ولـد جواد علي في الكـاظميـة سنـة ١٩٠٧، وتخرج في دار المعلمين العاليـة ببغـداد (١٩٣١).

وقد عيّن مدرساً في أول تشرين الأول ١٩٣١، ثم أوفد لـدراسة التاريخ الإسلامي في ألمانيا، فنـال شهادة الدكتوراه من جـامعة هامبرغ سنـة (١٩٣٩). وقد اعتقل في آذار ١٩٤٢ ثم أفرج عنه.

وعيّن مـدرساً في دار المعلمين الابتـدائيـة (ايلـول ـ ١٩٤٣) فسكـرتير لجنـة الترجمة والتأليف والنشر بـوزارة المعارف (١٩٤٧) فسكرتيراً للمجمـع العلمي العراقي (كـانون الثاني ١٩٤٨) فأستاذاً بدار المعلمين العالية (ايلول ١٩٥٦).

وقد أصبحت الـدار كلية للتربية وألحقت بجامعـة بغداد، فظلّ استاذاً فيها أعـواماً طويلة. واختير استـاذاً زائراً في جامعة هارفارد سنة ١٩٥٧/٥٨ وبعـد ذلك في جامعة لندن (١٩٦١/ ٦٢).

وقد كان عضواً بالمجمع العلمي العراقي (كانون الثاني ١٩٤٨) إلى نيسان ١٩٦٢). واختير عضواً مراسلاً بمجمع اللغة العربية بالقاهرة في نيسان ١٩٥٦.

وضع مؤلفات تـاريخية عديدة أشهرهـا كتابه «تاريخ العـرب قبل الإسلام» في ثمانية أجزاء (١٩٥١ ـ ٦٠)، وقـد أصبح مرجعاً في موضـوعه. وله أيضاً: تـاريخ العرب في الإسـلام، صدر منـه جزء واحـد (السيرة النبويـة، ١٩٦١)، أصنام العـرب (١٩٦٧) تاريخ الصلاة في الإسلام (١٩٦٨) الخ.

أعيد تعيينـه عضواً بالمجمع العلمي العراقـي إثر إعادة تأليفه في أيـار ١٩٧٩. وقد وضع أخيراً «معجم ألفاظ الجاهليين» وتوفي في بغداد في ٤ تشرين الأول ١٩٨٧.

توفيق الفكيكي

من رجال الأدب والصحافة والقانون، وهو توفيق بن علي بن ناصر بن محمد سعيد الفكيكي، ينتسب إلى الفكيكات من فروع قبائل ربيعة.

ولد ببغداد سنة ١٩٠٠، ودرس الفقه وعلوم اللغة على الشيخ كاظم السّاعدي وعبد الوهاب البدري في سامّراء والشيخ شكر الله القاضي الجعفري في بغداد، وتتلمذ بعد ذلك على الشيخ محمد حسين آل كاشف الغطاء في النجف. وامتهن التعليم أمداً، واشترك في ثورة ١٩٢٠، وحرر في جريدة «المفيد» (١٩٢٢). ثم درس القانون في مدرسة الحقوق ببغداد وتخرّج فيها وتعاطى المحاماة.

كان المدير المسؤول لجريدة الكرخ التي أصدرها عبوّد الكرخي في كانون الثاني ١٩٢٧. وأنشأ توفيق الفكيكي بعد ذلك جريدة اسبوعية باسم «النظام» (٢٢ آب ١٩٢٧)، فعطلت إثر صدور عددها الأول. كان مديراً مسؤولاً لجريدة نداء العمال (تشرين الثاني ١٩٣٠)جريدة «الرياض» في شباط ١٩٣١.

وانخرط في سلك القضاء في كانون الثاني ١٩٣٤ فعين حاكماً لصلح سامراء فخانقين (١٩٣٤) فمعاون رئيس تسوية (آذار ١٩٣٦) فحاكماً للصلح في النجف فكربلاء (ايار ١٩٣٨) والكاظمية (آب ١٩٤١) فالأعظمية (كانون الثاني ١٩٤٢) إلى سنة ١٩٤٣. وقد أصدر جريدة «الرعد» (آذار ١٩٤٨)ورئس تحرير جريدة «القبس» (١٩٥٢). وانتخب نائباً عن لواء المنتفق في ايلول ١٩٥٤ إلى آذار ١٩٥٨.

وقد تطوّرت آراء الفكيكي على مرّ السنين، فكان سنة ١٩٢٤ في طليعة المناهضين لسفور المرأة. لكنّه في كانون لثاني ١٩٥٨ قدّم اقتراحاً إلى مجلس النواب لتعديل الدستور والاعتراف بحقوق المرأة السياسية.

وأدركته الوفاة ببغداد في ٢٢ تموز ١٩٦٩.

والفكيكي كاتب بليغ، مشرق البيان، أنيق الديباجة، له مؤلفات كثيرة في الفقه والقانون والأدب، منها: الحجاب والسفور (١٩٢٧) كتاب المتعة (١٩٣٧) المعاهدات في الإسلام، المتعة وأثرها في الإصلاح الاجتماعي، سكينة بنت الحسين (١٩٥٠) الراعي والرعية (جزءان ١٩٣٩ ـ ٤٠) شجرة العذراء (١٩٦٢) النخيل (شعر ونثر، ١٩٦٤)، رسالة في سياسة الإمام جعفر الصادق، رسالة في فقه الوقف المقارن، الدين والأخلاق (١٩٣٩) أدب الفتوة والدعاية العسكرية عند العرب (١٩٤١) دفاع عن الشاعر أبي العتاهية، أقرب الوسائل لنشر الحضارة الصحيحة في العراق (١٩٣٨)، الإمام جعفر بن محمد (١٩٤٧) عبقرية الشبيبي (١٩٤٥) هذا كتابنا ينطق عليكم بالحق (١٩٥٢) دفاع عن شعراء (طبع ببيروت ١٩٧٥) رسالة في حماية الحيوان في شريعة القرآن، الخ..

كان فطناً واسع الاطلاع، حلو الحديث، قصير القـامة، نحيل الجسم، لـه عينان صغيرتان زئبقيتان تشعّان ذكاءً تحت زجاج النظّارة. يروى عنه أنه كان يسير مع المحامي خالد الـدرّة صاحب مجلة «الوادي» فاعترض سبيلهما شحّاذ شيخ وقـال مخاطباً الدرّة: «حسنة لوجه الله، حفظ لك هذا الصبّي».

فصاح الـدرة: «هذا الصبّي! انـه في عمر جـدّي!» ثم تمثّل الدرة ــ والعهدة على الراوي ـ بأبيات لاسحٰق بن خلف البهرائي من شعراء القرن الهجري الثالث:

مـــا سرّني أنني في طـــــول داود	وانــنــي علــم في البـــأس والجود
مــاشيت داود فـاستضحكت من عجب	كـأنني والـــد يمشي بمـــولـــود!

وقد أبنّه حافظ جميل فقال:

سـأظـلّ أجهش بـــالنحيب	أبكـي الأديب أبـــا أديـب
أبكـي خصـــالاً مـــا نفحن	على المدى غير الطيـــوب
أبكـــــي الجواد الأريحيّ	خـــلا من النـــدّ الضريب
شهـم يجوع ولا يـــــردّ	ســؤال محتـــاج حـــريب
لم يـــدّخـــر في يـــومـــه	مـــا عنـــده لغـــدٍ قـــريب
فكـأنـــه يجد الغنـــى	شرّ الخطـــايـــا والـــذنـــوب
يعطـي ويخشـى أن يـــرى	غير المروءة مـــن رقيـــب
يـــا ذروة الخلـق الـــرفيع	وواحـــة الفكـــر الخصيب
لاالسقـم جـــرّك للخمـــول	ولا المشيـب إلى نضـــوب
لم تشـك ليـــلاً من سهـــاد	أو نهاراً مــن لغـــوب
الا مـــذاب حشـــاشـــة	مـــرهـــونـــة بيـــد المذيب
تـأبـى مجابهة الحيـــاة	بما ينـــمّ عـــن الهروب
وتـــرى السعـــادة كلهـــا	في همّة الشيـخ الـــدؤوب...

ووصف أدبه قبل ذلك عبد القادر رشيد الناصري فقال:

أدب كسلســال الصفــا يترقــرق	سحـــر العقـــول رواؤه والـــرّونـق
نظمت لآلئـــه بـــراعـــة عـــالم	يملي عليـــه فـــؤاده والمنطق...

الدكتور أحمد سوسة

ولد نسيم بن موسى اسحق سوسة في الحلة في ١٠ حزيران ١٩٠٠ وكان أبوه من الملاكين، وعضواً في مجلس إدارة لواء الحلة، وقد أنشأ بعد الحرب العظمى الأولى مشروع الكهرباء في بلدته. وقد تسمى نسيم بعد اعتناقه الاسلام باسم «أحمد».

درس في الجامعة الاميركية في بيروت، ثم قصد الولايات المتحدة الاميركية سنة ١٩٢٣ فتخرج مهندساً مدنياً في كلية كولورادو (١٩٢٧). وواصل دراسته في جامعة جورج واشنطن (١٩٢٨) وحصل على الدكتوراه من جامعة جونس هوبكنس سنة ١٩٣٠.

عاد إلى بغداد فعيّن معاون مهندس ريّ (أول نيسان ١٩٣٢)، ثم أصبح مديراً لريّ ديالى فالحلة، واعتنق الديانة الاسلامية بعد التأمل والقناعة في مصر في تشرين الثاني ١٩٣٦، ووضع في ذلك كتاب «في طريقي إلى الاسلام» في جزءين. وأوفد إلى المملكة العربية السعودية حيث تولّى إنشاء مشروع الخرج الزراعي جنوبيّ مدينة الرياض (١٩٣٩ ـ ٤٠).

وقام خلال الاعوام العديدة التي قضاها في دائرة الريّ بدراسات فنية في أنحاء العراق. ثم نقل في أيار ١٩٤٥ مميزاً للترجمة والنشر بوزارة المعارف. وأسندت إليه مديرية المساحة العامة في تشرين الاول ١٩٤٧، ثم نقل مديراً عاماً لديوان وزارة الزراعة في تموز ١٩٥٤ إلى ١٩٥٦، فمدير المساحة العامة ثانية إلى ١٩٥٧.

عيّن عضواً بالمجمع العلمي العراقي في تشرين الاول ١٩٤٩ وانتخب نائباً ثانياً لرئيسه في تشرين الأول ١٩٥٩ فاستقال فوراً. وانتهت عضويته بالمجمع عند إعادة تأليفه في حزيران ١٩٦٣. وأعيد تعيينه عضواً بالمجمع في ايار ١٩٧٩. وتوفي في بغداد في ٦ شباط ١٩٨٢.

وضع كتباً عديدة في الريّ والهندسة باللغتين العربية والانكليزية، منها: المصادر عن ريّ العراق (١٩٤٢) ووادي الفرات (في جزءين ١٩٤٤ ـ ٤٥) تطور الري في العراق (١٩٤٦) الريّ في العراق (١٩٤٢) ريّ سامراء في عهد الخلافة العباسية (جزآن ١٩٤٨ ـ ٤٩) فيضانات بغداد في التاريخ (٣ أجزاء، ١٩٦٣ ـ ٦٦) الري والحضارة في وادي الرافدين (الجزء الاول ١٩٦٨) العراق في الخوارط القديمة (١٩٥٩) عصبة الأمم والعراق (١٩٣١) نهر الفرات (١٩٤٥) مأساة هندسية (١٩٤٧) مشروع بحيرة الحبانية وتطوراته (١٩٤٩) مشروع سنحاريب لارواء منطقة نينوى (١٩٦٢) المؤتمر الدولي لتجميع حقوق الدول (١٩٣١). وألف ايضاً: العرب واليهود في التاريخ (١٩٧٢) الشريف الادريسي في الجغرافية العربية (في جزءين ١٩٧٤).

ووضع أطالس للعراق وبغداد وصنّف «الدليل الجغرافي العراقي»، واشترك مع

محمود فهمي درويش والـدكتور مصطفى جواد في إصـدار «دليل الجمهورية العـراقية» سنة ١٩٦٠ .

وجديـر بالقول أن الـدكتور سوسة في أثنـاء دراسته في الولايـات المتحدة حصل على شهادة في العلاقات الدولية، وذلك ما يفسّر تآليفه عن عصبة الأمم وحقوق الدول .

ومن مؤلفاتـه باللغة الانكليزيـة : نظام الامتيازات الأجنبية في تـركية (١٩٣٣) سدّة الهندية (١٩٤٥) الريّ في العراق (١٩٤٥) الخ .

ولـه ايضـاً : حيـاتي في نصف قـرن (نشرتـه في بغـداد ابنتـه الـدكتـورة عـاليـة سنـة ١٩٨٦)، حضارة العرب ومراحل تطورها عبر العصور (١٩٧٩) حضارة وادي الرافدين بين الساميين والسـومريين (١٩٨٠) تاريخ حضـارة وادي الرافـدين (جزآن، ١٩٨٣ ـ ٨٥) .

الدكتور عبد الرزّاق محيي الدين

عبد الـرزاق أمان محيي الـدين، ولد في النجف سنـة ١٩١٠ ودرس في معاهـدها . وانتمى إلى دار العلوم بالقـاهرة سنة ١٩٣٣ ودرس الأدب العربي . وعـاد إلى بغداد سنة ١٩٣٧ وعيّن مدرساً في دار المعلمين الابتدائية .

عـاد إلى القاهـرة سنـة ١٩٤٢ ليواصل الـدراسـة في جـامعتها فحصل على شهـادة الاستاذيـة (١٩٤٨) فالـدكتوراه (١٩٥٦) . وقفـل راجعاً إلى بغـداد سنة ١٩٤٨ فعيّن استاذاً مساعداً بدار المعلمين العالية (تشرين الاول (١٩٤٨)، ورفع بعد ذلك استاذاً في تلك الدار التي أصبحت تعرف بكلية التربيةوألحقت بجامعة بغداد .

اختير عميداً لكلية التربيـة سنة ١٩٦٣ فنائباً لرئيس جامعـة بغداد . وعيّن عضواً في المجمع العلمي العراقي إثر إعادة تأليفه في آب ١٩٦٣ وانتخب نـائباً ثانياً للرئيس . ثم أصبح وزيـر دولـة لشـؤون الـوحـدة في وزارة الفريق طـاهـر يحيى (٣١ كـانـون الثـاني ١٩٦٤)، واحتفظ بمنصبـه وزيراً للـوحدة في وزارة طاهـر يحيى الثـانية (١٧ حـزيران ١٩٦٤) والثالثة (١٤ تشرين الثاني ١٩٦٤) ووزارة عارف عبد الرزاق (٦ ايلول ١٩٦٥) وعبـد الرحمن البـزّاز (٢١ ايلول ١٩٦٥) إلى ٩ آب ١٩٦٦ . وعيّن أميناً عـاماً للقيـادة السيـاسية الموحـدة بين الجمهـوريتين العراقيـة والعـربيـة المتحدة في ٢٧ تشرين الثـاني ١٩٦٥ (علاوة على منصبه الوزاري) فظل في هذا المنصب إلى تشرين اول ١٩٦٨ .

وانتخب رئيسـاً للمجمع العلمـي العـراقي في ١٠ تشرين الاول ١٩٦٦ وعضـواً بمجمع اللغة العـربية في القاهـرة في شباط ١٩٦٧ في محل محمد رضـا الشبيبي وعضواً بمجمع دمشق . وعاد وزيراً للوحدة في وزارة رئيس الجمهورية الفريق عبد الرحمن محمّد عارف في ١٠ ايـار ١٩٦٧ فوزيراً للـدولة في وزارة طـاهر يحيى (١٠ تموز ١٩٦٧) حتى

استقال في ١٣ كانون الثاني ١٩٦٨ .

وجدّد انتخابه رئيساً للمجمع العلمي العراقي للمرة الثالثة في تشرين الاول ١٩٧٢ .

مؤلفاته وأدبه :

للدكتور عبد الرزاق محيي الدين مؤلفات عديدة، منها : ابوحيّان التوحيدي (رسالة الماجستير إلى جامعة القاهرة) (١٩٤٩) أدب الشريف المرتضى (رسالة الدكتوراه ١٩٥٧) ديوان شعر(مخطوط) خواطر وملاحظات في التعليم العالي، من أجل الإنسان في العراق (١٩٦٠ رسالة)، الخ. شعب أصيل ومبدأ دخيل (١٩٦٥). وقد حقّق ونشر كتاب البصائر والذخائر لأبي حيّان التوحيدي، والمقابسات (له ايضاً)، والوجيز في تفسير القرآن العزيز. وألف بالاشتراك مع أساتذة آخرين كتباً مدرسية منها : المطالعة العربية (في جزءين) وتاريخ الأدب العربي.

وعبد الرزاق محيي الدين شاعر اشتهر موشّحه في لاعب كرة السلة، وقد ترجمه الى اللغة الانكليزية ديزموند ستيوارت وجون هايلوك المدرّسان في بغداد ونشر في كتابهما «بابل الجديدة» (١٩٥٦).

يقول في هذا الموشح :

يا حبيب النفس في خلوتها ... وسميري في ليالي السمر
إنّ يوماً لم أشاهدك به ... لم أكن أحسبه من عمري
وصباحاً لم أطالعك به ... يتساوى والدجى في نظري
وطريقاً لم أصادفك به ... غالطت رجلاي فيه بصري...

كرة السّلة لا تلعب بها ... هاك قلبي كرة بين يديك
واتّئد بالركض، هذي مهجتي ... علقت أطرافها في قدميك،
وترنّم بأناشيد الهوى ... فعليّ النظم واللحن عليك
أنا أستاذك فاحفظ حرمتي ... أو سأشكو منك يا هذا إليك

قد قضيت العمر بالدرس، فما ... نفع العلم ولا أجدى الكتاب
ان خيراً من أمور كلها ... ساعة بين نديمي والشراب
خلِّ عنك الدرس، لا تحفل به، ... واغتنم عيشك في ظلّ الشباب
حلم دنياك، فاجهد أن ترى ... حلم اللّذة لا حلم السّراب

التــــلاميــــذ على غــــرّتهم　　عــرفــوا سرّي، وهل يخفى الغـرام؟
فمـن الهمس حـــوار صـــامت　　وعلى الألحاظ نجـــوى ومــــلام
ومـن الأطفـــال ضحك خــافت　　ومـن الشبّـــان غمــز وكـــلام
ومتى قلـتُ: ســلامـــاً، هتفــوا:　　وعلى الاستـــاذ والحبّ السـلام

ومن شعره في رثاء الملك حسين الهاشمي:

مـا على الشــاعـر لـو عـزّ البيـان،　　سكت القـلب فمـا يقـوى اللّسـاد
نبأ هـــزّ البرايــا وقعــه　　وعلى السّلـك تجلّى الخفقــان
أمـل الأمـــة أودى وهــــوى　　بيتهـا الشـامخ وانحطّ الكيـان
رجـل كــان كـألـف، رأيــه　　ينظــر الغيب كما شــاء العيـان

وقال في ذكرى الفيلسوف محمد اقبال:

ذكــراك، إقبــال، نحييهـا فتحيينـا　　كـآيـة الـذكـر نتلـوهـا فتهـدينـا
أهــاب بي منك روح فـاستجـاب لـه　　روح أبى القـول في مجبـولـةٍ طينـا
لم يكفهـم أن هبطنـا الأرض دانيـة　　حتى هبطنـا بهم من أرضنـا دونـا
مـا كــان ابليس، إذ ولّى بـوالـدهم،　　أشــدّ منهم إلى أبنــائه هُــونــا

وقال في تكريم خليل مطران:

سل عـن الشــاعـر أو خـذه مثـالا　　تغنِ عـن شعب جـوابــاً وسـؤالا
تلتقـي الآفـــاق في أبعــاده　　وهـــو دون العين مــرأىً ومنـالا
ضلّـت الألبـــاب عـن إدراكــه　　ومضـت تخبط رشــداً وضــلالا
ليس تــدري أيّـــة تنسبــه:　　أمــلاك حطّ أم جـنّ تعــالى؟
وبماذا تتحـــــامـى شرّه　　وتــرجّـى الخير منـــه والنّـــوالا

وقال في وظيفة الشعر، وهي من بواكير نظمه:

إذا الشعــر لم يحدث بشعبك ضجّـة　　فتلـك قــوافٍ قــد نظمـن وأوزان
وإن لم يكن حـرّ العقيـدة، مـوقظـاً،　　فليس لـه في نهضـة الشعب إحسـان

بقي عبد الرزاق محيي الدين رئيساً للمجمع العلمي العراقي إلى أيار ١٩٧٩ حين أعيد تأليف المجمع وأنهيت عضويته.

وتوفي في بغداد في اواخر سنة ١٩٨٣.

نظم قصيدة في تأبين طه حسين مطلعها:

حيّ مع الناس أحياءً بها شعروا،   لا الرأي يبلى ولا ذو الرأي يندثر

عبد الفتاح إبراهيم

الكاتب الحرّ المناضل عبد الفتاح ابراهيم عبد الفتاح آل وريّد، ابن عم رائد القصة محمود أحمد السيّد.

ولد ببغداد سنة ١٩٠٤، وكان أبوه وجدّه من أئمّة المساجد. وقد أتم دراسته في الجامعة الاميركية ببيروت، فلمّا عاد إلى مسقط رأسه عيّن مدرّساً في المدارس الثانوية الرسمية (ايلول ١٩٢٨). ثم أتمّ دراسته في الولايات المتحدة.

وكان بعد ذلك مترجماً في دائرة ميناء البصرة فوزارة العدلية في بغداد (١٩٣٢). وعاد إلى التدريس، وأصدر مع نفر من الشباب المثقف مجلة العصر الحديث (١٩٣٦). ثم عيّن استاذاً مساعداً في دار المعلمين العالية (ايلول ١٩٤٠) فمفتشاً بوزارة المعارف (نيسان ١٩٤٣).

واستقال من الوظيفة في السنة التالية فأسس شركة الرابطة للطبع والنشر وتولّى إدارتها. وأصدر مجلة الرابطة (آذار ١٩٤٤)، مجلة نصف شهرية لمكافحة النزعات الرجعية وبثّ الثقافة القومية الديمقراطية.

آمن عبد الفتاح ابراهيم منذ مطلع شبابه بالآراء التقدمية والأفكار الحرة فكتب وناضل في سبيل مبادئه، وكان في مقدمة كتاب جريدة الأهالي. وكتب يقول: «يجب على المجتمع الذي يريد أن يحفظ كيانه أن يسيطر على الشؤون الاقتصادية ولا يجعلها أداة لفئة ضئيلة تسخّر المجموع لمنفعتها». ودعا إلى تأميم الاقتصاد ووضعه بيد الدولة.

ولما وضعت الحرب العالمية الثانية أوزارها، انطلق من قيد الوظيفة لينصرف إلى العمل السياسي. وألف في نيسان ١٩٤٦ حزب الاتحاد الوطني واختير رئيساً للجنته السياسية. واتخذ جريدة الرأي العام (لصاحبها محمد مهدي الجواهري) لساناً للحزب، ثم أصدر جريدة السياسة (حزيران ١٩٤٦) فجريدة صوت السياسة.

وحلّ الحزب بعد أمد قصير (ايلول ١٩٤٧)، فواصل عبد الفتاح جهاده وتعرّض للمضايقة والاضطهاد.

ونشبت ثورة تموز ١٩٥٨ فعيّن مديراً عاماً لمصلحة مصافي النفط الحكومية في آذار ١٩٥٩ حتى اعتزل منصبه في آذار ١٩٦١، وغادر العراق فلم يعد إليه إلاّ بعد عدة أعوام.

وضع مؤلفات كثيرة، منها: على طريق الهند (١٩٣٢) مقدّمة في الاجتماع (١٩٣٩) كلمة في وجهة المجتمع بعد الحرب (١٩٤٢) مشكلة التموين (١٩٤٢) وحدة الحركة

الديمقراطية (١٩٤٦) دراسات في الاجتماع (١٩٥٠) معنى الثورة (١٩٥٩) قصة النفط (١٩٦٠) الخ . . .

محمود فهمي درويش

محمود فهمي بن محمد درويش آل عزيز، ولـد ببغداد سنة ١٩٠٥ ودرس في مدرسة الصيدلـة، وتخرّج في دار المعلمين الابتدائيـة (١٩٢٦). وأنشأ مختبراً كيماويـاً، وعمل مدرساً في بغداد والبصرة، ثم كان مديراً للمدرسة الحسينية الأهلية (١٩٢٩ ـ ٣٠).

واشترك في إصدار الدليل العراقي الرسمي لسنة ١٩٣٦ وتولّى رئاسة تحريره. ثم عيّن ملاحظاً في دائرة الزراعـة (١٩٣٦)، وظلّ يعمل في تلك الدائرة، التي أصبحـت بعد ذلك مديرية عـامة فوزارة، نحواً من ٢٢ سنة. وأشرف على إصدار مجلة الـزراعة أعواماً طويلة وأصبح مديراً للمطبوعات الفنيّة والنشر في ديوان الوزارة حتى أحيل على التقاعد سنـة ١٩٥٨. واشترك مع الـدكتـورين مصطفى جواد وأحمد سـوسـة في إصـدار دليل الجمهورية العراقية لسنة ١٩٦٠.

وقد تولّى تحريـر مجلة الاتحاد سنة ١٩٣٤، وكتب مقالات أدبية وبحـوثاً علمية كثيرة في الصحف والمجلات. وألف كتباً مـدرسية ومصنّفات أخرى، منهـا: كارثة فلسطين (طبع سنة ١٩٤٩)، لمع وأقباس (مخطوط في جزءين) الكيميـاء العربية، بين آطام مكة ووادي يثرب، الخ.

وتوفي ببغداد في ٦ شباط ١٩٦٢، فكتبت الكلمة الآتية في رثائه:

كلمة وداع

إلى المرحوم محمود فهمي درويش:

لقد آلمني حقـاً وأحزنني وحزّ في نفسي نعي الصـديق الكريم المرحوم الاستـاذ محمود فهمي درويش ـ ذلك الأخ الوفي الذي نعمت بصداقتـه ومودته أكثر من ربع قرن. لقد اشتركنا أول الأمر في إخـراج الدليل العراقي الرسمي لسنة ١٩٣٦ الذي أصـدره التاجر المعروف السيـد الياهو دنكور، فكـان محمود فهمي رئيساً لتحريـر القسم العربي وكنت مدير الدليل والمشرف على تحرير القسم الانكليـزي. وبوسعي أن أقول إن ذلك الدليل كـان بجزءيـه الضخمين العـربي والانكليزي خير دعـايـة لبلاد الـرافـدين في تاريخهـا الحديث. فلما اضطلع المرحوم محمـود مع الصديقين الـدكتور مصطفى جواد والـدكتور احمد سوسـه بإصدار دليل الجمهـورية العـراقية الجديد لسنـة ١٩٦٠ سألني أن أكتب

مبحث ـ التجارة العراقية ـ ، وكنت آنئـذ في شغل شاغل فاعتذرت ، لكنه رحمه الله ألحّ والحف قـائلاً : لا أحب أن يخلـو الدليل الجديـد من أثـرك بعـد أن اشتركنا في إصـدار الدليل الأول وكذلك فعلت ، فخرج دليل الجمهورية العراقية يضم بحثاً لي كما أراد .

كان المرحوم محمود فهمـي درويش محدثاً لبقاً وكاتباً ألمعياً وخطيبـاً مفوهاً ، وكان لي ذلك صديقاً محباً مخلصـاً . وكانت له هوايات عديـدة من التقويم والفلك إلى الكيمياء والزراعة . وقد خدم في وظائف الزراعة مذ كانت مديرية إلى أن أصبحت وزارة نحواً من ربع قرن ، وعمل قبل ذلك في مسلك التربيـة والتعليم والصحافة ، فكان مثـال العامل النشيط والموظف النزيه الجاد . واخرج مجلة الزراعة وتولى تحريرها عدة سنين وجعل منها مجلة علمية راقية .

كـان كما قلت محدثـاً لبقاً ، أنيس المحضر لطيف المخبر ، يحفـظ النوادر واللطـائف الكثيرة ، ويرويها بأسلـوب ساحر وبيان زاخـر . فكنت كلما ضاق الصدر بأعبـاء الحياة أسألـه أن يروي أحـاديثه ، فـلا نلبث أن ننسى متـاعب الدنيـا وننطلق إلى عالم فيـاض بالمسرة والحبور .

وكانت دمـاثه خلقه وطيب سريرتـه وطلاوة حديثه تحببه إلى النفـوس ، فكانت دائرة اصـدقائه واسعـة تضم مختلف الطبقـات والبيئات ، فيهم المثقفـون والعوام والموظفـون والكسبـة ورجـال العلم والعمل يكلم كـل واحـد بلسـانـه ويحتفل بـالكبير والصغير والجليل والـوضيع على حد سـواء ، فلا عجـب أن أسف الجميع لمرضه وجـزعوا لفقـده وخرجوا لتشييعه إلى مقره الاخير وكلهم عيون دامعة وقلوب واجمة واجفة .

أكب في سنـواته الاخيرة على القـراءة والكتـابـة ووصل الليل بالنهـار لاخـراج دليل الجمهورية العراقية حتى كف بصره واشتدت عليـه وطأة الامراض ، فكان آخر العهد به طـريح الفراش متجلـداً معتصماً بـالصبر لا يبصر ولا يتحرك فلـم يبق منه إلا اللسـان والجنان .

لقد تـوفاه الله صبيحة السـادس من شهر شبـاط ١٩٦٢ . ومن الغريب أن في نفس اليوم السادس مـن شهر شباط قبل عام واحـد قرر مجلس الوزراء الغاء أمـر احالته على التقاعد وان يعاد إلى الوظيفة بعد أن يبل من مرضه ، فيا لسخرية الاقدار !

كـم مـن أخ لي صـالـح	بـوّأتـه بيـديّ لحدا
مـا إن جـزعـت ولا هلعـت	ولا يـرد بكـاي رشـدا
ذهـب الـذيـن احبهـم	وبقيـت مثـل السيف فـردا

***

زارني محمود فهمي درويش يوماً في غـرفة التجارة ، وجلس يحتسي القهوة وينظر إلى تاجرين كبيرين كانا عندي يتحاوران .

قال الأول: لم تدفع، يا جلبي، ثمن الحنطة التي تسلمتها في الاسبوع الماضي.

فأخرج الثاني دفتر الصكوك وكتب لأمر الاول صكاً ناوله إياه قائلاً:

لم يفرغ الكاتب من تدقيق الحساب، فخذ عشرة آلاف دينار سلفاً ريثما يتم التدقيق.

لكن الأول رفض الصك وقال: ماذا أعمل بعشرة آلاف دينار؟ استبقها لديك وعجّل بالتدقيق والدفع!

وظل الصك بمبلغ عشرة آلاف دينار يرمى من يد إلى يد، ومحمود فهمي يتبعه بنظراته، وقد اتسعت حدقة عينه وقام بحركات مضحكة بيديه وكأنها حركات لا إرادية. ومدّ يده إلى جيبه فأخرج درهمين أو ثلاثة وعرضها علي من طرف خفيّ وهو يقول هامساً: لا حول ولا قوّة إلا بالله، الحمد لله، الحمد لله! وكان التاجران الكبيران في شغل عنه، ثم انتهى الحوار بينهما بأن مزّقا الصك وسلّما وخرجا.

فصاح محمود فهمي درويش: هل تريد سفك دمي؟ هل ترغب في إثارتي وتحطيم أعصابي؟ تدعوني إلى زيارتك في مركز المال والأعمال، وفي جيبي دراهم معدودة، فتريني السيارات الفارهة في الباب وذوي الجاه والثروة بملابسهم الانيقة يرمون آلاف الدنانير في أيدي بعضهم فيردّها مستصغراً مشمئزاً... والله لقد صممت أن أمدّ يدي بغير وعي فأقبض على الصك الطائر وأفرّ به، وليكن بعد ذلك ما يكون!...

ثم أطلق ضحكة عريضة وقال: لا بأس، نحن في غنى عن كلّ هذه الثروة، فليذهبوا بها وليتركوا لنا راحة بالنا وصفاء نفوسنا.

كلانا غنيّ عن أخيه حياته ونحن إذا متنا أشدّ تغانيا

ولا أدري كيف مرّت بخاطري أبيات الشاعر المصري محمد حفني ناصف:

أتقضي معي، إن حان حَيْني، تجاربي وما نلتها إلا بطول عنائي؟
ويحزنني ألاّ أرى لي حيلة لإعطائها من يستحقّ عطائي
إذا ورّث المُثرون أبناءهم غنى وجاهاً، فما أشقى بني الحكماء!

***

قال لي محمود فهمي درويش ذات يوم: أتذهب إلى مجلس الحاج ص. خ.؟ قلت: نعم. قال: اذن فاصطحبني متى ذهبت إليه لأريه بطاقة ثمينة عثرت عليها بين أوراق والدي رحمه الله.

قلت: حباً وكرامة، ولكن ما هذه البطاقة؟

فأراني دعوة إلى حفلة عقد قران الحاج المومأ إليه، وقد وجهها والده إلى محمد درويش

جاره في محلة باب الشيخ. والحقيقة انها دعوة نادرة، فهي مكتوبة باليد وعباراتها خليط من التركية والعربية والمجاملات المألوفة في العهد العثماني. وقرأت تاريخها فإذا بها تعود إلى ما قبل نصف قرن أو أكثر.

قلت: لا أرى مناسباً أن تريها للحاج في مجلسه الحافل الذي يؤمّه فريق كبير من أشراف بغداد وتجارها وأدبائها، فلعله لا يودّ أن يعرف القوم أنه بلغ من العمر عتيّاً.

لكن محمود فهمي ضحك وقال: لا أظن ذلك. وفي اليوم الذي يجلس الحاج لزواره دخلنا مجلسه فإذا به مكتظّ برجال البلد، ولم تمضِ برهة من الوقت حتى أخرج محمود فهمي ورقته وقال للحاج: ان والدي كان جاراً وصديقاً حمياً لوالدك عليه الرحمة والرضوان.

قال: لا شك في ذلك، وكنت أرى والدك يزور والدي دائماً في دارنا القديمة فيتحادثان طويلاً.

قال محمود: وجدت هذه البطاقة بين أوراق والدي، وهي دعوة إلى عقد قرانك المبارك. فأخذ الحاج البطاقة وألقى عليها نظرة ثم وضعها في جيبه.

لكن تحسين علي، وكان حاضراً في المجلس، قال: أيها الحاج، أرينا هذه التحفة الثمينة، لماذا وضعتها في جيبك؟

وحاول الحاج عبثاً أن يخفي البطاقة، لكن تحسين علي أخذها وقرأها وقال للحاضرين: لم نكن نعلم ان مضيفنا الكريم قد تزوج قبل أكثر من خمسين سنة. كم كان عمرك يوم تزوجت، أيها الحاج؟ قل لنا بصراحة ولا تكتمنا أمرك.

وبدأت تعليقات الحاضرين ومراجعاتهم، فقال صاحب المجلس: يا محمود، جئتنا بعد غياب طويل فأنسنا بمقدمك، فما لك قد جلبت هذه البطاقة التي أكل الدهر عليها وشرب، وأظهرت ماكان مكنوناً فجعلتنا أضحوكة المجلس وموضع سخريته ودعابته؟

حدثني محمود فهمي درويش أنه كان مسافراً في بعض أيام الخريف إلى كركوك، فاستقل القطار في المساء. ولم يصطحب معه سوى حقيبة صغيرة فيها ادوات الحلاقة وسائر الحاجات الآنية لأنه كان ينوي العودة بعد يوم أو يومين. ولم يكد القطار يتحرك حتى تغيّر الجوّ وهبّت موجة من البرد تلسع المسافرين. وقال في نفسه: كيف أقضي هذه الليلة الطويلة في ملابسي الصيفية ولادثار لي يقيني من البرد.

ورأى في هذه الأثناء مسافراً في نفس العربة وإلى جنبه حقيبة كبيرة وسجادتان. وافترش الرجل إحداهما وأدّى الصلاة، فلما فرغ منها استأذنه محمود في أداء الفريضة على سجادته، فأذن له. وأخذ محمود يطيل ويكثر من الركعات والسجدات، والرجل ينظر إليه. ولما استمرّ أمداً طويلاً على هذا المنوال، أشار إليه الرجل بالتوقف وقال له:

حسبك، ان صلاتك مستجابة. فقد ألهمني الله أن أسمح لك باستعارة سجادتي الليلة لتقيك من البرد، ولا بأس من أن تعيدها إليّ صباحاً حين نصل إلى كركوك.

ولم ينتظر محمود، بل أسرع والتفّ بالسجادة ونام نوماً هنيئاً إلى الفجر.

كان محمود فهمي درويش نهماً أكولاً في شبابه يزدرد، حسبما يقول، طعاماً يكفي لعشرات الأشخاص. والغريب انه ظل مع ذلك نحيف الجسم غير مبتلى بالسمنة والترهّل.

حدثني أنه ذهب ذات يوم إلى صاحب مطعم من أصدقائه فقال له: انني اليوم جائع، فبكم تشبعني؟ قال: بدينار واحد. فسلمه محمود الدينار سلفاً وجلس إلى المائدة، فجاء له صاحب المطعم بقائمة الطعام. لكنه لم ينظر إليها بل قال: هات لي الأطعمة الواحد بعد الآخر من الاعلى إلى الاسفل. فلما فرغ من أكل تلك الأطعمة، قال: والآن أعد جلب الأطعمة ولكن من أسفل القائمة إلى اعلاها. فقال صاحب المطعم: ألا تشرب شيئاً من البيرة أو الماء؟ ظناً منه ان الشراب يملأ المعدة فلا يترك فراغاً للطعام. قال محمود: ان من عادتي أن أشرب بعد تناول نصف طعامي.

ـ يا الله، اذن لم تبلغ منتصف الطعام حتى الآن! فهذا دينارك خذه، وما أكلته صحة وعافية واذهب إلى سبيلك،

وكنّا في حفلة أقامتها السفارة الوطنية الصينية في بعض أمسية الصيف ومدّت فيها الموائد الحافلة بأنواع الطعام والشراب والفاكهة والحلوى في الحديقة. ولما حلّ الظلام أطفئت الأنوار وعرضت الرقوق السينمائية، بينما المدعوون يتناولون ما لذّ وطاب من المأكولات. ورأيت محمود فهمي يفرغ صحناً بعد صحن ويأكل اللحم والدجاج والحلوى والفاكهة معاً بلا فاصلة. فما انتهى العرض السينمائي وأشعل النور الكهربائي، حتى أخذ بيدي وقام يجرّني لنذهب إلى مكان آخر. والتفتّ فرأيت في وسط الخوان جزيرة كبيرة فيها الصحون الفارغة، بل صحراء غامرة في وسط بلدة عامرة.

لكنه صار في كهولته يكتفي بالقليل من الطعام خلافاً لما كان عليه من قبل.

كوركيس عوّاد

البحاثة المحقّق. من أبصر الناس بالكتب والمخطوطات، كوركيس حنّا عوّاد، كان أبوه حنّا الياس مراد بارعاً في صنع الآلات الموسيقية ولا سيّما العود، وقد درس الألحان وتفنّن فيها.

ولد في الموصل في ٩ تشرين الأول ١٩٠٨، ودرس في دار المعلمين الابتدائية ببغداد وعيّن معلماً في ايلول ١٩٢٦.

وتولّى إدارة مكتبة المتحف العراقي سنة ١٩٣٨ عند تأسيسها بصفة ملاحظ أولاً ومدير بعد ذلك (١٩٥٢). فقام بشؤونها أكثر من ربع قرن حتى اعتزل الخدمة سنة ١٩٦٤.

وقد انتخب عضواً بالمجمع العلمي العربي في الشام سنة ١٩٤٧ والمجمع العلمي العراقي في آب ١٩٦٣.

لازم الأب انستاس ماري الكرملي أعواماً طويلة وأفاد منه في البحث والتحقيق. وسافر إلى أوروبا والولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي بمهام تتعلق بتدقيق المخطوطات وزيارة المكتبات، وحضر مؤتمرات ثقافية وأدبية متعدّدة.

من مؤلفاته: دير الربان هرمزد (١٩٣٤)، تحقيقات بلدانية تاريخية أثرية في شرق الموصل (١٩٦١) خزائن الكتب القديمة في العراق (١٩٤٨) المباحث اللغوية في مؤلفات العراقيين المحدثين (١٩٦٥) جمهرة المراجع البغدادية (١٩٦٢) جولة في دور الكتب الأميركية (١٩٥١)، فهرست مخطوطات مكتبة المتحف العراقي، المدرسة المستنصرية ببغداد (١٩٤٥) الدار المعزّية ببغداد (١٩٥٤) مكتبة المتحف العراقي في ماضيها وحاضرها (١٩٥٥) ما طبع عن بلدان العراق باللغة العربية (١٩٥٣ ـ ٥٤) الاسطرلاب (١٩٥٧) الورق أو الكاغد (١٩٤٨)، ما سلم من تواريخ البلدان العراقية (١٩٤٤)، مكتبة الاسكندرية: تأسيسها واحراقها (١٩٥٥) يعقوب بن اسحٰق الكندي (١٩٦٢) الآثار المخطوطة والمطبوعة في الفولكلور العراقي (١٩٦٣) الأب انستاس ماري الكرملي: حياته ومؤلفاته (١٩٦٦) فهرست مخطوطات خزانة يعقوب سركيس (١٩٦٦) أصول أسماء المواضع العراقية (١٩٦٧) مدينة الموصل (١٩٥٩) معجم المؤلفين العراقيين (٣ أجزاء، ١٩٦٩) سيبويه إمام النحاة (١٩٧٨) أقدم المخطوطات العربية في مكتبات العالم (١٩٨٢) أشتات لغوية (١٩٩٠) فهارس المخطوطات العربية في العالم (مجلدان، ١٩٨٤) مصادر دراسة التراث العسكري عند العرب (ثلاثة أجزاء) الخ.

وقد انتخب عضواً مؤازراً في مجمع اللغة العربية الأردني (١٩٨٠) وعضواً مؤازراً في المجمع العلمي الهندي.

وقد اشترك في ترجمة كتاب بلدان الخلافة الشرقية (١٩٥٤) والعراق في القرن السابع عشر كما رآه تافرنيه (١٩٤٤). وحقق ونشر كتباً منها: الديارات للشابشتي (١٩٥١) كتاب التفّاحة (في النحو ١٩٦٥)، رسائل أحمد تيمور إلى الأب انستاس الكرملي (مع أخيه ميخائيل عواد، ١٩٤٧)، تاريخ واسط للرزّاز (١٩٦٧) الخ.

أخوه: ميخائيل حنّا عوّاد، بحاثة محقق ثقة، لد في الموصل في ١٢ شباط ١٩١٢ ودرس بدار المعلمين الابتدائية في بغداد وتخرج سنة ١٩٣١ واحترف التعليم. وعيّن

ملاحظاً للمكتب الخاص بوزارة المعارف (١٩٤٤) فمديراً له، فظلّ يشغل هذه الوظيفة أكثر من ربع قرن حتى اعتزل الخدمة في أيار ١٩٧٠.

وقد كتب مقالات وبحوثاً كثيرة. من مؤلفاته:

رسائل أحمد تيمور إلى الأب انستاس الكرملي (حققه بالإشتراك مع أخيه كوركيس عواد، ١٩٤٧)، مقامة في قواعد بغداد في الدولة العباسية (بالاشتراك مع كوركيس عواد)، دير قُنّى في العراق (١٩٣٩).

المآصر في بلاد الروم والإسلام (١٩٤٨) صناعة الزجاج والبلّور (١٩٦٢) صناعة الصفر (١٩٦٢) ألف ليلة وليلة (١٩٦٢) أقسام ضائعة من كتاب تحفة الامراء في تاريخ الوزراء لهلال الصابىء (١٩٤٨).

وقد حقق ونشر كتاب رسوم دار الخلافة للصابىء (١٩٦٤) ونصوص ضائعة من كتاب الوزراء والكتاب للجهشياري (١٩٦٤).

فصل من كتاب: فضائل بغداد العراق (١٩٤٧) الخ.

أعيد تعيين كوركيس عوّاد عضواً بالمجمع العلمي العراقي لدى اعادة تأليفه في أيار ١٩٧٩. وألف مع أخيه ميخائيل «رائد الدراسة عن المتنبي» (١٩٨٠).

وقد توفّي كوركيس في بغداد بعد مرض طويل في ١٧ تموز ١٩٩٢.

وعين ميخائيل عوّاد عضواً بالمجمع العلمي السرياني المشكل في بغداد. وقد أدمج المجمعان الكردي والسرياني بعد ذلك بالمجمع العلمي العراقي. ووضع ميخائيل «مخطوطات المجمع العلمي العراقي» (٣ أجزاء، ١٩٨٣).

محمود أحمد السيّد

رائد القصة العراقية محمود أحمد السيّد آل المدرّس، وهو محمود بن السيد أحمد بن عبد الفتاح بن عبد الحميد بن ابراهيم آل وريّد، ينتمي إلى أسرة دينية. كان أبوه مدرساً بجامع الحيدر خانة واماماً لجامع الشيخ عبد القادر الكيلاني، وكان جدّه من رجال الدين أيضاً. أما عمّه عبد الرحمن المعروف بالجلجلوتي (١٨٤٥ ـ ١٩٢٧) فقد كان طرازاً خاصاً في رجال الدين وتولّى الافتاء في المنتفق والحيّ.

ولد محمود أحمد في بغداد في ١٤ آذار ١٩٠٣ ونشأ في جوّ ديني وغمرته الكآبة منذ سنّ الطفولة، فعلت وجهه، كما قال جعفر الخليلي في كتاب «القصة العراقية قديماً وحديثاً»، مسحة من الأسى والتأمل، وغلب عليه الهم والتشاؤم، وجاءت قصصه بعد ذلك حزينة في مضمونها وعنوانها، كمصير الضعفاء والنكبات والقلم المكسور والصحيفة السوداء، تترك في نفس القارىء أثراً لا يمحى من تجهّم الحياة وقسوتها.

وقد درس في المدرسة السلطانية، حتى إذا ما احتل الانكليز بغداد سنة ١٩١٧ افتتحوا دورة للهندسة اشترك فيها فتانا.

وتخرّج سنة ١٩١٨ فعيّن موظفاً في دائرة الريّ بالهنديّة. لكنه لم يلبث ان ترك عمله بعد أشهر وسافر إلى الهند (١٩١٩)، وأمضى فيها سنة واحدة.

عاد محمود أحمد إلى بغداد في تموز ١٩٢٠ وأخذ بالكتابة في جريدة الشرق. ثم أقبل على تحرير المقالات والنبذ والقصص، ونشر كتاباته في الصحف كجريدة العراق والعالم العربي والاستقلال ومجلة اليقين والمصباح والصحيفة والمعرض والحديث والحاصد الخ. وعيّن كاتبا في وزارة الداخلية (كانون الأول ١٩٢٠)، ونقل مديراً لتحرير لواء الديوانية (تشرين الثاني ١٩٢٣). وعاد إلى بغداد مديراً للتحرير في أمانة العاصمة في ايلول ١٩٢٦.

وأصبح بعد ذلك سكرتيراً للبلديات في وزارة الداخلية (حزيران ١٩٣١) فسكرتيراً لمجلس النواب (آذار ١٩٣٣) حتى وفاته.

وقصد القاهرة للاستشفاء من مرض عضال ألمّ به فتوفّي بها في ١٠ كانون الأول ١٩٣٧، ولم يتجاوز الرابعة والثلاثين إلا قليلاً.

مؤلفاته وأدبه:

مال محمود أحمد السيد إلى الأدب يافعاً، وكان لسفره إلى الهند أثر بليغ في نفسه، إذ اطّلع على أحوال وأفكار جديدة. وعني بالقصة فكان رائدها في العراق في نفس الوقت الذي كان محمود تيمور رائد القصة في مصر. وأولع بالأدب التركي الحديث، فترجم إلى العربية قصص جلال نوري وأرجمند أكرم آل رجائي وضياء كوك آلب وغيرهم، وتأثر بآراء أدباء تركية المجدّدين.

جمع أقاصيصه وكتاباته في مجموعات: في سبيل الزواج (١٩٢١) مصير الضعفاء (١٩٢٢) النكبات (١٩٢٢) السّهام المتقابلة (مع عوني بكر صدقي، ١٩٢٢) هياكل الجهل (١٩٢٣) القلم المكسور (١٩٢٣) جلال خالد (١٩٢٨) الطلائع (١٩٢٩) في ساع من الزمن (١٩٣٥). وله آثار أخرى نشرت في الصحف والمجلات منها: «عندما تغرب الشمس» وسواها من القصص المنقولة عن اللغة التركية.

ان قصص محمود أحمد تزخر بالمعاني الإنسانية والصور الاجتماعية وتدعو إلى النهضة والإصلاح. ومذهبة في القصة المذهب الواقعي الذي يسلّط الضوء على المجتمع العراقي في العقدين الثاني والثالث من القرن العشرين، ذلك المجتمع الذي يمّر بطور الانتقال والتحوّل ويضيق بالتناقضات والترسبّات القديمة ويقرن التحفزّ والجرأة وعدم المبالاة بالتحفظ والانجهاد والتمّسك بأهداب التقاليد والشناشن البالية.

وقد كتب في ترجمة خطيّة له قبيل وفاته يقول عن نفسه: «اشتغل منذ عام ١٩٢٠ بالأدب غاوياً في أوقات فراغه، لا محترفاً، وسعى في سبيل تكوين النثر القصصي في العراق... وهو يعتقد بأن الجمع بين الأدب والوظيفة مستحيل فيه التجويد والتبريز... ويشتغل بتأليف مجموع صور عراقية بعنوان «الدفتر الأزرق»، لاهياً عابثاً، متمنياً أن لا تدركه حرفة الأدب في هذا الزمن، في هذا البلد، لأنه لم يعتزم بعد الانتحار جوعاً والموت في ظلام الزراية والإهمال».

قالت مجلة «الصباح» القاهرية في عددها المؤرخ في ٢٤ كانون الأول ١٩٣٧: «... وقد بدأ حياته الأدبية برواية «جلال خالد» التي قدّمها إلى «فتية العراق التي نريدها على الجهاد في سبيل الحرية والحقّ». واستند في تدوين وقائعها إلى شبه مذكرات شخصية، وبالطريقة نفسها التي استند إليها أستاذه الكاتب الهندي ف. سوامي (كذا) في معالجة قصصه.

«والحق ان «جلال خالد» هي عبارة عن موجز من حياة المرحوم السيّد وسياحته في الهند وبلاد الشرق، وفيها استعراض قيّم لحوادث العراق السياسية في غضون الاحتلال البريطاني وأثناء شبوب الثورة وحماسة الشباب في رفع راية الجهاد. وتلمح بين سطورها أحاديث طليّة عن مميّزات الأدباء الأتراك الذين تتلمذ لهم المؤلف، كعبد الحقّ حامد بك شاعر تركية القومي وجماعة «ثروت فنون»...»

وقال محمود العبطة في كتابه «محمود أحمد السيّد» (١٩٦١): «ومحمود أحمد السيّد، بما صوّرنا من ملامحه المستخلصة من ملامح عصره المأزوم وجيله القلق، قد بين رأيه في المشاكل والمواقف والأزمات الدائرة في محيطه والماثلة أمامه والشاخصة في بلده، بياناً قد لازم حياته وتطوّره الفكري ونموّ مواهبه. وقد كان الطابع العام للعراق وللبلاد العربية بين انتهاء الحرب الاولى ونهاية الحرب الثانية ينحاز بلون رومانتيكي، يتغنى بالحرية والانطلاق ويتعشق المثل وتهزه الأخيلة والألوان وتسيّره العاطفة والأحاسيس... وكنتيجة لميلاد الواقعية من الرومانتيكية رغم التضادّ الذي يعتقد بوجوده بين الواقعية والرومانتيكية، فإنّ الدعوة إلى الأدب الواقعي بدأت في الظهور في العراق بصورة مبكّرة... ولا حاجة للقول كون السيّد من أول الدعاة إلى الواقعية الاجتماعية البدائية...»

وقال الدكتور علي جواد الطاهر في خاتمة كتابه «محمود أحمد السيّد: رائد القصة الحديثة في العراق» (١٩٦٩): «كان محمود أحمد منصرفاً إلى الأدب، كأنه لا يستطيع الحياة دونه، ولا يستطيع أن يعيش من غير أن يقرأ ويناقش ويكتب، فهو وجوده وهو مثله الاعلى. وإذا ادّعى أحياناً أنه هاو، فإنّ ذلك تواضع وقول تمليه ظروف طارئة، فيما هكذا يكون «الهاوي». ومن شأن الهاوي أن يستمتع أو يقلد دون أن ينتج أو يبدع، والإنتاج والإبداع وليدا الجدّ والمثابرة والطماح والموهبة..»

ثم يضيف قائلاً: «ان قارئه لا يحسّ بالتناقض كثيراً، وانه، بعد أن يودّع المرحلة

الأولى من حياة الكاتب، يكاد يراه منسجماً في دعوته إلى التجديد والتطور وفي تبنيه الأفكار الحديثة وفي حماسته إلى الاصلاح الـلاجتماعي، فهو «كاتب شعبي»، حتى قال يوماً: «نحن الشعب» وهو كاتب مبكر في خدمة الشعب والعمل على الارتقاء به إلى مصافّ البشر.

«ولو انسجم محمود أحمد تمام الانسجام مع آرائه ولم يبد عليه تناقض بين القول والعمل، لكان توفيقه كبيراً في الأنواع الأدبية التي زاولها، أكبر كثيراً مما حقق وبات فيه أهلاً للاعجاب والتقدير.

«ويمكن أن يعزى التجويد ـ فيما جوّد فيه ـ إلى أنه كان يكتب بعد أن تختمر الفكرة في نفسه وفي لحظات ينفصل بها، أو يكاد، عمّا يحيطه أو عما يكون له من رأي مناقض أو عمل مخالف أو راسب عتيق..»

وما أصحّ الحكم الذي خرج به علي جواد الطاهر من دراسته الشاملة لسيرة محمود أحمد السيّد وأدبه، إذ قال: «كان محمود أحمد قصة لم تتمّ ورائداً جديراً بالريادة».

ذنّون أيوب

الأديب القصصي ذو النون عبد الوهاب بن الحاج أيوب العبد الواحد ولد بالموصل سنة ١٩٠٨، وتخرّج في دار المعلمين العالية في بغداد سنة ١٩٢٩، وعيّن مدرّساً للرياضيات والفيزياء في المدارس الثانوية.

وقد استمّر على التدريس في الموصل وبغداد، وكان مديراً لمعهد الفنون الجميلة. واعتقل في أيار ١٩٤٣ إثر مظاهرات حدثت في بغداد، ثم أطلق سراحه بعد أمد وجيز. وانتخب نائباً عن الموصل في تموز ١٩٥٤، لكنّ المجلس حلّ فوراً.

مال الى الأدب وهو شاب يافع، واشترك في تحرير مجلة «المجلة» التي أصدرها عبد الحق فاضل في الموصل سنة ١٩٣٨ وتولّى شؤونها بعد ذلك يوسف الحاج الياس. وكتب القصة يعالج فيها مشاكل العراق وشعبه وبؤس الكادح والفلاح. ونقم عليه رجال الحكم، فترك العراق وأقام في فيينّا عاصمة النمسا (١٩٥٥). وعاد الى بغداد سنة ١٩٥٧، فأصدر مجموعتين قصصيّتين، ثم قفل راجعاً الى النمسا.

وجاء الى بغداد بعد ثورة تموز ١٩٥٨، فعيّن مديراً عاماً للإرشاد والإذاعة (آذار ١٩٥٩). لكنه شغل هذا المنصب أمداً قصيراً ونقل مديراً عاماً للإذاعة والتلفزيون (آب ١٩٥٩)، فملحقاً ثقافياً في براغ (١٩٦٠). واعتزل الوظيفة بعد ذلك وسكن فيينّا منذ سنة ١٩٦٣.

وقد حوكم غياباً في نيسان ١٩٦٤ أمام محكمة الثورة بعد سقوط العهد القاسمي

فقيل أنه لم يكن شيوعياً ولا ديمقراطياً بل انتهازياً.

وتوفي ذو النون في فيينّا في النصف الثاني من سنة ١٩٨٨ وترك مذكّرات.

أصدر ذنون أيـوب مجموعات قصصيّة: رسل الثقافـة (١٩٣٧) الضحايا (١٩٣٨) صديقي (١٩٣٨) وحي الفنّ (١٩٣٨) الكادحون (١٩٣٩) برج بابل (١٩٣٩) العقل في محنته (١٩٤٠) حميّات (١٩٤١) الكـارثة الشاملة (١٩٤٤) عظمـة فارغة (١٩٤٨) قلوب ظمأى (١٩٥٠) صور شتّى (١٩٥٤) قصـص من فيينّا (١٩٥٧). ووضع عدا ذلك قصصاً طويلـة: الدكتور إبراهيم (١٩٣٩) اليـد والأرض والماء (١٩٤٨) الرسائل المنسيّة (١٩٥٧). وتـرجم رواية الآباء والبنين لتـورغنيف، بالاشتراك مع الدكتـور أكرم فاضل (١٩٥٠)، وأسد الفلاندر، الخ.

وألف أيضاً: إنهيـار فرنسة (١٩٤٢) بـرابرة سائبون (١٩٤٢) جمهـورية ١٤ تموز في العـراق (١٩٦٢) مختـارات من روائع الأدب العـالمي (١٩٥٨) وعلى الأرض السـلام (رواية، ١٩٧٢).

قال الدكتـور أكرم فاضل في تقييم أدب ذنّون أيوب «. . . إنـه سجّل تاريخ العراق السياسي والاقتصـادي والاجتماعي والنفسي في قصصه بأسلـوب يطمع في محاكاتـه كلّ أحد دون أن يناله أحد. وقد خبر الكـاتب الحياة خبراً عميقاً قلّ أن يتاح لسواه، أو قلّ أن ينفـذ سواه الى أعماق هـذه الحياة. . .» ثم يقـول: «وليس المهم أن يكون قـد ارتطم بخضمّ كل هذه الـرزايا، ولكن المهم أن المرتطم كان يحسن الانفعـال بالحوادث ويتقن التفاعل معها ويبرع في تصويرها، فكان هذا الإنتاج الزاخر الذي يمثّل العراق من كل هذه الجوانب. . .».

وكتب محمود العبطة: «يقيم الأستـاذ ذو النون أيوب حالياً في مدينـة فيينّا منذ ثمانية أعوام وحيداً يقاسي آلام الغربة ووحشة البعاد ويتحمل آلام مرض القُلاب الذي يعاوده من حين لآخر. ويمضي ساعاته الرهيبة في الكتابة والمطالعة السريعة. وألف حتى الآن روايتين هما: مسالمون ومعتـدون وأبو هريرة وكـوجكا. وكَتب دراسات أدبية ــ علمية، وكلها لم تر نور الطبع والنشر حتى الآن. . .»

وقد أصبح ذو النون أيوب رئيساً للهيئة الإداريـة للدار العراقية التي افتتحت في فيينّا في تموز ١٩٧٤ بإشراف السفارة العراقية في عاصمة النمسا.

عاد ذو النون أيوب الى العراق في زيارة سنة ١٩٧٦. وفي السنة التالية أصدرت وزارة الإعـلام العراقيـة المجلّدين الأول والثـاني من «الآثـار الكاملـة لأدب ذي النون أيـوب» (١٩٧٧)، وهما يضمّان مجموعة قصصه السابقة.

يوسف يعقوب مسكوني

الباحث المؤرخ يوسف يعقوب مسكوني، ولد في الموصل في ١٦ تشرين الأول ١٩٠٣، وذاق مرارة اليتم طفلاً. وعرف منذ عهد الصبا قسوة الحياة وشظف العيش فنشأ عصامياً لا يعتمد إلا على نفسه، ويرى في الحياة كفاحاً مستمراً وعملاً شاقاً متواصلاً. دأب منذ نعومة أظفاره على الجدّ والجهد، يسهر الليالي في طلب العلم ويقضي نهاره في العمل المفيد.

ولقد طالما حدّثني عمّا تحمله في صباه من عنت ومشقّة، لا سيّما في أثناء الحرب العظمى التي أناخت بكلكلها على البلاد والعباد ومدّت ذراعها الرهيب بالقتل والدّمار. تحمّلت الموصل قسطها الأوفر من الأوصاب والآلام في تلك السنوات العجاف، فقاست الجوع والحرمان، واضطرّ الناس سداً لرمقهم أن يأكلوا الجيفة والقطط والكلاب. وتدفقت جموع القرويّين وأبناء العشائر المشرّدين على المدينة يملأون ساحاتها وشوارعها، ويحملون إليها الأوبئة والأمراض، ويسيرون في طرقاتها أشباحاً حيّة تخفي تحت أسمالها الفاقة والهزال. وامتدّت أيدي نفر من الوحوش البشرية الى سرقة الأطفال وذبحهم وبيع لحومهم طعاماً ممجوجاً على موائد القحط والحقارة. وقد أرغم ذوو الفتى مسكوني على بيع دارهم القديمة الصغيرة ليقتاتوا بثمنها البخس في ذلك العهد المريع.

خرج يوسف مسكوني من تلك المحنة صافي النفس كالذهب الذي مرّ بالبوتقة. وعاد الى مقاعد الدراسة، ثم جاء الى بغداد سنة ١٩٢٣ فانتمى الى دار المعلمين الابتدائية وتخرّج فيها (١٩٢٦). وزاول التعليم في المقدادية والأعظمية والخالص وبغداد، ثم نقل الى وزارة المعارف ملاحظاً للمكتبة (١٩٤٤) فمترجماً للّغة الانكليزية (١٩٤٩). واعتزل الخدمة سنة ١٩٦٣.

تعرّف عند قدومه الى بغداد برجال الأدب واللغة والتاريخ، وفي مقدمتهم مصطفى جواد الذي زامله في مدرسة الخالص. واتصل بالأب أنستاس الكرملي فلازم مجلسه وأفاد منه.

وقد توفّي ببغداد في ١١ نيسان ١٩٧١.

مؤلفاته:

من مؤلفاته: من عبقريات نساء القرن التاسع عشر(١٩٤٦)مدن العراق القديمة (ترجمه عن الإنكليزية، لدوروثي ماكاي(١٩٣٢)شخصيات القدر (بالاشتراك مع الدكتور مصطفى جواد، ١٩٦٣)، الألحان والتراتيل الأرامية والعربية(١٩٦٥)نصارى كسكر وواسط قبيل الاسلام(١٩٦٤)، سبط ابن التعاويذي (١٩٥٩)فتح العرب للصين(مقالة ترجمةعن الدكتور دنلوب، ١٩٦٨).

ومن الكتب التي حققها ونشرها: رسالة في حوادث الجو للكندي (١٩٦٥) رسائل في النحو واللغة (لابن فارس والرماني، بالإشتراك مع الدكتور مصطفى جواد، ١٩٦٩)، كتاب الفاضل في صفة الأدبِ الكامل لمحمد بن أحمد الوشّاء (١٩٧١) الخ.

وكتب عدا ذلك كتاباً جامعاً عن واسط مدينة الحجّاج ومقالات وبحوثاً كثيرة عن الأدباء والأديبات وأصحاب المقامات ومغنّيات صدر الإسلام الخ. وقد جمع مكتبة خاصة زاخرة بالمطبوعات والمخطوطات اشتراها المتحف العراقي بعد وفاته.

***

عرف يوسف مسكوني بالوداعة وطيبة النفس والسذاجة. ولئن قيل إنّ وراء كل أديب امرأة، لقد كانت وراءه زوجه الفاضلة التي هيّأت له الراحة المنزلية الوفيرة وجعلت من داره ندوة أدبية يحضرها رجال العلم والفضل. وكانت المطارحات والمفاكهات الشعرية والنثرية تدور في ذلك المجلس اللطيف، فممّا قلته فيه:

ذا يوسف فضله قد فاق فائقه ... وطيبة النفس زانت ناصع السُّرُرِ

أبدت ظواهره مكنون مخبره ... لم يَخْفَ سرّ له في الوِرْد والصَّدرِ

فهو البريء كطفل يوم مولده ... وهو الصفيّ الذي يجلو من الكدر

تلك السّذاجة معنى من لطافته ... دامت ودام كريماً هانىء العُمُر

وقلت في الأرجوزة المسكونيّة:

أهلاً بمسكوني الصديق الفاضل ... زانت حجاه رقّة الشمائل

قد أنعم الله عليه نِعما ... يشكرها مصلّياً مبتسما

من زوجة كاملة رقيقة ... محبّة صافية السّليقة

ثمّ ابنةٍ أديبة مهذّبه ... الى القلوب كلّها محبّبه

وستّة من أفضل الأبناء ... كالأنجم الزهراء في العلاء

حازوا على الآداب والأخلاق ... فهم جميعاً أنفس الأعلاق

حقّوا به، وهو لهم خير أب ... متّسم حقّاً بفضل الأدب

فهذه توقظه صباحا ... تقدّم الماء له قراحا

تأتي له بأطيب الطعام ... ناطقة بأعذب الكلام

وذاك يصغي لتلقي أمره ... منفّذاً ما يبتغي من فوره

وآخر يلبسه رداءه ... مستمعاً في أدب آراءه

وثالث يركبه السيّارة ... منتظراً من أمره الإشارة

وتلك تمضي في انتساخ ما كتب	خوف الضياعِ لا تبالي بالتعب
والأمّ، ذي السيدة الوقورة،	بأمره صادعة شكورة
تحفظ من نكاته الكثيرا	وتحسن التبرير والتّدبيرا
تقول: زوجي العالم الأريب	ليس له في فضله ضريب
إذا رأيتم غفلة في طبعه	فليس ذاك بدعة في شرعه
فالعلم من آفاته النّسيان	وشرطه الذهول والإيمان
أروي لكم سراً من الأسرار	مثيله لم يأتِ في الأخبار:
أرسله صاحبه يخطبني	إذا به لنفسه يطلبني
قد نسي الطالب مذ رآني	فاختارني زوجاً له اجتباني
وكان ذاك القدر المقدّر	قد شاءه الله العليم الأكبر
حمداً له دوماً على الألطاف	ودام مسكوني بعزّ ضافِ

وارتبط يوسف مسكوني في أعوامه الأخيرة بصلة وثيقة بالشاعر حافظ جميل الذي رثاه عند وفاته بقصيدة مؤثّرة تذكّرنا بمرثية الشريف الرضي للصابىء، بل برثاء أحمد شوقي لحافظ إبراهيم.

قال في مستهلّها:

كم كنت تشفي جراحاتي بلقياكا	وكم تشهّيت طعم الموت لولاكا
كنت الطبيب لنفسي، لم تجد بدلاً	من لطف روحك في تطبيب مرضاكا
ما انهلّ دمعي ولم تجهش عليّ بُكاً	فما أشدّك إخلاصاً وأوفاكا..

وقد روى شاكر علي التكريتي أنه قال ليوسف مسكوني، إذ رآه رابضاً في مكتبته يحقق ويدقّق: إن الضوء غير كافٍ. فأجاب: نعم، ولكن الكلمات المضيئة وإشراقة الكتب أعتمد عليها قبل نور الكهرباء.

***

رويت نوادر كثيرة عن سذاجة يوسف مسكوني وذهوله وشرود ذهنه: من ذلك أنه زار انكلترة مع زوجته وذهبا الى حديقة الحيوان. ولما تعبت السيّدة من السير، وزوجها مستمرّ على التجوال والتطلّع، جلست على أحد المقاعد وسألته أن يعود إليها بعد حين. ومرّت ساعة وساعتان وثلاث، وصاحبنا لم يعد، فذهبت السيدة الى مكتب الاستعلامات ونادوا باسمه في مكبّرة الصوت وطلبوا إليه المجيء الى المكتب... ولم يجيء.

وقلقت السيدة فعادت الى النُزُل وأفضت بالأمر الى ربّة الدار التي اقترحت إخبار الشرطة. وفي هذه الأثناء حضر مسكوني هاشاً باشاً، مسروراً بجولته الطويلة، غير ملتفت الى القلق الذي استحوذ على قرينته. وقال: يا للغرابة! هل تعلمين أن في لندن رجلاً آخر يحمل اسم «مسكوني» وكان يزور حديقة الحيوانات في نفس الوقت الذي زرناها؟ لقد نادوا اسمه في مكبّرة الصوت، فعجبت وودت لو تعرّفت اليه. .

ولم يفطن أنه كان المقصود بالنداء!

من القصص التي تروى عن ذهول مسكوني وغفلته أنه أراد قبل عام من وفاته السفر الى أوروبّة، فكلّم صديقه شاكر علي التكريتي في استصدار جواز سفر. قال الصديق:

هلّم بنا نمضِ الى مدير الدائرة أحمد سامي (أبي عائدة) فتأخذ الجواز المطلوب في لحظات.

قال مسكوني: أبو عائدة، إنني كنت مدرساً لزوجته وهو يعرفني حقّ المعرفة.

ومضيا إليه، فأكرم المدير وفادة مسكوني وذكّره بذكريات الدراسة، ثم أمر بتقديم القهوة وإنجاز معاملة جواز السفر. ولم يمض وقت طويل حتى تسلم يوسف مسكوني جوازه وسلّم على المدير وشكره وخرج مع صديقه.

ولما أصبحا في الرواق التفت مسكوني الى شاكر علي وقال: لقد كمل جواز السفر، ولم تبق لنا حاجة الى معونة أبي عائدة الذي درّست زوجته، ولكن مع ذلك، ما دمنا قد أتينا الى هنا، فلا بأس أن نمرّ به للسلام عليه.

فقال التكريتي متعجباً: ولكننا خرجنا من دائرته الآن وهو الذي أنجز لك المعاملة!

قال مسكوني: كنت أظنه مدير جوازات السفر وليس أبا عائدة، فكيف هو هو؟

***

انتقل يوسف مسكوني من داره، لكنه ظلّ بين حين وآخر يعود من دائرته ظهراً الى داره القديمة، ويعجب لوجود أناس غرباء فيها!

وكان راكباً يوماً في سيارة الباص، فصعدت سيّدة وجلست في المقعد الخالي الى جانبه. وغضّ صاحبنا من بصره، لكن السيدة كانت تتقرب منه وهو يبتعد عنها جهده. وأخيراً قالت له: ما لك، يا أبا زهير؟ فنظر إليها متعجباً وقال: أنت هنا، يا أم زهير؟ ماذا جاء بك، وكيف عرفت أنني راكب في هذا الباص فجلست الى جنبي؟

من نوادر يوسف مسكوني أنه نهض ذات صباح وارتدى ملابسه وقام ليذهب الى دائرته فقال لزوجته: أم زهير، إن الحذاء الأيمن يؤلم رجلي فلا أستطيع المشي.

ـ هل تشعر بألم في رجلك؟

ـ كلا، وإنما الحذاء ضيّق جداً يضغط أصابعي.

ـ إن الحذاء لم يصغر ورجلك لم تكبر، فما القضية؟

ـ والعجيب أن الحذاء الأيسر لا يضايقني، بل الأيمن فقط. ومضى يوسف مسكوني الى دائرته وهو يعرج، وعاد بعد الظهر يشكو الضيق والألم.

فلما نزع حذاءه الأيمن وفحصته أم زهير وجدت فيه زوجين من الجوارب وضعت فيه سهواً وكانت مصدر المضايقة!

محمد علي كمال الدين

من رجال التربية والتأليف محمد علي بن عيسى كمال الدين، ولد بالنجف سنة ١٩٠٠، ودرس على والده وغيره من العلماء، وتفرّغ لدراسة العربية والمنطق.

إشترك شاباً في ثورة سنة ١٩٢٠ فكان من محرري جريدة «الاستقلال» و «الفرات». ولما خمد أوار الثورة هرب الى الكويت برفقة أحمد الصافي النجفي وسعد صالح، وعاد الى مسقط رأسه بعد صدور العفو العام. والتحق بدار المعلمين الابتدائية في بغداد (١٩٢١) وعيّن بعد تخرّجه معلماً في المدارس الابتدائية فمدير مدرسة فمدرساً في المدارس الثانوية فملاحظاً لمجلة «المعلم الجديد» حتى أحيل على التقاعد سنة ١٩٥٩. وتوفي ببغداد سنة ١٩٦٦.

من مؤلفاته: سعد صالح (١٩٤٩) ذكرى السيد عيسى آل كمال الدين (١٩٥٧) التطوّر الفكري في العراق (١٩٦٠) تيسير العربية (١٩٦١) معلومات ومشاهدات في الثورة العراقية الكبرى لسنة ١٩٢٠ (١٩٧١).

ترك مصنّفات مخطوطة منها: النجف في ربع قرن، رحلة الى سورية ولبنان، الخ.

الدكتور عبد الجبّار الجومرد

ولد عبد الجبار الجومرد في الموصل سنة ١٩٠٩، وكان أبوه محمد شيت الجومرد من شعرائها المعروفين في عهده (١٨٥٠ ـ ١٩٢٥). وقد تخرّج بدار المعلمين الابتدائية سنة ١٩٢٩، ثم التحق بمعهد الحقوق في الشام ونال شهادتها (آب ١٩٣٥). وبعد أن مارس المحاماة سنتين، شد الرحال إلى باريس وواصل دراسته في السوربون واختص بالحقوق الدستورية والإدارية. وعاد إلى بغداد عند نشوب الحرب العالمية، لكنه لم يلبث أن قفل راجعاً إلى فرنسة، وحصل على درجة الدكتوراه في الحقوق (١٩٤١) والدكتوراه في الآداب (١٩٤٤).

وعاد إلى العراق فزاول المحاماة، وعيّن بعد ذلك ملحقاً بالأمانة العامة لجامعة الدول

العربية (١٩٤٦) وانتخب نائباً عن الموصل في مجلس النواب في حزيران ١٩٤٨، وكان عضواً بالوفد العراقي إلى هيئة الأمم المتحدة سنة ١٩٤٩. وقد استقال من النيابة في آذار ١٩٥٠، ثم أعيد انتخابه نائباً عن الموصل في كانون الثاني ١٩٥٣ وحزيران ١٩٥٤. وكان من رجال المعارضة في المجلس ومن مؤسّسي الجبهة الشعبية، وعرف بخطبه الوطنية ومواقفه الجريئة الصلبة.

ولما قامت الثورة عيّن وزيراً لخارجية الجمهورية العراقية من ١٤ تموز ١٩٥٨ إلى ٧ شباط ١٩٥٩. واختير عضواً مراسلاً بالمجمع العلمي العراقي في كانون الأول ١٩٦١. وقد سمّي سفيراً في وزارة الخارجية في آذار ١٩٦٣، بيد أنه رفض المنصب.

وضع مؤلفات عديدة منها: الدستور العراقي (باللغة الفرنسية، وهو أطروحته في الحقوق ١٩٤١)، والأصمعي (بالفرنسية أيضاً، وهو أطروحته في الأدب)، مأساة فلسطين العربية (بالفرنسية ١٩٤٥). وألف عدا ذلك باللغة العربية: الأصمعي (١٩٥٥) هارون الرشيد (جزءان ١٩٥٦) يزيد بن مزيد الشيباني غرّة العرب (١٩٦١) داهية العرب أبو جعفر المنصور (١٩٦٣). ووضع تاريخاً للموصل في ٣ أجزاء، و «تاريخ حياتي ١٩١٠ ـ ٧١» (مخطوط).

توفي عبد الجبار الجومرد بالموصل في ٣٠ تشرين الثاني ١٩٧١.

قال الدكتور أكرم فاضل: «كان عبد الجبار وردة شباب الموصل، فهو يلعب كرة القدم بمهارة عجيبة، ويجيد التمثيل، ويبرع في الخطابة، ويحسن الكتابة، ويبدع في الشعر العامي والفصيح، بالإضافة إلى كونه خطيباً يستهوي الأسماع وصاحب أجوبة مسكتة...»

ثم قال: «وعاد إلى العراق في أعقاب الحرب الثانية فتطلعت الأنظار إلى الاتجاه الذي سيتّجه إليه، فإذا به نائب في مجلس النواب... وكانت خطبه في المجلس طريفة مرصّعة بالأرقام والشواهد والشعر والأمثال والأقوال المأثورة. وهو أول من سمعناه يذكر «الديمقراطية المنافقة»، وهي مقولة فرنسية. وكان يقظاً للمتربّصين به من النواب: خطب مرة فنهض وزير نائب ليقول ما مضمونه: أشهد أنّ الجومرد ممثل قدير، كان زميلي في دار المعلمين وكان ممثلاً بارعاً. فما كان من المغموز إلاّ أن نهض ليردّ على الغامز بقوله: كلنا في الحياة ممثلون، وجزاء كل ممثل الصفير أو التصفيق. وسنرى أخيراً لمن يكون الصفير ولمن يكون التصفيق!».

وقد نظم الجومرد قصائد في رثاء الزعيم السوري إبراهيم هنانو والشاعر الزهاوي إلخ. ومما قاله في تأبين الزهاوي:

فقد الشعر زاهيات المعاني ... وذوت أعين القوافي الحسان

وتعرّت قصائد الشعر عن ثوب ... قشيب معطّر الأردان

وكأنّ المنون راشت سهاماً ... لتصيب الآداب في العنوان...

وقال في فلسطين:

مَنْ سـامعٌ فأبثّ شكـوى لم تـزل	بين الضلـوع دفينـة آلامهـا؟
لا تفخـروا: كـانت وكـان لـواؤهـا،	طـوي الـزمـان ومـزّقت أعـلامهـا
شيع وأحـزاب يحطّـم بعضهـا	وجـرائد مأجـورة أقـلامهـا
علماؤهـا غضّـوا الجفـون على القـذى	وسعى لكـلّ بليّـة حكّـامهـا . . .

ومن شعره:

ذنبي من الأيّـام أعـرفـه	نفـس لها ثـوب مـن الكبْرِ
أجـد الحيـاة، على مكـانتهـا	لا تستحـقّ إهـانـة الحرّ
فـأصـون وجهـي أن يفـرّط بي	وأصـون لفظي عـن غـدٍ يـزري

محمد شيت الجومـرد الشاعر والـد الدكتـور عبد الجبار ولـد في الموصل سنة ١٨٥٠ وتوفي سنة ١٩٢٥ . وقد طبع ديوانه في القاهرة باسم «ديوان الجومرد» (١٨٨٨) ونشر في السنة نفسها ديوان صديقه الشاعر الموصلي الملاّ حسن البزّاز (١٨٤٥ ـ ١٨٨٧).

صبيحة الشيخ داود

إذا ذكـرت النهضة النسـائية في العـراق فـلا ريب أنها تقترن باسم الأديبـة الحقوقيـة صبيحة الشيخ أحمد الداود رائدة الدراسة النسوية العالية ومؤلفة كتاب «أول الطريق».

ولدت صبيحة ابنة أحمد الشيخ داود (الذي أصبـح فيما بعد وزير الأوقاف) في بغداد سنـة ١٩١٢ . وأقيم في بغداد في شبـاط ١٩٢٢ المهرجـان الأدبي المعـروف باسم سـوق عكاظ، فدعيت وهـي فتاة صغيرة إلى تمثيل دور الشاعرة الخنساء، فـاعتلت ظهر جمل وألقت قصيدة. قال أمين الريحاني في كتابـه «ملوك العرب» (الجزء الثاني): «أقام جماعة المعهد العلمي سوق عكاظ في عـاصمة العبّاسيين، وكانت أول حفلة بـاهـرة فريدة بعد التتويج، حضرها جلالـة الملك فيصل، فجلس في فسطاط بين النخيل يسمع الشعراء ينشدون والخطباء يخطبون. وكان قسّ بن ساعدة في مقدمة الخطباء يمثله أحد الصبيان الأذكياء، وكـانت الخنسـاء في طليعة الشعراء تتلـو قصيدتها إحـدى الأوانس المسلمات سافرة صافنة . . .».

وتخرّجت صبيحـة الشيخ داود في دار المعلمات الابتـدائية فعيّنت معلمـة في المدارس الرسميـة في أيلول ١٩٢٧ . ثم انتمت إلى كليـة الحقوق سنة ١٩٣٦ ، فكـانت أول فتاة وطأت أقـدامهـا هـذا المعهـد. ولما تخرّجت بعـد أربع سنـوات عيّنت مفتشـة في وزارة المعارف (أيلول ١٩٤٠) فمـدرّسة بدار المعلمات الابتدائيـة (أيار ١٩٥٠). ونقلت سنة ١٩٥٦ عضواً بمحكمـة الأحداث، فظلّت فيها حتى اعتـزلت الخدمة في كانـون الثاني

سنة ١٩٧٠، وانصرفت إلى ممارسة المحاماة وألّفت كتاب «تجربتي في قضاء الأحداث».

ساهمت في النهضة النسائية فاشتركت في المؤتمر النسائي الأول الذي عقد ببغداد في تشرين الأول ١٩٣٢ واختيرت سكرتيرة له وألقت محاضرة عن حقوق المرأة المسلمة. واشتركت بعد ذلك في المؤتمر النسائي العربي في بغداد (آذار ١٩٥٢)، وكانت لها جهود مذكورة في الجمعيات الخيرية كالهلال الأحمر وحماية الأطفال إلخ.

ووضعت كتابها «أول الطريق» إلى النهضة النسوية في العراق (١٩٥٨)، كتب مقدمته منير القاضي، فقال: «وكانت مؤلفة الكتاب الأستاذة صبيحة الشيخ داود، عضو محكمة الأحداث، أول فتاة دخلت كلية في العراق، وهي كلية الحقوق، باستثناء فتاة أخرى دخلت كلية الطبّ، وكنت آنذاك عميد كلية الحقوق. وقد وجدت فيها النشاط والانصراف التام إلى الدراسة والتتبع، فتوسمت فيها كل الخير، وحدست أنها ستكون القدوة الصالحة لأخواتها الفتيات العراقيات. وقد صدق حدسي، كما أنها قررت أن تقوم بخدمات صالحة في المجتمع النسوي في العراق، وأنها ستنشر مؤلفات وأبحاثاً علمية. فكان ما حزرتُ، فقد كتبت أبحاثاً في مواضيع مختلفة نشرت في المجلات والجرائد، وكان آخر ما وقفت عليه من ثمار أعمالها كتابها «أوّل الطريق»... وقد دفعني إلى كتابة هذه المقدمة قيام الصلة الوثيقة بيننا، صلة أستاذ مخلص مع تلميذة نجيبة وفيّة. فقد قضيت في تدريسها مع زملائها أربع سنوات في كلية الحقوق، وهي الفتاة الوحيدة بين نحو ألف طالب يحترمونها وتحترمهم ويقدرون نشاطها وسعيها، وتقدر أدبهم وحسن سيرهم معها على وجه المساواة والحرمة المتبادلة...».

توفيت صبيحة الشيخ داود ببغداد في ١١ تشرين الثاني ١٩٧٥.

كانت صبيحة الشيخ داود ابنة رجل دين مثقف عصريّ النزعة أتاح لها الدرس والانخراط في سلك التعليم والقضاء. فإذا ذكرت باحثة البادية وميّ زيادة وهدى شعراوي في مصر فلا بد من ذكر قرينتهن صبيحة في العراق.

كان لها صالون أدبي يعقد كل أسبوع في دارها المطلة على دجلة فيحضره رجال الفضل والصحافة والأدب والسلك الدبلوماسي. وقد زارت الأقطار العربية مراراً واتصلت برائدات النهضة النسوية فيها.

قال جعفر الخليلي إن صبيحة متأنقة في لباسها، صريحة في قولها، يكاد لسانها ينطق بكل ما في صدرها، صبيحة الوجه حلوة الشمائل بعيدة عن التكلف إلى حدّ معقول.

مار إغناطيوس يعقوب الثالث

العالم البحاثة مار إغناطيوس يعقوب الثالث بطريرك السّريان الأرثذكس، واسمه الأب عبد الأحد توما. ولد في قرية برطلّي من قرى شمال العراق سنة ١٩١٢، ودرس الفلسفة واللاهوت في معهد مار مَتّى بالموصل. ثم مضى إلى حمص فترهّب سنة ١٩٣١، وقام بالتدريس سنة واحدة في بيروت. وأرسل سنة ١٩٣٢ سكرتيراً للرسول البطريركي في الهند، ولم يلبث أن أصبح عميداً للمعهد اللاهوتي في ملابار (١٩٣٤). وعاد إلى الموصل سنة ١٩٤٧ وعمل مدرساً للاّهوت، ثم اختير أسقفاً لبيروت ودمشق (١٩٥٠). وانتخب سنة ١٩٥٧ بطريركاً لأنطاكية وجميع المشرق خلفاً لمار إغناطيوس افرام الأول برصوم، فاتخذ لقب إغناطيوس يعقوب.

زار بريطانية سنة ١٩٧٩ واجتمع برئيس أساقفة كانتربري رئيس الكنيسة الإنكليزية، ومضى قبيل وفاته إلى روما وتباحث مع البابا يوحنّا بولس الثاني.

توفّي في دمشق في ٢٦ حزيران ١٩٨٠.

وضع مصنّفات كثيرة، منها ديوان شعر باللغة السريانية (طبع في حلب ١٩٦٠)، بين الشرق والغرب: صفحات ذهبية من تاريخ الكنيسة المسيحية (في جزءين، ١٩٤٩)، تاريخ الكنيسة السريانية الهندية (١٩٥١) تاريخ الكنيسة السريانية الأنطاكية (في جزءين، ١٩٥٣)، المشعل الوضّاء في طريق السماء (١٩٥٤) نزهة الرائد في الكتاب الخالد (١٩٥٢) دفقات الطيب في تاريخ دير القدّيس مار مَتّى العجيب (١٩٦١) الكندي والسريانية (١٩٦٣) الشهداء الحميريون العرب في الوثائق السّريانية (١٩٦٦) بطاركة الشرق (١٩٦٩) خطب المهرجانات (١٩٦٩) صدى المنابر (١٩٦٩) اللآلىء المنثورة في الأقوال المأثورة (١٩٦٩).

وكان عضواً بمجمع اللغة العربية في دمشق.

جلال الحنفي

الشيخ جلال محيي الدين الحنفي الأديب الفقيه الشاعر ولد ببغداد سنة ١٩١٢ ودرس في المدارس الرسمية. ثم لازم الشيخ أمجد الزهاوي وغيره من العلماء فأخذ عنهم. وكان سكرتيراً لجمعية الناشئة الإسلامية ورئيس تحرير مجلتها. ثم مضى إلى القاهرة وداوم في الجامع الأزهر سنة واحدة عاد على أثرها إلى بغداد (١٩٤٠) لنشوب الحرب العالمية.

عيّن إماماً لبعض المساجد. وأوفد إلى الصين سنة ١٩٦٤ لتدريس اللغة العربية في بكين. وعاد إلى بغداد بعد ثلاث سنوات، وقد تعلّم اللغة الصينية ووضع معجماً عربياً

صينياً لم يتسنّ لـه طبعه وكتب فيـه الكلمات الصينية بحروف عـربية. وعين مـوظفاً في وزارة الإعلام أمداً قصيراً، ثم أسندت إليه إمامة جامع الخلفاء. وأعيد إيفاده إلى الصين للتدريس في شنغهاي (١٩٧٥ ـ ١٩٧٦) وعاد منهـا بعد سنة ونصف ليستأنف الإمامة في جامع الخلفاء. ودعي إلى تونس سنة ١٩٧٨ لإلقاء محاضرات أدبية وثقافية.

وضع كتبـاً ورسائل عديـدة منها: التشريـع الإسلامي: تـاريخه وفلسفته (١٩٤٠) معاني القـرآن (١٩٤١) رسالـة اجتماعية خـالدة (١٩٥٣) الـزكاة وفلسفـة الإحسان في الشريعة الإسـلامية (١٩٥٥) صحـة المجتمع (١٩٥٥) الروابط الاجتماعيـة في الإسلام (١٩٥٦) بقايـا ديوان (١٩٥٦) مقدّمـات الجنوح في الأحـداث (١٩٥٧) أحاديث من وراء الميكروفـون (١٩٦٠) الأمثال البغداديـة (في جزءين ١٩٦٢ ـ ١٩٦٤) الـرصافي في أوجه وحضيضه (١٩٦٢) المرأة في القرآن الكـريم (١٩٦٠) الأيمان البغدادية (١٩٦٤) معجم الألفاظ الكويتية (١٩٦٤) معجم اللغة العامية البغدادية (في جزءين ١٩٦٣ ـ ١٩٦٦) المغنّون البغـداديون والمقـام العراقي (١٩٦٤) الصنـاعات والحرف البغـدادية (١٩٦٦) العَروض (١٩٧٨) إلخ.

ونشر من الكتب: أعيـان البصرة (١٩٦٠) لعبـد الله بـاش أعيان العبـاسي، الـدرّ النقيّ في علم الموسيقي (١٩٦٤) لأحمد بن عبد الرحمن القادري الرفاعي.

كـانت معرفـة جلال الحنفي للّغـة الصينيـة ـ وهـو شيء نادر في العـراق ـ مصـدر مضـايقة لـه. فقد كـان يتحدث مع زوجتـه بـالصينية لكي لا ينسيـا اللغة. وفيما هـو يكلمها تلفونياً إذا برقيب التلفونات يقول له على الخط:

ـ ألا تعرف العربية، يا شيخ جلال؟ هل أنت تتكلم بلسان الطيور؟

ـ أنا أكلم زوجتي بالصينية لكي لا ننسى تلك اللغة.

ـ تكلم بالعربية لنفهم ما تقول!

ولما استمر الشيخ جلال على التحدث بلغة الصين قطع الخط.

وفي مناسبة أخرى قبض رجـال الأمن في البصرة على بحّار صيني تخلف عن اللحاق بباخرته واتهموه بـالتجسس. وأخذ الحنفي عنوة إلى البصرة ليترجم للبحار الذي لم يكن يعرف سوى لغتـه. قال البحار إنه كـان يسبح في شط العرب فإذا به يرى البـاخرة التي يعمل فيها قـد أقلعت تاركـة إياه بلا مـلابس ولا نقود. أمـا رجال الأمن فلم يصـدقوا كلامه وحثوا الشيخ جلال على مضـايقته وحمله على الاعتراف. واستطاع الحنفي بعد أن تخلص من هذه المهمة المضنيـة أن يعود إلى معتكفه في جامع الخلفاء تـاركاً رجال الأمن وبحارهم في مساجلة غير مجدية.

وجلال الحنفي رجل دين متسامح واسع الأفق. ومن الغريب أنه اشترك في الضجة التي أقيمت سنة ١٩٤٤ على معـروف الرصـافي حين نشر كتابه «رسـائل التعليقات».

وقيل إن أعداء الشاعر أثاروا تلك الضجة بتحريض وتشجيع من البلاط الملكي انتقاماً منه لهجوه الأمير عبد الإله ومساندته لحركة مايس ١٩٤١ ضد الإنكليز. وقد أخبرني مصطفى علي أن الشيخ الحنفي أبدى نشاطاً محموماً في تكفير الرصافي، فهجاه بقصيدة مقذعة شديدة أكتفي بنقل بيتين منها:

ولست بمعجزي أبداً، فإنّي | على كبح الغواة قصرت عمري
وكم أغراك بالنكراء شاحٍ، | شحاك عليّ بالنبهاء مُغْرِ

وقد نشر مصطفى علي القصيدة كاملة في الجزء الرابع من تحقيقه لديوان الرصافي (١٩٧٦).

الدكتور علي الوردي

ولد علي حسين الوردي في الكاظمية سنة ١٩١٣، وكان مدرساً بالمدارس الثانوية. ثم أوفد إلى الولايات المتحدة وأتم دراسته في جامعة تكساس، فنال شهادة الدكتوراه في علم الاجتماع، وكان موضوع اطروحته ابن خلدون.

وعاد إلى بغداد فعيّن مدّرساً في كلية الآداب (تشرين الاول ١٩٥٠) فأستاذاً مساعداً (كانون الأول ١٩٥٣). وأصبح بعد ذلك استاذاً لعلم الاجتماع في كلية التربية فكلية الآداب بجامعة بغداد. واعتزل التدريس في حزيران ١٩٧٠ منصرفاً إلى التأليف.

عرف الدكتور علي الوردي كاتباً اجتماعياً جريئاً أثارت كتاباته ومؤلفاته حركة فكرية عارمة.

مؤلفاته:

من مؤلفاته: شخصية الفرد العراقي (١٩٥١) خوارق اللاشعور (١٩٥٢) وعاّظ السلاطين (١٩٥٤) مهزلة العقل البشري (١٩٥٥) أسطورة الأدب الرفيع (١٩٥٧) الأحلام بين العلم والعقيدة (١٩٥٩) منطق ابن خلدون (١٩٦٢) طبيعة المجتمع العراقي (١٩٦٥) نشأة الوعي السياسي في العراق (١٩٦٨) لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث (الجزء الأول ١٩٦٩، الثاني ١٩٧١، الثالث ١٩٧٢، الرابع ١٩٧٤) الخامس عن ثورة العشرين في قسمين (١٩٧٧ ـ ٧٨).

نشأ علي الودري نشأة متواضعة أعانته فيما بعد عل تشخيص أدواء المجتمع وإظهار الازدواجية الشخصية التي ابتلي بها أفراده. قال في مقدمة كتابه وعاظ السلاطين: «ولقد أتيح لي في بدء حياتي فرصة ثمينة، حيث كنت أكسب قوتي بعرق جبيني، وعانيت من الذلّ والحرمان والمهانة قسطاً كبيراً، فأدركت آنذاك مبلغ ما يقاسي أبناء السوقة والصعاليك من عذاب ومذلّة على أيدي الطغاة المترفين والجلاوزة». .

حمل الـوردي في كتابـاته على الأفكـار القـديمة والتقـاليـد البالية وحللّها في ضـوء النظريـات الاجتماعية العلمية ودعا إلى نبـذ الترسّبات القبائلية في المجتمع وبناء مجتمع عصري مثقف يـدين بالترابط الـوطني والـولاء للدولـة، وكـان أشدّ كتبـه إثارة «وعـاظ السلاطين» و«أسطورة الأدب الرفيع».

تخلّص في كتابه «وعاّظ السلاطين» إلى القول: «لقد آن الأوان لكي نحدث انقلاباً في أسلوب تفكيرنـا، فقد ذهب زمـان السلاطين وحلّ محلـه زمان الشعـوب.. وليس من الجديـر بنـا، ونحن نعيش في القـرن العشرين، أن نفكّـر على نمط ما كـان يفكـر بـه أسـلافنا من وعـاظ السـلاطين. آن لنـا أن نفهم الطبيعة البشريـة كما هي في الـواقع، ونعترف بما فيها من نقائص غريزية لا يمكن التخلّص منها، ثم نضع على أساس ذلك خطة الإصلاح المنشودة».

ودرس الأدب العربي دراسـة العالم الاجتماعي لا الناقد الأدبي، فقـال: «لا ننكر أن شعراءنـا اليوم قـد تغيروا عما كانـوا عليه بـالأمس، فقد تحوّل الكثيرون منهم مـن مدح السـلاطين إلى مـدح الشعوب. ولكننـا يجب أن لا ننسى أن تغيّرهم هـذا إنما كـان من نـاحية الشكل في الغـالب، أمـا من ناحيـة المحتـوى فلم يتغيروا الا قليلاً. انهم ظلـوا يسيرون في شعرهم على نفس الطـريقة القديمـة من حيث الاندفـاع في الفخر والحماس وقلة المبالاة بحقائق الأمور، فهم بـدلاً من أن يجعلوا السلطان ظلّ الله في الأرض وأعدل الناس طـراً، اتجهوا نحـو الشعب فجعلوه نبيلاً كـاملاً في جميع صفـاته لا يتطـرّق إليه النقص أبداً.

«يبدو أن شعراءنا حين تركوا مدح السلاطين واتجهوا نحو مدح الشعب صاروا كأنهم عادوا إلى حياة البـداوة الأولى، حين كان الشاعر يمدح قبيلته ويـذم خصومها في الحق والباطل. فهم لا يختلفـون عن شعراء الجاهليـة إلا من حيث أنهم وسعوا نطـاق القبيلة فجعلوه «الشعب» أو «الوطن» أو «الأمّـة»، إنهم بعبارة أخرى، غيروا شكل العصبيّة، أمـا مضمونها فلـم يغيروه، حيث بقوا ينظـرون إلى شعبهم أو وطنهم أو أمتهم كما كـان الشاعر البدوي ينظر إلى قبيلته.

«انّ هذا النمط من التفكير الحماسي ـ وهو الذي يصح أن نسمّيه بالتفكير الشعري ـ لم يقتصر أثـره على الشعـراء فقط، بل شمل أيضـاً الكثير من المفكرين وحملـة الأقـلام والخطباء، فهـم جميعاً يجرون على طـريقة واحدة، هـي طريقة عمـرو بن كلثـوم: «ماء البحر نملأه سفينا!» (لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث ١: ٣١٣ ـ ٣١٤).

وقال علي الوردي في تصريـح له إنه لم يتأثر بشعـر شاعر، لأنه منذ البـداية ضعيف الثقة بالشعـر والشعراء ويرى ان الشعر من أهم الأدواء الاجتماعيـة التي ابتلي بها العرب منـذ عصر الجاهلية. أمـا الكتاب الـذين تأثر بهم فكـانوا كثيرين، منهم الغـزالي وابن خلدون وسلامـه موسى ودورانت ووليم جيمس وهـ. ج. ويلـز وعلماء الاجتماع عامة

(جريدة الجمهورية البغدادية، ٤/ ١٢/ ١٩٦٩).

ودعا في فرصة أخرى إلى معالجة المشاكل الاجتماعية ومناقشتها، فذلك - كما قال خير من الانشغال بالأدب الفارغ حول البحتري وتأبط شراً. وأضاف قائلاً: «اننا، في هذه المرحلة الراهنة، في حاجة إلى ثورة فكرية نتحوّل بها من عالم الأدب إلى عالم العلم. فقد مللنا الانهماك المفرط بالأدب الذي لا صلة له بالحياة. ولعلّني لا أغالي إذا قلت انّ هذا النوع من الأدب أضرّ بنا وعرقل علينا سبيل الحياة الحديثة» (جريدة الجمهورية، ١٢/ ٦/ ١٩٧٠).

انّ علي الوردي عالم اجتماعي وليس أديباً، ولو أنه عانى - كما قال - نظم الشعر في شبابه. وقد استطاع مع ذلك، في كتابيه وعاظ السلاطين وأسطورة الأدب الرفيع بوجه خاص، أن ينقد الأدب العربي نقداً صريحاً، فيفصل قشوره عن لبابه ويخلع الأردية البرّاقة التي يلتفع بها الكثير من الشعر والنثر فيظهر عريهما وهزالهما.

وكذلك هيّيء له أن يكشف عن قيم رفيعة ظلّت خلال عصور طويلة مستهجنة مرذولة في عالم أدبّي مصطنع.

الدكتور ناصر الحاني

ناصر محمد طاهر الحاني ولد في بلدة عنة على الفرات سنة ١٩١٧ وتخرّج في دار المعلمين العالية ببغداد سنة ١٩٤٣. وواصل دراسته في كلية الآداب بالقاهرة فأحرز شهادة الليسانس في الآداب (١٩٤٧) ونال الدكتوراه في الفلسفة من جامعة لندن (١٩٥٠).

عيّن مدرساً في كلية الآداب في تشرين الثاني ١٩٥٠. ونقل مديراً للبعثات في وزارة المعارف (١٩٥١) فأستاذاً مساعداً بكلية الآداب (١٩٥٤). وألقى في تلك السنة محاضرات في معهد الدراسات العربية العالية بالقاهرة، ثم عيّن ملحقاً ثقافياً في السفارة العراقية في واشنطن (ايلول - ١٩٥٤)، وانتدب استاذاً في جامعة لندن (١٩٥٩). وانتقل إلى وزارة الخارجية مديراً عاماً للعلاقات (آذار ١٩٦٠) فسفيراً في بيروت (آب ١٩٦١)، وأضيفت إلى عهدته سفارة اليونان أيضاً. ونقل سفيراً في دمشق (تموز ١٩٦٢) فسفيراً في ديوان وزارة الخارجية، وأسندت إليه وكالة الوزارة في تموز ١٩٦٣. ومثّل الجمهورية العراقية بعد ذلك سفيراً في واشنطن (١٩٦٤) فبيروت (شباط ١٩٦٧). وأصبح وزيراً للخارجية من ١٨ إلى ٣٠ تموز ١٩٦٨، ثم عيّن سفيراً في ديوان وزارة الخارجية.

وقد اغتيل ببغداد في ١٠ تشرين الثاني ١٩٦٨.

مؤلفاته وأدبه :

كان الدكتور ناصر الحاني أديباً ناقداً وضع مؤلفات منها : نقد وأدب (١٩٤٦) النقد الأدبي وأثـره في الشعر العباسي (١٩٥٥) جميل صـدقي الـزهـاوي (محاضرات القاهـا بالقـاهرة، ١٩٥٤) من اصطلاحات الادب الغـربي (١٩٥٨) الأدب العربي واعـلامه (بالاشتراك مع آخرين، ١٩٥٢)، في الحضارة العربية (١٩٦٨) أوراق (١٩٦٨) الخ .

وحقق شعر الراعي النميري (١٩٦٤). وكتب عدا ذلك دراسات ومقالات عديدة وأبحاثاً عن العراق في بعض دوائر المعارف الاميركية وغيرها .

وقد تحدث نـاصر الحاني ذات مرة فقال إنـه معجب بطه حسين الـذي يعتبره استاذ الجيل دون منازع وأول من وضع اسلوباً عربياً تأثر به كثير من الأدباء الناشئين واقتفوه . أما من أدباء الغرب فقد تأثر الحاني ـ على ما قـال ـ بالناقد الانكليزي سسل داي لويس ودعا إلى ترجمة كتابه «الأخيلة الشعرية» . ولويس من شعراء انكلترة المعاصرين ونقادها الأدبيين، ولد في إرلنـدة سنة ١٩٠٤ ودرس في جـامعة أكسفـرد وأصدر دواويـن شعر متعددة وكتباً في النقد والرواية .

الدكتور عبد الجليل الطاهر

من أساتذة علم الاجتماع، ولد عبد الجليل علي الطاهر في القرنة، عند ملتقى دجلة والفـرات، سنـة ١٩١٤ . ودرس في دار المعلمين الابتـدائيـة فعّين معلماً (تشرين الاول ١٩٣٣)، ثم انتمى إلى دار المعلمين العالية وعمل في التدريس .

أوفـد سنـة ١٩٤٧ لاتمام دراستـه في بـاريس، ثم إلى الـولايـات المتحـدة الأميركيـة (١٩٤٩) . وعـاد إلى بغداد يحمل شهـادة الدكتـوراه في الفلسفة فعّين مـدرساً في كليـة الأداب (تشرين الأول ١٩٥٢) . ونـال بعد ذلك كـرسّي استاذ علم الاجتماع في جـامعة بغداد، وانتدب للتدريس في جامعتي الرياض وبنغازي .

وتوفي ببغداد في ١٢ حزيران ١٩٧١ .

مؤلفاته :

كان الدكتور عبـد الجليل الطاهر من أبرز المؤلفين في علم الاجتماع في عصره، فأدى خدمة مزدوجة في عالمي التأليف والتدريس . قـال الدكتور شاكر خصباك : «كان يمثل بحق الاستـاذ الجادّ خير تمثيل، الاستاذ المكبّ على العلم، الـواسع المعرفـة والاطلاع، الملتزم التـزاماً تاماً في تـدريسه وأبحاثـه . وقد تميزت أبحـاثه عموماً بسعـة أفقها وعمق تتبّعها وفكـرها الجادّ التقـدّمي العلمي وببعـدها عن الغـوغائية والـديماغوغيـة، وهي

صفات قلما اجتمعت في أساتذة علم الاجتماع العرب» .

ثم قال شاكر خصباك انّ الطاهر ضحّى بالكثير من أجل الشعب وفصل بسبب الدفاع عنه ثلاث مرّات وذاق آلام التشردّ سنوات طويلة .

وقال الدكتور علي شلتوت عميد كلية التربية بجامعة الاسكندرية : «لقد كان الدكتور عبد الجليل الطاهر عالماً بكل ما تحمله هذه الكلمة من معانٍ . لقد جعل منه استعداده الذهني وذكاؤه وقدراته المختلفة وصبره على القراءة وبراعته في الربط والتحليل والبحث ، جعلت منه عالماً صادق الرأي عميق الفكر. . »

من مؤلفاته : المشكلات الاجتماعية في حضارة متبدلة (١٩٥٣) التفسير الاجتماعي للجريمة (١٩٥٤) البدو والعشائر في البلاد العربية (١٩٥٥) أصنام المجتمع (١٩٥٦) علم الاجتماع بين الفينومينولوجية والتجريبية (١٩٦٢) مسيرة المجتمع (١٩٦٦)الخ .

وترجم كتباً منها : المزارع التعاونية الجماعية (١٩٦٠) أصول فلسفة الطبقة الوسطى (١٩٦٠) الايديولوجية والطوبائية للاستاذ مانهايم (١٩٦٨) العشائر والسياسة (جزآن (١٩٥٨ ــ ١٩٧٢) السكان والاقتصاد (بالاشتراك مع الدكتور منصور الراوي ، ١٩٦٨) عشرة أعوام في طرابلس (١٩٦٧) الخ .

عبد العزيز الدوري

الدكتور عبد العزيز عبد الكريم الدوري ولد في بغداد سنة ١٩١٧ ودر س في المدرسة الثانوية وبعد ذلك في جامعة لندن ومدرسة الدراسات الشرقية ، فنال الدكتوراه في التاريخ الإسلامي .

عاد إلى بغداد فعّين مدرساً في دار المعلمين العالية (آب ١٩٤٣) فمدير الترجمة والنشر بوزارة المعارف (كانون الثاني ١٩٤٩) فعميد كليه الآداب والعلوم (آذار ١٩٥٠) . وعاد استاذاً للتاريخ الإسلامي في دار المعلمين العالية وثم في جامعة بغداد . وقد انتدب استاذاً زائراً في جامعة لندن (١٩٥٥) وجامعة بيروت الاميركية (١٩٥٩) . وانتخب في تموز ١٩٦٣ عضواً بالمجمع العلمي العراقي ، وكان رئيساً لجمعية المؤلفين والكتاب . وانتخب عضواً مراسلاً في مجمع اللغة العربية بالقاهرة في نيسان ١٩٦٧ .

وقد اعتقل في أعقاب ثورة ١٤ تموز ١٩٥٨ متهماً بمساندة حلف بغداد والدعاية الثقافية له وأحيل على محكمة الشعب وسجن ، ثم عفا عنه عبد الكريم قاسم .

عيّن سنة ١٩٦٣ رئيساً لجامعة بغداد في عهد عبد السلام عارف . وضع بحوثاً ومؤلفات كثيرة منها :

تاريخ العراق الاقتصادي في القرن الرابع الهجري (١٩٤٨) الجهبذة والصيرفة في

العراق (١٩٤٣) دراسات في العصور العباسية المتأخرة (١٩٤٥) العصر العباسي الأول (١٩٤٥) في الوعي العربي (١٩٥٣) مقدمة في تاريخ صدر الإسلام (١٩٤٩) مستقبل الفكر العربي (١٩٥٧) نشوء الاصناف والحرف في الإسلام (١٩٥٩) نظرة إلى تاريخ صدر الإسلام (١٩٥٥) النظم الإسلامية (١٩٥٠) بحث في نشأة علم التاريخ عند العرب ١٩٦٠) الجذور التاريخية للقومية العربية (١٩٦٠) دراسات في علم التاريخ عند العرب (١٩٦٠) ضوء جديد على الدعوة العباسية (١٩٥٧) الفكر العربي في دور التجديد والتقليد (١٩٦١) ابن خلدون والعرب (١٩٦١) الجذور التاريخية للشعوبية (١٩٦٢) الجذور التاريخية للاشتراكية العربية (١٩٦٥) الجغرافيون.

العرب وروسية (١٩٦٦) دراسة في سيرة النبي ومؤلفها ابن اسحاق (١٩٦٥) مقدمة في التاريخ الاقتصادي العربي (١٩٦٩)، الخ.

مضى أخيراً إلى عمان وأصبح استاذ التاريخ العربي والإسلامي في الجامعة الأردنية. والف: التكوين التاريخي للأمة العربية (١٩٨٤).

وقد منح جائزة الملك فيصل (السعودية) للدراسات الإسلامية سنة ١٩٨٦.

صالح أحمد العلي

الدكتور صالح أحمد العلي ولد في الموصل سنة ١٩١٦ وعيّن معلماً في المدارس الرسمية في تشرين الأول ١٩٣٦. ثم انتمى إلى دار المعلمين العالية ببغداد فتخرج فيها سنة ١٩٤١. وأوفد للدراسة في كلية الآداب بجامعة القاهرة فنال شهادة الليسانس (١٩٤٥)، ثم في جامعة اكسفورد التي حاز منها الدكتوراه (١٩٤٩).

عيّن استاذاً في دار المعلمين العالية (تشرين الثاني ١٩٥٠) ثم في كلية الآداب بجامعة بغداد. وأصبح رئيساً لدائرة التاريخ ووكيل عميد معهد الدراسات الإسلامية.

وانتخب عضواً بالمجمع العلمي العراقي في تموز سنة ١٩٦٣ واصبح رئيساً له سنة ١٩٧٩. واختير أيضاً عضواً بمجمع اللغة العربية في دمشق وعضواً في مجمع اللغة الأردني (١٩٨٠).

من مؤلفاته: خطط البصرة (١٩٥٢) مستوى الاسعار في القرن الأول الهجري (١٩٥٢) محاضرات في تاريخ العرب (١٩٥٤) أحكام الرسول في الأراضي المفتوحة (١٩٥٦) التنظيمات الاجتماعية والاقتصادية في البصرة (١٩٥٣) خطط المدينة (١٩٦١) الأنسجة الإسلامية في القرن الأول الهجري (١٩٦١) النظام الاقتصادي

الإسلامي في التطبيق (١٩٦٢) منطقة الكوفة (١٩٦٥) منطقة الحيرة (١٩٦٥) موظفو بلاد الشام في العهد الأموي (١٩٦٦) المؤلفات العربية عن المدينة والحجاز (١٩٦٤) كتب الفقه وأهميتها في دراسة التاريخ الإسلامي (١٩٥٥) المدائن في المصادر العربية (١٩٦٧) مصادر دراسة خطط بغداد في العصور العباسية (١٩٦٧) قضاة بغداد في العصر العباسي (١٩٦٩) تنظيمات الرسول الادارية في المدينة (١٩٦٩) جزيرة العرب للأصمعي (١٩٦٨)، إلخ . . .

وقد ترجم كتباً عن علم التاريخ عند المسلمين، وتركية الفتاة وثورة ١٩٠٨، والحضارة البيزنطية والحروب الصليبية، وحقق كتباً من التراث للجاحظ والحسن الاصفهاني الخ. ووضع أطلساً تاريخياً للشعوب الإسلامية طبع في أمستردام.

وترجم أخيراً كتاب خطط بغداد في القرن الخامس الهجري من تأليف الدكتور جورج مقدسي (١٩٨٤).

منح صالح أحمد العلي جائزة الملك فيصل السعودية العالمية في الدراسات الإسلامية لسنة ١٩٨٩.

الدكتور عبد الجبار عبد الله

رئيس جامعة بغداد الدكتور عبد الجبار عبد الله الشيخ سام ينتمي إلى أسرة صابئية قديمة أنجبت العديد من علماء الطائفة. ولد في قلعة صالح من أعمال لواء العمارة سنة ١٩١١ وأتم دراسته الثانوية في بغداد (١٩٣٠) وانتمى بعد ذلك إلى الجامعة الأميركية في بيروت فنال درجة بكالوريوس علوم سنة ١٩٣٤.

عمل مدرساً في مدارس العمارة الثانوية (تشرين الأول ١٩٣٤) فمساعد مدير الأنواء الجوية في مطار البصرة (١٩٣٧) فمدرساً في مدارس بغداد الثانوية ودار المعلمين العالية (١٩٤١ ــ ٤٤). ورحل إلى الولايات المتحدة الاميركية فأتم دراسته في معهد ماتساشوستس التكنولوجي في بوسطن وحصل على الدكتوراه في العلوم الطبيعية (١٩٤٩). وعمل في أثناء ذلك مساعد بحوث ومساعد استاذ في المعهد نفسه.

عاد إلى بغداد فعيّن استاذاً ورئيساً لقسم الفيزياء في دار المعلمين العالية (تشرين الثاني ١٩٤٩) إلى سنة ١٩٥٨. ورشح خلال هذه المدة استاذاً باحثاً في جامعة نيويورك بين سنتي ١٩٥٢ و ١٩٥٥. وعلى أثر ثورة تموز ١٩٥٨ عيّن أميناً عاماً لجامعة بغداد ووكيلاً لرئيسها، فرئيساً أصيلاً (١٩٥٩). وكان في الوقت نفسه نائب رئيس هيئة الطاقة الذرّية.

وقد فصل من منصبه على أثر نشوب ثورة رمضان في شباط ١٩٦٣ واعتقل وعذّب

وأهين. ثم أطلق سراحه فمضى إلى الولايات المتحدة حيث عمل استاذاً في جامعاتها. وأدركته الوفاة بها سنة ١٩٦٩.

كان عالماً فاضلاً، لكن أخذت عليه ميوله اليسارية التي كانت سبب سجنه وإيذائه. وضع بحوثاً علمية نشرت في المجلات الأميركية وانتخب عضواً في جمعيات علمية متعددة، وألف باللغة الانكليزية كتاباً في «ديناميكا الأعاصير» (طبع في نيويورك سنة ١٩٥٣). وألف بالعربية: علم الصوت (١٩٥٥) واشترك في ترجمة «مقدمة في الفيزياء النووية والذرية» (١٩٦٢) والجزء الأول من موسوعة الأنواء الجوية (١٩٤١).

طه باقر

ولد في الحلة سنة ١٩١٢، وهو أخو الشاعر محمد الباقر الحلي. درس طه باقر علم الآثار في جامعة شيكاغو فنال شهادة البكالوريا والماستر وعاد إلى بغداد سنة ١٩٣٨. وعين في تشرين الثاني من تلك السنة موظفاً في مديرية الآثار العامة، وأصبح أميناً للمتحف العراقي (تموز ١٩٤١) فمعاون مدير الآثار العام (كانون الثاني ١٩٥٣) فمفتشاً عاماً سنة ١٩٥٦. وعين مديراً عاماً للآثار في أواخر سنة ١٩٥٨، وكان في الوقت نفسه أستاذ التاريخ القديم في جامعة بغداد. وتولّى نيابة رئاسة الجامعة بالوكالة سنة ١٩٦٠. وأحيل على التقاعد سنة ١٩٦٣.

انتخب عضواً بالمجمع العلمي العراقي في تشرين الأول ١٩٧١ وعضواً بمجمع اللغة العربية بدمشق. وتوفي سنة ١٩٨٤.

وضع مؤلفات كثيرة، فمن آثاره: أصل الحروف الهجائية وانتشارها (١٩٤٥) علاقات بلاد الرافدين بجزيرة العرب (١٩٤٩) ملحمة جلجامش والطوفان (١٩٥٠) لوح رياضي على نظرية إقليدس من تل حرمل (بالعربية والإنكليزية، ١٩٥٠) قضايا رياضية أخرى من تلّ حرمل (١٩٥١) مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة (جزءان، ١٩٥١) بابل وبور سيبا (١٩٥٩) عقرقوف (١٩٥٩) تل حرمل (١٩٦٠)...

وقد نقل عن اللغة الإنكليزية: بحث في التاريخ (لأرنولد توينبي) من ألواح سومر (لصموئيل كريمر، ١٩٥٨). واشترك في ترجمة: الإنسان في فجر حياته (لدوروثي ديفدسن، ١٩٤٥) تاريخ العلم (لجورج سارتون، ١٩٥٧) الرافدان (لسيتن لويد، ١٩٤٨). ووضع مؤلفات بالإنكليزية عن عقرقوف وبابل وبورسيبا وتل حرمل وحفريات الحكومة العراقية، إلخ.

الدكتور محمد سليم النعيمي

الدكتور محمد سليم محمود النعيمي الأعظمي ولد في قصبة الأعظمية من ضواحي بغداد سنة ١٩١٠ . درس في دار المعلمين فعيّن معلماً (تشرين الأول ١٩٣١)، ثم أوفد إلى مصر وباريس لإكمال دراسته العالية (١٩٣٣). ووضع أطروحة الدكتوراه في جامعة السوربون في موضوع شعر المعارضة السياسية في العصر الأموي (١٩٣٩)، لكنه لم يتمكن من مناقشتها لاضطراره على العودة إلى العراق إثر نشوب الحرب العالمية .

وقد اعتقل في تشرين الأول ١٩٤١ لاتهامه بالميول النازية . وعيّن أستاذاً في دار المعلمين العالية في أيار ١٩٤٧ فملحقاً ثقافياً بالسفارة العراقية في باريس (نيسان ١٩٥٤). وعاد أستاذاً في دار المعلمين العالية في أيار ١٩٥٥ ونقل إلى جامعة بغداد عند إنشائها .

عيّن عضواً بالمجمع العلمي العراقي في آب ١٩٦٣ وانتخب نائباً أول لرئيسه . وأوفد سفيراً للعراق في تونس، فلما عاد إلى بغداد استأنف عضويته في المجمع ونيابة رئاسته .

وانتخب عضواً مراسلاً في مجمع اللغة العربية بالقاهرة (نيسان ١٩٦٧) وعضواً بمجمع دمشق (١٩٧٣).

توفي في بغداد سنة ١٩٨٤ .

له مؤلفات عديدة منها: وجهة الأدب الحديث (١٩٦٢) شعر النجاشي الحارثي (١٩٦٥) ظهور الخوارج (١٩٦٧) أخطاء في دائرة المعارف الإسلامية (١٩٦٩) اسم الفعل: دراسة وطريقة تيسير (١٩٦٨).

وقد ترجم قسماً من «أعمدة الحكمة السبعة» تأليف لورنس (١٩٤٧) وتعريف الاشتراكية لأميل دركهايم (١٩٤٧). وحقق كتاب التبصير في الدين للإسفراييني (١٩٣٩) والاشتقاق لأبي سعيد الأصمعي (١٩٦٨).

واشترك في وضع مصطلحات علم الجراحة والتشريح ومقاومة المواد وهندسة إسالة الماء إلخ .

الدكتور ناجي معروف

ولد ناجي معروف في قصبة الأعظمية من ضواحي بغداد في ٢٠ كانون الأول ١٩١٠ ودرس في دار المعلمين العالية . وعيّن مدرساً في تشرين الأول ١٩٣١، ثم أوفد إلى باريس للدراسة فالتحق بمعهد اللوفر وجامعة السّوربون . ووضع أطروحته للحصول على الدكتوراه في الآداب، لكنها لم تناقش بسبب نشوب الحرب سنة ١٩٣٩ وسحب طلاب البعثة الدراسية، فاضطرّ على العودة إلى بغداد .

عيّن على أثر عودته مدرساً، ثم نقل مفتشاً بوزارة المعارف (أيار ١٩٤٦) فأستاذاً مساعداً في دار المعلمين العالية (كانون الأول ١٩٤٦). وأسندت إليه مديرية أوقاف بغداد في آذار ١٩٤٨، ثم عهد إليه بالتدريس في كلية الشريعة (نيسان ١٩٥٠) وأصبح عميد الكلية في نيسان ١٩٥٣. وكان بعد ذلك عضواً في مجلس الخدمة العامة وأستاذاً في جامعة بغداد. وانتخب عضواً بالمجمع العلمي العراقي في تشرين الأول ١٩٧١ وعضواً بمجمع دمشق.

أحيل على التقاعد سنة ١٩٧٠، فانتهز الفرصة لتقديم أطروحته إلى جامعة القاهرة والحصول على درجة الدكتوراه.

مضى إلى الحجاز لأداء مراسيم العمرة فتوفّي هناك في آب ١٩٧٧.

وضع مؤلفات تدريسية وتاريخية كثيرة، منها: المدرسة المستنصرية (١٩٣٥) تاريخ علماء المستنصرية (١٩٥٩) المدخل في تاريخ الحضارة العربية (١٩٦٠) المدرسة الشرابية (١٩٦١) التوقيعات التدريسية (١٩٦٣) عروبة المدن الإسلامية (١٩٦٤) مقدمة في تاريخ مدرسة أبي حنيفة وعلمائها (١٩٦٥) نشأة المدارس المستقلة في الإسلام (١٩٦٦) تخطيط بغداد (١٩٦٦) حياة إقبال الشرابي (١٩٦٦) المدارس الشرابية ببغداد وواسط ومكة (١٩٦٦) مدارس مكة (١٩٦٦) مدارس واسط (١٩٦٦) عالمات بغداديات في العصر العباسي (١٩٦٧) العملة والنقود البغدادية (١٩٦٧) المراصد الفلكية في بغداد (١٩٦٧) مستشفيات بغداد في العصر العباسي (١٩٦٨) أصالة الحضارة العربية (١٩٦٩) التأميم الاجتماعي في الإسلام (١٩٦٩)، عروبة العلماء المنسوبين إلى البلاد الأعجمية (الجزء الثالث ١٩٨٠).

وترجم كتاب «خطط بغداد» للمستعرب الفرنسي كليمان هوارت Clément Huart (١٩٦١). وكان هوارت (١٨٥٤ ـ ١٩٢٧) من مترجمي وزارة الخارجية الفرنسية وأعضاء المجمع العلمي العربي في دمشق، وضع تآليف بالفرنسية عن تاريخ بغداد والآداب العربية ونشر كتباً من التراث القديم.

وقد حاول ناجي معروف إثبات عروبة البلدان الإسلامية وأنساب علماء المسلمين، وفاته أن الحضارة الإسلامية الزاهرة شارك فيها بنصيب كبير الفرس والروم واليهود والنصارى والصابئة وسائر الملل التي استظلت بظل الإسلام واتخذت العربية أداة للكتابة والتعبير.

فؤاد جميل

من رجال التربية والتأليف، ولد في العمارة، حيث كان أبوه جميل أفندي موظفاً، سنة ١٩١٤. أتم دراسته الثانوية في بغداد ومضى بعد ذلك إلى بيروت ودرس في جامعتها الأميركية متخصصاً في اللغة الإنكليزية.

عاد إلى بغداد فعيّن مـدرساً (١٩٣٤)، ثم كان أول سكرتير للجنة الإذاعـة في بداية تأليفها (١٩٣٧). ونقلت خدماته إلى وزارة التموين بصفة مميز (١٩٤٥)، ثم أعيد إلى التدريس في دار المعلمين الابتـدائية (١٩٤٨) والإعـدادية المركـزية (١٩٥٠). وأصبح مدير مكافحة الأمية بـوزارة المعارف (١٩٥٤) فمفتش معارف فأستاذ الأدب الإنكليزي في جامعة بغداد.

لازمَ الشيخ قـاسم القيسي ومحمد بهجت الأثـري أمـداً آخذاً عنهما اللغـة العربيـة، وكان من روّاد البحث الفـولكلوري، كتب الفصـول المسهبة عن بدو العـراق وعاداتهم وتقاليدهم ومأثوراتهم وقصصهم.

أدركه الحِمام في بغداد في ١٩ تشرين الأول ١٩٧١.

من مؤلفـاته: مقالات وأحاديث (١٩٥٨). وقـد ترجم فؤاد جميل كتبـاً كثيرة منها: فنّ الدراسـة، حضارة العالم الجديـد (١٩٥٨) العراق في القرن الـرابع للميلاد بحسب وصف المؤرخ الروماني أميانوس مرشيلينوس (١٩٦١) في بلاد الرافدين: صور وخواطر (من تأليف الليـدي دراور زوجـة السر أدوين دراور مشـاور وزارة العـدلية العـراقيـة، ١٩٦١) بغداد مـدينة السـلام (تأليف ريجارد كوك، في جـزءين ١٩٦٢ ـ ٦٧)، يليني (١٩٦٣) ثورة العـراق ١٩٢٠ (تأليف الجنرال ايلمر هـالدين، ١٩٦٥) هيرودوتس في العراق (١٩٦٢) رحلات إلى العراق (تأليـف السر واليس بادج، جزءان ١٩٦٦ ـ ٦٨) أريان يـرون أيام الإسكندر الكبير في العـراق (١٩٦٧) بلاد مـا بين النهرين بين ولاءين (تأليف السر ارنولـد ولسن، في ٣ أجزاء ١٩٦٩) رحلـة متنكر إلى بلاد مـا بين النهرين وكردستان (تأليـف الميجر سون، ١٩٦٩) سنتان في كردستـان (تأليف هاي، ١٩٦٩) الدين مادة ورمزاً (تأليف هدلي، ١٩٦٢) إلخ.


الشعر الجديد
الشعر الحر

نـازك الملائكـة

الشاعـرة المجدّدة نـازك الملائكة، ابنـة صادق جعفـر الملائكة (١٨٩٢ ـ ١٩٦٩) الذي درّس اللغة العربية في المدارس الثانوية الرسمية أكثر من ربع قرن. وأمها الشاعرة أمّ نزار الملائكة (سلمى عبد الرزّاق) ولدت ببغداد سنة ١٩٠٨ وتزوجت في سن مبكرة. وتوفيت سنة ١٩٥٣، وقد طبع ديوان شعرها بعنوان «أنشودة المجد» (١٩٦٨).

واقترنت نازك الملائكة سنة ١٩٦٢ بالدكتـور عبد الهادي محبوبة (ولد ١٩١٢) وكان أستاذاً بجامعة بغداد ثم أصبح رئيساً لجامعة البصرة.

ولدت نازك في بغداد في ٢٣ آب سنة ١٩٢٣، وتخرّجت في دار المعلمين العالية سنة ١٩٤٤، ثم واصلت دراستهـا في جامعـة وسكونسن الأميركيـة (١٩٥٤). وعادت إلى بغداد فكانت أستـاذة مساعدة في جامعتها، وانتقلت بعد ذلك إلى التـدريس بجامعة البصرة ثم في جـامعة الكـويت. وأصدرت دواويـن شعريـة: عاشقـة الليل (١٩٤٧) شظايـا ورماد (١٩٤٩) قرارة الموجة (١٩٥٧) شجـرة القمر (١٩٦٨)، ودراسة نقـدية بعنوان «قضايا الشعر المعاصر» (١٩٦٢). ولها أيضاً: الأدب والغزو الفكري (١٩٦٥) محاضرات في شعر علي محمود طه (١٩٦٥).

وقد أصدرت ديوان شعر جديداً بعنـوان «مأساة الحياة وأغنية للإنسان» (١٩٧٠)، ولها أيضاً: التجـزئة في المجتمع العربي (١٩٧٤) للصـلاة والثورة (١٩٧٧) يغيّر ألـوانه البحر (شعر).

نحّي زوجهـا عن رئاسـة جامعـة البصرة كما نحّيت هي أيضـاً عن تـدريس الأدب العربي، فمضيا إلى الكويت ودرّسا في جامعتها. وعادت إلى بغداد سنة ١٩٨٩.

ومنحتها كليـة الآداب بجامعـة الكويـت سنة ١٩٨٥ إجـازة تفرّغ للعـلاج بعد أن عانت وضعاً صحياً ونفسياً متدهوراً.

قال عبد اللطيـف شرارة في نازك الملائكة مقيّماً ديوانها «عاشقـة الليل» (مجلة الأديب البيروتية، آذار ١٩٤٨):

«أما عنـد الآنسة نازك فإن بـواعث الكآبة التي تتجلّى في كل بيت من أبيـات ديوانها

هذا ليست في الحرمان ولا في الحبّ الضائع ولا في فكـرة الموت، وإنما هو «حزن فكريّ» نشأ عن تفكير في الحياة والموت من جهة، وتأمّل في أحوال الإنسانية من جهة ثانية، ثم انتقلت هذه الملاحظـات والتأمّلات إلى صعيد الحسّ، فحفرت في «القلب» جـروحاً لا تندمل، وأخذت من بعد ذاك تتدفّق آهات وأحزاناً. وتلك هي رواية شاعريتها . . . » .

وقال إيليا أبـو ماضي في جريدتـه «السّمير» (نيويورك، ١٦ ك٢ ١٩٤٨): «نبغ في العرب عدد من النساء الشاعرات أشهرهنّ الخنساء التي فجّر موت أخيها صخر كل ما في روحها من ينابيع الشعور، فكانت مراثيهـا فيه من أرقّ ما فاضت به قرائح الشعراء. ولا بدع فالمرأة في هذه الناحية، في ناحية الإحساس العميق واللهفة والدموع، أعظم بما لا يقاس من الرجل، فكأنما أعصابها أوتار قيثارة تخرج منها الأنغام كلّما مرت بها أصابع عابث ـ سـواء كان هذا العابث هو الـزمان أم الإنسان. وأمامنا الآن ديوان شعـر أهدته إلينا ناظمتـه الشاعرة المرهفة الحسّ نازك الملائكة التي تحكي الخنسـاء في نواحها، ليس على أخ لها كصخـر، ولا على زوج مثل ابن طريف، بل على ذاتها. فهي في الليل ثـائرة غضبى، وفي الصباح باكية دامية، لا ترى في الناس من تألفه ولا في الطبيعة ما يصرفها عن نفسها الكئيبة الحزينة . . .

ويلمح القارىء روحهـا حائرة حزينة مضطـربة مكفهرة في كلّ قصيـدة من قصائد الديوان الذي أسمته «عاشقة الليل». وهذه التسميـة وحدها كافية للدلالة على رغبتها في السكينة والعزلة والانطواء لكي تطالع في كتاب روحها سطور الألم وآيات الأسى.

«ويبـدو لنا من بعض تعـابيرها ومن الـروح السّاريـة في شعرهـا أنها متأثرة بشعـراء الكآبـة مثل الشاعر كيتس الإنكليـزي وسواه . . . على أنّها مبدعة في التصـوير والتعبير إبداعاً ندر نظيره . . . »

***

قالت من قصيدة لها في «لعنة الزمن»:

كنّا كالأمواج الخرس
في عينينا لون الشمس
في وجهينا الوقرين خشوع المغرب والأبد الخلاّق
كنّا نهمس كالأنداء
كصدى مجداف في الماء
لم نقطع صوت الظلماء
بمدامع ذكرى أو أشواق
كنّا قد كفّنّا الماضي ودفنّا اللهفة والأشواق
في الظلمة في صمت الأعماق

***

وأراق المغرب ألوانه

فوق الأشياء الوسنانه

لم يبق بناء لم تحمر أعاليه ، لم يبق زقاق

حتّى في صفرة خدّينا

حتى في وجمة قلبينا

أحسسنا اليقظة واللّونا

أحسسنا شيئاً كالثورة في الدم ، في الأعين ، في الأعراق

شيئاً كاللّهفة ، كالأشواق . . .

* * *

وهجسنا شيئاً منفعلا

في قلبينا ، شيئاً ثملا

يلهث عاطفة بعد جمود سنين مرّت في استغراق

وانبجست أشواق وَسْنَى

من أعيننا لوناً لونا

وتحرّك في دمنا معنى

ناريّ الشوق صَدٍ توّاق

وسدى حاولنا أن نسكنه فهو صَدٍ مرح توّاق

وسدى نطمره في الأعماق

* * *

ووقفنا في الظلمة نحلم

بالموج وبالليل المبهم

ونحوك من الرؤيا والأنجم والأمواج لنا أطواق

ونجوب العالم في عربات

صنعتها أذرع جنّيّات

من عطر الأزهار الخجلات

في أسلاك الضوء الألّاق

في قصر النهر على أرض يلمسها القمر الألّاق

وتناست مولدها الآفاق

سئلت نـازك الملائكة عن الشعـر الحرّ الذي كـانت في طليعة الـداعيات إليـه وعلة تسميته بهذا الاسم، فقالت :

«إنّها سمّينـاه بهذا الاسم باعتبـاره غير مقيّد بـالتـزام الشطرين المتسـاويين والقافيـة الموحّدة. وفكرة «الحرية» هنا تستند إلى القيود المفـروضة في البحور الشعرية الستة عشر وليست حرية مطلقـة كما يتوهّم بعض الناس. والواقع انّ هـذا الشعر ليس نثراً، وإنما هـو شعـر تحرّر مـن بعض القيـود الشكليـة. إنّـه لا يثـور على الـوزن وإنما على نظـام الشطرين، وهو لا يرفض القافية وإنما يرفض القافية الموحّدة. . . ».

ثمّ قالت : «لا شكّ أن في التزام الأوزان القديمـة ذات الشطرين الصارمين شيئاً من التضييق على الشاعر، غير أنها لا تحول إطلاقاً دون التعبير عن العاطفة وصياغة الفكرة الصياغة المطلوبة. ولا بدّ من التنبيـه إلى أن الموضوعات التي تصلح لها الأوزان القديمة تختلف عن الموضـوعـات التي تنـاسب الأوزان الحديثـة، ولـذلك يـدهشني أن بعض الشعراء لا يستعملون إلا الأوزان الحرّة».

وسئلت الشاعـرة عن الكآبـة التي تغلب على شعرهـا فأجابت قـائلة : «لعلّ سبب ذلك أنني أتطلب الكمال في الحيـاة والأشيـاء وأبحث عن جمال لا حدود لـه. وحين لا أجد مـا أريد، أشعـر بالخيبـة وأعدّ القضيـة قضيّتي الشخصية. يضـاف إلى هذا أنني كنت إلى سنوات خلت أتخذ الكآبة موقفاً إزاء الحياة، وكنت أصدر في هذا عن عقيدة لم أعـد أؤمن بها، مضمـونها أن الحزن أجمل وأنبل من الفـــرح، فكنت أقف إزاءه مـوقف العابدة وأتحدث عنه كما لو كان إلهاً. ومن أمثلة هذا في «قرارة الموجة» :

نحن هيّأنا له حبّاً وتقديساً ونجوى

وتهيّأنـا للقـياه عيـونـاً وشفـاهـا،

وسنلقاه مصلّين كما نلقى إلٰها. . . »

إن شعر نـازك الملائكة يعبّر من حيث المبنى والمعنى، عـن الكبت النفسيّ والتمرّد، ولم يكن ذلك غـريبـاً على فتـاة نشأت في بيئـة محافظـة وانطلقت فجأة إلى آفـاق العـالم الرحيب. إن الصراع قـد اشتدّ في قـرارة نفسها بين دنياهـا القديمـة التي فتحت عليها العينين، تلك الدنيا التي كانت تعدّ الفتاة جوهرة ثمينة ينبغي الحفاظ عليها في صندوق مبطن بـالقطيفة وإبعـادها عن الأبصـار، وبين العـالم الجديد الـذي خرجت إليـه على مقاعد الدراسة وفي الولايـات المتحدة الأميركية. وزادت حدّة الصراع حين أطلت الفتاة التي أشربت حبّ الأدب العربي الاتّباعي بين والديها الأديبين الشاعرين، حين اطلعت على الآداب العالميـة وقرأت آثار الفكـر الأوروبيّ المتفتّح. وكانت نتيجـة هذا الصراع زمّ عواطفها والتمرّد على القديم مع الخوف من الحديث.

تمرّدت نـازك على مباني الشعـر العمـودي فابتـدعت الشعـر الحرّ الذي حـافظ على

تفاعيل البحور العربية في أبيات تطول وتقصر وتسرع وتتلكأ وتهدأ وتموج وتحلّق وتسفّ.

وتمرّدت نازك على المعاني الشعرية، فتشبّثت بأذيال الألم وتمرّغت على أقدامه وتغنّت بألحانه، فقالت:

نحن توّجناك في تهويمة الفجر إلها
وعلى مذبحك الفضّي مرّغنا الجباها
يا هوانا، يا ألم
ومن الكتّان والسمسم أحرقنا بخورا
ثم قدّمنا القرابين ورتلنا سطورا
بأبيات النغم...

ونزعت إلى الحبّ وخشيته فدفعتها رهبتها إلى الأحلام. لم تكتحل عيناها بمرأى الشفق، بل ضربت في أودية الخيال وحاولت أن تحلم بالمساء الجميل والدجى السّاجي والنجوم المتألقة بصفاء وهدوء، حاولت أن تتصيّد الرؤى وتنصب الشراك للسعادة التي في متناول يديها. حاولت أن تحلم بالحبّ الذي هو المنحة الطبيعية للشباب، فطلبته على جبال القمر، بعيداً عن الزمان والمكان وفي معزل من البشر. طلبت الحبّ في أمس الدابر، بدلاً من اليوم الحاضر والغد القريب، فقالت:

سنحلم أنّا نسير إلى الأمس لا للغد
وأنّا وصلنا إلى بابل ذات فجرٍ ندٍ،
حبيبين نحمل عهد هوانا إلى المعبد،
يباركنا كاهن بابليّ نقيّ اليد.

ونزعت الشاعرة إلى الحياة وخافتها، وهفت إلى الهناء فملأتها رهبته، فتعلّلت بالصور والكلمات وسألت: هل؟ ومتى؟

(هل) و (متى) لحن جفون ضارعة وشفاه،
وجوابها: إن شاء الله...
هل تحضر؟ هل يأتي المطر؟
هل يسخو العطر وينهمر؟
إن شاء الله،
إن شاء الله.
ومتى يسري نسغ السكّر
في الرمّان الحامض؟ والفجر متى يظهر؟
والشاطىء بعد ضنى الأسفار متى سنراه؟
إن شاء الله...

ورأت شاعرتنا في الحزن والكآبة منطلقاً من القيود التي ترسف فيها، فأحبّت لواعجها وتمسّكت بحزنها وقدّست كآبتها. وصوّرت حزن نفسها غلاماً صافي الشعور: ناصع الجبين، يسبح في بحر من النور والأريج، غلاماً خجولاً يحيى في دموع المآقي الخرس، لا يعرفه إلاّ من خبر الصمت العميق وكتم الألم في عمق الحشا السحيق. وقالت:

نحن هيّأنا له حبّاً وتقديساً ونجوى،

وتهيّأنا للقياه عيوناً وشفاها.

وسلنقاه مصلّين كما نلقى إلٰها.

وسنهديه انفجار الأدمع العذبة سلوى

وسنحبوه أسىً أقوى وأقوى

وسنعطيه عيوناً وجباها...

لقد أولعت نازك بالرمز، لكن رموزها لا تكاد تخفي تمرّدها وكبت نفسها. وحتى إذا شاءت أن تذكر زمان الصفاء وعهد المحبّة والوئام فهي تصف تلك السعادة عن طريق الذكريات بعد أن تختلق الخصام الذي فرّق بين المحبين وأفرغ كأس الغرام وطوى المشاعر الجميلة التي اعتلجت في حنايا الصدر. مرّت بذهن الشاعرة لحظات الصفاء التي فاحت بالشذا واتّسمت بالعذوبة والسماح، فلم تكد تأسف لانقضائها، بل قالت:

وكنّا عشقنا انبثاق الحرارة في مقلتينا،

فدعنا نحبّ النضوب.

وكنّا هوينا التورّد والشعر في شفتينا،

فلم لا نحبّ الشحوب؟

ولم لا نخلّف ركناً من المقت بين يدينا؟

فدعنا نقم أسس الحبّ والودّ بين العيوب،

وأفسح مكاناً لبعض الحماقات بعض الذنوب.

ودعنا نكن بشراً طافحين نفيض جنونا

وننضح ضحكاً ودمعاً سخينا.

وها هي ذي الشاعرة قد مزجت اللحن بالبكاء والضحك بالدموع والسرور بالألم، لكن ألمها الصامت الدائم يبرز في كل حين من وراء السطور.

بدر شاكر السّيّاب

من روّاد الشعر الحرّ في العراق، بـدر شاكر السيّاب، ولد في قريـة جيكور المجاورة لبلدة أبي الخصيب سنة ١٩٢٦. وهـذه القرية ذكرها إبراهيم فصيح الحيـدري في كتابه «عنوان المجد» وقال إن معنى اسمها: مكان الأعمى. وحرم حنان الأمومة طفلاً، وذاق مرارة العوز والحاجـة، لكنه واصل دراسته الثانـوية في البصرة والعالية في بغـداد بالرغم من كل المثبّطات.

وأذكر له قصة* قرأتها قبل أعوام طويلة ولم تـزل عالقة بذهني لأنها من صميم الواقع الـذي يهز ويثير: قصة قـدوم الفتيات، تـروي مجيء فتيـات لقضاء عطلـة الصيف في القريـة المنعزلة النـائية المحرومـة نور الكهربـاء ومتع الحضارة. لقد علم الشبّـان بقدوم قريبـات لهم، فظلوا يترقبون ذلك القـدوم بقلوب مـؤمّلة واجفة ويتطلعـون إليه تطلّع المحروم الذي لم ير في حياته وجه فتاة مدنية...

وجاء السيّـاب إلى بغدادسنة ١٩٤٣ فـانتمى إلى دار المعلمين العالية وارتـاد ندوات الأدب ونظم الشعر. وتخرج سنة ١٩٤٨ فعيّن مدرساً في الرمادي. ولم يلبث أن شارك في الحركات السياسية الوطنية ففصل وسجن. ولما أطلق سراحه، عضّه الفقر بنابه، فعمل محرراً ومخبراً ومترجماً في صحف بغداد وتشبّث بأشغال أخرى سدّاً لرمقه. وسافر إلى إيران والكويت والمملكة السعودية، ثم عاد إلى بغـداد ليقبع في زوايا مديرية الأموال المستوردة موظفاً صغيراً. وكان بعد ذلك مترجماً في جريدة الشعب (١٩٥٧).

واندلع لهيب الثورة في تموز ١٩٥٨، فحيّا مطلع النـور الجديد وأعيد إلى التدريس، لكنـه لم يلبث أن اعتقل وسجن في سنـة ١٩٥٩. وتنكّـر بعـد ذلك لآرائه السيـاسيـة القديمـة وقلب لماضيه ظهر المجنّ، بيد أن شعـره النابع من أعماق نفسه استمـرّ يتدفّق ثراً، نابضاً بالحياة.

ووظف في مـديريـة ميناء البصرة ردحـاً من الزمن، ثم ابتلي بـالمرض وأصيب بشلل جـانبي، فـذهب للعـلاج إلى لبنـان وانكلترة. وعـاد إلى البصرة، ثم أدخل المستشفى الأميريّ في الكـويت حيث قضى نحبـه في ٢٤ كانـون الأول ١٩٦٤، بعـد أن تداولتـه تيارات السياسة وهدّ جسمه المرض ووسمه بميسمه الشقاء.

شعره ومؤلفاته:

صدر لبدر شاكر السيّاب مجموعـات وملاحم شعرية، منها: أزهار ذابلة (١٩٤٧) أساطير (١٩٥٠) حفّار القبور (١٩٥٢) المومس العمياء (١٩٥٤) الأسلحة والأطفال (١٩٥٤) المعبـد الغـريق (١٩٦٢) منـزل الأقنـان (١٩٦٣) صهيل الجواد الأبيض، أنشـودة المطر (١٩٦٠) شنـاشيل ابنـة الجلبي (١٩٦٥) إقبـال (١٩٦٥) قيثارة الـريح

* أربع بنات، نشرت في جريدة الشعب البغدادية في ٦ آب ١٩٥٥

(١٩٧٠) إلخ. وله، عدا ذلك، قصص ومقالات شتّى، و «مختارات مترجمة من الشعر العالمي الحديث» (١٩٥٥) نقلهـا عن اللغة الإنكليزيـة، وآثار شعرية مخطـوطة: زئير العـاصفة، قلب آسيـة، القيـامة الصغـرى، من شعر نـاظم حكمت، إلخ. وتـرجم أيضاً: الجواد الأدهم (١٩٦١) مولد الحرية الجديد (١٩٦١).

إنّ السيّاب الشـاعر ابن جيله التـائه في بيداء الضياع. تفتّح ذهنـه، أوّل ما تفتّح، على ويلات الحرب والتقتيل والتدمير، وصراع المبادىء في خضمّ من الـدماء والدموع. أضيف إلى ذلك نشأتـه العسيرة المكافحـة، ونفسه المرهفـة التي ضاقت ذرعـاً بالجهـاد والحرمان، وتأثّـره بمناهج الأدب العـالمي الحديث عن طريق معرفتـه للّغة الإنكليـزية وظمأه إلى المطـالعة والاطلاع. بـرز كلّ ذلك في شعره، وبعـض ذلك في مأساة حيـاته وموته.

هل نستطيع أن نقرن السيّاب بـالشاعر الفرنسي أرتـور رامْبُو (١٨٥٤ ـ ١٨٩١) Arthur Rimbaud؟ ـ إن البـون بينهما جسيم: فرامبو من شعـراء الرمزية الـذين يستهينون بالكلمات والحروف ويغرقـون في بحر من الصور، منها المفهـوم ومنها العصي الغامض. إنّ شعر رامبـو يقوم على الـرمز والإيماء ويحلّق في فضـاء الهيولى والضبـاب، ويلج ذهن القارىء بطريق التعليل والتأويل.

لكن الشـاعرين يجتمعـان في الضياع والبحث عن مثل أعلى مجهـول. فرامبـو يعاني البؤس والفاقة حتى ليقول في بعض شعره: لقد مضيت، ويدي في جيبي الممزّق، وقد أصبح معطفي رقيقاً كـالخيال، سائراً في ظلّ السماء، مخلصـاً لربّة الشعر، حـالماً برؤى الحبّ الجميلـة. إنّ مأواي نجـم الـدبّ الأكبر، وإنني لأجلس على قـارعـة الطـريق لأصغي إلى موسيقى النجوم، وقطرات الطلّ تبلّل جبيني...

يطلّق رامبو الشعر في العشرين من عمره ويسافر في مغامرات غريبة إلى الهند ومصر والحبشة، يحمل آلامه وأوصابه إلى الأقطار القاصيـة. ثم يعود إلى فرنسة كليلاً مريضاً، ويدخل إلى مستشفى مـارسيلية ليموت في شيخوخـة روحية وعمره لا يتجاوز السّـابعة والثلاثين.

أما السيّاب فقد رأيناه لا يقرّ له قرار في حياة قصيرة، مفعمة بالشعر والأحلام والمرارة والآلام، والعمل والتدريس والسجن والتشريد، حتى ينطفىء سراجه غريباً كئيباً.

ذاق الحبّ فقال:

هل تسمّين الذي ألقى هياماً،
أم جنوناً بالأماني أم غراما؟
أم خفوق الأضلع الحرّى إذا حان التلاقي
بين عينينا، فأطرقت فراراً باشتياقي

عن سماء ليس تسقيني إذا ما

جئتها مستسقياً إلا أُواما

* * *

هل يكون الحبّ أنّي

بتّ عبداً للتّمنّي ،

أم هو الحبّ اطّراح الأمنيات

والتقاء الثغر بالثغر ونسيان الحياة ،

واختفاء العين في العين انتشاءا

كانثيال عاد يفنى في هدير

أو كظلّ في غدير؟ . . .

أمس ، بالأمس التقينا في سفار

هاج ذكرى كاد ينساها وينساني زماني .

كان يوم آمنت فيه الأماني بالأماني .

كان يوم فكّ عن ساعاته غلّ المدار،

ثم أمسى تحت أقدام اللّيالي ،

مثل جرح في الرمال

داسه الركب وسار. . . .

* * *

العيون الحور لو أصبحن ظلاً في شرابي ،

جفّت الأقداح في أيدي صحابي

دون أن يحظين حتى بالحباب

هيّئي ، يا كأس ، حافاتك السّكرى مكانا

تتلاقى فيه يوماً شفتانا

في خفوق والتهاب ،

وابتعاد شاع في آفاقه ظلّ اقتراب . . .

وطمح أن يحمل عبء البشرية ، كما حمل أطلس بطل الأساطير الإغريقية السّماء على كتفيه ، وأن يصنع القدر ويبعث الحياة ، فقال :

بويب ، يا بويب ،
عشرون قد مضين كالدهور كلّ عام .
واليوم حين يطبق الظلام ،
وأستقرّ في السّرير دون أن أنام ،
وأرهف الضمير دوحة إلى السّحر
مرهفة الغصون والطيور والثمر،
أحسّ بالدماء والدموع كالمطر،
يفضحهنّ العالم الحزين .
أجراس موتى في عروقي ترعش الرنين ،
فيدلهمّ في دمي حنين
إلى رصاصة يشقّ ثلجها الزؤام
أعماق صدري ، كالجحيم يشعل العظام .
أودّ لو عدوت أعضد المكافحين ،
أشدّ قبضتيّ ثم أصنع القدر.
أودّ لو أخوض في دمي إلى القرار
لأحمل العبء مع البشر،
وأبعث الحياة . إنّ موتي انتصارا

والسيّاب بعد ذلك ابن البصرة البارّ، ففي شعره نخلها الباسق ، والماء تضربه مجاذيف الزوارق ، وشط العرب الذي يرتمي في الخليج حيث اللؤلؤ والمحّار. وهو ابن قريته الصغيرة جيكور التي اشتهرت باسمه وجدولها بويب الذي زاده التصغير صغراً .

أليس يقول :

وأنت يا بويب ،
أودّ لو غرقتُ فيك ألقط المحار،
أشيد منه دار،
يضيء منها خضرة المياه والشجر،
ما تنضح النجوم والقمر،
وأغتدي فيك مع الجَزْر إلى البَحر.
فالموت عالم غريب يفتن الصغار،
وبابه الخفيّ كان فيك ، يا بويب . . .

ويقول:

عيناكِ غابتا نخيل ساعة السَّحَر،
أو شرفتان راح ينأى عنهما القمر.
عيناكِ حين تبسمان تورق الكروم،
وترقص الأضواء كالأقمار في نَهَر.
يرجّه المجداف وهناً ساعة السّحر،
كأنّما تنبض في غَوْرِيهما النجوم.

***

وتغرقان في الضباب من أسىً شفيف
كالبحر سرّح اليدين فوقه المساء،
دفء الشتاء فيه وارتعاشة الخريف،
والموت والميلاد والظلام والضياء.
فتستفيق ملء روحي رعشة البكاء،
ونشوة وحشية تعانق السّماء،
كنشوة الطفل إذا خاف من القمر...

***

السيّاب شاعر المطر: إن الوابل المنهمر قد أثار شعور الشعراء، فمنهم من وجد فيه البهجة والسرور كفكتور هوغو الذي قال:

«ما أرطب المساء وأطيبه. لقد هطل المطر في الصباح، فاخضرّت أبسطة العشب النديّة. وطار الطير في ظلال الأشجار ينفض أجنحته المبتلّة. فلتباركه السماء، هذا الطير المسكين! إنه يسمع صفير الريح، وينطلق في الغناء، ويرى قطرات الماء تلمع في عشّه كاللآلىء».

ويمضي الشاعر بعد ذلك إلى وصف السماء التي عادت إلى زرقتها، والأرض التي حظيت بالخصب، والجدول الذي امتلأ وفاض وارتمى من فوق الحصى كالشلال على النمل...

ومنهم من وجد في المطر الحزن والشجون، كالشاعر الفرنسي سوللي برودوم الذي أصغى إلى وقع القطر الراتب وبكاء أوراق الشجر وحزن الهواء الذي كدّر صفو الطيور. ولقد أصبح الأفق ستاراً شاحباً... وغدت الأرض وحلاً والسماء ضباباً. وضجر الإنسان، فيا لحزن المطر!

أما الشاعر الأميركي هنري وادزورث لونغفيلّو فقد استطاع أن يرى في المطر جانبيه البهيج والكئيب : فهو في قصيدته «المطر في الصيف» يقول :

«ما أجمل المطر!

بعد الغبار والحرّ اللافح، في الشارع العظيم الواسع وفي الزقاق الضيّق، ما أجمل المطر!».

ويمضي في تعداد مزاياه، يصف وقعه على السقوف كحوافر الجياد وتدفقه في أفواه الميازيب . . . والرجل المريض في غرفته يرى من النافذة الجداول الطافحة فيشعر بالبرد والهدوء والسلام. وفي الريف الظامىء يرحّب العشب الجافّ والحبّ المجدب ببركات المطر، وترفع الثيران التعبة الصابرة رؤوسها الرازحة تحت النير لتشكر الله على نعمته . . .

لكنّ هذا الشاعر نفسه في قصيدته «اليوم الماطر» يقول :

«إنّ النهار بارد ومظلم كئيب. فالمطر يتساقط، والريح تهبّ ولا تملّ. والكرمة تلصق بالجدار المتعفّن، لكنّ أوراقها الميّتة تسقط في كل هبّة. فيا للنهار المظلم الكئيب! . . .».

والمطر لدى بدر شاكر السيّاب كئيب ينذر بالوحدة والضياع ويرسم الأشباح في مقلة العاشق. فلنستمع إليه يقول :

أتعلمين أيَّ حزن يبعث المطر،
وكيف تنشج المزاريب إذا انهمر،
وكيف يشعر الوحيد فيه بالضياع؟
بلا انتهاء ـ كالدم المراق، كالجياع،
كالحبّ، كالأطفال، كالموتى ـ هو المطر!
ومقلتاكِ بي تطيفان مع المطر،
وعَبْرَ أمواج الخليج تمسح البروق
سواحل العراق بالنجوم والمحار،
كأنّها تهمّ بالشروق،
فيسحب الليل عليها من دمٍ دِثار.
أصيح بالخليج : «يا خليج،
يا واهب اللؤلؤ والمحار والرّدى!»
فيرجع الصّدى
كأنه النشيج :
«يا خليج،
يا واهب المحار والردّى».

وكـذلك يتلمّس السيّـاب طـريقـه بين النهر والضبـاب والضيـاء والظـلام والموت والضيـاع، فيلتقي، من دون أن يعلم، بأرتـور رامبو الـذي يقـول في مقطـوعته «نـائم الوادي»، نظمها احتجـاجاً على الحرب الفرنسية الألمانية سنـة ١٨٧٠، وعمره آنذاك لا يربو على السادسة عشرة:

«ذلك ثقب من الخضرة يغنّي فيه النهر، ويعلّق في جنون بالأعشاب أسمال اللُّجَيْن، وتلتمع الشمس الفخورة بالجبل. إنه وادٍ صغير مزبد بالأشعّة.

«وثمّـة ينـام جنـدي صغير، مفتوح الفم، حـاسر الـرأس، غـارق العنق في نبـات الجرجير الأزرق الطـريّ. وهو منبسط على العشب، تحت السحـاب، ممتقع الوجـه في فراشه الأخضر حيث تمطر الأضواء».

«وينام، وأقدامه في السّـوسن، باسماً كما يبتسم الصبيّ المريض، مخلداً إلى الوسن. أيتها الطبيعة، ألا هدهديه بدفئك، فقد خدّره البرد».

«إنّ العطر لا يحرّك خيشومـه، فهو ينام في الشمس، ويـده على بطنه، هادئاً، وفي جانبه الأيمن ثقبان أحمران».

ولـو تسنّى لنا وصف ممـات بدر شـاكر السيّـاب في مستشفى الكويت، هل كـان يسعنا وصفه مجازاً بأحسن من هذه المقطوعة؟

نقد شعر السيّاب وكتب عنه عـدة أدباء. فارتأى حسين داود خضر أن السيّاب بدأ حياته الأدبية شاعراً وجدانياً، وكان معجباً بعلي محمود طه. وقرأ الأدب الإنكليزي، ولا سيّما شيلّي وجـون كيتس، فتأثـر بـه وغلب عليـه التشـاؤم والألم والمرارة، وكـان الحبّ موضوعه المفضّل. وأطلق شعره من قيود الأوزان التقليدية، وكان من روّاد الشعر الحرّ. ثم طوّف في أرجاء وطنه، فاتّصل بأبناء الشعب وتأمّل الطبيعـة في مشاهدها. ترك آنئذٍ الحب، وأخذ ينشـد مستقبلاً أفضل لـوطنه وأمّته. وفي هـذا العهد من حيـاته اكتشف ستيفن سبندر Stephen Spender وروبرت بـروك Rupert Brooke ووليم هنـري ديفز William Henry Davies و ت. س. إليوت T. S. Eliot. وحاول أن يطلق أفكاره من عقالها وأن ينهج ضربـاً من «الواقعيـة الحديثة» على مثال الشـاعر الإنكليـزي سبندر. ومال إلى الرموز والأساطير فتغنّى بعشتار وتموز ويأجـوج ومأجوج وقمر الزمان وأوذيس وهيلينا... وفي السنـوات الأخيرة من حياته انطـوى السيّاب على نفسـه. طغت عليه الأمـراض، وملكت فكرة الموت شعـوره، فتوقّع الموت في كلّ لحظـة. لم يبق له صـديق سـوى شعره، فعبّر عـن ذاته في المعبـد الغـريق ومنـزل الأقنان وشنـاشيل ابنـة الجلبي وإقبال. رفع الستار عن مسرح قفر كالصحراء، يعمره الحزن والخوف من النهاية الهائلة المريعة.

وقال حميد سعيـد: «لقد كان السيّاب رائداً وكان نقطة تحوّل، لا بـالنسبة للشعر في

العراق، بل بالنسبة للشعر العربي. . . وفي اعتقادي أنّ السياب هو الثورة الأولى على الشكل الكلاسيكي رغم كل ما يقال. . . ورغم عدم إنكاري لوجود محاولات عاصرت وسبقت محاولاته التجديدية، إلا أنه يبقى نقطة التحوّل التي ذكرتها والإشارة التي تلفت الأنظار إلى الشعر الجديد. . .»

وقال عبد الجبار داود البصري: «. . . ومن هنا يصحّ القول إنّ تأثره كان إيجاباً وسلباً، تجاذباً وتنافراً. فقد جذب القوم إلحاحه على إيجاد نغمات جديدة وتعابير طازجة وأساطير غريبة وأفكار معاصرة، مع مظهر قصائدي يوحي بالفخامة ويتشبّه بالقصور. . . وبعد وفاته، كان صوته سوطاً يلهب ظهور هذا الجيل ويهدّد أصالتهم بالإذابة. . . فهو رائد للشعر الحرّ باعتبار ما كان، وهو دافع من دوافع الموجة الجديدة باعتبار ما هو كائن. . .».

وقال علي الحلّي: «كان السيّاب من أوائل الذين تأثروا بالشعر الأجنبي من خلال قراءاته الكثيرة له، ومن ثمّ ولعه بالأساطير الإغريقية وأشعار ت. س. اليوت واديث ستويل وستيفن سبندر وعزرا باوند وولت ويتمان، فانطبعت أعمالهم وخصائصهم وأجواؤهم الحدسية والنفسية في كثير من شعره. . . كان السياب يرى بأنّ حركة الشعر الحرّ تطوّر في مفهوم الشكل الفنّي للشعر العمودي وليست عملية إلغاء وجحود وإنكار للتراث الشعري، كما يراه أدباء الضياع اليوم. لذلك فإنّ الأثر الذي تركه بدر شاكر السيّاب في شعر هؤلاء كان حاداً وبليغاً دفعهم إلى الانسحاب السريع في متاهات التعمية الداكن وكهوف الشلل الذهني وأقبية الانغلاق الذاتي.

«لقد كان المضمون الشعري لدى السياب في قصيدته الحرّة، قبيل استسلامه للمرض، عميق الإيمان بالشعب، كافراً بالصّنمية الفردية، واضح الملامح الفنية، متّسماً بأصالة الشخصية والثقة والإبداع المجنّح والحبّ للإنسان، في حين يدور الكثير من الشباب الأدباء بعده في دوّامات عاتية من القلق والضياع والتحنّط واليأس والهروبية وكره الحياة واحتقار التفاؤل وزرع الشكوك في أعماق الوجدان الإنساني. . .».

وقال سامي مهدي: «لقد كان السياب شاعراً أصيلاً، وكان له لهذا السبب أثره البيّن على الشعر العراقي المعاصر. وهذا الأثر هو في كل الأحوال أشدّ من أثر زملائه. فالسياب أثّر في بناء القصيدة وعروضها وموسيقاها وأجوائها ولغتها وحتى مفرداتها ورموزها. ويمكن القول بثقة واطمئنان إنّ هذا الأثر قد امتدّ إلى الشعر العربي المعاصر بمجموعه. . .».

وقال خالد علي مصطفى: «إنّ شعر السياب يتدرّج في إيحاءاته ابتداءً من البيئة ومروراً بالوطن الصغير (العراق) إلى الوطن الكبير (الأرض العربية) وانتهاءً بالعالم. وهذا التدرج هو تاريخ السياب النفسي والاجتماعي أيضاً. ومن هنا استطاعت «ذات السياب» الشعرية أن تستقبل روافد العالم الموضوعي بانسجام وتفتّح وحيوية».

وقال علي جعفر العلّاق: «وللسيّاب، قبل غيره، الريادة الحقيقية في استثمار الدلالات الميثولوجية اليونانية ومخزونات التراث العربي الموحية التي شحنت شعره بعوالم كثيفة وضاجّة بالقيم التعبيرية والعاطفية المذهلة».

وقال الناقد اللبناني الدكتور أنطون غطّاس كرم:

«إن السياب لم ينظم الشعر إلا بمقدار ما هو امتداد لمأساته الداخلية والتمزّق المعتمل فيه، فذوّب في مأساته كلّ فاجع أتاه، وحوّل إلى تجربته الوجدانية كل تجربة، وفي حمّى نفسه صهرت حمّى سيزيف وشعلة بروميثيوس وحرارة البعث من تموز والمسيح وتباريح جميلة بوحيرد وعدمية المحو من هيروشيما وأنين القوافل الضائعة من أرض المقدس.

يتضح لنا مصداقه في جيكور، مسقط رأسه، كيف نمت بنموّ ثقافته، من عهده الغنائي الحالم البريء إلى عهده الفكريّ المعقّد، من زمان الطفولة الريفية العذراء، تستفيق فيه حنان أمومة، وغابات نخيل، وصفاء ماء نمير، وانحناء فوق حبّ قديم من عهد الصّبا الأول، وحكايات من حلاوات الخوارق، إلى أن تصبح جيكور الكوى التي يطلّ منها على قضايا أمته، وعلى العالم الذي حاد عن محوره، بل تصبح هي العالم ومختصر مأساته وتطاحن متناقضاته: منها يرى الطهر فتتضخّم صورة البغاء، ويرى السكينة والسلام فيعظم ضجيج العالم، والحرمان الخصيب فيرى التخمة الجوفاء وانحراف العدالة والفوارق الطبقية والمثال وضده، ودفء الدار والقرية المعذبة، والموت والبعث، والضعف المستكين والاستبداد السّاحق...»

بدر شاكر السيّاب

عرفت الشاعر بدر شاكر السياب في سنة ١٩٥٧ أو نحوها. فقد كان معتقلاً، وتوسّط جماعة له عند عبد الرزاق الشيخلي ليسعى في إطلاق سراحه. وكان رئيس الوزراء نوري السعيد قد عاد لتوّه من رحلة إلى الخارج، فذهب الشيخلي لمقابلته.

قال نوري السعيد: ماذا أتى بك، يا عبد الرزاق، وأنت المعارض المزمن الذي لا ترضيك سياستنا؟.

ـــ جئت أرجوك أن تأمر بإخلاء سبيل شاعر مسكين معتقل اسمه بدر شاكر السياب.

فقدم السعيد إلى الشيخلي ربطة عنق حريراً فاخرة قائلاً: هذه هديّة لك. ثم كلم دائرة الأمن تلفونياً سائلاً عن سبب اعتقال السياب، فقيل له إنه شيوعي خطر، وقد قبض عليه بهذه التهمة.

فقال الرئيس: إذا تبرّأ صاحبك من الشيوعية بتصريح يكتبه بتوقيعه فإننا نطلق سراحه.

وقدم السياب تصريح البراءة وأخرج من المعتقل. فجاء إلى عبد الرزاق الشيخلي وقال له: لماذا سعيت في الإفراج عني، وكنت في الأقل آكل وأعيش على حساب الحكومة في السجن، وأنا الآن لا مورد لي ولا عمل؟ فأخذه الشيخلي ومضى به إلى ناظم الزهاوي مدير الأموال المستوردة العام وأوصاه بإيجاد وظيفة له، ففعل.

روى لي الصديق الشيخلي هذه القصة وسألني هل أعرف هذا الشاعر، فقلت: إنني أقرأ له وأودّ أن أراه. فسأله أن يزورني، وجاءني بعد أيام إلى مكتبي، فتحدّثنا في الشعر والأدب. وكرّر زيارتي مرّات، ثم جاءت ثورة ١٤ تموز، فكان آخر العهد به.

نظم السياب، وهو في المستشفى الأميري في الكويت قبيل وفاته، قصيدة في مدح أمير الكويت عبد الله السالم الصباح وتطرق فيها إلى هجاء عبد الكريم قاسم. وجد القصيدة الشاعر علي السبتي ونشرها في مجلة الحوادث اللبنانية في ١٢ أيار ١٩٧٨. ومطلعها:

لمن زيّنوا بيت القوافي بمخمل؟ لذي لبد في دوحة المجد معتلي

وختمها قائلاً:

أريد التفاتاً منك نحوي هنيهة ففي لفتة من وجهك السمح مأملي

وصدرت في باريس سنة 1981 مختارات شعرية للسياب بعنوان «الخليج والنهر» مترجمة بقلم أندريه ميكيل إلى الفرنسية.

عبد الوهاب البياتي

الشاعر التقدّمي عبد الوهاب بن أحمد جمعة البياتي، من زعماء مدرسة الشعر الحرّ في العالم العربي، ولد ببغداد سنة ١٩٢٦ وتخرج في دار المعلمين العالية (شعبة اللغة والآداب العربية) سنة ١٩٥٠. عمل في التدريس والصحافة، ثم أقصي من الخدمة لميوله الشيوعية (١٩٥٤)، فغادر العراق وأقام في مصر والاتحاد السوفييتي.

وقد عاد إلى بغداد بعد ثورة ١٩٥٨، فعيّن ملحقاً ثقافياً في سفارة موسكو. ولم يلبث أن استقال من وظيفته ليقوم بالتدريس في جامعة الشعوب الآسيوية في العاصمة الروسية إلى سنة ١٩٦٥ حين مضى إلى القاهرة ثم عاد إلى العراق فعيّن مستشاراً في وزارة الإعلام. وفي سنة ١٩٨٠ منحته الحكومة العراقية تفرّغاً مدى الحياة للانصراف إلى النظم، فاختار الإقامة في مدريد وعين مديراً للمركز الثقافي العراقي فيها.

من مؤلفاته: ملائكة وشياطين (١٩٥٠) أباريق مهشّمة (١٩٥٤) رسالة إلى ناظم حكمت (١٩٥٦) بول إيلوار مغنّي الحبّ والحرية (١٩٥٧) أشعار في المنفى (١٩٥٧) المجد للأطفال والزيتون (١٩٥٦) عشرون قصيدة من برلين (١٩٥٩) كلمات لا تموت

(١٩٦٠) النار والكلمات (١٩٦٤) سفر الفقر والثورة (١٩٦٥) الذي يأتي ولا يأتي (١٩٦٦) قصائد (١٩٦٥) تجربتي الشعرية (١٩٦٨) الموت في الحياة (١٩٦٨) عيون الكلاب الميّتة (١٩٦٩) الكتابة على الطين (١٩٧٠) إلخ. وله مسرحية «محاكمة في نيسابور» (١٩٦٣).

قال في مقابلة صحفية: «. . . أنا لا أعتبر الشعر هو الوسيلة الوحيدة للتعبير. وحتى الشعر نفسه لا أكتبه لكي أكون شاعراً فقط، بل إنني أستخدم القصيدة وسواها أسلحة من أجل عملية التقدم والتغيير الاجتماعي ومن أجل خلق قيم إبداعية حضارية جديدة. كما أنني أستخدم القصيدة أيضاً سلاحاً للدفاع عن الإنسان ضدّ الشرّ والجريمة. وإنني لا أريد أن أجعل من القصيدة شعراً فقط لا غاية له بالرغم من أن القصيدة عالم قائم بذاته ولذاته. ولكن هذا العالم، من خلال ديمومته وحركته، يؤدي إلى التغيير النوعي في رؤية الإنسان. ومن هنا، أي من عملية منح الإنسان رؤية جديدة، يمكن منحه أسلحة جديدة لمقاومة الواقع الفاسد. وأريد أن أوضح الأمر أكثر، فأقول إنني ألتزم بطقوس الشعر التزاماً كاملاً. ولكنني وأنا ألتزم بها التزاماً كاملاً لا أريد جعلها غاية فقط كطقوس شعرية أو فنية، بل أريد أن أجعل منها طقوساً ثورية حضارية. وهذا الطموح يمثل أوج ما يطمح إليه أي فنّان حقيقي في كافة العصور. . .» (المجلّة، جدّة، ٢٧ آذار ١٩٨٢).

وقد أسف البياتي لمظاهر التجزئة الإقليمية والسياسية والاقتصادية التي أخذت تعكس آثارها على الأدب العربي، بالرغم من أن الثقافة العربية حاولت جاهدة، كما قال، أن تحافظ على وحدتها طوال العصور. ونسب ظهور عوامل التجزئة إلى عوامل الغزو الثقافي الداخلي والخارجي. ولاحظ اختفاء الاتجاهات والمدارس المرتبطة بواقع الثقافة العربية قديمها وحديثها وبالواقع العربي وحركة الجماهير العربية.

بُلَنْد الحيدري

شاعر الشباب العراقي المجدّد بُلَنْد أكرم الحيدري، ينتمي إلى الأسرة الحيدرية الشهيرة. ولد في بغداد في ١٤ أيلول ١٩٢٦، وذاق مرارة اليتم صغيراً، فنشأ بوهيمياً لا يستقرّ على حال، يتنقّل من درس إلى درس ومن عمل إلى عمل. تعرّف إلى الفنان جواد سليم فالتمس أن يقوم معه بتجربة فنية تمزج الشعر بالرسم. وحاول إصدار مجلة أدبية عصرية. ثم كان مساعداً لمحمود فهمي درويش في تحرير مجلة «الزراعة» العراقية. وانتهى به المطاف في بيروت التي اتخذ منها سكناً وملجأً روحياً. وأصبح سنة ١٩٧٠ رئيساً للمؤسسة اللبنانية للطباعة والنشر وسكرتيراً لتحرير مجلة العلوم البيروتية فرئيساً

لتحريرها. واشترك في سنة ١٩٧٤ مع عـالية ممدوح في الإشراف على تحرير مجلة «الفكر المعاصر» البيروتية.

وعاد إلى بغـداد بعد ذلك وأصبح سكرتيراً لتحريـر مجلة «آفاق عربيـة». تأثّر بأدب المهجر وعمر أبي ريشة والياس أبي شبكة، ثم اشتقّ لنفسـه نهجاً خاصاً في الشعر طالما سار عليه ثم طلّقه وعاد إليه.

أصدر مجموعته الشعـرية الأولى «خفقـة الطين» (١٩٤٧) وعمره لا يكـاد يتجاوز العشرين. ثم تبعهـا بمجموعـات أخرى: أغـاني المدينة الميتـة (١٩٥١) أغاني المدينـة الميتة وقصائد أخرى (١٩٥٧) جئتم مع الفجـر (١٩٦٠) خطوات في الغربة (١٩٦٥) رحلـة الحروف الصفـر (١٩٦٨) قصـائد جـديـدة (١٩٦٨) أغـاني الحارس المتعب (١٩٧٠) حوار عبر الأبعاد الثلاثة (١٩٧٢).

شعره:

وضعت الحرب العالمية الثـانية أوزارها، وفرك الشباب عينه التي بهرهـا فجر السلام الطالع وأرخى أذنيـه يتمتع بهدوء لم يشهده من قبل، ذلك الشباب الذي شبّ وتـرعرع على هديـر المدافع والقذائف وأخبـار الفتك والتقتيل والتدمير وأهـوال الجوع والتشريد والحرمان. نشأ ذلك الشباب في دوّامة كابوس شديد جثم على صدر الإنسانية المعذبة. والآن، وقد انتهت المعـارك، هل يعود إلى الإيمان بـالقيم الأخلاقيـة ويعقد الـرجاء على صلاح البشرية؟ لقد حلّ محلّ الشك والجحود والتهافت حلّ محلها صراع نفسيّ يجذب ويدفع ويهدّيء ويثير ويـدهور ويـرفع ويهزّ ويسند ويخذل، ويـرسم الأحلام ويجسّم الأوهام آناً وآناً يحدو على اليأس والقنوط.

ويـرزت تلك السمات أبرز مـا تكون في شعـراء الشباب الـذين تقرّوا مـواضعهم بين المباني والمعاني، فخرجوا بشعر جديد سماتـه المشتركة الأصالة وسهولة الأداء. لقد صدر الشعر الجديد عن منابع صافية من النفس البشريـة أو الحياة الواقعية، واحتفل بالمعاني والأداء قبل الكلمات والتراكيب، وآثـر البحـور والأوزان الخفيفـة والأشكـال الشعـريـة السهلة والقوافي الـرنانة غير الراتبـة، وتنكّب المواضيع التقليدية من فخر ومـديح ورثاء ونسيب وهجاء.

كان شعر بلند الحيدري حين أصدر ديوانه «خفقة الطين» يجمع بين طيّاته كل تلك السمات ويعدّ شيئاً جـديداً في الأدب العراقي الحديث. فلم يمض عهد بعيـد كان فيه المثل الأعلى للشعر الديباجـة العباسية والمعاني المقتنصة دون مراعـاة لوحدة الموضوع ولا لمقتضيات حيـاة العصر. وفي تلك الآونـة سمعنا محمد هـاشم عطيـة، الأستاذ المصري المتزمّت، يقول في محاضرة له ببغداد: إن الشعر العـربي قد اختتم بالمتنبي، فدالت بعده دولته وخمدت صولته. وسمعت أحمد حـامد الصرّاف، الأديب الذكيّ الألمعي، يقول:

لقد انتهى الشعر بشوقي، ولعلّ الأخطل الصغير وأمين نخلة شاعران!

وإنه لتقدم واسع سريع أن تختزل الأبعاد وتطوى الأزمنة، فيصدر في عاصمة الرشيد ديوان شعر عاطـل من الصناعة اللفظية والمحسّنات البديعية، خـالٍ من المعاني المقلّدة الجوف والمواضيع البالية التي عفّى عليها الدهر. وليس ذلك فحسب، بل يجمع إلى ما تقدم إخلاصاً في الشعور والأداء وصراحة صارخة جريئة ونظرة إلى الحياة شاذّة غريبة.

وشاعـرنا الحيـدري على جلاء بيانـه وقوة أدائه يستهين أحيـاناً باللغـة ولا يوليهـا ما تستحقه من العنـاية كأداة للتعبير. وهو شـاعر مطبـوع ينظم عن سجيّة خالصـة، فلا عجب أن جاء شعـره بعيداً عن التعمل والتكلف، مفصحاً عن نفسـه الفتيّة الجامحة. تفتحت عيناه على الحيـاة، والحرب العالمية ضـاربة على المعمورة بالجران تغـرق الأقطار الدانية والنـائية في بحر من الدم والنار، وتصـكّ الأسماع بأنباء التقتيل والتدمير، وتهيج النفـوس بأحـداث لم تألفهـا البشريـــة منـذ مبـدأ الحضـارة في هـذا العـالم المضطـرب الصخّاب. نشأ فتانـا وأدرك الحياة فانطبعت عواطفه وأفكاره بطـابع جيله القلق الفائر الحيران. أليس من ظـــواهـر ذلك الاضطـــراب تلك الحمّى النفسيـــة التي تنبعث من الأشطر والمقاطيع فتبرز على أشكال مختلفة من تمرّد وإغراب تارة وألم ومرارة طوراً؟ وذلك الشعور بالهرم والكلل والملالة وما يمتّ إليه من تعلّل بالذكريات وبرم بالحاضر وفقدان الثقة بالمستقبل، أليس غريباً من شاب في ميعة الصّبا لم يكد يجتاز عتبة الحياة؟

لقد ساءل الشاعر نفسه عن نفسه فقال:

مَن أنت، يا مَن ترهب الظلماء خطوته الرهيبة؟

يمشي كما شاءت عصاه كأنها حفظت دروبه

تتنفّس الأشباح في عينيه حالمة كئيبة

لا الليل أرعبها بما يملي ولا خشيت قطوبه

من أنت؟ . . . إني شاعر عمري أعاصير غريبة!

إنّ في شعر بلنـد الحيدري جانبـاً وجدانياً يبدو فيـه تأثير إيليا أبي ماضي وأقـرانه من شعراء المهجـر، لكن هذا الجانب تشـوبه مسحة من الكـآبة وظمأ الـروح وتطغى عليه نوازع الخيبـة واليأس. لقد خرج الشـاعر إلى الحياة حامـلاً نفسه المرهفة وقلبـه الجيّاش بالآمال، فما هي إلا لحظة حتى صدمته بحقيقتهـا المرّة وبدّلت ألحانه التي لم تكد ترتّلها شفتاه مراثي حزينة تنعي الشباب وتجحد الحبّ والهناء. التمس يومه الحاضر فقيل له: لا شيء هنـا. وفتّش عن أحلامـه المتلاشيـة فقيل لـه: لا شيء هنا. والتفت إلى غـده يستشفّ مآتيه من خلال حجب الغيـب، فقيل له: لا شيء هنا. حتى إذا ما أنس إلى فكرة الموت والفناء، قيل له: كل دنياك هنا!

بيد أن هـذا الجانب من شعر بلند الحيـدري ليتضاءل أمام الجانب الآخـر، جانب

الثورة الصارخة والكفران بقيم الحياة. يمتّ هذا الجانب بصلة روحية إلى بودلير وأبي شبكة، وقد غلّته أكبال الجسد اللاصق بالرغام، فتطبّق على جحيم مائج بالأميال البهيمية، متأجج بالشهوة المستعرة، نشوان بالكؤوس التي لا تخلّف في الفم سوى المرارة، شقيّ بنقمة الأقدار و «لعنة التراب» و «دودة الطين جنّت في الدم المأسور».

فلنستمع إلى الشاعر يقول:

أنا من نار، وناري شهوة أحرقت جسمي وماجت في ضميري

أو يقول:

ما النار، ما الجنّة إلاّ صدى لنظرة ماجت بعين امرأة

ويقول:

نحن طين، وأيّ طين حقير، فلِمَ الخوف من خوالج طينك؟

إنّ بلند الحيدري الشاعر الموهوب مثال لأبناء جيله المبلبل الأفكار، المضطرب الحواسّ، الهائم في أودية الشك والضلال. لقد شهد صراع الحضارة البشرية في يومها الدامي العصيب، فخرج من تجاربه بالتجرّد والجحود والثورة السّاخرة المريرة. فلو لم أكن أدري دراية الممارس الخبير أنّ الشاعر لا يُسأل عن إلهامه، لخاطبت صاحب «خفقة الطين» قائلاً: مهلاً، أيها الفتى الموهوب، ورفقاً. لقد منحت جناحي طائر للتحليق في سماء الشعر الرفيعة، فما لك، شأن ملاك ألفرد دي فنيي(*)، قد يمّمت شطر العوالم السفلى تحاول هداية إبليس وردّه إلى حضيرة النعيم المقيم؟ . . .

ولقد كتبت عن شاعر «أزهار الشرّ» فقلت: «إن بودلير قد بحث في شعره عن المثل الأدنى، لكن هذا المثل الأدنى قد بلغ من القوة والجلاء مبلغاً عظيماً حتى ليثير في النفس القشعريرة والاشمئزاز ويؤدي في آخر الأمر إلى التزهيد في ذاته والترغيب في نقيضه: المثل الأعلى». ولست أدري هل يسعني إطلاق هذا القول على شاعرنا الحيدري.

وسار بلند الحيدري في طريق النقمة والقلق والغضب والعقم والقنوط، فإذا هو شاعر «أغاني المدينة الميّتة» الذي يقول:

نفس الطريق

نفس البيوت، يشدّها جهد عميق

نفس السكوت.

(*) ألفرد دي فنيي في قصيدته «علواء» (Eloa) أو «أخت الملائكة» يروي قصة روح سماوية هبطت إلى الجحيم لتهدي الشيطان رأفة به وعطفاً عليه، فعلقت بحبائله وفقدت ملكوت السّماء.

كنّا نقول غداً يموت ، وتستفيق
من كلّ دار
أصوات أطفال صغار
يتدحرجون مع النهار على الطريق
وسيسخرون بأمسنا ، بنسائنا المتأفّفات
بعيوننا المتجمّدات بلا بريق .
لن يعرفوا ما الذكريات ،
لن يفهموا الدرب العتيق
وسيضحكون لأنهم لا يسألون
لِمَ يضحكون . . .

وفي المدينة الميّتة رجل ميت يقول :

ساعي البريد ،
ماذا تريد؟
أنا عن الدنيا بمنأى بعيد
أخطأتَ ، لا شكّ ، فما من جديد
تحمله الأرض لهذا الطريد . . .

ينظر الشاعر إلى أعماق نفسه فينكرها ويعجب لأمرها ويقول :

لا تهابي
هذه الريح التي تطرد من باب لبابِ
ذلك الأفق الذي ينمو برعب واضطراب
والدروب
إنها ملعب أحلام شبابي
هي بعضي ،
إنها تلتفّ كالأفعى ، ولكن . . . لا تهابي . . .

ولقد نظم إيليا أبو ماضي شعراً على لسان الزنجي المستعبد يفيض بالمرارة والحرمان ، منه :

فـــــوق الجمّيــــــزة سنجــــــاب	والأرنــب يمـــــــــــــرح في الحقــلِ
وأنــــــا صيّـــــاد وثّـــــاب	لكــنّ الصيــــــــــــد على مثلي

محظــور إذ إنــّي عَبْــدُ . . .

أما شعر الحيـدري في العبودية ففيه مرارة من نـوع آخر، مرارة هادئة ممـزوجة باليأس تنبعث من أعماق الإنسان الذي يحسب نفسه حراً وهو إنما عبد أسير:

أكاد أثور، لكنّي

أحسّ الغلّ في أذني

يولول هازئاً منّي :

ويصرخ ضاحكاً: عَبْدُ! . . .

أنا العائش في ظلّي

أنا الموت بلا شكل

تُرى مَن أنت، يا غلّي؟

فعاد الصوت يشتدُّ

كأنّ عواصفاً تعدو

بأذنيّ وتربدّ :

أنا أنت، أنا العبد!

قال بلنـد الحيدري في حـديث له: «القصيـدة الحديثة تعبّر عن إشكـالاتي كإنسان معاصر أكثر ممـا تعبّر عنها القصيدة الكلاسيكية. أحسّ بها، القصيـدة الحديثة، أكثر ارتباطـاً بالعصر مـن حيث فهمي العصري كمحاولـة في تطويـر البنيان الشعـري. أما القصيـدة الكلاسيكية فبإمكـانها أن تحمل جوانـب من نفسي تتميّز بـالبسـاطة شـدة ارتباطي بالمناسبة متجنّباً إبـراز أعماقي المتداخلة ضمن تحرّك هذا القرن. ويظلّ الجواب أخيراً ارتباط القصيدة بالموضـوع ذاته. ولكني لا أرتبط بالمناسبة ارتباط شعـرائنا القدماء على أساس من تزييف في مـدح أو رثاء. أنا لا أكتب القصيدة الكـلاسيكية إلا منطلقاً من نفسي، مرتبطاً كل الارتباط بالموضوع الذي يثير فيّ كوامن عاطفة صادقة. . . ».

ومهما يقل بلند الحيدري فإنـه يظلّ في قصيدته العمودية الكـلاسيكية، كما في شعره الحديث المنطلق في متـاهة من المصـاريع والتفـاعيل، ذلك الشاعـر الباحث في قـرارة نفسـه، المترصّـد للكلمات والتعابير التي تفصح عـن قلقه وحيرتـه وتخلق الأجـواء التي يحلّق فيها تحليقـاً. وحسبنا مثالاً قصيـدته التي ألقاهـا في الاحتفال بالـذكرى العشرين لوفاة عمر فاخوري، وعنوانها «النسر»، يقول منها:

علـونـا فـالـذرى مـرمـى جنـاحي ... ودربي فيك، يـا هـوج الـريـاح

وبي مـن همّة صمـدت ليـالٍ ... تـأبّـت أن تكـون إلى صبـاح

فليس الفجر للأحرار إلّا مرايا تستبين بها جراحي

فيحصي ألف فَذم ما تبقّى بجسمي من الجاجات الرّماح

وتشمت بسمة في عين وغد مسحت بجلده بالأمس ساحي. . .

ألا، يا ليل، أطبق إنّ مَسّاً من النيران يرعد في جماحي

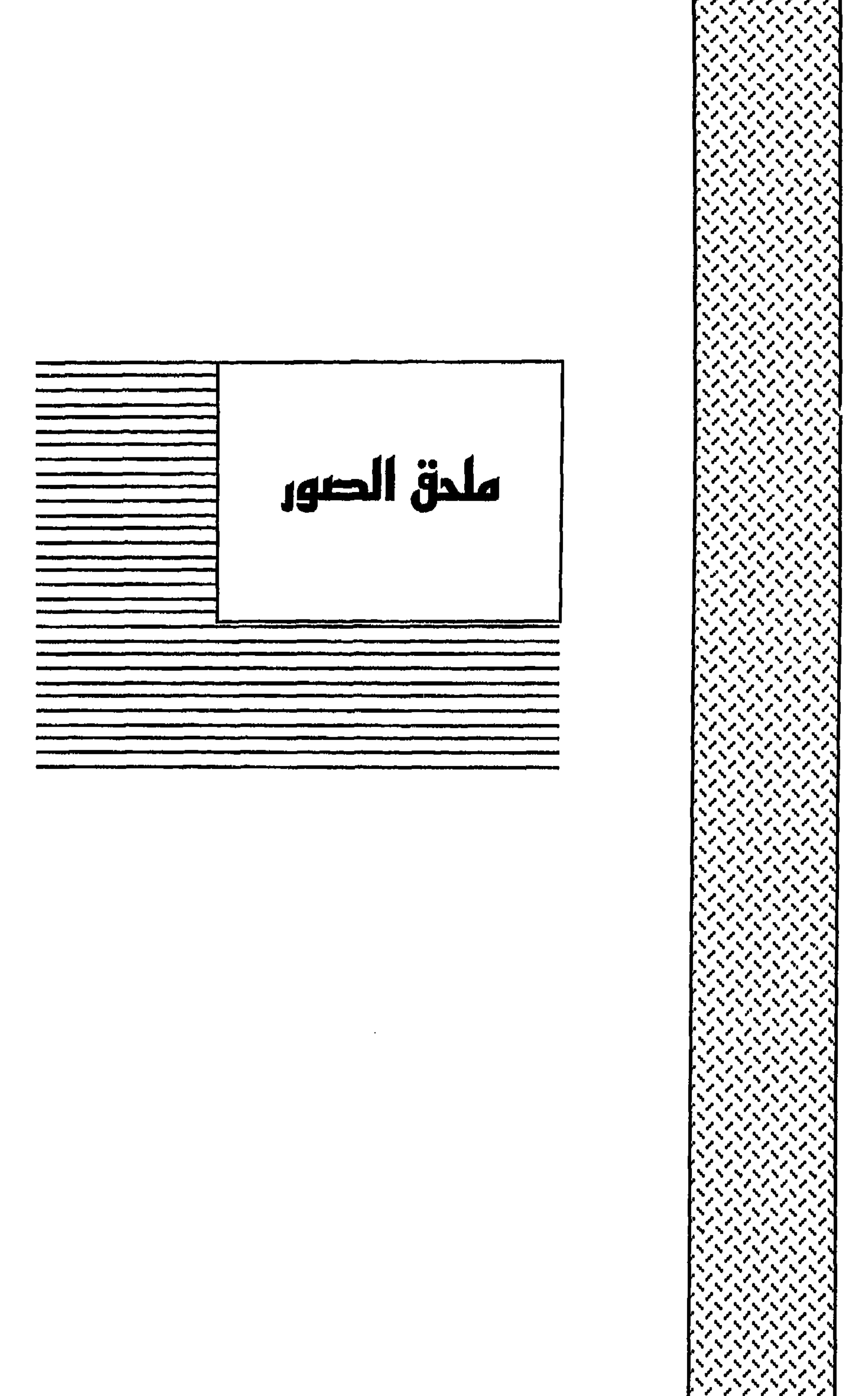
تألّق فاصطلى أفق وطارت رؤى عن عين حمقاء وقاح

لكم حسبت بأنْ جبناً أدرنا وجوهاً عن وجوههم القباح

وإني إذ عفوت فعن كلال فما جرؤت ولا مرؤت رماحي

وإن جبال قومي سوف تهوي لتدفن ما تخاذل من سلاحي

أصدر بلند الحيدري سنة ١٩٩٠ مجموعة شعرية «أبواب إلى البيت الضيّق».



ملحق الصور



المحامي الشـــاعر أنور شـــاؤل



أحمد حامد الصراف



يعقـوب سركيـس



الأب انستاس ماري الكرملي



عبد المسيح وزير



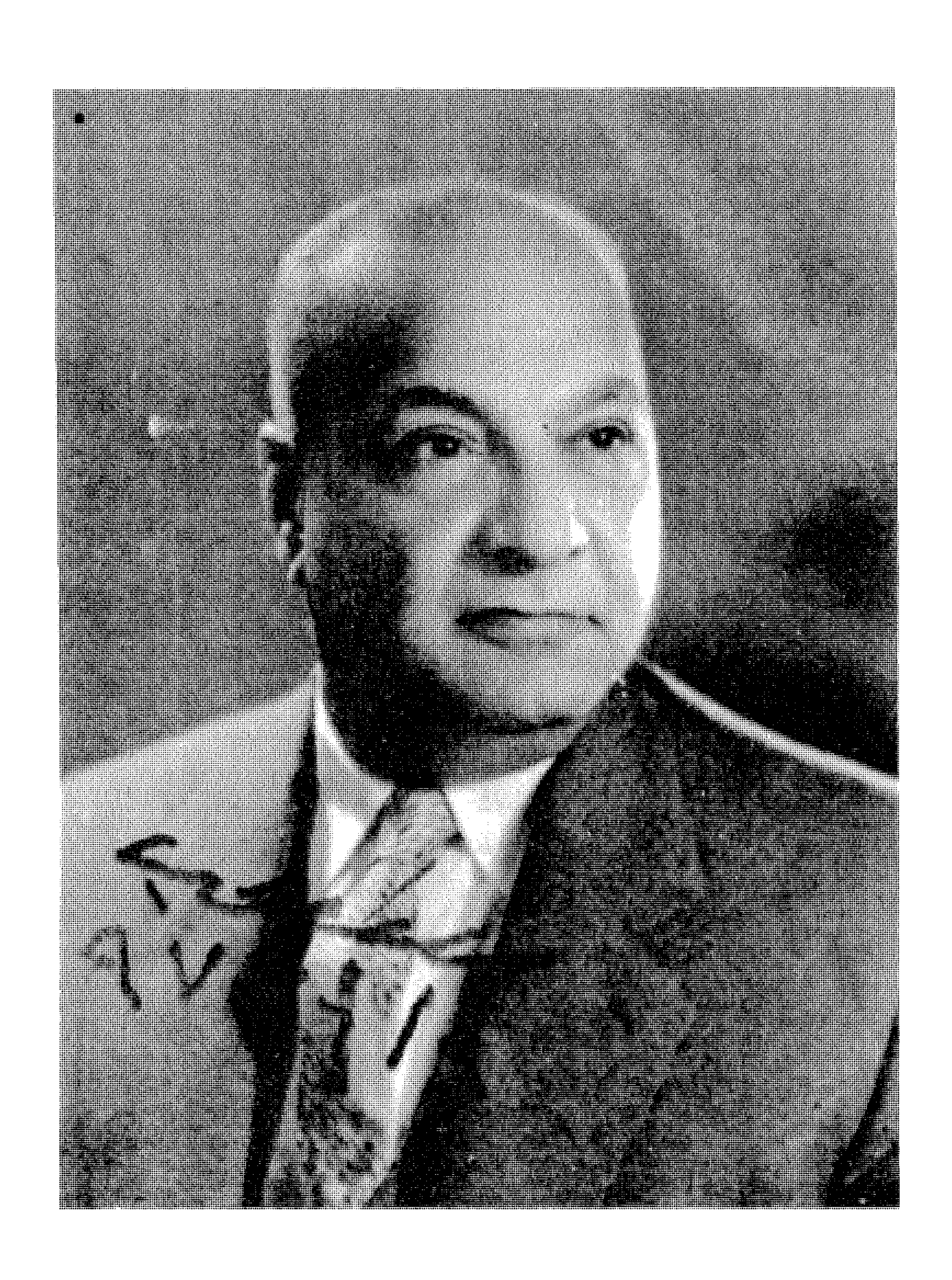
عبد الحسين الازري



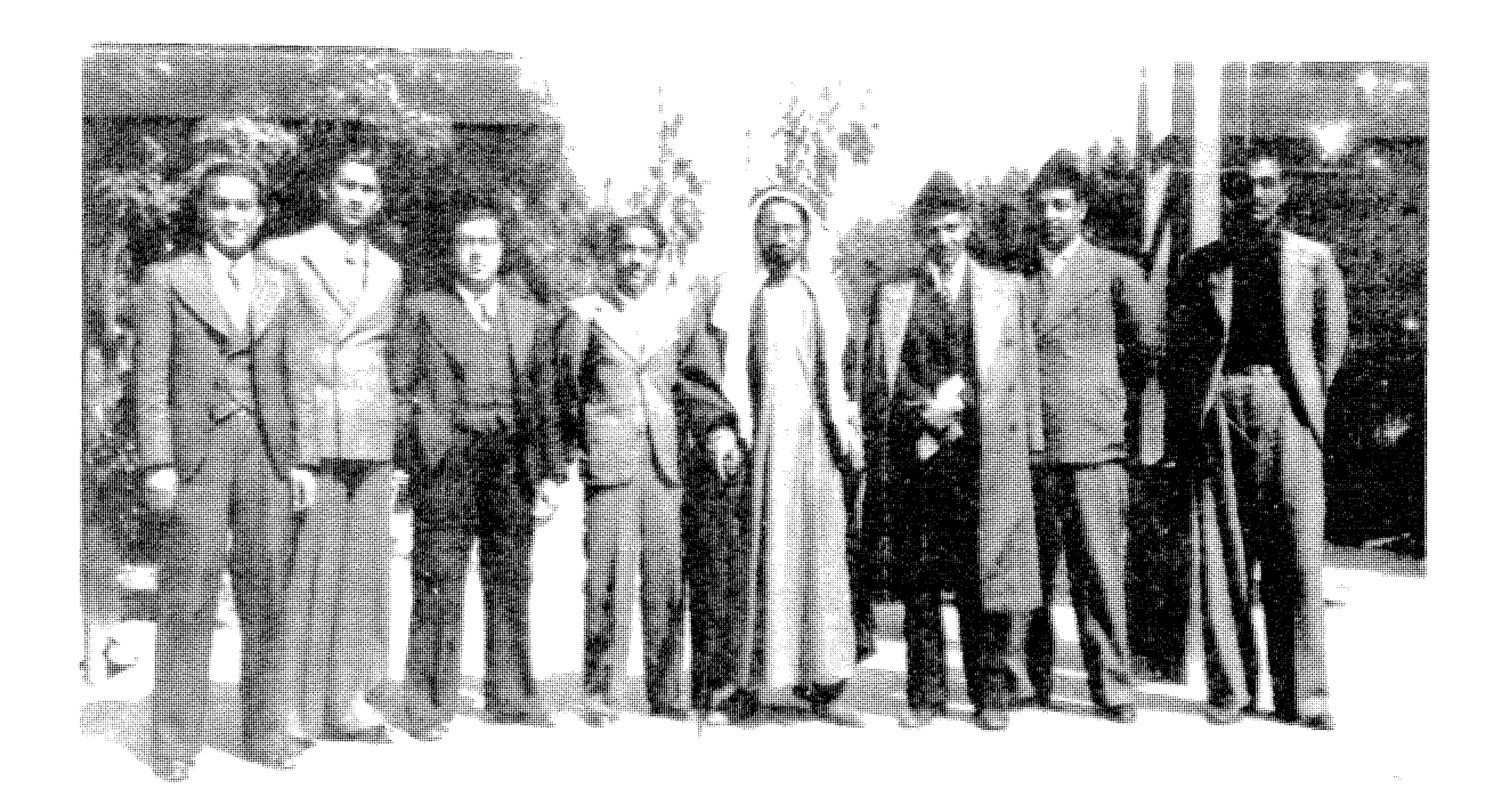
المؤلف وأنور شاؤل مع الشاعر الكبير محمود الملاح (١٩٦٤) .



محمد الهاشمي



مصطفى علي



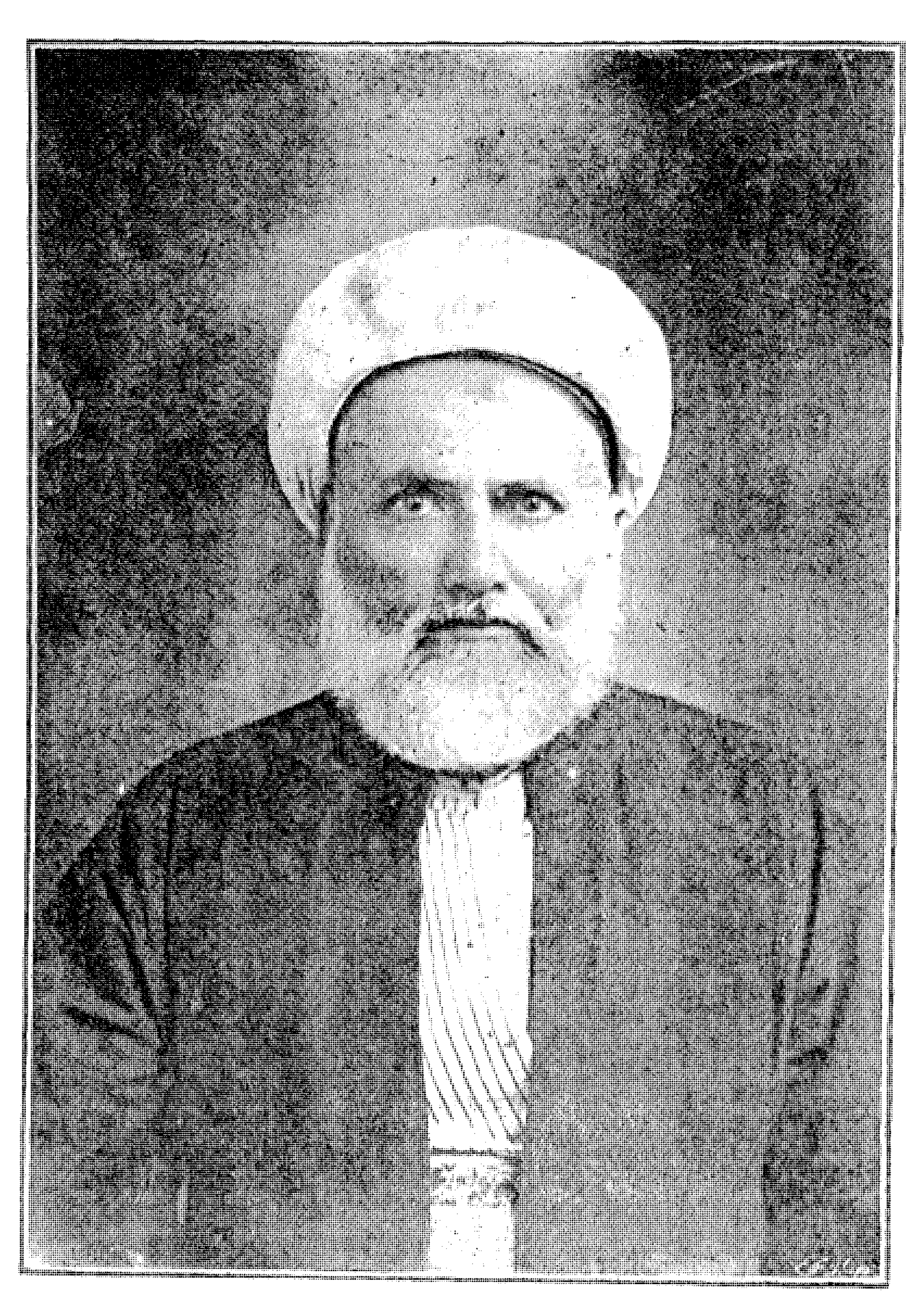
(دمشق ١٩٣٧) طلاب عراقيون مع أحمد الصافي النجفي (الرابع من اليمين) والى يساره محمد مهدي الجواهري



الشـــيخ كاظم الدجيـــلي



خيـري الهنداوي



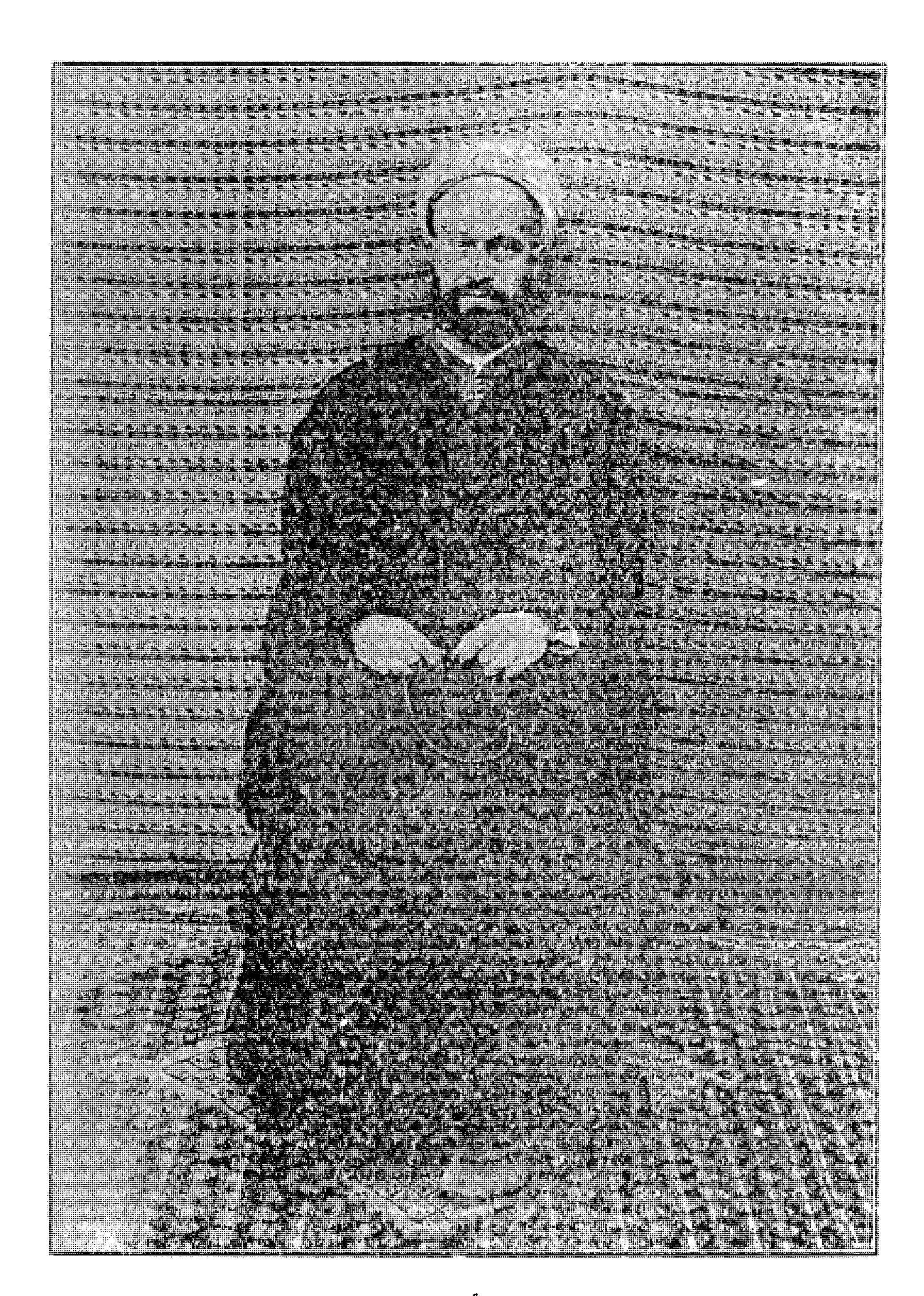
الشيـخ عبد المحسـن الكاظمـي



الشيـــخ محمد رضـــا الشبيبـــي



محمد بهجت الأثري



محمد حسن أبو المحاسن



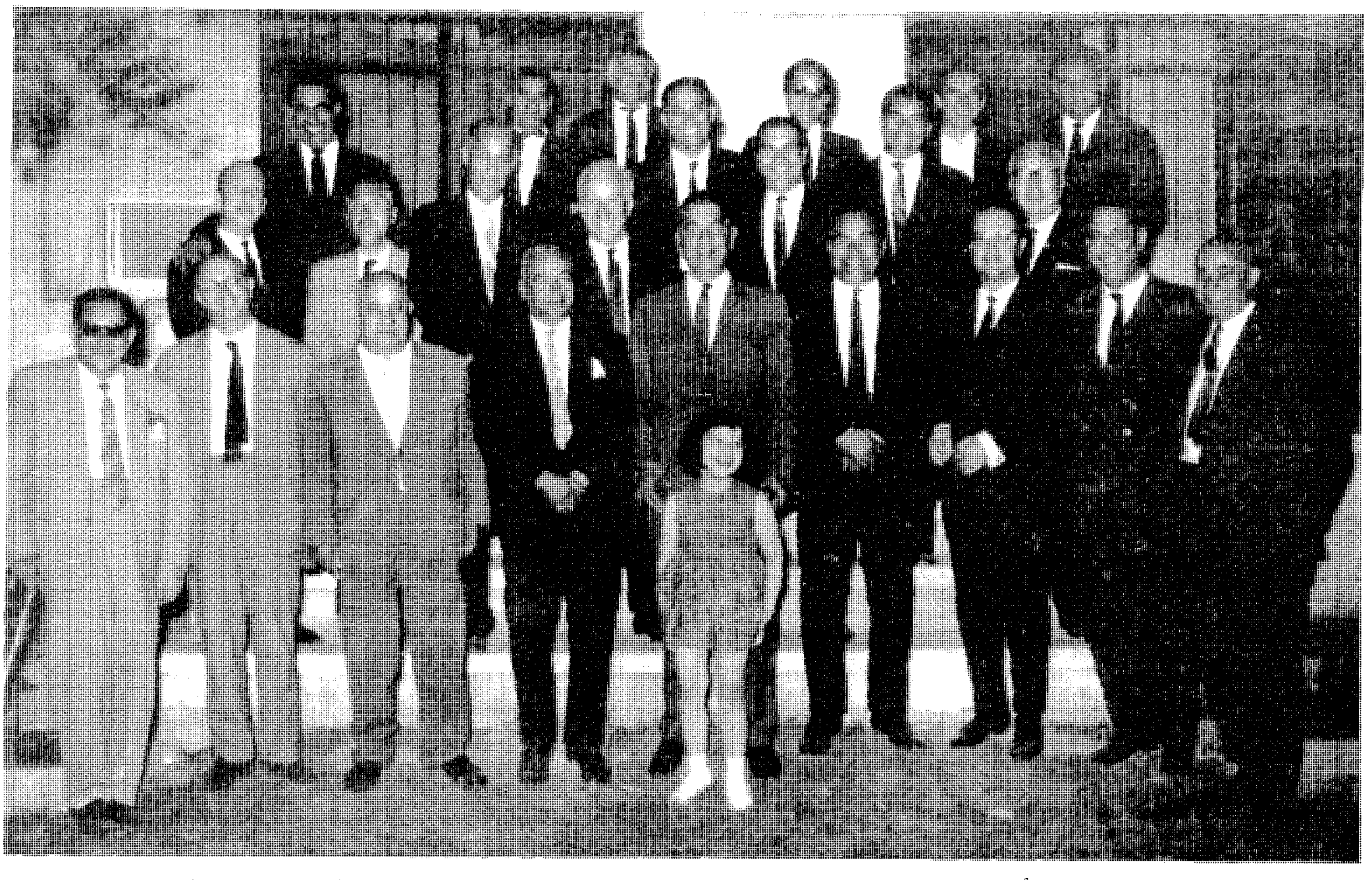
عطـا الخطيب



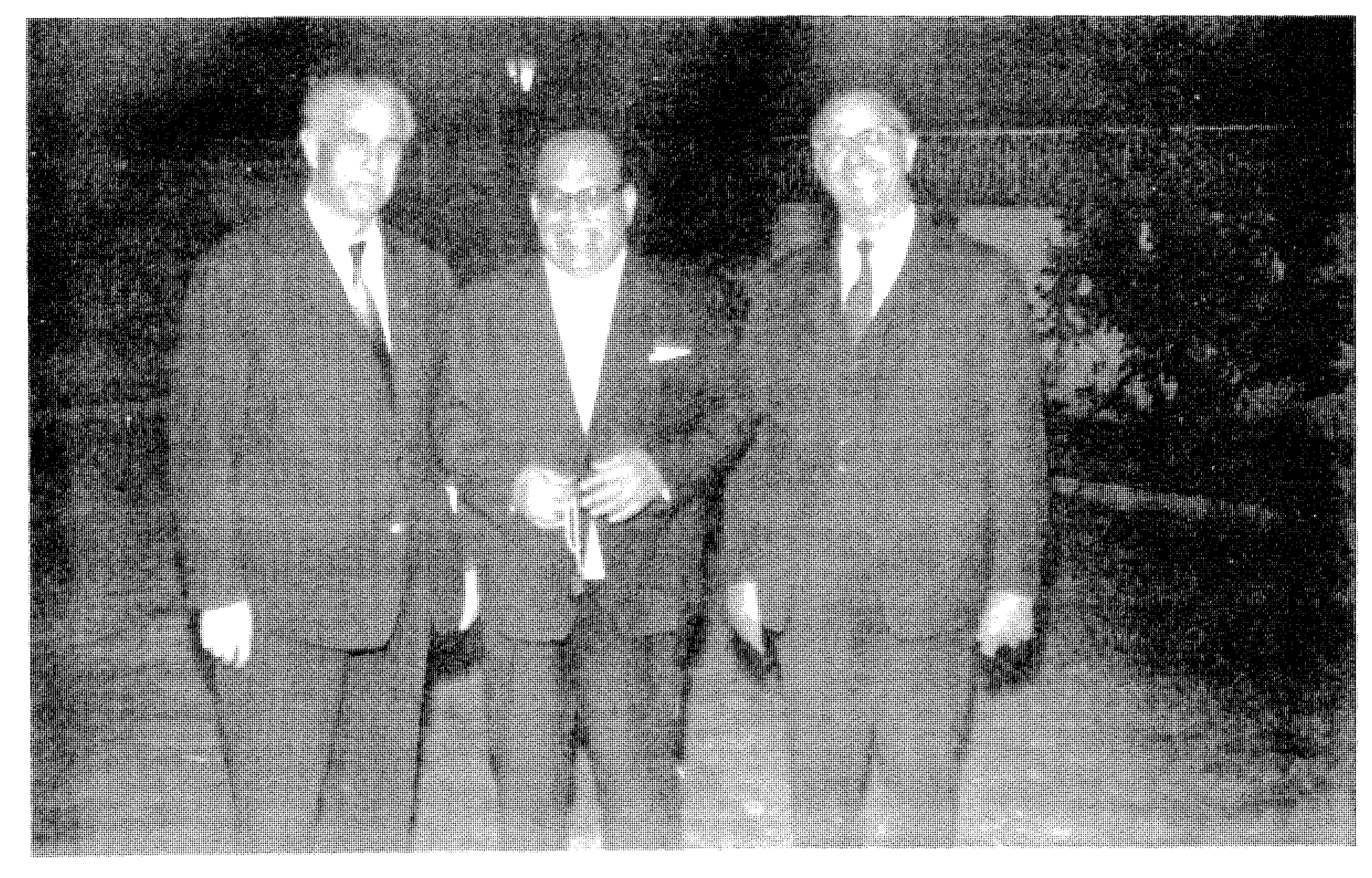
محمد السمــاوي



من اليمين اليسار : جعفر الخليلي ، عبد الرحمن التكريتي ، حافظ جميل ، مير بصري ،
عبد القادر البراك ، خالص خليل عزمي في دار الدكتور عبد المجيد القصاب (ـ سنة ١٩٧٢)



المؤلف في حفلة أدبية ببغداد وهو الثاني من اليسار (الصف الاول) والى يمينه الدكتور علي الوردي والى يساره الدكتور مصطفى جواد فجعفر الخليلي ففؤاد عبّاس ، وظهر أنور شاؤل الاول من اليمين في الصف الثاني (سنة ١٩٦٥)



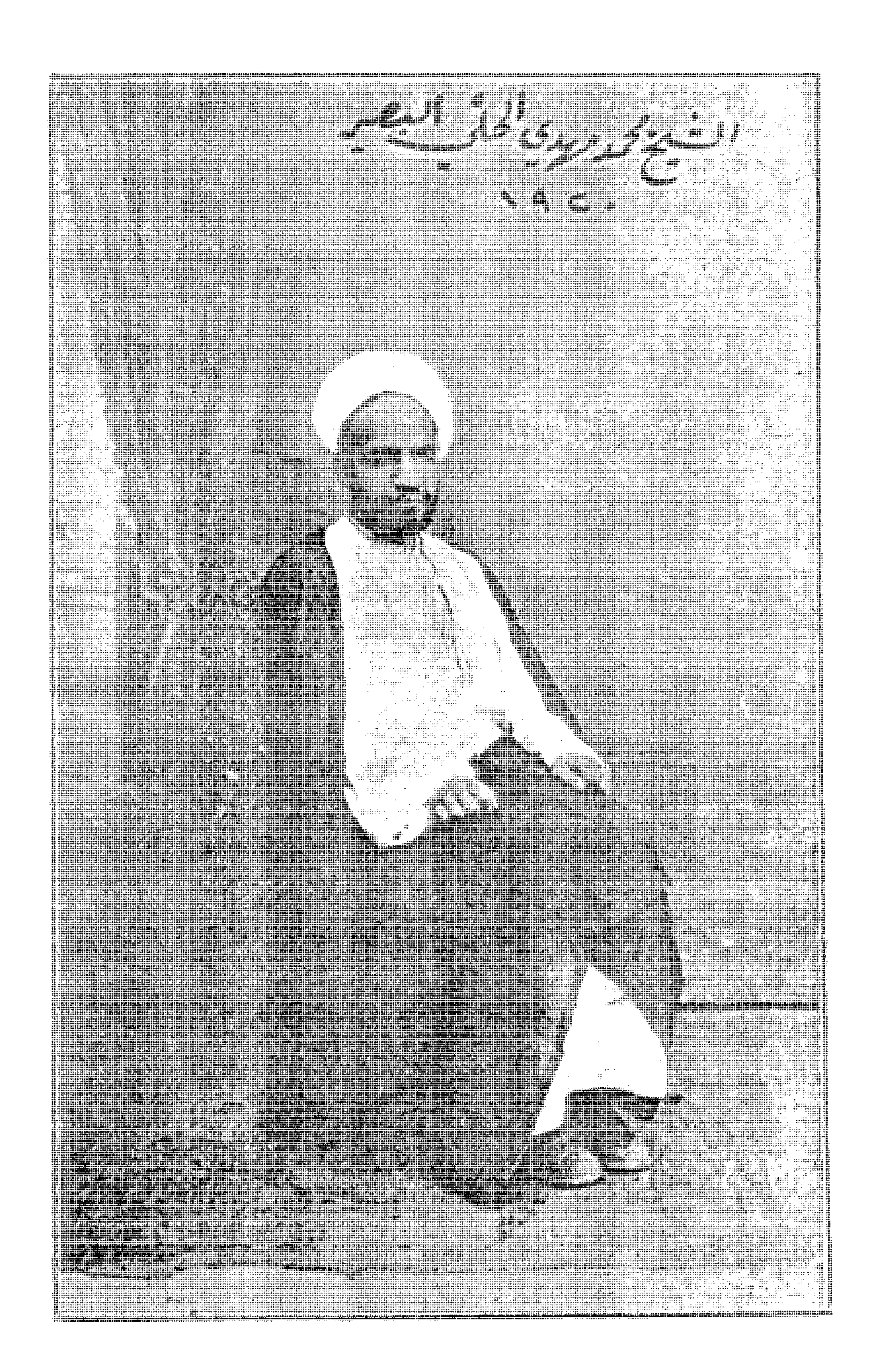
المؤلف مع الدكتور عبد اللطيف حمزة ، الاستاذ المصري ، وعبد القادر عيّاش الاديب المحامي من دير الزور في سورية



مير بصري يلقي قصيدته والى يمينه الحبيب نويره سفير تونس والى يساره الدكتور حمد الكبيسي عميد كلية الشريعة وذلك في حفلة الربيع على العشاء (رز بالباقلاء) في دار الدكتور القصاب بكرادة مريم ٢٠ نيسان ١٩٧٤



المؤلف في حفلة أدبية : الاول من اليمين ، ثم الدكتور أحمد سوسة ومشكور الاسدي وفؤاد عبّاس
(سنة ١٩٧٤)



محمد مهدي البصيـر



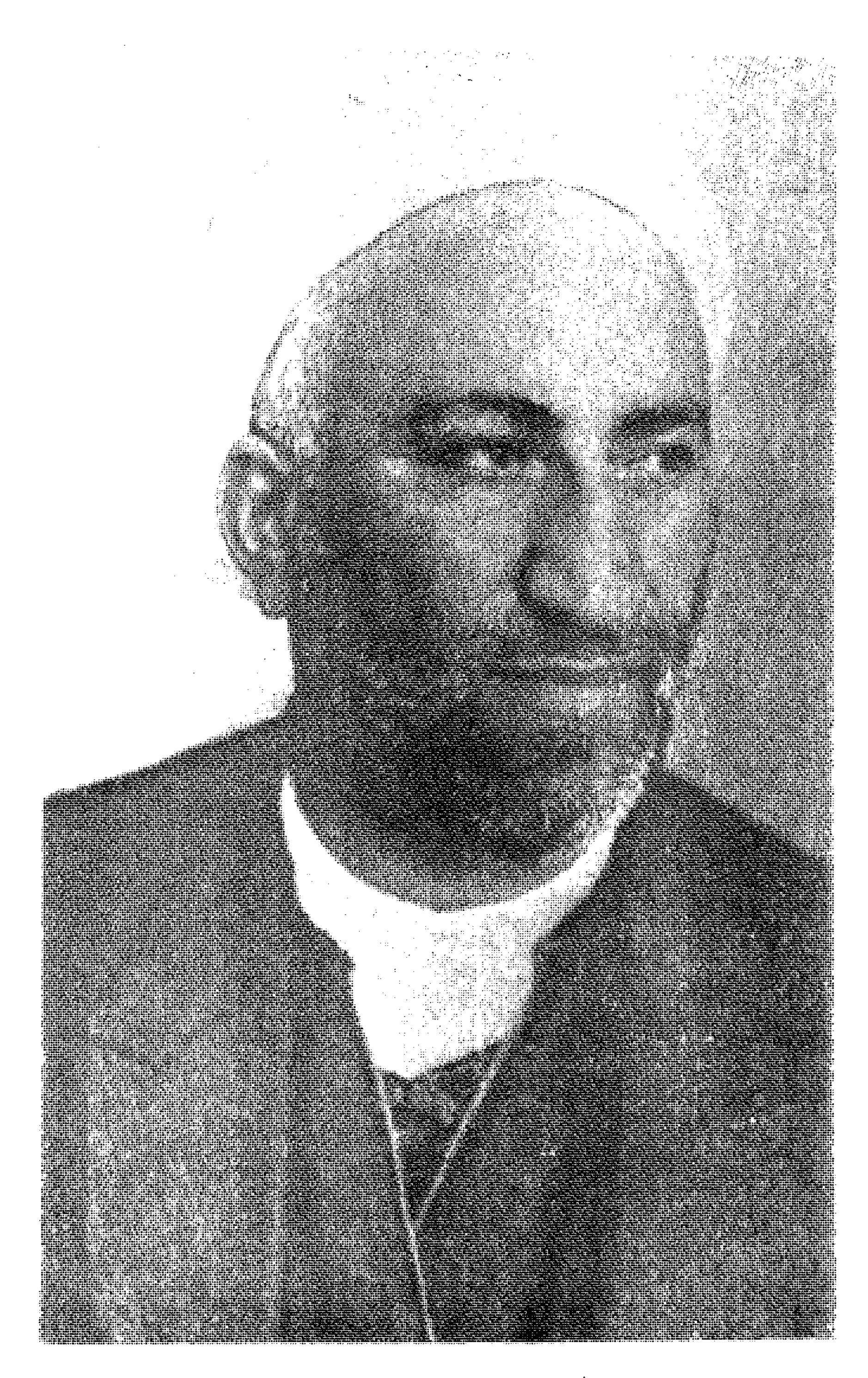
محمد حبيب العبيــدي



(من اليمين) محمد زكي رئيس مجلس النواب ، محمد رضا الشبيبي وزير المعارف ،
المرافق ، الملك غازي ، ساطع الحصري مدير الآثار العام (١٩٣٥) ، في افتتاح القصر العباسي



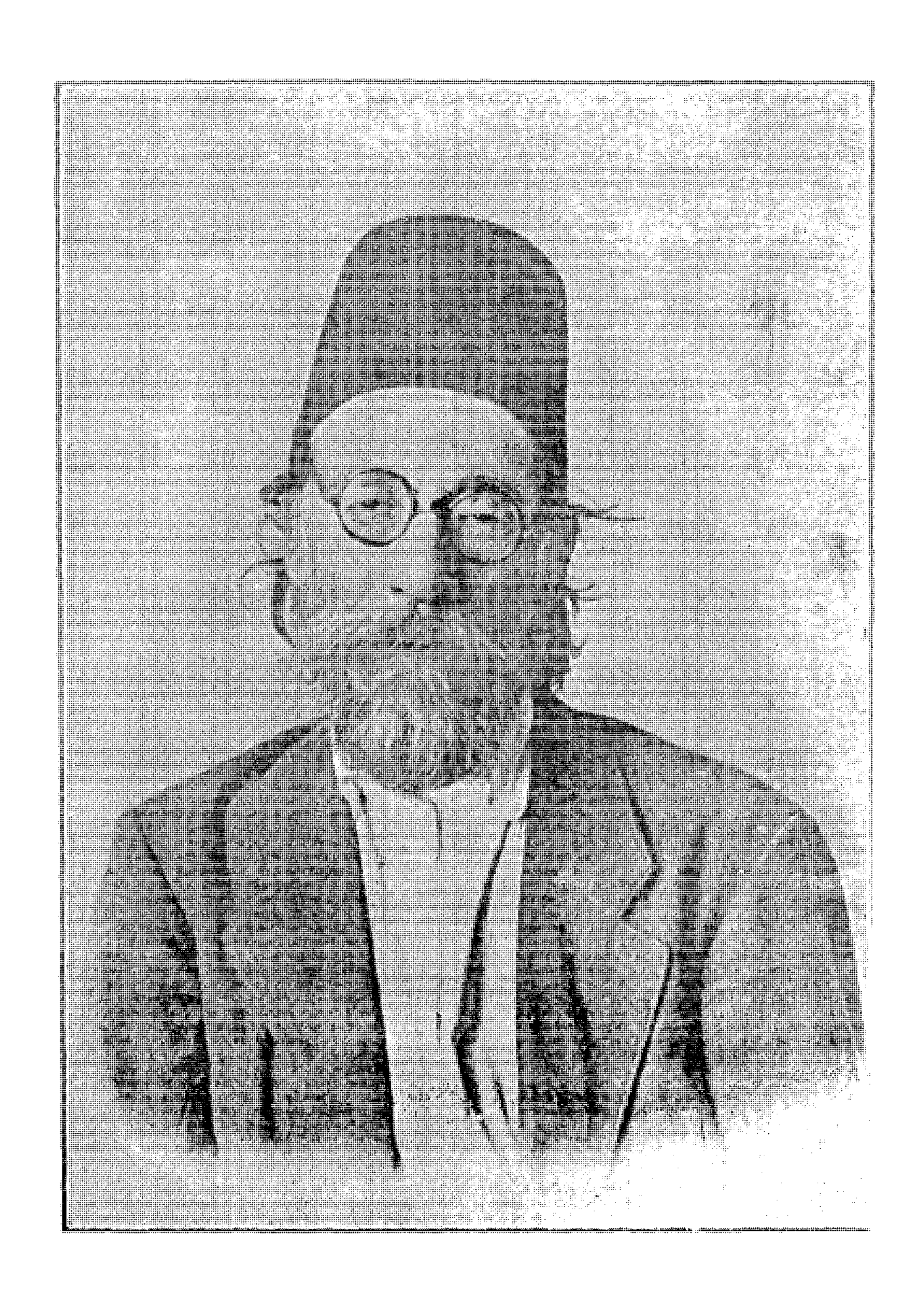
عباس العزاوي



الشيخ محمد رضا الشبيبي
(صورة اخرى له)



معروف الرصـــافي



جميـــل صدقـــي الزهاوي



الشيخ عـــلي الشرقـــي



رفائيل بطّي



الجسر القديم في بغداد

دار الخلافة في سامراء

The insurrectionists are subdued only through the intervention of the Divine Throne."

Of Ma'ruf al-Rusafi (1875-1945), Jurji Says that he is another Iraqi bard of note. "His Arabic has a desert twang, luring and captivating. "I prize my frankness in word and deed, loathing to brook hypocrisy. Never did I cheat another soul, or give my word deceitfully. Little think I that good accrues from holding truth in secrecy..".

"Al-Rusafi links poetical potency and manliness. Hence his invariable continence while writing an ode, on the assumption that his vitality goes into the creation of verse..."

Muhammad Ridha al-Shabibi (1889-1965) is another eminent poet of the period. Several times minister of Education, president of the Senate and the Chamber of Deputies, Prof. Jurgi depicts him, through the changing circumstances of his career, as having his dour religious allegiance remaining unshaken in the shi'ite tradition of his forbears. "His poetry is pietestic and devotional; he views the future with optimism and composure. Nonetheless, he opens his mind to certain scientific shibboleths as "The survival of the fittest", and , in the same breath, assails the contemporary manifestations of idolatry. In the final analysis, he takes refuge in the mighty fortress of fatalism, finding no obstacle therein to the progress of Arab Youth."

The book includes biographies of the eminent and less famous Iraqi poets and writers of the century, e.g. Ali al-Sharqi (1890-1964), Mahmud Shukri al-Aloussy (1857-1924), Fahmi al-Mudarris (1873-1944), Père Anastase - Marie al-Karmeli (1866-1947), Yusuf Ghanimah (1885-1950), Abbas al-Azzawi (1891-1971), Cardinal Ignatius - Gabriel Tappuni (1879-1968) and scores of others. Noted also are the two well - known popular vernacular poets Abbud al-Karkhi (1869-1946) and Hussein Qassam (1897-1958).

It also discusses the literature of the absurd, and concludes with the new wave of the neo-classical, symbolist, M.B. surreaslist and the so-called "free verse" schools.

(1788-1861), Edward William Lane (1801-1876), Henry Wüstenfeld (1808-1899), Rienhart Dozy (1820-1883), Theodor Nöldeke (1836-1930), Edward Henry Palmer (1840-1882) Ignatius Guidi (1844-1935), Ignaz Goldziher (1850-1921), Clement Huart (1854-1927), Edward Glaser (1855-1907), David Samuel Margoliouth (1858-1940), Edward Granvill Brown (1861-1926), Reynold Allen Nicholson (1868-1945), Louis Massignon (1883-1962), Sir Hamilton Alexander Gibb (1895-1971), Prof. Arthur John Arberry (1905-1969)...

* * *

The present book deals with the revival of Arabic literature in Iraq in the twentieth century. It covers all forms of literary arts; poetry, belles-lettres, history, theology and religion, the press, novel and shost story, etc.

Out standing among the poets of the Renaissance were Al-Zahawi, Al-Rusafi and Al-Shabibi. While adhering to the pure classical language, they introduced modern themes of nationalism, freedom of thought, education, emancipation of women, philosophical and ethical subjects, etc.

Prof. Edward J. Jurji, in his contribution to the Encyclopaedia of Literature edited by Joseph T. Shipley (New York, 1946) spoke of the new literary vision. He said, "Jamil Sidqi Al-Zahawi" (1863-1936), in his peculiar rhythm, contagious humour, prophetic tone and cynical style, blends the atheism of Umar al-Khayyam with the scepticism of al-Ma'arri. His "Thawrah fi al-Jahim" (Revolt in Hell), in 430 couplets, is illustrative of his luminous mind - He knows, but does not follow, Dante and al-Ma'arri.

The narrative opens when the angels Munkir and Nakir visit the poet as he rests buried in the grave. He parries their questions with the stock replies of a believing Moslem. Then he stalls:

"I believed, then denied.
Till they thought me a fickle man.
In truth, I am without the means
to say what my belief can be."

... Al-Zahawi's closing pictures of Hell introduce the character of Layla, bride of his verse, and her beloved Samir. A galaxy of bards... are also there. Scholars, scientists, philosophers, all that denied a hereafter, people of the region. One of these brilliant inmates invents a fire extinguisher, making possible the revolt against the custodians of hell.

Eminent Men of Letters
in modern Iraq.

A history of Modern Iraqi Literature
of the Twentieth century.

Foreword

The classical Arabic literature has had an unbroken history extending for fifteen hundred years since the pre-Islamic days known as the "Jahiliyah".

Many poets flourished in the deserts and oases of the Arabian Peninsula as well as in the towns of Yemen, Syria and Iraq, where small Arab principalities thrived.

The Ummayad Dynasty (661-750 A. D.) in Damascus and the Abbassids (750-1258 A.D.) in Baghdad saw long periods of literary regeneration, including poetry, language and grammar, philosophy, history, medicine and science and, of course, Islamic and religious studies. But the subsequent period, called the Era of Decline, extending to the midst of the nineteenth century, marked a decay of the literary arts.

The modern revival started in Egypt and Lebanon to be soon followed by Iraq, Syria and other Arab lands.

Many European Arabists have been interested in Arabic literature, wrote about its history and translated its jems into English, French, German, Russian and other western languages. Recent Arabic poetry, drama, novels and short stories were made available to world readers, and probably the culmination of Arabic literary achievement found its realisation in the award of the prestigious Nobel Prize to the Egyptian writer and novelist Naguib Mahfuz in 1988.

Of the orientalists who studied and wrote on Arabic literature we ought to mention Carl Brockelmann, author of extensive works on the subject. Other prominent Arabists in the last two centuries include George Sale (1680-1736), Antoine Silvestre de Sacy (1758-1838), Etienne - Marc Quatremere (1782-1857), George Wilhelm Freytag

Eminent Men of Letters in Modern Iraq
History of Modern Iraqi Literature in the Twentieth Century

by

Meer Basri

With a foreword and notes

by

Dr. Jalil al - Atiyyah



DAR AL-HIKMA

Publishing and Distribution

ISBN 1 - 898 209 - 405
الطبعة الأولى ١٤١٥ هـ - ١٩٩٤ م.

DAR AL-HIKMA
Publishing and Distribution



88 Chalton Street London NW1 1HJ. Tel: 071 - 3834037 / Fax: 071 - 3830116